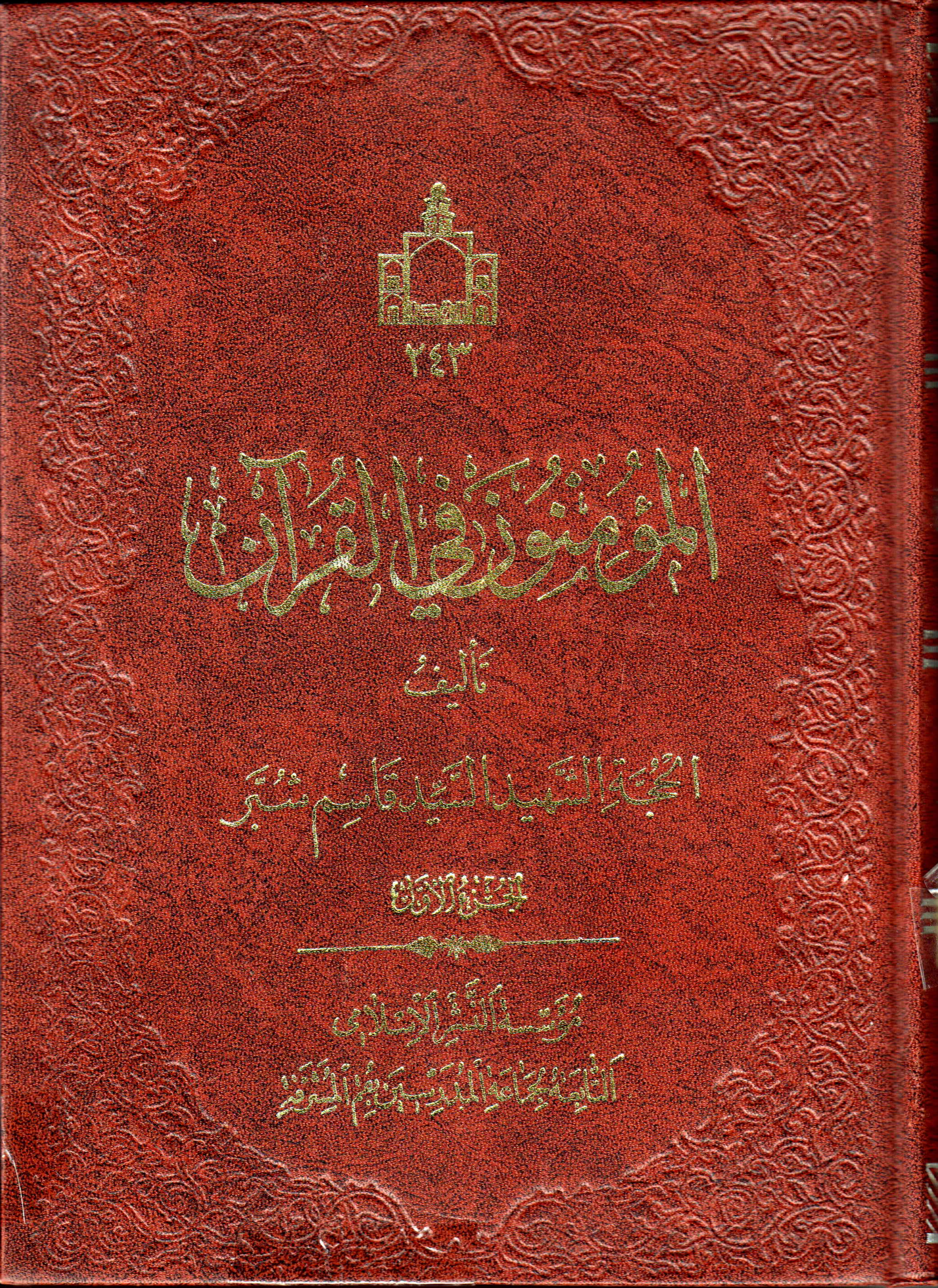

٢٤٣
المؤمنون في القرآن
تأليف
الحجة الشهيد السيد قاسم شبر
الجزء الأول
مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

المؤمنون في القرآن

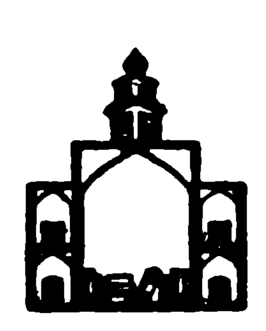
تأليف

الحجة الشهيد السيد قاسم شبر

الجزء الأول

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة





المؤمنون في القرآن
(ج١)

المؤلف : سماحة الحجة الشهيد السيد قاسم شبّر

الموضوع : تفسير

عدد الاجزاء : جزءان

تحقيق ونشر : مؤسّسة النشر الاسلامي

الطبعة : الثانية

المطبوع : ٣٠٠٠ نسخة

التاريخ : ١٤١١ هـ.ق

مؤسسة النشر الاسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله على آلائه الوافرة وأتمّ الصلاة وأزكاها على النعمة الظاهرة محمد المصطفى وعترته الطاهرة واللعنة على أعدائهم لعنة متواترة .

وبعد ، فقد حثّت الشريعة الاسلامية معتنقيها والمنتهجين سبيلها الى التفكّر والتدبّر في دستورها الأقدس ـ نعني القرآن الكريم ـ لتحقيق الغاية التي من أجلها انزل القرآن، ألا وهي تربية الانسان وبناء شخصيته بناءً ربّانياً نورانياً بعيداً عن الضلالة والغواية ، وهذا ممّا لا يخفى على من له أدنى مسكة واطّلاع في نصوص الشريعة ـ آيات وروايات ـ .

وممّا يسهل على الانسان ويعينه على التدبّر في قراءة القرآن الكريم كتب التفاسير التي كتبها علماء الاسلام و كشفوا بها النقاب عن وجوه الآيات الحسان وأزالوا الأصداف عن درر محكمات الفرقان . ومن جملة هذه الأسفار ما كتبه سماحة الحجة الشهيد السعيد السيد قاسم شبّر ـ قدس الله روحه ـ تحت عنوان «المؤمنون في القرآن» باسلوبٍ جزلٍ وسليقةٍ رائعة يتيسر لكل طالب تناول فوائده فجزاه الله عن الاسلام وأهله أفضل الجزاء .

وقد اعتنت مؤسّستنا ـ وتخليداً لجهود السيد الشهيد وإحياءً لآثاره ـ بطبع هذا الكتاب بعد تنقيحه واستخراج مصادره وجعله في متناول القراء الكرام، راجين من الله أن يزيد في عوننا، ويأخذ بأيدينا لما فيه رضاه، إنه نعم المولى ونعم المعين.

مؤسسة النشر الاسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

نبذة من حياة الشهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

اسرته :

آل شبّر من اسر العراق العلوية العلمية ، يتصل نسبها بالامام زين العابدين عليه السلام ، ذكرها البحاثة جعفر آل محبوبة فقال : «آل شبّر اسرة عراقية قديمة وهي من أقدم الطوائف العلوية القديمة في العراق وأعرقها في العروبة وأقدمها في الهجرة ، كان مقرها الأصلي في الحلّة الفيحاء ولم تزل بقيّتهم بها حتى اليوم وبها عرفت ومنها تفرعت »[1] .

وذكرها النسابة الشهير الداودي في كتابه: «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب » كما جاء ذكرها في : «بحر الأنساب » و«وشي النجف » وغيرها .

ولادته ونشأته :

ولد الشهيد السعيد السيد قاسم شبّر عام ١٣٠٨ هـ . ق في مدينة النجف الأشرف وكان الابن الثالث من أبناء السيد محمد شبّر[2]. وفي التاسعة من عمره توفي والده ، وفي نفس تلك السنة سلك طريق أجداده الطاهرين وأصبح من طلبة العلوم الدينية .

---

(١) الاسر العلوية : للبحاثة جعفر آل محبوبة .

(٢) خلف المرحوم السيد محمد شبر أربعة من العلماء وهم : السيدعلى والسيد ابراهيم والسيد المؤلف والسيد جعفر .

وفي جوار أمير المؤمنين عليه السلام وفي ظلال تلك الأجواء العرفانية ترعرع السيد المؤلف متزوداً من معين العلماء العذب ، فدرس على كبار العلماء من أمثال آية الله العظمى السيد أبو الحسن الاصفهاني وآية الله الميرزا النائيني ـ رضوان الله عليهما ـ وفي الأربعين من عمره انتقل الى مدينة النعمانية بوكالة من السيد الاصفهاني عام ١٩٣٥م ، ثم أصبح وكيلاً للسيد محسن الحكيم بعد وفاة الاصفهاني ، وبمجرد أن وصل اليها شمّر عن ساعديه وأخذ بلا كلل وملل يبلّغ رسالات ربه لاتأخذه في هذا الطريق لومة لائم ، متنقلاً من قرية الى قرية حيث استطاع الغور في أعماق المجتمع المسلم انطلاقاً من مسؤوليته الشرعية ، فكان حضوره قوياً فاعلاً حيثما حل ، فكان لهذا الكدح المستمر أثراً بالغاً في تغيير المجتمع هناك نحو الايمان والمفاهيم الاسلامية الأصيلة .

كان ـ رضي الله عنه ـ مثالاً للعالم العامل ، يزور مرضى مدينته ويساعد المحتاجين ويجيب على أسئلة المؤمنين . وكان مدرسة بما للكلمة من معنى بأخلاقه وتواضعه ومحبته للجميع ، كان أباً رحيماً عطوفاً على صغيرهم وأخاً وصولاً لكبيرهم حتى لقّبته مدينته بـ «أب النعمانية» .

سيرته اليومية في مدينته :

كان شهيدنا الغالي يستيقظ قبل الفجر بأكثر من ساعة يصلّي صلاة الليل وصلاة الليالي الواردة ، وبعد صلاة الصبح يعقب بقراءة القرآن والدعاء والاستغفار والتسبيح الى طلوع الشمس فيقوم ليفتح غرفة الاستقبال « الديوان » ثم يعود الى مكتبته لينهل من علوم القرآن والسنّة الشريفة وعلوم آل البيت الأطهار عليهم السلام ليفيض بها على جموع المؤمنين ، وما بين فترة واخرى يذهب الى «الديوان» ليجيب على الأسئلة ويصلح بين المتخاصمين ويحلّ المنازعات . وهكذا يستمرّ في الحضور الى صلاتي الظهر والعصر حيث يصلّيهما في المسجد الجامع ، و يجلس بعد أدائهما أيضاً

لقضاء حوائج المؤمنين، ثم يعود بعد ذلك الى البيت لتناول الغداء وأخذ قسطاً من الاستراحة، وفي الثالثة عصراً يفتح باب الديوان ويجلس فيه مرحّباً بضيوفه فيتحدث معهم أحاديثه الاسلامية الشيّقة وخصوصاً مع الشباب الرسالي الذين يلتقون به يومياً لينهلوا من نميره الصافي ويتسلّحوا من وعيه الاسلامي الأصيل. وهكذا بعد أداء صلاتي المغرب والعشاء الى فترة متأخرة من الليل.

نشاطات اخرى :

١ـ يذهب سيدنا الشهيد كل ليلة جمعة الى كربلاء لزيارة سيد الشهداء الحسين عليه السلام حيث كانت له علاقة شديدة ومحبة فريدة في قلبه ، بحيث وجد مع كفن الشهيد كيساً كتب عليه : هذه المناديل تنشر على صدري و كتفي في القبر لأنني جففت بها الدموع التي جرت على الامام الحسين عليه السلام .

٢ ـ كان لسيدنا الشهيد ـ رضي الله عنه ـ إشراف على المواكب الحسينية بواسطة بعض الشباب المؤمن الملتزم ، فكان ـ رضوان الله تعالى عليه ـ يكتب لهم الكلمات ليلقوها على مواكبهم .

٣ ـ كان سيدنا الشهيد ـ قدس سره ـ يتابع الأخبار المحلّية و العالمية باستمرار ويطالع جريدتين كل يوم بالاضافة الى بعض المجلّات الاسبوعية الشهرية إيماناً منه بأنّ العالم الاسلامي ينبغي له أن يتابع أحداث العصر ويكون مجسداً لقول المعصوم عليه السلام : العالم بزمانه لاتهجم عليه اللوابس.

مؤلفاته :

كان لسيدنا الشهيد ـ رضي الله عنه ـ عدة مؤلّفات مخطوطة و لكنها صودرت أثناء الغزو الهمجي الذي قام به أتباع عفلق الصليبي على دار السيد وعلى مكتبته إذ أحرقوا الكتب النفيسة و سرقوا ما وجد فيها من مخطوطات له و لغيره من علماء الاسرة .

و لم يخرج من كتبه الى الطبع إلا كتابه هذا : « المؤمنون في القرآن» الذي كانت بداياته دروساً في الآيات الشريفة المبيّنة لصفات المؤمنين والتي كانت يلقيها على شباب مدينة النعمانية . ضمّها في سبعة أجزاء طبع منها ثلاثة أجزاء وسرق العفالقة المجرمون الأجزاء الأربعة الاخرى في هجومهم المذكور .

و بذل المؤلف الكثير من الجهد لتحصيل موافقة الحكومة العفلقية على طبع الكتاب ، فعندما قدّم الجزء الثالث للرقابة أمرت وزارة الاعلام العفلقي بسحب كتابه من الأسواق ، وبعد محاولات متواصلة وافقت الوزارة المذكورة على طبعه بشرط حذف الكثير من مواده التي تهاجم اليهود والنصارى والأحزاب الفاسدة والحكّام الظلمة . و قد أطلقت الوزارة العفلقية سراح الكتابين بعد أن حذفت بعض الجمل من الجزء الثاني .

ومن جملة هذه المحاولات ما حصل مع وزير الاعلام العفلقي آنذاك وهو حامد علوان الجبوري حيث أرسل له السيد المؤلف برقية حول طبع كتابه : «المؤمنون في القرآن» فتجاهلها الوزير المذكور، فأرسل برقية اخرى جاء فيها: «لقد أرسلت لك برقية حول كتابي: المؤمنون في القرآن الذي حجز دون مبرر بعد أن وافقت وزارتكم على طبعه ، و لكنّك تكبّرت عن الاجابة ، فإن كان تكبّرك بعشيرتك فعشيرتي أشرف وأفضل من عشيرتك أنا من أبناء رسول الله ، وإن كان تكبّرك بالوزارة فإنها و الله ثوب عارية سوف يؤخذ منك يوماً ما ، وما أطلبه إما أن تطلقوا كتابي أو تدفعوا اليّ ما صرفته في طريق طبعه لأطبعه في دولة اخرى.فإن امتنعت عن هذا وذاك لأسهرنّ ليلي واصومنّ نهاري حتى يحكم الله بيني و بينك .

منهجه في التفسير :

كان منهجه في التفسير هو ذكر آراء بعض المفسرين من الفريقين حول بعض

الآيات ثم يقوم بعد ذلك بتفسيرها بنفسه ، و كثيراً ما كان يردّ على آراء بعضهم ويفندها .

مواقفه من الحكام الظلمة وأعوانهم :

عرف سيدنا الشهيد أنه منذ أن حطّت رجله أرض النعمانية لم يسجل له التاريخ أنه خاف أو تراجع عن مقارعة الظالمين والكافرين والملحدين والمنحرفين من أيتام الاستعمار الغربي وأيتام الاستعمار الشيوعي والصليبيين أصحاب الأفكار القومية التي صنعتهم جامعات السوربون وبريطانيا وأمريكا ومن لفّ لفّهم .

لقد تسلّح هذا الرجل العظيم أبان المدّ الشيوعي في سنة ١٩٥٩ و حمل السلاح بوجههم واضعاً إيّاه تحت رأسه ، وكان يجهر على المنبر بفضحهم و كفرهم وصنع الشبيبة المؤمنة الواعية التي حاولوا أن يجروها الى الانحراف والالحاد، وحاولوا أن يغزوا بيته وشكّكوا في خطواته ولكنّه كان متمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، فذهبت حربهم ودعاياتهم وأساليبهم الشيطانية أدراج الرياح . فكان ـ رحمه الله ـ يذهب الى القرى والأرياف لينبّه الناس من غشّ الملحدين وطرقهم .

١ـ أيام عبدالكريم قاسم :

كان ـ قدس سره ـ أيام عبدالكريم قاسم وطغيان الشيوعيين يعري الشيوعية أيّما تعرية ، فعندما زاره الشيوعي «ماجد محمد أمين» المدعي العام لمحكمة الشعب كان مع ماجد أكثر من مائتين من رؤساء الدوائر ومن شيوعيي المنطقة، وكان ماجد في تلك الأيام أحد الأقطاب الكبار في الدولة ، فكان السيد ـ رحمه الله ـ يوجه انتقاداً شديد اللهجة للحكومة القاسمية التي أطلقت العنان للشيوعيين الأقذار، ثم بدأ يعدد جرائم الشيوعيين وماجد محمد أمين أحد أقطابهم آنذاك ، حيث جاء هذا الأخير يطلب من السيد عدم التعرض للسلطة قائلاً حول هذا الموضوع: إنّ الزمان

تطور و إن المرأة يجب أن تساوي الرجل في الحقوق كلها ومنها المواريث ، فأجابه السيد بكلام المؤمن الناطق عن الله قائلاً : إنّ عمل عبدالكريم قاسم هـو بداية التفرعن، فعندما قال فرعون : «أنا ربكم الأعلى »أغرقه الله تعالى، والآن يحاول عبد الكريم قاسم أن :يقول أنا ربكم الأعلى بمخالفة القرآن الكريم .

وأضاف : أبلغ لي رئيسك ـ ويقصد عبدالكريم قاسـم ـ لو كان الأمر كما تقولون لجاء في الذكر الحكيم : (للرجل مثل حظّ الانثيين الى زمن عبدالكريم) فكان ماجد يعتذر مروغاً كالثعلب ، أما الشيوعيون الذين جاؤوا معه فكانوا باهتين لما يتحدث به السيد وكيف يتحدى شخص ما جده ورئيسه ! !.

وهكذا بجهود العلماء ومواقفهم الباسلة وفتاواهم وتنبيههم الشعب العراقي وقى الله شعبنا المدّ الأحمر الملحد .

٢ ـ أيام البعثيين :

أ ـ إنّ الاستعمار البغيض بعد أن أتى بالشيوعية الملحدة وعملت ما عملت من جرائم و فساد جـاء بثوب جديد تحت غطاء الحرية والوطنية و عـدم محاربة الدين والاستقلال ، ولكن كما نعلم أنّ الاستعمار هو عدونا من أيّ مكان انطلق وفي أيّ أرض نزل ، فجاءت طغمة عفلق الماسوني ربيب الصهيونية والاستعمار وعدوّ الاسلام جـاءت الى الحكم بتخطيط السفارات و إشراف قوى الاستكبار العالمية والتبشير المسيحي ، جاءت لتخلق قابلية خاصة عند المسلمين في التقارب مع الغرب وتدجينهم على عدم رفضه والخضوع له ، جاءت هـذه الزمرة الفاسدة لتعيد مأساة الشيوعيين في العراق بل تزيدها أضعافاً مضاعفة .

فبدأت زمرة عفلق بتدمير الحوزات العلمية بأفكار التقاطية وتفضيل القومية على الدين واتهام المؤمنين وزجّهم في المعتقلات الرهيبة وإعدامهم وتشريدهم ، بدأت هذه الحرب تدريجياً وتدخلت السلطة في كل شيء وفي الشعائر الدينية والمواكب الحسينية ، لكن الشعب وقف بوجه هذا الطغيان والاعتداء وأعطى الشهداء والقرابين

على مذبح إعزاز الاسلام و شعائره وتأزم الوضع شيئاً فشيئاً حتى وضعت السلطة الجواسيس والعيون على كل مدرسة دينية وعلى كل مسجد وحسينية وعلى بيوت العلماء ، وأعلن صدام الكافر بأنّ حزبه ليس حزباً دينياً ، أي بعبارة اخرى أنهم أوضحوا علمانيتهم و عدم اعترافهم بالدين إلّا بماينسجم مع أهوائهم ومايستعمل منه لغرض تحقيق غاياتهم .

ثم إنه بناءً على مخططاتهم العدوانية وكما قالها عفلق في أحد أدبياته سنة ١٩٥٤ م : لاينجح حزب البعث في العراق إلّا بإجراء تغيير في نسبة الشيعة وهم الكثرة الكاثرة من المسلمين في العراق ، وبدأ هذا المخطط الرهيب ينفذ في السبعينات.

وقد تصدى السيد ـ قدس سره ـ لهذه العملية لأنه أدرك خطرها وقال في ديوانه لمدير الأمن و محافظ الكوت : إنني والله أتألم في هذا الزمان على طائفتين : على الفلسطينين الذين يهجرهم اليهود وعلى المسلمين في العراق الذين يهجرهم النظام لحجج واهية يراد منها تثبيت قدم الكافر . فردّ عليه المحافظ : يا سماحة السيد : إن الفلسطينين يخرجون من بلدهم و هؤلاء ايرانيون ليس لهم بلد وهذا ليس وطنهم . فقال السيد : قل لمسؤوليك : ومتى كان عفلق عراقياً بل حتى اسمه تربة العراق تستنكف منه .

ب ـ زاره محمد محجوب ـ الوزير البعثي المعدوم ـ مع مجموعة من مسؤولي الحزب و الأمن في بغداد ومحافظة واسط و أهدوا اليه مجموعة من كتب البعث كان من ضمنها كتاب «في ذكرى الرسول العربي» لميشيل عفلق و كانت المناسبة ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأمر السيد، خادمه أمام أعينهم أن يضع هذه الكتب في موقد القهوة وأن يحرقها ، فخاف الخادم فقام السيد بنفسه وأحرقها أمام أعينهم واصفرت وجوههم وخرجوا مذعورين غير مصدقين .

و قال مسؤول الحزب الخبيث مكي نصيف الجمجي و أنا اهو خائف :نك البار ، فقال السيد : أيّ بار هذا الذي تتحدث عنه ؟ أهو بار الخمور الذي فتحتموه

في نادي النعمانية لتفسدوا أبناءها .

ج ـ خاطب السيد ـ رحمه الله ـ قائم مقام مدينته معلّقاً على حوادث الاعتقالات التي يقوم بها الحزب بقوله : هل أنت موظف عند حكومة أو عند عصابة ؟ فأعمال حكومتك لا تختلف عن أعمال العصابات ، الحكومات تحاكم مواطنيها علناً وحكومتكم كالعصابات تعتقلهم ليلاً وتحاكمهم سراً وتشبعهم تعذيباً وقهراً .

د ـ حاول البعثيون وتنفيذاً لمخططهم في إفساد الشباب أن يجعلوا من بيع وشرب الخمور ظاهرة عادية وطبيعية لا يستنكرها أحد، ففتحوا في نادي النعمانية التابع للموظفين باراً لبيع الخمور بعد أن كان بيع الخمر يتمّ بطريقة سرية وكان بمقدور كل المدمنين الحصول عليه من مصادره في الكوت وغيرها من المدن التي يباع فيها الخمر علناً ، و لكن لأجل تحدي مشاعر المسلمين فتحوا البار ، فلمّا علم المرحوم بذلك أخرج مظاهرة حاشدة بقيادته، ممّا اضطرت الحكومة الباغية الى غلق جميع البارات في البلدة وتلقين البعثيين درساً بليغاً .

هـ ـ نصبت السلطة البعثية قائم مقاماً جديداً لمدينة النعمانية، وكانت عائلة هذا القائم مقام متبرجة متهتكة ولم تألف النعمانية التبرج في يوم من الأيام لطبيعتها الاسلامية المحافظة ،وكانت بنات القائم مقام يذهبن الى المدرسة في كل يوم مخترقات المدينة من أقصاها لأنّ بيت القائم مقام في الطرف الشرقي والمدرسة في طرفها الغربي، وأثار هذا الموضوع استياء الناس وغضبهم، وكان السيد الشهيد ـ رضوان الله تعالى عليه ـ يراقب الوضع ويفكّر بوضع علاج حاسم له منتظراً الوقت المناسب، وحانت الفرصة وجاء الوقت المناسب .

فلمّا زار القائم مقام السيد ـ رحمه الله ـ للتعرف عليه استقبله السيد بفتور شديد ، ولمّا حان وقت ارتقائه المنبر بدأ حديثه عن الحجاب وأهمّيته لحفظ المجتمع ثم أشار بيده الى القائم مقام ـ وكان هذا جالساً الى جنب المنبر بفاصلة قليلة جداً ـ وقال: إنني أعجب من هذا المسؤول الذي من المفروض أن يعلّم الناس

الأخلاق والشرف أراه وقد جاء ببناته سافرات متبرجات ليفسدن الشباب . وما كان من القائممقام إلّا أن طلب من مسؤوليه أن ينقلوه من مدينة النعمانية وفعلاً تمّ نقله بعد أيام قليلة .

و ـ عندما أصدر كتابه «المؤمنون في القرآن» كان يؤكد على هـذه الآية الشريفة «ومن يتولّهم منكم فإنه منهم . . » ويقول مبيّناً معناها : كيف أنّ تولية النصارى واليهود من قبل المسلم تخرجه من إسلامه وتجعله تابعاً الى هؤلاء الذين وبّخهم الله ؟

وكان يؤكّد دائماً على المنبر قائلاً : «آه، أيها المسلمون، إنّ المسيحيين هم خدم اليهود وأنتم أصبحتم خدم الى المسيحيين ، واذلّاه ، ما نزل بكم».

وكان دائماً يكرر في خطابات الجمعة دعوته في التخلّص من الحكم العفلقي والوقوف بوجهه الذي يريد أن يسلخ هوية الشعب الاسلامية ، وكان ذلك يجري بحضور العيون والجواسيس وكاميراتهم ومسجلّاتهم بلا مبالاة. وكان ـ رضوان الله عليه ـ يقول عندما يخبرونه بذلك : نحن لانخاف منهم لأننا مع الله .

ز ـ كثيراً ماكان يعظ الناس ويرشدهم بعد ذكر قوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . .» ويقول: إنّ الحزب الذي يتزعمه نصراني من امّ يهودية ليس حزباً إسلامياً ولاعراقياً ، ومن يقوله منكم فهـو يهودي أو نصراني ، فحزب البعث يا أولادي يتناقض كلياً مع الاسلام ، فالمسلم يقتـدي بمحمّد صلى الله عليه وآله والبعثي يقتـدي بعفلق والعيسمي والياس فرح ومنيف الرزاز.

وكان يقول عندما يتلو قوله تعالى «يوم ندعو كل اناس بإمامهم» : سيدعى يوم القيامة بالبعثيين والشيوعيين فيقال: يا جماعة عفلق احضروا للحساب ويا جماعة لينين وستالين احضروا للحساب ويا جماعة محمد صلى الله عليه وآله احضروا للحساب ، فكونوا أيها الناس من جماعة محمد ولاتكونوا من جماعة الكفرة الفجرة .

علاقة السيد الشهيد بالشباب المؤمن :

كان للسيد ـ رضي الله عنه ـ علاقة أبوية وطيدة مع الشباب المؤمن ، فكان يرعاهم ويحرص عليهم لأنهم في نظره مادة الاسلام الحقيقية، الأمر الذي جعله يردّ بعنف على من أشار اليه في قصة اعتقاله بأن لا يتأثر وينساق وراء قناعات الشباب الجالسين حوله .

وكان السيد لا يتحرك بأمر مهمّ إلّا وللشباب فيه نصيب إيماناً منه بأنه لا بدّ وأن يربيهم على المشاركة وتحمل المسؤولية ، فعندما ذهب ليبايع الشهيد الصدر ـ قدس سره ـ كان الشباب في طليعة موكبه المقدس ، وعندما يفكّر بإقامة حفل أو إدارة موكب حسيني يوحي الى بعض منهم بإلقاء الكلمات والتصدي لادارة امور الموكب وتوجيه الناس . ولهذا كانت وسائل أمن صدام تخشى كثيراً من ذلك لأنه كان ـ رضوان الله عليه ـ يدفع الشباب ويشاركهم في جميع الأعمال وكأنه واحد منهم وهو قد قارب التسعين .

أرسلوا اليه أن يتخلّى عن الشباب بحجة أنهم قد يسببون له مشاكل هو في غنى عنها ، فقال: إنني لن اتخلّى عن هؤلاء ، إنهم مادة الاسلام وبهم تخدم قضيتنا وندافع عن ديننا وهم طاقة عظيمة لا توجد لدى الشيوخ .

واذا تمعّنا كثيراً في نظر السيد العميق الى الشباب وجدناه مدرسة تريد أن تستمر في البناء وتعتمد على المقومات الحقيقية فيه، فها هو رده لمن أشار إليه بأن يطرد ما أسموهم بـ «الزعاطيط» وإلّا فسوف يقاطعون مجلسه ، فقال بالحرف الواحد : إنّ هؤلاء الشباب قدموا للاسلام خدمة لم تقدموها أنتم منذ أربعين سنة و ما أنا بطاردهم ، واذا لا يعجبكم ذلك فأنا في غنى عنكم فلا تأتوا .

هذا إضافة الى أنه ـ رحمه الله ـ أشرف على تربية طلّاب المدارس بواسطة المعلّمين والمدرسين الذي حضنهم ثقافياً .

علاقة الشهيد شبر بالشهيد الصدر :

علاقة سيدنا الشهيد بالامام الشهيد الصدر علاقة قديمة ومتينة تمتدّ الى زمان آية الله العظمى السيد محسن الحكيم ،وتطورت العلاقات أكثر فأكثر بمرور السنين فقام سيدنا بزيارة الشهيد الصدر عدة مرات في بيته، وقام الشهيد الصدر بزيارة السيد قاسم شبّر أثناء وجوده في مدينة النجف عدة مرات ، وكان أغلب أحاديثهما حول جرائم النظام البعثي باعتقال العلماء والمؤمنين وحملات التسفير والتعريض للمواكب الحسينية وغيرها من المواضيع .

وبإمكانك أن تلاحظ العلاقة الحميمة بين الشهيدين السعيدين من خلال الكلمات المتبادلة بينهما أثناء مواكب البيعة للشهيد الصدر ، وكان موكب أبناء النعمانية في طليعة تلك المواكب ، و كان السيد قاسم شبّر يتصدر الموكب الذي قطع شوارع النجف مردداً :

يا إمام الدين يا قائدنا	يا فقيه العصر يا سيدنا
نحن جئنا لنجدد عهدنا	سيدي نفديك روحاً ودما

ودخل موكب المؤمنين دار السيد الشهيد الصدر مبايعاً وهو يهتف :

سيدي هذي جموع المؤمنين، سيدي قدعاهدتك وعلى طول السنين ، سيدي جئناك زحفاً حامدين صابرين، أنت نبراس الوجود في الحياة وسنبقى مخلصين .
وغيرها من الهتافات .

وتقدم ابن التسعين ـ عمّار العصر ـ وهو الشيخ الكبير والفقيه العالم بكل تواضع وإخلاص ،ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون ، تقدم يبايع الشهيد الصدر بقوله بالحرف الواحد : لقد جاء وفدنا ليجدد العهد بكم ويرجوكم البقاء هاهنا وهم مطيعون لكم و لجميع أوامركم يأتمرون بها و ينتهون عمّا نهيتم عنه ،

وأنتم القائد الأكبر وإن شاء الله يمتثلون جميعاً ما تأمرون به ، وهم يرجونكم البقاء في العراق غير هذا لايرجون ، وهذه الزيارة جاءت من أجل إبلاغكم بهذا الأمر .

وبعد انتهاء كلمة السيد أجاب الامام الشهيد بقوله : إنه ليسعدني أن اعبّر عن شعوري تجاه عواطفكم وتجاه عواطف الاخوان والأحبة والمؤمنين . وهذا ليس غريباً عنكم هذه العواطف وهذه المشاعر ، فأنت من قادة الاسلام وفي علماء الاسلام ومن المنارات التي نعتزّ بعلمهم وبمؤلفاتهم وبفضلهم وبجهادهم ، ونسأل الله أن يحفظك ياسيدنا سنداً وذخراً لي وللاسلام وللنجف وللطائفة بجاه محمد وآله الطيّبين الطاهرين .

ثم يلتفت الامام الشهيد الى الشباب مخاطباً :

أمّا الأبناء والأعزاء فأنا اعبّر لهم كما يعبّر الأب بالنسبة الى أبنائه ، اعبّر لهم عن شكري واعتزازي وأقول لهم إني إن شاء الله لا افارقهم وأكون معهم في مساوىء الدهر ومحاسنه، وأسأل الله أن يرعاهم ويجمعنا معهم على التقوى والطاعة والرضوان وخدمة الدين الحنيف إن شاء الله تعالى .

ويلتفت اليهم الشهيد السيد قاسم شبّر قائلاً :

وأنا أرجو منهم أن يكونوا مؤمنين كما وصفهم الله، حبّب إليهم الايمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، اذا صاروا بهذه الصفة سوف ننتفع منهم انتفاعاً كثيراً إن شاء الله والاسلام ينتفع بهم .

فخاطبه الشهيد الصدر بقوله : بهمّة مساعيكم وتوجيهاتكم .

علاقة الشهيد بالثورة الاسلامية :

عندما قامت الثورة الاسلامية المباركة بقيادة وارث الأئمة الامام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ كاد السيد أن يطير فرحاً ، ووظّف نفسه في سبيلها وأخذ يلقي المحاضرات في المدن والقرى والأرياف وفي الصحن الحسيني الشريف

للتعريف بالثورة الاسلامية وقائدها العظيم و وجوب مساندتها من قبل المسلمين والبيعه لقائدها .

وأرسل سماحته برقية الى الامام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ بايعه فيها وهنّأه بالثورة قائلاً : إنني جندي عندكم . والكل يعلم كيف أنه بعد أن حمى الوطيس بين الشعب العراقي المسلم المؤيد للثورة الاسلامية في ايران وبين الحكومة البعثية الكافرة ، كيف أنّ السيد استمرّ بمحاضراته التي تشرح مبادىء واسس الثورة الاسلامية المباركة .

و أرسل السيد برقية اخرى باسمه وباسم مدينته بمناسبة التصويت لصالح الجمهورية الاسلامية في ايران ولكن عصابة البعث رفضت ارسالها ، فطلب من أحد معارفه في دولة الكويت أن يرسلها منها فاعتذرت الامارة بحجة عدم وجود صاحب البرقية في أراضيها[1] .

ومما جاء في برقية مسجلة على شريط تسجيل بصوت الشهيد للامام الخميني ـ قدس الله روحه الطاهرة ـ قال :

كان الابتداء بكم والاكمال بظهور المنتظر إن شاء الله، وإني وأهل منطقتي وسائر المسلمين نهنئكم بطرد الشيطان الرجيم والتغلّب على مردته ،ونهنئكم ثانياً بانتخاب الامّة الجمهورية الاسلامية .

و في إحدى المقابلات التي جرت مع الشهيد من قبل المؤمنين أجاب السيد على السؤال الذي وجّه اليه وهو :

ما هو شعورك بانتصار الثورة الاسلامية وفرار الشاه ؟

قال ـ رحمه الله ـ : يجب عليّ وعلى كل مسلم أن نقول كما قال الله تعالى : «جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً » وهذا من فضل الله علينا حيث

(١) كما حصل بالضبط لبرقية الشهيد السيد قاسم شبر التى أراد أرسالها الى السادات المقبور بعد زيارته لفلسطين المحتلة .

أهلك الله هذا الطاغية وأراح المسلمين منه ، فإنه قد أفسد عليهم دينهم و عزّهم ، وغمرهم بالفسق والفجور من رجال ونساء ، وسلّط عليهم الأشـرار ، فأهلكه الله وأهلك أهله وأتباعه .

وبيّن ـ رضوان الله عليه ـ موقفه من الثورة الاسلامية صريحاً في خطبة له قبل يوم واحد من اعتقاله قائلاً فيها : أيها المسلمون اعلموا أنّ كل حكومة لا تؤيد الثورة الاسلامية في ايران هي ترتبط بشكل أو بآخر مع إسرائيل ، وعليكم الحيطة والحذر والجهاد من أجل دولة الأنبياء .

ايمان السيد الشهيد بولاية الفقيه :

١ ـ أجاب السيد على سؤال وجّه حول مهمة عالم الدين بالقول :

مهمة عالم الدين هي تطبيق أحكام الدين في جميع أبوابه من العبادات والمعاملات والقضاء والحدود والقصاص واستعمال العدل في جميع هذه الامور ، فاذا كان كذلك يجب على المسلمين مساعدته والأخذ بيده وتنفيذ أوامره حتى يتمّ أمر الدين في جميع نواحيه .

٢ ـ في زمن البعث الأسود اشترطوا على من يريد إقامة حفلاً أن يستحصل إجازة من إدارة المنطقة بعد أن يوقّع لهم على تعهد خطّي بأنّ الخطابات التي سوف تلقى في هذا الاحتفال لن تمسّ سياسة الدولة من قريب أو بعيد .

و كان السيد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ بصدد إقامة حفلاً بمناسبة من المناسبات الاسلامية ، فجاء اليه أحد أصحابه و كأنه قدم للسيد خدمة قائلاً : لقد حصلت على إجازة لاقامة الاحتفال من القائممقام ، فما كان من السيد إلّا وأن نهر به وقال له : ومن قال لك أن تحصل عليها ، ومن هو القائممقام الذي يجيز أو لا يجيز إقامة احتفالاتنا ؟ أنا الحاكم الشرعي ، أنا الذي اوافق أو لا اوافق .

موقفه من القضية الفلسطينية :

كان ـ رحمه الله ـ يقيم الاحتفالات والمهرجانات من أجل جمع التبرعات

للقضية الفلسطينية ، وكان يدعو للجهاد وكان يقول : أنا أتعجب اذا كنا مسلمين كيف ينتصر علينا اليهود وقد غلّ الله أيديهم على لسانه تعالى في كتابه الكريم.

وكان يقول : أنا أتعجب كثيراً من الشعارات الفلسطينية واعتقد أنها غير مجدة في الجهاد ، إنّ فلسطين لاتحرر إلّا بالاسلام ، أمّا كيف ننتصر على إسرائيل وفيناقادة مثل اليهود؟ أما تعلمون جورج حبش، هل ينتصر شعبنا المسلم في فلسطين على أعدائه بأمثال هذه القيادات .انادي الشعب الفلسطيني بالاعتماد على الله والنفس وترويج الاسلام وسينتصرون بحول الله تعالى .

قصة اعتقاله ـ رضوان الله عليه ـ :

في يوم الجمعة ١٩٧٩/٦/١٥ م ـ أي بعد أربعة أشهر من انتصار الثورة الاسلامية في ايران وبعد عدة أيام من موكب البيعة للامام الشهيد الصدر ـ قدس سره ـ (أحداث رجب) وبعد يوم واحد من آخر خطبة لسيدنا المؤلف وأثناء صلاتي المغرب والعشاء ـ جاء جمع من البعثيين الخونة المارقين مدججين بالسلاح وطوقوا الجامع من كل جانب وداسوا الأفرشة بأحذيتهم وبحضور السيد وكاد يحدث الصدام لولا بعض الرجال .

ثم تناول أحدهم «الميكرفون» و أخذ يقرأ افتتاحية جريده الثورة التي تهاجم الثورة الاسلامية وقائدها ، وفي نهاية كلمتهم لم يتحمل الشباب ماقيل من كلمات ضدّ الله وضدّ دينه وفي بيت من بيوت الله، فبدأ الشباب يهتفون بصيحات «الله أكبر» بوجوه هؤلاء الجبناء مما دعاهم أن يهربوا أمام شباب الاسلام كالجرذان الخائفة .

وما أن خرج السيد من المسجد قاد المظاهرة الكبرى التي تشكّلت من جماهير الامّة الاسلامية في مدينة النعمانية وهي مظاهرة بحق أفزعت النظام البعثي هناك وفرّ البعثيون في الشوارع والأزقة ، واستمرت التظاهرة بالاستنكار للحكم العفلقي

ودسائسه وخبثه و كفره الى أن وصل السيد الى بيته فتفرقت التظاهرة، فطلب السيد منهم الحيطة والحذر .

وفي نفس تلك الليلة وفي الساعة التاسعة مساءً دخل على السيد ـ قدس سره ـ ثلاثة أشخاص ملثمون لكي لايعرفهم أبناء الشعب فينتقم منهم والسيد حينذاك كان جالساً في غرفة الاستقبال مع ضيوفه، فجلس أحدهم بقرب السيد وقال له : إنك تثير الطائفية في البلد، أجاب السيد : أنا لااثير الطائفية ، فقال البعثي : إنك تتكلم على النصارى، فأجاب السيد: إنما أنا افسر القرآن ، فقال البعثي :بلى إنك تتكلم على النصاري وينبغي أن تكفّ عن ذلك حتى اذا كان تفسيراً للقرآن ، فنهره السيد وأمره بالخروج وقال له: يا عديم الأدب .فخرج هؤلاء الثلاثة وانتشر الخبر بسرعة في المدينة ، فجاء الى دار السيد عدد من أصحابه .

وفي الساعة الحادية عشرة أعلن البعثيون حالة إنذار قصوى في المدينة وجاءت سرايا من الأمن والجيش اللاشعبي من مدينتي الكوت والحسينية وغيرهما ونصبوا مفارز تفتيش و سدت جميع الطرق والأزقة المؤدية الى بيت السيد فتصدى لهم الشباب المؤمن وحصلت معركة غير متكافئة، المجرمون بالرشاشات والبنادق، والمؤمنون بالسكاكين وقطع الحديد والخشب ، وأمّا السيد فكانت بيده مطرقة يدافع بها على الرغم من ضعفه البدني و كبر سنّه ، واستطاع السيد وأنصاره أن يطردوا البعثيين خارج الدار ، وغلّقوا الأبواب وتحصّنوا داخل الدار.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل عاود المجرمون الكرة ولكن بطريقة ماكرة حيث استعانوا بأحد وجهاء البلدة ، ويحتمل أنهم خدعوه وطلبوا منه أن يذهب الى السيد ويقول له : إنه لاعداوة لهم معه وإنما مجرد حديث وجلسة مع محافظ الكوت ، وأنه إن امتنع عن ذلك فإن الحكومة ستنسف مدينة النعمانية وستهدم داره على من فيها .

دخل هذا الشخص الوجيه في البيت كما يقول أحد أصحابه وطلب من السيد ما قالوا له ، وأنّ أحد الأشخاص المقربين من السيد قال له : سيدنا الكريم إنّ هؤلاء لاعهد لهم وإنهم غدرة فجرة وهذه مكيدة أمن. ولكن هذا الشخص أخذ يلحّ على السيد وأن لا يأخذ بكلام الشباب والمراهقين والأطفال .

ثم تهيّأ السيد فكتب بعض الكلمات والوصايا سريعاً فقد كان متأكداً من عدم الرجوع ولبس عباءته وأمسك بعصاه وفتح الباب وبمجرد أن خرجت رجل السيد من عتبة الباب دخل جلاوزة الأمن لايدعون شيئاً أمامهم إلّا كسروه و أطلقوا الرصاص عشوائياً وبعثروا مكتبته الكبيرة ثم احرقت بعد ذلك ، وحدثت مجابهة حيث ضربوا المؤمنين بالأسلاك الحديدية والحجارة وضربوا حفيدته الصغيرة حيث لم يكن في الدار من عائلته غيرهما ، وفتشوا جميع زوايا الدار .

بعد ذلك ذهب الجلاوزة وأخذوا معهم السيد وعشرين شخصاً من أصحابه وقد احمرت ملابسهم بالدماء أثناء المواجهة مع أعداء الله . واركبوا في سيارة «بيك أب» ووضعت العجلات الاحتياطية فوقهم و البعثيون يصفقون و يرقصون و يطلقون إطلاقات النصر و الطيش في الهواء .و قد استيقظت العوائل الكثيرة وأشرفت على الحادثة ومجرياتها من على السطوح .

وهناك في السراي لم يكن المحافظ كما قالوا وانكشفت خديعتهم، فأركبوا السيد وأنصاره الى الكوت حيث اجري تحقيق سريع .

في مديرية الامن العامة :

في اليوم الثاني من وصول السيد وأنصاره الى مدينة الكوت تمّ نقلهم في سيارات مقفلة الى مديرية الأمن العامة في بغداد وهناك استقبل بما يعرفه الأحرار من همجية ووحشية أزلام صدام ـ وريث يزيد والحجاج بن يوسف الثقفي ـ حيث اصطفّ رهط من الأمن على الجانبين يحملون أسلاك «الكيبل» و تقدم أحد مدراء

الأمن وكان يحمل ملفاً يتكون من ٥٠٠ صفحة وأخذ يتجرأ على السيد ويبصق عليه ويقول هذه مصائبك ومشا كلك ضد الثورة يا سيد قاسم، هذه الاضبارة يا سيد قاسم تحتوي على تقارير عشرة سنوات.

ثم بدأوا يضربونهم من الجانبين الى أن أدخلوهم في كراج مقفل للسيارات أرضه مطلية بالنفط الأسود، وفي البداية أسمعوهم شريطاً للسيد في أحد احتفالات الكاظمية يتحدث فيها السيد عن السلطة الجائرة ويقول: «إن من مكاسب الحزب في النعمانية هو فتح بار للمشروبات لافساد الشبيبة» ثم التفت المدير الى السيد قائلاً: أيها الرجعي سننهي حياتك. فأجاب السيد: إنما تنقضي هذه الحياة الدنيا.

كيف كسرت يد السيد ؟

أثناء تعذيب السيد والتحقيق معه حاوره المجرم فاضل البراك مدير الأمن العام فقال: ماذا تطلبون وتريدون من سيادة الرئيس ومن حزب البعث؟ ألا تنظر الى المساجد التي بنيت في عصر الثورة؟ أجاب السيد: والتاريخ يحدث عن كثرة المساجد التي بناها معاوية بن أبي سفيان وهو من أكبر المنحرفين والزنادقة. فأشار المجرم الى جلاوزته فمسكوا السيد بالشكل الذي يحقق غايتهم الخبيثة. بسطوا يده الشريفة فضربها المجرم فاضل البراك ضربة شديدة فكسرها.

شاهد في المعتقل :

دخل السيد قاسم شبّر المعتقل في بغداد، وبعد التعذيب الوحشي الذي تلقاه من جلّادي حزب صدام وعفلق الكافرين نقل ـ رضوان الله عليه ـ الى قاعة اخرى غير الكراج السابق وهذه القاعة هي محل للسينما اخلي للمعتقلين لأن جميع أماكن الأمن العامة غصّت بالآلاف من أبناء العراق المؤمنين.

كان السيد قاسم سيد هذه القاعة وشيخها وهناك جلس جلسة الرجل المتأمل الذاكر لله، كان الجلّاد الواقف على باب تلك القاعة المنحوسة يصيح بالمعتقلين

بين الآونة والاخرى : لاتقتربوا منه فإن هذا الرجل مسلول ، ابتعدوا عنه ، إياكم أن تشربوا الماء بعده أو تأكلوا معه .

هكذا كان سيدنا ـ قدس الله روحه ـ يحارب في المعتقل ، ولكن إن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنهم يخافون من قابلية السيد في التأثير على من يدنو منه ويتكلم معه .

وقد بقي السيد في هذه القاعة حتى نقل الى مستشفى الرشيد العسكري ـ ردهة العيون ـ وهي ردهة خاصة للمؤمنين المعتقلين كتب عليها ردهة العيون للتمويه . حيث دخل في يوم من الأيام أحد المصورين الشعاعيين الى هذه الردهة وحسب الظن لايدري بأمر هذه الردهة فقال : مالي لا أرى أحداً من الراقدين مصاباً بعينه ؟ الكل ما بين مكسور اليد أو الأضلاع أو الفقرات أو ... أو ... إلخ . فقيل له : هذه ليست ردهة عيون وإنما هي سجن من سجون الأمن العامة، فاندهش المصور وفهم الأمر وسد فمه .

هناك كان السيد بعمته الشريفة على سرير من أسرة الردهة وقد أحاط رجال الأمن بسريره لكي لا يصله أحد ولكي لايتكلم بكلمة يسمعها أحد، هكذا كانت السلطة تخشى من كلمات هذا العملاق العظيم . وشوهد السيد وقد جف الدم المقدس على عاتقه الأيمن و وجهه الشريف و ملابسه ، حيث أبى إلا أن يذهب مخضباً بدم البسالة والشجاعة والثبات على المبدأ و كلمة الحق ، وأبى إلا أن يواسي جده الحسين عليه السلام بهذه الثياب المعفرة بالدم الطاهر دم الصمود تحت السياط ومن ثم دم الشهادة المقدس .

وكان السيد وهو في تلك الحالة يشرح لهؤلاء الجلاوزة المحيطين بسريره مفهوم الاسلام وواجبات المسلم وخطط الكفار لتدمير الاسلام وأنه متأسف عليهم كشباب أن ينساقوا تحت أسر الكافر وتحت أمر هذا الحزب الصليبي الحاقد لمحاربة الاسلام وتعذيب المؤمنين . وكان يقول لأحدهم: ماذا تقول غداً لرسول الله صلى الله عليه وآله

وأنت بيدك تكسر أيدي المؤمنين ؟ كان لكلام السيد هـذا أثر في بعضهم حيث جعلهم يبكون على ما اقترفته أيديهم بحق المؤمنين .

في محكمة الثورة البعثية :

نقل شهيدنا الى المحكمة الصورية وهو بتلك الحالة من كسر يده وضعف بدنه وبصره فكان لايقوى على الوقوف فطلب كرسياً للجلوس عليه ، لكنهم لم يعطوه فبقى واقفاً وهو يعاني من شدة الآلام التي أحدثها التعذيب الوحشي .

وهناك جرت المحاكمة بواسطة المجرم مسلم الجبوري . فكانت المحكمة حقاً كمثال خالد للمؤمن المجاهد المنتصر وللمجرم الجبان المنهزم .

سأل الحاكم (مسلم الجبوري) : مااسمك ؟

أجاب السيد : اسمي سيد قاسم شبر .

قال الحاكم : إنك ايراني وغريب على الوطن .

أجاب السيد : وهل للمسلم وطن خاص ،ولكن اعلم يا هذا ـ تكبراً عليه ـ إنني ابن رسول الله ﷺ والغريب على الوطن هو عفلق بن شميل ومن تبعه .

الحاكم الجلاّد : إنك مجرم .

أجاب السيد : المجرم من هتك العباد والبلاد وسلّمها للانكليز والصليبيين .

الحاكم الجلاّد : أما تخجل وقد أشرف عمرك على التسعين تحارب حكومة البعث التقدمية .

السيد : هذا هو حسن العاقبة إن احارب أمثالكم كفار ، فاستشاط الحاكم غضباً وضرب منضدة حكمه بيده وكسر قلمه وقال : حكمتك المحكمة اعداماً رمياً بالرصاص .

فابتسم السيد ساخراً بالحاكم الجلاّد قائلاً : ما أجملها من ليلة ، كنت أنتظرها طول عمري أن اقتل في سبيل الله على يد أشر خلق الله ، وأخذ يكرر

قوله : يا لهامن فرحة ، إنها والله الشهادة ، إنهاوالله الامنيةأن أكون مثل جدي الحسين عليه السلام . ويلتفت شهيدنا الى الحاكم قائلاً : إنكم من الذين يحاربون الله ورسوله ويقتلون أولياء الله ويعيثون في الأرض الفساد وإنّ الله لكم بالمرصاد.

لقد اعدم آية الله السيد قاسم شبّر في ليلة الخامس عشر من شعبان من عام ١٣٩٩ هـ المصادف ٢/٧/١٩٧٩ م رمياً بالرصاص ولم يسلّموا جثته الشريفة لذويه بل اكتفوا بمنحهم شهادة الوفاة بعد أن أنقصوا من عمره خمس سنوات حيث سجلوا فيها أنّ عمره (٨٤) سنة ، ولم يعلم في أيّ مكان دفن ، فهنيئاً لهذا الرجل الالهى العظيم الذي قارع الطاغوت كل حياته حتى لحظاته الأخيرة وحشره الله مع جده الحسين وجعله شفيعاً لنا وألهم الجيل الاسلامي الناهض و علماء الاسلام روحه وشجاعته للدفاع عن الاسلام ، ولاحول ولاقوة إلّا بالله العليّ العظيم والعاقبة للمتقين وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون .

هذا نميض من فيض عن حياة آية الله السيد قاسم شبّر ، رزقنا الله شفاعة جده يوم الحساب .

وفي ختام هذه السطور الذهبية من حياة هذا الرجل الرباني العظيم نظم أحد المعتقلين وهو ممن شاهدوا السيد في المعتقل مرثية شعرية هذا مقطع منها :

قتل البعث فما أجرأه	مجرم باغٍ على كلّ نجيب
قاتل الله الذين قتلوا	رجل التسعين من أجل الصليب
شبّراً أعني فيا قوم اثأروا	نقموا منه ومن كلّ حسيب
ضربوا منكبه واسيّداه	خضّبوها فسلام للخضيب
عذبوه حسبهم في نهجهم	يقتلوا الايمان باسوط الرهيب
خسأوا واجههم منفرداً	فثناهم وكذا شأن المهيب
حارب الأنذالَ أزلام النظام	كلّ بعثيّ وقوميّ ربيب

حارب الأوغاد من منبره و مفاهيم للبنين الغريب

حجراً ألقمهم في كلّ ناد فدعاهم ليس فيهم من مجيب

ودعا الناس لهم فيهم حديث كحديث السرّ في أمر معيب

فاسأل التاريخ عمّا أصبحوا فيه من لعن وخسران النصيب

قاسم من شبّر سيّدنا فرعه ينمي الى سبط الحبيب

حلّ في الفردوس في عليائها فاز بالرضوان والقرب القريب

اسرة الشهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فإنّ من منن الله عزّ وجلّ أن أقام علماء أجلّاء لحراسة المجتمع الاسلامي من عللهم الفاتكة ليحيى من حيّ عن بيّنة ويهلك من هلك عن بيّنة .

ومن هؤلاء الأفذاذ الأجلّاء : حضرة العالم الفاضل النبيل فضيلة العلّامة الحجة السيد قاسم شبّر ، فإنه ـ صانه الله و حماه ـ لم يأل جهداً في موسوعته التي أسماها «المؤمنون في القرآن» فيما يعمّ المجتمع الاسلامى أفراداً أو جماعات وعلى الخصوص الناشئة العصرية ، وقد أجلت نظري فيها فوجدتها ينتقل القارىء فيها من روضة غنّاء ذات أزهار فيحاء الى مثلها في ربيع دائم يجد فيها روحاً وريحاناً وما يوصله إلى دار النعيم، جزى الله سبحانه مؤلّفها خيراً ولا أراه شراً ولا ضيراً، فإنه قام بواجب عظيم حقّ القيام في زمن طغت وبغت فيه الموبقات حتّى استغوت كثيراً من الصالحين والصالحات، وأنا أسأل الله تعالى أن يأخذ بعضده لخدمة العلم والفضيلة ما كرّ الجديدان وتعاقب الملوان .

محمد الجواد الطباطبائى التبريزى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

وبعد، فإن جماعة من شباب النعمانية رغبوا أن ادرسهم بعض الآيات القرآنية التي ينتفعون بها، لتعلقها بأحكام شرعية أو لاشتمالها على موعظة أو نصيحة، وقد أجبتهم الى ذلك واخترت من المواضيع: الآيات التي تذكر صفات المؤمن حتى يتصفوا بها [1] هذا القسم الأول . ثم بعد ذلك نذكر الآيات التي تصف الكافرين والمنافقين إن شاءالله تعالى، وبالله نستعين وعليه نتوكل ونسأله التوفيق والارشاد.

وأنا الآحقر

قاسم ابن المرحوم السيد محمد شبر

نزيل النعمانية

(١) سميته بـ «المؤمنون في القرآن» .

بسم الله الرحمن الرحيم

روي عن الامام الحسن العسكري عن آبائه الطاهرين عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: حملة القرآن المخصوصون برحمة الله، الملبّسون نور الله، المعلّمون كلام الله، المقربون من الله، من والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله، ويرفع الله عن مستمع القرآن بلوى الدنيا، وعن قارئه بلوى الآخرة. والذي نفس محمد بيده لسامع آية من كتاب الله عزّ وجلّ، وهو معتقد أنّ المورد له عن الله تعالى محمد، الصادق في كلّ أقواله، الحكيم في كلّ أفعاله، المودع ما أودعه الله من علومه أمير المؤمنين علياً عليه السلام المعتقد للانقياد له فيما يأمر ويرسم، أعظم أجراً من صرة ذهب يتصدق به من لا يعتقد هذه الامور بل صدقته وبال عليه. ولقارىء آية من كتاب الله ـ معتقداً لهذه الامور ـ أفضل مما دون العرش إلى أسفل التخوم يكون لمن لا يعتقد هذا الاعتقاد فيتصدق به، بل ذلك كلّه وبال على هذا المتصدق به.

ثم قال: أتدرون متى يتوفّر على هذا المستمع وهذا القارىء هذه المثوبات العظيمات؟ إذا لم يغل في القرآن، ولم يجف عنه، ولم يستأكل به، ولم يراء به[1].

وقال صلى الله عليه وآله: القرآن مأدبة الله تعالى فتعلّموا من مأدبة الله عزّ وجلّ ما استطعتم، فإنه النور المبين والشفاء النافع، تعلّموه، فإنّ الله تعالى يشرفكم بتعلّمه[2].

---

(١) تفسير الامام الحسن العسكري (ع): ص ١٣، بحار الانوار: ج ٩٢ ص ١٨٢ ب ١٩ ح ١٨.
(٢) تفسير الامام الحسن العسكري (ع): ص ٦٠.

وقال عليه السلام: اتلوه فإنّ الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات. أمّا إنّي لاأقول «ألم» حرف، ولكن الألف عشر واللام عشر والميم عشر [1].

وقال عليه السلام: يرفع الله بهذا القرآن والعلم بتأويله و بموالاتنا أهل البيت والتبري من أعدائنا أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، تقتصّ آثارهم، وترمق أعمالهم، ويقتدى بفعالهم، وترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلواتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى حيتان البحر وهوامّه، وسباع البرّ وأنعامه، والسماء ونجومها [2].

ثم قال الامام الحسن العسكري عليه السلام بعد ذكره هذه الرواية: أمّا قوله الذي ندبك اليه وأمرك به عند قراءة القرآن: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

مقدمة في معنى الاستعاذة:

لو أنّ شخصاً له عدوّ لدود خبيث يريد أن يوقعه في المهالك ويترقب الفرصة في ذلك، فاذا ظفر به واستولى عليه ذلك العدو لايمكنه التخلص منه، فأراد أن يلجأ هذا الرجل الى من يجيره هذا العدو، فقال لملك قوي: إني اريد أن تحميني وتمنعني من هذا العدو، فقال له الملك: إني أحميك وأحفظك منه، ولكن أيّاك أن تقترب إليه فيخدعك ويأمرك بارتكاب بعض الأشياء التي أمنعك عنها، فإنك إذا فعلتها سوف أغضب عليك، وغضبي عليك يكون سبباً لهلاكك ودمارك، فلا تطعه في شيء يأمرك به كان لك فيه شيء من لذة أو انس أو مسرة، ثم بعدما عاهد الرجل ذلك الملك على ذلك، جاءه ذلك العدو فخدعه وغره وأغواه، ففعل ما نهاه عنه ذلك الملك مراراً عديدة، فهل يستحقّ الرأفة والرحمة من ذلك الملك بعد أن أعطاه العهود المؤكّدة أن لايقرب من العدو ولايطيعه؟

اذا عرفت ذلك فاعلم أنّ العبد اذا قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فمعناه: إني أحترز وأمتنع بالله الخالق القدير العزيز من أن يغويني الشيطان،

---

(١) تفسير الامام الحسن العسكرى (ع): ص١٤، بحار الانوار ج٩٢ ص١٨٢ ب١٩ ح١٨.

(٢) تفسير الامام الحسن العسكرى (ع): ص١٦، بحار الانوار ج٩٢ ص١٨٢ ب١٩ ح١٨.

وأطلب من الله أن يجيرني منه وأن يبعده عنّي ، و لا يجعل له عليّ سلطة ، بأن يجعلني من المؤمنين الذين وصفهم بقوله: «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون»[1].

وبعد هـذا الطلب من الله عزّ وجلّ ، إذا طاوع الشيطان وارتكب بعض المحرمات أو ترك بعض الواجبات ، يكون حاله كحال ذلك الرجل لا يستحق من الملك إلّا الطرد على أقلّ التقادير ، ولكنّ الله سبقت رحمته غضبه ، فإذا تاب العبد وناب وترك إطاعة الشيطان فالله هو التواب الرحيم ، فاذا قال العبد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فليقل عن تدبّر وتأمّل ونيّة صادقة، حتى يعرف معناها فيخاطب بها الله.

(١) النحل : ٩٩ .

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الحمدلله رب العالمين (٢) الرحمن الرحيم (٣) مالك يوم الدين (٤) اياك نعبدو اياك نستعين (٥) اهدنا الصراط المستقيم (٦) صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٧)

اتفقت الامامية على أن البسملة آية من سورة الحمد ومن كل سورة، وأن من تركها في الصلاة بطلت صلاته[1].

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: مالهم ـ قاتلهم الله ـ عمدوا الى أعظم آية في كتاب الله، فزعموا أنها بدعة إذ أظهروها، وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم»[2].

فعند الشيعة أن البسملة يجب الجهر بها في الصلاة، و يستحب الجهر بها في الصلاة الاخفاتية.

وروي عن الرضا عليه السلام أنه قال: إن «بسم الله الرحمن الرحيم» أقرب الى اسم الله الأعظم من سواد العين الى بياضها [3].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: اذا قال المعلّم للصبي قل: «بسم الله الرحمن

---

(١) مجمع البيان: ج١ ص١٨.

(٢) تفسير العياشي: ج ١ص٢١ح١٦.

(٣) تفسير العياشي: ج١ ص٢١ ح١٣.

الرحيم» وقالها الصبي كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبويه وبراءة للمعلّم [1].

وعن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» فإنّها تسعة عشر حرفاً، ليجعل الله كل حرف منها جنّة من واحد منهم [2].

ما ذكره المراغي في تفسيره

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد: يرى بعض الصحابة: كأبي هريرة وعلي وابن عباس وابن عمر، وبعض التابعين: كسعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك، وبعض فقهاء مكة وقرّائها ومنهم: ابن كثير، وبعض قرّاء الكوفة وفقهائها منهم: عاصم والكسائي والشافعي وأحمد: أنّ البسملة آية من سور القرآن الكريم، ومن أدلّتهم على ذلك:

١- إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة عدا سورة براءة مع الأمر بتجريد القرآن من كل ماليس منه، ومن ثم لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة.

٢- ما ورد في ذلك من الأحاديث، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس (رض) أنه قال: قال رسول الله (ص): انزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وروى أبو داود عن ابن عباس، أنّ رسول الله (ص كان لا يعرف انقضاء السورة حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم».

وروى الدار قطني عن أبي هريرة أنّ رسول الله (ص) قال: «إذا قرأتم الحمد لله فاقرأوا «بسم الله الرحمن الرحيم» فإنها امّ القرآن والسبع المثاني

(١و٢) بحار الانوار: ج٩٢ ص٢٥٧ ب٢٩ ح٥٢.

و«بسم الله الرحمن الرحيم» إحدى آياتها .

٣ـأجمع المسلمون على أنّ ما بين الدفتين كلام الله تعالى والبسملة بينهما فوجب جعلها منه [١] انتهى.

هذا مايتعلق بالبسملة وأمّا الى مجموع الفاتحة: فإنها مكّية وقيل نزلت مرة ثانية بالمدينة [٢] .

أسماؤها : الحمد ، الفاتحة أو فاتحة الكتاب، امّ الكتاب، السبع المثاني ، الكافية ، الشفاء [٣] وغير ذلك .

فضلها : من قرأها يعطى أجر من قرأ ثلثي القرآن [٤]، وما قرئت الحمد على وجع سبعين مرة إلّاسكن [٥].

وعن الباقر عليه السلام: من لم يبرئه الحمد لم يبرئه شيء [٦].

وعن الصادق عليه السلام : لو قرئت الحمد على ميّت سبعين مرة ، ثم ردت فيه الروح ماكان عجباً [٧].

قال سبحانه وتعالى :«ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» [٨]،مما أرشدنا اليه أنّا إذا أردنا عمل شيء أن نبدأ باسمه ، ليكون العمل مباركاً ويتم على أحسن الصور وأكملها .

والباء للاستعانة أي: استعينوا على إكمال أعمالكم بالبدء باسمه تعالى.

---

(١) تفسير المراغي : ج١ ص٢٦ .

(٢ـ٤) مجمع البيان : ج١ ص١٧ .

(٥) وسائل الشيعة : ج٤ ص٨٧٤ ب٣٧ ح٦ .

(٦) بحار الانوار : ج٩٢ ص٢٦١ ب٢٩ ح٥٧ ، الوسائل : ج٤ ص٨٧٤ ب٣٧ ح٣ .

(٧) بحار الانوار : ج٩٢ ص٢٥٧ ب٢٩ ح٥٠ .

(٨) النحل : ٨٩ .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر [١].

ثم إنّ كلام الله كأنه على لسان عبده، فيكون كلام العبد بعد البسملة هو الحمد لله تعالى على الخلق والرزق، وتدبير الامور، وحفظهم من المهالك، ومن شرّ الجنّ والشياطين.

«رب العالمين» يعني: أنه خالق لجميع الأصناف والأنواع من الحيوان والنبات والجماد وغيرها.

ونقل عن الراغب الاصفهاني أنه قال عند قوله تعالى «الحمد لله ربّ العالمين»: إنّ الذي يحمد ويمدح ويعظّم في الدنيا إنما يكون كذلك بأحد وجوه أربعة:

١ـ إمّا أن يكون كاملاً في ذاته وصفاته، منزهاً عن جميع النقائص والمعايب، وإن لم يكن منه إحسان إليك.

٢ـ وإمّا لكونه محسناً إليك منعماً عليك.

٣ـ وإمّا لأنك ترجو فضل إحسانه إليك في المستقبل من الزمان.

٤ـ وإمّا لأجل أن تكون خائفاً من قهره وقدرته وكمال سطوته.

فهذه الجهات الموجبة للتعظيم، فكأنه تعالى يقول: إن كنتم تعظّمون للكمال الذاتي فاحمدوني فإني أنا الله، وإن كنتم تعظّمون للاحسان والتربية والانعام فإني أنا ربّ العالمين، وإن كنتم تعظّمون للطمع في المستقبل فأنا الرحمن الرحيم، وإن كنتم تعظّمون للخوف فأنا مالك يوم الدين [٢].

ثم بعد ما يعترف العبد بهذه الصفات ويثبتها لله تعالى ويحمده على هذه النعم، يلتفت من الغائب الى المخاطب فيخاطبه بقوله: «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» ويطلب منه الهداية والارشاد الى الصراط المستقيم.

---

(١) الكشاف للزمخشري: ج١ ص٣٠

(٢) تفسير الرازي: ج١ ص٢٣٠ ولم ينسبها الى الراغب.

العبادة هي أعلى مراتب الخضوع والتذلل ، ولذا لا يستحقها إلا المولى لأعظم النعم من الوجود والحياة وتوابعها ، وتقديم المفعول به لأجل حصر العبادة به، وحيث إنها لا تكون عبادة إلا إذا كانت خالصة من كل شائبة دنيوية، يطلب العبد من الله إعانته على مثلها حتى تكون مقبولة لدى المعبود، يستحق عليها الجزاء من المعبود، وتكرار الضمير لبيان أن الاستعانة لا تكون إلا منه ، فلا يمكن الاستعانة بغيره ، وتقديم العبادة لكونها هي الوسيلة لطلب الحاجة من المعبود ، ولمناسبة تقديم مطلوبه على مطلوبهم ، وإنما جاء بصيغة الجمع ـ مع أن الأنسب في مقام التذلل الافراد ـ إشعاراً بحقارة عبادة الفرد ، فجمعها مع غيرها يجعلها كبيع الصفقة ، إمّا أن يقبل الجميع أو يرد الجميع، والله تعالى أكرم من أن يرد الجميع، إذ لا بد من وجود عبادة مقبولة فيها كعبادة إمام الزمان عليه السلام، فالأنسب بالمتعبّد أن يجعل عبادته في أول وقتها الذي يصلّي فيه الامام لكي تصعد معها وتقبل بقبولها.

وذكروا في وجه الالتفات أيضاً : أن المدح والثناء إنما هو إظهار مزايا المحمود للغير، ولذا جيء به بصيغة الغائب . وأمّا العبادة فينبغي إخفاؤها عن الغير لتكون خالصة لوجه المعبود فجيء بها بصيغة الخطاب ، هذا ما أشار إليه الامام أمير المؤمنين عليه السلام: اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1].

وعن الصادق عليه السلام : لقد تجلّى الله لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون[2].

«اهدنا الصراط المستقيم» بعد أن اعترف العبد بالعبودية الخالصة وطلب منه الاعانة عليها وعلى سائر الأشياء طلب منه الهداية وهي الدلالة والارشاد الى الطريق الذي يوصله الى الله ويجعله مقرباً لديه ، فإن الطريق المستقيم هو طريق الحق، وهو ملة الاسلام التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله من عند الله ، من غير تبديل ولا تغيير .

---

(١) بحار الانوار : ج٧٧ ص٧٤ ب٤ ح٣ وقد نسبه الى رسول الله (ص) .

(٢) جامع السعادات : ج٣ ص٣٧٧ .

ماذكره البرغاني في تفسيره

قال البهائي : هداية الله على أربعة أنحاء:

أولها:الهداية الى جلب المنافع ودفع المضار بإفاضة المشاعر الظاهرة والمدارك، واليه يشير قوله تعالى : «أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»[١].

وثانيها : نصب الدلائل العقلية الفارقة بين الحق والباطل ،والصلاح والفساد، واليه يشير قوله تعالى : «وهديناه النجدين »[٢].

وثالثها : الهداية بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب، واليه يومىء قوله تعالى «أمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى»[٣].

ورابعها : الهداية الى طريق حضائر القدس والسلوك الى مقامات الانس ، بانطماس آثار التعلّقات البدنية واندراس أكدار الجلابيب الجسمية، والاستغراق في ملاحظة أسرار الكمال ومطالعة أنوار الجمال، وهذا النوع يختصّ به الأولياء ومن يحذو حذوهم .

فاذا تلا هذه الآية أصحاب المرتبة الثالثة أي أرادوا بالهداية المرتبة الرابعة، وإذا تلاها أصحاب المرتبة الرابعة أرادوا الثبات على ماهم عليه من الهدى[٤] انتهى.

والصراط صراطان : أحدهما في الدنيا والآخر في الآخرة.

أمّا الصراط في الدنيا: فهو الامام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى به مرّ على الصراط الثاني : وهو جسر جهنّم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنّم .

يقول الامام عليه السلام في تفسير «اهدنا الصراط المستقيم» أي : أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك فيما مضى من أيامنا ، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا[٥].

---

(١) طه : ٥٠ . (٢) البلد: ١٠ . (٣) فصلت : ١٧.
(٤) تفسير مفتاح الجنان فى حل رموز القرآن : ج١ ص٢٩ .
(٥) البرهان فى تفسير القرآن : ج١ ص٥٠ ح٢٣ .

وروي عن الصادق عليه السلام في تفسيرها قال : ارشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك و المبلغ دينك ، و المانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك [١] .

«صراط الذين أنعمت عليهم» أي : اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ، يقول الامام : وهم الذين ذكرهم الله بقوله «ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين وحسن اولئك رفيقاً» [٢] .

ثم قال عليه السلام : ليس المراد بالمنعم عليهم هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحة البدن ، وإن كان كل هذا نعمة من الله ظاهرة ، ألا ترون أن هؤلاء المنعم عليهم بالمال قد يكونون كفاراً وفساقاً ، فما ندبتم أن تطلبوا من الله بأن ترشدوا الى صراطهم، وإنما أمرتم بالدعاء لأن ترشدوا الى صراط الذين أنعم عليهم بالايمان بالله وتصديق رسوله وبالولاية لمحمد صلى الله عليه وآله وآله الطيبين [٣] .

قال بعض العلماء : إن نعم الله وإن كانت لا تحصى ولا تعد ، ولكن أنواعها ثمانية :

إمّادنيوي موهبي روحاني كإفاضةالعقل، وإمّادنيوي وهبي جسماني كخلق الأعضاء، وإمّا دنيوي كسبي روحاني كتحلية النفس بالأخلاقالزكية، وإمّا دنيوي كسبي جسماني كتزيين البدن بالهيئات المطبوعة ، وإمّا اخروي موهبي روحاني كغفران ذنب من لم يتب ، و إمّا اخروي موهبي جسماني كأنهار العسل ، وإمّا اخروي كسبي روحاني كغفران ذنب التائب، وإمّا اخروي كسبي جسماني كالذات

---

(١) البرهان في تفسير القرآن : ج١ ص٥١ ح٢٤ .
(٢) النساء : ٦٩ .
(٣) البرهان في تفسير القرآن : ج١ ص٥١ ح٢٨.

الجسمانية المستجلبة بالطاعات[١] ، والمراد هنا الأربعة الأخيرة وما يكون وصلة اليها من الأربعة الأول لاشتراك المؤمن والكافر فيما عدا ذلك .

«غير المغضوب عليهم ولا الضالين» وروي عن الصادق عليه السلام قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم: يامعلّم الخير أعلمنا أيّ الأشياء أشدّ ؟ فقال : أشدّ الأشياء غضب الله عزّوجلّ ، قالوا: فيم يتقى غضب الله؟ قال : أن لاتغضبوا، قالوا: وما بدء الغضب ؟ قال : الكبر والتجبّر ومحقرة الناس [٢] .

وقد ذكر المفسرون أنّ المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى فيهم «من لعنه الله وغضب عليه»[٣] ، وأنّ الضالّين هم النصارى لقوله تعالى فيهم : «قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً» [٤] فيكون المقصود من المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال ، وقال بعض المفسرين : إنّ المقصود مطلق من اتصف بذلك من الكفار وغيرهم [٥] .

قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية : إنّ الله أمر عباده أن يستعيذوا به من طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود الذين قال الله فيهم: «قل هل انبّئكم بشرّ من ذلك مثوبة عندالله من لعنه الله وغضب عليه...»، وأن يستعيذوا من طريق الضالّين وهم الذين قال الله فيهم: «قل يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولاتتّبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل» وهم النصارى، ثم قال عليه السلام : كل من كفر بالله فهو مغضوب عليه وضالّ عن سبيل الله [٦] .

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : إنما أخاف على امّتي ثلاثاً : شحّاً مطاعاً ،

(١) المواعظ العددية : ص٣٠٠ .

(٢) مشكاة الانوار : ص٢١٩ .

(٣) المائدة : ٦٠ .

(٤) المائدة : ٧٧ .

(٥) مجمع البيان : ج١ ص٣٠ .

(٦) البرهان : ج١ ص٥٢ ح٤٠ .

وهوىً متّبعاً، وإماماً ضالاًّ، والمقصود من الامام الضال: هو كل رجل ضالّ عن طريق الحق، ويدعو الناس الى سلوك طريقه وهم يتّبعونه ويسلكون طريقه، فيكون على الامام وزره ووزر من اتّبعه [١].

كما روي عن الصادق عليه السلام قال: كان رجل في الزمن الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها، وطلبها من حرام فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال له: يا هذا إنك طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها، وطلبتها من حرام فلم تقدر عليها، أفلا أدلّك على شيء تكثر به دنياك ويكثر به تبعك؟ قال: بلى، قال: تبتدع ديناً وتدعو اليه الناس، ففعل فاستجاب له الناس وأطاعوه وأصاب من الدنيا ثم إنه فكّر في نفسه! وقال: إني ابتدعت ديناً ودعوت الناس اليه فما أرى لي توبة إلّا آتي من دعوته اليه فأرده عنه، فجعل يأتي أصحابه الذين أجابوه يقول: إنّ الذي دعوتكم إليه باطل وإنما ابتدعته من نفسي، فجعلوا يقولون: كذبت في قولك هذا وهو الحقّ، ولكنك شككت في دينك فرجعت عنه، فلما رأى ذلك عمد الى سلسلة فوتد لها وتداً ثم جعلها في عنقه، وقال: لاأحلّها حتى يتوب الله عزّ وجلّ عليّ، فأوحى الله الى نبيّ من أنبيائه، قل لفلان: وعزّتي لودعوتني حتى تنقطّع أوصالك مااستجبت حتى تردّ من مات على مادعوته اليه فيرجع عنه [٢].

وروي عن سماعة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: قول الله تبارك وتعالى «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً» [٣]، فقال عليه السلام: من أخرجها من ضلال الى هدى فقد أحياها، ومن أخرجها من هدى الى ضلال فقد قتلها [٤].

ويؤيّد الخبر المروي عن الصادق عليه السلام ماروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أبى

---

(١) سفينة البحار: ج٢ ص٧٤ مادة «ضال».

(٢) بحار الانوار: ج٢ ص٢٩٧ ب٣٤ ح١٦.

(٣) المائدة: ٣٢.

(٤) البرهان: ج١ ص٤٦٣ ح٣.

الله لصاحب البدعة بالتوبة، وأبى الله لصاحب الخلق السيّىء بالتوبة، فقيل: يارسول الله وكيف ذلك؟ قال: أمّا صاحب البدعة فقد اشرب قلبه حبها، وأمّا صاحب الخلق السيىء فإذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم من الذي تاب منه(١).

وعن الحلبي قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ماأدنى ما يكون به العبد كافراً؟ قال: أن يبتدع شيئاً فيتولّى عليه ويبرأ ممن خالفه(٢).

وإنما تعرضنا للبدعة لأنّ كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فيكون صاحب البدعة من الضالّين المضلّين، الذين نستعيذ بالله منهم في كل يوم وليلة عشر مرات في صلواتنا المفروضة بأمر من الله، ومن ترك الاستعاذة منهم بترك الصلاة صار منهم ودخل في زمرتهم، فيلزم الاستعاذة منه أيضاً.

فيا أخي المسلم، احذر هذا الزمان وأهله، فإنّ البدع قد كثرت فيه وتنوعت، إذ أنّ هذه الأحزاب التي تدعو إليها جماعات المسلمين، وكل فرقة تعتنق حزباً منها، كلّها بدع تدعو الى الضلالة.

وإنّ البدعة هي إحداث أمر في الشريعة لم يرد فيه نصّ، فالدخول فيها والانتساب اليها دخول في الضلالة.

تنبيه

ومن شجون الحديث ما رواه الفريقان العامة والخاصة عن النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن تضلّوا ما إن تمسّكتم بهما، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض(٣).

أخي المسلم، تأمّل في هذا الحديث، فإنه بلسان عربي مبين ليس فيه إجمال ولاتعقيد، فإنه صريح واضح بأنّ من لم يتمسك بالثقلين فهو ضالّ.

أخي، اقرأ سورة الفاتحة وتدبّر في قوله تعالى الذي تقوله أنت. «اهدنا

---

(١) بحار الانوار: ج٧٢ ص٢١٦ ب١٠٩ ح٨.
(٢) سفينة البحار: ج١ ص٦٣ مادة «بدع».
(٣) راجع بحار الانوار: ج٢٣ ص١٠٤ ب٧.

الصراط المستقيم*صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين» ثم بعد ما تقرأها تأمّل في حديث الثقلين ، ثم انظر هل تنطبق الآية والحديث على نفسك؟ أو أنّ كلامك بوادٍ وعملك بوادٍ آخر ؟ فلا يغرنك الشيطان و لا يخدعك عن نفسك ، فإنها أعزّ الأنفس عليك.

تتمة

روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: قال الله عزّ و جلّ: قسّمت الحمد بيني و بين عبدي نصفين، فنصف منها لي و نصفها لعبدي، و لعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: «بسم الله الرحمن الرحيم» قال الله عزّ وجلّ: بدأ عبدي باسمي حقّ عليّ أن اتمم له اموره وابارك له في أمواله. فإذا قال: «الحمد لله ربّ العالمين» قال الله عزّ وجلّ: حمدني عبدي وعلم أنّ النعم التي له من عندي، وأنّ البلايا التي اندفعت عنه فبطولي، اشهدكم يا ملائكتي أني اضيف له نعم الدنيا الى نعم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا. واذا قال: «الرحمن الرحيم» قال الله عزّ وجلّ: شهد لي عبدي بأني الرحمن الرحيم، اشهدكم لاوفّرنّ من رحمتي حظّه، ولاجزلنّ من عطائي نصيبه. وإذا قال: «مالك يوم الدين» قال الله تعالى: اشهدكم كما اعترف بأني الملك يوم الدين لاسهلنّ يوم الحساب عليه حسابه ، ولاثقلنّ حسناته ، ولأتجاوزنّ عن سيّئاته. فإذا قال العبد: «إيّاك نعبد» قال الله : صدق عبدي إيّاي يعبد ، اشهدكم لاثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي . فإذا قال العبد : «وإيّاك نستعين» قال الله عزّوجلّ : بي استعان عبدي وإليّ التجأ، اشهدكم لاعيننّه في شدائده ولآخذنّ بيده يوم نوائبه. فإذا قال: «اهدنا الصراط المستقيم...الخ» قال الله عزّ وجلّ: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، قد استجبت لعبدي ، وأعطيته ما أمّل ، وأمنته ممامنه وجل[1] انتهى.

أيها المسلم ، اذا قرأت الحمد بنيّة صادقة خالصة ، فإنّ الله قد تعهّد لك

---

(١) عيون أخبار الرضا : ج١ ص٣٠٠ ح٥٩ .

أن يرشدك الى الصراط المستقيم، وقد فعل ذلك جلّت عظمته، حيث دلّنا على الطريق، وأمرنا أن نسير فيه بخطّ مستقيم، ولكن بعض العباد يميل مرة الى الغرب ومرة الى الشرق، وتارةً يقطع نصف الطريق أو ثلثي الطريق ثم يرجع القهقرى، ومرة اخرى يقطع هذه المسافة ويقف في مكانه متحيّراً، وكلّما يؤمر بالسير يمتنع ويصرّ على العصيان، مع أنّ الوصول الى الغاية لايتمّ إلا بقطع الطريق الى نهايته.

أيها المسلم، سواء كنت جليلاً أو حقيراً، أو غنياً أو فقيراً، أو تاجراً أو غير ذلك من سائر الأصناف، حيث إنّ أغلب الناس قد خالف القرآن والسنّة، فلو أنك تعمل بسورة الفاتحة وحدها لهدتك الى ما ينتظم به دينك ودنياك. نحن الآن في سنة ١٣٨٨ هجرية وأنّ البلاد الاسلامية كلّها في اضطراب وتشويش، ونرى كل فرقة منها قد اعتنق مبدأً مخالفاً المدين، فبين متظاهر به وبين مختفٍ مستتر به، والله يخاطب نبيّه بقوله: «إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يعملون»[1].

أيها المسلم ارجع الى دينك وكتابك واعمل بما أمرك به نبيك، وسر على الطريق الذي أمرك به الله «إنما المؤمنون إخوة»[2] وتنبّهوا لما دسّه العدوّ الأجنبي الذي يريد استعماركم، فإنكم لا تحصلوا على شيء ما لم تتّفقوا وتكونوا إخوة.

أيها المسلم المصلّي، سر على الطريق المستقيم الذي تطلبه من الله في كل يوم عشر مرات، ولا تخرج عنه مغرّباً أو مشرّقاً.

هذا آخر الكلام في سورة الفاتحة، وقد ذكرنا في أول الأمر أنّ المقصود هو التعرض للآيات التي تصف المؤمن وتذكر شروطه، وإنما ذكرنا الفاتحة لأنها امّ الكتاب، وهي التي توجد حقيقة المؤمن، فمن اتصف بما فيها من وصف فهو من سادات المؤمنين، وهو الذي يلزم المؤمنين الاقتداء به، ونسأله تعالى أن يجعلنا منهم.

(١) الانعام: ١٥٩.
(٢) الحجرات: ١٠.

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الم(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(٢) الذي يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون(٣) والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون(٤) اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون(٥).

لقد اختلف العلماء في الحروف المقطّعة التي تكون في أوائل السور، وذكروا وجوهاً كثيرة، ونحن نذكر قولاً واحداً، هو أنّ المراد منها أنّ هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته ولم تقدروا على الاتيان بمثله هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في كلامكم وخطبكم، فحيث لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من فعل الله تعالى، وتكرارها في مواضع عديدة تأكيداً للحجة، والأولى أن نقول: إنّ هذا من قسم المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم، كما روي ذلك في أخبارنا الواردة عن الأئمة عليهم السلام[1].

قوله: «ذلك الكتاب» إشارة الى «ألم» فيكون «ألم» مبتدأ و«ذلك» مبتدأ ثان و«الكتاب» خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر للمبتدأ الأول.

«لاريب فيه» قال الامام: يعني أنّ القرآن الذي افتتح بـ «ألم» هو ذلك الكتاب الذي أخبر به موسى ومن بعده من الأنبياء، وهم أخبروا بني إسرائيل،

(١) مجمع البيان: ج١ ص٣٣، وقد اختار السيد الشهيد (ره) القول العاشر.

إني سانزله عليك يا محمد، لاشكّ فيه، لظهوره عندهم [١] فهو خبر بمعنى الأمر أي: لا ترتابوا فيه.

«هدى للمتقين» الهدى: هو الارشاد والدلالة والبيان بما ينفعه ويوصله الى الحق حتى يصل اليه، والردع عما يضلّه وهو عامّ لكل أحد، وإنما خصّ المتقين لأنهم هم المنتفعون به قبل غيرهم. والتقوى: عبارة عن التحرز والتحفّظ عما يضره، فإنها مأخوذة من الوقاية وهي في اللغة: فرط الصيانة، وفي العرف الشرعي: صيانة النفس عما يضرها في الآخرة، وقصرها على ما ينفعها فيها، والتقوى صفة جامعة لكل أبواب الخير، وهي أحسن صفة يتصف بها العبد لتقربه الى الله، فقال تعالى: «ولقد وصّينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» [٢] فقد اقتصر سبحانه على هذه الكلمة، ولاشكّ أنه تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد، ورحمته ورأفته أجلّ من كل رحمة ورأفة، فلو كان في عالم النصح والارشاد كلمة أو خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير من هذه الخصلة لكانت أولى بالذكر وأحرى بأن يوصي بها عباده، وقد كرر الله ذكرها في القرآن وعلّق عليها فوائد كثيرة عظيمة.

قال بعض العارفين: إنّ خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهي التقوى، انظر الى ما في القرآن الكريم من ذكرها فكم علّق عليها من خير ووعد لها من ثواب، وأضاف اليها من سعادة دنيوية وكرامة اخروية، ولنذكر لك من خصالها وآثارها الواردة فيه اثنا عشر خصلة:

١ـ المدحة والثناء: قوله «وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذلك من عزم الامور» [٣].

٢ـ الحفظ والحراسة: قوله «وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً» [٤].

٣ـ التأييد والنصر: قوله «إنّ الله مع الذين اتقوا» [٥].

---

(١) تفسير الامام العسكري: ص٦٢.
(٢) النساء: ١٣١.
(٣) آل عمران: ١٨٦.
(٤) آل عمران: ١٢٠.
(٥) النحل: ١٢٨.

٤ـ النجاة من الشدائد والرزق الحلال: قوله «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً* ويرزقه من حيث لا يحتسب»[١].

وحيث إنّ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام قد ذكروا في بيان هذه الآية كثيراً من الامور، رأيت الأنسب ذكر بعض ما ورد عنهم، ثم نأتي على بقية ما ذكره هذا العارف، قال في التفسير: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً» من كل كرب في الدنيا والآخرة[٢].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يجعل له مخرجاً» من الفتن ونوراً من الظلم[٤]، «ويرزقه من حيث لا يحتسب» أي من وجه لم يخطر بباله.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لأبي ذر: لو أنّ الناس أخذوا بهذه الآية لكفتهم «ومن يتق الله»[٥].

وقال الصادق عليه السلام في جواب رسالة النجاشي: ثم إني اوصيك بتقوى الله، وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله ـ الى أن قال: ـ واعلم أنّ الخلائق لم يوكلوا بشيء أعظم من التقوى، فإنه وصيّتنا أهل البيت[٦].

وقال الحسين بن علي عليه السلام في بعض مواعظه: اوصيكم بتقوى الله فإنّ الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحوّله عما يكره الى ما يحب، ويرزقه من حيث لا يحتسب فإيّاك أن تكون ممن يخاف على العباد من ذنوبهم، ويأمن العقوبة من ذنبه فإنّ الله تبارك وتعالى لا يخدع عن جنّته، ولا ينال ما عنده إلا بطاعته[٧].

---

(١) الطلاق: ٢ و٣.
(٢) مجمع البيان: ج١٠ ص٣٠٦.
(٣) تفسير نور الثقلين: ج٥ ص٣٥٦ ح٤٤.
(٤) نهج البلاغة: ضبط صبحي الصالح، الخطبة ١٨٣ ص٢٦٦.
(٥) تفسير نور الثقلين: ج٥ ص٣٥٨ ح٥٤.
(٦) بحار الانوار: ج٧٨ ص٢٧٧ ب٢٣ ح١١٢.
(٧) بحار الانوار: ج٧٨ ص١٢١ ب٢٣ ح٣.

فلنرجع الى كلام من عدّد فوائد التقوى ، قال:

٥ـصلاح العمل: قوله «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً* يصلح لكم أعمالكم »[١].

٦ـغفران الذنوب : قوله بعد قوله «يصلح لكم أعمالكم » : «و يغفر لكم ذنوبكم» [٢] .

٧ـتوجب محبة الله: قوله «إنّ الله يحبّ المتقين» [٣].

٨ـقبول الأعمال: قوله «إنّما يتقبل الله من المتقين»[٤].

٩ـالاكرام والاعزاز : قوله «إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم»[٥] .

١٠ـ البشارة عند الموت : قوله «الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة» [٦]، وقد فسّرت البشارة في الحياة الدنيا بكونها عند الموت [٧] .

١١ـالنجاة من النار: قوله«ثم ننجي الذين اتقوا و نذر الظالمين فيها جثياً»[٨].

١٢ـالخلود في الجنة : قوله «اعدّت للمتقين »[٩].

فقد ظهر لك أنّ سعادة الدارين منطوية فيها ومندرجة تحتها ، وهي كنز عظيم ، وغنم جسيم ، وخير كثير ، وفوز كبير[١٠] انتهى .

---

(١) الاحزاب : ٧٠و٧١ .

(٢) الاحزاب : ٧١ .

(٣) التوبة : ٤و٧ .

(٤) المائدة : ٢٧ .

(٥) الحجرات : ١٣ .

(٦) يونس : ٦٣ و٦٤ .

(٧) الصافى : ج ٢ص٤٠٩ .

(٨) مريم: ٧٢ .

(٩) آل عمران : ١٣٣ .

(١٠) سفينة البحار :ج٢ ص٦٧٩ مادة «وقى».

ومما يتعلّق بالتقـوى قول النبي ﷺ لبني هاشم : لاتقولوا أنّ محمداً منّا فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون [١] .

ومن جملة كلام أمير المؤمنين عليه السلام لأبي ذر : ولو أنّ السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتّقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً، ولا يؤنسنّك إلا الحق، ولا يوحشنّك إلا الباطل [٢].

وسئل الصادق عليه السلام عن تفسير التقوى فقال : أن لايفقدك الله حيث أمرك ، ولايراك حيث نهاك [٣].

و قال رجل لبعض الناسكين : صف لنا التقوى ؟ فقـال : إذا دخـلت أرضاً فيها شوك كيف كنت تعمل؟ قال : أتوقّى وأتحرز ، قال : فافعل في الدنيا كذلك ، فهي التقوى [٤].

وذكروا أنّ للتقوى مراتب ثلاث:

الاولى : وقاية النفس عن العذاب ، وهذا يحصل بالتوقّي عن الشرك.

الثانية : التجنّب عن كل ما فيه إثم ، من ترك الواجب وفعل الحرام وهـو اجتناب المعاصي.

الثالثة :التوقّي عن كل ما يشغل القلب عن الحق [٥] ويدخل في هـذه المرتبة اجتناب المكروهات ، بل اجتناب المباحات المشغلة للقلب .

فتحصّل مما ذكرنا أنّ المتقي هو الذي اتقى أنواع الكفر فتركها، واتقى أنواع الذنوب الموبقات فرفضها واجتنبها ، واتقى كل مايلهيه عن ذكر الله فتباعد عنها .

---

(١) سفينة البحار : ج٢ ص٦٧٨ مادة «وقى» .

(٢) نهج البلاغة : ضبط صبحي الصالح، الخطبة ١٣٠ ص١٨٨.

(٣) بحار الانوار : ج٧٠ ص٢٨٥ ب٥٦ ح٨ .

(٤و٥) سفينة البحار : ج٢ ص٦٧٨ مادة«وقى» .

«الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» هذه صفات المتقين التي وصفهم الله بها، فإنّ التقوى لمّا كانت من صفات النفس الباطنة ولم يكن لها وجود خارجي دلّنا الله على آثارها الخارجية التي تعرف بها، فذكر لها خمس صفات :

الاولى: الايمان بالغيب ، وهو الشيء الغائب الذي لا يدرك بأحد الحواس ، وذلك مثل: التصديق بالبعث ، والنشور ، و الصراط ، والجنة ، والنار ، وقيام المهدي عجّل الله فرجه.

الثانية : إقامة الصلاة ، والمقصود أن يأتون بها تامة الأركان والشرائط ،وأن يصونوها عما يفسدها أو ينقصها.

الثالثة : الانفاق مما رزقهم الله من الأموال والأبدان والقوى والجاه والعلم فإنّ الرزق هو كل ما يحتاج إليه الانسان ، فيشمل هذه الامور كلها.

وقد أسند الله الرزق إليه ، تنبيهاً على أنّ الحرام منه ليس من عنده وينهى عن أخذه ، وأنّ المنفق منه لا يستحق المدح . والاشارة بـ «من» التبعيضية الى المنع عن التبذير وصرف جميع المال ، فيبقى صاحبه كلاًّ على الناس ، والانفاق من المال يشمل الحقوق الواجبة وغيرها.

«والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون» هذه الصفة الرابعة من صفات المتقين . إنهم يصدّقون بما انزل إليك من القرآن، ويعترفون أنه من عند الله عزّ وجلّ ، وأنّ شريعتك من عند الله ، ويؤمنون بأنّ ما انزل من قبلك من الكتب كالتوراة و الانجيل و الزبور و غيرها إنها من الله عزّ وجلّ .

الخامسة : من صفات المؤمنين :إنهم يوقنون بالآخرة، وهي الدار التي تكون بعد الدار الدنيا ، فهم موقنون بها لا يشكّون فيها ولا يتعريهم الريب والزيغ.

فهذه الصفات الخمس هي علامات المتقين وهي :

١ـالايمان بالغيب .

٢ـإقامة الصلاة .

٣ـالانفاق من الرزق.

٤ـالتصديق بإنزال الكتب .

٥ـاليقين بالدار الآخرة .

«اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون» وبعد ما أعلمنا الله بصفاتهم أعلم الملأ وبشّر المتقين أنهم على صواب و على علم من أوامر ربّهم ، بخلاف غيرهم ممن يجهل أوامره أو يشكّ فيها ، ثم بشّرهم بإعلام غيرهم أنّ هؤلاء القوم هم المفلحون ، و الفلاح هو النجاح و الفوز بما يؤمّله الانسان من الجوائز والثواب الذي لاتخطر على بال أحد ، فقد حثّ سبحانه سائر العباد على الالتحاق بهؤلاء القوم والاتصاف بصفاتهم حتى يعدّوا من المتقين ويكونوا من المفلحين.

ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون (٢١) .

لمّا ذكر الله الآية التي وصف بها المتقين ، عقّبها بذكر غيرهم من الفرق و اختلافهم في العبادة ، ثم التفت بهذه الآية اليهم و ناداهم و خاطبهم جميعاً لتعلم كل فرقة بل كل فرد أنه معنيّ ومقصود بالخطاب، وأمرهم إرشاداً وهدايةً لهم ودلالةً على ماينفعهم فقال:«اعبدوا ربكم» فإن الربّ الخالق والذي بيده جميع الامور من الرزق والموت والحياة هو الأولى بالعبادة والمستحقّ لها دون غيره الذي هو مخلوق له . والمقصود من العبادة : أن يخضعوا له غاية الخضوع ويطيعوه في كل ما يأمرهم به ولايشركوا به أحداً .

ثم قال : «**لعلكم تتقون**» فإذا عبد الانسان خالقه لايكون من المتقين حتماً ، بل يمكن أن لايكون من المتقين لسوء اختياره ، فاذا اتصف العابد بالصفات المتقدمة كان من المتقين ، فالمطلوب من الناس ـ في الآية ـ هي عبادة الله الخالصة لوجهه الكريم، فإذا عبدوه كذلك راجين وصولهم الى درجة التقوى وفقهم الله لها .

انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسئل عن أصحاب الجحيم (١١٩) .

إنّ في هذه الآية تسلية من الله لنبيه ﷺ على مخالفة من خالفه ، و عدم قبولهم لما جاء به من عندالله إذ يقول له : «**انا ارسلناك**» بالحق و هو القرآن ودين الاسلام المتكفّل لمصالح الدنيا والآخرة .

«**بشيراً ونذيراً**» لتبشّر المؤمنين الذين اتّبعوك وصدّقوك بالنعيم الدائم و تنذر الذين كذّبوك و خالفوك بأنّ مصيرهم الى الجحيم . و أنت غير مسؤول عنهم بعد ما أدّيت ماعليك من إبلاغ الرسالة ، فليس عليك إجبارهم على قبول ما جئتهم به من الله ولاتؤاخذ بذنبهم .

وهذه الآية وإن لم يكن فيها بعض ماعلى المؤمن من التكليف لكنها مقدمة للآية التي بعدها وهي قوله تعالى :

ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير (١٢٠) .

كان اليهود والنصارى يطلبون من النبي ﷺ الهدنة ، ويظهرون له أنه إن هادنهم وأمهلهم اتّبعوه ، وكان هو ﷺ يجتهد في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في

الاسلام ، فأخبره الله أنهم لايسلمون أبداً ، وأمره بترك ما يرضيهم والرجوع الى جهادهم ، وأعلمه أنهم لايرضون إلا بمتابعتهم في دينهم، وهذا لايمكن أن يصدر من الرسول وإنّما هو إعلام لامّته. وأمر الله أن يقول لهم: **«ان هدى الله هو الهدى»** أي: قل لهم : إنّ دين الاسلام المنزل في القرآن هو الهدى الحق وعليه الطريق المستقيم ، و هو الذى يرضى به الله ، وهو الموصل الى الجنة حيث إنه بدلالة من الله ، وهذا إعلام بعدم إسلام اليهود ، فليس معه أمل أو احتمال في إسلامهم ، وعدم رضاهم عن المسلم إلا باتّباعهم .

ثم بيّن سبحانه حكم من يتّبعهم بقوله :**«و لئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولانصير»** اسمعوا أيها المسلمون، و تأمّلوا جيّداً في هـذه الآية الشريفة ، فإنّ من أراد منكم أن يرضي اليهود والنصارى باتّباعهم فيما يهوونه بعد ما جاءكم من القرآن والسنّة النبوية فليس لهم وليّ يحفظهم من عقاب الله، وليس لهم نصير يعينهم أو يدفع عنهم العقاب الذي يستحقوه ، جزاءً لارضاء أعداء الله .

فيا أيها المؤمنون ،ويا أيها المسلمون ، يااولي الأمر ، التزموا بكتاب الله و شريعته واحكموا بما أنزل الله ، فقد قال تعالى في محكم كتابه :

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون »[1] .

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون»[2].

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون»[3] .

«ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم»[4] فيعمّكم بعقاب من عنده ويجرى عليكم سننه فيمحقكم محقاً .

ثم تأمّلوا جيداً في الآية فإنه تعالى قال : «ولئن اتّبعت أهواءهم» أي : أنّ

(١) المائدة : ٤٤ .

(٢) المائدة : ٤٥ .

(٣) المائدة : ٤٧ .

(٤) الحشر : ١٩ .

الذي يدعونكم اليه اليهود والنصارى هو ناشيء عن أهوائهم غير مستند الى شريعة سماوية، وأنّ الذي أنتم عليه معلوم لديكم إنه نازل من الله فلاتتركوا ماتعلمون أنه حق ، وتأخذوا بالذي هو ناشيء عن الهوى ـ أي هوى أعدائكم ـ ، وأيّ إنسان يفعل هذا الفعل ـ أي يترك الحقّ المعلوم ويأخذ بهوى عدوه ـ فهو في غاية من السفاهة والسقوط ، فكل رجل فقير مسلم أو زعيم مسلم ، إذا ترك حكم القرآن وأخذ بأحكام النصارى ، فقد ارتكب اموراً خطيرة كل واحد منها موجب لكفره:

١ ـ نبذه لأحكام القرآن .

٢ ـ أخذه واتّباعه هوى أعداء الاسلام .

٣ ـ خيانة المسلمين من أهل شعبه .

٤ ـ ترجيح منفعة الكافر العدو على منفعة نفسه ومنفعة سائر المسلمين ، وهو يظن أنّ هؤلاء الأعداء ينفعونه ، ويغفل عن أنّ الامور كلها بيد الله وأنه يتمكن على إهلاكه في أقل من طرفة عين ، كما جرى ذلك في التاريخ بالنسبة للطغاة والمارقين.

قال رسول الله ﷺ : صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، واذا فسدا فسد الناس: العلماء والامراء[1]. فالواجب على العلماء القول والواجب على الامراء التنفيذ.

كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون (١٥١) .

قد ذكر الله في الآيات السابقة كيفية تحويل القبلة الى الكعبة ، وعرّف المسلمين أنه قد أنعم عليهم بأن جعل لهم البيت الذي بناه إبراهيم ، ودعا له بما دعا من الخيرات والبركات قبلة ، فهذه منّة من الله عليهم .

ثم ذكر لهم منّة اخرى : وهي الامتنان عليهم بأن أرسل لهم رسولاً يتلو

(١) الخصال : ج١ ص٣٦ ح١٢ .

عليهم آياته ... الخ، فهذا الخطاب من الله الى العرب يعرّفهم أنه أرسل لهم رسولاً منهم ، وهو محمد بن عبدالله ﷺ فهذا شرف عظيم شرّف الله به العرب ، فيكون أدعى لهم الى الايمان به واتّباعه، مضافاً الى المنافع الجليلة التي جاء بها، وقد ذكرها بقوله : **«يتلو عليكم آياتنا»** وهي آيات القرآن المشتملة على الآداب والأحكام ونظام الدنيا والآخرة ، و**«يزكيكم»** أي: يعرّضكم لما تكونوا به أزكياء ، حيث يأمركم بطاعة الله واتّباع مرضاته، **«ويعلمكم الكتاب والحكمة»** أي : القرآن والوحي من السنّة، **«ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»** أي: يعلمكم أشياء لا يمكن العلم بها إلا من طريق الوحي .

تنبيه

إنّ الله قد شرّف العرب وفضّلهم بهذه الآيات بأنواع من الفضل والكرامة، ولو أنّ الخطاب في هذه الآية كان لامّة اخرى غير العرب لكتبوها بالذهب، ولعلّقوها في المحافل والنوادي والطرق العامة افتخاراً بها أمام العالم، ومع كل الأسف أنّ العرب ماعرفوا هذا الشرف وما قدروه وما شكروا الله على هذه النعمة، وماعملوا بمضامين الآيات ، فكأنّ المخاطب غيرهم والمقصود سواهم .

أيها العربي المسلم، التفت الى النعم وعددها .

١ ـ إنّ الله أنعم علينا بتحويل القبلة الى الكعبة ، حيث إنّ اليهود كانوا يعيّرون النبي والمسلمين بأنهم اتّبعوا قبلتهم فحوّل الله القبلة .

٢ ـ إنّ الله أرسل لكم رسولاً منكم عربياً يكلّمكم بلغتكم فتفهمون منه بلا واسطة .

٣ ـ إنّ هذا الرسول يتلو عليكم آيات الله، وهي آيات القرآن المشتملة على أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، حيث أعجزت جميع البشر أن يأتوا بآية مثلها.

٤ ـ يعلّمكم الكتاب ، والتعليم شيء آخر غير التلاوة، فإنّ التعليم عبارة عن تفسير كلماته ، وكشف غوامضه، وغير ذلك مما يخفى على الناس .

٥ ـ ويزكّيكم، أي: ينمي في علومكم ومعارفكم، ويطهّركم من الاعتقادات الفاسدة كالشرك والكفر ، ومن الأخلاق الرذيلة كالشحّ والكبر ، ومن الأفعال القبيحة الشنيعة كالقتل والزنا وشرب الخمر والمقامرة .

٦ ـ يعلّمكم الحكمة ، وهي ما أوحى اليه من السنّة .

٧ ـ يعلّمكم ما لم تعلموا ، وهو كل شيء لايعلم إلا بالوحي .

٨ ـ وهو أعلاها وأشرفها وأفضلها وهو : توجيه الخطاب اليكم، ولوعقلتم علوّ هذا الشرف و الفضل لتهافتم عليه تهافت الفرّاش على النور اللامع ، فإنه تعالى أراد سوقكم الى أقصى مراتب الكمال وأفضل صفات الانسانية، وأنعم عليكم بنعمة ليس لها ثمن ، ولو طبّقتم ما أمركم به النبي ﷺ لارتفعتم الى أعلى مراتب العزّ والشرف في الدنيا والآخرة، ولسدتم بهالعالم بأجمعه، ولكنكم رغبتم عن هذه الرتب العالية ، ولم تتق لها نفوسكم .

فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢) .

ثم إنه سبحانه بعد ما لفت نظركم الى هذه النعم الجسيمة والفضائل العظيمة التي فضّلكم بها أمركم بشيء واحد، ووعدكم أنكم اذا فعلتم هذا الشيء وداومتم سوف يبقي هذه النعم عليكم، ولاينقص منها شيئاً، فقال عزّ وجلّ: **«فاذكروني اذكركم»** تكليف يسير ما أخفّه وما أسهله، وجزاء عظيم جزيل ما أنفعه وما أفخمه.

أيها المسلم ، إنّ الله عزّ وجلّ يخاطبك بلاواسطة ، ويقول لك اذكرني أذكرك ،فإذا ذكرت الله الذي بيده الامور كلّها قضى لك امورك الدنيوية والاخروية. والمقصود من الذكر في الآية الشريفة ليس الذكر باللسان ،بل هو الذكر الذي يقابله النسيان والغفلة.

قال رسول الله ﷺ في وصيته لعلي عليه السلام :ياعلي ثلاث لاتطيقها هذه الامّة : المواساة للأخ في ماله ، وإنصاف الناس من نفسه ، وذكر الله على كل حال ، وليس هو سبحان الله و الحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولكن إذا ورد على ما يحرم

عليه خاف الله عزّ وجلّ عنده وتركه (١).

وقال صلى الله عليه وآله يوماً لأصحابه : ألا اخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من الدينار والدرهم ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلونهم و يقتلونكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله عزّ وجلّ كثيراً (٢) فيكون المقصود من الذكر هو التذكّر بالقلب .

وقد روي عن الباقر عليه السلام قال : ثلاث من أشدّ ما عمل العباد : إنصاف المؤمن من نفسه ، ومواساة المرء أخاه ، وذكر الله على كل حال ، وهو أن يذكر الله عزّ وجلّ عند المعصية يهمّ بها ، فيحول ذكر الله بينه و بين تلك المعصية ، و هو قول الله عزّ وجلّ « إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون » (٣).

وروي عن الصادق عليه السلام قال : إنّ الله تبارك وتعالى يقول : من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما اعطي ما سألني (٤).

وروي عن الصادق عليه السلام قال : قال الله تعالى : ابن آدم اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي ، ابن آدم اذكرني في خلاء اذكرك في خلاء ، اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملائك.

وقال عليه السلام : ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلا ذكره الله في ملأ من الملائكة (٥).

أيها المسلمون ، فكّروا جيداً وتأمّلوا في قول الله عزّ وجلّ : « فاذكروني أذكركم » حتى تعرف ما ذكرك له وما ذكره لك ، أمّا ذكرك له بأن يكون قلبك ذاكراً له في كل الأحوال والأزمان ، فاذا ذكرت لك أوامره فإنّ قلبك ينشرح

---

(١) الخصال : ج١ ص١٢٥ .

(٢) بحار الانوار : ج٩٣ ص١٥٧ ب١ ح٢٩ .

(٣) الخصال : ج١ ص ١٣١ ، والاية ٢٠١ من سورة الاعراف.

(٤) بحار الانوار : ج٩٣ ص١٥٧ ب١ ح٣٠ ، المحاسن : ج١ ص٩٣ ح٤٣ .

(٥) بحار الانوار : ج٩٣ ص١٥٨ ب١ ح٣١ ، المحاسن : ج١ ص٣٩ ح٤٤ .

لها ويأنس بها ويقبلها حقّ قبولها.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته ، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته و صيامه وتلاوته للقرآن [1] .

فعلى هذا من يكون ذاكراً لله في كل وقت فهو مطيع له في جميع الأوامر والنواهي، وأنّ المعصية ـ كما يفيده الحديث النبوي ـ لا تصدر من العبد إلا بالغفلة عن ذكر الله، فإنّ العبد اذا أراد ارتكاب المعصية ثم التفت الى أثرها السيىء الموجب للبعد عن الله ارتدع منها وتركها «إذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فاذا هم مبصرون» [2].

أمّا ذاك الذي يهمّ بالمعصية فيذكّر بالله أو هو يذكره فلا يرتدع عن معصيته فهو طاغٍ جهول لا يعرف مقام ربه وعلوّ كبريائه وإحاطته بمخلوقاته، فالقلب الذاكر يكون صاحبه مطيعاً لله في كل الأحوال ما دام القلب ذاكراً ،وهذا هو الذي أمرنا به الله بقوله : «اذكروني» فإنّ الأمر مطلق من جميع الوجوه ، وهذا القلب هو أعلى القلوب مقاماً ورتبةً.

قال الامام الصادق عليه السلام : إعراب القلوب على أربعة أنواع : رفع و فتح وخفض ووقف ، فرفع القلب في ذكر الله ، وفتح القلب في الرضا عن الله ، وخفض القلب في الاشتغال بغير الله ، ووقف القلب في الغفلة عن الله [3] .

وأمّا ذكره لك فقد قيل في تفسيره :

١ ـ عن سعيد بن جبير : اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي [4].

٢ ـ عن ابن عباس : اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي «والذين جاهدوا

---

(١) معاني الاخبار : ص٣٩٩ ح٥٦ ، بحار الانوار: ج٩٣ ص١٥٦ ب١ ح٢٢ .

(٢) الاعراف : ٢٠١ .

(٣) بحار الانوار : ج٧٠ ص٥٥ ب٤٤ ح٢٥ .

(٤) مجمع البيان : ج٢ ص٢٣٤ .

فينا لنهدينّهم سبلنا» [١] .

٣ ـ عن بعضهم : اذكروني على ظهر الأرض أذكركم في بطنها [٢] .

٤ ـ واذكروني في الدنيا أذكركم في العقبى [٣] .

٥ ـ اذكروني في النعمة و الرخاء أذكركم في الشدة والبلاء [٤] ، و في الخبر: تعرّف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة [٥] .

٦ ـ اذكروني بالدعاء أذكركم بالاجابة كما في قوله : «ادعوني أستجب لكم» [٦].

٧ ـ روي عن الباقر عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله : إنّ الملك ينزل الصحيفة من أول النهار وأول الليل يكتب فيها عمل ابن آدم ، فأملوا في أولها خيراً وفي آخرها خيراً، فإنّ الله يغفر لكم مابين ذلك إن شاء الله، فإنّ الله يقول : «اذكروني أذكركم» [٧] .

هذا ما قيل في تفسيرها، وهناك أقوال غير ما ذكر ، ولكن اذا رجعنا الى كلام الله نراه يقول : « فاذكروني أذكركم» بلا قيد أو شرط أو زمان أو مكان أو حال ، فقد وعدنا أن يذكرنا اذا ذكرناه ، فإذا كان العبد على ذكر من ربه في كل وقت ذكره الله كذلك إنّ الله لا يخلف الميعاد. ثم إنّ ذكر الله لعبده يكون مطابقاً لذكر العبد لربه ، فإنّ ذكر العبد ربه ذكر خضوع وخشوع وتذلّل ، ذكره الله ذكر رحمة ورأفة. أمّا اذا ذكر ربه وهو مصرّ على معصيته ولم يردعه ذكر الله عن عصيانه فسوف يكون ذكر الله له ذكر مقت ولعن وطرد .

ارشـاد

قد يكون العبد ذاكراً لربه وهو خاشع خاضع ذليل متضرع غير متلبس

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٢٣٤ والآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

(٢ـ٥) مجمع البيان : ج٢ ص٢٣٤ .

(٦) مجمع البيان : ج٢ ص٢٣٤ والآية ٦٠ من سورة غافر .

(٧) مجمع البيان : ج٢ ص٢٣٤ .

بمعصية في تلك الساعة ، ولكن مع ذلك لم يكن أهلاً لأن يذكره الله ذلك الذكر الذي يدخله تحت عناية الله والذي يوجب له نعيم الأبد الذي لا انقطاع له .

ويدل على هذا ما ذكره في عدة الداعي عن النبي ﷺ قال: أوحى الله تعالى إلي، أن يا أخا المرسلين ويا أخا المنذرين، أنذر قومك لا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحدهم مظلمة ، فإني ألعنه ما دام قائماً يصلي بين يدي حتى يرد تلك الـ ظلمة... الخ[1].

فانكشف لنا من هذا الحديث : أن الله إنما تعهد أن يذكر عبده الذاكر له بقوله : « فاذكروني أذكركم » أن المقصود أو المتيقن هو العبد الذاكر لله في جميع حالاته بحيث لا يتعمد معصيته ، أما الذي ينهب مال الناس ويظلمهم ثم يأكل و يشرب ويلبس من هذا المال ، فيأتي الى بيت الله فيقف وقوف الأتقياء ويصلي بخضوع وخشوع ، فهذا لا يذكره الله إلا باللعن، فلا يخدع الانسان نفسه «إنما يتقبل الله من المتقين»[2] ولكن لا يمنعه الله رزقه في الدنيا ، فإن هذا الرزق منقطع لا دوام له ، ويعطيه الله المؤمن والكافر .

وقد روي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً »[3] قال: أما والله إن كانت أعمالهم أشد بياضاً من القباطي ولكن كانوا اذا عرض لهم حرام لم يدعوه[4].

قوله **«واشكروا لي ولا تكفرون»** لا ريب أن شكر المنعم مما يحكم العقل بوجوبه ، لاسيما اذا كانت النعمة من القوي المتمكن من سلبها ممن أنعم بها عليه ، و قد سمى الله غير الشاكرين بالكافرين في آيـات عديدة من القرآن ، فيكون الشكر واجباً شرعاً وعقلاً، وحيث إن الشكر موقوف على معرفة النعمة

---

(١) عدة الداعي : ص١٢٩ .

(٢) المائدة : ٢٧ .

(٣) الفرقان : ٢٣ .

(٤) تفسير البرهان : ج٣ ص١٥٨ .

ومعرفة المنعم فقد عدد الله النعم التي تفضّل بها علينا في الآية (١٥١) ثم أمرنا بمعرفته بقوله «اذكروني» ثم عرّفنا بأنّ شكره واجب علينا، فقد نبّهنا وعرّفنا مقدمات الشكر ، و هذه أيضاً نعمة عظيمة يجب الشكر لها .

و أمّا حقيقةالشكر فهي أن يعترف العبد بأنّ النعم من عنده، وأنّ من جرت على يده بعض المقدمات من البشر فهي أيضاً من الله ، فإنّ هذه المعرفة هي أول مراحل الشكر .

و بعدأن يحصل العبدهذه المرحلة يظهرها الى الخارج بواسطة لسانه، فيشكر الله و يحمده فهذه المرحلة الثانية،والمرحلة الاولى والثانية هما نعمتان من الله على عبده.

المرحلة الثالثة : أن يصرف النعمة التي حصل عليها في الوجه الذي أمره الله به ، ولا يصرفها فيما لا يرضي الله ، والهداية والتوفيق في هذه من الله أيضاً ، فتبيّن من هذا أنّ حقيقة الشكر لا تحصل إلا باستعمال النعم في المحل الذي أمرنا الله به، وهذا يشمل النعم العامة من الخلق والخُلق والعقل والصحة وسلامة الأعضاء وغيرها مما لا تحصى ولا تعد ، فكل شيء من هذه النعم اذا استعملها العبد في غير ما امر به فهو كفران للنعمة .

المرحلة الرابعة : امتثال أوامر الله كلها و ترك نواهيه ، سواء كانت الأوامر واجبة أو مندوبة ، و سواء كانت النواهي محرمة أو مكروهة ، و هذه المرحلة الرابعة توضيحاً للثالثة ، إذ معنى صرف النعم فيما أمر الله به هو امتثال للأوامر والنواهي . ولكن قد يتوهم البعض أنّ النعم هي ما يتنعّم بها في الدنيا ، ويغفل عن نعم الآخرة التي هي النعم الحقيقية.

قال الامام الصادق عليه السلام : في كل نفس من أنفاسك شكر لازم لك بل ألف أو أكثر ، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علّة يتعلّق القلب بها دون الله عزّوجلّ، والرضا بما أعطى، وألّا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته ، فكن لله عبداً شاكراً على كل حال ، تجد الله ربّاً كريماً على كل حال ، و لو كان عندالله تعالى عبادة تعبّد بها عباده المخلصين أفضل من الشكر على

كل حـال لأطلق لفظة منهم من جميـع الخلق بها ، فلمّا لم يكن أفضل منها خصّها من بين العبادات ، و خصّ أربابها فقال : « وقليل من عبادي الشكور »[1] و تمام الشكر الاعتراف بلسان العز خاضعاً لله عزّ وجلّ بالعجز عن بلوغ أدنى شكره ، لأنّ التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها وهي أعظم قدراً وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفّقت له، فيلزمك على كل شكر شكراً أعظم منه الى ما لانهاية له ، مستغرقاً في نعمه قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره ، و أنّى يلحق العبد شكر نعمة الله ومتى يلحق صنيعه بصنيعه والعبد ضعيف لاقوة له أبداً إلا بالله عزّ و جلّ ،و الله غنيّ عن طاعة العبد، قويّ على مزيد النعم على الأبد ، فكن لله عبداً شاكراً ترى العجب[2] .

ايقـاظ

لمّا تبيّن أنّ حقيقة الشكر هي امتثال أوامر الله ونواهيه وصرف نعمه فيما يحبّه ، والكفران عبارة عن صرف نعمه فيما يكرهه، أو ترك الأوامر وارتكاب النواهي، يلزم العبد الشاكر معرفة المحبوب عند الله وتمييزه عمّا سواه ،وتشخيص الأفعال التي أمر الله بها ، و كذا معرفة الامور التي نهى عنها، وحيث إنّ المحبوب عنده و المبغوض لديه لا يمكن معرفته إلا من قبله ، إمّا مذكور في القرآن أو بأخبار النبي صلى الله عليه وآله عن الله، ولا مجال لمعرفة ذلك بغير الطريق المخبر عن الله عزّ وجلّ ، فينحصر الطريق الموصل إليه بالنبي صلى الله عليه وآله وبمن عنده علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولايمكن معرفته بالقياس أو الاستحسان ، ولايجوز الأخذ ممن يدعي العلم مالم يسند ذلك الى القرآن أو النبي بطريق قطعي ، فلا فائدة بما يسلكه بعض الناس من الطرق المخطئة، فإنّ أتعابه تذهب سدى ولايحصل على فائدة دنيوية ولااخروية.

روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : عبد الله حبـر من أحبار بني إسـرائيل

(١) سبأ : ١٣ .

(٢) مصباح الشريعة : ص٢٤ .

حتى صار مثل الخلال [١] ، فأوحى الله إلى نبيّ زمانه قل له : وعزتي وجلالي وجبروتي ، لو أنك عبدتني حتى تذوب كما تذوب الالية في القدر ، ما قبلت منك حتى تأتيني من الباب الذي أمرتك به [٢] .

محصل البحث

لقد تحصّل مما ذكرنا من تفسير الآيتين الشريفتين ما يأتي :

١ـ أنّ الله خاطب العرب بما فضّلهم به، فعليهم أن يفخروا بهذا الخطاب على سائر الامم.

٢ـ أنه أرسل لهم رسولاً منهم، فعليهم تصديق هذا الرسول ومتابعة إرشاده.

٣ـ يلزمهم الاستماع لآي القرآن اذا تلي عليهم.

٤ـ عليهم أن يزكّوا أنفسهم بما زكّاهم به النبي من نبذ الأخلاق الفاسدة الاعتقادية والعملية.

٥ـ يلزمهم تعلّم أحكام الكتاب والحكمة، وهي السنّة النبوية التي لم يكونوا يعلموها من قبل .

٦ـ عليهم أن يكونوا دائماً في ذكر الله ، ليذكّرهم وينقذهم مما وقعوا فيه من الرجوع الى الجاهلية .

٧ـ يلزمهم شكر المنعم على جميع نعمه، وإلا فهم عندالله من الكافرين .

فإذا لم يمكنهم الاتصاف بهذه الصفات فقد ذكر الله لهم ما يعينهم ويساعدهم على رياضة أنفسهم وكبح جماحها ، فقال عزّ وجلّ :

يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين (١٥٣) .

---

(١) الخلال : ما يثقب به ، عود يجعل في لسان الفصيل لئلا يرضع. (المنجد).

(٢) ثواب الاعمال : ص٢٤٢ ح١.

قد وجّه الله تبارك وتعالى النداء في هذه الآية الى المؤمنين الذي صدقوا النبيﷺ فيما جاء به من الأوامر المذكورة في الآيات المتقدمة وفيما يأتي من الامور بعد هذه الآية ، وحيث إنّ الأوامر هي من الامور العظام ، عرّف الله المؤمنين وأرشدهم الى أنّ هذه الامور اذا كانت شديدة عليهم ، وأنّ نفوسهم لا تطيقها ، فليستعينوا على ثقلها بأمرين:

(١) الصبر . (٢) الصلاة .

أما الصبر فهو حبس النفس وتوطينها على ما تنفر منه من الطاعات وعما ترغب إليه وتأنس به من المعاصي، وقد وعدهم أنهم اذا وطّنوا أنفسهم على ذلك أنه سيكون معهم، أي يؤيدهم و ينصرهم ويخفف عليهم ما يرونه ثقيلاً من الطاعات ، ويبغض لهم ما يرونه مؤنساً من المعاصي ، فإذا صبروا ووطّنوا أنفسهم سهلت حينئذٍ عليهم الامور التي كلّفوا بها في الآيات المتقدمة والآيات التي تأتي بعد هذه الآية من جهاد الكفار والتغلّب عليهم.

وأما الصلاة فحيث إنّها عبارة عن ذكر الله تعالى ، وقد وعدهم الله تعالى في الآية المتقدمة أنه يذكرهم إذا ذكروه ، ففي هذه الآية يقول لهم اذا أكثرتم من ذكري فلا تستصعبوا شيئاً لأني أذكركم في جميع حالاتكم ، فاذا ذكرتكم خفّ عليكم كل شيء من العبادات والطاعات وجهاد الأعداء وإن كانوا أضعافكم، فإنّ النصر النهائي لكم .

ايقــاظ

أيتها الامم المسلمة، أما فيكم امّة تتمسّك بالاسلام تمسّكاً حقيقياً تتدبر هذه الآية وتعمل بها ليكون الله معها فتخلّص المسلمين أجمع من مخالب المستعمرين وتنقذهم من تلاعب المفسدين ، فيكون النصر النهائي لها وحدها ، تنبّهوا قليلاً وتدبّروا حال اليهود وما كانوا عليه من الذلّ والهوان ، ليس لهم مأوى وملجأ ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم نظروا أطراف الدنيا فرأوا أنّ العرب

لقمة سائغة، فأغاروا على أرضهم واستلبوها، وفي كل يوم نسمع من إذاعاتهم السخرية والاستهزاء بالعرب، والله تعالى يخاطبكم ويقول لكم: سيروا على الطريق الذي رسمته لكم وأنا معكم، فما بالكم؟ وما هذا التخاذل؟ أما ترون أنّ الله قادر على اكتساح اليهود من أرضكم؟ أما تؤمنون بوعد الله؟ أما تعتقدون بصدق القرآن؟ بلى إنكم تتصفون بالصبر دون الصلاة في قتل بعضكم بعضاً، ففي كل يوم لكم مجزرة يقتل فيها طائفة منكم، توهنون بذلك عضدكم، وتقللون عددكم؟ وتضعفون قوتكم، ولكن صبركم هذا ليس الصبر الذي أمر الله، وإنما هو أمر من الشيطان. آية واحدة من عشرات الآلاف، أما تعملون بها فيضمن لكم خير الدنيا والآخرة؟

قوله تعالى: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون (١٥٤).

لمّا أمرنا الله بالاستعانة بالصبر والصلاة على أداء واجباتنا ومنها الجهاد في سبيل الله، وحيث إنّه هو أشدّ الواجبات وأعظمها على البشر، نبّهنا أنّ المقتول في الجهاد سوف تستمر حياته في عالم البرزخ، فهو منعّم هناك فلا تسمّوه ميتاً وإن كانت هذه الحياة لا تشعرون بها أنتم.

وقد سئل الامام الصادق عليه السلام عن أرواح المؤمنين فقال: هي في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان [(١)].

ومثله كثير من الأخبار وإنّما خصّ الشهداء في الآية لمزيد قربهم الى الله وترغيباً للمؤمنين في الجهاد، فإنّ الحياة هناك خير من الحياة في الدنيا، فإنّ حياة الدنيا مشوبة بالابتلاء بما ذكره الله في الآية اللاحقة.

---

(١) بحار الانوار: ج٦١ ص٥١ ب٤٢ ح ٣٥، المحاسن: ج١ ص١٧٨ ح١٦٤.

وفي أمالي الشيخ عن يونس بن ظبيان قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فقال: مايقول الناس في أرواح المؤمنين بعد موتهم؟ قلت: يقولون في حواصل طيور خضر. فقال: سبحان الله! المؤمن أكرم على الله من ذلك اذا كان ذلك أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومعهم ملائكة الله عزّ وجلّ المقربون، فإن أنطق الله لسانه بالشهادة له بالتوحيد وللنبي صلى الله عليه وآله بالنبوة والولاية لأهل البيت عليهم السلام شهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والملائكة المقربون معهم، وإن اعتقل لسانه فإنّ نبيه عليه السلام يعلم ما في قلبه من ذلك، فيشهد به و شهد على شهادة النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين على جماعتهم من الله أفضل الصلاة والسلام ومن حضر معهم من الملائكة، فإذا قبض الله روحه اليه صيّر تلك الروح الى الجنة في صورة كصورته في الدنيا فيأكلون و يشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا [1].

وحكي عن المحاسن عن حماد بن عثمان عن أبي عبدالله قال: ذكر الأرواح أرواح المؤمنين فقال: يلتقون؟ قال: نعم يتساءلون و يتعارفون حتى اذا رأيته قلت فلان [2].

فتنبّهوا يا أهل هذا العصر، واعلموا أنكم اذا تبعتم هوى الكفار سوف يكون لكم بعد الموت كما يكون لهم من العذاب، وإذا متّم في جهادكم لدفعهم عن بلادكم فإنكم تكونون أحياء منعّمين، والسلام على من اتبع الهدى.

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين اذا أصابتهم مصيبة

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ج٢ ص٣٣، بحار الانوار: ج٦ ص٢٢٩ ب٨ ح٣٢.
(٢) المحاسن: ج١ ص١٧٨ ب٤٠ ح١٦٤.

قالوا انا لله وانا اليه راجعون (١٥٦) اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون (١٥٧).

لمّا أخبر الله عباده بأنه تفضّل عليهم بإرسال رسول منهم ، وأمرهم بتصديقه واستماع مايتلوه عليهم ، وأن يزكّوا أنفسهم بتقبل ما يأمرهم به من صفات الكمال، ثم بيّن لهم بأنّكم اذا وجدتم أنفسكم غير خاضعة لهذه الامور فاستعينوا على إخضاعها بالصبر والصلاة، وأخبرهم أنّ الصابر على حرّ الجلاد والمقتول في سبيل الله سيبقى حيّاً منعّماً في البرزخ ، ولاريب أنّ هذه التكاليف من الله هي ابتلاء واختبار ، حتى يتميز المطيع من العاصي ، وكذا الامور التي كلّف بها عباده من واجبات ومحرمات كلها اختبار لهم ، إلا أنّ العباد لمّا كانوا مختلفين في الطاعة والمعصية: فبعضهم يتقبل التكاليف من أول الأمر بلا حاجة الى الاستعانة بالصبر والصلاة ، و لكن شعاره الصبر و قرة عينيه الصلاة .

وقسم منهم لايمكنه إخضاع نفسه وتذليلها إلا بالاستعانة بالصبر والصلاة .

وقسم ثالث وهو الأغلب لم تؤثر فيه هذه الامور كلها، لاموعظة الله وإرشاده، ولامعجزة النبي ﷺ بل بقي مصراً على العصيان والشقاء، مع إقامة الحجة عليه كاملة ، فهذا القسم مستحق للعذاب ، ولكن رأفة الله ورحمته بعباده ليس لها حد، ولذا أعلمنا أنه سيبتلينا ويختبرنا بصورة اخرى من الاختبار ، فإنّ ذاك اختبار كان بتوجيه الأمر و النهي فقط ، وهذا النوع ممزوج بشيء من الآلام والأسقام والنقص في الأنفس والثمرات ليكون تذكرة لعقاب الآخرة .

و هذا الابتلاء موجود في زماننا هذا سنة ١٣٨٨ هـ ، فإنك ترى أغلب الناس مبتلى بأحد هذه الامور أو بأكثر من واحد ، ولكنّ العجب العجاب أنّ الناس لايشعرون ولايلتفتون بأنّ هذا هو ابتلاء من الله، فإنهم ينسبون ذلك الى

أعدائهم أو سوء تصرفهم أو الصدف كما يعبّرون، وتراهم لايقلعون عما هم عليه من الجرائم والمعاصي، فاذا سنحت لهم الفرصة اشتغلوا بالموبقات كما كانوا، ولهذا نرى أنّ الابتلاء مستمر ليس له أمد وانقطاع ولعله يكون كاستمرار حياة الشهيد التي ذكرت في الآية السابقة.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام كما في النهج قال: إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر (١).

وعن الصادق عليه السلام قال: إنّ هذه علامات قدام القائم ـ عجّل الله فرجه ـ تكون من الله للمؤمنين من الخوف: من ملوك بني امية في آخر سلطانهم، والجوع: بغلاء أسعارهم، ونقص من الأموال: فساد التجارات وقلّة الفضل، ونقص من الأنفس: الموت الذريع، ونقص من الثمرات: لقلّة ريع ما يزرع. «وبشّر الصابرين» بقية كلام الصادق عليه السلام: بشّر الصابرين عند ذلك بتعجيل خروج القائم عليه السلام. ثم قال: هذا تأويله «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» (٢).

ثم إنّ الصابرين الذين أمر الله النبي ببشارتهم لايخلو أمرهم إمّا أن يكونوا قد اتصفوا بملكة الصبر قبل ابتلاء الله الناس بهذه الامور أو بعد الابتلاء، فإن كان اتصافهم بالصبر قبل الابتلاء فإنهم لايبتلون بهذه الامور، لأنّ الله معهم كما في الآية السابقة، ومن كان الله معه لايبتلى بما ذكر لانتهاء اختباره ونجاحه بالايمان الحقيقي والتأييد والنصر من الله، ويؤيد هذا ما ذكر في سبب صبرهم وهو اعتقادهم الراسخ وإظهار هذا الاعتقاد بالقول والاعتراف بأنهم ملك لله تعالى.

«الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون» المالك يفعل ما يشاء في ملكه، ثم عقبه بقوله **«اولئك عليهم صلوات من ربهم.. الخ»**

---

(١) نهج البلاغة: ضبط صبحي الصالح، الخطبة ١٤٣ ص١٩٩.

(٢) تفسير البرهان: ج١ ص١٦٧، والاية ٧ من سورة آل عمران.

أي: أنّ هذا الصنف من الناس تكون عليهم صلوات ، أي تزكية وغفران ولطف من ربهم « ورحمة » أي: إحسان من الله ، فتكون بشارتهم برفع هذا البلاء عنهم ، لأنهم قد رجعوا الى الله وسلّموا الأمر إليه «واولئك هم المهتدون » الى طريق الحق حيث عرفوه بدلالة الله إيّاهم.

ما ذكره المراغي فى تفسيره

« كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا» أي: ولأتمّ نعمتي عليكم باستيلائكم على البيت الذي جعلته قبلة لكم ، و تطهيركم له من عبادة الأصنام، كما أتمّها عليكم بإرسال رسول منكم و هو محمد (ص) ، فالقبلة في بلادكم ، والرسول من امّتكم ، وهو يتلو عليكم آياتنا التي ترشدكم الى الحق وتهديكم الى سبيل الرشاد .

وهي تشمل آيات الكتاب الكريم وغيرها من الدلائل والبراهين التي تدل على وحدانية الله ، وعظيم قدرته، وبديع تصرفه في السموات والأرض.

ووجه المنّة في ذلك أنه يهديهم الى الحق مصحوباً بالدليل والبرهان ، دون التقليد والتسليم بلا تبصّر وفهم، وبذا يكون العقل مستقلاّ والدين له مرشداً وهادياً .

«ويزكّيكم» أي: يطهّر نفوسكم من أدران الرذائل التي كانت فاشية في العرب من وأد البنات ، وقتل الأولاد تخلّصاً من النفقة ، وسفك الدماء لأوهن الأسباب ، ويغرس فيها فاضل الأخلاق وحميد الآداب .

وبهذه الزكاة التي زكّوا بها أنفسهم، فتحوا الممالك الكبرى وكانوا أئمة الامم التي كانت تحتقر هذا الجنس ، وعرفوا لهم فضلهم بعدلهم وسياستهم للامم سياسة حكيمة، أنستهم سياسة الامم التي قبلهم ،وجعلت لذلك الدين أثراً في نفوسهم، فدانوا لحكمه خاضعين واهتدوا بهديه راشدين .

«ويعلّمكم الكتاب» أي: ويعلّمكم القرآن الكريم، ويبيّن لكم ما انطوى عليه من الحكم الالهية ، والأسرار الربانية التي لأجلها وصف بأنه هدى ونور. فالنبي ﷺ كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه ، حتى يبقى مصوناً من التحريف و التصحيف ، ويرشدهم الى ما فيه من أسرار وحكم ليهتدوا بهديه ويستضيؤوا بنوره.

«والحكمة» وهي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها الباعث على العمل بها . ذاك أنّ سنّة الرسول العملية وسيرته في بيته ومع أصحابه ـ في السلم والحرب و السفر والاقامة ، في القلّة والكثرة ـ جاءت مفصّلة لمجمل القرآن ، مبيّنة لمبهمه كاشفةً لما في أحكامه من الأسرار والمنافع .

ولولا هذا الارشاد العملي لما كان البيان القولى كافياً في انتقال الامّة العربية من طور الشتات والفرقة والعداء والجهل ، الى الائتلاف والاتحاد والتآخي والعلم وسياسة الامم .

فالنبي ﷺ وقف أصحابه على فقه الدين ، و نفذ بهم الى سره ، فكانوا حكماء ، علماء ، عدولاً ، أذكياء، حتى أنّ أحدهم كان يحكم المملكة العظيمة، ويقيم فيها العدل ، ويحسن السياسة ، و هو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه ، لكنه فقهه وعرف أسرار أحكامه .

« ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون» أي : ويعلّمكم مع الكتاب والحكمة ما ليس مصدر علمه النظر و الفكر، بل طريق معرفته الوحي كأخبار عالم الغيب ، و سير الأنبياء و أحوال الامم التي كانت مجهولة عندكم ، وأكثرها كان مجهولاً عند أهل الكتاب أيضاً، وقد بلغوا في هذا النوع من العلم مبلغاً فاقوا به سائر الامم.

«فاذكروني أذكركم» أي: اذكروني بالطاعة بألسنتكم بالحمد والتسبيح وقراءة كتابي الذي أنزلته على عبدي ، و بقلوبكم بالفكر والأدلّة التى نصبتها في

الكون لتكون علامة على عظمتي وبرهاناً على قدرتي ووحدانيتي، وبجوحكم بالقيام بما أمرتكم به واجتنابكم ما نهيتكم عنه، اجازيكم بالثواب والاحسان، وإفاضة الخير، وفتح أبواب السعادة، ودوام النصر والسلطان.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: يقول الله عزّ وجلّ: أنا عند ظن عبدي وأنا معه اذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، واذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً[1] الحديث.

وهذه أفضل تربية من الله لعباده، اذا ذكروه ذكرهم بإدامة النعم والفضل، واذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل.

وبعد أن أعلمهم ما يحفظ النعم، أرشدهم الى ما يوجب المزيد منها بمقتضى الجود والكرم فقال: «واشكروا لي ولا تكفرون» أي: واشكروا لي هذه النعم بالعمل بها وتوجيهها الى ما وجدت لأجله، والثناء عليّ بالقلب واللسان، والاعتراف بإحساني إليكم ولا تكفروا هذه المنن التي أوليتكموها بصرفها في غير ما يبيحه الشرع والسنن الالهية.

وهذا تحذير من الله لهذه الامّة حتى لاتقع فيما وقعت به الامم السابقة إذ كفرت بأنعم الله، فلم تستعمل العقل والحواس فيما خلقت لأجله، فسلبها ما كان قد وهبها تأديباً لها ولغيرها.

وقد امتثل المسلمون هذه الأوامر حيناً من الدهر، ثمّ تركوها بالتدريج فحلّ بهم ما ترى من النكال والوبال كما قال تعالى: «وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد»[2].

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين* ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون* ولنبلونّكم بشيء من

(١) راجع البخارى: ج٩ ص١٧٧ ب ١٢.

(٢) ابراهيم: ٧.

الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس و الثمرات و بشّر الصابرين *الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإناإليه راجعون* اولئكعليهم صلوات من ربّهم ورحمة واولئك هم المهتدون .

تفسير المفردات:

الصبر: توطين النفس على احتمال المكاره. والابتلاء : الاختبار و الامتحان. و المرادبالأموال : الانعامالتي كانتمعظمما يتموله العرب . والمصيبة: كل ما يؤذي الانسان في نفس أو مال أو أهل ، قلّ أو كثر. و الصلاة من الله : التعظيم و إعلاء المنزلة عنده و عند الناس . والرحمة : اللطف بمـا يكون لهم من حسن العزاء ، والرضا بالقضاء .

المعنىالجملي:

بعد أن ذكرسبحانه افتتان الناسبتحويل القبلة ، وأقامالحجّةعلىالشاغبين وبيّن فوائد التحويلللمؤمنين ومن أهمّها البشارة ، و كون ذلك طريقاً للهداية لما في الفتـن من تمييز الخبيث من الطيّب ، والمسلم من المنافق ، ثم قفى على ذلك بالأمر بذكره و شكره على هذه النعم ، ليستبين للناس أنّ تحويل القبلة الذي صوّره السفهاء بصورةالنعمة هو نعمة كبرى ومنّة عظمى.

بيّن فيهذه الآيات أنّ هذه النعم التي يجب ذكرها وشكرها تقرنبضروب من البلاء وألوان من المصائب . من أعظمها مايلاقيهأهل الحق من مقارعةأشياع الباطل كما حدث ذلك حين كانالمؤمنون في قلّة من العدد والعُدد تناوئهمالامم جمعاء ، وقد تألّب عليهم المشركون حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، كما لاقوا من أهلالكتاب عنتاً و كيداً . لهذا كلّه أمر عباده أن يستعينوا على مقاومة ذلك كله بالصبر والصلاة ، إذ في الصبر تربية ملكة الثبات وتعود تحمل المشاق

فيهون على النفس احتمال ما تلاقيه من المكاره في سبيل تأييد الحق ونصر الفضيلة ويظهر أثر ذلك في ثبات الانسان على إثبات حق أو إزالة باطل، أو الدعوة الى عقيدة أو تأييد فضيلة، ومصارعة الشدائد لأجل ذلك، وعلى هذا جرى النبي ﷺ وصحبه ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ حتى فازوا بعاقبة الصبر، ونصرهم الله نصراً مؤزراً على قلّتهم وضعفهم عن جميع الامم التي حواليهم.

وفي الصلاة التوجه الى الله ومناجاته وحضور القلب معه سبحانه، واستشعار المصلّي الهيبة والجلال وهو واقف بين يدي ربه، كما جاء في الحديث: اعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1].

وهو بهذا الشعور المالك للبّه المالىء لقلبه، يستسهل في سبيله كل صعب ويستخف بكل كرب، ويحتمل كل بلاء ويقاوم كل عناء، فلا تتوق نفسه لما لا يرضى ربه الذي يلجأ اليه في الملمّات، ويركن اليه اذا أفزعته النائبات.

وليست الصلاة التي عناها الكتاب الكريم هي مجرد القيام والركوع والسجود والتلاوة باللسان خاصة، والتي نشاهد من معتاديها الاصرار على الفواحش والمنكرات واجتراح السيئات، إذ لا أثر لها مما وصفه الله بقوله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»[2] وقوله «إنّ الانسان خلق هلوعاً * اذا مسّه الشر جزوعاً * واذا مسّه الخير منوعاً * إلا المصلّين»[3] ومن ثم نرى الذين يصلّون هذه الصلاة أضعف الناس قلوباً وأشدهم اضطراباً اذا عرض لهم شيء على غير ما يرون، وما كان للمصلّي أن يكون ضعيف القلب عادم الثقة بالله، والله يبرئه من ذلك ويقول «إلّا المصلّين».

الايضاح:

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة» أي: استعينوا على إقامة

---

(١) بحار الانوار: ج ٧٧ ص ٧٤ ب ٤ ح ٣.
(٢) العنكبوت: ٤٥.
(٣) المعارج: ١٩ ـ ٢٢.

دينكم والدفاع عنه، وعلى سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة، بالصبر وتوطين النفس على احتمال المكاره، و بالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله عزّ اسمه، وتصغر بمناجاته فيها كل المشاق.

وإنما خصّ الصبر والصلاة بالذكر لأنّ الصبر أشدّ الأعمال الباطنة على البدن، والصلاة أشدّ الأعمال الظاهرة عليه، إذ فيها خضوع واستسلام لله، وتوجّه بالقلب إليه، واستشعار لعظمة الخالق، و قد روي أنه (ص) كان اذا حزبه أمر «اشتدّ عليه» فزع الى الصلاة وتلا هذه الآية.

«إنّ الله مع الصابرين» أي: إنّ الله ناصرهم ومجيب دعوتهم، و من كان الله ناصره فلا غالب له، أمّا الجازع فقلبه لاهٍ عن ذكر الله، والقلب اللاهي ممتلىء بهموم الدنيا وأكدارها وإن حاز الدنيا بحذافيرها.

وقد جرت سنّة الله، أنّ الأعمال العظيمة لا تنجح إلا بالثبات والدأب عليها، ومدار ذلك كلّه الصبر، فمن صبر فهو على سنّة الله والله معه، فيسهّل له العسير من أمره، ويجعل له فرجاً من ضيقه، ومن لم يصبر فليس الله معه لأنه تنكّب عن سنّته، فلن يبلغ قصده وغايته.

«ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» أي: ولا تتحدّثوا في شأنهم فتقولوا إنهم أموات بل هم أحياء في عالم غير عالمكم، ولكن لا تشعرون بحياتهم إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر، بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس، وبها يرزقون وينعمون ولا نعرف حقيقة هذه الحياة ولا الرزق الذي يكون فيها ولا نبحث عن ذلك، لأنه من عالم الغيب فنفوض أمره الى الله، وقيل: إنها حياة روحانية محضة لا ندرك سرها.

وقد أبان سبحانه في هذه الآية جزاء ما يلاقيه المؤمن في تأييد الدعوة الى

دينه مما يصل به أحياناً الى القتل في التغلب على من يصدّ الناس عن الدعوة، ويقاتل في الدفاع عن الباطل، فذكر ما أعدّ له من النعيم المقيم والرزق المتواصل والحياة التي لايعرف كنهها إلا علّام الغيوب جزاء مافعل، لتأييد حجّة الله البالغة والجهر بالحق والصدع بأمر ربّه، فكان له ما كان مما لم تره عين ولا سمعت به اذن ولاخطر على قلب بشر.

«ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات» أي: والله لنمتحننّكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء، وببعض المصائب المعتادة في المعاش كالجوع ونقص الثمار، إذ كان أحدهم يؤمن فيفصل من أهله وعشيرته، ويخرج صفر اليدين، حتى لقد بلغ من جوعهم أن كانوا يتبلّغون بتمرات يسيرات ولا سيما في غزوتي الأحزاب وتبوك، وبنقص الأنفس بالقتل والموت من اجتواء المدينة، فقد كانت حين الهجرة بلد وباء وحمى ثم حسن مناخها.

وفي الآية إيماء الى أن الانتساب الى الايمان لايقتضي سعة الرزق، وبسط النفوذ وانتفاء المخاوف، بل كل ذلك يجري بحسب السنن التي سنّها الله لخلقه، فتقع المصائب متى وجدت أسبابها، وكامل الايمان يتأدب بمقاومة الشدائد ويتهذب بوقوع الكوارث.

«وبشّر الصابرين * الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» أي: وبشّر الصابرين الذين يقولون هذه المقالة المعبّرة عن الايمان بالقضاء والقدر، بالظفر بحسن العاقبة في امورهم كلّها بحسب ما وضع من السنن في الكون، والصبر ينافي ما يحدث من الحزن حين حلول المصيبة، فإنّ ذلك من الرقّة و الرحمة الطبيعيين في الانسان.

وقد جاء في الصحيحين أنّ النبي (ص) بكى عندما حضر ولده إبراهيم الموت

فقيل له : أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟قال : إنها الرحمة، ثم قال :إنّ العين لتدمع، وإنّ القلب ليجزع،و لانقول إلا مايرضي ربنا،وإنا بفراقك ياإبراهيم لمحزونون .

والجزع المذموم هو الذي يدعو صاحبه الى فعل مايمجه العقل وينهى عنه الشرع ، مما نرى مثله عند الجماهير اذا حلّت بهم المصائب ونزلت بهم الكوارث.

روى مسلم عن امّ سلمة ـرضي الله عنهاـ أنها قالت : سمعت رسول الله (ص) يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّهمّ آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، إلا آجره الله في مصيبته ،وأخلف له خيراً منها.

وأخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال : من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته، وأحسن عاقبته،وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه.

و في قوله «إنا لله» إقرار بالعبودية والملك . وفي قوله «وإنا إليه راجعون» إقرار بالفناء والبعث من القبور ، واليقين بأنّ مرجع الأمر كلّه لله تعالى.

«اولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة» أي: اولئك الصابرون لهم من ربهم مغفرة ومدح على مافعلوا ، ورحمة يجدون أثرها في برد القلوب عند نزول المصيبة وهذه الرحمة يحسد عليها الكافرون المؤمنين، فإنّ الكافر الذي حرم من هذه الرحمة اذا نزلت به المصيبة تضيق به الأرض بما رحبت ، حتى قد يقضي على نفسه بيده اذا لم يجد وسيلة للخلاص مما حلّ به.

«واولئك هم المهتدون » الى الحق والصواب ومن ثم استسلموا للقضاء ، فلم يستحوذ الجزع على نفوسهم ففازوا بخير الدنيا والراحة فيها ، وسعادة الآخرة بتزكية النفس وتحلّيها بمكارم الأخلاق وصالح الأعمال [1] انتهى كلام المراغي.

ما ذكره سيد قطب في تفسيره

« كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم

(١) تفسير المراغي: ج٢ ص٢٣ ـ ٢٥ .

الكتاب والحكمة ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» و الذي يلفت النظر هنا أنّ الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل ، دعوته أن يبعث الله في بنيه من جيرة البيت رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته و يعلّمهم الكتاب والحكمة و يزكّيهم ، ليذكّر المسلمين أنّ بعثة هذا الرسول فيهم ووجودهم هم أنفسهم مسلمين هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم ، وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأنّ أمرهم ليس مستحدثاً إنما هو قديم ، و أنّ قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم ، وأنّ نعمة الله عليهم سابغة فهي نعمة الله التي وعدها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد .

إنّ نعمة الله توجيهكم الى قبلتكم وتمييزكم بشخصيتكم هي إحدى الآلاء المطردة فيكم ، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم .

« كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم» فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم، وأن يختار الرسول الأخير منكم ، وقد كانت اليهود تستفتح به عليكم .

«يتلو عليكم آياتنا » فما يتلو عليكم هو الحق، والايحاء الآخر هو الاشعار بعظمة التفضّل في أن يخاطب الله العبيد بكلامه، يتلوه عليهم رسوله وهو تفضّل يرتعش القلب إزاءه حين تتعمّق حقيقته ، فمن هم هؤلاء الناس؟ من هم وما هم حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته، ويتحدث إليهم بقوله ويمنحم هذه الرعاية الجليلة؟ من هم وما هم لولا أنّ الله يتفضّل . ولولا أنّ فضل الله يفيض ، ولولا أنّ سبحانه منذ المبدأ منحهم فضل النفحة من روحه ،ليكون فيهم ما يستأهل هذا الانعام و ما يستقبل هذا الافضال ؟

«ويزكّيكم» ولولا الله ما زكّى منهم من أحد ، ولا تطهّر ولا ارتقع،ولكنه

أرسل رسوله (ص) يطهّرهم ، يطهّر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ورجس التصورات التي تثقل الروح الانساني وتطمره . ويطهّرهم من لوثة الشهوات والنزوات، فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة ، والذين لا يطهّر الاسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلّها قديماً وحديثاً يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات تزري بإنسانية الانسان ، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة ، و هي أنظف كثيراً مما يحبط إليه الناس بدون الايمان، ويطهّر جمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب ، وهي كلّها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ويلطخ المجتمع والحياة ويطهّر حياتهم من الظلم والبغي ، وينشر العدل النظيف الصريح الذي لم تستمتع به البشرية ، كما استمتعت في ظلّ الاسلام وحكم الاسلام ومنهج الاسلام ، ويطهّرهم من سائر اللوثات التي تلطخ وجه الجاهلية في كل مكان من حولهم ، وفي كل مجتمع لا يزكّيه الاسلام بروحه ومنهجه النظيف الطهور.

«ويعلّمكم الكتاب والحكمة» و فيها شمول ما سبق من تلاوة الآيات و هي الكتاب، وبيان للمادة الأصيلة فيه وهي الحكمة ، والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب و هي ملكة يأتي معها وضع الامور في مواضعها الصحيحة، ووزن الامور بموازينها الصحيحة، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات، و كذلك تحققت هذه الثمرة ناضجة لمن ربّاهم رسول الله و زكّاهم بآيات الله .

«ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون» و كان ذلك حقاً في واقع الجماعة المسلمة فقد التقطها الاسلام من البيئة العربية لا تعلم إلا أشياء قليله متناثرة تصلح لحياة القبيلة في الصحراء ، أو في تلك المدن الصغيرة المنعزلة في باطن الصحراء ، فجعل منها امّة تقود البشرية قيادة حكيمة راشدة خبيرة بصيرة عالمة، وكان هذا القرآن مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن هو مادة التوجيه والتعليم ، وكان مسجد رسول الله الذي يتلى فيه القرآن والتوجيهات المستمدة من القرآن ، هو

الجامعة الكبرى الذي تخرج فيها ذلك الجيل الذي قاد البشرية تلك القيادة الحكيمة الراشدة ، القيـادة التي لم تعرف لها البشرية نظيراً من قبل ولا من بعد في تاريخ البشرية الطويل ، و ما يزال هذا المنهج الذي خرج ذلك الجيل و تلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان لو رجعت الامّة المسلمة الي هذا المعين، ولو آمنت حقاً بهذا القرآن ولو جعلته منهجاً للحياة لا كلمات تتغنى باللسان لتطريب الآذان ، و في آخر هـذا الدرس يتفضّل الله على المسلمين تفضّلاً آخر وهو يدعوهم الى شكره ، ويحذّرهم من كفره، يتفضّل عليهم فيضمن لهم أن يذكرهم اذا هم ذكروه .

«فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» يا للتفضل الجليل الودود، الله جلّ جلاله يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئاً لذكرهم له في عالمهم الصغير، إنّ العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة ، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة ، والله حين يذكرهم يذكرهم في هذا الكون الكبير وهو الله العلي الكبير ، أيّ تفضّل وأيّ كرم وأيّ فيض في السماحة والجود .

«فاذكروني أذكركم» إنّه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه ولا حاسب لعطاياه ، الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فيّاض العطاء، وفي الصحيح يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه. وفي الصحيح أيضاً قال رسول الله (ص): قال الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة (أو قال: في ملأ خير منه) وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة . إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ولا يعبّر عن شكره الحق إلا سجود القلب . وذكر الله ليس لفظ باللسان إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه

والشعور بالله ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثراً ينتهي الى الطاعة في حده الأدنى والى رؤية الله وحده ، ولاشيء غيره لمن يهبه الله الوصول و يذيقه حلاوة اللقاء .

« واشكروا لي ولاتكفرون » والشكر لله درجات تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته ، و تنتهي بالتجرد لشكره والقصد الى هذا الشكر في كل حركة بدن ، وفي كل لفظة لسان ، وفي كل خفقة قلب ، وفي كل خطرة جنان .

والنهي عن الكفر هنا المانع الى الغاية التي ينتهي إليها التقصير في الذكر والشكر ،وتحذير من النقطة البعيدة التي ينتهي إليها هذا الخط التعيس والعياذ بالله .

ومناسبة هذه التوجيهات والتحذيرات في موضوع القبلة واضحة ، و هي النقطة التي تنتهي عندها القلوب لعبادة الله والتميز بالانتساب إليه والاختصاص بهذا الانتساب .

وهي كذلك واضحة في مجال التحذير من كيد اليهود ودسّها ، وقد سبق أنّ الغاية الأخيرة لكل الجهود هي : ردّ المؤمنين كفّاراً وسلبهم هذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، نعمة الايمان أكبر الآلاء التي ينعم الله بها على فرد أو جماعة من الناس ، وهي بالقياس الى العرب خاصة ، النعمة التي أنشأت لهم وجوداً وجعلت لهم دوراً في التاريخ ، وقرنت اسمهم برسالة يؤدونها للبشر وكانوا بدونها ضائعين ولولاها لظلّوا ضائعين ، وهم بدونها أبداً ضائعون فمالهم من فكرة يؤدون بها دوراً في الأرض غير الفكرة التي انبثقت منها ، وماتنقاد البشرية لقوم لايحملون فكرة تقود الحياة و تنمّيها ، و فكرة الاسلام برنامج حياة كامل لا كلمة تقال باللسان بلارصيد من العمل الايجابي المصدّق لهذه الكلمة الطيبة الكبيرة .

وتذكّر هذه الحقيقة واجب على الامّة المسلمة ليذكرها الله فلاينساها ومن نسيه الله فهو مغمور ضايع لاذكر له في الأرض ، ولاذكر له في الملأ الأعلى ، ومن ذكر الله ذكره ، ورفع من وجوده ، وذكر في هذا الكون العريض .

و لقد ذكر المسلمون الله فذكرهم و رفع ذكرهم و مكّنهم من القيادة الراشدة، ثم نسوه فنسيهم فإذا هم همل ضايع و ذيل تافه ذليل و الوسيلة قائمة والله يدعوهم في قرآنه الكريم «فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون».

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة إنّ الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين * الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون * اولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة واولئك هم المهتدون».

بعد تقرير القبلة وافراد الامّة المسلمة بشخصيتها المميّزة التي تتفق مع حقيقة تصورها المميّزة كذلك، كان أول توجيه لهذه الامّة ذات الشخصية الخاصة و الكيان الخاص. هذه الامّة الوسط الشهيدة على الناس كان أول توجيه لهذه الامّة: هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم، و الاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء، و نقص الأموال والأنفس والثمرات والخوف والجوع ومكابدة أهوال الجهاد لاقرار منهج الله في الأنفس، وإقراره في الأرض بين الناس وربط قلوب هذه الامّة بالله وتجردها له وردّ الامور كلها إليه، كلّ اولئك في مقابل رضا الله و رحمته وهدايته: وهي وحدها جزاء ضخم للقلب المؤمن الذي يدرك قيمة هذا الجزاء.

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين» يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً، ذلك أنّ الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، و الذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات و العقبات، و الذي يتطلب أن تبقى

النفس مشدودة الأعصاب مجنّدة القوى يقظة للمداخل والمخارج، ولابدّ من الصبر في هذا كله، لابدّ من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقّين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتعاش الباطل، و الصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومظاظة الاعراض.

وحين يطول الأمد ويشقّ الجهد قد يضعف الصبر أو ينفذ اذا لم يكن هناك زاد ومدد، و من ثم يقرن الصلاة الى الصبر، فهي المعين الذي لاينضب، و الزاد الذي لاينفد، المعين الذى يجدد الطاقة، و الزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولاينقطع، ثم يضيف الى الصبر الرضا والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين.

إنه لابدّ للانسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى يستمدّ منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد، وهي عنيفة حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً، وقد أوشك المغيب ولم ينل شيئاً، و شمس العمر تميل للغروب حينما يجد الشر نافشاً [١]، والخير ضاوياً [٢]، والاشعاع في الافق ولامعلّم في الطريق.

هنا تبدو قيمة الصلاة، إنها الصلة المباشرة بين الانسان الفاني والقوة الباقية إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لايغيض [٣]، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض. إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير

(١) أى خصباً ومقبلا عليه.

(٢) ضعيفاً وهزيلا.

(٣) ينقص أو ينضب.

الى مجال الواقع الكون الكبير ، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود ، و من هنا كان رسول الله (ص) اذا كان في الشدة قال : أرحنا بها يا بلال . و يكثر من الصلاة إذا حزّ به أمر ليكثر من اللقاء بالله .

إنّ هذا المنهج الاسلامي منهج عبادة، والعبادة فيه ذات أسرار، ومن أسرارها أنها زاد الطريق ، وأنها مدد روح ، وأنها جلاء القلب ، وأنه حيث ماكان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوّق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر ، إنّ الله سبحانه حينما انتدب محمداً للدور الكبير الشاق الثقيل قال له :

«يا أيها المزمّل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً * إنا سنقلي عليك قولاً ثقيلاً»[1] فكان الاعداد للقول الثقيل والتكليف الشاق والدور العظيم : هو قيام الليل وترتيل القرآن ، إنها العبادة التي تفتح القلب ، و توثق الصلة، وتيسر الأمر ، و تشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان .

و من ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام الى الصبر والى الصلاة ، ثم يجيء التعقيب بعد هذا التوجيه .

«إنّ الله مع الصابرين» معهم يؤيّدهم و يثبّتهم و يقوّيهم و يؤنسهم ، و لايدعهم يقطعون الطريق وحدهم و لايتركهم لطاقتهم المحدودة و قوّتهم الضعيفة ، إنما يمدهم حين ينفذ زادهم ، ويجدد عزيمتهم حين يطول بهم الطريق وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب « يا أيها الذين آمنوا » و يختم النداء بذلك التشجيع العجيب « إنّ الله مع الصابرين » .

والأحاديث فى الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبته للسياق القرآني هنا في

(١) المزمل : ١ ـ ٥ .

إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبئها والقيام بدورها .

عن خباب بن الأرت قال : شكونا الى رسول الله (ص) و هو متوسّد بردة في ظلّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قدكان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه و عظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليأتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

و عن ابن مسعود قال : كأني أنظر الى رسول الله يحكي نبياً من الأنبياء عليه السلام ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه و يقول : اللّهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

وعن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي (ص) قال : قال رسول الله: المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .

والآن والجماعة المسلمة في المدينة مقبلة على جهاد شاق لاقرار منهج الله في الأرض ، و لأداء دورها المقسوم لها في قدر الله ، ولتسلّم الراية والسير بها في الطريق الشاق الطويل . الآن يأخذ القرآن في تعبئتها تعبئة روحية و في تقويم تصوّرها لما يجري في أثناء هذا الجهاد من جذب ودفع ومن تضحيات وآلام ،وفي إعطائها الموازين الصحيحة التي تقدر بها القيم في هذه المعركة الطويلة تقديراً صحيحاً.

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون »

إنّ هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق ، شهداء في سبيل الله ، قتلى أعزاء أحبّاء، قتلى كراماً أزكياء ، فالذين يخرجون في سبيل الله والذين

يضحّون بأرواحهم في معركة الحق ، هم عادةً أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس، هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً إنهم أحياء، فلايجوز أن يقال عنهم أموات ، لا يجوز أن يعتبروا أمواتاً في الحسّ والشعور ، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان، إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه فهم لابدّ أحياء.

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر وحسب ما ترى العين ، و لكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة، إنّ سمة الحياة الاولى هي الفعالية والنمو والامتداد، وسمة الموت الاولى هي السلبية والجمود والانقطاع، و هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة الفكرة التي من أجلها قتلوا، ترتوي بدمائهم وتمتد ، وتؤثر الباقين من ورائهم باستشهادهم يقوى و يمتد ، فهم ما يزالون عنصراً فعالًا دافعاً مؤثراً في تكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هي صفة الحياة الاولى فهم أحياء أولًا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس .

ثم هم أحياء عند ربهم، إمّا بهذا الاعتبار وإمّا باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه وحسبنا أخبار الله تعالى به «أحياء ولكن لاتشعرون » لأنّ كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود ولكنهم أحياء .

أحياء ومن ثم لايغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها ، فالغسل تطهير للجسد الميت، وهم أطهار بما فيهم من حياة وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء .

أحياء فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء ، أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء، أحياء فلايصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ولا يتعاظمها الأمر ولا يهولنها عظم الفداء.

ثم هم بعد كونهم أحياء مكرمون عندالله مأجورون أكرم الاجرة وأوفاه .

في صحيح مسلم : إنّ أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى قناديل معلّقة تحت العرش فاطّلع عليهم ربك اطّلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا: ياربنا وأيّ شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلمّا رأوا أنهم لايتركون من أن يسألوا. قالوا : نريد أن تردنا الى دار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة اخرى لما يرون من ثواب الشهادة ، فيقول الربّ جلّ جلاله : إني كتبت أنهم إليها لايرجعون .

وعن أنس قال: قال رسول الله (ص): ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلّا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة، ولكن من هم هؤلاء الشهداء الاحياء؟ إنهم اولئك الذين يقتلون في سبيل الله ، في سبيل الله وحده دون شركة في إشارة ولاهدف ولاغاية إلا الله، في سبيل هذا الحق الذي أنزله في سبيل هذا المنهج الذي شرعه، في سبيل هذا الدين الذي اختاره ، في هذا السبيل وحده ، لا في أي سبيل آخر، ولاتحت أيّ شعار آخر ، ولاشركة مع هدف أو شعار ، وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر غير الله .

وعن أبي موسى قال : سئل رسول الله (ص) عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء، أيّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

وعن أبي هريرة أنّ رجلاً قال: يارسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا، فقال: لاأجر له، فأعاد عليه ثلاثاً كلّ ذلك يقول: لاأجر له.

وعنه قال: قال رسول الله (ص): تضمّن الله تعالى لمن خرج في سبيل الله، لايخرجه إلاجهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن ادخله الجنة أو ارجعه الى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي

نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله عز وجل أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعوني ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فاقتل، ثم أغزو فاقتل، ثم أغزو فاقتل.

فهؤلاء هم الشهداء، هؤلاء الذين يخرجون في سبيل الله لا يخرجهم إلا الجهاد في سبيله وإيمان به وتصديق برسله.

ولقد كره رسول الله (ص) لفتى فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته في مجال الجهاد.

عن عبدالرحمن بن أبي عقبة، عن أبيه ـ وكان مولى من أهل فارس ـ قال: شهدت مع النبي (ص) أحداً، فضربت رجلاً من المشركين فقلت: خذها وأنا الغلام الفارسي، فالتفت الي النبي (ص) فقال: هلّا قلت: وأنا الغلام الأنصاري، إن ابن اخت القوم منهم وإن مولى القوم منهم.

فلقد كره (ص) أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين، وهذا هو الجهاد، وفيه وحده تكون الشهادة وتكون الحياة للشهداء.

ثم يمضي السياق في التعبئة لمواجهة الأحداث، وفي تقويم التصور لحقيقة الأحداث.

«ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين* الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون».

ولابد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات. ولابد من هذا

البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف ، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها ، لا يعز عليهم للتخلي عنها عند الصدمة الاولى، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها، قبل أن تعز في نفوس الآخرين ، وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم وكانوا أظن بها ، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها،وصبرهم على بلائها ، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه ، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها مقدرين لها مندفعين إليها ، وعندئذ يجيء نصر الله والفتح، ويدخل ناس في دين الله أفواجاً، ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى ، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومدخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد والقيم والموازين والتصورات. ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب .

وأهم من هذا كله أو القاعدة لهذا كله الاتجاه الى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها وتتوارى الأوهام وهي شتى ، ويخلو القلب الى الله وحده لا يجد سنداً إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تتجلى الغشاوات، وتتفتح البصيرة ،وينجلي الافق على مد البصر لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا اليه ، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح.

والنص القرآني هنا يصل بالنفس الى هذه النقطة على الافق .

«وبشر الصابرين * الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون».

إنا لله كلنا ، كل ما فينا، كل كياننا وذاتيتنا لله ، وإليه المرجع والمآب في كل

أمر ، وفي كل مصير ، التسليم، التسليم المطلق ، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة وبالتصور الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل، وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل.

«اولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة واولئك هم المهتدون» صلوات من ربّهم يرفعهم بها الى المشاركة في نصيب نبيهم الذى يصلّي عليه هو وملائكته سبحانه ، وهو مقام كريم ورحمة وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون ، وكل أمر من هذا هائل عظيم .

وبعد فلابدّ من وقفة أمام هذه الخاتمة ، في تلك التعبئة للصف الاسلامي ، التعبئة في مواجهة المشقة والجهد والاستشهاد ، والقتل والجوع والخوف و نقص الأموال و الأنفس و الثمرات ، التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف، إنّ الله يضع هذا كلّه في كفة ، و يضع في الكفة الاخرى أمراً واحداً «صلوات من ربّهم ورحمة واولئك هم المهتدون» إنه لايعدهم هنا نصراً، ولايعدهم هنا تمكيناً ، ولا يعدهم هنا مغانم ، ولا يعدهم هنا شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يعدّ هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها ، وأكبر من حياتها فكان من ثم يجردها من كل غاية ، ومن كل هدف ، و من كل رغبة من الرغبات البشرية ، حتى الرغبة في انتصار العقيدة ، كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق لهُ ولطاعته ولدعوته ، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لايتطلعون الى شيء ، إلا رضا الله و صلواته و رحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون ، هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية ، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها، فأمّا ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم إنما هو لدعوة الله التي يحملونها .

إنّ لهم في صلوات الله و رحمته و شهادته جزاءً على التضحية بالأموال

والأنفس والثمرات، وجزاءً على الخوف والجوع والشدة، وجزاءً على القتل والشهادة، إنّ الكفّة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر و أرجح من التمكين، وأرجح من شفاء غيض الصدور. هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده لذلك الاعداد العجيب، وهذا هو المنهج الالهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين [1] انتهى ما في ظلال القرآن.

ما ذكره ابن كثير في تفسيره

«كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا و يزكّيكم و يعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون*فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» يذكّر الله عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ اليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكّيهم أي يطهّرهم من رذائل الأخلاق و دنس النفوس و أفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات الى النور، ويعلّمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنّة، ويعلّمهم مالم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفّهون بالقول، فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته الى حال الأولياء وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً وأبرّهم قلوباً وأقلّهم تكلّفاً وأصدقهم لهجةً، وقال تعالى، «لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم» [2] الآية، وذمّ من لم يعرف هذه النعمة فقال تعالى: «ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البور» [3].

قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمد (ص) و لهذا ندب الله المؤمنين الى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، و قال: «فاذكروني أذكركم

(١) في ظلال القرآن: ج١ ص١٣٨ – ١٤٦.
(٢) آل عمران: ١٦٤.
(٣) ابراهيم: ٢٨.

واشكروا لي ولاتكفرون» .

قال مجاهد في قوله «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم» يقول : كما فعلت فاذكروني .

قال عبدالله بن وهب عن هاشم بن سعيد عن زيد بن أسلم: إنّ موسى عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، واذا نسيتني فقد كفرتني .

وقال الحسن البصري وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس: إنّ الله يذكر من ذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذب من كفره .

وقال بعض السلف في قوله تعالى : «اتقوا الله حقّ تقاته» [1] قال : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

و قال ابن أبي حاتم : حدّثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا عمارة الصيدلاني ، أخبرنا مكحول الازدي قال : قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله تعالى وقد قال الله تعالى : «فاذكروني أذكركم»؟ قال :اذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت.

وقال الحسن البصري في قوله : «فاذكروني أذكركم» قال : اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي .

و عن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي . و في رواية: برحمتي .

وعن ابن عباس في قوله : «اذكروني أذكركم» قال: ذكر الله إيّاكم أكبر من ذكركم إيّاه .

وفي الحديث الصحيح: يقول الله تعالى :من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

قال الامـام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله (ص) : قال الله عزّ وجلّ : يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة ـ أو قال ـ : في ملأ خير منه ، وإن دنوت منّي شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة. صحيح الاسناد أخرجه البخاري من حديث قتادة، وعنده قال قتادة : الله أقرب بالرحمة .

وقوله : «واشكروا لي ولا تكفرون» أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال : « وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد» [1] .

و قال الامـام أحمد : حدّثنا روح ، حدّثنا شعبة ، عن الفضيل بن فضالة ـ رجل من قيس ـ حدّثنا أبو رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إنّ رسول الله (ص) قال: من أنعم الله عليه نعمة فإنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على خلقه. وقال روح مرة : على عبده .

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة إنّ الله مع الصابرين* ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» .

لمّا فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر والارشاد والاستعانة بالصبر و الصلاة ، فإنّ العبد إمّا يكون في نعمة فيشكر عليها أو في نقمة فيصبر عليها ، كما جاء في الحديث «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له» وبيّن تعالى أنّ أجود ما يستعان به على المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» [2] .

---

(١) ابراهيم : ٧ .

(٢) البقرة : ٤٥ .

وفي الحديث: أنّ رسول الله (ص) كان إذا حزّ به أمر صلّى.

و الصبر على أنواع : فصبر على ترك المحارم و المآثم ، و صبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود .

و أمّا الصبر الثالث : و هو الصبر على المصائب و النوائب فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعائب كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الصبر في بابين : الصبر لله بما أحبّ و إن ثقل على الأنفس والأبدان ، و الصبر لله عمّا كره فهو من الصابرين الذي يسلم عليهم إن شاء الله .

و قال علي بن الحسين زين العابدين : اذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد : أين الصابرون ليدخلون الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون : الى أين يا بني آدم ؟ فيقولون : الى الجنة ، فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ، قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا: وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، و صبرنا عن معصية الله ، حتى توفّانا الله ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

قلت : ويشهد لهذا قوله تعالى : «إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب»[1] .

وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه . وقد يجزع الرجل وهو متجلّد لا يرى منه إلا الصبر .

وقوله تعالى : «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء» يخبر تعالى أنّ الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم : أنّ أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ...

وقال الامام أحمد : حدّثنا يزيد وعباد بن عباد قالا : حدّثنا هشام بن أبي هشام حدّثنا عباد بن زياد عن امّه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن علي عن النبي (ص) قال: ما من مسلم و لا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها و إن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم اصيب .

---

(١) الزمر : ١٠ .

ورواه ابن ماجة في السنن عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن امّه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. وقد رواه إسماعيل بن علية و يزيد ابن هارون عن هشام بن زياد عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها.

و قال الامام أحمد : أخبرنا يحيي بن إسحاق السيلحيي ، أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال : دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة ـ يعني الخولاني ـ فأخرجني و قال لي : ألا ابشّرك ؟ قلت : بلى ، قال : حدّثني الضحاك بن عبدالرحمن بن عوزب ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله (ص) : قال الله : ياملك الموت ، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينيه وثمرة فؤاده؟ قال : نعم ، قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع ، قال : ابن له بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد .

ثم رواه عن علي بن إسحاق عن عبدالله بن المبارك فذكره ، و هكذا رواه الترمذي عن سويد بن ناصر بن المبارك به وقال : حسن غريب ، و اسم أبي سنان عيسى بن سنان [1] انتهى كلام ابن كثير .

ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره

«ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين* ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون* و لنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس و الثمرات و بشّر الصابرين * الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون * اولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة واولئك هم المهتدون » [2] .

بيان :

خمس آيات متّحده السياق متّسقة الجمل ملتئمة المعاني ، يسوق أولها الى

(١) تفسير ابن كثير : ج١ ص٣٤٤ ـ ٣٤٩ .

آخرها ويرجع آخرها الى أولها، وهذا يكشف عن كونها نازلة دفعة غير متفرقة وسياقها ينادي بأنها نزلت قبيل الأمر بالقتال وتشريع حكم الجهاد ، ففيه ذكر من بلاء سيقبل على المؤمنين و مصيبة ستصيبهم ، ولا كل بلاء ومصيبة بل البلاء العمومي الذي ليس بعاديّ الوقوع مستمرّ الحدوث ، فإن نوع الانسان كسائر الأنواع الموجودة في هذه النشأة الطبيعية لا يخلو في أفراده من حوادث جزئية يختل بها نظام الفرد في حياته الشخصية ، من موت ومرض وخوف وجوع وغم وحرمان سنّة الله التي جرت في عباده وخلقه ، فالدار دار التزاحم ، و النشأة نشأة التبدل والتحول « ولن تجد لسنّة الله تحويلاً »[1] «ولن تجد لسنّة الله تبديلاً»[2] .

والبلاء الفردي وإن كان شاقاً على الشخص المبتلى بذلك مكروهاً ، لكن ليس مهولاً مهيباً تلك المهابة التي تتراءى بها البلايا و المحن العامة ، فإنّ الفرد يستمد في قوة تعقله وعزمه وثبات نفسه من قوة سائر الأفراد .

وأمّا البلايا العامة الشاملة فإنها تسلب الشعور العمومي وحملة الرأي والحزم و التدبير من الهيئة المجتمعة ، و يختل به نظام الحياة منهم ، فيتضاعف الخوف وتتراكم الوحشة ويضطرب عندها العقل والشعور وتبطل العزيمة والثبات. فالبلاء العام والمحنة الشاملة أشقّ و أمر ، وهو الذي تلوح به الآيات ، ولا كل بلاء عام كالوباء و القحط ، بل بلاء عام قربتهم منها أنفسهم ، فإنهم أخذوا دين التوحيد وأجابوا دعوة الحق وتخالفهم فيه الدنيا وخاصة قومهم ، وما لهؤلاء همّ إلا إطفاء نور الله واستئصال كلمة العدل وإبطال دعوة الحق . ولا وسيلة تحسم مادة النزاع وتقطع الخلاف غير القتال، فسائر الوسائل كإقامة الحجة وبثّ الفتنة وإلقاء الوسوسة والريبة وغيرها صارت بعد عقيمة غير منتجة ، فالحجة من النبي ﷺ والوسوسة والفتنة والدسيسة ما كانت تؤثر أثراً تطمئن إليه أعداء الدين ، فلم يكن عندهم

---

(١) فاطر : ٤٣.

(٢) الاحزاب : ٦٢، الفتح : ٢٣ .

وسيلة إلا القتال والاستعانة به على سدّ سبيل الحق ، و إطفاء نور الدين اللامع المشرق ، هذا من جانب الكفر .

والأمر من جانب الدين أوضح ، فلم يكن الى نشر كلمة التوحيد وبثّ دين الحق وحكم العدل و قطع دابر الباطل وسيلة إلا القتال ، فإنّ التجارب الممتدة من لدن كان الانسان نازلاً في هذه الدار ، يعطي أنّ الحق إنما يؤثر إذا اميط الباطل ، ولن يماط إلا بضرب من أعمال القدرة والقوة .

وبالجملة : ففي الآيات تلويح الى إقبال هذه المحنة بذكر القتل في سبيل الله ، وتوصيفه بوصف لايبقى فيه معه جهة مكروهة ولاصفة سوء ، و هو أنه ليس بموت بل حياة ، وأيّ حياة! فالآيات تستنهض المؤمنين على القتال وتخبرهم أنّ أمامهم بلاء ومحنة لن ينالوا مدارج المعالي وصلاة ربهم ورحمته والاهتداء بهدايته إلا بالصبر عليها و تحمّل مشاقها ، و يعلمهم ما يستعينون به عليها و هو الصبر و الصلاة .

أمّا الصبر فهو وحده الوقاية من الجزع واختلال أمر التدبير ، وأمّا الصلاة فهي توجه إلى الرب وانقطاع الى من بيده الأمر ، وأنّ القوة لله جميعاً .

قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين» الآية، قد تقدم جملة من كلام في الصبر والصلاة في تفسير قوله: واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» (١) .

والصبر من أعظم الملكات والأحوال التي يمدحها القرآن و يكرر الأمر به حتى بلغ قريباً من سبعين موضعاً من القرآن حتى قيل فيه : «إنّ ذلك من عزم الامور » (٢) و قيل: « و ما يلقّاها إلا الذين صبروا و ما يلقّاها إلا ذو حظّ عظيم» (٣) وقيل : «إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب» (٤) .

---

(١) البقرة : ٤٥ .
(٢) لقمان : ١٧ .
(٣) فصلت : ٣٥ .
(٤) الزمر : ١٠ .

والصلاة من أعظم العبادات التي يحث عليها في القرآن ، حتى قيل فيها : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر»[1] وما أوصى الله في كتابه بوصايا إلا كانت الصلاة رأسها وأولها . ثم وصف سبحانه الصبر بأن الله مع الصابرين المتصفين بالصبر ، و إنما لم يصف الصلاة كما في قوله تعالى : «و استعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة» الآية ، لأن المقام في هذه الآيات مقام ملاقاة الأهوال ومقارعة الأبطال ، فالاهتمام بأمر الصبر أنسب بخلاف الآية السابقة ، فلذلك قيل : «إن الله مع الصابرين» وهذه المعية غير المعية التي يدل عليه قوله تعالى : «و هو معكم أين ما كنتم»[2] فإنها معية الاحاطة والقيمومة بخلاف المعية مع الصابرين فإنها معية إعانة ، فالصبر مفتاح الفرج .

قوله تعالى : «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» ربما يقال : إن الخطاب مع المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر وأذعنوا بالحياة الآخرة ، ولا يتصور منهم القول ببطلان الانسان بالموت بعد ما أجابوا دعوة الحق و سمعوا شيئاً كثيراً من الآيات الناطقة بالمعاد ، مضافاً الى أن الآية إنما تثبت الحياة بعد الموت في جماعة مخصوصين وهم الشهداء المقتولون في سبيل الله ، في مقابل غيرهم من المؤمنين و جميع الكفار ، مع أن حكم الحياة بعد الموت عام شامل للجميع ، فالمراد بالحياة بقاء الاسم والذكر الجميل على مر الدهور ، وبذلك فسره جمع من المفسرين .

ويرده أولاً : أن كون هذه حياة إنما هو في الوهم فقط دون الخارج ، فهي حياة تخيلية ليس لها في الحقيقة إلا الاسم ، ومثل هذا الموضوع الوهمي لا يليق بكلامه وهو تعالى يدعو الى الحق ويقول : «فماذا بعد الحق إلا الضلال»[3] وأما الذي سأله إبراهيم في قوله : «واجعل لي لسان صدق في الآخرين»[4] فإنما يريد

---

(١) العنكبوت : ٤٥ . (٢) الحديد : ٤ .
(٣) يونس: ٣٢ .
(٤) الشعراء : ٨٤ .

به بقاء دعوته الحقّة ولسانه الصادق بعده لأحسن ثنائه وجميل ذكره بعد فحسب.

نعم هذا القول الباطل و الوهم الكاذب إنما يليق بحـال الماديين و أصحاب الطبيعة، فإنهم اعتقدوا مادية النفوس وبطلانها بالموت ونفوا الحياة الآخرة، ثم أحسّوا باحتياج الانسان بالفطرة الى القول ببقاء النفوس وتأثرها بالسعادة والشقاء بعد موتها في معالي امور لاتخلو في الارتقاء إليها من التفدية والتضحية، لاسيما في عظائم العزائم التي يموت ويقتل فيها أقوام ليحيى ويعيش آخرون، ولو كان كل من مات فقد فات لم يكن داعٍ للانسان ـ وخاصة اذا اعتقد بالموت والفوت ـ أن يبطل ذاته ليبقى ذات آخرين، ولا باعث له أن يحرم على نفسه لذة الاستمتاع من جميع ما يقدر عليه بالجور ليتمتع آخرون بالعدل، فالعاقل لا يعطي شيئاً إلا و يأخذ بدله، و أمّا الاعطاء من غير بدل و الترك من غير أخذ ـ كالموت في سبيل حياة الغير، والحرمان في طريق تمتع الغير ـ فالفطرة الانسانية تأباه، فلمّا استشعروا بذلك دعاهم جبر هذا النقص الى وضع هذه الأوهام الكاذبة التي ليس لها موطن إلا عرصة الخيال و حظيرة الوهم، قالـوا: إنّ الانسان الحرّ من رقّ الأوهـام والخرافات يجب عليه أن يفدي بنفسه وطنه أو كل ما فيه شرفه، لينال الحياة الدائمة بحسن الذكر وجميل الثناء، ويجب عليه أن يحرم على نفسه بعض تمتعاته في الاجتماع لينالها الآخرون ليستقيم أمر الاجتماع والحضارة ويتم العدل الاجتماعي فينال بذلك حياة الشرف والعلاء.

وليت شعري اذا لم يكن إنسان وبطل هذا التركيب المادي و بطل بذلك جميع خواصه ومن جملتها الحياة والشعور فمن هو الذي ينال هذه الحياة وهذا الشرف؟ و من الذي يدركه ويلتذّ به؟ فهل هذا إلا خرافة؟

وثانياً: أنّ ذيل الآية وهو قوله تعالى: «ولكن لاتشعرون» لايناسب هذا المعنى بل كان المناسب له أن يقال: بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل وثناء الناس

عليهم بعدهم ، لأنه المناسب لمقام التسلية وتطييب النفس .

وثالثاً : أنّ نظيرة هذه الآية وهي تفسيرها وصف حياتهم بعد القتل بماينافي هذا المعنى ، قال تعالى: «ولاتحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءعند ربهم يرزقون » [١] الى آخر الآيات ، و معلوم أنّ هذه الحياة حياة خارجية حقيقية ليست بتقديرية.

ورابعاً : أنّ الجهل بهذه الحياة التي بعد الموت ليس بكل البعيد من بعض المسلمين في أواسط عهد رسول الله ﷺ ، فإنّ الذي هو نصّ غير قابل للتأويل، إنما هو البعث للقيامة ، وأمّا مابين الموت الى الحشر وهي الحياة البرزخية فهي وإن كانت من جملة ما بيّنه القرآن من المعارف الحقة، لكنهاليست من ضروريات القرآن، والمسلمون غير مجمعين عليه بل ينكره بعضهم حتى اليوم ممن يعتقد كون النفس غير مجردة عن المادة، وأنّ الانسان يبطل وجوده بالموت وانحلال التركيب ثم يبعثه الله الى القضاء يوم القيامة ، فيمكن أن يكون المراد بيان حياة الشهداء في البرزخ لمكان جهل بعض المؤمنين بذلك ، وإن علم به آخرون .

وبالجملة: المراد بالحياة في الآية الحياة الحقيقية دون التقديرية، وقد عدّ الله سبحانه حياة الكافر بعد موته هلاكاً وبواراً في مواضع من كلامه كقوله تعالى «وأحلّوا قومهم دارالبوار»[٢] الى غير ذلك من الآيات، فالحياة حياة السعادة والأحياء بهذه الحياة المؤمنون خاصة كما قال: «وأنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون»[٣]، وإنما لم يعلموا لأنّ حواسهم مقصورة على إدراك خواص الحياة في المادة الدنيوية.

وأمّا ماوراءها فإذا لم يدركوه لم يفرقوا بينه وبين الفناء فتوهموه فناءً ، وما

(١) آل عمران : ١٦٩.

(٢) ابراهيم: ٢٨ .

(٣) العنكبوت : ٦٤ .

توهمه الوهم مشترك بين المؤمن والكافر في الدنيا ، فلذلك قال في هذه الآية : «بل أحياء ولكن لاتشعرون » أي بحواسكم كما قال في الآية الاخرى : «لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» أي باليقين كماقال تعالى: «كلّا لو تعلمون علم اليقين* لترونّ الجحيم»[1] .

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ «ولاتقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات» ولا تعتقدوا فيهم الفناء والبطلان كما يفيده لفظ الموت عندكم ومقابلته مع الحياة ، وكما يعين على هذا القول حواسكم فليسوا بأموات بمعنى البطلان بل أحياء ولكن حواسكم لاتنال ذلك ولاتشعر به .

وإلقاء هذا القول على المؤمنين ـ مع أنهم جميعاً أو أكثرهم عالمون ببقاء حياة الانسان بعد الموت و عدم بطلان ذاته ـ إنما هو لايقاظهم وتنبيههم بما هو معلوم عندهم يرتفع بالالتفات إليه الحرج عن صدورهم والاضطراب والقلق عن قلوبهم اذا أصابتهم مصيبة القتل ، فإنه لايبقى مع ذلك من آثار القتل عند أولياء القتيل إلا مفارقة في أيام قلائل في الدنيا ، وهو هيّن في قبال مرضاة الله سبحانه، وما ناله القتيل من الحياة الطيبة والنعمة المقيمة ورضوان من الله أكبر.

وهذا نظير خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثل قوله تعالى :«الحقّ من ربك فلاتكوننّ من الممترين»[2] الآية، مع أنه عليه السلام أول الموقنين بآيات ربه، ولكنه كلام كني به عن وضوح المطلب وظهوره بحيث لايقبل أي خطور نفساني لخلافه.

نشأة البرزخ:

فالآية تدل دلالة واضحة على حياة الانسان البرزخية كالآية النظيرة لهاوهي قوله : «ولاتحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»[3]

---

(١) التكاثر : ٥-٦ .

(٢) البقرة : ١٤٧ .

(٣) آل عمران : ١٦٩.

والآيات في ذلك كثيرة.

ومن أعجب الأمر ما ذكره بعض الناس في الآية أنها نزلت في شهداء بدر ، فهي مخصوصة بهم فقط لا تتعداهم الى غيرهم . هذا وقد أحسن بعض المحققين من المفسرين في تفسير قوله : «واستعينوا بالصبر والصلاة ، » الآية ، إذ سئل الله تعالى الصبر على تحمّل مثل هذه الأقاويل.

وليت شعري ماذا يقصده هؤلاء بقولهم هذا؟ وعلى أيّ صفة يتصورون حياة شهداء بدر بعد قتلهم مع قولهم بانعدام الانسان بعد الموت و القتل ، وانحلال تركيبه وبطلانه ؟ أهو على سبيل الاعجاز باختصاصهم من الله بكرامة لم يكرم بها النبي الأكرم ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين إذ خصّهم الله ببقاء وجودهم بعد الانعدام؟ فليس ذلك بإعجاز بل إيجاد محال ضروري الاستحالة، ولا إعجاز في محال ، ولو جاز عند العقل إبطال هذا الحكم على بداهتها لم يستقم حكم ضروري فما دونه ، أم هو على نحو الاستثناء في حكم الحسّ بأن يكون الحسّ مخطئاً في أمر هؤلاء الشهداء، فهم أحياء يرزقون بالأكل والشرب وسائر التمتعات ـ وهم غائبون عن الحسّ ـ وما ناله الحسّ من أمرهم بالقتل وقطع الأعضاء وسقوط الحسّ وانحلال التركيب فقد أخطأ في ذلك من رأس ، فلو جاز على الحسّ أمثال هذه الأغلاط فيصيب في شيء ويغلط في آخر من غير مخصص بطل الوثوق به على الاطلاق، ولو كان المخصص هو الارادة الالهية احتاج تعلقها الى مخصص آخر ، والاشكال وهو عدم الوثوق بالادراك على حاله ، فكان من الجائز أن نجد ماليس بواقع واقعاً والواقع ليس بواقع ، وكيف يرضى عاقل أن يتفوه بمثل ذلك ؟ وهل هو إلا سفسطة ؟

وقد سلك هؤلاء في قولهم هذا مسلك العامة من المحدثين، حيث يرون أنّ الامور الغائبة عن حواسنا مما يدل عليه الظواهر الدينية من الكتاب والسنّة ، كالملائكة وأرواح المؤمنين وسائر ما هو من هذا القبيل موجودات مادية طبيعية، وأجسام لطيفة تقبل الحلول والنفوذ في الأجسام الكثيفة على صورة الانسان ونحوه،

يفعل جميع الأفعال الانسانية مثلاً ، ولها أمثال القوى التي لنا ، غير أنها ليست محكومة بأحكام الطبيعة من التغيّر والتبدل والتركيب وانحلاله ، والحياة والموت الطبيعيتين، فإذا شاء الله تعالى ظهورها ظهرت لحواسّنا، واذا لم يشأ أو شاء أن لا تظاهر لم تظهر، مشيّة خالصة من غير مخصص في ناحية الحواس ، أو تلك الأشياء .

وهذا القول منهم مبنيّ على إنكار العلّية والمعلولية بين الأشياء، ولو صحّت هذه الامنية الكاذبة بطلت جميع الحقائق العقلية، والأحكام العلمية ، فضلاً عن المعارف الدينية ، ولم تصل النوبة الى أجسامهم اللطيفة المكرمة التي لا تصل اليها يد التأثير والتأثّر المادي الطبيعي، وهو ظاهر.

فقد تبيّن بما مرّ أنّ الآية دالّة على الحياة البرزخية، وهي المسماة بعالم القبر ، عالم متوسط بين الموت والقيامة ، ينعم فيه الميّت أو يعذب حتى تقوم القيامة .

ومن الآيات الدالّة عليه ـ وهي نظيرة لهذه الآية الشريفة ـ قوله تعالى : «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولاهم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله و فضل وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين »[1] قد مرّ تقريب دلالة الآية على المطلوب. ولو تدبر القائل باختصاص هذه الآيات بشهداء بدر في متن الآيات لوجد أنّ سياقها يفيد اشتراك سائر المؤمنين معهم في الحياة والتنعم بعد الموت.

ومن الآيات قوله تعالى : «حتى اذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون * لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلّا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون »[2] والآية ظاهرة الدلالة على أنّ هناك حياة متوسطة بين حياتهم

---

(١) آل عمران ١٦٩ ــ ١٧١

(٢) المؤمنون : ٩٩و ١٠٠

الدنيوية وحياتهم بعد البعث، وسيجيء تمام الكلام في الآية إن شاء الله تعالى.

ومن الآيات قوله تعالى : «وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا نزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً* يوم يرون الملائكة »[١] ومن المعلوم أنّ المراد به أول ما يرونهم وهو يوم الموت كما تدل عليه آيات اخر : «لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً* وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً * أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلاً * ويوم تشقق السماء بالغمام» ـ وهو يوم القيامة ـ «ونزّل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذٍ الحقّ للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً»[٢] ودلالتها ظاهرة وسيأتي تعصيل القول فيها في محله إن شاء الله تعالى.

ومن الآيات قوله تعالى : «قالوا ربنا امّتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل»[٣] فهنا الى يوم البعث ـ وهو يوم قولهم هذا ـ إماتتان وإحياءتان ، ولن يستقيم المعنى إلا بإثبات البرزخ ، فيكون إماتة وإحياء في البرزخ ، وإحياء في يوم القيامة ، ولو كان أحد الاحياءين في الدنيا والآخر في الآخرة لم تكن هناك إلا إماتة واحدة من غير الثانية ، وقد مرّ كلام يتعلق بالمقام في قوله تعالى : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»[٤] .

ومن الآيات قوله تعالى : «وحاق بآل فرعون سوء العذاب* النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب»[٥] إذ من المعلوم أنّ يوم القيامة لا بكرة فيه ولا عشي فهو يوم غير اليوم .

والآيات التي تستفاد منها هذه الحقيقة القرآنية ، أو تؤمي اليها كثيرة كقوله

---

(١) الفرقان : ٢١و٢٢.

(٢) الفرقان: ٢٢ـ٢٦

(٣) المؤمن : ١١.

(٤) البقرة : ٢٨.

(٥) المؤمن : ٤٥و٤٦.

تعالى : «تالله لقد أرسلنا الى امم من قبلك فزيّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليّهم اليوم ولهم عذاب أليم» (١) (٢).

يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيباً ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (١٦٨) .

لا ريب أنّ المآكل الموجودة في الأرض منها حلال ومنها حرام ، و حيث إنّ الشيطان يدعو الى العصيان فهو يدعوالى ترك الحلال وأكل الحرام ، وإنّ الله أمرنا في هذه الآية بالأكل من الحلال المبيّن تفصيله في الكتاب و السنّة ، و كذا نهانا عن أكل الحرام ، ونبّهنا بأنّ الشيطان يدعونا الى خلاف ذلك ، ونهانا عن اتباعه لأنه عدوّ لنا متظاهر ومجاهر بالعداوة لنا ، وأنّ العاقل لابدّ وأن يتباعد عن عدوه المعلن بالعداء له ، وإلا فهو جاهل سفيه ليس له من العقل شيء أبداً ، لأنه اذا اتبع عدوه أوقعه في المهالك و ذو العقل لايقدم على إلقاء نفسه في المهالك.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : من أكل لقمة حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ولم يستجب له دعوة أربعين صباحاً ، و كل لحم ينبته الحرام فالنار أولى به، وأنّ اللقمة الواحدة تنبت اللحم (٣).

وروى أصحاب التفاسير عن النبي عليه السلام أنه قال: المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء (٤) .

قد كثرت كلمات الفريقين في معنى هـذا الخبر ومحصّله أنّ المؤمن لايأكل إلامن الحلال ويجتنب الحرام وشبهة، والكافر لايبالي بماأكل ، و كيف

---

(١) النحل : ٦٣.

(٢) الميزان : ج١ ص٣٤٢ــ٣٥٠ .

(٣و٤) سفينة البحار : ج١ ص٢٤ مادة «اكل».

أكل ، و من أين أكل، فعلى هذا مأكل الكافر أكثر من مأكل المؤمن وخصّت السبعة بالذكر كما يذكر سبعون في مثل هذا الموضع، قال الله تعالى: «إن تستغفر لهم سبعين مرة»(١).

و عن تاريخ البلاذري: أنه أنفذ النبي ﷺ ابن عباس الى معاوية ليكتب له، فقال : إنه يأكل، ثم بعث إليه و لم يفرغ من أكله ، فقال النبي ﷺ: لاأشبع الله بطنه (٢).

وروي عن النبي ﷺ قال : من أكل الحلال أربعين يوماً نوّر الله قلبه (٣).

وقال: إنّ لله ملكاً ينادي على بيت المقدس كل ليلة: من أكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولاعدلاً (٤). والصرف النافلة، والعدل الفريضة .

وعنه ﷺ : العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل (٥) .

وأمّا الطيّب فقيل : إنه الحلال، و كرر لاختلاف اللفظ . ويدلّ عليه ماروي في أمالي الصدوق في تفسير قوله تعالى : «قل لا يستوي الخبيث والطيّب» عن النبي ﷺ: من بات كالّاً من طلب الحلال بات مغفوراً له (٦). وقيل: هو ما استلذّ من الطعام ، وقيل : هو الخالي عن الشبهة .

انما يأمركم بالسوء و الفحشاء و أن تقولوا على الله مالا تعملون (١٦٩) .

بعد ما أمرنا الله في الآية السابقة أن يكون مأكلنا من الحلال الطيّب لتنمو أبداننا عليه فلا يكون فيها نصيب للنار ، و نهانا عن اتباع خطوات الشيطان حيث

(١) سفينة البحار : ج١ ص٢٤ مادة «أكل» والاية ٨٠ من سورة التوبة.
(٢) لايوجد لدنيا تاريخ البلاذري ووجدناه في البداية والنهاية : ج٨ ص١١٩.
(٣) بحار الانوار : ج ١٠٣ ص١٦ ب١ ح ٧١.
(٤) بحار الانوار : ج ١٠٣ ص١٦ ب١ ح٧٢.
(٥) أمالي الصدوق : ص٢٣٨ ح٩ والاية ١٠٠ من سورة المائدة .

إنّ خطواته خلاف الحق ، فهي تباعد المتبع لها عن طريق الهدى أوضحه الله لنا، ففي هذه الآية بيّن أنّ أوامر الشيطان منحصرة بالسوء والفحشاء ، وأنه لايوسوس ولا ينفث في قلب الانسان شيئاً إلا السوء و الفحشاء ،و السوء هو كل أمر تكون عاقبته سيئة بحكم العقل والشرع ،فالانسان اذا اتبع الشيطان في أول خطوة فقد بعُد عن الحق و عن طريق الهدى ، فيأمره الشيطان بالسوء ثم يأمره بالفحشاء ، فإذا أطاعه فقد زاد بُعده عن الحق ، فإذا اتبع الشيطان في الخطوة الثالثة يأمره حينئذ أن يظهر العداء الى الله بأن يقول على الله مالا يعلم من اتخاذ الأنداد ونسبة الأولاد و تحليل الحرام وتحريم الحلال والافتراء على الله و القضاء والفتوى بغير علم ، فالذي أمر الله به المؤمنين في هاتين الآيتين :

١ ـ أن يكون مأكلهم من الحلال الطيّب .

٢ـ ترك ما يأمرهم به الشيطان من الأكل من سائر المحرمات التي حرمها الله عليهم.

٣ـ عدم اتباع الشيطان في غير المأكول من سائر المحرمات، فإنّ الدخول فيها يجرهم الى أكل المحرمات .

٤ ـ الاعتقاد بأنّ كل ما يأمر به الشيطان و يدعو إليه هو سوء و فحشاء ويجرهم الى القول على الله بما لايعلمون .

٥ ـ الاعتقاد بأنّ الشيطان بالنسبة الى الانسان عدوّ مبين .

وبعد ما أمر الله عموم الناس بهذه الأوامر ـ وحيث إنّ الناس منهم المطيع و منهم العاصي ـ وصف الله العصاة بالكفر وعدم العقل و عدم الاهتداء ، ثم وجّه نداءً خاصاً الى المؤمنين الذين أظهروا الايمان بألسنتهم ، و أمرهم بما يكون اختباراً لهم ومميزاً للصادق من الكاذب ، فقال تعالى :

يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون (١٧٢) .

لقدأمرالله المؤمنين بالأكل ، أي أباح لهم الأكل من الطيبات وهي الحلال الذي جعلهالله رزقاً لهم ، فلا رخصة في أكلهمن الحرام، إذ أنّ الله لم يجعله لهم رزقاً وأمرهم أن يشكروه على رزقه، ونبّههم بأنكم اذا عرفتم أنّ الله هوالخالق لكم فعبدتموه فإنه أيضاً هو رازقكم فيلزمكم أن تشكروه على هـذه النعم التي خلقها و جعلهـا رزقاً لكم ، و إن لم يتحقق منكم الشكر كانت عبادتكم ناقصة غير كاملة.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله: إني والانس والجن في نبأعظيم، أخلق ويُعبد غيري ! أرزق ويُشكر غيري (١) .

انما حرم عليكم الميتة والدم ولحـم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ و لاعاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم (١٧٣) .

قد ذكر الله فيهذه الآية بعض المحرمات وليس المقصود من الحصر أنه لايحرم غيرها ، وإنما المقصود الردّ على المشركين الذي حرموا على أنفسهم بعض الأشياء ، فردّ الله عليهم بأنّ الحرام هو ما يحرمه الله، وهو فيهذا الموضع:

١ـالميتة : فإنها محرمة أكلهاوسائر الانتقاعات بها ،والميتة هي غيرالمذكّاة تذكية شرعية.

٢ـالدم : بجميع أنواعه إلا ماخرج بدليل شرعي وهـوالمتخلّف في اللحم.

٣ـلحم الخنزير : وإنما خصّ اللحم بالذكر لأنّ المقام في ذكر المأكل ، ولا يؤكل من الخنزير إلا اللحم،وإلافسائر الانتفاعات فيه محرمة.

٤ـما اهلّ به لغير الله :والمقصود منه مايذبحهالمشركون لآلهتهم كالأصنام

(١) لم نعثر عليه في مظانه.

وغيرها ، فقد حرم الله الذبائح التي تذبح لغير الله، أو أنّ المقصود من ذلك ما يذبح ولم يذكر عليه اسم الله ، فكان المباح أكله يشترط فيه أمران:

الأول : أن لا يكون لغير الله.

والثاني : أن يذكر عليه اسم الله ، والاهلال هو رفع الصوت عند الذبح للصنم.

وبعدما ذكر حرمة هذه الامور على الناس بيّن لنا أنّ رحمته لاتفارقنا طرفة عين ، وأنّ هذه الحرمة لغير المضطر، أمّا المضطر الى أكلها فإنّ الله لا يعاقبه عليه بشرط أن لا يكون باغٍ ولا عاد ، ومعنى الباغي والعادي فقد قيل فيهما أقوال:

١ـ الباغي : هو الذي يبغي اللذة في الأكل ، والعاد : هو الـذي يتعدى حدّ الضرورة من سدّ الرمق [1] .

٢ـ الباغي : الذي يخرج على الامام ، والعادي : الذي يقطع الطريق ، وهو مروي عن الصادق علية السلام [2].

٣ـ ما في رواية اخرى عنه عليه السلام أنّ الباغي الظالم، والعادي الغاصب [3].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً: الباغي باغي الصيد ، والعادي السارق [4].

وانّما عددنا هذه الآية من صفات المؤمنين لما ورد عن الصادق عليه السلام قال: من اضطرّ الى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل شيئاً من ذلك حتى يموت فهو كافر [5] .

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب و لكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب و النبيين

(١) لسان العرب: ج١٤ ص٧٨ .

(٢) تفسير البرهان : ج ١ ص١٧٤ ح ٢ .

(٣) تفسير البرهان : ج ١ ص١٧٤ ح ٣ .

(٤) تفسير البرهان : ج ١ص ١٧٤ ح ١ .

(٥) الوسائل : ج١٦ ص ٤٧٩ ب ٥٦ ح٣ .

وآتى المال على حبه ذوى القربى و التيامى والمساكين وابن السبيل و السائلين و فى الرقـاب و أقام الصلاة و آتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون (١٧٧) .

يلزمنا هنا ذكر مقدمات ليتضح للمسلم الطالب للحقيقة معنى الآية فيتصف بالصفات الموصلة اليها:

الاولى : أنّ البرّ ـ بالكسر ـ قدذكر له عدة معاني منها: العطف والاحسان ومنها : الصدق ، ومنها : الفعل المرضي ، ومنها : الايمان والتقوى، و الذي يناسب المقام هو المعنى الثالث أي الفعل المرضي ، أو الرابع أي الايمان والتقوى .

الثانية : أنّ اللهلمّا حوّل القبلة الى الكعبة كثر الخصام وطالت المشاجرات وازداد الخوض في أمر القبلة من أهل الكتاب وغيرهم،وادعت كل طائفة أنّ البرّ وهو الايمان و التقـوى منحصر في التوجه الى قبلتها ، فقبلة النصارى المشرق ، وقبلة اليهود المغرب ، وقبلة الاسلام الكعبة ، فأنزل الله هذه الآية لقطع الخصام وحسم الجدال ، وردّ على أهل الكتاب زعمهم أن البرّ في التوجه الى قبلتهم.

الثالثة : أنّ المقصود من الآية ليس إخراج التوجه الى القبلة و الصلاة من البرّ مطلقاً ، و إنما المقصود عدم انحصار البرّ في التوجه ، وبهذه يبطل قـول أهل الكتاب : إنّ غير التوجه الى قبلتهم ليس من الدين في شيء ولا إيمان له ، وأشاعوا في الناس بأنّ التوجه للصلاة له تتحقق إطاعة الله والايمان والتقوى .

وقد نبّهنا الله الى أنّ الصلاة إنما هي واحدة من الامور التي يطاع الله بها وليست هي الكل بالكل، وأنها وجبت لكونها تدعو الى الصلاح والتصرف عن الفساد وذلك يختلف بحسب الأزمان والأحوال.

فبعد ما عرفنا هذه المقدمات ينبغي أن يعرف المسلمون ماالذي يريده الله منهم في هذا العصر وهو القرن الرابع عشر عند المسلمين؟أمّا الذين ولّوا وجوههم وقلوبهم قبل المشرق والمغرب فيطلقون عليه قرن العشرين. إنّ الله تعالى يقول لكم: ليس الاسلام والايمان هو توجهكم نحو القبلة وإقامة الصلاة فحسب مع كونكم ولّيتم وجوهكم وقلوبكم قبل المشرق والمغرب، فإنّ هذا الذي أنتم عليه ليس بإسلام ولا إيمان حتى تتصفوا بالصفات التالية. وكأني بأحد المؤمنين المتقين يقول : ياليت المسلمين يقيمون الصلاة ويولّون وجوههم نحو القبلة ، ولو أقاموا الصلاة لنهتهم عن الفحشاء والمنكر ، ولكن أكثر المسلمين قدتركوا الصلاة ونبذوها ولم يعرفوا منها شيئاً مع أنها عمود الدين ، فإذا جهلوها فكيف يعرفون غيرها من القوانين! وعلى أيّ حال فإنّ الله قد اعتبر في البرّ والايمان اموراً إن اتصف بها الشخص عدّ من الأبرار عندالله وهي التي ذكرها في الآية ، وإليك تفصيلها :

١ـ قوله تعالى : «من آمن...» الايمان بالله ، وهذا يشمل جميع مالايتم معرفة الله إلا به ، كمعرفة حدوث العالم ، وإثبات المحدث ، و صفاته الواجبة والجائزة وما يستحيل عليه سبحانه ، ومعرفة عدله وحكمته ، و إلا يهدم إيمانه باتباع الهوى والشيطان في مخالفة أوامر الله ونواهيه ، وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام في تعريف الايمان : أنه عقد في القلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان[1] .

وعن جابر الجعفي قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن الايمان،فقال : الايمان أن يطاع الله فلا يعصى[2].

وقال الامام الصادق عليه السلام من جملة كلام طويل خاطب به معاوية بن وهب: إنّ أفضل الفرائض وأوجبها على الانسان معرفة الرب والاقرار له بالعبودية ،وحدّ المعرفة أن يعرف أنه لا إله غيره ولاشبيه له ولا نظير ، و أن يعرف أنه قديم مثبت

(١) بحار الانوار : ج ٦٨ ص ٢٥٦ ب ٢٤ ح ١٥.
(٢) بحار الانوار : ج٦٨ ص ٢٩٢ ب ٢٤ ح ٥٣ .

موجود غيره فقيد ، موصوف من غير شبيه ولا مبطل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [١].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال : أيها الناس إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ماسواه [٢].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله من جملة خطبة خطبها وهي آخر خطبة كانت قبل وفاته بأيام ، قال : أيها الناس إنه من لقي الله عزّ وجلّ يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً لم يخلط معها غيرها دخل الجنة ، فقام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : يارسول الله بأبي أنت وامّي كيف يقولها مخلصاً لم يخلط معها غيرها ؟ فسّر لنا هذا حتى نعرفه ، فقال : نعم حرصاً على الدنيا وجمعها لهامن غير حلّها ورضاً بها ، وأقوام يقولون أقاويل الأخيار ويعلمون عمل الجبابرة ، فمن لقي الله عزّ وجلّ و ليس فيه شيء من هذه الخصال وهو يقول لاإله إلا الله فله الجنة ، فإن أخذ الدنيا وترك الآخرة فله النار [٣].

٢ـ قوله تعالى : «واليوم الاخر» هذا هو الأمر الثاني مما يعتبر في صدق البرّ والايمان الحقيقي وهو الايمان والتصديق بيوم القيامة ، ويدخل فيه التصديق بالبعث والحساب والثواب والعقاب والصراط والجنة والنار ، وحقيقة الايمان به أن يظهر أثره على أفعاله وأقواله وأخلاقه .

٣ ـ قوله تعالى : «والملائكة» هـذا الأمر الثالث مما يعتبر في صدق البرّ والايمان هو التصديق بوجود الملائكة وأنهم عباد الله المكرمين «لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» [٤].

قال الله تعالى : «جاعل الملائكة رسلاً اولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد

(١و٢) سفينة البحار : ج٢ ص ١٨٠ مادة «عرف» .
(٣) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٣٦٠ قطعة من ح ٣٠ .
(٤) الانبياء : ٢٧ .

في الخلق ما يشاء» [١] .

روي عن هشام بن الحكم قال : سأل الزنديق فيما سأل أبا عبدالله عليه السلام فقال : ما علّة الملائكة الموكّلين بعباده يكتبون عليهم ولهم، والله عالم السرّ وماهو أخفى؟ فقال عليه السلام: استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبة وعن معصيته أشدّ انقباضاً ، وكم من عبد يهمّ بمعصيته فذكر مكانها فارعوى وكفّ فيقول، ربي يراني وحفظتي عليّ بذلك تشهد، وأنّ الله برأفته ولطفه أيضاً وكّلهم بعباده يذبّون عنهم مردة الشياطين وهوام الأرض وآفات كثيرة من حيث لايرون بإذن الله الى أن يجيء أمر الله عزّ وجل» [٢].

٤ ـ قوله تعالى: «**والكتاب**» هذا الأمر الرابع مما يعتبر في البرّ والايمان وهو التصديق بالكتاب ـ وهو القرآن ـ ويلزمه الايمان بما ذكر فيه من الكتب الالهية وتحليل حلاله وتحريم حرامه وإقامة أحكامه .

حكي عن تفسير العياشي عن الامام الصادق عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أيها الناس إنّكم في زمان هدنة ، و أنتم على ظهر السفر و السير بكم سريع ، فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود ، فأعدوا الجهاز لبعد المفاز، فقام المقداد فقال : يارسول الله ما دار الهدنة ؟ قال : دار بلى وانقطاع ، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفّع وما حلّ مصدّق ، من جعله أمامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل ، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل ، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة و باطنه علم ، ظاهره أنيق وباطنه عميق ، له تخوم وعلى تخومه تخوم ، لاتحصى عجائبه ولاتبلى غرائبه ، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ، ودليل

---

(١) فاطر : ٢ .
(٢) بحار الانوار : ج ٥٩ ص ١٧٩ ب ٢٣ ح١٥ .

على المعروف لمن عرفه [١].

وعن كنز الكراجكي جاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما آمن بالقرآن من استحلّ محارمه [٢]. «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون» [٣].

وعن عبدالرحمن السلمي قال: حدّثنا من كان يقرينا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله صلى الله عليه وآله عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الآخر حتى يعلموا مافي هذه من العلم والعمل [٤].

وروي أنّ رجلاً تعلّم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن، فلما انتهى الى قوله تعالى «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» [٥] قال: تكفيني هذه، وانصرف، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: انصرف الرجل وهو فقيه [٦].

فقد تبيّن مما ذكرنا أنّ المقصود من الايمان بالكتاب هو العمل بأحكامه وتحليل حلاله وتحريم حرامه، ولايكفي في ذلك الاعتراف بأنه منزل من الله على رسوله مع مخالفة أحكامه كما يتجلّى لك ذلك من قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: ما آمن بالقرآن من استحلّ محارمه.

وقال بعض العلماء: إنّ العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لايعلم، يقرأ «ألا لعنة الله على الظالمين» [٧] وهو ظالم نفسه، ألا «لعنة الله على الكاذبين» [٨] وهو

(١) تفسير العياشي: ج ص٢١.
(٢) بحار الانوار: ج ٩٢ ص ١٨٥ ب ١٩ ح ٢٣ نقلا عن كنزالكراجكي.
(٣) البقرة: ٨٥.
(٤) بحار الانوار: ج ٩٢ ص ١٠٦ ب ٩ ح ١.
(٥) الزلزلة: ٧و٨.
(٦) بحار الانوار: ج ٩٢ ص ١٠٧ ب ٩ ح ٢.
(٧) هود: ١٨.
(٨) آل عمران: ٦١.

منهم [١] .

وكذا لايكفي في تحقق الايمان به تلاوته في الليل والنهار مع مخالفة التالي أو الآمر له بالتلاوة لأحكامه ومضامينه ، كمايدل على ذلك قول الرسول ﷺ : كم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه [٢] فإنّ اللعنة إنما تكون بسبب المخالفة وعدم العمل ، وإلا اذاكان القارىء عاملاً بأحكامه فلاموجب للّعنة ، فهؤلاء الذين يقرأون القرآن في أيّ مكان و في أية مناسبة ينبغي لهم العمل على طبق القرآن وإلا فالقرآن يلعنهم ، وسوف تأتي الآيات التي تحثّ على العمل بالقرآن مفصلة مرتبة ، وأنّ المخالف له فاسق أوكافر .

٥ ـ قوله : **«والنبيين»** هذا هو الشرط الخامس من الشروط المعتبرة في الايمان ، وهو التصديق بالأنبياء كلهم وأنهم معصومون مطهّرون صادقون فيما أدوه الى الخلق ، وأنّ سيدهم و خاتمهم هو محمّد بن عبدالله ﷺ ، وأنّ شريعته ناسخة لجميع الشرائع ، وأنّ التمسّك بها والعمل عليها لازم لجميع المكلّفين الى يوم القيامة .

٦ ـ قوله تعالى : **«وآتى المال على حبه»** هذا هو الشرط السادس من شروط الايمان وهو إيتاء المال على حبه ، والضمير في كلمة «حبه» إمّا أن يرجع الى المال فيكون المعنى أنّ إعطاء المال المحقق للايمان اذاكان في وقت حبه للمال وهو وقت الصحة والأمل بالحياة والحاجة الى المال لاوقت انقطاع الأمل ودنوّ الأجل الذي لاينتفع بالمال فيه فحينئذ يقول اعطوا لفلان كذاولفلان كذا ، وإمّا أن يكون الضمير في «حبه» راجعاً الى الايتاء ، أي يعطي المال بطيب نفس و سخاء سروراً بهذا العطاء . وإمّا أن يكون الضمير راجعاً الى الله تعالى ، أي يعطي المال على حبّ الله وخالصاً لوجهه ، وهذا الوجه هوأحسن الوجوه لأن إعطاء المال مع

---

(١) المحجة البيضاء : ج٢ ص٢١٩ .
(٢) بحار الانوار : ج٩٢ ص ١٨٥ ب١٩ ح ٢٤ .

حبّ المال أو حبّ العطاء اذا لم يكن خالصاً لوجه الله ولم يقصد به التقرب الى الله لم يستحق المعطي الثواب ، وإنما يترتب الثواب اذا قصد به التقرب الى الله .

ثم ذكر الله من يدفع له هذا المال فقال تعالى : **«ذوى القربى»** فإمّا أن يكون قرابة المعطي كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله لمّا سئل عن أفضل الصدقة فقال صلى الله عليه وآله : جهد المقل على ذي الرحم الكاشح[1] وإمّا أن يكون المراد قرابة النبي صلى الله عليه وآله كما في قوله تعالى : «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»[2] وهذا هو المروي عن الباقر والصادق عليهما السلام[3] هذا هو الصنف الأول ممن يدفع له المال .

الصنف الثاني : قوله تعالى : **«واليتامى»** أي وإعطاء المال الى اليتيم وهو الصغير الذي فقد أباه حتى لا يبقى في حاجة الى النفقة .

الصنف الثالث: قوله تعالى : **«والمساكين»** وهم أهل الحاجة الذين ليس لهم نفقة تقوّمهم .

الصنف الرابع : قوله تعالى : **«وابن السبيل»** و هـو من القطع به الطريق و نفذت نفقته .

الصنف الخامس : قوله تعالى : **«والسائلين»** وهم الذين ألجأهم الفقر الى السؤال .

الصنف السادس : قوله تعالى : **«وفى الرقاب»** وقيل فيه أمران: (الأول) أن يشتري الانسان المماليك من العبيد والاماء ويعتقهم . (الثاني)أن يساعد المكاتبين بالأموال اذا عجزوا عن سدّ ما كاتبوا عليه ، ولا مانع من الجمع بين الأمرين بأن يكون المراد من الآية كلا الأمرين .

ثم إنّ المال الذي أمر الله بدفعه الى هؤلاء الأصناف هل المراد منه الزكاة

---

(١) مجمع البيان : ج١ص٢٦٣ .

(٢) الشورى : ٢٣ .

(٣) مجمع البيان : ج ١ ص٢٦٣ .

المفروضة أو غيرها؟ لأنها قد ذكرت بعد ذلك، ويؤيد كونه غير الزكاة بناءً على القول بأنّ القربى هم قربى النبي لأنهم لا يحلّ لهم الأخذ من الزكاة.

وإذا قلنا إنّ المال هو الزكاة المفروضة يكون المقصود هنا ذكر أصناف المستحقين ويكون ذكرها بعد ذلك للتأكيد والحث.

٧ـ قوله تعالى: «**وأقام الصلاة**»: هذا هو الشرط السابع من شروط الايمان وهو إقامة الصلاة بحدودها وشروطها وأركانها بأن يؤديها في ميقاتها، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ليس مني من استخف بالصلاة لا يرد عليّ الحوض لا والله[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: من ترك صلاة فريضة متعمداً فإنّ ذمّة الله منه بريئة[2].

٨ـ قوله تعالى: «**وآتى الزكاة**» أي أعطى زكاة ماله، والتفصيل مذكور في كتب الفقه، فقد تكاثرت الأخبار في ذمّ تارك الزكاة وعقابه.

روي عن الصادق عليه السلام قال: من منع قيراطاً من الزكاة فليس هو بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة[3] وإنّ مانع الزكاة أحد من كفر من هذه الامّة[4]، وهو البخيل حق البخيل[5].

وقال الصادق عليه السلام: من منع الزكاة في حياته طلب الكرة بعد موته[6].

وقال عليه السلام: من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً[7].

وعن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة»[8] فقال: يا محمد، ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من

(١) بحار الانوار: ج ٨٣ ص ٩ ب ٦ ح ٣.
(٢) الوسائل: ج ٣ ص ٢٩ ب ١١ ح ٥ مع اختلاف يسير.
(٣و٤) الوسائل: ج ٦ ص ١٩ ب ٤ ح ٧.
(٥) الوسائل: ج ٦ ص ٢١ ب ٥ ح ٤.
(٦) الوسائل: ج ٦ ص ١٤ ب ٣ ح ١٦.
(٧) الوسائل: ج ٦ ص ١٨ ب ٤ ح ٥.
(٨) آل عمران: ١٨٠.

لحمه حتى يفرغ من الحساب ، ثم قال: هو قول الله : «سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة » يعني مابخلوا به من الزكاة [١].

٩ــ قوله تعالى : « **والموفون بعهدهم اذا عاهدوا**» هذا هو الشرط التاسع من شروط الايمان ، أي: يشترط في المؤمن أن يكون موفياً بعهده الذي يعاهد عليه سواء كان العهد بينه وبين الله وهو شامل لفعل الواجبات وترك المحرمات والوفاء بالنذر واليمين ، أو كان بينه وبين الناس وهو كل شيء عاهد عليه أحداً من الناس، ففي كل ذلك يلزم الوفاء ،فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : لادين لمن لاعهد له [٢].

وعن أبي مالك قال :قلت لعلي بن الحسين عليه السلام :أخبرني بجميع شرائع الدين، قال عليه السلام : قول الحق ، والحكم بالعدل ، والوفاء بالعهد [٣].

١٠ــ قوله تعالى : «**والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس**» هذا هو الشرط العاشر من شروط الايمان، أي: يشترط في المؤمن الحقيقي أن يكون صابراً في البأساء: وهو الفقر، والضراء: وهو العلل والأوجاع والأسقام والأمراض والخوف والجوع والعطش . وحين البأس : وهو وقت القتال وجهاد العدوّ ، فقد روي عن علي عليه السلام أنه قال : كنا اذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله فلم يكن أحد منا أقرب الى العدوّ منه [٤].

فإنّ هذا الشرط وإن كان وارداً مورد المدح والثناء وهو السبب في نصبه ، ولكنه وصف وشرط للايمان إذ من لم يكن متصفاً بالصبر في هذه المواطن كان ناقص الايمان.

روي عن الامام السجاد عليه السلام قال : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد،

---

(١) الوسائل: ج٦ : ص١١ ب ٣ ح ٣ .
(٢) بحار الانوار : ج ٧٢ ص ١٩٨ ب ١٠٥ ح ٢٦ .
(٣) الخصال : ج ١ ص١١٣ ح ٩٠ .
(٤) مجمع البيان : ج١ ص٢٦٤ .

ولا إيمان لمن لاصبر له [١] .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: الصبر مطية لاتكبو والقناعة سيف لاينبو [٢] .

وقال بعضهم :

إني رأيت و للأيـام تجربة لصبر عاقبـة محمودة الأثـر

وقلّ من جدّ في أمر يطالبه فاستصحب الصبر إلافاز بالظفر [٣]

قوله تعالى : **«اولئك الذين صدقوا»** الاشارة في قوله «أولئك» الى الذين اتصفوا بالصفات المذكورة بأنهم صدقوا مع الله فيما التزموا به من القول والعمل حيث لم يعصوا الله في شيء من أوامره ونواهيه ، وفيه تعريض وإشارة الى أنّ من يأتي بهذه الامور ويتصف بهذه الصفات ظاهراً لاراءة الناس و هو غير صادق باطناً فهذا ليس من الايمان في شيء .

«واولئك هم المتقون» أي: إنّ الذين اتصفوا بالصفات المذكورة هم الذين اتقوا عذاب الله بتركهم الكفر وسائر الجرائم والمحرمات ، ويمكن أن تكون إشارةً وتعريضاً لمن يتصف بهذه الصفات ومع ذلك يرتكب المحرمات فإنّ هذا ليس من البرّ ولا من الايمان بشيء ، وإنما المؤمن الحقيقي الكامل من اتصف بالصفات المتقدمة وهو يتقي من جميع المحرمات ولايتقرب الى شيء منها ، فيكون هذان الوصفان وهما الصدق والتقوى شرطان أساسيان لمن اتصف بالصفات المتقدمة وإلا فلا فائدة فيها .

محصل البحث :

تحصّل لنا من هذه الآية الشريفة أن البرّ وما يرضي الله من أفعالنا والايمان الصحيح الحقيقي هو هذه المجموعة من الصفات الاعتقادية والعملية وهي كمايلي:

١ـ الايمان بالله عزّ وجلّ .

---

(١) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٨١ ب ٦٢ ح١٧.

(٢) بحار الانوار : ج٧١ ص ٩٦ ب ٦٢ ح ٦١ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧١ ص٧١ ب٦٢ ح٣ .

٢ـ الايمان باليوم الآخر وهما المبدأ والمعاد .

٣ـ الايمان بالملائكة .

٤ـ الايمان بالكتاب.

٥ـ الايمان بالنبيين .

٦ـ إيتاء المال خالصاً لوجه الله :(أ) لذوي القربى (ب) لليتامى (ج) للمساكين (د) لابن السبيل (هـ) للسائلين (و) في الرقاب.

٧ـ من محتويات الآية إقامه الصلاة.

٨ـ إيتاء الزكاة .

٩ـ الوفاء بالعهد .

١٠ـ الصبر : (أ) في البأساء (ب) في الضراء (ج) حين البأس أي في القتال .

١١ـ الصدق في جميع هذه الامور اعتقاداً وعملاً، بأن تكون هذه الامور عن نية خالصة لله تعالى .

١٢ـ أن تكون عند المستجمع لهذه الامور ملكة التقوى أي لا يرتكب شيئاً من المحرمات خوفاً من عقاب الله .

تنبيه

ينبغي للانسان العاقل أن يتنبّه و يلتفت بأنّ الله تعالى إنما أمرنا بهذه الخصال الحميدة لأنه يحبّ لعبادة المؤمنين أن يتصفوا بجميع خصال الكمال ، وأن يتنزهوا من جميع الرذائل الموجبة لسقوط الانسان فأمرهم بكل ما يحكم به العقل من الاعتراف بالمبدأ ، وأنه واحد بلا شريك ، وأنه نزيه عن العبث ، ويلزم ذلك الاعتراف بالمعاد، وأمرهم ببذل المال ليتصفوا بالكرم والسخاء ، وأمرهم بالصبر عند القتال ليتصفوا بالشجاعة ، فإذا اتصفوا بهذه الخصال كانوا من المقربين لديه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (١٧٨).

لمّا بيّن الله في الآية السابقة بأنّ حقيقة البرّ والعمل الذى يرضاه الله هو العمل بأوامره ونواهيه، بيّن لنا في هذه الآية أهم الامور التي يحتاجها الناس وهو الحكم في الدماء والنفوس، وذكر لنا قانوناً إن عملنا نحن به يقلّ قتل النفوس وإراقة الدماء، فلا يقدم أحد مع تنفيذ هذا القانون على قتل أحد إلا أن يكون مجنوناً، وحيث إنّ المسلمين لا تتكافأ ولا تتساوى دماؤهم من حيث الحرية وعدمها، والذكورة و الانوثة قال تعالى: «**الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى**» وكذا لاتكافؤ بين الاسلام والكفر، وقد ذكر ذلك في سورة النساء: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» [1] وهذه الفروع أي قتل الحرّ بالعبد والرجل بالمرأة وأمثالها إنما هي من مسائل الفقه فليرجع بها إليه، وإنما المهم الذي هو من موضوع بحثنا قوله تعالى:

ولكم فى القصاص حياة يا اولى الالباب (١٧٩).

ممّا لاريب فيه أنّ قتل النفس المسلمة بلاذنب يوجب لها القتل هو من أكبر الجرائم في الشريعة الاسلامية بل فيما تقدمها من الشرائع كلها، وقد ذكر الله في القرآن في قصة ولدي آدم عظم جرم القتل فقال: «من قتل نفساً بغير نفس أوفساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً» [2] ولأجل خطر هذه الجريمة قد سنّ الله

(١) النساء: ١٤١.
(٢) المائدة: ٣٢.

حكماً للناس يمنعهم عن ارتكاب جريمة القتل حيث جعل عقاب القاتل القتل فقال «كتب عليكم القصاص في القتلى» فالشخص الذي آمن بالله وبرسوله وبكتابه اذا عرف أنه متى قتـل مسلماً بلاجناية يجب عليه أن يسلّم نفسه الى أولياء القتيل ليقتصوا منه فيتخلص من عذاب الآخرة ، كانت معرفته بهذا العقاب الصارم رادعة له من الاقدام على قتل أحد من الناس، وإن هو لم يسلّم نفسه لذوي القتيل يلزم على ذوي الأمر وذوي السلطة أن تقبض عليه وتسلّمه الى أولياء القتيل فيقتصون منه .

ثم أخبرنا الله عزّ وجل بأنّ هذا النوع من القصاص سوف يضمن لكم الحياة ويقلّل وقوع القتل بينكم ، إذ أنّ المرء لايقدم على قتل أحد بعد علمه بالقصاص ولكن مع كل الأسف أنّ الحكومات الاسلامية بعد اطلاعهم على نظام الحكومات الأجنبية الكافرة، وأنهم لايقتلون القاتل بل يحكمونه بالسجن إلا إذا كان المقتول رجلاً عظيماً ، و كانت السلطة تحاذر من أوليائه ، أخذ المسلمون هذا الحكم من قانون الكافرين ورجحوه على حكم القصاص، زعماً منهم أنّ القصاص وقتل القاتل يقلّل من نفوس البشر ، وهذا خلاف المصلحة المطلوبة من حفظ النفوس ، كل ذلك تقليداً للأجانب وغفلةً عن الآية الشريفة ، وإهمالاً لكتاب الله ، ورفضاً لأحكام الله ، وإساءةً لأنفسهم وللمجتمع الانساني ، حتى حدث من القتل و إتلاف النفوس ما لايحصي عدده إلّا الله .

وقد تقدم في الآية السابقة على هذه الآية من جملة شروط الايمان والبرّ هو الايمان بالكتاب ، وأنّ من خالف حكماً من أحكام الكتاب فهو غير مؤمن به ، فلو أنهم عملوا بموجب هذه الآية وجعلوا القانون المتبع هو قتل من يقتل نفساً بلاذنب لما كانت هذه الكثرة من قتل النفوس البريئة فكل حكومة إسلامية رفضت العمل بالحكم السماوي فقد سببت كثرة القتل وذلك لعدم خوف المجرمين من السجن و أملهم الأكيد بالخروج منه قبل إكمال المدة ، فيكون الوزر في إزهاق هذه النفوس كلها على صاحب السلطة الذى سنّ هذا القانون كما قال

رسول الله ﷺ : من سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها[1] .

فقد تحصّل من الآية :

١ ـ أنّ القاتل عليه أن يخضع وينقاد ويوطن نفسه على القتل لئلّا تبطل حدود الله .

٢ ـ أنّ هذا القصاص سبب لحفظ نفوس كثيرة من القتل ، كما كان يفعله أهل الجاهلية من قتل غير القاتل ، وكذا أولياء القتيل الثاني يقتلون غير قاتله فتكثر القتلى بين الفريقين ، ويكون أيضاً سبباً لحفظ كل أحديهم بقتل اذا علم أنه يقتصّ منه فيكف عن القتل فيسلم غيره وتسلم نفسه ، وهذا يحتاج الى فكر و تدبر ومعرفة بالعواقب، وكل ذلك موقوف على العقل الكامل. كما وجّه الله تعالى الخطاب لأهل العقول حيث قال : **«ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب»** فكل من ترك القصاص في القتل وأخذ بغيره فهو ليس بذي لبّ ولا عقل ، أو معاند لكتاب الله .

قوله تعالى : **« فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم»** هذه الآية متقدمة في القرآن على الآية التي ذكرناها قبلها ، ولكن السبب في تقديم تلك في التفسير هو أن نعلم أنّ جرم القتل عظيم جداً وأنه مبغوض عندالله غاية البغض ، ولذا جعل عقابه المقابلة بالمثل لئلّا يقدم عليه أحد ، ولكنّه تعالى لم يحتم على وليّ المقتول هذا العمل بل جعل الخيار له اذا تاب القاتل وندم على فعله وسلّم نفسه لوليّ القتيل ورجع الى الاخاء مع المسلمين ، وحينئذ اذا شاء وليّ القتيل أن يعفو عن القاتل ويقبل بالدية فالله يأمره أن يتبع ذلك بالمعروف وهو الصبر على تسلّم المال حتى يهيؤه القاتل ، وأمر القاتل أيضاً أن يؤديه بإحسان أي بلامطل ، فإذا رضي وليّ القتيل بالدية أو عفا أوصالح فليس له أن يعدل عن هذا

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج٤ ص٣٥٧ وفيه «من سن في الاسلام» سنن البيهقي: ج٤ ص١٧٦.

القرار ويعود الى ارتكاب القتل ، فاذا عادفقتل فله عذاب أليم ، كل ذلك لمبغوضية القتل عندالله فلا يريد وقوعه على وجه الأرض من أحد من الناس .

قوله تعالى : كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين (١٨٠) .

إنّ الله سبحانه يحثّنا في هذه الآية على أنّ الانسان إذا تبيّن له دنوّ أجله من مرض أو كبر أو أمارة اخرى و كان ذامال أن يوصي بشيء من المال لأقاربه و أرحامه بأن يدفع لهم بعد موته ، و قد قيّدالله هـذه الوصية أن تكون وصيته بالمعروف ، والمقصود منه :

١ ـ أن لايكون فيها جور وحيف على الورثة .

٢ ـ أن لايكون الموصى به شيئاً حقيراً كالوصية لأحد بدرهم .

٣ ـ أن لاتكون الوصية لشخص غني وترك الفقير المحتاج ، فإنّ هذا غير معروف بل هو منكر .

ثم قال الله في آخر الآية «حقاً على المتقين» أي: من أراد أن يكون من المتقين فعليه أن يتصف بصفاتهم ، ومن جملتها العمل بهذا الأمر وهوالوصية للأقربين ببعض المال بعد وفاته ، فإنّ هذا أحقّ على المتقين .

قوله تعالى : فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم (١٨١) .

هذا وعيد من الله لكل من يبدّل أو يغيّر هذه الوصية التي يوصي بها الميت لأقربائه سواء كان المبدل قريباً أو بعيداً وارثاً أو غير وارث ، فيكون إثم التبديل

عليه، سواء كان التبديل بإخفاء الوصية أو بعدم الشهادة أو بالشهادة على نوع آخر من الوصية ، فإنّ الله قد سمع قول الموصي وعلم بتبديل المبدل فلير تدع المبدل عما قصده ، و لمّا كان من جملة أنواع التبديل نهي الموصي عن الوصية و إقناعه في العدول عنها ، ذكر الله بأن هذا النوع ليس من التبديل المحرم مطلقاً بل يكون في بعض أقسامه ما هو مباح و مأجور عليه صاحبه و قد بيّن ذلك بقوله تعالى :

فمن خاف من موص جنفاً أو اثماً فأصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم (١٨٢) .

أي: اذا كان الموصي قد وقع في الباطل خطأً وهو الجنف أو وقع فيه عمداً وهو الاثم بأن أوصى بأكثر من الثلث والورثة لا يرضون بذلك، وحينئذ يقع النزاع والجدال بين الطرفين فيتدخل في الأمر من يريد إصلاحهم ويكلم الموصي ويقنعه ليعدل عن هذه الوصية، فهذا التبديل ليس فيه إثم بل رخّص الله فيه لكونه إصلاحاً.

قوله تعالى: ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون(١٨٣) أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام اخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون(١٨٤) شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام اخر يريد الله بكم

اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون (١٨٥).

نزلت هذه الآيات الشريفة لبيان فريضة الصوم باتفاق جميع فرق المسلمين، فمن أنكر وجوبه عدّ من الكافرين، ومن اعترف بالوجوب و لم يعمل به خرج من جماعة المؤمنين ودخل في زمرة الفاسقين، فقد فرضه الله تعالى على امّة خاتم الرسل كما فرضه على من تقدمه من الأنبياء وعلى اممهم، وقد أعلمنا الله بأننا اذا أدينا هذه الفريضة بصدق نيّة وإخلاص فسوف يكون عملنا سبباً للانتفاء عن جميع المحرمات، وحينئذٍ نؤهّل أنفسنا للاتصاف بالتقوى وجعلها من زمرة المتقين الذين يحبهم الله وتكون لهم المنزلة الرفيعة لديه، وحيث إنّ الله عزّ وجلّ قد ذكر في القرآن فوائد عديدة للتقوى دنيوية واخروية فهي التي تنتظم بها امور الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا بعض فوائدها في أول آية من سورة البقرة.

فاعلم أنّ الله فرض علينا الصوم وجعله من أقوى الأسباب للحصول على ملكة التقوى، فقد ساقنا برحمته الى التقوى سوقاً عنيفاً بإيجابه فريضة الصوم علينا التي تكون حاجزاً بين النفس وشهواتها من مأكل ومشرب ومنكح، فإذا منعت عما تشتهي يكون فيها شيء من الصفاء والنظافة وتزول عنها الكدورة، فإذا كان الشخص راغباً بالوصول الى التقوى الموجبة للقرب الى الله الحائزة على حبّ الله له كان الصوم سبباً كافياً له في ذلك، إذ أنه يصوم هذه الأيام برغبة وشوق راجياً من وراء ذلك الوصول الى أعلى مرقاة من التقوى، ويجعل صومه من القسم الذي أشار إليه النبي ﷺ من غضّ البصر عن كل ما يحرم النظر إليه أو يكره، وحفظ اللسان عن جميع آفاته، وكفّ السمع عن كل ما يحرم النظر إليه أو يكره، وكفّ سائر الجوارح عن المحارم والمكاره، وأن لا يشغل القلب عن ذكر الله تعالى، وأن لا يتدارك ما فاته من الأكل نهاراً وقت الافطار أو يزيد عليه، فإنّ كثرة الأكل و التنوع فيه مما

يهيج الشهوة ويقوي رغبتها و يضاعف قوتها و يبعث من الشهوات ماكانت راكدة لو تركت على عادتها، فينعكس المطلوب ولاينتفع بصومه .

فإذا كان صومه من القسم الذي وصفه النبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) [1] أوصله الى الغاية المتوخاة وهو الذي يرجو لنفسه أن يكون من المتقين كما أمّله الله :بقوله:«كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» .

وفي هذه الآيات أنواع من الألطاف الالهية والتسلية للعباد :

اللطف الأول : النداء الموجه إليهم من الله كما قال الامام الصادق عليه السلام:لذة النداء أزال تعب العبادة والعناء [2] ، حيث إنّ في هذا النداء تشريفاً لهم وتفضيلاً على غيرهم مع أنّ الحكم يعمّ كل من أقرّ بالدعوة ظاهراً حتى الضلّال والمنافقين.

اللطف الثاني : قوله تعالى « كتب» بصيغة المجهول فإنّ التكليف وإن كان منه والكتابة بأمره ولكن لم يجعله بصيغة المعلوم حيث إنّ الكتابة اذا كانت بواسطة غيره كانت قابلة للتبديل والتغيير كما اذا كانت بواسطة القلم مثل «ن والقلم ومايسطرون»[3] فإنها قابلة للتبديل كما في قوله : «يمحو الله ما يشاء ويثبت »[4] .

وكذلك اذا كانت بواسطة السفرة التي تنزل بالكتب والصحف كقوله تعالى: «في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدى سفرة * كرام بررة» [5] فإنها قد تبدل كما في قوله : «وإذا بدلنا آية مكان آية» [6] .

وكذا الحال اذا كانت الواسطة الحفظة كقوله : «و إنّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين»[7] فإنها قابلة للتبديل كقوله:«فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات»[8].

(١) رجع خطبة الرسول (ص) في بحار الانوار : ج٩٦ ص٣٥٦ ب٤٦ ح٢٥ .
(٢) منهاج البراعة : ج٧ ص٤٢٤ مع اختلاف يسير .
(٣) القلم : ١ .
(٤) الرعد : ٣٩ .
(٥) عبس : ١٣ ــ ١٦ .
(٦) النحل : ١٠١ .
(٧) الانفطار: ١٠و١١ .
(٨) الفرقان : ٧.

أمّا أن يكون هو الكاتب بلا واسطة كقوله: «كتب ربكم على نفسه الرحمة»[١] فإنها غير قابلة للتبديل كقوله تعالى: «لامبدل لكلماته»[٢] وقوله تعالى: «ما يبدل القول لديّ»[٣].

هكذا عامل الله عباده باللطف فإنه في أغلب الموارد إذا وجّه إليهم تكليفاً و كان فيه مشقة يأتي بصيغة المجهول، و إذا أنذرهم بشيء من العذاب يأتي أيضاً بصيغة المجهول. أمّا إذا بشّرهم بالرحمة و النعيم أتى بصيغة المعلوم ونسبه الى نفسه، مثلاً بالنسبة الى شراب أهل النعيم يقول تعالى: «و سقاهم ربهم شراباً طهوراً»[٤] وبالنسبة لأهل العذاب يقول تعالى: «وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم»[٥] و كذا قوله: «فالذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم»[٦] و«لهم مقامع من حديد»[٧] وتارةً ينسب الفعل الذي يعذبهم به الى أنفسهم كقوله تعالى: «ثم إنّكم أيها الضالّون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منه البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم»[٨].

اللطف الثالث: قوله: «كما كتب على الذين من قبلكم»:

هذه تسلية من الله للمؤمنين الذين كتب عليهم الصيام حيث إنّ فيه شيئاً من الجوع و العطش والمشقة، فقد أخبرهم الله بأنّ هذا التكليف ليس مختصاً بكم وإنما كان على من قبلكم من الأنبياء وامهم من آدم حتى الخاتم، فإذا علموا أنه تكليف عام هان عليهم وسهل و امتثلوه بانشراح صدر و سرور وطيب نفس.

---

(١) الانعام: ٥٤.
(٢) الكهف: ٢٧.
(٣) ق: ٢٩.
(٤) الانسان: ٢١.
(٥) محمد: ١٥.
(٦) الحج: ١٩.
(٧) الحج: ٢١.
(٨) الواقعة: ٥١ ــ ٥٥.

ثم التشبيه إمّا أن يكون في أصل الصوم فقط وإمّا أن يكون في العدد والوقت، كما روي أنّ صوم رمضان كتب على النصارى فصادف وقوعه في حرّ أو برد شديد فحولوه الى الربيع وزادوا عليه عشرين يوماً كفّارة لتحويله [١].

اللطف الرابع : قوله تعالى : «لعلكم تتقون» أشار بهذه الكلمة الى أنّ الصوم الذي أمركم الله به إنما يعود نفعه لنفس الصائم، إذ يكون بتركه الأكل والشرب والجماع متشبهاً بالملائكة في عدم فعل شيء من تلك الامور ومميّزاً نفسه عن سائر الحيوانات في استرسالها باستيفاء لذائذ الجسم، فإذا ميّز نفسه عن الحيوانات وتشبّه بالملائكة فقد أهّلها للارتقاء الى مرقاة الكمال و الروحانية ، واذا قدر على منع نفسه عن الأشياء المباحة في نهار شهر رمضان كان أقدر على منعها عن الأشياء المحرمة في غيره ، فيكون الصوم سبباً قوياً لاتقاء المحرمات، فتكون الغاية القصوى من الصوم هي الحصول على التقوى . وبالحصول عليها تصحّ جميع الأعمال من الصوم وغيره ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : الصوم جنّة من النار [٢] . وإنما يكون جنّة من النار لأنّ الصائم يترك المحرمات فيصل بتركه الى التقوى . فإذا صار من المتقين يكون من أهل الجنة وحرمت عليه النار .

اللطف الخامس : قوله تعالى : «**أياماً معدودات**» اذا سمع المكلّف الجملة الاولى من الآية الشريفة و هي قوله : « كتب عليكم الصيام» قد يتبادر الى ذهنه وجوب الصيام مدة العمر وحتى الممات فيثقل عليه الأمر وينفر من هذا التكليف الشاق .وقد ينفث في روعه الشيطان إنك لاتقدر على امتثال هذا التكليف، فيجزم بالعصيان من أول الأمر ، ولذا من لطف الله تعالى على عباده أعلمهم أنّ هذا الصوم إنما هو أيام معدودة أي محصورة قليلة ، فتبيّن للمكلّف بهذه الكلمة أنّ التكليف خفيف يسير لامشقة ولاثقل فيه.

اللطف السادس : قوله تعالى : «**فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من**

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٢٧١ .
(٢) عوالى اللئالى : ج٣ ص١٣٢ ح ٣ .

أيام اخر» حيث إنّ الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر ، وإن كان الصيام يعسر أو يتعذر على المريض ويشق ويصعب على المسافر أمرهم بالافطار في حالة المرض والسفر مع حفظ مدة الأيام التي يفطرون بها ليقضوها بعد ذلك ، وهذا تخفيف من الله ولطف بعباده ليسهل عليهم أداء هذا الواجب العظيم الموصل الى التقوى .

اللطف السابع : قوله تعالى : **«وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين»** لّما كان بعض المكلّفين يؤثّر بهم الصوم أثراً شاقاً كالشيخ الهرم والشيخة وكالحامل المقرب والمرضع بحيث يبذلون غاية طاقتهم في الصوم لطف الله بهم وخيّرهم بين الصوم وبين الفدية وهي إطعام مسكين في كل يوم .

ثم قال تعالى : **«فمن تطوع خيراً فهو خير له»** أي: من زاد على الفدية تطوعاً منه لافرضاً عليه فهذا التطوع خير له .

ثم قال : **«وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون»** لّما خيّر الله بعض الناس بين الصوم والفدية أعلمهم أنّ تحمّل المشقة الشديدة في الصوم هو خير لهم من الفدية حتى لو ضمّ معها التطوع بالخير ، فإنكم لو كنتم من أهل العلم و توصلتم بسببه الى ما في الصيام من فضائل ومنافع لاخترتم الصيام على الفدية وإن تحمّلتم المشاق.
فقد تبيّن من هذه الجملة أنّ الصوم ـ وإن كان فيه مشقة و جوع و عطش وموجب للضعف المتناهي ـ هو خير من الفدية لمن تكفي الفدية في حقه مالم يصل الى حدّ المرض فإنه لايجوز له الصوم، لأنّ الله أمرنا بصريح القول بأنّ المريض والمسافر يلزمه أن يفطر وأن يحفظ الأيام التي مرض أو سافر فيها ويصوم بمقدار ذلك العدد بعد شهر رمضان ، وقد ثبت وجوب الافطار من قوله تعالى : «فعدة من أيام اخر» حيث حتم علينا وألزمنا بصيام أيّام عدتها مطابقة لعدة أيام المرض أو السفر ، وهذا الالزام إنما هو للزوم الافطار ، فلامعنى للقول بأنّ الافطار رخصة لاعزيمة بتقدير كلمة «فأفطر» فيكون التقدير «فمن كان مريضاً أو على سفر»

فأفطر «فعدة من أيام اخر» ، فما الداعي إلى تقدير هذه الكلمة مع وضوح الأمر وصراحة العبارة وعدم الاضطرار الى تقدير .

وقد اختار جماعة من أصحاب النبي ﷺ وجوب الافطار في السفر وهو المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام واختاره عمر بن الخطاب وابنه عبدالله وعبدالله ابن العباس وعبدالرحمن بن عوف ، وأبو هريرة وعروة بن الزبير [1] .

ويروى أن عمر بن الخطاب أمر رجلاً صام في السفر أن يعيد صومه [2] .

وروي عن يوسف بن الحكم قال : سألت ابن عمر عن الصوم في السفر فقال : أرأيت لو تصدقت على رجل صدقة فردها عليك ألا تغضب ؟ فإنها صدقة من الله تصدق بها عليكم [3] .

وروى عبدالرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : الصائم في السفر كالمفطر في الحضر [4] .

وروي عن ابن عباس أنه قال : الافطار في السفر عزيمة [5] .

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : الصائم في شهر رمضان في السفر كالمفطر فيه في الحضر [6] .

وعنه عليه السلام قال : لو أن رجلاً مات صائماً في سفر لما صليت عليه [7] .

ويناسب هنا بعض ما ورد من الأخبار في ثواب الصوم ليتضح للقارىء معنى الآية الشريفة : «وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون» .

منها : قول النبي ﷺ : الصوم جنة من النار [8] .

وعنه ﷺ قال: قال الله : الصوم لي وأنا اجزي به [9].

(١-٣) مجمع البيان : ج٢ ص٢٧٣.

(٤-٧) مجمع البيان : ج٢ ص٢٧٤ .

(٨و٩) المحجة البيضاء : ج٢ ص١٢٣ .

وعنه صلى الله عليه وآله قال: إنّ في الجنة باباً يقال لها الريّان لا يدخل منها إلا الصائمون فإذا دخل آخرهم اغلق ذلك الباب [١] .

وفي الحديث القدسي : يا موسى لخلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك [٢] .

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه : ألا اخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب ؟ قالوا : بلى ، قال : الصوم يسوّد وجهه ،والصدقة تكسر ظهره ، والحبّ في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطعان دابره ، والاستغفار يقطع وتينه ، ولكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام [٣] .

وروي عن الصادق عليه السلام قال : من صام لله عزّوجلّ يوماً في الحرّ فأصاب ظمأ وكّل الله ألف ملك يمسحون وجهه و يبشّرونه ، حتى اذا أفطر قال الله عزّوجلّ : ما أطيب ريحك وروحك ، يا ملائكتي اشهدوا إني قد غفرت له [٤] .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح [٥] . وغيرها كثير .

وروي عن الامام الثاني الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال : جاء نفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل ، فكان فيما سأله أن قال له : لأيّ شيء فرض الله الصوم على امّتك بالنهار ثلاثين يوماً وفرض على الامم أكثر من ذلك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله : إنّ آدم عليه السلام لمّا أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً ، ففرض الله على ذريته الجوع والعطش ، والذي يأكلونه بالليل تفضّل من الله عزّوجلّ عليهم وكذلك كان على آدم ففرض الله ذلك على امّتي ، ثم تلا هذه

---

(١) صحيح البخارى : ج٣ ص٣٢ .

(٢) الوسائل : ج٧ ص٢٩٠ ب٥٩١ .

(٣و٤) المحجة البيضاء : ج٢ ص١٢٣ .

(٥) بحار الانوار : ج٩٦ ص٢٤٨ ب٢٠ ح٦ .

الآية «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات» قال اليهودي : صدقت يا محمد ، فماجزاء من صامها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله :
ما من مؤمن يصوم شهر رمضان احتساباً إلا أوجب الله عزّ وجلّ له سبع خصال :

أولها : يذوب الحرام في جسده .

والثانية : لايبعد من رحمة الله تعالى .

والثالثة : يكون قد كفّر خطيئة أبيه آدم .

والرابعة : يهوّن الله عليه سكرات الموت .

والخامسة : أمان من الجوع والعطش يوم القيامة .

والسادسة : يعطيه الله براءة من النار .

والسابعة : يطعمه الله من طيبات الجنة .

قال اليهودي : صدقت يا محمد [1] .

اللطف الثامن : قوله تعالى في آخر الآيات: «**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**» خاطب الله عباده المؤمنين في هذه الجملة وأعلمهم بأنّ كل تكليف يعسر عليكم الاتيان به فإنه يعذركم فيه ، إنه يريد بكم اليسر و لا يكلّفكم بالعسير من الأفعال .

وبعد هذا فانظر وتأمل أيها المؤمن العاقل وفكّر جيداً ، فإنّ الله كلّفك بتكليف واحد تعود مصلحته عليك ويرجع نفعه إليك ، فقدم لك من ألطافه وعناياته ثمانية امور جعلها كالاعتذار منك حيث إنّ التكليف فيه أدنى مشقة ، وأنت في كل يوم تعصيه عشرات المرات أو أكثر فلا تقدم له عذراً واحداً .

هذا مايتعلّق بوجوب الصوم حيث إنه من صفات المؤمنين ويدخل في موضوع بحثنا ، وأمّا بقية الآيات المتعلّقة بالصوم فإنها تذكر في كتب الفقه . نعم ينبغي

(١) اللئالي الاخبار : ج١ ص٢٠٩ .

ذكر آية واحدة مذكورة في ضمن آيات الصوم فإنها تتعلّق بفرضنا وهـي قوله تعالى :

وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون (١٨٦).

لقد كثرت كلمات المفسرين حول هذه الآية من جهات عديدة ، فمرة يبحثون عن المسؤول عنه هل هو ذاته تعالى أو أفعاله أو صفاته ؟ وقد ذكر كل واحد ما يوافق رأيه وعقيدته ، أو أنّ المسؤول عنه هـو كيفية الطلب منه كما روي أنّـها نزلت حين سألوا النبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه؟[1].

وتارةً يبحثون عن معنى القريب وأنّ القرب في المكان محال في حقه تعالى.

ومجمل القول: إنّ قوله تعالى: «فاني قريب» يصلح أن يكون جواباً على كل تقدير سواء كان المسؤول عنه ذاته أو أفعاله أو صفاته أو كيفية السؤال منه، ومعنى القرب إحاطته بالأشياء علماً وقدرة .

و تارةً اخرى يقع الكلام في عدم الاجابة من الله حيث لم يحصل المطلوب وهنا كل منهم يفسر الآية بما يتخلص به عن خلف الوعد حيث إنه قال : **«اجيب دعوة الداع اذا دعان»** .

ونرى كثيراً من الدعوات لا تجاب ، وقد تكلّموا في جهات اخرى غير هذه الجهات ، وينبغي أن نعرف أولاً مقدار العبودية التي يعرفها العبد الداعي ويثبتها لخالقه، هل أنّ هذا الداعي يستحق الاجابة؟ وهل يشمله قوله : «اجيب دعوة الداع»؟ أو أنّـه بعيد عن العبودية و عن الدعاء المطلوبين لله عزّ وجلّ؟ ومن المعلوم أنّ إطلاق لفظ العبد على معناه الحقيقي إنما يتحقّق بالايجاد، وهذا لا يكون إلا لله

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٢٧٨ .

تعالى، قال جلّت عظمته: «إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً»[1].

قال الامام علي بن الحسين عليه السلام في بعض دعواته : يامن حاز كل شيء ملكوتاً وقهر كل شيء جبروتاً . . . الخ [2] وهذا المعنى من العبودية متحقق بالقهر على جميع العباد ولكن الناس يختلفون فيما يتصفون به من العبودية و ما يفهمونه من معناها ، فهم في ذلك على طبقات كثيرة .

وقد ذكر الفرق بينهم في الكتاب والأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ، فمنهم من يكون في أكمل المراتب و هـم الذين يئس منهم إبليس ولم يطمع في إغوائهم ، كما حكى الله ذلك في قوله : «وعزتك لأغوينهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين» [3] ، و منهم من وصفهم الله بقوله : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» [4] .

والذي يظهر من الآيات أنّ الله في مقام تفضيل العبد وتكريمه يوجه الخطاب اليه بلا واسطة ويضيفه الى نفسه مثل قوله : «و اذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه»[5] . وقوله : «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب اولي الأيدى والأبصار» [6] .

وروي عن الامام الباقر عليه السلام قال : إنّ لله عباداً ميامين مياسير يعيشون ويعيش الناس في أكنافهم وهم في عباده مثل القطر [7] و يظهر هذا المعنى جلياً في قوله تعالى : «ياأيتها النفس المطمئنة * ارجعي الى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * و ادخلـي جنتي» [8] فإنه قدّم دخولها في عباده على دخولها الجنة ، ثم إنّ صاحب هذه الرتبة ـ أي الكامل في العبودية ـ يلزمه أن يكون كاملاً في العلم

---

(١) مريم : ٩٤ .
(٢) لم نعثر عليه فى مظانه .
(٣) الحجر : ٣٩و٤٠ .
(٤) الفرقان : ٦٣ .
(٥) ص : ١٧ .
(٦) ص : ٤٥ .
(٧) تحف العقول : ص ٢٢٠ .
(٨) الفجر : ٢٧ـ٣٠ .

وإلا فكثرة العبادة بلا علم وفقه ليس فيها فائدة .

وهو ما أشار اليه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله : المتعبد على غير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح ، و ركعتان من عالم خير من سبعين ركعة من جاهل ، لأنّ العالم تأتيه الفتنة فيخرج منها بعلمه وتأتي الجاهل فتنسفه نسفاً ، وقليل العمل مع كثير العلم خير من كثير العمل مع قليل العلم والشك والشبهة [1] .

فالذي يتعبد على غير علم يكون كالعابد الذي تمنّى الحمار لربه ، ويلزم كمال العبودية الكمال في العقل أيضاً ، وإلا اذا لم يكن كامل العقل ولا يعرف مايطلب ومتى يطلب يكون حاله كحال الرجل الذي وعده الله بواسطة موسى بن عمران عليه السلام أن يقضي له ثلاث حوائج فضيعها في مطالب تافهة ولم يحصل منها على فائدة .

فإذا كان الشخص بهذه الصفة من العبودية والعلم والعقل فهو الذي ينطبق عليه قول الامام الصادق عليه السلام: اذا دعوت فظن أنّ حاجتك بالباب[2]. وهو المصداق الحقيقي لقوله تعالى : «**فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي**» .

فإنّ مثل هؤلاء القوم لايدعون بشيء إلا وهم مستجمعون لجميع الشروط المعتبرة في الدعاء من طيب المأكل والمشرب والملبس وتقديم التوبة بعد الاعتراف بالذنب ، وتقديم الثناء على الله والصلاة على النبي وآله وغيرها من الشروط الواردة في الأخبار عن أهل بيت العصمة عليهم السلام ، وهم الموفون بعهد الله الذي جعله الله شرطاً للوفاء لهم بقوله : «أوفوا بعهدي اوف بعهدكم» [3] فهذه الطبقة من الناس تكون إجابة الله لهم مقرونة بدعائهم كما هو مذكور في الأخبار والآثار والسير وتراجم الرجال .

ثم بعد هذه الطبقة يكون الناس على موجب منزلتهم من العبودية ، فمنهم من هو فاقد لبعض الشروط ، ومنهم الفاقد لمعظم الشروط ، ومنهم الفاقد للجميع ،

---

(١) بحار الانوار : ج١ ص٢٠٨ ب٥ ح١٠ .

(٢) اصول الكافي : ج٢ ص٤٧٣ ح١ .

(٣) البقرة: ٤٠ .

ومنهم من لا يعرف من العبودية شيئاً أبداً .

يقول الامام الباقر عليه السلام في كلام تقدم بعضه: ولله عباد ملاعين مناكيد لا يعيشون ولا يعيش الناس في أكنافهم ، وهم في عباده بمنزلة الجراد لا يقعون على شيء إلا أتوا عليه [1].

وبعد هذا يتضح أن العبودية القهرية المسببة عن الايجاد والخلق هي عامة لجميع المخلوقات ،فإنهم عباد مقهورون سواء رضوا بها أم لم يرضوا . وأمّا العبودية الاختيارية التي تكون باعتراف العبد وتتحقق بتعبده فهي أصناف كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وهي بجميع أصنافها وأقسامها ناقصة غير كاملة .

فإذا دققنا النظر في قوله تعالى : «واذا سألك عبادي عني فإني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان » نراه منطبقاً على أهل المرتبة العليا التي ذكرت فهم أحد مصاديقها .

أما غيرهم ممن عبوديتهم ناقصة اذا امتثلوا أمر الله وأطاعوا قوله: «فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي » يلتحقوا باستجابتهم وإيمانهم بأهل تلك المرتبة ويكونوا عباداً مخلصين بلا قيد أو شرط فيشملهم قوله تعالى : «اجيب دعوة الداع » .

ولعل أكثر الداعين من قبيل من ذكره الله في قوله : «واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمّا كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زيّن للمسرفين ماكانوا يعملون » [2] ، أو من قبيل من ذكره في قوله تعالى: «دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلمّا أنجاهم اذا هم يبغون في الأرض بغير الحق» [3] .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة

(١) تحف العقول :ص ٢٢٠ .

(٢) يونس : ١٢ .

(٣) يونس : ٢٢و٢٣ .

ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (٢٠٨).

لقد اختلف المفسرون تارة في معنى السلم الذي أمر الله المؤمنين بالدخول فيه ، واخرى في قوله «كافة» هل أنها حال من الضمير العائد للمؤمنين أو أنها حال من السلم [1] ،ولا ريب في ظهور كون الخطاب للمؤمنين الحائزين لشروط الايمان من فعل الواجبات وترك المحرمات،وأن هذا الشرط هو شرط لتلك الشروط المعتبرة في المؤمن ، وأن المؤمن مهما فعل من العبادة والطاعة وبذل المال والزهد في الدنيا فإنه إن خالف هذا الأمر ولم يدخل في السلم فإنه زال عن طريق الايمان متبع للشيطان مستحق للعقاب من الله ، كما يظهر ذلك من الآية التي بعدها .

فينبغي أن نعرف معنى السلم حتى ندخل فيه، ويعرف المتخلف نفسه أنه متبع لخطوات الشيطان فنقول: إن السلم في اللغة هو ضد الحرب،وحيث إنه لم يكن بين المؤمنين حرب حين نزول الآية ، يكون المقصود منه المداومة على ما هم فيه ، والملاءمة والانقياد والطاعة في كل وقت وفي كل أمر ، وعدم إحداث ما يوجب الحرب ، فالمطلوب من المؤمنين بعد استجماعهم لجميع شروط الايمان هو الطاعة والانقياد في كل أمر و في كل حين ، وهذا موقوف على امور :

الأول : وجود شخص معين من قبل الله أو الرسول حتى تكون الطاعة له والانقياد إليه هو المحقق للدخول في السلم ، ولاريب في كونه هو النبي ﷺ أيام وجوده في الدنيا ، فمن أطاع النبي في كل أوامره فقد دخل في السلم حال وجوده وبعد ارتحاله ، فإنه ﷺ قد بيّن لهم ودلّهم على من يلزمهم طاعته والانقياد إليه بعده لقوله ﷺ : مامن شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به ، و ما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٣٠٢ .

إلا وقد نهيتكم عنه [1].

وهذا صريح جلي لأنه ﷺ قد دلّنا على من تلزمنا إطاعته والانقياد إليه من بعده، وإلّا فإنّ رسول الله ﷺ تركنا متبعين لخطوات الشيطان، وحاشى نبي الله أن يترك امّته على هذه الحالة، حاشى نبي الرحمة أن يابهم علينا الأمر الذي أراده الله منا وأمرنا به، فتكون امّته كلها متبعة لخطوات الشيطان إلا بعض من كان في زمان حياته، حاشى خاتم النبيين وسيدهم أن يترك أهمّ الامور الذي به يتحقق الايمان فلم يوضحه لامّته فتكون الامّة كلها كافرة بمقتضي هذه الآية، وهل يجرأ أحد أن يقول: إنّ النبي ﷺ ترك امّته سدى في أمر يرجعون بتركه وإهماله كفاراً ؟! ولا يقول هذا إلا من يظهر الاسلام ويبطن الكفر ويريد أن يرجع المسلمون كلهم الى الكفر.

الأمر الثاني: يلزم أن يكون هذا الشخص الذي أمرنا الله بطاعته والانقياد إليه عالماً بكل حكم من الأحكام التي يرضي بها الله، وهي الأحكام الواقعية سواء كانت دنيوية أو اخروية، وأن لا يكون في الناس من هو أعلم منه ولو في مسألة واحدة، وهذا يعلم من جعل الله آدم خليفة في الأرض حيث علّمه الأسماء كلها فلا يحتاج في شيء من الامور الى الرجوع لغيره، وهذا الأمر ثابت بالنسبة إلى النبي ﷺ لا نزاع فيه لأحد.

وكذا يلزم فيمن يقوم مقامه من بعده، لأنه لو لم يكن كذلك لاحتاج الى غيره ولا يحصل الغرض منه بدون ذلك حتى يكون جميع المؤمنين ملزمين بحسب هذه الآية بالطاعة له والانقياد إليه كما كانوا ملزمين بالطاعة للنبي ﷺ، وأنّ الذي يترك الانقياد له وينقاد لغيره فهو ممن اتبع خطوات الشيطان، وإن لم يتحقق وجود مثل هـذا الشخص فلا يمكن امتثال الأمر الموجه إلينا وهـو الدخول في السلم، وإلا فمن الذي يقودنا ويكون حكماً في تمييز الحق من الباطل لقطع الخصومات؟

---

(١) الكافي: ج٢ ص ٧٤ ح٢.

الأمر الثالث : أنّ الذي يقوم مقام النبي ﷺ من بعده ويلزم المسلمون بالانقياد إليه والطاعة له يلزم أن يكون معصوماً كالعصمة التي نعتبرها في النبي ، وكل شيء يدل على اعتبار العصمة في النبي يجري في من يقوم مقامه ، والمراد من العصمة استحالة صدور الخطأ والنسيان والسهو والكذب أو أيّ ذنب عليه في كل مقام ومقال. والغاية من لزوم العصمة هي حصول اليمين بأنّ ما يأتي به هو من عندالله ورسوله ، وإلا فيتطرق الشك في كل ما يخبربه ، وهذا خلاف الغاية المقصودة من بعثة النبي ونصب الامام .

وأما قوله تعالى : «كافة» فقد اختار أكثر المفسرين أنها حال من السلم لا لا من الضمير في «ادخلوا» . فيكون المعنى أمر من الله تعالى لكل من آمن بالله ورسوله بالدخول في السلم ، أي في جميع شرائع الاسلام وأحكامه التي بيّنها لهم النبي ﷺ ليعملوا بها في حياته وبعد وفاته ،أي أبلغوا في الاسلام الى حيث تنتهي شرائعه فتكفوا عن التعداد ، ولا تقولوا إنّ النبي ﷺ ترك بعض أركان الدين ولم ينبّه عليه امّته ، فإنّ هذا الأمر لا يليق أن ينسب للنبي مع أنّ الله يقول : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» [1].

فاذا اتفقت امّة محمد ﷺ بأنّ الله أكمل لهم الدين ، وأنّ النبي بيّن الدين الكامل لهم بجميع اصوله وفروعه ثم يأمرنا الله بالدخول في السلم أي بالطاعة والانقياد للقائد العام ، ونسلّم كلنا أنّ القائد هو النبي أيّام حياته ، فمن يكون قائداً بعد وفاته حتى ندخل في طاعته وننقاد إليه؟ ولا يمكن القول بأنّ النبي ﷺ أهمل هذا الأمر المسبب لاختلاف امّته،هذا الاختلاف الواسع بحيث صارت الامّة فرقاً وأحزاباً وأنّ أغلب هذه الفرق قد ضلّت عن الطريق وانقلبت على الأعقاب كما هو صريح الآية .

---

(١) المائدة : ٤ .

و لكن بعد التحقيق و التدقيق و الفحص عن أقوال النبي صلى الله عليه وآله نرى أنه قد أرشدنا ودلّنا على القائد بقوله المتكرر منه في مقامات عديدة: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي : كتاب الله و عترتي أهل بيتي [1] و قد كرر هذا الحديث بعبارات مختلفة ولكن المعنى واحد حتى سمعه منه جميع أصحابه.

و إنما أشرك العترة مع الكتاب في حال كون الكتاب هو المشتمل على جميع الأحكام ، وذلك لأنّ الناس لا يمكنهم تحصيل جميع أحكامهم من الكتاب فلابدّ لهم من مفسر ومؤول للكتاب عارف بجميع أحكامه، وقد دلّت الأحاديث الصحيحة أنّ النبي قد علّم علياً جميع أحكام الآيات ، وهو سيد العترة فأشركه مع الكتاب ليكون مفسراً له ، و يكفي دليلاً على معرفة علي بالأحكام قوله صلى الله عليه وآله : أنا مدينة العلم وعلي بابها [2] .

وللتأكيد نذكر لكم الخبر الآخر المسلّم لدى جميع الأصحاب قول علي عليه السلام : علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب [3] .

وبعد ملاحظة ما ذكرنا و التأمل فيه يقرأ المؤمن الآية الشريفة و يتضح له معناها : «ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» .

ثم إنّ الذين كتبوا في تفسير القرآن على كثرتهم إمّا من جماعة الامامية ـ الذين يعتقدون بأنّ النبي نصّ على الخلفاء الذين يكونون بعده بأسمائهم الصريحة ـ وإمّا من إخوانهم أهل السنّة .

أمّا الفرقة الامامية فيقولون بأنّ الذي يجب الدخول في طاعته والانقياد له هو الخليفة الذي عيّنه النبي صلى الله عليه وآله وهو علي بن أبي طالب عليه السلام .

وأمّا المفسرون من أهل السنّة فلم يذكروا هذا الركن في تفسير الآية وإن

---

(١) بحار الانوار : ج٢٣ ص١٣٣ ب٧ ح٧٠ .

(٢) كنز العمال : ج١١ ص٦٠٠ ح٣٢٨٩٠ .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج٤ ص٤٤٤ ح١٣ .

كان ذكرهم لخبر الثقلين يلزمهم بالاتفاق مع الامامية ، ولكن في تفسير الآية لم يذكروا شيئاً .

ما ذكره سيد قطب في تفسيره

و من جملة المفسرين في عصرنا الحاضر سيد قطب، فإنه لم يذكر شيئاً «في ظلال القرآن» فإنه تكلم في هذه الآية ومايتعلّق بها من الآيات التي قبلها وبعدها نحواً من سبع وعشرين صحيفة ذكر فيها الواجبات والمندوبات ، وذكر محاسن الشريعة الاسلامية ورغّب الناس بالتمسك بها [1] .

ثم ذكر صفات المؤمن الخالص الايمان ، وذكر صفات المنافق المخادع ، ثم قال بعد ذكر الآيات ماهذا نصه : و هي دعوة توجّه في كل حين للذين آمنوا ليخلصوا ويتجردوا وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع مايريد الله بهم وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم في غير تلجلج ولا تردد ولا تلفت [2] انتهى ، ولم يذكر من الذي يقودهم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ما ذكره المراغي في تفسيره

«ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعدماجاءتكم البينات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر والى الله ترجع الامور» [3] .

تفسير المفردات :

أصل السلم : التسليم والانقياد فيطلق على الصلح والسلام وعلى دين الاسلام .

---

(١) في ظلال القرآن : ج١ ص٢٠٦ .
(٢) في ظلال القرآن : ج١ ص٢١١ .
(٣) البقرة : ٢٠٨ – ٢١٠ .

والخطوات : واحدها خطوة بالضم مابين قدمي من يخطو.

والزلل: في الأصل عثرة القدم ثم استعمل في الانحراف عن الحق.

والبيّنات: الحجج والأدلة التي يرشد الى أنّ مادعيتم إليه هو الحق عقلية كانت أو نقلية .

والعزيز : الغالب الذي لايعجزه الانتقام .

والحكيم : الذي يعاقب المسيء ويكافىء المحسن .

ينظرون: أي ينتظرون .

يأتيهم الله : أي يأتيهم عذابه .

والظلل: واحدها ظلّة ـ بالضم ـ وهي ما أظلّك .

والغمام : السحاب الأبيض الرقيق .

وقضي الأمر : أي أتمّ أمر إهلاكهم وفرغ منه .

المعنى الجملي :

بعد أن بيّن سبحانه فيما سلف من الآيات أنّ الناس في الصلاح و الفساد فريقان : فريق يسعى في الأرض بالفساد و يهلك الحرث و النسل ، و فريق يبغي بعمله رضوان الله وطاعته أرشدنا الى أنّ شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد لا التفريق والانقسام .

الايضاح :

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة »كافة: أي في أحكامه كلها التي أساسها الاستسلام والخضوع لله و الاخلاص له ، ومن اصوله الوفاق و المسألة بين الناس و ترك الحروب بين المهتدين بهديه و الأمر بالدخول فيه أمر بالثبات والدوام كقوله تعالى : «يا أيها النبي اتّق الله» [1] .

(١) الاحزاب : ١ .

المعنى : يا أيهاالذين آمنوا بالألسنة و القلوب دوموا على الاسلام فيما تستأنفون من أيامكم ولاتخرجوا عن شيء من شرائعه ، بل خذوا الاسلام بجملته وتفهموا المراد منه بأن تنظروا في كل مسألة الى النصوص القولية والسنّة المتبعة فيها وتعملوابذلك لاأن يأخذ كل واحدبكلمة وسنّة يجعلها حجة على الآخر وإن أدى الى ترك ما يخالفها من النصوص والسنن ، وبهـذا يرتفع الشقاق و التنازع ويعتصم المسلمون بحبل الوحدة الاسلامية التي أمرنا الله باتباعها في قوله: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا» [١] ونهانا عن ضدها في قوله : «ولاتنازعوا فتفشلوا» [٢] وقوله (ص) : لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض [٣] .

و لكن المسلمين قد خالفوا هذا فتفرقوا و تنازعوا وشاقّ بعضهم بعضاً ، واتخذوا مذاهب متفرقة كل فريق يتعصب لمذهب و يعادي سائر إخوانه المسلمين زعماً منه أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين ، فهذا سنّي يقاتل شيعياً، وهذا شافعي يغري التتار بالحنفية، وهؤلاء مقلدة الخلف يحادون من اتبع طريق السلف .

«ولاتتبعوا خطوات الشيطان» أي :لاتتبعوا سبله في التفرق في الدين أوفي الخلاف والتنازع، إذهي سبله التي يزينها للناس ويسول لهم فيها المنافع والمصالح فقد كانت اليهود امّـة واحدة مجتمعة على كتاب واحد فوسوس لهم الشيطان فتفرقوا وجعلوا لهم مذاهب وشيعاً وأضافوا الى الكتاب ما أضافوا وحرفوا من حكمه ما حرفوا ، فسلّط الله عليهم أعداءهم فمزقوهم كل ممزق ، وهكذا فعل غيرهم من أهل الأديان كأنهم رأوا دينهم ناقصاً فكملوه و قليلاً فكثروه ، فثقل عليهم بذلك فوضعوه فذهب الله بوحـدتهم و لم تغن عنهم كثرتهم إذ سلّط عليهم

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الانفال : ٤٦ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل : ج٢ ص٨٧ و١٠٤ .

الأعداء وأنزل بهم البلاء.

ثم ذكر السبب في النهي عن اتباع خطوات الشيطان فقال: «إنه لكم عدو مبين» أي: أنه ظاهر العداوة لكم، فإنّ جميع ما يدعو إليه ظاهر البطلان بيّن الضرر لمن تأمّل فيه وتفكّر، ومن لم يدرك ذلك في مبدأ الخطوات أدركه في الغايات حين يذوق مرارة العاقبة، فلا عذر لمن بقي على ضلالته بعد تذكير الله وهداية عباده الى سبل الخير وتحذيره إيّاهم عن سلوك طرق الشر.

ثم توعدهم اذا هم حادوا عن النهج السوي والطريق المستقيم فقال: «فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم» أي: فإن حدتم عن صراط الله وهو السلم وسرتم في طريق الشيطان وهو الخلاف والافتراق بعد أن بيّن لكم عداوته ونهاكم عن اتباع طرقه وخطواته، فاعلموا أنّ الله يأخذكم أخذ عزيز مقتدر، فهو عزيز لا يغلب على أمره، حكيم لا يهمل شأن خلقه، ولحكمته قد وضع تلك السنن في الخليقة فجعل لكل ذنب عقوبة، وجعل العقوبة على ذنوب الامم ضربة لازب في الدنيا ولم يؤخرها حتى تحلّ بها في الحياة الاخرى.

ولا تقوم للامم قائمة إلا اذا أقامت العدل بين أفرادها وكانت صالحة لعمارة الأرض كما قال تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون» (1) وهكذا الأفراد إذا لم ينهجوا النهج السوي ويتحلّوا بفاضل الأخلاق فلن يوفقوا في دنياهم ولا في اخراهم.

ثم زاد في التهديد والوعيد فقال: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة» (2)

أي: هاهي ذي قد قامت الحجج ودلّت البراهين على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهل

---

(1) الانبياء: ١٠٥.

(2) البقرة: ٢١٠.

ينتظر المكذبون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب في ظلل من الغمام عند خراب العالم وقيام الساعة ، وتأتي الملائكة وتنفذ ما قضاه الله يومئذ ، والحكمة في نزول العذاب في الغمام إنزاله فجأة من غير تمهيد ينذر به ولا توطئة توطن النفوس على احتماله ، إلا أن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العـذاب كان أفظع وأشد هولاً ، والخوف اذا جاء من موضع الأمن كان خطبه أعظم .

ونحو الآية قوله : «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلاً »[1].

وفي الآية عبرة للمؤمن ترغبه في المبادرة الى التوبة لئلا يفاجئه وعد الله وهو غافل ، فإذا لم يفاجئه قيام الساعة العامة وهلاك هذا العالم كله فاجأه قيامته بموته بغتة ، فإن لم يمت بغتة جاءه المرض بغتة فلا يقـدر على العمل و تدارك الزلل .

«وقضي الأمر» أي: كيف ينتظرون غير ذلك وهو أمر قضاه الله وأبرمه فلا مفر منه ، وحينئذ يثاب الطائع ويعاقب العاصي .

ثم بالغ في التهديد والزجر قال : «والى الله ترجع الامور» فيضع كل شيء في موضعه الذي قضاه ، فهو الأول ، ومنه بدأت الخلائق وهـو الآخر وإليه ترجع الامور وتصير ، فعلى من زل عن الصراط السوي واتبع خطوات الشيطان أن يبادر بالتوبة ويرجع الى الحق قبل أن يحيق به زلله ويجازى على عمله[2] انتهى.

ما ذكره ابن كثير في تفسيره

«ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين* فإن زللتم من بعدما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم».

---

(١) الفرقان : ٢٥ .

(٢) تفسير المراغي :ج٢ ص١١٣ ـ ١١٦ .

يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الاسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك .

قال العوفي : عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله « ادخلوا في السلم» يعني الاسلام .

وقال الضحاك : عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس «ادخلوا في السلم » يعني الطاعة .

وقال قتادة أيضاً : الموادعة .

وقوله «كافة» قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك : جميعاً . وقال مجاهد : أي : اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد و ثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله (ص) في أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلاً فأمرهم الله بإقامة شعائر الاسلام والاشتغال بها عما عداها .

وفي ذكر عبدالله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه والتعويض عنه بإعباء الاسلام .

ومن المفسرين من يحمل قوله «كافة» حالاً من الداخلين، أي: ادخلوا في الاسلام كلكم، والصحيح الأول ،وهو أنهم امروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الايمان وشرائع الاسلام وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها .

كما قال ابن أبي حاتم : أخبرنا علي بن الحسين ، أخبرنا أحمد بن الصباح ، أخبرني الهيثم بن يمان ، حدثنا إسماعيل بن زكريا ، حدثني محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » كذا

فرأها بالنصب يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الايمان بالله مستمسكين ببعض امور التوراة والشرائع التي انزلت فيهم فقال الله : «ادخلوا في السلم كافة» يقول : ادخلوا في شرائع دين محمد (ص) ولا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الايمان بالتوراة وما فيها .

وقوله: «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» أي: اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان : فـ «إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»[1] و«إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» [2] ولهذا قال «إنه لكم عدوٌ مبين».

وقال مطرف : أغشُ عباد الله لعبيد الله الشيطان .

وقوله : «فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات» أي : عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج «فاعلموا أنّ الله عزيز» أي: في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب «حكيم» في أحكامه ونقضه وإبرامه ، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس : عزيز في نقمته حكيم في أمره .

وقال محمد بن إسحاق: العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء ، الحكيم في عذره وحجته الى عباده [3] انتهى.

ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين* فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم* هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر والى الله ترجع الامور» .

---

(١) البقرة : ١٦٩ .

(٢) فاطر : ٦ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج١ ص٤٣٩ .

بيـان :

هذه الآيات و هي قوله : «يا أيها الذين آمنوا» الى قوله : «ألا إنّ نصر الله قريب» الآية، سبع آيات كاملة تبيّن طريق التحفظ على الوحدة الدينية في الجامعة الانسانية ، وهو الدخول في السلم والقصر على ما ذكره الله من القول وما أراه من طريق العمل ، وأنه لم تنفصم وحدة الدين ولا ارتحلت سعادة الدارين ولا حلّت الهلكة دار قوم إلا بالخروج عن السلم و التصرف في آيات الله تعالى بتغييرهـا ووضعها في غير موضعها ، شوهد ذلك في بني إسرائيل وغيرهم من الامم الغابرة ، وسيجري نظيرها في هذه الامّة لكن الله يعدهم بالنصر «ألا إنّ نصر الله قريب» .

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» السلم و الاسلام والتسليم واحدة ، و«كافة» كلمة تأكيد بمعنى جميعاً ، ولمّا كان الخطاب للمؤمنين وقد امروا بالدخول في السلم كافة فهو أمر متعلّق بالمجموع و بكل واحد من أجزائه،فيجب ذلك على كل مؤمن ، ويجب على الجميع أيضاً أن لا يختلفوا في ذلك ويسلّموا الأمر لله ولرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأيضاً الخطاب للمؤمنين خاصة ، فالسلم المدعو إليه هو التسليم لله سبحانه بعد الايمان به ، فيجب على المؤمنين أن يسلّموا الأمر إليه ولا يذعنوا لأنفسهم صلاحاً باستبداد من الرأي ، ولا يضعوا لأنفسهم من عنـد أنفسهم طريقاً يسلكونه من دون أن يبيّنه الله ورسوله ، فما هلك قوم إلا باتباع الهوى والقول بغير العلم، ولم يسلب حقّ الحياة وسعادة الجد عن قوم إلا عن اختلاف.

ومن هنا ظهر أنّ المراد من اتباع خطوات الشيطان ليس اتباعه في جميع ما يدعو إليه من الباطل بل اتباعه فيما يدعو إليه من أمر الدين ، بأن يزيّن شيئاً من طرق الباطل بزينة الحق و يسمي ما ليس من الدين باسم الدين فيأخذ به الانسان من غير علم ، وعلامة ذلك عدم ذكر الله ورسوله إيّاه في ضمن التعاليم الدينية [1] انتهى محل الحاجة منه .

---

(١) تفسير الميزان : ج٢ ص١٠١ .

ما ذكره الزمخشري في الكشاف

«السلم» بكسر السين وفتحها، وقرأ الأعمش بفتح السين واللام : وهو الاستسلام والطاعة أي: استسلموا لله وأطيعوه «كافة» لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته. وقيل: هو الاسلام .والخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم ، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم، ويجوز أن يكون «كافة» حالاً من السلم لأنها تؤنث كما تؤنث الحرب ، قال [العباس بن خرداس] :

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

على أن المؤمنين امروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها ، وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة ، أو في شعب الاسلام وشرائعه كلها ، وأن لا يخلوا بشيء منها .

وعن عبدالله بن سلام أنه استأذن رسول الله (ص) أن يقيم على السبت وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل .

و «كافة» من الكف كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم .

«فإن زللتم» عن الدخول في السلم «من بعدما جاءتكم البينات» أي :الحجج والشواهد على أن ما دعيتم الى الدخول فيه هو الحق «فاعلموا أن الله عزيز» غالب لا يعجزه الانتقام منكم «حكيم» لا ينتقم إلا بحق [1] انتهى موضع الحاجة .

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤) .

خاطب الله المؤمنين في هذه الآية الشريفة وأمرهم أن ينفقوا مما رزقهم فإنه

(١) الكشاف : ج١ ص٢٥٢ .

هو الذي أعطاهم هذا المال و هاهو يدعوهم أن ينفقوا منه ويشير الى أن المتثل لهذا الأمر والمنفق من مال الله سوف يعقد صفقة تجارية بينه وبين الله تعالى، وسوف تكون بينه وبين الله خلّة، بمعنى أن يكون خليلاً لله، وسوف يكون ممن يأذن الله لرسوله أن يشفع له يوم القيامة بين يدي الله، وأن الذي لا ينفق مما رزقه الله في الدنيا ويبخل بالمال عن العطاء سوف يأتيه يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة، فإذا لم يكن في ذلك اليوم بيع فلا يمكنكم تدارك ما فاتكم بابتياع ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب، و إذا لم يكن فيه خلّة و هي الحب الخالص فلا يكون لكم أخلّاء حتى يسامحوكم في ذلك اليوم، و إذا لم يشفع هناك أحد إلا بإذن من الرحمن فلا يمكنكم أن تتكلوا على أحد يشفع لكم في حط ما في ذممكم.

والظاهر أن المقصود من الانفاق هو إعطاء الزكاة الواجبة، وأن التارك لها والممتنع من إعطائها يكون ظالماً لنفسه حيث ترك واجباً، ويكون ظالماً للفقراء حيث منعهم حقهم. ولذا يقول الله للمؤمنين: إن الكافر هو الظالم وأنتم بما أنكم مؤمنون لا ينبغي أن تكونوا ظالمين، فإذا اتصفتم بالظلم كنتم من زمرة الكافرين.

فتحصّل لنا من الآية الشريفة: أن جملة الصفات المعتبرة في المؤمنين هي صفة السخاء بأن ينفق ما أمره الله بإنفاقه، لأن عقيدة المؤمن بأن الرزاق هو الله وقد وعده بالزيادة اذا أنفق، وأمّا الممسك فإنه غير مصدق بوعد الله فيرجع الى عقيدة الكافر، نسأله تعالى أن يثبّتنا على الايمان.

قوله تعالى: لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم (٢٥٧).

حيث إن موضوع الكتاب هو صفات المؤمن المأخوذة من القرآن فإن هذه

الآية الشريفة قد قارنت بين الرشد والغي ، وهمـا ضدان لايجتمعان، و من عرف أحدهما عرف الآخر إذا كان رشيداً أو طالباً للرشد .

أمّا الذي يقول أو يعمل أو يكتب على ماتشتهيه نفسه أو على غير بصيرة وتدبر إمّا لتقصير أو قصور أو تعصب أعمى فهـو منغمس في الغي الى ام رأسه فلا يمكن أن يعرف شيئاً من الرشد ، و قد فسر الغي بأنه سلوك الطريق المسبب للعطـب والهلاك . فيكون الرشد في سلوك الطريق الموصل للغاية المحبوبة المحمودة .

«الرشد» هو إصابة حقيقة الأمر وإصابة الطريق المؤدي إليه ، والحجة التي توصل صاحبها الى ما يرضاه الله ويكون عذراً له يوم يوقف للحساب بين يدي الله وإنما يكون رشداً اذا كانت مقدماته كلها من الطريق التي نصبها الله لعباده ، أمّا إذا كانت المقدمات من امور غير مرضية لله فإنها تكون موصلة الى الغي حتماً ، فالمقصود من الرشد والغي في الآية هو الايمان والضلال. والايمان هو الموصل الى رضا الله و بدلالته ، فأمّا ما يختاره العبد من ذات نفسه فلا يكون مرضياً لله و إن صام وصلّى ليلاً و نهاراً وسمّاه أصحابه مؤمناً ، فكل شيء يقع في طريق الوصول الى الرشد وهو الايمان يلزم أن يكون بدلالة من الله سواء كان هو نفس العقيدة أو العبادة أو كيفيتهما أو أجزاهما .

ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره

أمّا قوله : «قد تبيّن الرشد من الغي» ففيه مسألتان:

المسألة الاولى : يقال بأن الشيء استبان وتبيّن اذا ظهر ووضح، ومنه المثل (قد تبيّن الصبح لذي عينين) . وعندي أن الايضاح والتعريف إنما سمي بياناً لأنه يوقع الفصل والبينونة بين المقصود وغيره . والرشد في اللغة معناه إصابة الخير ،وفيه لغتان: رشد ورشد ، والرشاد مصدر أيضاً كالرشد ، والغي نقيض الرشد يقال: غوى يغوي غياً وغواية اذا سلك غير طريق الرشد .

المسألة الثانية: «تبيّن الرشد من الغي» أي: تمييز الحق من الباطل والايمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الحجج والآيات الدالّة.

قال القاضي: ومعنى «قد تبيّن الرشد» أي: أنه قد اتضح و انجلى بالأدلة لا أنّ كل مكلّف تنبّه لأنّ المعلوم خلاف ذلك.

وأقول: قد ذكرنا أنّ معنى «تبيّن» انفصل وامتاز، فكان المراد أنه حصلت البينونة بين الرشد والغي بسبب قوة الدلائل وتأكيد البراهين[1] انتهى كلام الرازي.

ما ذكره المراغي في تفسيره

«قد تبيّن الرشد من الغي» أي قد ظهر أنّ في هذا الدين الرشد والفلاح، وأنّ ما خالفه من الملل الاخرى غيّ وضلال.

ثم فصل ذلك فقال: «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» أي: فمن يكفر بما تكون عبادته والايمان به سبباً في الطغيان والخروج عن الحق من عبادة مخلوق، إنساناً كان أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً، أو تقليد رئيس أو طاعة هوى، ويؤمن بالله فلا يعبد إلا إياه ولا يرجو شيئاً من أحد سواه، ويعترف بأنّ له رسلاً أرسلهم للناس مبشّرين و منذرين بأوامره ونواهيه التي فيها مصلحة للناس كافة، فقد تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكاً بأوثق عرى النجاة وأمتن وسائل الحق، وإنما يكون ذلك بالاستقامة على الطريق القويم الذي لا يضل سالكه، فمثله مثل الممسك بعروة الحبل المحكم المأمون الانقطاع لدى حمل جسم كبير ثقيل.

ثم أتى بما يفيد الترغيب والترهيب فقال: «والله سميع عليم» أي: والله سميع لأقوال من يدعي الكفر بالطاغوت والايمان بالله، عليم بما يكنه قلبه مما يصدق هذا أو يكذبه، فمن اعتقد أنّ جميع الأشياء مسيّرة بقدرة الله لا تأثير فيها لأحد سواه فهو المؤمن حقاً وله الجزاء الأوفى، ومن انطوى قلبه على شيء من نزعات الوثنية ونسب ما جهل سره من عجائب الخلق الى قوة غير طبيعية يتقرب بها

---

(١) التفسير الكبير: ج ٧ ص ١٦.

الى اللهزلفى فقدحق عليه العذاب، وكان جزاؤه جزاء الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين [١] انتهى كلام المراغي.

ما قاله السيوطي في الدر المنثور

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الطاغوت الشيطان في صورة الانسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم [٢].

ما ذكره سيد قطب في تفسيره

«لاإكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم * الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

إنّ قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية اقتناع بعد البيان والادراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الادراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكّر والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المتعقل كما يخاطب الفطرة المستكنة، يخاطب الكيان البشري كله والادراك البشري بكل جوانبه في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجأ مشاهدها إلجاء الى الاذعان، ولكن وعيه لايتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والادراك.

واذا كان هذا الدين لا يواجه الحسّ البشري بالخارقة المادية القاهرة فهو من باب أولى لايواجهه بالقوة والاكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد

(١) تفسير المراغي: ج ٣ ص ١٧ .
(٢) الدر المنثور: ج ١ ص ٣٣٠ .

أو مزاولة الضغط القاهر والاكراه بلا بيان ولااقناع ولااقتناع .

وكانت المسيحية آخر الديانات قبل الاسلام قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الامبراطور قسطنطين في المسيحية بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضدّ المسيحيين القلائل من رعايا الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعاً وحبّاً. ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية بل أنها ظلّت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذاهب الدولة وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح .

فلما جاء الاسلام عقب ذلك جاء يعلن في أول مايعلن هذا المبدأ العظيم الكبير «لاإكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي»[1] الى آخر ماذكره من الكلام على قوله «لا إكراه في الدين» .

ثم يقول في قوله تعالى «قد تبيّن الرشد من الغي» : فالايمان هو الرشد الذي ينبغي للانسان أن يتوخاه و يحرص عليه ، و الكفر هو الغيّ الذي ينبغي للانسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به ، والأمر كذلك فعلاً ، فما يتدبر الانسان نعمة الايمان وما تمنحه للادراك البشري من تصور ناصع واضح وماتمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام وما تثيره النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة وما تحققه في المجتمع الانساني من نظام سليم قويم دافع الى تنمية الحياة وترقية الحياة ، ما يتدبر الانسان نعمة الايمان على هذا النحو حتى يجد فيهـا الرشد الذي لايرفضه إلا سفيه ، يترك الرشد الى الغي ويدع الهدى الى الضلال ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضالة على الطمأنينة والسلام والرفق والاستعلاء، ثم يزيد حقيقة الايمان إيضاحاً وتحديداً وبياناً .

---

(١) في ظلال القرآن : ج ١ ص ٢٩١ .

«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها» إنّ الكفر ينبغي أن يوجه الى ما يستحق الكفر وهو الطاغوت، وإنّ الايمان يجب أن يتجه الى من يجدر الايمان به وهو الله.

والطاغوت صيغة من الطغيان تفيد كل مايطغي على الوعي ويجور على الحق و يتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولايكون له ضابطاً من العقيدة في الله ومن الشريعة التي يسنّها الله ومن كل منهج غير مستمدّ من الله، و كل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لايستمدّ من الله، فمن يكفر بهذا كلـه في كل صورة من صوره، ويؤمن بالله وحده و يستمدّ من الله وحده فقد نجا، وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لاانفصام لها.

و هنا تجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ولحقيقة معنوية. وهي أنّ الايمان بالله عروة وثيقة لاتنفصم أبداً، وأنها متينة لاتنقطع ولا يضلّ الممسك بها طريق النجاة، وأنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة.

والايمان في حقيقته اهتداء الى الحقيقة الاولى التي تقوم بهاسائر الحقائق في هذا الوجود حقيقة الله، و اهتداء الى حقيقة الناموس الذي سنّه الله لهذا الوجود و قام به هذا الوجود. والذي يمسك بعروته يمضي على هدى الى ربه فلا يظلم ولا يتخلّف ولاتتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال.

«والله سميع عليم»: يسمع منطق الألسنة ويعلم مكنون القلوب، فالمؤمن الموصول به لايبخس ولايظلم ولايخيب، ثم يمضي السياق يصور في مشهد حسيّ حيّ متحرك طريق الهدى وطريق الضلال، و كيف يكون الهدى و كيف يكون الضلال، يصور كيف يأخذ الله وليّ الذين آمنوا بأيديهم فيخرجهم من الظلمات الى النور، بينما الطواغيت أولياء الذين كفروا تأخذ بأيديهم فتخرجهم من النور الى الظلمات.

إنه مشهد عجيب حيّ موحٍ، والخيال يتبع هؤلاء و هؤلاء جيئة من هنا وذهاباً من هناك بدلاً من التعبير الذهني المجرد الذي لايحرك خيالاً ولا يلمس حساً ولايستجيش وجداناً ولايخاطب إلا الذهن بالمعاني والألفاظ .

فـإذا أردنا أن ندرك فضـل طريقة التصوير القرآنية فلنحاول أن نضع في مكان هذا المشهد الحي تعبيراً ذهنياً أياً كان لنقل مثلا : الله وليّ الذين آمنوا يهديهم الى الايمان والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم الى الكفران، إنّ التعبير يموت بين أيدينا ويفقد ما فيه من حرارة وحركة وإيقاع.

والى جانب التعبير المصور الحيّ الموحي نلتقي بدقة التعبير عن الحقيقة «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات» .

إنّ الايمان نور ، نور واحد في طبيعته وحقيقته ، و إنّ الكفر ظلمات ، ظلمات متعددة متنوعة ولكنها كلها ظلمات ، وما من حقيقه أصدق ولا أدقّ من التعبير عن الايمان بالنور ، والتعبير عن الكفر بالظلمة .

إنّ الايمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره تشرق به روحه فتشفّ وتصفو وتشع من حولها نوراً ووضاءةً ووضوحاً، نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات ، فيراها قلب المؤمن واضحة بغـير غشّ بيّنة بغـير لبس ، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة ، فيأخذ منها ما يأخذ و يدع منها ما يدع في هوادة وطمأنينة وثقة و قرار لاأرجحة فيه ، نور يكشف الطريق الى الناموس الكوني من حوله ومن خلاله، فيطابق المؤمن بين حركته وحركة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله، ويمضي في طريقه الى الله هيّناً ليّناً لا يعتسف ولايصطدم بالنتوءات ولايخبط هنا وهناك ، فالطريق في فطرته مكشوف معروف.

وهـو نور واحد يهدي الى طريق و احد ، فأمّا ضلال الكفر فظلمات شتى متنوعة ، ظلمة الهوى والشهوة وظلمة الشرود والتيه ، وظلمة الكبر والطغيان ،

وظلمة الضعف والذلّة ، وظلمة الرياء والنفاق ، وظلمة الطمع و السعر ، وظلمة الشكّ والقلق ، وظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله ، والتلقي من غير الله والاحتكام لغير منهج الله وما يترك الانسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد نور الحق الواحد الذي لا يتلبس حتى يدخل في الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف و كلها ظلمات ، والعاقبة هي اللائقة بأصحاب الظلمات.

«اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»: واذا لم يهتدوا بالنور فليخلدوا إذن في النار ، إنّ الحق واحد لا يتعدد ، والضلال ألوان وأنماط «فماذا بعد الحق إلا الضلال»[1] انتهى كلام صاحب «في ضلال القرآن ».

و إنّ هذا المؤمن الذي وصفه بقوله : إنّ الايمان نور يشرق به كيان المؤمن . . . الخ من صفات الكمال و هو من أعلى طبقات المؤمنين و من خاصتهم لا من عامتهم ، فإنّ عامة من يدعي الايمان لا يتصف و لا ببعض هذه الأوصاف ، وأنّ من يتصف بهذه الأوصاف مضافاً إليها غيرها إنما هم أدلة الناس ومرشدوهم وقادتهم الى الله وهم الذين قال النبي صلى الله عليه وآله مخبراً عنهم : المؤمن ينظر بنور الله[2] وهم تراجمة القرآن العالمون بتأويله الذين قرنهم الله بنفسه في قوله «و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم»[3].

فينبغي لطالب الرشد والايمان أن يفحص عنهم ليعرفهم بأسمائهم ويقتدي بهم، فإنّ الله ما ذكرهم في كتابه إلا لوجودهم في هذا العالم، وما أوجدهم في عالم الدنيا إلا لينفعوا الناس بما أعطاهم من العلوم ، وليرجع الناس إليهم فيما يحتاجون إليه من العلم .

وإنّ أول هؤلاء الرجال هو الرسول الأعظم، ومن بعده هم من قرنهم الرسول

(١) فى ظلال القرآن : ج١ ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .
(٢) كنز العمال : ج ١ ص ١٦٥ ح ٨٢٣ .
(٣) آل عمران : ٧ .

بالقرآن وجعلهم عدلاً له، وأمر الامّة بالتمسك بهم كما في الحديث الذي يرويه جميع الأصحاب وهو قوله : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض[١] هذا هو الرشد الذي بيّنه لنا الله في كتابه وأوضحه لنا الرسول الأكرم .

ثم إنّ جميع المفسرين إذا وصلوا الى هذه الآية و هي قوله : «لا إكراه في الدين» يتعرض الى فريضة الجهاد ، حيث إنّ الله أمر النبي ﷺ والمؤمنين بجهاد الكافرين ، فهل أنّ آية الجهاد ناسخة لهذه الآية ؟ أو أنها لا تنافي هذه الآية ويمكن العمل بها معاً ؟ وقد اختار كل واحد من المفسرين أحد هذين القولين .

أما سيد قطب فقد اختار في تفسيره «في ظلال القرآن» عدم المنافاة بين الآيتين، فإنه بعد ما أبطل قول بعض المغرضين الذين يريدون تشويه الاسلام وإيقاع الفتنة بين المسلمين قال :

لقد انتضى الاسلام السيف وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لا ليكره أحداً على الاسلام ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد .

جاهد الاسلام أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم الذي سلف تقريره في هذه السورة من قوله تعالى : «والفتنة أشدّ من القتل»[٢] فاعتبر الاعتداء على العقيدة والايذاء بسببها، وفتنة أهلها عنها أشدّ من الاعتداء على الحياة ذاتها ، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم ، و إذا كان المؤمن مأذوناً في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه، وقد كان المسلمون يسأمون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون، و لم يكن لهم بدّ أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعزّ مايملكون ، يسأمون الفتنة عن عقيدتهم و يؤذون فيها في مواطن شتى ، و قد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي و التقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم و فتنة أصحاب

(١) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .
(٢) البقرة : ١٩١ .

المذاهب المسيحية الاخرى ليرتدوا الى الكثلكة ...

الى أن يقول :

وجاهد الاسلام ثانياً لتقرير حرية الدعوة بعد تقرير حرية العقيدة ، فقد جاء الاسلام بأكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه الى البشرية كلّها ويبلغه الى أسماعها والى قلوبها، فمن شاء بعد البيان و البلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا إكراه في الدين .

ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة ، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا ، وأن يقتنعوا وأن ينضمّوا الى موكب الهدى اذا أرادوا .

و من هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصدّ الناس عن الاستماع الى الهدى وتفتن المهتدين أيضاً، فجاهد الاسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة الى الحق في كل مكان ، وحرية الدعاة ، وما يزال هذا الهدف قائماً وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين [١].

أقول : إنّ هذه النظم الطاغية التي ذكرها تصدر في أغلب الأوقات من المسلمين أنفسهم أو ممن يسمّون أنفسهم بالمسلمين، فينبغي للمؤمنين مكافحة هذه الفرق وإن لم يمكنهم ذلك فعليهم أن يظهروا الحقّ بألسنتهم وأقلامهم ، فإنّ هذه الفرق قد حدثت بعد رحلة النبي ﷺ مباشرة .

ثم قال سيد قطب :

جاهد الاسلام ثالثاً ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الانسان تجاه أخيه الانسان حينما يقرر أنّ هناك عبودية

---

(١) في ظلال القرآن : ج ١ ص ٢٩٣ و ٢٩٤ .

واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها، فليس هناك فرد ولا طبقة ولا امّة تشرع الأحكام للناس وتسندهم عن طريق التشريع، إنما هناك ربّ واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم على السواء و إليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع كما يتجهون إليه وحده بالايمان و العبادة سواء [1].

أقول: الى هنا كان سيد قطب موفقاً في كلامه مسدداً فيما كتبه، سائراً في طريق الرشد الذي ذكره الله في قوله: «قد تبيّن الرشد من الغي» وأنا أرجو من القارىء أن يحفظ هذا المقال الدالّ على أنّ كل أمر من امور الشريعة يلزم أن يكون مقدماته وأدلّته مستمدة من الله لا من شيء آخر.

ولكنه قد مال عن هذا الطريق وسلك طريقاً آخر، فقال بعد كلامه المذكور: فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذاً لشريعة الله، موكّلاً عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ... الخ [2].

ولا يخفى على القارىء أنّ هذا الكلام و هذا الرأي الذي فرضه على الامّة بأجمعها من غير دليل و لا حجة بل أرسله إرسال الأمر المسلّم عند الكل.

أقول: إنّ هذا الرأي منافٍ لما ذكره أولاً من أنّ جميع الأحكام ينبغي أن تكون مستمدة من الله، فإنا لا نعلم من هو الرجل الموكّل على التنفيذ؟ وهل يكون عالماً بجميع أحكام القرآن وعلومه الكثيرة؟ هل نوّه عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكلمة تدلّ على كثرة علمه بأن قال فلان باب مدينة علمي، أو قال فلان أقضاكم، فإذا لم تصدر في حقه كلمة من الرسول كيف توكّله الجماعة؟

ثم نسأل: من هم الجماعة الذين يوكّلون الرجل المجهول فلا نعرف

(١و٢) في ظلال القرآن: ج١ ص ٢٩٥.

الجماعة الموكّلين ولا الرجل الموكّل؟ وكيف فوض أمر الشريعة وأمر المسلمين وتفسير القرآن الى الجماعة ؟

إنّ هذا الكلام لايطابق ذلك الذي رجوت من القارىء أن يتذكّره ولا يغفل منه .

أمّا الذي يكون منفذاً لأحكام الشريعة ويكون مفسراً لكتاب الله فلا يكون اختياره راجعاً الى العباد ولا يعيّنه أحد من البشر ، لأنّ القرآن فيه الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ والمجمل والمفصل، وغير ذلك مما لايعلمه أحد إلا بتعليم من الله والرسول، وهذا الشخص لايعرفه إلا الله ورسوله و لا يعيّنه أحد غير النبي بأمر من الله .

أمّا الجماعة ـ سواء قلّت أو كثرت أو كانت جميع المسلمين ـ فلا يمكنها أن تعيّن أحداً لينفذ الأحكام، لأنّ التنفيذ إنما يكون مع العلم بالأحكام ، والعلم إنما يكون من قبل الله بواسطة الرسول ، و الجماعة لا تعرف الشخص الذي ألهمه الله العلم .

فلا يمكننا أن نقول فلان أو فلان هو المنفذ أو الخليفة لأنّ النبي يقول : من اختار لأمر امّتي شخصاً وفيهم خير منه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

قال الحوماني في كتابه «دين وتمدين» بعد نقل الحديث : هذا الحديث ثابت عند السنّة والشيعة من المسلمين، ويزيد عليه الشيعة: أنّ خليفة الله في الأرض يجب أن يكون عـدلاً إن لم يكن معصوماً عملاً بقوله تعـالى : «لا ينال عهـدي الظالمين» (١) انتهى .

ثم إنّ الجماعة إن كانت هي عموم المسلمين فهو شيء لا يمكن ولا يتهيأ. ولو فرض إمكان ذلك واجتمع رأي المسلمين على اختيار رجل واحد فهل يجوز للمؤمن

---

(١) دين وتمدين : ج٢ ص ٦ ، والاية ١٢٠ من سورة البقرة .

أن يأخذ أحكام دينه من هذا الرجل الذي اختاروه ما لم يكن حكمه مستنداً الى القرآن والسنّة؟ ولو أخذ بقوله فهل يكون معذوراً عند الله؟

وقد تقدم من أنّ الأحكام الدينية يلزم أن تكون مستمدة من الله في جميع مقدماتها وشروطها، فإنّ هذا الذي ذكره يستلزم العمل بقول هذا الموكّل عن الجماعة مطلقاً بلا شرط، و لو أراد من الجماعة التي توكّل أحداً على التنفيذ بعض المسلمين لا كلّهم يكون الأمر أعظم من سابقه، إذ لادليل على جواز العمل بقول هذا الرجل مالم تكن أقواله مستمدة من الكتاب والسنّة، وأنّ المصير الى هذا القول لايطابق الرشد الذي فسره لنا قبلاً، ولو أنّ الرجل الموكّل عن الجماعة التي عناها أخبرنا بأنّ حكمه مأخوذ من القرآن والسنّة، فهل يكفي ذلك في إسقاط التكليف؟ أو أنه يلزم علينا أن نطلب منه الآية والرواية التي استند عليها في هذا الحكم؟ فهذه مسائل عديدة تكون في طريق المكلّف يلزمه الجزم فيها، وأنّ عمله مطابق لأمر الله تعالى فيها.

ولقد تقدم قول سيد قطب: فأما ظلمات الكفر فظلمات شتى متنوعة، ظلمة الهوى والشهوة وظلمة الشرود والتيه، وظلمة الكبر والطغيان، و ظلمة الضعف والذلّة، وظلمة الرياء و النفاق، وظلمة الطمع و السعر، و ظلمة الشكّ والقلق، و ظلمات شتى لا يأخذها الحصر.

ومع هذه الأنواع الكثيرة من الظلمات كيف يطمئن المؤمن لقول رجل عادي وكّلته جماعة غير معروفة فيجعل مدار دينه ومدار أعماله على أقوال هذا الرجل الموكّل من قبل الجماعة، لعمرك إنّ هذا لايتفق مع الرشد الذي فسره لنا.

والذي يدلّ عليه العقل ويقبله ويرشد إليه القرآن والسنّة أنّ الذي يكون دليلاً على أحكام الدين ومبلّغاً عن الله وعن الرسول يلزمه أن يسند كل حكم في كل قضية الى القرآن أو السنّة، والذي يدلّنا على هذا المبلّغ إما القرآن أو النبي صلى الله عليه وآله، وحيث إنّ القرآن لم يسمّ لنا أحداً باسمه وإنما يذكره بأوصافه فلا

بدّ أن نرجع في تشخيصه الى قول النبي ﷺ فإنه تعالى يقول: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» [1] وأنّ سائر الناس لا يعرف الراسخين و إنما يعرفهم النبي ﷺ فليزمنا الرجوع الى أقواله في تعيين العالم.

وقد تواتر عنه ﷺ أنّه قال: أنا مدينة العلم وعليّ بابها [2] وهذا يكفي في كون عليّ عنده جميع العلوم التي كانت عند النبي ﷺ وقد قال هو ـ أي الامام علي ـ وهو الصادق المصدق بشهادة جميع أصحاب النبي ﷺ: علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب [3].

فالمؤمن اذا أخذ أحكام دينه من هذا الرجل ومن أمثاله يجزم ويقطع بأنّ ما يقول مطابق لأحكام الله الواقعية، وأنّ العمل بقوله مجزٍ ويكفي أن يكون عذراً يقدمه لله إذا سئل يوم القيامة عمن أخذ أحكامه، حيث إنّ النبي ﷺ بيّن لامّته أنّ هذا الرجل هو باب مدينة علمه.

فهل ترى أيها المؤمن أنّ الأخذ عن الرجل هو الرشد أو الأخذ عن ذاك الذي توكّله الجماعة الذي لم يصدر من النبي ﷺ كلمة في حقه تدلّ على وفور علمه؟ ثم نوجّه سؤالاً آخر الى سيد قطب وذلك بعد نقل مايلي:

في مجمع الزوائد عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله (ص): إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله عزّ وجلّ حبل ممدود ما بين السماء والأرض، أو ما بين السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض [4].

وفيه أيضاً عن زيد بن أرقم قال: نزل رسول الله (ص) الجحفة ثم أقبل على الناس فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: إني لا أجد لنبي إلا نصف عمر الذي قبله.

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) كنز العمال: ج ١١ ص ٦٠٠ ح٣٢٨٩٠.

(٣) تفسير نور الثقلين: ج ٤ ص ٤٤٤ ح١٣.

(٤) مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٢.

وإني اوشك أن ادعى فاجيب فما أنتم قائلون؟ قالوا: نصحت، قال: أليس تشهدون أن لاإله إلا الله و أنّ محمداً عبده ورسوله ، و أنّ الجنة حق، و أنّ النار حق ؟ قالوا : نشهد ، قال : فرفع يده فوضعها على صدره قال :أنا أشهد معكم. ثم قال: ألا تسمعون؟ قالوا : نعم ، قال : فإني فرط على الحوض وأنتم واردن على الحوض، وأنّ عرضه ما بين صنعاء وبصري، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة ، فانظروا كيف تخلّفوني في الثقلين؟فنادى منادٍ: ماالثقلان يارسول الله؟ قال: كتاب الله طرف بيدالله عزّ وجلّ وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر عشيرتي، وأنّ اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فسألت ذلك لهما ربي فلاتقدموهما فتهلكوا، ولاتقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فهم أعلم منكم. ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: من كنت أولى به من نفسه فعليّ وليه، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه .

و قال علي عليه السلام : ألا إنّ العلم الذي هبط به آدم من السماء الى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون الى خاتم النبيين عندي وعند عترة خاتم النبيين ، فأين يتاه بكم وأين تذهبون؟ (١) .

و قال أمير المؤمنين في خطبة له أيضاً : و لقد علم المستحفظون من أصحاب محمد أنّ النبي قال: إني وأهل بيتي مطهّرون فلا تسبقوهم فتضلّوا ، ولا تخلفوا عنهم فتزلّوا، و لا تخالفوهم فتجهلوا ، و لا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم ، هم أعلم الناس كباراً وأحلم الناس صغاراً ، فاتبعوا الحقّ وأهله حيث كان (٢) .

وهنا نسأل سيد قطب ونقول: إنّ هذا الحديث النبوي المتسالم على صحته، المستمدّ من الله تعالى وهو يدلّنا على طريق الرشد البيّن، ويرشدنا على من ينفذ أحكام الشريعة، ويعلّمنا أنّ هذا المنفذ لايفترق عن القرآن حتى يردا جميعاً عليه الحوض ، ثم إنّ هذا الذي دلّنا عليه النبي أخبرنا أنّ عنده جميع العلوم التي

---

(١) مجمع الزوائد : ج٩ ص ١٦٣ .

(٢) بحار الانوار : ج ٢٣ ص١٣٠ ب٧ ح ٦٢ .

كانت عند الأنبياء من آدم الى محمد ، هل يصح أن نتركه ونأخذ بقول من وكّلته الجماعة، مهما كان الرجل و مهما كانت الجماعة ؟

ما قاله المراغي في تفسيره

«الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » أي: أن المؤمن لا ولي له و لا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، فهو يهديه الى استعمال ضروب الهدايات التي وهبها له (الحواس ، والعقل ، والدين) على الوجه الصحيح ، وإذا عرضت له شبهة لاح له شعاع من نور الحق يطرد هذه الظلمة حتى يخلص منها كما قال تعالى : «إن الذين اتقوا اذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون »[1] فنظر الحواس في الأكوان وإدراك مافيها من بديع الاتقان ينير هذه الحواس ، ونظر العقل في المعقولات يزيده نوراً على نور ، و النظر فيما جاء به الدين من الآيات يتمم له ما يصل به الى أوج سعادته ومنتهى فوزه و فلاحه .

«والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات» أي: والكافرون لا سلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة التي تسوقهم الى الطغيان. فإن كانت من الأحياء الناطقة ورأت أن عابديها قد لاح لهم شعاع من نور الحق نبّههم الى فساد ماهم فيه بادرت الى إطفائه وصرفه عنهم بإلقاء حجب الشبهات، و إن كانت من غير الأحياء فسدنة هياكلها و زعماء حزبها لا يقصرون في تنميق هذه الشبهات ببيان ، إن الواجب الاعتقاد بتلك السلطة و بما ينبغي لأربابها من التعظيم و هو لاشك عبادة وإن سمّوه توسلاً واستشفاعاً وغير ذلك من الأسماء .

« اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن ما يكون في الآخرة ما هو إلا جزاء لما كان عليه الانسان في الدنيا و لا يليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق مكان في أنفسهم إلا تلك الدار التي وقودها النار والحجارة[2] انتهى كلام المراغي .

---

(١) الاعراف : ٢٠١ .

(٢) تفسير المراغي : ج ٣ ص ١٩ .

فقد اتضح للقارىء أن المؤمن لا يكون اعتقاده وعمله في عبادته ومعاملته إلا مايطابق أمر الله المأخوذ من كتابه ومن نبيه أو ممن جعله النبي نائباً عنه وخليفة له ومبيناً لأحكام القرآن بعده، وإلا فمن كان عمله غير مأخوذ عن الله فإنه يسمى كافراً، ويسمى المأخوذ منه طاغوتاً كما عبّرت الآية وعبّر المفسرون لها (الرازي والمراغي وسيد قطب). فلا مجال الانكار على من يعبّر عن التابع والمتبوع بالكافر و الطاغوت اذا كانت التابعية بغير أمر من الله، فإنّ الله عبّر عنهما بما ذكر والمفسر يتبع الله في ذلك، فافهم واغتنم.

ماذكره الطبرى فى تفسيره

بعد ما ذكر الأقوال في معنى الطاغوت قال: والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كلّ ذي طغيان على الله فعبد من دونه إمّا بقهر منه لمن عبده وإمّا بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء[1].

ثم ذكر اشتقاق الطاغوت وقال:

فتأويل الكلام إذن فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويؤمن بالله، يقول و يصدق بالله أنه إلهه وربه و معبوده «فقد استمسك بالعروة الوثقى» يقول فقد تمسّك بأوثق ما يتمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه.

كما حدثني أحمد بن سعيد بن يعقوب الكندي: قال: حدثنا بقية بن الوليد قال: حدثنا ابن أبي مريم عن حميد بن عقبة عن أبي الدرداء أنه عاد مريضاً من جيرته فوجده في السوق وهو يغرغر لا يفقهون ما يريد، فسألهم: يريد أن ينطق؟ قالوا: نعم يريد أن يقول آمنت بالله و كفرت بالطاغوت.

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير الطبرى): ج ٣ ص ١٣.

قال أبو الدرداء : و ما علمكم بذلك ؟ قالوا : لم يزل يرددها حتى انكسر لسانه ، فنحن نعلم أنه إنما يريد أن ينطق بها، فقال أبو الدرداء : أفلح صاحبكم إنّ الله يقول : «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم» .

ثم قال الطبري: القول في تأويل قوله: «فقد استمسك بالعروة الوثقى» والعروة في هذا المكان مثل للايمان الذي اعتصم به المؤمن ، فشبهه في تعلّقه به وتمسكه به بالمتمسك بعروة الشيء الذي له عروة يتمسك بها إذ كان كل ذي عروة فإنما يتعلّق من أراده بعروته . و جعل تعالى ذكره الايمان الذي تمسك به الكافر بالطاغوت المؤمن بالله من أوثق عرى الأشياء بقوله «الوثقى» . والوثقى فعلى من الوثاقة . يقال في الذكر : هو الأوثق ، وفي الانثى : هي الوثقى ، كما يقال : فلان الأفضل وفلانة الفضلى [1] .

ثم ذكر أحاديث تدلّ على ما قاله [2] ثم قال :

القول في تأويل قوله «لاانفصام لها» يعني تعالى ذكره بقوله «لاانفصام لها» لا انكسار لها ،والهاء والألف في قوله «لها» عائد على العروة . ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد اعتصم من طاعة الله بما لايخشى مع اعتصامه خذلانه إيّاه وإسلامه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة ، كالتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لايخشى انكسار عراها ، وأصل الفصم الكسر [3] .

ثم ذكر الأحاديث المؤيدة لقوله [4] ثم قال :

القول في تأويل قوله : «والله سميع عليم» يعني تعالى ذكره «والله سميع» إيمان المؤمن بالله وحده الكافر بالطاغوت عند إقراره بوحدانية الله وتبرئه من الأنداد والأوثان التي تعبد من دون الله، «عليم» بما عزم عليه من توحيد الله وإخلاص

(١ـ٤) تفسير الطبرى : ج ٣ ص ١٣ و١٤ .

ربوبيته قلبه وما انطوى عليه من البراءة من الآلهة والأصنام و الطواغيت ضميره وبغير ذلك مما أخفته نفس كل أحد من خلقه لا ينكتم عنه سرّ ولا يخفى عليه أمر، حتى يجازي كلاًّ يوم القيامة بما نطق به لسانه وأضمرته نفسه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

القول في تأويل قوله تعالى : «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » يعنى تعالى ذكره بقوله «الله وليّ الذين آمنوا » نصيرهم وظهيرهم يتولاّهم بعونه وتوفيقه .

« يخرجهم من الظلمات » يعني بذلك يخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، وإنما عنى بالظلمات في هذا الموضع: الكفر، وإنما جعل الظلمات للكفر مثلاً لأنّ الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها ، و كذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الايمان والعلم بصحته وصحة أسبابه .

فأخبر تعالى ذكره عباده أنه وليّ المؤمنين ومبصرهم حقيقة الايمان وسبله وشرائعه وحججه وهاديهم ، فموفقهم لأدلّته المزيلة عنهم الشكوك بكشفه عنهم دواعي الكفر وظلم سواتر أبصار القلوب .

ثم أخبر تعالى ذكره عن أهل الكفر به فقال : « و الذين كفروا » يعني الجاحدين وحدانيته «أولياؤهم» يعني نصراؤهم وظهراؤهم الذين يتولّونهم «الطاغوت» يعني الأنداد و الأوثان الذين يعبدونهم من دون الله « يخرجونهم من النور الى الظلمات » يعني بالنور الايمان على نحو مابيّنّا ، ويعني بالظلمات ظلمات الكفر وشكوكه الحائلة دون أبصار القلوب ورؤية ضياء الايمان وحقائق أدلّتة وسبله[1] انتهى كلام الطبري .

---

(١) تفسير الطبرى : ج ٣ ص ١٤ .

وقد عرفنا من كلام هؤلاء المفسرين أنّ الايمان إنما تؤخذ أحكامه كلّية وجزئية من الله ومن الرسول، وقد مرّ عليك الحديث الذي في الدر المنثور من تفسير الطاغوت بالشيطان على صورة إنسان، و أنه صاحب أمر جماعة من الناس يأخذون أحكامهم منه [1] فهل تظن أنّ هذا الشيطان بصورة الانسان يحكم بشيء يحبه الله والرسول .

قوله تعالى : مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة و الله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٢٦١) .

إنّ هذه الآية وما يتبعها من الآيات و كثير من آيات القرآن تحثّ المؤمنين أن ينفقوا من أموالهم ويساعدوا الفقراء ولايتركوهم بما هم فيه من الحاجة والاضطرار ، فإنهم إذا تركوا على مافيه من الفقر يضرّ ذلك بالمجتمع و يخلّ بالنظام الدنيوي ويوجب العقاب الاخروي للفقير والغني معاً . وسوف يتضح ذلك في ضمن ما يأتي من الآيات .

وقد بيّن الله في هذه الآيات نواحٍ عديدة للانفاق، وهذه النواحي والجهات المذكورة في الآيات إنما هي شروط للانفاق المقبول عند الله المرضي لديه ، وهو الذي يحصل المنفق على الفائدة المرتسبة على الانفاق و الجزاء الذي وعد الله به المنفقين .

أمّا إذا لم يكن الانفاق مشتملاً على الشروط المذكورة في الآيات فلا يستحق الجزاء المذكور ، فذكر في هذه الآية الشريفة الشرط الأساسي الذي تترتب عليه جميع الآثار وتفقد بفقدانه ، و هو كون الانفاق في سبيل الله أي في الوجه

(١) راجع تفسير الدر المنثور : ج ١ ص ٣٣٠ .

الذي يكون فيه رضاالله ويقصد منه أمر ديني ،وأن يكون خالصاً لوجه الله لا يشوبه أمر آخر ، وذكر الجزاء الجزيل والثواب العظيم الكثير الذي يكون لهذا الانفاق وهو كون الواحد بسبعمائة ضعفاً ، واذا شاءالله يضاعفه أكثر من ذلك لمن يشاء من العباد.

«والله واسع عليم» فقد مثّل الله عزّ و جلّ هذا المال الذي ينفق في سبيله بالحبّة التي يبذرها الانسان ، وهذه الحبّة ينشعب ساقها الى سبعة شعب ويكون في كل شعب منها سنبلة وفي كل سنبلة مائة حبّة، كلّ ذلك بإرادة الله وأمره، والمؤمن اذا اطّلع على عهد الله وعرفه لا يتوقف عن الانفاق في سبيل الله .

ثم يتبع هذه الآية قوله تعالى :

الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً و لا أذى لهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون (٢٦٢) .

هذا هو الشرط الثاني للانفاق المرضي عند الله أو أنه شرط لاستحقاق الجزاء وترتبه على الانفاق ، وحاصل هذا الشرط هو أنّ المنفق إنما يكون إنفاقه مرضياً لله اذا لم يتبعه بالمنّ والأذى ، والمنّ هو الاعتداد بما أنفقه من المال وإظهار التفضل على الفقير ، والأذى هو التكلّم على الفقير بما يؤذيه من الكلام ، فإذا أظهر المنّ أو الأذى فقد انتفى الشرط ولم يكن إنفاقه من الانفاق المقبول عند الله المستحق عليه الجزاء .

أمّا اذا كان الانفاق واجداً للشرط فإنّ الله قد وعدهم بحفظ الجزاء عنده وهو خير الحافظين الموفين بوعدهم ، وللجزاء إمّا أن يكون هو الذي ذكره في الآية السابقة أي الواحد بسبعمائة والمضاعفة لمن يريد ، أو جزاء آخر غير ذلك في

الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً وزيادة على توفيتهم أجرهم أنهم آمنون لاخوف عليهم في كل موطن يكون مظنة للخوف ، وأنهم لايحزنون في كل وقت ومحل يحزن فيه غيرهم .

وتأكيداً لهذه الآية جاءت بعدها الآية وهي قوله تعالى :

قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم (٢٦٣) .

لايخفى أنّ الانسان إذا جاءه أحد بحاجة وطلب منه قضاء حاجته سواء كانت الحاجة مالية أو غير مالية فلا يخلو المسؤول من أحد صور ثلاث : إمّا أن يقضي حاجة السائل ولم يتبع ذلك منّاً ولاأذى ، فهذه أحسن الصور وقد أمرنا الله بها في الآية السابقة ، وإمّا أن يقضي الحاجة ويتبعها بمنّ أو أذى، وإمّا أن لايقضيها.

وقد أرشدنا الله سبحانه بأنّ عدم قضاء الحاجة وردّ السائل رداً جميلاً بكلام حسن من غير غضب أو كلمة بذيئة هو خير من قضائها ثم إتباعها بمنّ أو أذى ، فإنك إذا مننت عليه أو آذيته لا تكون الحاجة هنيئة ولا سائغة ، ويبقى السائل متألماً من الصدمة التي أصابته من منّك عليه أو أذاك له ، وكلّما واجهك أو يذكرك تذكّر هذه الصدمة فيكون ماقتاً لك كارهاً لقاءك وإطراء اسمك على مسامعه، فإذا صرفته بكلام جميل فإنّ الله قد أخبر عن نفسه بأنه «غني حليم» يحلم عليك اذا كنت متمكّناً من قضاء حاجة أخيك فلم تقضها ،ولعلّه يغني ذلك العبد عن الحاجة إليك والى أمثالك .

وقد بقيت صورة رابعة غير هذه الصور الثلاث وهي أن يمنح المسؤول السائل ولكن بقول منكر غير معروف ولا مألوف وبأذى من غير صدقة ، و هذه الصورة يبغضها الله ويعاقب عليها، ويمجّها العقل والعرف، نسأل الله تعالى أن يجيرنا منها،

فإنّ الانسان إذا أنفق وتصدّق ثم أتبع ذلك بالمنّ والأذى بطلت صدقته، فكيف اذا تحقق منه الأذى من غير تقديم الصدقة كما هو صريح الآتية بعد هذه وهي قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين (٢٦٤) .

لمّا بيّن الله في الآيات السابقة أنّ إنفاق المال له ثواب جزيل وأنه مضاعف عند الله لا يصيبه خوف ولا حزن كما يصيب غيره، فقد عرفنا في هذه الآية بأنّ هذا الجزاء العظيم وأنّ هذا الوعد بعدم الخوف والحزن سوف يفقده المنفق اذا أتبع إنفاقه وصدقته بالمنّ والأذى، وكذا يفوته الجزاء اذا كان إنفاقه رياء لأجل الناس لا لأجل الله، وقد مثّل الله عطاء المنفق الذي يتبعه المنّ والأذى، وعطاء الذي يقصد الرياء من عطائه مثّلهما بصفوان عليه تراب، والصفوان الحجارة الشديدة التي لا ينبت فيها زرع أبداً مهما أصابها من الماء والمطر الغزير وهو الوابل، فإنّ الوابل من شأنه وخاصته اذا أصاب الأرض الطيبة أن ينبت بها الزرع، وكذا جعل الله ثمرة إنفاق المال وبذله للمحتاج كثمرة الحبّة المبذورة في الأرض الطيبة حيث تنبت الحبّة الواحدة سبعمائة حبّة .

أمّا اذا كانت الأرض التي أصابها الوابل حجارة شديدة فلا أثر للماء فيها ولا فائدة ولا ثمرة . وكذا المال المنفق اذا لم يكن مشتملاً على الشروط المتقدمة فلا فائدة فيه ولا ثمرة تجنى منه، فإنّ الله يحذرنا من هذه الخسارة التي ليس لنافيها فائدة مع ذهاب المال من أيدينا .

ثم بعد هذا ضرب لنا مثلاً لمن ينفق المال حائزاً للشروط التي تؤهله للقبول عند الله ، فقال تعالى :

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير (٢٦٥) .

لمّا بيّن الله في الآية السابقة أنّ الانفاق قد يتعقبه ما يبطل أجره وجزاؤه وهو المنّ والأذى ويقترن به ما يبطل أجره وهو الرياء، وأنّ هذا المبطل سواء كان مقارناً أو متأخراً إنما هو ناشىء من نفس المنفق وهو يكون في بعض النفوس الحقيرة الخسيسة ، ذكر في هذه الآية الصنف المقابل لذلك الصنف الحقير وهم الذين ينفقون أموالهم لأجل رضا الله ، ويثبتون جزاء هذا الانفاق من أنفسهم الطيبة ونياتهم الخالصة الطاهرة ولا يبطلونه ببعض تلك المبطلات ، وأنّ هذا الانفاق الثابت الذي لا يبطل ولايزول حاله مثل البستان الذي يكون على ربوة من الأرض فإذا نزل عليها الوابل تكثر ثمرتها وتتضاعف، فإن لم ينزل عليها الوابل يكفيها الطل ويكون سبباً لتضاعف الثمرة ، ويمكن أن يكون من مصاديق الوابل تعاقب النفقات بعضها لبعض فتكثر الثمرات وتتضاعف ، والطل عبارة عن النفقات القليلة .

وقد روي عن الامام الصادق عليه السلام قال : ما من شيء أحبّ إليّ من رجل سلفت مني إليه يد أتبعته اختها وأحسنت بها له [1] الخبر .

كما أنّ ذلك الصنف الأول لايؤثر فيه المطر إلا كشف التراب وإظهار حقيقته للناظرين .

«والله بما تعملون بصير» إن كان من الصنف الأول أو من الصنف الثاني

(١) بحار الانوار : ج ٧٤ ص٤٠٨ ب ٣٠ ح ٣ .

فإنّ الله يعلمه وهو بصير به لايخفى عليه .

ثم بيّن أنّ أهل الصنف الأول المبطلين لأعمالهم سوف يأتي عليهم يوم يندمون فيه على مافعلوا وذلك في قوله تعالى :

أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل و أعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابها الكبر و له ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون (٢٦٦) .

هـذا سؤال إنكاري يمثّل الله فيه حال الانسان الذي يبطل إنفاقه بالمـنّ والأذى أو بالرياء و لم يبق له أثراً ينتفع به عند حاجته إليه ، فإنه سيأتي عليه يوم يكون في أمسّ الحاجة الى الصدقة المرضية لله حتى يجازيه عليها بذلك الجزاء الكثير المضاعف .

وقد مثّل الله هذا المبطل لصدقته برجل له بستان حاوية لأنـواع النخيل و أنواع الأعناب وفيها من كل الثمرات التي ينتفع بها الانسان ، فلمّا كبر هذا الانسان وضعف عن العمل وله أولاد وذرية كلّهم ضعفاء ولا يمكنهم أن يقوموا بأيّ عمل فهو وذريته يعولون على أخـذ معيشتهم من هذه البستان ليس له مـورد غيرها ، وبينا هم في هذه الحالة إذ بنار تلتهب بالبستان فتحرقها عن آخرها فيصبح هـذا الرجل هو وذريته في غاية الحاجة الى اللقمة حتى يموت جوعاً ، ولو كان موته كمـوت من في الدنيا اذا انتقل منها لايحتاج إليها لهان الأمر ، ولكن موته كما ذكره الله تعالى: «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميّت»[1] فهو المعذب بما يوجب الموت ولايموت ، فينبغي للانسان العاقل أن يفكّر في هذه

(١) ابراهيم : ١٧ .

العاقبة فلا يبطل إنفاقه وصدقاته فتكون حسرة عليه .

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أسدى الى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته [١] .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد (٢٦٧) .

هذا هو الشرط الثالث من شروط النفقة المرضية لله المقبولة لديه التي يستحقّ صاحبها عليها الجزاء المضاعف الذي وعد الله به المنفقين ومعنى الآية هو أنّ الله يأمرنا إذا أردنا أن نعطى شيئاً في سبيله وابتغاء مرضاته بأن نختار أحسن ما عندنا وأطيبه فننفقه في سبيله سواء كانت النفقة واجبة أو مندوبة ، ونهانا أن نقصد أخبث ما عندنا وأدونه فننفقه ، فإنّ الله لايقبل إلا الطيّب ولايثيب إلا عليه ، وأنّ ذلك الجزاء الذي وعدنا به إنما يكون لما يرتضيه من المال .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّ الله يقبل الصدقات ولا يقبل منها إلا الطيّب [٢] .

وإنّ هذا الشيء الذى تجعله في سبيل الله لو دفع لك لا تقبله إلاّ أن تتسامح في أخذه أو تنقص من سعره ، فكيف دلّك عقلك على جعله في سبيل الله وترجو من الله العوض أضعافاً مضاعفة .

فينبغي للعاقل الفاهم أن يلتفت الى قوله تعالى: **«واعلموا أن الله غنى حميد»** ويعرف أنّ الله غنيّ عن أفخر الأشياء وأطيبها وأغلاها وأحلاها وأثمنها ، وإنما

---

(١) تفسير البرهان : ج ١ ص ٢٥٣ .

(٢) مستدرك الوسائل : ج٧ ص ٢٤٥ ب ٤٢ ح ٥ .

أمرنا بالانفاق ليجازينا بأضعافه.

وأنّ هذا العبد الذي يريد أن يتقرب الى الله بالشيء الرديء سوف تكون عاقبته سيئة إن لم يتنبه ويتدارك أمره كما سمعت من القرآن في قصة ابني آدم حيث إنّ السبب الأولي أنهما قربا قرباناً فتقبّل من أحدهما لأنه كان طيّباً، ولم يتقبّل من الآخر لأنه كان خبيثاً، فصار التقرب بالخبيث سبباً لخبث المتقرب حتى قتل أخاه فأصبح من النادمين.

ثم إنّ هذه الآيات الشريفة التي مرت عليك كلّها تأمر بالبذل والانفاق وتعد المؤمنين بالجزاء الجزيل و التعويض بالأضعاف المضاعفة، فإذا امتثلها المؤمن وعمل بها يصبح مقرباً لدى الله في الدنيا والآخرة ويكثر ماله ويكون ثرياً، والفقير ينتعش، ولا يبقى في حاجة ومسكنة.

وهذا الأمر لا يروق للشيطان عدوّ الانسان، وبالطبع سوف يوسوس للانسان ويمنعه مهما استطاع من امتثال هذا الأمر، ولذا نبّه الله الانسان وحذره من كيد الشيطان ووسوسته بقوله تعالى:

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨).

قال بعض الأعلام: الشيطان فيعال من شطن اذا تباعد فكأنه يتباعد اذا ذكر الله تعالى، وقيل: إنه فعلان من شاط يشيط اذا احترق غضباً لأنه يحترق ويغضب اذا أطاع العبد ربه [١].

قال صاحب المقاصد: الشياطين أجسام نارية شأنها إلقاء النفس في الفساد والغواية بتذكير أسباب المعاصي واللذات وإنساء منافع الطاعات وما أشبه ذلك [٢].

---

(١) راجع لسان العرب: ج ١٣ ص ٢٣٧ مادة «شطن» مع اختلاف في العبارة.
(٢) بحار الانوار: ج ٦٣ ص ٢٨٣ ب ٣ ح ١٧٧.

وقال المجلسي ـ رحمه‌الله ـ : لاخلاف بين الامامية بل بين المسلمين في أنّ الجنّ والشياطين أجسام لطيفة يرون في بعض الأحيان ولايرون في بعضها ، ولهم حركات سريعة وقدرة على أعمال قوية، ويجرون في أجساد بني آدم مجرى الدم، وقد يشكّلهم الله بحسب المصالح بأشكال مختلفة وصور متنوعة كما ذهب اليه السيد المرتضى ـ رضي الله عنه ـ أو جعل الله لهم القدرة على ذلك كما هو الأظهر من الأخبار والآثار [1] .

وقد نقل المجلسي كلاماً من بعض المحققين في كيفية وسوسة الشيطان أحببت نقله هنا ليعرف الانسان ذلك فيحترز من الشيطان، قال :

اعلم أنّ القلب مثال قبة مضروبة، لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولاتخلو عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه.

وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ، أمّا من الظاهر فالحواس الخمس، وأمّا من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركّبة من مزاج الانسان ، فإنه اذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب وكذلك اذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر، وإن كفّ عن الاحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء الى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال الى حال آخر، والمقصود أنّ القلب في التغيّر والتأثّر دائماً من هذه الأسباب .

وأخصّ الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر، وأعني بالخواطر مايحصل فيه من الأفكار والأذكار، وأعني به إدراكاته علوماً إمّا على سبيل التجدد وإمّا على سبيل التذكّر، فإنها تسمى الخواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها، والخواطر هي

---

(١) راجع بحار الانوار : ج ٦٣ ص٢٨٣ ب ٣ ح ١٧٧ .

المحركات للارادت ، فإنّ النية والعزم والارادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لامحالة .

فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء .

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم الى ما يدعو الى الشر أعني الى ما يضر في العاقبة ، والى ما يدعو الى الخير أعني الى ما ينفع في الدار الآخرة ، فهما خاطران مختلفان ، فافتقرا الى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً ، والخاطر المذموم أعني الداعي الى الشر يسمى وسواساً .

ثم إنك تعلم أنّ هذه الخواطر حادثة ، ثم إنّ كل حادث فلابدّ له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دلّ ذلك على اختلاف الأسباب .

هذا ما عرف من سنّة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسودّ بالدخان علمت أنّ سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان، فسبب الخاطر الداعي الى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي الى الشر يسمى شيطاناً .

و اللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، و الذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواءً وخذلاناً ، فإنّ المعاني المختلفة تفتقر الى أسامي مختلفة .

والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير، وإفادة العلم، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخّره لذلك .

والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضدّ ذلك وهو الوعد بالشر ، والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهمّ بالخير بالفقر .

فالوسوسة في مقابلة الالهام ، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة

الخذلان . . . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك، وقد قال (ص): للقلب لمّتان لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمّة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى، «**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**» . . .

وإنما يترجّح أحد الجانبين باتباع الهوى والاكباب على الشهوات، أو الاعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلّط الشيطان بواسطة الهوى ، وصار القلب عشّ الشيطان ومعدنه ،لأنّ الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلّطها على نفسه وتشبّه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقرّ الملائكة ومهبطهم . . . ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس، ومهما انصرف القلب الى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم ، والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم [1] الى آخر ما ذكره هذا المحقق .

وحينئذٍ إذا عرف الانسان العاقل كيفية وسوسة الشيطان العدوّ المبين واطّلع علي الآيات المتقدمة التي تحثّ الانسان على البذل والانفاق وأراد أن ينفق شيئاً من المال وجوباً أو ندباً وجاءه الشيطان وقال له : اذا أخرجت هذا المال عن ملكك سوف يقلّ مالك ولعلّك تحتاج إليه بعد هذا اليوم فلا تجده، فاصرف هذا الفقير المحتاج واحذر أن تكون محتاجاً مثله .

فينبغي للعاقل أن يتذكّر وعد الله في الثواب الجزيل والفضل الجليل فإنه يقول: «**والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم**» وليركن الى وعد الله الصادق ولايلتفت الى تخويف الشيطان بالفقر ، وليكن من حزب الله ولا يكن

---

(١) البحار: ج٧٠ ص٣٨ ب٤٤ والعبارات المنقولة هي عن الامام الغزالي، راجع احياء علوم الدين : ج ٨ ص ٤٦ .

من حزب الشيطان فإنّ حزب الله هم الغالبون المفلحون .

روي عن ابن عباس قال : اثنان من الله واثنان من الشيطان ، فاللذان من الله : المغفرة على المعاصي والفضل في الرزق، واللذان من الشيطان : الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء[1].

فاذا تمحّض القلب لذكر الله في جميع أوقاته وحالاته ولم يبق للشيطان مجال في التصرف به والوسوسة له ترتبت حينئذٍ على ذلك الفائدة الكبرى والثمرة العظمى ، وهي ما ذكرها الله عزّ وجلّ بقوله :

يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيراً كثيراً وما يذكر الا اولوا الالباب (٢٦٩).

لقد تكاثرت الأقوال في تفسير الحكمة ومعناها ، وأحسن ما قيل في معناها هو: تحقيق العلم وإتقان العمل. وبمعناها تعريفها بأنها الاصابة في القول والفعل[2] وهذا المعنى هو الظاهر منها والمتبادر الى الذهن عند إطلاقها وهو شامل لبقية المعاني التي قيلت في تفسيرها. فقد قيل في معناها : إنه علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله[3] .

عن ابن عباس: قيل: إنه علم الدين[4]، وقيل: هو المعرفة بالله[5]، وقيل :هو الفهم[6] ، وقيل : هو خشية الله[7] ، وقيل : هو القرآن والفقه[8] ، وقيل : هو العلم الذي تعظم منفعته وتجلّ فائدته[9]، وقيل : هو ما أتاه الله أنبياءه وامهم من كتابه وآياته ودلالاته التي يدلّهم بها على معرفتهم به وبدينه[10] ، وجميع هذه المعاني تدخل في المعنى الذي ذكرناه فإنه أعمّ منها .

---

(١) الدر المنثور : ج ١ ص ٤٨٢ .

(٢-١٠) مجمع البيان : ح ٢ ص ٣٨٢.

نعم، إذا قلنا : إنّ الحكمة هي القرآن بما فيه من العلم فإنه يكون أعمّ من ذلك التفسير ، ولكن علم القرآن يقول مطلق لايكون إلّا عند النبي ووصيه والظاهر من الآيات والأخبار أنّ الحكمة يعطيها الله لغير النبي كما أعطاها الى لقمان وهو ليس بنبي .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : ما أخلص عبداً لله عزّ وجلّ أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه [١] .

وقد علمت أنّ علوم القرآن لاتكون عند غير النبي و الوصي ، فالحكمة تكون أخصّ من القرآن. وعلى ماذكر من معنى الحكمة من أنها تحقيق العلم وإتقان العمل ، أو الاصابة في القول والفعل ، إنما تتحقق في المرء اذا كانت جميع مسائله العلمية عن تحقيق وتدقيق ، وجميع أعماله مستندة الى ذلك العلم التحقيقي لاسيما فيما يتعلّق بأمر الدين الذي يكون عليه حسابه في الآخرة ، فيلزمه التحقيق لئلّا يظهر عليه الخطأ والغلط والسهو ، والتسامح في النشأة الاخرى ، ولا يمكن هناك التدارك والاصلاح ولا ينفع الندم والاعتذار ، فلا يتحقق معنى الحكمة ما لم يكن تحقيق وإتقان وإصابة في القول والعمل والأفعال فيما يخصّ الدين .

أمّا لو كان الرجل يحسن تدبيره دنياه وحدها في جميع امورها ومن جميع نواحيها في السياسة والتجارة والحرث والزرع والتغلّب على الأعداء في الحرب وغير ذلك فهل يسمى حكيماً اذا لم يكن محققاً في أمر الدين والآخرة ؟

نقول: لاريب أنه لايسمى حكيماً لأنّ الله تعالى يقول: **«ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً»** والدنيا المجردة عن الآخرة ليست عند الله بخير، فليست عنده بكثير «قل متاع الدنيا قليل» [٢] . فالحكمة التي يؤتيها الله لمن يشاء من عباده إنما هي الحكمة في الدين وفيما يتعلّق بأمر الآخرة ، ولذا ترى التعاريف

---

(١) سفينة البحار ، ج ١ ص ٤٠٨ مادة «خالص».

(٢) النساء: ٧٧ .

المتقدمة التي عرفت بها الحكمة كلها متعلّقة بأمر الدين .

وعلى هذا ينبغي للانسان العاقل أن يكون حكيماً فيما يدين به الله وأن يأخذ اصول دينه الاعتقادية وفروعه العملية عن أدلّة قطعية بحكمة وتحقيق وإتقان، ولا يأخذ بما أخذ به أبوه فإنّ ذلك مخالف للحكمة ، فإنّ الدين لا يؤخذ عن الآباء أو الامّهات ، بل ينبغي للرجل العاقل أن يتحرى الأديان ويختار الدين الحق الذي تثبت أحقيته بالأدلّة القطعية .

فالرجل المسلم الذي صدّق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله اذا عرف أنّ النبي جاء بدين واحد وطريقة واحدة ورأى هذا الاختلاف في امّة محمد صلى الله عليه وآله وهذه الفرق الكثيرة المتباينة في طرقها يلزمه أن يفحص عن الطريقة التي أمر بها النبي صلى الله عليه وآله امّته باتباعها ولا يبقى جامداً على طريقة أبيه وامّه حتى يعرف تلك الطريقة بعينها فيتبعها .

فعليه أن يفحص عن أعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله من بعده وأعرفهم بدينه وأتقنهم لأحكام القرآن ، فإن عرف الأعلم وميّزه بشخصه حينئذ ينظر في بقية صفاته من التقوى والزهد والشجاعة والرحمة وسائر الصفات الحسنة ، فإن عرف اتصافه بها مع كونه أعلم الأصحاب لزمه اتباعه والسير في طريقه .

ثم لا يمكن تشخيص هذا الصحابي المتصف بهذه الصفات إلّا من قبل النبي صلى الله عليه وآله فإنه هو وحده الذي يعرفه ويشخّصه لنا ، فاللازم علينا أن نرجع الى ما بيّنه النبي صلى الله عليه وآله في وصف أصحابه حتى يكون عملنا في الاصول والفروع موافقاً لما يريده الله والرسول .

وهذه هي الحكمة التي يعطيها الله لمن يشاء من عباده، فإذا تمسك الانسان بالمقدمات المذكورة أمدّه الله تعالى بالحكمه التي بإيتائها يكون قد اوتي خيراً كثيراً .

بقي علينا أن نرجع الى ما ذكره الرواة من الأحاديث النبوية المتسالم

عليها بين جميع الامّة بعد غضّ النظر عن كل شيء ، فنقول أول شيء يهمنا هو البحث عن الرجل الذي عنده جميع علوم النبي بحيث يمكنه الجواب عن كل سؤال يوجّه إليه من مسلم أو غير مسلم ، ومن صادق ومن منافق ، ومن زنديق ومن مشكّك ، فإذا عرفنا هذا الشخص يلزمنا التمسك به والانتفاع بعلمه الذي يوصلنا الى تحقيق وإتقان العمل أو الى الاصابة في القول والفعل، إنه ﷺ قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد المدينة فليأت الباب» كما في مستدرك الصحيحين [١] والخطيب في تاريخ بغداد [٢] .

والحديث الآخر قوله ﷺ : «أنا دار الحكمة وعلي بابها» كما في صحيح الترمذي [٣] وتاريخ بغداد بإضافة قوله ﷺ: «فمن أراد الحكمة فليأت الباب» [٤].

فقد عرفنا مما ذكر تواتر الحديث عن رسول الله ﷺ أنّ العلم لا يمكن تحصيله إلّا من الباب ، وليس المقصود هنا إثبات علم علي فإنه لا ينكر ، وإنما الغرض أنّ الحكمة التي هي الاصابة في القول والفعل لا تحصل إلّا بالعلم الحقيقي وهو عند من بيّنه النبي لامّته .

ومن جملة فوائد الحكمة معرفة بطلان وعد الشيطان وأمره، ومعرفة أحقية وعد الله وأمره في الآية المتقدمة على هذه الآية وهو قوله تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً» .

هذا بالنسبة الى العلم ، وأمّا بالنسبة الى التقوى والزهد الذي يقول عليه السلام: والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته ... إلخ [٥].

---

(١) مستدرك الصحيحين : ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) تاريخ بغداد : ج ٤ ص ٣٤٨ وج ٧ ص ١٧٢ وج ١١ ص ٤٨ و٤٩ .

(٣) صحيح الترمذي : ج ٥ ص ٦٣٧ .

(٤) تاريخ بغداد : ج ١١ ص ٢٠٤ .

(٥) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢٤ ص ٣٤٧ .

وهو عليه‌السلام القائل : لقد رقّعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها [٣] .

وأمّا الشجاعة فيكفي منها موقفه يوم الخندق .

ما ذكره المراغي في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء» أي: أنه تعالى يعطي الحكمة والعلم النافع المصرف للارادة لمن يشاء من عباده ، فيميّز به الحقائق من الأوهام ويسهل عليه التفرقة بين الوساوس والالهام.

وآلة الحكمة العقل المستقل بالحكم في إدراك الأشياء بأدلّتها وفهم الامور على حقيقتها، ومن اوتي ذلك عرف الفرق بين وعد الرحمن ووعد الشيطان، وعضّ على الأول بالنواجذ وطرح الثاني وراءه ظهرياً .

وقد فسر حبر الامّة عبد الله بن عباس الحكمة بـ«الفقه بالقرآن» أي: معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بأسراره وحكمه، ومن فقه ما ورد في الانفاق وفوائده وآدابه من الآيات لايكون وعد الشيطان له بالفقر وأمره إياه بالبخل مانعاً له من البذل والانفاق ، والآية الكريمة رافعة شأن الحكمة بأوسع مالها من المعاني وهادية الى استعمال العقل في أشرف ما خلق له .

«ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» أي: ومن يوفقه الله لهذا النوع النافع من العلم ويرشده الى هداية العقل وتوجيهه الوجهة الصحيحة فقد هدي الى خير الدنيا والآخرة ،فهو يسخّر القوى التي خلقها الله له من سمع وبصر وشعور ووجدان في النافع من الأشياء ويعدها لتنفيذ مايرغب فيه . ثم بعدئذ يفوض الأمر الى بارئه الذي فطره وسوّاه ومنه مبدأه وإليه منتهاه ، وبهذا لايستسلم لوساوس الشيطان ولا يقضّ مضجعه ما يجده من مكدرات الحياة وآلامها وما تسوقه إليه

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٦٠ ص٢٢٩ والمدرعة ـ بالكسر ـ : ثوب من صوف .

من محنها وأرزائها اعتقاداً منه أنّ كل شيء بقضاء الله وقدره، وبهذا يستريح باله وتهدأ ثائرته ويجد في قلبه برداً وسلاماً لمزعجات الليالي والأيام .

«ومايذكر الا اولوا الالباب» أي: لايتعظ بالعلم ويتأثر به ويجعل الارادة مصرفة خاضعة لمشيئته إلا ذووا العقول السليمة والنفوس التي تغوص في بحر الحقائق وتستخرج منها ما هو نافع في هذة الحياة وبه سعادتها ، و تجعله سلّماً ترقى به في معارج الفلاح لتصل به الى خير العقبى ، حشرنا الله في زمرة اولئك[1] انتهى كلام المراغي .

ما ذكره سيد قطب في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً» اوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود ، واوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الامـور . واوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصـالح الصائب من الحركات والأعمال وذلك خير كثير متنوع الألوان .

«ومايذكّر إلا اولوا الألباب» فصاحب اللب ـ وهو العقل ـ هو الذي يتذكّر فلا ينسى ، ويتنبه فلا يغفل ، ويعتبر فلا يلج في الظلال ، وهذه وظيفة العقل ووظيفة أن يذكر موجبات الهدى ودلائله وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهياً غافلاً ، فهي معقودة هذه الحكمة يؤتيها الله من يشاء من عباده .

بمشيئة الله سبحانه هذه هي القاعدة الأساسية في التصور الاسلامي ردّ كل شيء الى المشيئة المطلقة المختارة .

وفي الوقت ذاته يقرر القرآن حقيقة اخرى وهي: أنّ من أراد الهداية وسعى لها سعيها وجاهد فيها فإنّ الله لايحرمه منها بل يعينه عليها «و الذين جاهـدوا

(١) تفسير المراغي : ج ٣ ص ٤١

فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين»[١] ليطمئن كل من يتجه الى هدى الله أنّ مشيئة الله ستقسم له الهدى وتؤتيه الحكمة وتمنحه ذلك الخير الكثير .

وهناك حقيقة اخرى نلم بها قبل مغادرة هذه الوقفة عند قوله تعالى : «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً والله واسع عليم * يؤتي الحكمة من يشاء» إنّ أمام الانسان طريقين اثنين لاثالث لهما: طريق الله وطريق الشيطان، إمّا أن يستمع الى وعد الله أو أن يستمع الى وعد الشيطان، ومن لايسير في طريق الله ويسمع وعده فهو سائر في طريق الشيطان ومتبع وعده، وليس هنالك إلا منهج واحد هو الحق ، المنهج الذي شرعه الله ، وما عداه فهو للشيطان ، هذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم ويكررها ويؤكد بكل مؤكد كي لاتبقى حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله ، ثم يدعي الهدى و الصواب في أيّ باب ليست هنالك شبهة ولا غشاوة . . .الله . . . والشيطان ، منهج الله أو منهج الشيطان ، طريق الله أو طريق الشيطان، ولمن شاء أن يختار «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة»[٢] لاشبهة ولا غشّ ولا غشاوة، وإنما هو الهدى أو الضلال وهو الحق واحد لاتعدد[٣] انتهى كلام سيد قطب، فتأمل به جيداً حتى تعرف أنّ الحق واحد وأنه عند من اوتي الحكمة، فاعرفه.

ماذكره الطبري في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقداوتي خيراً كثيراً ومايذكّر إلا اولوا الألباب» يعني بذلك جلّ ثناؤه: يؤتي الله الاصابة في القول والفعل من يشاء من

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الانفال : ٤١ .

(٣) في ظلال القرآن: ج ١ ص ٣١٢ .

عباده ومن يؤت الاصابة في ذلك منهم فقد اوتي خيراً كثيراً .

واختلف أهل التأويل في ذلك فقال بعضهم : الحكمة التي ذكرها الله في هذا الموضع هي القرآن والفقه به ، ذكر من قال ذلك رواية عن ابن عباس في قوله «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً» يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله .

حديث آخر عن قتادة : «يؤتي الحكمة من يشاء » قال : الحكمة القرآن والفقه في القرآن .

حديث آخر عن أبي العالية : «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً» قال : الكتاب والفهم فيه .

حديث آخر عن مجاهد : قوله : «يؤتي الحكمة من يشاء» قال : ليست بالنبوة ولكنه القرآن والعلم والفقه .

وقال آخرون: معنى الحكمة الاصابة في القول و الفعل، ذكر من قال ذلك حديث عن ابن أبي نجيح قال: سمعت مجاهداً قال:«ومن يؤت الحكمة» قال: الاصابة.

حديث آخر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله عزّ وجلّ : «يؤتي الحكمة من يشاء» قال: يؤتي الاصابة من يشاء.

حديث آخر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الكتاب يؤتي إصابته من يشاء.

وقال آخرون: هو العلم بالدين، ذكر من قال ذلك حديث عن ابن زيد قال: «يؤتي الحكمة من يشاء » العقل في الدين ، وقرأ «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً ».

حديث آخر عن ابن وهب قال : قلت لمالك : وما الحكمة ؟ قال : المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له [1] انتهى محل الحاجة من كلام الطبري .

---

(١) تفسير الطبرى : ج ٣ ص٦٠ بتصرف .

ما ذكره ابن كثير في تفسيره

«يؤتي الحكمة من يشاء» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً: الحكمة القرآن يعني تفسيره، قال ابن عباس: فإنه قد قرأه البرّ والفاجر، رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: يعني بالحكمة الاصابة في القول، وقال ليث ابن أبي سليم عن مجاهد: «يؤتي الحكمة من يشاء» ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن.

وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإنّ خشية الله رأس كل حكمة.

وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن عثمان بن زفر الجهني عن أبي عمّار الأسدي عن ابن مسعود مرفوعاً «رأس الحكمة مخافة الله».

وقال أبو العالية في رواية عنه: الحكمة الكتاب والفهم.

وقال إبراهيم النخعي: الحكمة الفهم.

وقال أبو مالك: الحكمة السنّة.

وقال ابن وهب عن مالك: قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل.

قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أنّ الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبيّن ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا اذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه عالماً بأمر دينه بصيراً به يؤتيه الله إيّاه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله.

وقال السدي: الحكمة النبوة.

والصحيح أنّ الحكمة كما قاله الجمهور لا تختصّ بالنبوة بل هي أعمّ منها، وأعلاها النبوة والرسالة أخص، و لكن لأتباع الأنبياء حظّ من الخير على سبيل التبع كما جاء في بعض الأحاديث: من حفظ القرآن فقد ادرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه، رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن إسماعيل بن رافع عن رجل لم يسمه عن عبدالله بن عمر .

وقال الامام أحمد : حدثنا وكيع ويزيد قالا : حدثنا إسماعيل ـ يعني ابن أبي خالد ـ عن قيس وهو ابن أبي حازم عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: لاحسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلّمها .

وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة من طرق متعددة عن إسماعيل ابن أبي خالد [١] انتهى كلام ابن كثير .

ماذكره السيوطي في تفسيره

قوله تعالى : «يؤتي الحكمة » الآية ، أخرج ابن جرير وابن المنذر و ابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه ، عن ابن عباس في قوله : «يؤتي الحكمة من يشاء» قال : المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً « يؤتي الحكمة » قال: القرآن يعني تفسيره . قال ابن عباس : فإنه قد قرأه البرّ والفاجر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد « يؤتي الحكمة من يشاء »

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ١ ص٥٧١ .

قال : ليست بالنبوة ولكنه القرآن والعلم والفقه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس « يؤتي الحكمة » قال : الفقه في القرآن.

و أخرج ابن جرير عن أبي العالية « يؤتي الحكمة » قال : الكتاب والفهم به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد «يؤتي الحكمة» قال :الكتاب يؤتي إصابته من يشاء .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد «يؤتي الحكمة » قال : الاسابة في القول .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة «يؤتي الحكمة» قال : الفقه في القرآن .

و أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية «يؤتي الحكمة » قال : الخشية لأنّ خشية الله رأس كل حكمة . وقرأ «إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

وأخرج أحمد في الزهد عن خالد بن ثابت الربعي قال : وجدت فاتحة زبور داود «رأس الحكمة خشية الرب» .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول قال : إنّ القرآن جزء من اثنين وسبعين جزءً من النبوة وهو الحكمة التي قال الله : «ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً » .

وأخرج البيهقي في شعب الايمان عن أبي امامة قال : قال رسول الله (ص): من قرأ ثلث القرآن اعطي ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن اعطي نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثيه اعطي ثلثي النبوة ، ومن قرأ القرآن كله اعطي النبوة ويقال له يوم القيامة: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما معه من القرآن، فيقال له: اقبض فيقبض . فيقال له: هل تدري ما في يديك ؟ فإذا في يده اليمنى الخلد و في الاخرى النعيم [1] .

---

(١) الدر المنثور : ج ١ ص ٣٤٨ .

أقول: إنّ هذا الحديث الدال على استحقاق قارىء القرآن الدرجات في الجنان إنما يدل إذا كان القاريء عاملاً بمضمون الآيات ، و إلا فالقراءة وحدها لاتكفي كما تقدم من الرواية عن ابن عباس: أنّ القرآن يقرأه البرّ و الفاجـر .

أمّا الذي يكون عنده من النبوة بمقدار ما يقرأه من القرآن ـ إمّا الثلث أو النصف أو الثلثان أو الكل ـ فهو الذي يقرأه ويعرف تفسيره وتأويله، ويعرف ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه و متشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه، وأمثاله ، فإذا عرف جميع ما يتعلّق بالقرآن فهو لاينقص من النبوة إلا الوحي (و هو الفرق بينه وبين النبي) .

ثم قال في الدرّ المنثور :

وأخرج الطبـراني والحاكم وصحيحه والبيهقي عن عبدالله بن عمـر : أنّ رسول الله (ص) قال : من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أنّ أحداً اعطي أفضل مما اعطي فقد عظّم ما صغّر الله وصغّر ما عظّم الله ، وليس ينبغي لصاحب القرآن أن يجدّ مع من جدّ ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله [1] انتهى كلام السيوطي .

تنبيه :

لقد تبيّن وتحقق من الآية الشريفة ومماذكره المفسرون من تفسير الحكمة أنّ الحكمة أهم شيء يتصف به العباد بعد النبوة ، وأنّ من يتصف بها ينبغي لسائر الناس أن يأتموا به ويكتسبوا منه الأحكام والآداب والأخلاق في زمان فقدان النبي.

وأنّ العقل السليم يحكم ويحتم على صاحبه أن يفحص ويفتش عمن اعـطي الحكمة ليقتدي به في أعماله حتى يكون ذلك عذراً له يـوم يوقف للحساب بين يدي الله فيسأله عن إمامه الذي اقتدى به في الدنيا، فإنّ الله يقول : «يوم ندعو كل اناس بإمامهم » [2] فإنّ الحكمة قدفسرت بتفاسير كثيرة ، و كل تفسير منها

---

(١) الدر المنثور : ج ١ ص ٣٤٩ .

(٢) الاسراء : ٧٠ .

يدل على أن المتصف بها لا يقول شيئاً ولا يفعل شيئاً إلا الحق الصحيح الموافق لارادة الله والموجب لمرضاته، فينبغي لطالب الرشد والتارك للغي المبتعد عنه أن يتأمل في كل تفسير فسرت به ليعرف أنه مكلّف بمتابعة المتصف بها، فقد ذكرنا تفسيرها فيما تقدم فمن ذلك أنها:

١ـ العلم النافع المصرف للارادة .

٢ـ الفقه بالقرآن ، أي معرفة ما فيه من الهدى والأحكام .

٣ـ إدراك العلل والغايات والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب.

٤ـ الاصابة في القول والفعل .

٥ـ القرآن والفقه به.

٦ـ المعرفة بالقرآن ومثله الكتاب والفهم به.

٧ـ القرآن والعلم والفقه .

٨ـ المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله.

٩ـ يؤتي الحكمة إصابته.

١٠ـ العلم والدين.

١١ـ العقل في الدين.

١٢ـ المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له .

١٣ـ تفسير القرآن .

١٤ـ العلم والفقه والقرآن.

١٥ـ خشية الله.

١٦ـ الكتاب والفهم .

١٧ـ الفقه في دين الله .

١٨ـ أمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله .

١٩ـ الكتاب يؤتي إصابته من يشاء.

فكل واحد من هذه المعاني اذا انطبق على شخصية واتصفت به يكون المتصف مصيباً في جميع أقواله وأفعاله لا يخطيء فيها ولا يزل ، لأنّ الله هو الذي يؤتيه هذه الحكمة التي يتبعها الخير الكثير، فهو في كل حركة وسكون وتكلم وسكوت يكون تابعاً لارادة الله سائراً على الطريق الذي أمر به الله، وأنّ الذين يتصفون بها هم اناس معدودون ذكرهم الله تعالى في آيات عديدة من القرآن يأتي التنبيه عليها في محلها ، منها قوله عزّ من قائل : «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»[1] .

ولا تقبل دعوى من يدعي الحكمة إلا أن تقرن بحجة تصدقها ، مثلاً أنّ أئمة أهل البيت الذين أمر رسول الله امّته أن يتمسكوا بهم ، قرنهم بالكتاب ، وجعلهم كسفينة نوح ، فإنّ هؤلاء الأئمة قد أعلنوا للناس إعلاناً عاماً وقالوا لهم إنّ الحديث الذي يأتيكم عنا إن كان مطابقاً للقرآن فخذوا به ، وإن لم يكن مطابقاً للقرآن فأوكلوه الى الذي جاء به .

وكانوا في كل مسألة من المسائل الاعتقادية والعلمية اذا طلب منهم الدليل يستدلّون إمّا بآية من القرآن ، أو بحديث عن النبي صلى الله عليه وآله مسلّم الصدور، فمن كان بهذه المرتبة يسند كل أقواله وأفعاله الى الكتاب أو السنّة فإنه ممن اوتي الحكمة وينبغي للمؤمن متابعته والاقتداء به .

فهذه الآية الشريفة هي إحدي الآيات الكثيرة التي ترشد الناس الى طريق الهداية وكيفية الاهتداء ، ولكن الناس لشدة جهلهم كثر ميلهم الى اللعب واللهو لا يلتفتون ولا يدققون النظر في معنى الآية فلا ينتفع بها إلا ذووا العقل السليم،

---

(١) آل عمران : ٧ .

وقد صرح لنا الله بهذا حيث قال : «وما يذكّر إلا اولوا الألباب» .

فينبغي لذي اللب أن يتأمل ويدقق ليعرف المقصود والمرادمن الآية فيعمل به ويكون معدوداً من اولي الألباب عند الله لا عند الناس .

تنبيه لذي اللب

هذه الحكمة التي ذكرها الله ومدحها مدحاً عظيماً وجعل الخير الكثير تابعاً لها وسائراً في ركابها وأنه يعطيها لمن يشاء، وإنما يعطيهالمن يتطلبها ويعمل لتحصيلها ولا يعطيها لمن لا يريدها ، فإنّ إعطاءها لمن لا يريدها أو لا يعرف قدرها يعدّ ظالماً لها والله عزّ وجلّ منزه عن الظلم .

وقد روي أنّ عيسى بن مريم قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يابني إسرائيل لاتحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها، ولاتمنعوها أهلها فتظلموهم[1] ولايستحق الحكمة صاحب العلم الكثير ما لم يكن عاملاً بعلمه .

قال الامام الصادق عليه السلام لهشام : ياهشام إنّ الزرع ينبت في السهل ولاينبت في الصفا ، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار، لأنّ الله تعالى جعل التواضع آلة العقل ، وجعل التكبر من آلة الجهل ، ألم تعلم أنّ من شمخ الى السقف رأسه شجّه ، ومن خفض رأسه استظلّ تحته وأكنّه فكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله ومن تواضع لله رفعه الله[2] .

فصاحب العلم اذا عرف الحق في جهة ولم يعلن ذلك للناس كان ظالماً، والله لايعطي الحكمة للظالم .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : من سأل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره

---

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص ٦٦ ب ١٢ ح ٨ .

(٢) بحار الانوار: ج٧٨ ص ٣١٢ ب ٢٥ ح ١ .

وتزول عنه التقية جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار [١].

واذا كان صاحب العلم معتنقاً أحد المبادىء الدينية وعرف أنّ الحق خلاف ذلك يحتم عليه علمه أن يترك ما هو عليه ويلتزم جهة الحق ، فإذا بقي على ما كان عليه مما على بطلانه فهو إذاً متكبر على حكم الله ، والله لاينبت الحكمة في قلب المتكبر ، لأنّ الحكمة إنما تكون في مكان سهل نقي ليس فيه ماينافيها، وقد نبّهنا الله الى هذا الشرط بقوله : «وما يذكّر إلا اولوا الألباب » فلا تنفع كثرة العلم ما لم تكن منه حكمة ترشده الى أخذ العلم من منابعه الحقيقية ، ويناسب مقامنا ماقاله ابن سينا:

هذّب النفس بالعلوم لترقى وخذ الكل فهي للكل بيت

إنما النفس كالزجاجة والـ علم ضياء وحكمة الله زيت

فإذا أشرقت فإنك حي و اذا أظلمت فإنك ميت [٢]

وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى : «اولوا الألباب» ذووا العقول الخالصة عن شائبة الوهم ، فالحكمة التي يؤتيها الله من يشاء هي نور يقذفه الله في قلب عبده الذي سعى في تحصيلها ، وبهذا النور يتوصل العبد الى العلوم التي تكشف عن دين الله الحقيقي بواسطة سفرائه الذين عيّنهم للناس كالأنبياء وأوصيائهم وليس للخلق أن يعيّنوا السفير الالهي من أنفسهم : « و من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » [٣].

فقد تحصل مماذكرناه في هذه الآية الشريفة: أنّ الحكمة لاتحصل إلا لذي العقل الخالص عن شائبة الوهم. فمن اتخذ إلهه هواه فإنه يعبد الهوى، ومن اختار شخصاً وجعله منفذاً لأحكام الله ولم يحصل الاذن من الله لهذا الشخص ولم يعطه الله علم القرآن

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص٧٢ ج ١٢ ح٣٧ .
(٢) أعيان الشيعة : ج ٦ ص ٧٩ .
(٣) النور : ٤٠ .

وأحكامه بواسطة الملك وبواسطة النبي، فيكون هذا الشخص آمراً وناهياً على ما يقتضيه فهمه القاصر من القرآن. فإنّ هذه العبادة غير مرضية لله لأنها غير مستمدة من الله، إذ الطريق الذي سلكوه غير الطريق الذي عيّنه الله، وهذه الأعمال ليست مبنية على الحكمة، فالسالك في هذه الطرق إمّا أن يكون قد عرف خطأها وسلكها متعمداً لأجل الدنيا الدنية، وإمّا أن يكون غير عالم بالخطأ وهو العامي غير العالم، كما أنّ الأول هو العالم، والثاني مخدوع بالأول، وكلا النوعين يدخلان في مضمون قوله تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء».

فالأول غرضه الدنيا لأنّ الشيطان يخوفه بالفقر في ترك ما هو عليه.

والثاني يأمره الشيطان بالفحشاء لاتباعه للأول. فلا تكون لهم عقول خالصة عن الشوائب، وإنما تكون عقولهم مشوبة لجميع الأوهام الدنيوية فلم يحصل لهم من الحكمة شيء أبداً لأنهم بنوا دينهم على أساس غير رشيد بعد ما تبيّن لهم: «الرشد من الغي».

تكملة لابد منها

لا يخفى على المطّلع البصير أنّ العلم الموجود عند سائر الناس إنما هو مقول بالتشكيك، وهو يختلف بحسب الأشخاص قلّة وكثرة، فالنبي ﷺ يكون أعلم الناس في جميع الامور حتى لا يحتاج الى أحد في علم من العلوم أو في شيء من الأشياء فمن كان أقلّ علماً يلزمه الرجوع الى الأعلم منه حتى يصل الى الحقيقة، وإلا إذا بقي جامداً على ما عنده من العلم يقصر عن الوصول الى الحقيقة في أكثر الامور الدينية، وهذا أمر واضح لاريب فيه.

وكذلك يكون الأمر في الحكمة، فمن الناس من يكون حكيماً في جميع الامور - وهذه درجة الأنبياء - فإنّ الله يلهمهم الحكمة المطلقة ويجعلهم ساسة الناس في امور الدين والدنيا، ويلزم على الناس الرجوع إليهم في امور دينهم،

وفيما يقع بينهم من التخاصم و التنازع والجدال ليحكموا بين الناس بالعدل والقسط ، فكل من امتنع من الرجوع إليهم دلّ امتناعه على عدم إيمانه :«فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم»[1] .

فالمرجع الذي يؤخذ منه العلم وتقتبس منه الحكمة هو النبي صلى الله عليه وآله في أيام حياته، وأمّا بعد رحلة النبي من الدنيا فلا خلاف بين أهل العلم و الدين أنّ أعلم الناس بعد النبي هو علي بن أبي طالب عليه السلام وهو أحكم الناس أيضاً، ولايخالف في هذا إلا مكابر أو جاهل .

ذكر المحبّ الطبري في ذخائر العقبى عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله (ص) : علي مني بمنزلة رأسي من جسدي ، ولا يخفى ما في هذا البيان من البلاغة العظيمة ، فإنّ الغرض من بعثة النبي (ص) هو التبليغ والارشاد بالكلام وهو في الرأس ، وأن يكون شاهداً على امّته في الدنيا ليشهد عليهم في الآخرة والشهادة تكون بالسمع والبصر وهما في الرأس والحواس الخمس مجتمعة في الرأس ، فكأنه يقول علي نفسي لاينقصه شيء سوى الوحي ، وإلاّ فهو مثلي في كل شيء ، فالنبي (ص) قد أبان لنا بهذه الكلمة أنّ الغرض الذي بعثه الله من أجله يحصل بوجود علي بين أظهرنا، ولقد تحرك القلم ليكتب شيئاً من فضائل علي فذكرت ما كتبته قبل هذا كتب كثيرة في فضائله[2] .

وقال المحبّ الطبري عن أنس بن مالك قال : كنت عند النبي (ص) فرأى علياً مقبلاً فقال : يا أنس ، قلت: لبيك قال : هذا المقبل حجتي على امّتي يوم القيامة[3].

---

(١) النساء :٦٤ .

(٢) ذخائر العقبى: ص ٦٣.

(٣) ذخائر العقبى : ص ٧٧ .

وذكر عن أنس أيضاً أنّ النبي (ص) قال : أقضى امّتي علي . وعن عمر بن الخطاب قال : أقضانا علي . فمن ترك الأعلم الأفضل واتبع المفضول فقد ترك حكمة الله واتبع هواه فلا يضرّ إلا نفسه (١) .

روى في الاحتجاج عن سعيد بن أبي الخضيب قال: دخلت أنا وابن أبي ليلى المدينة، فبينما نحن في مسجد الرسول ﷺ إذ دخل جعفر بن محمد عليه السلام فقمنا إليه فسألني عن نفسي وأهلي ثم قال: من هذا معك؟ فقلت: ابن أبي ليلى قاضي المسلمين! فقال : نعم ، قال له : أتأخذ مال هذا فتعطيه هذا وتفرق بين المرء وزوجه ولا تخاف في هذا أحداً؟ قال : نعم ، قال : فبأيّ شيء تقضي؟ قال: بما بلغني عن رسول الله ﷺ وعن أبي بكر وعمر، قال: فبلغك أنّ رسول الله ﷺ قال: أقضاكم علي بعدي؟ قال: نعم. قال: فكيف تقضي بغير قضاء علي وقد بلغك هذا؟ قال: فاصفرّ وجه ابن أبي ليلى ثم قال: التمس مثلاً لنفسك فوالله لا اكلّمك من رأسي كلمة أبداً (٢).

وقد وردت روايات عن معادن الحكمة وأهل بيت الوحي في تفسير الحكمة وما يترتب عليها من الفوائد، نذكر بعضها هنا تبصرة لطالب الحكمة.

روي عن النبي ﷺ قال : إنّ الله تعالى آتاني القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن ، وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلا كان خراباً ، ألا فتفقّهوا وتعلّموا ولا تموتوا جهلاء (٣) .

وعن الكافي أنّ النبي ﷺ كان ذات يوم في بعض أسفاره إذ لقيه ركب فقالوا : السلام عليك يا رسول الله ، فالتفت إليهم وقال : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . قال : فما حقيقة إيمانكم ؟ قالوا : الرضا بقضاء الله والتسليم لأمر الله والتفويض الى أمر الله، فقال رسول الله ﷺ: علماء حكماء كادوا أن يكونوا من

---

(١) ذخائر العقبى : ص ٨٣.

(٢) الاحتجاج : ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٣) كنز العمال : ج ١٠ ص ١٤٧ ح ٢٨٧٥٠ .

الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون [١].

وروي عن الصادق عليه السلام قال: الحكمة ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمرة الصدق، وما أنعم الله على عبد من عباده نعمة أنعم وأعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة، قال الله تعالى: «يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكّر إلا اولوا الألباب» [٢] أي: لايعلم ما أودعت و هيأت في الحكمة إلا من استخلصته لنفسي وخصصته بها، والحكمة هي الثبات، وصفة الحكيم الثبات عند أوائل الامور والوقوف عند عواقبها، وهو هادي خلق الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: لئن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت [٣].

وفي وصية موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم: واعلموا أنّ الكلمة من الحكمة ضالّة المؤمن، فعليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه غيبة عالمكم من بين أظهركم [٤].

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني تعلّم الحكمة تشرف بها، فإنّ الحكمة تدل على الدين وتشرف العبد على الحر، وترفع المسكين على الغني، وتقدم الصغير على الكبير، وتجلس المسكين مجالس الملوك، وتزيد الشريف شرفاً و السيد سؤدداً والغني مجداً، و كيف يظن ابن آدم أن يتهيأ له أمر دينه ومعيشته بغير حكمة، ولن يهيىء الله عزّ وجلّ أمر الدنيا والآخرة إلا بالحكمة، ومثل الحكمة بغير طاعة مثل الجسد بغير نفس، ومثل الصعيد بغير ماء، ولا صلاح للجسد بغير نفس ولا للصعيد بغير ماء ولا للحكمة بغير طاعة [٥].

---

(١) اصول الكافي: ج ٢ ص ٤٨.
(٢) تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٥٦.
(٣) بحار الانوار: ج ٢١ ص ٣٦١ ب ٣٤ ح ٣.
(٤) سفينة البحار: ج ١ ص ٢٩١ مادة «حكم».
(٥) بحار الانوار: ج ٧٨ ص ٤٥٨ ب ٣٣ ح ٢٧.

قال في النهاية : وفي الحديث : الكلمة الحكمة ضالّة المؤمن . و في رواية : ضالّة كل حكيم. أي: لا يزال يتطلبها كما يتطلب الرجل ضالّته [١] انتهى .

وقال بعض شراح الحديث : المراد أنّ المؤمن يأخذ الحكمة من كل من وجدها عنده و إن كان كافراً أو فاسقاً ، كما أنّ صاحب الضالّة يأخذها حيث وجدها [٢] .

وقد روي عن عيسى بن مريم مثل هذا المعنى وهو أخذ الحكمة ممن وجدت عنده [٣] . وقد روى ذلك الامام موسى بن جعفر في ضمن وصيته الجليلة لهشام بن الحكم حيث يقول في أولها :

يا هشام إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل و الفهم في كتابه فقال : «فبشر عباد* الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الألباب» [٤] هذه الفقرة ذكرناها لارتباطها بالموضوع و هو مدح اولوا الألباب ، ثم يتدرج في وصيته الى أن يقول:

يا هشام إنّ المسيح عليه السلام قال للحواريين: بحق أقول لكم: لو وجدتم سراجاً يتوقد بالقطران في ليلة مظلمة لاستضأتم به ولم يمنعكم منه ريح نتنة ، كذلك ينبغي لكم أن تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه، ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها ، بحق أقول لكم : إنّ الناس في الحكمة رجلان، فرجل أتقنها بقوله وصدقها بفعله ، ورجل أتقنها بقوله و ضيّعها بسوء فعله ، فشتان بينهما ، فطوبى للعلماء بالفعل ، وويل للعلماء بالقول. بحق أقول لكم: لا يغني عن الجسد إن كان ظاهره صحيحاً وباطنه فاسداً، كذلك لا تغني أجسادكم التي قد أعجبتكم وقد فسدت قلوبكم، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، لا تكونوا كالمنخل يخرج منه

(١ و٢) لم نعثر عليهما في النهاية ولكن نقلهما صاحب سفينة البحار: ج١ ص٢٩١ مادة «حكم».
(٣) بحار الانوار : ج٧٨ ص٣٠٧ ب ٢٥ ح١ .
(٤) الزمر: ١٧ و١٨ .

الدقيق الطيب و يمسك النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغلّ في صدوركم[1] .

يكفي ما ذكرناه من الأخبار في تفسير الحكمة ومنافعها لمن يتطلبها حقاً، فإنه اذا تأمل في هذه الأخبار عرف كيف يعبد الله و كيف يطيعه ، فإنّ الركب الذي لقي النبي صلى الله عليه وآله فسألهم عن حقيقة إيمانهم كان جوابهم الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره ، فإنّ أمر الله لايمكن التوصل إليه إلا بواسطة من يعرفه بحقيقته ولا يعرفه إلا من يعيّنه النبي صلى الله عليه وآله من بعده علماً للامّة .

و هذه الأخبار كلها تحثّ الانسان على أن تكون أعماله كلها مبنية على الحكمة سواء كانت دنيوية أو اخروية ، وقد يتسامح بالامور الدنيوية التي هي بعيدة عن الدين فلايدقق فيها فإنها إن ظهرت مخالفة للحقيقة فلاتسبب إلا فوات شيء من المال .

أمّا امور الدين فلا ينبغي للعاقل الرشيد التسامح بها ، ويلزمه أن يكون حكيماً في اختيارها لئلاّ يقع في خلاف الواقع المطلوب منه ، لأنّ الله كلّف عبده بإقامة الدين ، وهو عند الله شيء محدود مشخص لايتبدل ولايتغير ولايكون برأي أحد من البشر مهما كان من العلم والعقل ، فإنه منزل من الله على نبيه الأكرم، والنبي صلى الله عليه وآله هو الذي كان يعلّم الناس .

وأمّا بعد رحلته فقدأوصى النبي صلى الله عليه وآله امّته أن يتمسكوا بالثقلين : كتاب الله وعترته أهل بيته، وأنّ المتمسك بهما لن يضل، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض. فإنّ هذا الحديث لتواتره وشهرته بين جميع العلماء يمكن الاكتفاء به لبعض الناس المطلعين والعارفين بعلماء العترة، فمن كان يعرف العلماء من العترة إذ ليس المقصود جميع العترة يتمسك به، وأمّا من لم يعرف ذلك فيمكنه الرجوع الى الأخبار المفصلة، فقد

---

(١) بحار الانوار : ج ٧٨ ص ٢٩٦ ب ٢٥ ج ١ .

رويت عن النبي ﷺ أحاديث تعيّن وتسمي لنا أشخاصاً وتأمرنا بالرجوع إليهم، والأولى نذكر بعض هذه الأخبار تنويراً للقارىء.

فمن ذلك ما ذكره الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي في ينابيع المودة وإني أذكر لك نصّ عبارته على طولها لأنّ ذكرها لا يخلو من فائدة، قال:

الباب السادس والسبعون، في بيان الأئمة الاثني عشر بأسمائهم قال: وفي فرائد السمطين بسنده عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدم يهودي يقال له نعثل قال: يا محمد أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أجبتني عنها أسلمت على يديك.

قال: سل يا أبا عمارة.

فقال: يا محمد صف لي ربك.

فقال (ص): لا يوصف إلّا ما وصف به نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز العقول أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحده، والأبصار أن تحيط به جلّ وعلا عما يصفه الواصفون، ناء في قربه قريب في نأيه، هو كيّف الكيف وأيّن الأين، فلا يقال له أين، وهو منزه عن الكيفية والأينونية، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه، والواصفون لا يبلغون وصفه، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قال: صدقت يا محمد، فأخبرني عن قولك: إنه واحد ولا شبيه له أليس الله واحد والانسان واحد؟

فقال (ص): الله عزّ وعلا واحد حقيقي، أحديّ المعنى أي لا جزء ولا تركّب له، والانسان واحد ثنائيّ المعنى مركّب من روح وبدن.

قال: صدقت، فأخبرني عن وصيك من هو؟ فما من نبيّ إلا وله وصي، وأنّ نبينا موسى بن عمران أوصى الى يوشع بن نون.

فقال (ص): إنّ وصيي علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين

تتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين . قال : يا محمد فسمّهم لي ؟

قال(ص): اذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة المهدي ، فهؤلاء اثناعشر .

قال : أخبرني كيفية موت علي و الحسن و الحسين . قال (ص) : يقتل علي بضربة على قرنه ، والحسن يقتل بالسم والحسين بالذبح .

قال : فأين مكانهم؟ قال(ص): في الجنة في درجتي .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله و أشهد أنهم الأوصياء بعدك ، ولقد وجدت في كتب الأنبياء المتقدمة و فيما عهد إلينا موسى بن عمران عليه السلام أنه اذا كان آخر الزمان يخرج نبي يقال له أحمد و محمد ، و هو خاتم الأنبياء لا نبيّ بعده ، فيكون أوصياؤه بعده اثني عشر، أولهم ابن عمه وختنه(١) والثاني والثالث كانا أخوين من ولده، وتقتل امّة النبي الأول بالسيف،والثاني بالسم، والثالث مع جماعة من أهل بيته بالسيف وبالعطش في موضع الغربة، فهو كولد الغنم يذبح، ويصبر على القتل لرفع درجات أهل بيته وذريته ولاخراج محبيه وأتباعه عن النار . والتسعة الأوصياء منهم من أولاد الثالث، فهؤلاء الاثنا عشر عدد الأسباط .

قال (ص) : أتعرف الأسباط ؟ قال : نعم كانوا اثني عشر ، أولهم لاوي بن برخيا وهو الذي غاب عن بني إسرائيل غيبة، ثم عاد فأظهر الله به شريعته بعد اندراسها وقاتل قرسطيا الملك حتى قتل الملك .

قال (ص): كائن في امّتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، وأنّ الثاني عشر من ولدي يغيب حتى لا يرى ، ويأتي على امّتي زمن لا يبقى من

---

(١) ختنه : زوج ابنته (لسان العرب : ج٤ ص٢٦ مادة «ختن») .

الاسلام إلا اسمه ، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه ، فحينئذ يأذن الله تبارك وتعالى له بالخروج، فيظهر الله الاسلام به و يجدده ، طوبى لمن أحبهم وتبعهم ، والويل لمن أبغضهم وخالفهم، وطوبى لمن تمسك بهداهم .

فأنشأ نعثل يقول :

صلى الاله ذو العلى	عليك يا خير البشر
أنت النبيّ المصطفى	و الهاشميّ المفتخر
بكم هدانا ربّنا	و فيك نرجو ما أمر
و معشر سمّيتهم	أئمة اثني عشر
حباهم ربّ العلى	ثم اصطفاهم من كدر
قد فاز من والاهم	و خاب من عادى الزهر
آخرهم يسقي الظما	وهو الامام المنتظر
عترتك الأخيار لي	والتابعين ما أمر
من كان عنهم معرضاً	فسوف تصلاه سقر [1]

و قد وردت أخبار كثيرة تدلّ على أنّ الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله اثنا عشر كلّهم من قريش وهذا ينطبق على قول الامامية ، لأنّ غيرهم إمّا يقول بأنّ الخلفاء أربعة أو خمسة بإدخال الحسن بن علي معهم، وإمّا أن يقول بأكثر من اثني عشر بجعل بني امية وبني العباس من الخلفاء .

فمن تلك الأخبار ما ذكره البخارى في كتاب الأحكام ، فقد روى بسنده عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي (ص) يقول : يكون اثنا عشر أميراً ، فقال : كلمة لم أسمعها . فقال أبي : إنه (ص) قال: كلّهم من قريش .

وبهذا المعنى روايات كثيرة وإن اختلفت في بعض المهمات ، ففي بعضها «إثنا عشر خليفة» ، وفي بعضها كلمة « إمام »، وفي بعضها «وصي» [2] .

---

(١) ينابيع المودة : ج ٣ ص ٩٩ ب ٧٦ .
(٢) صحيح البخارى : ج ٩ ص ١٩ ب ٥ ح ١ .

ذكره مسلم في صحيحه في كتاب الامارة في باب الناس تبع لقريش ، فإنه روى بسندين عن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبي على النبي (ص) فسمعته يقول: إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة . قال : ثم تكلّم بكلام خفي عليّ . قال : فقلت لأبي : ما قال ؟ فقال : قال: كلّهم من قريش [١].

ورواه الترمذي بسندين عن جابر بن سمرة [٢] وذكره ابن حجر في الصواعق المحرقة [٣] .

وروي في مستدرك الصحيحين عن مسروق قال : كنا جلوساً ليلة عند عبدالله يقرأنا القرآن، فسأله رجل فقال: يا أباعبدالرحمن هل سألتم رسول الله (ص) كم يملك هذه الامّة من خليفة ؟ فقال عبدالله : ما سألني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك ، قال : سألناه فقال : اثنا عشر عدة نقباء بني إسرائيل [٤] .

ورواه أحمد بن حنبل في مسنده [٥] ، ورواه كثير غير هؤلاء ، و في بعض الروايات « كلّهم من بني هاشم » بدل قوله « كلّهم من قريش » .

كما ذكره القندوزي في الباب السابع والسبعين من ينابيع المودة عن عبدالملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة قال: كنت مع أبي عند النبي (ص) فسمعته يقول : بعدي اثنا عشر خليفة، ثم أخفى صوته ، فقلت لأبي : ماالذي أخفى صوته؟ قال : قال : كلّهم من بني هاشم [٦] .

قال : وفي المناقب عن واثلة بن الأسقع بن قرخاب عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : دخل جندل بن جنادة بن جبير اليهودي على رسول الله (ص)

---

(١) صحيح مسلم : ج ١٢ ص ٢٠١ كتاب الامارة .

(٢) الجامع الصحيح : ج ٤ ص ٥٠١ ب ٤٦ ح ٢٢٢٣ .

(٣) الصواعق المحرقة : ص ٢٠٠ .

(٤) مستدرك الصحيحين : ج ٤ ص ٥٠١ .

(٥) مسند أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٣٩٨ و ٤٠٦ .

(٦) ينابيع المودة : ج ٣ ص ١٠٤ ب ٧٧ .

فقال : يا محمد أخبرني عما ليس لله وعما ليس عند الله وعما لايعلمه الله .

فقال(ص): أمّا ماليس لله فليس لله شريك، وأمّا ماليس عندالله فليس عندالله ظلم للعباد، وأمّا ما لا يعلمه الله فذلك قولكم يا معشر اليهود : إنّ عزيراً ابن الله والله لايعلم أنه له ولد بل يعلم أنه مخلوقه وعبده . فقال: أشهد أن لاإله إلا الله ، وأنك رسول الله حقاً وصدقاً . ثم قال : إنّي رأيت البارحة في النوم موسى بن عمران عليه السلام فقال : يا جندل أسلم على يد محمد خاتم الأنبياء واستمسك بأوصيائه من بعده ، فقلت : فلله الحمد أسلمت وهداني بك .

ثم قال : أخبرني يا رسول الله عن أوصيائك من بعدك لأتمسك بهم .

قال (ص) : أوصيائي الاثنا عشر .

قال جندل : هكذا وجدناهم في التوراة. وقال : يا رسول الله سمّهم لي؟

فقال (ص) : أولهم سيد الأوصياء أبو الأئمة علي، ثم ابناه الحسن والحسين، فاستمسك بهم ولا يغرنك جهل الجاهلين ، فإذا ولد علي بن الحسين زين العابدين يقضي الله عليك ، ويكون آخر زادك من الدنيا شربة لبن تشربه .

فقال جندل : و جدنا في التوارة و في كتب الأنبياء عليهم السلام إيليا و شبراً وشبيراً ، فهذه أسماء علي والحسن و الحسين . فمن بعد الحسين و ما أسماؤهم ؟

قال(ص): اذا انقضت مدة الحسين فالامام ابنه علي ويلقب بزين العابدين، فبعده ابنه محمد ويلقب بالباقر ، فبعده ابنه جعفر ويلقب بالصادق، فبعده ابنه موسى يدعى بالكاظم، فبعده ابنه علي يدعى بالرضا، فبعده ابنه محمد يدعى بالتقي والزكي فبعده ابنه علي يدعى بالنقي والهادي ، فبعده ابنه الحسن يدعى بالعسكري ، فبعده ابنه محمد يدعى بالمهدي والقائم والحجة ، فيغيب ثم يخرج ، فإذا خرج يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، طوبى للصابرين في غيبته، طوبى للمقيمين على محبتهم، اولئك الذين وصفهم الله في كتابه وقال «هدى للمتقين* الذين

يؤمنون بالغيب»[١] ثم قال تعالى «اولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون»[٢].

فقال جندل : الحمد لله الذي وفقني بمعرفتهم .

ثم عاش الى أن كانت ولادة علي بن الحسين ، فخرج الى الطائف ومرض وشرب لبناً وقال : أخبرني رسول الله (ص) أن يكون آخر زادي من الدنيا شربة لبن . ومات ودفن بالطائف بالموضع المعروف بالكوزارة[٣] .

لقد سمعت وصف رسول الله للركب الذين سألهم عن حقيقة دينهم فأجابوه بأنهم الراضون بقضاء الله و المسلّمون لأمره ، فوصفهم النبي بالعلماء و الحكماء .

أخي تثبّت ودقّق وحقّق وسر في الطريق برشد وحكمة حتى تصل الى المطلوب إن كنت تريده ، أمّا الذي لايريده فلا يهمّك أمره عالماً كان أو جاهلاً.

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : لاقول إلّا بعمل ، ولا قول ولا عمل إلا بنيّة. ولا قول ولا عمل ولا نيّة إلا بإصابة السنّة[٤] .

تأمّل جيداً في هذا الكلام وهو كلام النبي ﷺ الذي لاينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى ، وهو بهذه الجملة المختصرة يرسم لامّته قانوناً ونظاماً يسيرون عليه الى يوم القيامة ، فمن تخلّف عنه فلا يضرّ إلا نفسه ، ومن أراد اتباع النبي والسير على سنّته يلزمه التمسك بهذا النظام .

ومفاد هذه الجملة موضحاً مبسوطاً ليتجلّى معناها هو أنّ الانسان اذا شهد الشهادتين فقال : أشهد أن لاإله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، واعترف وشهد بالعدل والبعث والحساب والصراط والجنة والنار، واعترف بوجوب الصلاة والصوم و الزكاة والحج وغير ذلك من الواجبات، واعترف بحرمة جميع المحرمات ، فهذا الاعتراف باللسان والقول المجرد لاينفع شيئاً ما لم يكن معه عمل مطابق للقول ، فإذا قال

(١) البقرة: ٣٩٢.
(٢) المجادلة :٢٢ .
(٣) ينابيع المودة : ج ٢ ص ١٠٠ ب ٧٦.
(٤) أمالي الطوسي: ج ١ ص ٣٤٧ .

الصلاة واجبة وكرر هذه العبارة في كل يوم وفي كل ساعة مئات المرات لايفيده شيئاً ما لم يؤدي الصلاة .

فإذا اعترف بوجوبها وأداها بأن صلّى الفرائض الخمس في كل يوم وليلة ولكن كانت صلاته بلانية منه بأن يستقبل القبلة ويكبّر ويأتي بركعتين وقت صلاة الصبح، وكذا يأتي بأربع ركعات وقت الظهر وكذا العصر والمغرب والعشاء، كل ذلك بلا نية منه لأداء الفريضة الواجبة تقرباً الى الله، فهذا أيضاً لاينفعه شيئاً ولا يكون مصلّياً ولا يعدّ مؤدياً للفريضة .

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي أن يعترف الانسان بوجوب الصلاة ، ثم يأتي بالصلاة وهي مشتملة على النية المعيّنه للفريضة متقرباً بها الى الله تعالى ولكنه لايصيب السنّة بحيث لايأخذ أحكام دينه من واسطة عالمة بأحكام العبادة التي أمر بها النبي صلى الله عليه وآله مستمداً من الوحي السماوي، فهذا أيضاً لاينفعه كما هو صريح كلامه صلى الله عليه وآله، فإذا أتى بعبادة وهي ناقصة جزءاً أو زائدة جزءً أو متقدمة عن وقتها المضروب لها لاينتفع بعبادته ، لأنها لم تصب السنّة ولا يكون الوزر إلا على صاحبها إذ أنه لم يجتهد لدينه كما يجتهد لدنياه، فإنّ عليه أن يأخذ أحكام دينه ممن عيّنه له النبي صلى الله عليه وآله في قوله : أنا مدينة العلم وعلي بابها [1] فإنّ اللازم على العاقل أن يأخذ أحكام دينه ممن يوثق به وتركن إليه النفس في صدقه وعدالته وورعه.

أمّا الذي لايتورع في روايته كأبي هريرة وأمثاله فلا يجوز أن يعول عليه في شيء من امور الدين ولا من غيره ، وقد كشف البحث والتنقيب عن كذبه في الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فانظر في كتاب «شيخ المضيرة» لمحمود أبو ريّه لتعرف ما قيمة أبي هريرة .

فينبغي أخذ أحكام الدين عن أصحاب النبي الموثوقين ، أهل التقوى و الدين الذين لم يرتكبوا ذنباً ولا معصيةً قط لا في حياة النبي صلى الله عليه وآله ولا بعده، وأمّا الذي

(١) كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٠ .

ارتكب معصية ولم يتب منها فإنّ النفس لاتطمئن إليه ولا يعذر من يأخذ منه أحكام الدين ، فمن أخذ أحكام دينه منه لم يصب السنّة فكان عمله هباءً منثوراً .

قوله تعالى : أن تبدوا الصدقات فنعما هي و ان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢٧١) .

لقد ذكر الله تعالى في هذه الآية صفتين من صفات الصدقة بعدما ندبهم إليها وحثّهم عليها في هذه الآيات العديدة ، وذكر صفاتها التي تكون سبباً لقبولها والتي تكون سبباً لبطلانها وعدم قبولها عند الله .

وهنا ذكر أنّ الصدقة وهي المال الذي ينفقه المسلم طلباً لمرضات الله إمّا أن تكون بادية أي يجاهر بها المنفق و يدفعها لمستحقهـا أمام الناس ، و إمّا أن يخفيها ويتكتم بها ولا يدفها أمام الناس .

وذكر أنّ إبداءها والتظاهر بها حسن **«فنعما هي»** وأنّ التكتم بها وإخفاءها فهو أفضل وأكثر خيراً ، وقدورد في الأخبار أنّ الصدقة الواجبة كالزكاة ينبغي إبداؤها وإظهارها لئلّاتتهم بعدم أدائها ، والصدقة المندوبة ينبغي إخفاؤها والتكتم بها فراراً عن الرياء وعما يخطر في القلب من ذلك .

وقد روي عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: البرّ وصدقة السرّ ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان عن سبعين ميتة سوء [١] .

وكان علي بن الحسين عليه‌السلام يقول: إنّ صدقة السرّ تطفيء غضب الرب كما يطفيء الماء النار ، فإذا تصدّق أحدكم فأعطى بيمينه فليخفها عن شماله [٢] .

---

(١) الوسائل : ج ٦ ص ٢٥٥ ب ١٣ ح ٩

(٢) سفينة البحار : ج ٢ ص ٢٤ مادة «صدق» .

وعن الامام الباقر عليه السلام لمّا غسل أباه علياً نظروا الى مواضع المساجد من ركبتيه وظاهر قدميه كأنها مبارك البعير، ونظروا الى عاتقه وفيه مثل ذلك فقالوا لمحمّد عليه السلام: يابن رسول الله قد عرفنا هذا من إدمان السجود فما هذا الذي نرى على عاتقه؟ قال أمّا لولا أنه مات ماحدثتكم عنه، كان لايمرّ به يوم إلا أشبع به مسكيناً فصاعداً ما أمكنه ، وإذا كان الليل نظر الى ما فضل عن قوت عياله فجعله في جراب، فإذا هدأ الناس وضعه على عاتقه وتخلّل المدينة وقصد قوماً لايسألون الناس إلحافاً وفرغه فيهم من حيث لايعلمون من هو، ولايعلم بذلك أحد من أهله غيري ، فإني كنت اطّلعت على ذلك منه يرجو بذلك فضل إعطاء الصدقة بيده ودفعها سراً (١) .

وروي عن بعض أهل المدينة قال : ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين عليه السلام وكان في المدينة كذا وكذا بيتاً يأتيهم رزقهم ومايحتاجون إليه لايدرون من أين يأتيهم، فلما مات زين العابدين عليه السلام فقدوا ذلك فصرخوا صرخة واحدة (٢).

وقد صرحت الآية أنّ الذي يخفي صدقته يكفّر الله عنه من سيئاته حيث إنّ الله خبير بما تعمله .

قوله تعالى : ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلانفسكم و ما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لاتظلمون (٢٧٢).

لمّا أنزل الله تعالى على رسوله الآيات العديدة التي رغّبت المؤمنين على

---

(١) سفينة البحار : ج ٢ ص ٢٤ مادة «صدق» .

(٢) بحار الانوار : ج ٤٦ ص ٨٨ ب ٥ ح ٧٧ .

بذل المال ، وحثتهم على الانفاق ووعدتهم بالجزاء الجزيل والثواب العظيم المضاعف وفي ضمن هذه الآيات ذكرت الحكمة التي هي أحسن شيء يحظى به المؤمن وأنّ الله يؤتيها من يشاء ممن يؤهل نفسه لها بإخلاص النية وتصفية القلب والاستمداد من الله في جميع الامور والاعراض عما سوى الله ورسوله ومن يرتضيانه .

وقد بيّن الرسول الأكرم ﷺ جميع هذه الامور لامّته، فاتصف بعضهم بهذه الصفات النبيلة فأقرّ الله الحكمة في قلبه وجرت على لسانه ، وبعضهم يظهر للناس أنه متصف بها ولكن قلبه مغشوش فاسد ، وبعضهم بقي على ما هو عليه من النفاق، و هذا مما يأسف له الرسول الكريم الذي يريد الخير لعموم البشر ، ولايحبّ أن يكون في امّته نقص ولو في جزء واحد منها ، وهو يعرف هؤلاء المنافقين كما عرفه الله في قوله : «ولتعرفنّهم في لحن القول»[1] فكثر وجده وزاد أسفه ، فأراد الله تسليته بهذه الآية الشريفة، و أنّ هدايته الناس إنما هي بيد الله ولايقدر عليها أحد غير الله .

ثم بيّن الله عزّ وجلّ لمن تأثر بالآيات فأنفق المال ولمن لم يتأثر فلم ينفق شيئاً و أنفقه رياءً أو اتبع الانفاق بالمنّ والأذى ، عرّفهم جميعاً أنّ هذا الانفاق الذي يتحقق منهم إنما يعود نفعه عليهم و يخصّ أنفسهم فقط اذا كان خالصاً لله تعالى كما يدلّ عليه قوله : **« وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله »** أمّا الذي ينفق لغير الله فلا ينتفع به المنفق لأنّ الله تعهد بالجزاء لمن يعمل لأجله، و هذا المنفق ليس منهم .

وقد وجّه الله الخطاب في الآية أولاً الى النبي وأخبره بأنك غير مكلّف من الله بأنّ تهدي الناس وإنما أنت مكلّف بالتبليغ وإسماعهم الآيات و الأحكام .

ثم وجّه الخطاب الى العباد وعرّفهم بأنّ هذا الانفاق الذي بلّغكم به الرسول إنما هو لأنفسكم لايعود على الرسول شيء منه ، والله هو الذي يقرر لكم الجزاء

---

(١) محمد : ٣٠ .

على نفقاتكم، فاللازم عليكم اذا أردتم الجزاء المضاعف أن لاتكون نفقاتكم إلا خالصة لوجه الله تعالى ، وأن لايشوبهاأحد المبطلات لهامن المنّ والأذى والرياء، أو كون المال المنفق من القسم الرديء الخبيث .

ففي الجملة الاولى وهي :**«وما تنفقوا من خير فلانفسكم»** عرّفهم أنّ النفقة التي تريدون ثوابها و نفعها لأنفسكم إنما يحصل ذلك لكم، ويتحقق النفع والثواب اذا كانت خالصة لوجه الله . أمّا اذا خالطها شيء آخر كالرياء أو تعقّبها منّ أو أذى أو كانت هي بحسب ذاتها غير صالحة لأن تقدم لله لخبثها ورداءتها فليس لكم جزاء عليها ، فإنها فاقدة للشرط الموجب للقبول ، فإنّ الله طيّب لا يقبل إلا الطيّب .

ثم عرّفهم بالجملة الثالثة وهي: **«وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون»** بأنّ الخير الذي تنفقونه سيعود إليكم وافياً .

ويمكن أن يكون الفرق بين هذه الجملة والجملة الاولى أنّ المقصود من تلك هو النفع لكم في الآخرة ، والمقصود من هذه هو التوفية لكم في الدنيا ، فلا تحسبوا هذه النفقة خسارة مالية فإنها ستعود إليكم ، فالذي يعتمد على وعد الله لا يبخل في بذل المال بعد سماعه لهذا الوعد .

ثم أكّدها بقوله: «وأنتم لاتظلمون» أي: أنّ الوعد بالتوفية ليس فيه خلف وأنّ خلف الوعد لايجوز على الله وإنما يقع من بعض البشر الذين لاذمّة لهم ولا يستقبحون خلف الوعد .

ثم ذكر شرطاً آخر للنفقة المرضية ، فقال عزّ من قائل :

للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم

لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم (٢٧٣) .

بعدما حثّ الله عباده المؤمنين في هذه الآيات العديدة ورغّبهم في إنفاق المال ووعدهم بالثواب الجزيل في الآخرة والتعويض المضاعف في الدنيا عرّفهم في هذه الآية بمن يدفعون له هذه الصدقات؟ و من أيّ الأصناف هم؟ فأمرهم بدفعها للفقراء الذين لا يمكنهم الاتجار والكسب ، إمّا لعجزهم عن ذلك ، أو لمرض عرض لهم ، أو أنهم حسبوا أنفسهم وحصروها بالقيام بما ينفع المسلمين ويؤيّد الدين كجهاد الأعداء وتحصيل العلم النافع .

وقد وصفهم الله بالعفّة ، وأنهم لا يسألون الناس ولا يلحون في الطلب منهم، وهذا يشمل كل مؤمن فقير. فإذا دفع ذو المال صدقته الى المؤمن الفقير كانت هذه النفقة مقبولة عندالله، وقد خصّ الله هذا الصنف لتدفع لهم الصدقات ولا تدفع لمن لا يستحقها ، كما نرى في هذا الزمان بعض الناس يدفع بعض المال الى من بيده السلطة لكي يتقرب له ويدنو منه ، فإذا جاء الفقير صرفه محروماً ، وبعضهم يدفعها الى السفهاء الذين يضحكون على الناس بالأباطيل ويحرم المستحق لها .

وعلى كل ينبغي دفع الصدقات الى المؤمن الفقير المتعفف ، وهو معروف عند أهل العقل في كل زمان ومكان ، لأنا نراه لا كسب له ولا ملك و لا تجارة ، وهو متعفف لا يسأل الناس شيئاً ، وإذا سئل عن حاجته الى المال ينفي ذلك ويقول إني غير محتاج .

قوله تعالى : الذين ينفقون أموالهم بالليل و النهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٧٤)

لقد ذكر الله تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل الصدقة وأنواعها و أقسامها

وذكر أنواع المنفقين ، وذكر جزاء النفقات الذي جعله الله لأربابها ، وذكر في هذه الآية صنفاً من المنفقين وهم الذين لم يجعلوا لنفقاتهم وقتاً خاصاً أو مقداراً خاصاً ، بل ينفقون في كل وقت وينفقون جميع ما عندهم ولا يتركون لأنفسهم شيئاً ، اعتماداً على وعدالله بتعويضهم لما ينفقون أضعافاً مضاعفة .

ثم ذكر أنّ أجر هؤلاء القوم محفوظ عند ربهم ولم يبيّن له قدراً معيّناً و يمكن أن يكون عدم بيان مقداره إشارة الى عظمته ، وأنّ العباد لا يمكنهم حصره وعده .

ثم ذكر أنّ لهم مع هذا الأجر المحفوظ عند الله أنهم لايصيبهم خوف من كل ما يوجب الخوف في الدنيا و الآخرة ، ولا يصيبهم حزن من كل ما يوجب الحزن في الدنيا والآخرة ، فكل خوف أو حزن يصيب الناس في الدنيا والآخرة هم آمنون منه فلايخافون إلا من الله ولايحزنون إلا لفوات ثواب الله .

وقدذكر المفسرون من العامة والخاصة أنّ الآية نزلت في شأن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام فقد كان عنده أربعة دراهم فتصدق بواحد ليلاً وبواحد نهاراً وبواحد سراً وبواحد علانيةً فنزلت الآية(١) .

وبعد الانتهاء من ذكر الآيات نذكر بعض الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الهداة عليهم السلام في الحثّ على الصدقة وفي منافعها الدنيوية والاخروية .

روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : من سره أن يدفع الله عنه نحس يومه فليفتتح يومه بصدقة (٢) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : على كل مسلم في كل يوم صدقة ، قيل: من يطيق ذلك ؟ قال : إماطتك الأذى عن الطريق صدقة ،وإرشادك الرجل الى الطريق صدقة ، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة

(١) مجمع البيان :ج ٢ ص ٣٨٨ .
(٢) بحار الانوار : ج ٩٦ ص ١٢٦ ب ١٤ ح ٤٢ مع اختلاف يسير .

وردك السلام صدقة(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: استنزلوا الرزق بالصدقة (٢).

وقال عليه السلام: من أيقن بالخلف جاد بالعطية (٣).

وقال عليه السلام: من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة(٤).

وقال عليه السلام: اذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة (٥).

وقال في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: واعلم أنّ أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة، وأنه لاغنى بك فيه من حسن الارتياد وقدر بلاغك من الزاد مع خفة الظهر، فلا تحملنّ على ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك، واذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك الى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمّله إياه، وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه، فعليك أن تطلبه فلا تجده، واغتنم من استقرّ منك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك (٦).

وسئل الصادق عليه السلام: أيّ الصدقة أفضل؟ قال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخاف الفقر، ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا ولفلان كذا (٧).

وحكي عن ابن فهد في العدة قال: الصدقة على خمسة أقسام:

الأول: صدقة المال، وقد سلفت.

الثاني: صدقة الجاه، وهي الشفاعة.

---

(١) بحار الانوار: ج ٧٥ ص ٥ ب ٤١ ح ٤.
(٢) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١٢٠ ب ١٤ ح ٢٢.
(٣) بحار الانوار: ج ٩٦ ص ١١٥ ب١٤ ح ٦.
(٤) بحار الانوار: ج٩٦ ص ١٣٢ ب ١٤ ح ٦٦.
(٥) نهج البلاغة: الحكمة رقم٢٥٨.
(٦) نهج البلاغة: الكتاب رقم٣١.
(٧) الوسائل: ج ٦ ص ٢٨٢ ب ١٩ ح ١ عن رسول الله (ص).

الثالث: صدقة العقل والرأي، وهي المشورة .

الرابع : صدقة اللسان ، وهي الوساطة بين الناس والسعي في مايكون سبباً لاطفاء النائرة وإصلاح ذات البين .

الخامس : صدقة العلم، وهي بذله لأهله ونشره على مستحقيه [١].

وروي عن النبي ﷺ أنه سأل جبرئيل عن الصدقة فقال: يارسول الله الصدقة على خمسة أقسام: قسم منها الواحد بعشرة، وقسم الواحد بسبعين، وقسم الواحد بسبعمائة، وقسم الواحد بسبعين ألفاً ، وقسم الواحد بمائة ألف ، فقال رسول الله ﷺ : ما تفسير ذلك يا جبرئيل ؟ قال :

أمّا التي تكون الواحدة بعشرة اذا كانت على سائر الناس المستحقين صحيحي البدن .

وأمّا الواحد بسبعين اذا كان المستحق لايمكنه الاكتساب بمرض أو غيره .

وأمّا الواحد بسبعمائة اذا كان المستحق من آل الرسول .

وأمّا التي الواحد بسبعين ألفاً اذا كان لأرحامه أو أبيه .

وأمّا التي الواحد بمائة ألف اذا كان لطالب العلم صحيحاً كان أو مريضاً لأنه يتقوى على طلب العلم وينفع به عباد الله [٢].

و لمّا فتح الله لعباده باب الصدقة و أعلمهم أنها جالبة للرزق الكثير و أنّ فيها خير الدنيا و الآخرة ، فالمؤمن الموحد المعتقد بأنّ زمام الامور كلها بيد الله وليس لأحد غيره قدرة على التصرف في الأرزاق وغيرها من الامور ينبغي له بعد الاطلاع على هذه الآيات التوجه الى الله في كل ما يروم ويريد من الامور، فإذا لجأ في شيء من الامور الى ما نهى الله لكشف عمله هذا عن ضعف عقيدته بالله وعدم الاطمئنان بوعده .

---

(١) عدة الداعي : ٦٢ .

(٢) المواعظ العددية : ص ٢٠٥ .

ولهذا فقد توعّد الله بالعذاب الشديد لمن يتمسك بما حرم الله في تحصيل الرزق، فقال جلّ شأنه بعد هذه الآيات تنبيهاً لعباده :

الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع و حرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف و أمره الى الله و من عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون(٢٧٥) .

لقد فسّروا الخبط بالمشي على غير استواء[١] . ويوصف المرء الذي يتصرف في أمر على غير هدى أنه يخبط خبط عشواء ،ويقال: خبط البعير الأرض اذا اختلّت مشيته . ويعلم من هذا أنّ كل أمر اذا غيّر الانسان نظامه الطبيعي أو الشرعي عما جعل عليه بحيث ترك الوجه الصحيح وعمل بالوجه الفاسد فقد تخبّط فيه .

أمّا القيام المذكور فتارةً يكون المقصود منه القيام المقابل للجلوس ، وتارةً يكون بمعنى التصرف وإدارة الشؤون ، كما يقال : فلان قام بالأمر أحسن قيام ، أو فلان لم يحسن القيام بالأمر الفلاني ،ولامانع من إرادة كلا الأمرين معاً في الآية الشريفة .

و المرابي لمّا ترك الأمر الذي رخصه الله فيه وهو البيع و عمل بما نهاه عنه وهو الربا فقد خبط خبط عشواء ، حيث ترك الطريق الذي أمره الله بسلوكه وأخذ في طريق نهاه الله عنه ، وهو مع ذلك يجادل أهل الحق ويدعي عدم الفرق بين الطريقين ، لأنه لم يدرك حكمة الله التي بنى الله أحكامه عليها، وليس له إيمان راسخ

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٣٨٨ .

متين وعقيده كعقيدة أهل الحق بأنّ الله شرع أحكامه على الحكمة والمصلحة حتى يطيع أوامر الله وإن لم يعرف وجه الحكمة ، ولاريب بأنّ لله عزّ وجلّ في كل قضية حكماً معيّناً لايتغير ولا يتبدل ، وأنّ الله أودع الأحكام كلها عند النبي ﷺ بواسطة الملك الذي ينزل عليه ، وعلى هذا فكل قضية اذا انحرف الانسان فيها عن جادة الصواب وسلك طريق الظلال والهلاك فهو متخبط تخبط الأعمى ويكون من مصاديق الآية الشريفة .

بعد ماعرفنا أنّ المقصود من القيام هو التصرف المخالف للصواب وليس القيام المقابل للجلوس فقط ، وقد شبّه الله هذا الانسان التارك للصواب والسالك طريق الضلال بالممسوس والمجنون الذي يسلّم قياده للشيطان فيقوده الى حيث يهوي به في الظلمات فإنّ اختيار هذه الطريقة هي من أعظم أنواع الجنون ، لأنّ الجنون المضرّ بالآخرة أعظم بمراتب من الجنون المضرّ بالدنيا .

وبعد هذا ينبغي لنا أن نتساءل في الدنيا قبل التساؤل في الآخرة فنقول : اذا كان الله قد جعل لكل قضية ولكل مسألة حكماً معيّناً وأودع علم جميع الأحكام الى النبي ﷺ وأنه لم يترك قضية واحدة إلا وبيّن حكمها كما يدل عليه قوله «اليوم أكملت لكم دينكم»[1] و أنّ النبي ﷺ بلّغ جميع هذه الأحكام لامّته باتفاق جميع الامّة علي ذلك ، نسأل ما سبب هذا الاختلاف الواقع بين الامّة ؟

نقول : الإشكال هو أنّ هذا الاختلاف إنما هو من تخبط الشيطان بالانسان وجره الى الطرق الملتوية التي تبعده عن الصراط المستقيم الذي نصبه الله لعباده وبيّنه لهم وأوضحه غاية الايضاح ، وإلا لو ترك شيئاً من الايضاح لكان غير مبلّغ لرسالة ربه ، وحاشاه أن يكون كذلك ، وأنّ الحجة تلتزم كل شخص على انفراده فإنّ الله قد أعطى كل إنسان من العقل ما يميز به بين الحسن والقبيح وبين الضار والنافع ، ولا يسوغ له أن يعول على غيره في هذا التشخيص والتمييز .

---

(١) المائدة :٣ .

وكان الناس في أيام وجود النبي صلى الله عليه وآله يرجعون إليه في أحكام القضايا مهما كان نوعها، وأمّا بعد ارتحال النبي صلى الله عليه وآله فالناس قد صاروا على أنواع، لأنهم افترقوا فرقاً كثيرة، ولا يمكن أن ينتمي العاقل الرشيد الى واحدة من هذه الفرق إلا بإرشاد من النبي صلى الله عليه وآله، وقد تواتر الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: إني تارك فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي: كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي[1] ولا ريب أنّ سيد أهل بيته هو علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه أودع عنده علومه ولم يترك الامّة تائهة في حيرتها ولا تعرف مرجع أحكامها.

أيها الرشيد اللبيب، اذا أردت أن تعرف الحقّ والدين الصحيح فانظر الى كتاب «إثبات الوصية» للمسعودي المقبول عند الجميع، فإنه يذكر فيه:

أنّ جميع الأنبياء من آدم الى محمد اذا حضرتهم الوفاة يأمرهم الله أن يسلّموا نور الله والحكمة والعلم المنزل عليهم الى وصيهم ليقوم بالأمر بعدهم ويكون هو المرشد لامّتهم[2].

وهذه هي سنّة الله في عباده، فلماذا نسوا الى أفضل الأنبياء وخاتمهم أنه ترك هذا الأمر ولم يعيّن وصياً مرشداً، وأنّ ترك الوصية مستقبح من أقلّ الناس فكيف ينسب الى النبي صلى الله عليه وآله؟

أيها المسلم الرشيد المفكّر، لهذا بابان من أبواب الدين الاسلامي:

(أولهما) باب الصدقات الواجبة والمندوبة. (وثانيهما) باب الربا المحرم.

ويتفرع منهما فروع كثيرة لا تحصى، وأنّ الانسان مهما بلغ من العلم فإنه معرض للخطأ والسهو والنسيان، أمّا الامام الذي تقول به الفرقة الامامية فإنها تعتبر فيه العصمة من هذه الامور، وكذا تعتبر فيه العصمة من الذنوب كلّها صغيرها وكبيرها لأنه منصوب من قبل الله والرسول لا من قبل البشر.

---

(١) بحار الانوار: ج ٢٣ ص ١٣٣ ب ٧ ح ٧٠.

(٢) اثبات الوصية: ص١٠٥.

ولقد كان هذا الكلام عن الامامة تعليقاً على كلمة **«يتخبطه الشيطان»** وأنّ كل فعل أباحه الله فجعل العبد المحرم كالمباح أو المباح كالمحرم كما حكى الله عنهم : **«قالوا انما البيع مثل الربا»** فليعلم أنّ هذا من تخبط الشيطان .

وليعلم العاقل الرشيد أنّ أهم الأمور وأعظمها أمر الامامة، فإنّ الانسان اذا تركها اختلّت جميع اموره إذ أنه يأخذ أحكام دينه من منبع غير متصل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصيب مرة ويخطأ مرات ، وهـذا خلاف المرشـد ، وسوف يأتي في ضمن الآيات إن شاء الله ما يزيدك وضوحاً .

فكل حكم من أحكام الدين اذا أخذه المكلّف من غير العالم المعصوم وكان المفتي له بذلك مخطئاً وعرف المكلّف بعد حين أنه كان على غير رشد من أخذه من هذا المفتي فتركه و رجع الى قول المعصوم فإنّ أعماله مقبولة عند الله و إن كانت خلاف الحق والحقيقة كما يدلّ عليه قوله تعالى : **«فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف»** .

واذا عرف الحق فبقي مصراً على باطله فيدخل تحت قوله **«ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»** فالآية الشريفة وإن كانت واردة في حكم الربا إلا أنّ حكمها عام شامل لكل من عرف الحق وبقي متمسكاً بالباطل، فافهم ذلك جيداً.

ثم إنّ هذه الآية وإن لم تكن من موضوع كتابنا ـ لأنّ الموضوع هو صفات المؤمنين وهـذه الآية من القسم المقابل ـ ولكن لمّا جعلت مقابلة المؤتي الزكاة والصدقات وفيها فوائد كثيرة تنبه الناس عن غفلتهم أدرجناها في الموضوع، وكذا الآية التي بعدها وهي قوله تعالى :

يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم (٢٧٦).

إنّ إخراج الصدقة من المال ودفعها لمستحقها بلا عوض موجب لنقصان المال،

وهو أمر معلوم محسوس لاريب فيه ، و أنّ أخذ الربا ـ و هو الفائض من الغير وإضافته الى المال ـ موجب لزيادة المال ، وهو أمر معلوم محسوس يدركه كل أحد ،ولكن لمّا كان الأمر الأول ممايرضى به الله وأمر به عباده والثاني ممالا يرضى به ونهى عنه عباده أخبرنا الله بأنّ النتيجة التي تعرفونها سوف تكون معكوسة حتماً وأنّ الأول سوف يكون موجباً للزيادة والثاني سوف يوجب المحق والابادة، فمن كان يعرف الله وقدرته فليعلم أنّ الله سيحقق ما أخبر بوقوعه وتحققه، فلاتخلف في هذا الأمر .

ثم أخبرنا الله أنه لا ينتهي الأمر بانعكاس النتيجة فحسب وإنمايكون وراء ذلك وبال أشدّ وأعظم منه ، وهو أنّ هذا الذي يترك المحبوب لله ويفعل المبغوض له سوف يكتب عند الله من الكافرين و الآثمين، وأنّ الله لايحب الكفّار الأثيم، ومن لايحبه الله فهو من الخاسرين ولا يرى خيراً أبداً في الدنيا والآخرة.

فإذا كان عند الانسان عشرة دراهم فتصدّق بدرهم واحد فهو يوطن نفسه على أن يبقى عنده تسعة دراهم وأنه سيلقى ثواب ذلك الدرهم عند الله في الآخرة فإنّ صريح هذه الآية أنّ الله تعالى يربي هذا الدرهم فيجد المنفق ثواب عشرة دراهم أو سبعين درهماً أو أكثر من ذلك حتى ينتهي الى المائة ألف أو أكثر ، وأمّا التسعة التي بقيت عنده وقد يضاعفها الله فتصير بعد زمان قصير أضعاف ذلك العدد ، فهو قد حافظ على ماله في الدنيا وضوعف له ثواب صدقته في الآخرة ، وحافظ على ثواب بقية أعماله من صلاة وصوم وحجّ و غيرها ، هذا ما يكون من حال المتصدق .

ومرة يكون عند إنسان آخر عشرة دراهم فهو يريد أن يصيّرها أحدعشر فيرابي فيها ويجزم أنه بعد شهر سيحصل على أحد عشر درهماً وهو يرى بجهله المركّب أنه لم يفعل شيئاً إلا كمن باع سلعة بأحد عشر درهماً كان قد اشتراها هو بعشرة دراهم ، ويعتقد بجهله أنه قد أدى ما عليه من صلاة وصوم وحج .

ثم إنّ هذا الانسان في الدنيا قد يأتي عليه زمن قصير و اذا بهذا الدرهم الذي كان يأمل إضافته الى العشرة قد ذهب في وجه باطل وسحب معه العشرة كلها أو أكثرها فلم يبق عنده شيء، واذا طال الزمان و كثرت العشرة حتى صارت عشرين أو ثلاثين ترى هذا الرجل معذباً منكوداً يتجول في المحاكم ويقيم الدعوى على أحد المدينين لأنه لم يدفع له المبلغ في المدة المعيّنة ، ويشتكي على الآخر لأنه أصبح مفلساً و ليس عنده شيء ، و يشتكي على ورثة الآخر لأنه مات و لم يخلف شيئاً يسدّ الطلب ، وهكذا هو في تجوال وخبط في القيام بشؤون حياته .

وأمّا في الآخرة فإنه يقوم من قبره الى حشره كما وصفه النبي ﷺ وبطنه كالبيت ترى فيه الحيّات من الظاهر، واذا رأى جزاء صلاته اذا بها قد تطهّر لها بماء اشتراه من الربا وصلاّها بثوب اشتراه من الربا وأداها في دار اشتراها من الربا وكذا بالنسبة الى حجّه ، واذا عرض عليه صومه فإذا به قد تقوى عليه بطعام كله من الربا، ثم يقال له : إنّ الأعمال إنما تقبل من المتقين وأنت لمعاودتك على الربا معدود من الكافرين الآثمين .

هكذا يمحق الله الربا فلا راحة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة، وليعلم المرابي أن ضمّ الدرهم الى الدرهم ولفّ الدينار مع الدينار لا ينفعه إذا كان في الدنيا متعباً وفي الآخرة معذباً .

ثم لمّا بيّن الله لعباده أنه لا يحبّ الكفّار الأثيم عقب ذلك بأنه يحبّ المؤمن وأنه يحفظ له جزاءه، فقد ذكر بعض صفات المؤمنين بقوله تعالى :

ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة و آتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٧٧) .

إنّ الله وعد طائفة من الناس بأن يحفظ لهم أجرهم الذي وعدهم به ، وأن

يؤمنهم في كل مكان وزمان يكون الناس في خوف ووجل، وأن يجعلهم فرحين في كل وقت يكون الناس في حزن ، و قد وصف الله هذه الطائفة التي وعدها بهذه الامور الثلاثة وصفهم بأربع صفات ، فمن كانت فيه هذه الصفات فإنّ الله سيفي له بوعده ، و من لم تكن فيه هذه الصفات فليجهد نفسه على الاتصاف بها لكي يحظى بوعد الله ويكون من الآمنين الفرحين . والصفات الأربعة هي :

١ـ أن يكون مؤمناً .

٢ـ أن يعمل الصالحات .

٣ـ أن يقيم الصلاة .

٤ـ أن يؤتي الزكاة.

فالذي يلزمنا فعلاً أن نعرف حقيقة هذه الامور الأربعة حتى نتصف بها كما يريد الله، فإنّ الله قد وضع هذه الأسماء الأربعة ـ وهي: إيمان، صلاح، صلاة، زكاة ـ وضعها لأشياء و مسمّيات معيّنة مشخّصة وبيّنها النبي ﷺ ، فعلينا أن نعرف المسمّيات الحقيقية التي عيّنها الله لهذه الأسماء بلا زيادة ولا نقصان ولا تبديل ولا تغيير.

ولو لم يحصل الاتقان والضبط بهذه الصورة و إلا لا يجدي نفعاً عمل المرء المخالف لما أراده الله وإن كانت المخالفة في الأجزاء والشروط .

فإذا كان الايمان عند الله شيئاً معيّناً وجاء الوالي أو الولي الذي فرض نفسه على الناس بالقوة والقهر وهو الذي عبّر الله عنه بقوله: «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت»[1] ففسر الايمان بشيء آخر مخالف لما جعله الله ،وقبل متابعوه بهذا التفسير وعملوا به، أترى أنّ هؤلاء يكونون من المؤمنين؟ إنّ هذا لا يوافق عليه المنطق ولا العقل وإن كان العقل بأضعف درجاته .

إني أذكر لك مثلاً واحداً لتعتبر به : قام عمر بن سعد يوم العاشر من المحرم بعد قتل الحسين عليه السلام ونادى بأعلى صوته بلا خوف ولا حياء : يا خيل الله اركبي

(١) البقرة : ٢٥٧ .

وابشري بالجنة و دوسي صدر الحسين . أفترى أنّ هؤلاء الذين امتثلوا أمره يصلون الى الجنة ؟

ويأتي وليّ آخر من أولياء الكافرين متلبساً بلباس المسلمين لأجل التآمر عليهم ، فيزيد في الصلاة جزءً أو ينقص جزءً ، سواء كان الجزء لفظياً أو فعلياً و يقبل متابعوه بهذا التصرف، أترى أنّ هذه الصلاة يقبلها الله بعد ما بيّن حقيقة الصلاة لرسوله وبيّنها الرسول لامّته ؟

فعلينا أن نعرف هذه الامور الأربعة معرفة صحيحة مأخوذة من الرسول الأعظم بطريق موصل إليها ، وأن يكون طريق التوصل مأخوذ من الرسول أيضاً وبعد هذا ينبغي أن ندقق ونحقق معاني هذه الامور الأربعة فنقول :

أمّا الأول ـ وهو الايمان ـ فقد عرّفوه بتعاريف كثيرة وقد تقدم بعض الكلام في الآيات المتقدمة ويأتي الكثير من الكلام في الآيات إن شاء الله تعالى.

قال بعض المحققين : إنّ الايمان الكامل الخالص هو التسليم لله و التصديق بما جاء به النبي ﷺ لساناً وقلباً على بصيرة ، مع امتثال جميع الأوامر والنواهي كما هي .

ينبغي الالتفات الى الكلمة الأخيرة وهي قوله « كما هي » . إنه شرط لازم في الامتثال، ويلزم على كل مكلّف مسلم محتاط لدينه و نفسه أن يجتهد في تحصيل أوامر النبي ﷺ و نواهيه كما هي من غير تغيير كلمة أو زيادة أو نقص ، فإنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك حتى النبي نفسه إلا بأمر من الله . فالواجب على المسلم هو العمل على طبق قول النبي أو من يخبر عن النبي بقول جازم وهو المعصوم كما تقدم.

وأمّا الأمر الثاني ـ وهو عمل الصالحات ـ فهو ما يكون صالحاً عند الله ورسوله لا ما يراه العبد صالحاً، أو يتظاهر به أمام الناس أنه كذلك كما تقدم من نداء عمر ابن سعد . وقد صدر كثير من هذا القبيل ممن يشبه عمر بن سعد كنداء معاوية وأشباهه ممن هو على شاكلته بسبّ الامام وقتل المؤمنين بحجة الأخذ بثأر عثمان

فهذا الأمر الثاني ينبغي أن يرجع فيه الى النبي أو من يخبر عنه بقول جازم.

أمّا الأمر الثالث ـ وهو إقامة الصلاة ـ فإنها أيضاً يلزم فيها الدقة والتحقيق، وكذا في أمر الطهارة التي هي مقدمة للصلاة، فليس للعبد أن يزيد أو ينقص طرفاً أو يعمل بقول من يزيد وينقص من نفسه بلا استناد للقرآن أو قول الرسول ﷺ. هذا تكليف من أراد التوصل للدين الصحيح، فإنها عبادة و العبادة توقيفية تتوقف صحتها على أخذها من الشارع، وأمّا مايستحسنه العبد من نفسه فليس له أن يدخله في الصلاة.

وأمّا الأمر الرابع ـ وهو الزكاة ـ فقد ذكرت بعض شروطها في الآيات السابقة، والمهم منها الواجبة فإنّ لها شروطاً وحدوداً لاينبغي للمسلم أن يتعداها أو يخرقها، ولايجوز أخذها إلّا ممن يرويها ويسندها الى النبي ﷺ، وأن يكون الراوي موثوقاً بعلمه وتقواه، لايحتمل في حقه الكذب لا كأبي هريرة وأمثاله.

تنبيه للغافل والمتغافل

لا يخفى أنّ كثيراً من الناس يكون غافلاً أو أنه يتغافل عن كون هذه الامور تحتاج الى التحقيق والدقة الشديدة، وأنه يلزم أخذها من منبع صحيح يتصل سنده الصحيح بالنبي. ولا يتأتى ذلك إلا بتوسط المعصوم على رأي الامامية، ولذا نرى كثيراً من الناس يعتقد أنه مؤمن كامل الايمان و لكن في الحقيقة ليس كذلك «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»[1].

وكذا يظن بنفسه أنه يعمل الصالحات ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ولدى التحقيق تكون أعماله فاقدة للشروط وهو غافل عن ذلك.

أنا أرجو من أخي المسلم أن يعتبر بالآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان

(١) يوسف: ١٠٦.

كنتم مؤمنين (٢٧٨) فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون (٢٧٩).

لقد تقدم أنّ الايمان هو إقرار باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان، فالله تعالى يخاطب الذين أقروا بألسنتهم **«يا أيها الذين آمنوا»** بألسنتهم **«اتقوا الله»** أي: خافوه واحذروا منه **«وذروا من الربا»** واتركوا بقايا ما شرطته على الناس من الربا **«ان كنتم مؤمنين»** بقلوبكم إيماناً حقيقياً، فإن الاقرار باللسان وحده ليس بإيمان ولا ينفع شيئاً عند الله، وإنّ هذه الأوامر والنواهي تكشف حقيقة المرء للناس بالامتثال و عدمه فيكون من لوازم الايمان، فإن لم يتركه فهو غير مؤمن، وإنّ المؤمن هو العامل بما شرع الله من الحلال والحرام.

ثم ذكر الله ما هو أشدّ وأعظم عقاباً من ذلك، وهو أنّ أخذ الربا لا يقتصر على خروجه من الايمان فقط بل هو أعظم من ذلك حيث قال: **«فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله»** فهذا الشخص أو الجماعة أو الامّة اذا عرفوا حرمة الربا وبقوا مصرين على تعاطيه وأخذه وأكله فليعلموا أنهم يستحقون حرب الله لهم. وما يظن هذا العبد الضعيف العاجز من كل شيء اذا حاربه الله والرسول والله هو القادر على كل شيء، فإمّا أن يسلبه جميع أمواله دفعة واحدة أو تدريجياً أو يبتليه بالأمراض والعاهات أو يسلّط عليه بعض الظالمين مثله، فلا يبقى عليه باقية، فيذهب جميع ماله، وقد تذهب معه النفس والأولاد، وإن لم يكن أحد هذه الامور فالنبي أو وصيه هو الذي يحاربه أو يقتله، هذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فليس له إلا النار.

ثم بعد هذا الوعيد الشديد يفتح لهم باب رحمته بقوله: **«وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون»** ما أعظم رحمة الله وعفوه، فإنّ هذا العبد بعدما أخذ من أموال الناس الشيء الكثير قبل نزول آية التحريم لم

يأمره الله برد الأموال لأهلها ، بل اذا تاب الى الله يرجع له رأس ماله، فإن الله لايرضى للغني أن يظلم الفقير بأخذ الربا منه ، و لايرضى للفقير أن يظلم الغني بعدم دفع رأس ماله له اذا كان ذلك ميسوراً له ، أمّا اذا كان الفقير معسراً و لم يتمكّن من ردّ مال الغني له ففي هذه الصورة أمر الله الغني أن يصبر على الفقير وهو قوله تعالى :

وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون (٢٨٠) .

لمّا هدد الله المرابي بذلك التهديد الرهيب و توعده بمحق ماله في الدنيا ودخول النار في الآخرة ثم عفا عنه فيما أخذه من الربا قبل التحريم ولم يأمره برده الى أهله ، ثم أمره بعد ذلك باسترجاع رأس ماله من المدين و ترك الربا وإلّا فهو غير مؤمن ، وبعد الوصول الى هذه المرحلة صار الحكم المنزل من الله هو أن يترك الغني الربا وأن يدفع الفقير المدين أصل المال الذي أخذه من الغني وسقوط الربا عنه .

ولاريب أنّ بعض الفقراء المدينين لايمكنهم دفع المال ولا بعضه لشدة فقرهم ، و قد يتصور الغني أنّ مثل هذا الفقير الذي أسقط منه قسم من المال يلزمه دفع الأصل حالاً بلا تأخير ولو يبيع داره أو فرسه أو أثاث بيته .

وهنا قد دفع الله كل هذه التصورات من نفوسهم الشريرة التواقة الى جمع المال وأمرهم بإنظار مثل هذا المدين الفقير و عدم الضغط عليه حتى يحصل المال بيده .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ هذا الانظار يؤجر عليه صاحب المال ويكتب له ثوابه [1] .

---

(١) تفسير البرهان : ج١ ص٢٦٠ .

ثم بعد ذلك أرشدهم الله الى شيء آخر هو خير لهم من هذا الانظار وهو قوله: «وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون» أي: إن كنتم تعلمون بأنّ هذا المدين معسراً ليس له من المال ما يفي به دينه، فتصدقوا عليه بما لكم في ذمته فهو خير لكم فإنكم قد أخذتم منه مالاً في الربا قبل هذا، وإن لم تكونوا أخذتم منه شيئاً فإنكم قد ضيقتم عليه وأزعجتموه، فإذا أنتم وهبتموه هذا المال ستدخلون عليه السرور مقابل ذلك الضيق و الازعاج، أو يكون المعنى: إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتميزون بينهما، فإنّ التصديق بهذا المال خير من المطالبة والتضييق على المدين، فإنّ في التصدق نفع في الدنيا والآخرة.

ولا يخفى أنّ الله عزّ وجلّ قد أدخل آيات الربا في آيات الصدقة لتقابلهما في الثواب والعقاب، والاحسان والاساءة، والصدق في الايمان والكذب فيه.

ثم وجّه خطاباً عاماً لجميع الخلق فقال تعالى:

واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (٢٨١).

فقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده كلهم بعد ما بيّن لهم جزاء المتصدق وعقاب المرابي وخوّفهم من اليوم الذي يجمعهم كلهم فيجازيهم على حسب أعمالهم ونيّاتهم وهو العالم بالسرائر والضمائر والظواهر والبواطن، وبيّن لهم أنهم لا يظلمون في ذلك اليوم. وأنّ المحسن لا ينقص من جزاء إحسانه والمسيء لا يزاد في عقابه.

وقد ذكر لكلا القسمين ما يستحقانه من الثواب والعقاب، وإن كان المرابي يقدر على تحمّل هذا العقاب لأجل دريهمات يجمعها في الدنيا ويتركها عند الموت لغيره فهو ممن باع آخرته بدنيا غيره، وهي الصفقة الخاسرة، أجار الله المسلمين منها ونسأله حسن العاقبة.

وقد ذكر المفسرون أنّ هذه الآية هي آخر آية نزلت من القرآن، نزل

بها جبرئيل ، وقال للنبي ﷺ : ضعها في رأس الثمانين والمأتين من سورة البقرة .

قال الطبرسي في مجمع البيان : قال المفسرون : لمّا نزلت هذه الآية «إنك ميّت و إنهم ميّتون»[1] قال رسول الله ﷺ : ليتني أعلم متى يكون ذلك ، فأنزل الله تعالى سورة النصر : « إذا جاء نصر الله والفتح»[2] فكان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير و القراءة بعد نزول هذه السورة ، فيقول : سبحان الله و بحمده أستغفر الله و أتوب إليه ، فقيل له: إنك لم تكن تقوله قبل هـذا ، فقال: أما أنّ نفسي نعيت إليّ ، ثم بكى بكاءً شديداً ، فقيل : يا رسول الله أوتبكي من الموت وقد غفر الله لك ما تقـدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال: فأين هول المطّلع ؟ وأين ضيق القبر وظلمة اللحد ؟ وأين القيامة والأهوال؟ [3] الى آخرما ذكره .

ثم لمّا أمر الله المرابين بإنظار المعسر في دفع مالهم في ذمته صار ذلك المال حقاً مؤجلاً، فعقبه بذكر أحكام الحقوق المؤجلة، فذكر الآيتين في أحكام المداينة[4] .

ثم بعد ذلك ذكر آية فيها وعيد شديد لمن لم يكن سليم القلب ، بل ورد أنه حقيق على الله أن لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من حبّ أعداء الله ، وهي قوله تبارك وتعالى :

لله ما فى السماوات و ما فى الارض و ان تبـدوا ما فـى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير (٢٨٤) .

إنّ الذي يظهر من بعض التفاسير أنّ هذه الآية هي أثقل آية في القرآن

---

(١) الزمر : ٣٠ .

(٢) النصر : ١ .

(٣) مجمع البيان : ج٢ ص٣٩٤ .

(٤) يعنى الاية ٢٨٢ و٢٨٣ من سورة البقرة .

و أشق تكليفاً، فقد ذكر الطبرسي في الاحتجاج رواية طويلة يرويها عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام مضمونها أنه:

جاء يهودي من يهود الشام وأحبارهم كان قد قرأ التوراة والانجيل والزبور و صحف الأنبياء و عرف دلائلهم ، جاء الى مجلس فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وفيهم علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس وابن مسعود وأبو سعيد الجهني فقال: يا امة محمد ما تركتم لنبي درجة و لا لمرسل فضيلة إلا نحلتموها نبيكم ، فهل تجيبوني عما أسألكم عنه؟ فكاع القوم عنه فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: نعم ما أعطى الله نبياً درجة ولا مرسلاً فضيلة إلا وقد جمعها لمحمد صلى الله عليه وآله، وزاد محمداً على الأنبياء أضعافاً مضاعفة، فقال له اليهودي : فهل أنت مجيبي ؟ قال له: نعم سأذكر لك اليوم من فضائل رسول الله صلى الله عليه وآله ما يقر الله به عين المؤمنين ؟ ويكون فيه إزالة لشك الشاكين في فضائله.

ثم جعل اليهودي يذكر فضائل الأنبياء آدم ومن بعده، وعلي عليه السلام يبين له أن محمداً اعطي أفضل من ذلك ، حتى وصل الى سليمان ، فقال اليهودي: فإن هذا سليمان قد سخرت له الرياح فسارت به في بلاده غدوها شهر ورواحها شهر، قال له علي عليه السلام : لقد كان كذلك و محمد اعطي ما هو أفضل من هذا ، إنه سري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى مسيرة شهر ، و عرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى الى ساق العرش ، فدنا بالعلم فتدلى من الجنة رفرف أخضر ، وغشي النور بصره فرأى عظمة ربه عز وجل بفؤاده ولم يرها بعينه فكان كقاب قوسين بينه وبينها أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، فكان فيما أوحى إليه الآية التي في سورة البقرة قوله تعالى : **لله ما فى السماوات و مافى الارض وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء والله على كل شيء قدير».**

و كانت الآيـة قد عرضت على الأنبياء من لـدن آدم عليه السلام الى أن بعث الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وآله ، و عرضت على الامم فأبوا أن يقبلوها من ثقله، و قبلها رسول الله صلى الله عليه وآله ، و عرضها على امّتـه فقبلوها ، فلمّا رأى الله منهم القبول علم أنهم لايطيقونها .

آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته و كتبه و رسله لانفرق بين أحد من رسـله و قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و اليك المصير (٢٨٥) .

وهنا تتمم رواية الاحتجاج المروية عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام .

فلمّا أن صار الى ساق العرش كرر عليه الكلام ليفهمه فقال : **«آمن الرسول بما انزل اليه من ربه»** فأجاب الرسول صلى الله عليه وآله عنه وعن امّته **«والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله»** فقال جلّ ذكره: لهم الجنة والمغفرة على أن يفعلوا ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وآله : أمّا اذا ما فعلت ذلك بنا فـ **«غفرانك ربنا واليك المصير»** يعني المرجع في الآخرة. قال: فأجابه الله جلّ ثناؤه: قد فعلت ذلك بك و بامّتك، ثم قال عزّ وجلّ : أمّا اذا قبلت الآية بتشديدها و عظم ما فيه وقد عرضت على الامم فأبوا أن يقبلوها وقبلتها امّتك فحقّ عليّ أن أرفعها عن امّتك .

لا يكلف الله نفساً الا وسعها لـها ما كسبـت و عليـها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا و لا تحـمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا و اغفرلنا و ارحمنا أنت مولانـا

فانصرنا على القوم الكافرين (٢٨٦) .

وهنا نتمم أيضاً رواية الاحتجاج .

وقال: **«لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت»** من خير **«وعليها ما اكتسبت»** من شر ، فقال النبي صلى الله عليه وآله لمّا سمع ذلك : أمّا اذا فعلت ذلك بي وبامّتي فزدني ، قال : سل، قال : **«ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا»** قال الله عزّ وجلّ: لست اؤاخذ امّتك بالنسيان والخطأ لكرامتك عليّ .

ثم ذكر الله ما كان على الامم السالفة من التكليف الشاق و قد رفعه عن امّة محمد، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اللهمّ اذا أعطيتني ذلك فزدني، قال الله تبارك و تعالى له: سل ، قال: **«ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا»** يعني بالاصر الشدائد التي كانت على من كان قبلنا .

فأجابه الله وذكر له الآصار والشدائد التي كانت على الامم وهي كثيرة وأنه قد رفعها عن امّته ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : اذا أعطيتني ذلك كله فزدني، قال: سل ، قال: **«ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به»** قال:قد فعلت ذلك، وهو حكمي في جميع الامم،فقال صلى الله عليه وآله: **«واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا »** قال الله عزّ وجلّ: قد فعلت ذلك بتائبي امّتك .

ثم قال النبي صلى الله عليه وآله : **«فانصرنا على القوم الكافرين»** قال الله جلّ اسمه : إن امّتك في الأرض كالشامة البيضاء في الثور الأسود ، هم القادرون وهم القاهرون، يستخدمون و لا يُستخدمون لكرامتك عليّ ، و حق عليّ أن اظهر دينك على الأديان...[1] الى آخر الرواية،وهي طويلة قد أخذنا منها موضع الحاجة المتعلّق بالآيات.

وهنا ينبغي التنبيه على امور :

١ـ إنّ الذي يظهر من هذه الرواية المفصلة أنّ الامّة وافقت ورضيت وقبلت

---

(١) الاحتجاج : ج١ ص٢١٠ .

بحكم الآية، ولكن يظهر من رواية اخرى أنّ بعض الامّة اعترضت على الآية ولم توافق إلا بعد التأكيد من النبي صلى الله عليه وآله، فقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره قال بعد ذكر الآية:

يروى عن ابن عباس أنه قال: لمّا نزلت هذه الآية جاء أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف ومعاذ الى النبي (ص) فقالوا: يارسول الله كلّفنا من العمل ما لانطيق، إنّ أحدنا ليحدّث نفسه بمالايحبّ أن يثبت في قلبه وأنّ له الدنيا، فقال (ص): فلعلّكم تقولون كما قال بنو إسرائيل سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا، فقالوا: سمعنا وأطعنا. واشتدّ ذلك عليهم فمكثوا في ذلك حولاً فأنزل الله تعالى: «لايكلّف الله نفساً إلا وسعها» فنسخت هذه الآية ما قبلها، فقال النبي (ص): إنّ الله تجاوز عن امّتي ما حدّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلّموا به[1].

٢ـ إنّ الذي يستفاد من الآية: أنّ المؤمن الكامل الايمان هو الذي وصفه النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا»، وأنّ الذي يجمع شروط الايمان كلها كبيرها وصغيرها هو الكلمة الأخيرة وهي قوله «سمعنا وأطعنا».

فالمناط في تحقيق الايمان في القلب هو السمع والطاعة في جميع الأوامر التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله من الله، فلو أنّ عبداً امتثل الأمر في الصلاة فأكثر منها وصرف أوقاته كلها فيها ولكنه خالف النبي في جزء من أجزائها أنقصه أو أزاده لاينتفع بهذه الصلاة لأنه خرج عن الضابط وهو السمع والطاعة.

٣ـ ومن شجون الحديث ما ذكره العروسي الحويزي في تفسيره نور الثقلين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل وفيه خطبة الغدير وفيها: معاشر الناس، قولوا الذي قلت لكم، وسلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين وقولوا: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» إنّ هذه الفقرة من كلام النبي صلى الله عليه وآله انما تحقق فيها للسمع

---

(١) تفسير الرازي: ج٧ ص١٣٣.

ولم تتحقق فيها الطاعة اختلّت الطاعة في أغلب الأوامر والنواهي ، لأنّ النبي ﷺ أودع أحكامها عند علي ّ وأمّره علينا، فإذا عصينا النبي في هذه الامارة فاتنا الكثير مما هو مودع عنده ، فلم يتحقق الشرط المقوم للايمان وهو السمع والطاعة ، فتدبّر جيداً [1] .

٤ـ إنّ المقصود من إخفاء ما في النفس هو ما يعزم عليه العبد من المعاصي ويفعله ولكن لم يظهره للناس ، وليس المراد منه مايختلج في النفس من الوساوس الشيطانية ثم تزول في حينها ، فإنّ هذه الهواجس النفسانية الطارئة على النفس من غير إرادة من الانسان مما لايعاقب عليه كما ورد في الأخبار و يؤيده حكم العقل ، حيث إنّ هذا غير اختياري للانسان ولا يمكنه دفعه عن نفسه ، فالأقرب و الأولى في معنى الآية أن يكون المقصود ممن يخفي ما في نفسه وهو المنافق الذي يخالف ظاهره باطنه ، وهم الذين أظهروا مافي أنفسهم بعد رحلة النبي ﷺ الى الله فانقلبوا على أعقابهم، فإنّ الله يحاسبهم على ماكانوا يخفونه حين وجود النبي وهم عازمون على إظهاره بعده .

فالآية واردة في مقام التهديد والترهيب والتخويف، فإنه تعالى بعد مابيّن لنا جملة من أحكام الصدقة والربا والدين والاشهاد عليه وأداء الشهادة، عرّف أهل القلوب المريضة الذين يظنون أنّ الاعتراف باللسان والانكار بالقلب كافٍ في المقام ، فبيّن الله لهم أنّ هذا لايفيدهم شيئاً و أنّ الله يحاسبهم على ما انطوت عليه قلوبهم من نياتهم السيئة ونواياهم الخبيثة المخالفة لظواهر ألسنتهم و لأوامر الله ورسوله ، فهذه المحاسبة على إخفاء ما في النفس بالنسبة الى الشرّ والعصيان والتمرد والطغيان .

أمّا بالنسبة الى ذوي السرائر الطيّبة و النفوس الطاهرة الذين اذا بلّغهم النبي ﷺ أحكام الله قالوا : سمعنا وأطعنا فإنها بشارة لهم كما جاءت الروايات

(١) تفسير نور الثقلين : ج١ ص٣٠٥ ح١٢٢١ .

أنّ من ينوي الحسنة اذا لم يعملها كتبت له واحـدة و اذا عملها كتبت له بعشر حسنات [١] .

وعلى ماذكر من معنى الاخفاء فلا وجه للقول بأنّ الآية منسوخة كما ذهب إليه البعض بقوله «لايكلّف الله نفساً إلا وسعها» لأنه لم يتحقق التكليف بغير الوسع و الطاقة حتى ينسخ ، نعم أنّ الآية الثانية بيّنت لنا أنّ الشيء الذي يخفيه العبد أو يخفيه المنافق إنما هو من الامور المقدورة له وليس من الخارج عن وسعته وطاقته.

٥ـ لايخفى على المسلم الغيور البصير أنّ النبي ﷺ قد جعل خاتمة هذه الامور التي طلبها من الله أهمها و أعظمها نفعاً للاسلام والمسلمين وهو قوله : «أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » الكافر هو الذي لايعتقد بهذه الصفات التي وصف الله المؤمنين ، فهـو لايعتقد بالله على حدّ اعتقاد المؤمن الموحـد المعتقد بصفات الله الثبوتية و السلبية، فإيمان المؤمن بالله معناه الاعتقاد القلـبي بأنّ الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد، وأنه هو الخالق الرازق المحيي المميت الذي يبعث الخلق بعد الموت فيجازيهم على أعمالهم، و كذا الايمان بالملائكة الذي هو من الايمان بالغيب حيث جعله من صفات المؤمن المذكورة في أول السورة، و كذا الايمان بالكتب ، وآخر الكتب القرآن الكريم .

وقد ذكرنا معنى الايمان به في الآية (١٧٧) والايمان بالرسل الذين أخبرنا بهم النبي ﷺ وجـاء ذكرهم في القرآن ، وهكذا بالنسبة الى سائر الامـور الاعتقادية ، فإنّ الكافر يخالفه فيها .

و كذا في الواجبات العملية التي هـي من شروط الاسلام و الايمان ، فإنّ الكافر لايعترف بها ، فكلا الفريقين مختلفان في العقائد وفي الأعمال، و كل فريق يريد أن ينشر مبدأه في الأرض فلابدّ من وقوع التخاصم بين الجانبين ، وبالنتيجة تكون الغلبة للمنتصر وتكون له العزة ويكون هو المتصرف في الأرض حتى في نفوس الجانب الآخر وأموالهم وعقائدهم .

---

(١) راجع الوسائل : ج١ ص٣٦ ب٦ ح٦و٧و٨ .

إلاّ أنّ المسلمين لمّا كانوا ملزمين بامور معيّنة منزلة على نبيهم من الله فهم منزهون من الظلم والاعتداء، ومع ذلك هم مكلّفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفع مادة الفساد من الأرض ، ومكلّفون بإرشاد الضالّ الى الطريق المستقيم ، و لا يمكنهم القيام بهذه الامور مع كون الغلبة و القوة و الشوكة للكافرين .

ولأجل كل هذه الفوائد ولأجل التمكن من القيام بواجبهم جعل النبي ﷺ خاتمة طلباته من الله قوله : «أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » فإنّ الله لمّا كلّف المسلمين بهذه الامور ولم يتمكن العبد من القيام بها إلا بمعونة الله ومساعدته لكون الامور كلّها بيده قدّم النبي ﷺ الاعتراف من نفسه وعن امّته بالعبودية لله فقال : «أنت مولانا » ثم طلب منه المعونة والنصر على القوم الكافرين .

وحيث إنّ النصر على العدو تارةً يكون بالغلبه عليه في الحرب ، وتارةً يكون بظهور القوة و الشوكة والتمكن من تنفيذ الأوامر الحقة وإقامة العدل والضرب على يد الظالم وردعه عن الظلم ونصرة المظلوم والأخذ له بحقه .

وبعد ما عرفت ذلك انظر الى جواب الله لهذا الطلب و تأمّل فيه جيداً فإنك ستعرف بأنّ الله قد أعطى نبيه النصر بجميع المعاني ، فقد قال له في الجواب: إنّ امّتك في الأرض كالشامة البيضاء في الثور الأسود، وهم القادرون، وهم القاهرون يستخدمون ولا يُستخدمون لكرامتك عليّ، وحق عليّ أن اظهر دينك على الأديان حتى لا يبقى في شرق الأرض وغربها دين إلا دينك ، أو يؤدون الى أهل دينك الجزية [1] .

أيها المسلم ، انظر الى هذه الكلمات التي بين يديك لتعرف ما أعطى الله محمداً ﷺ في امّته، إنه وعده وعداً مطلقاً غير معلّق على شرط أو مقيّد بقيد ، وعده

(١) الاحتجاج : ج١ ص٢١٠ .

أن يجعل امّته على قلّتهم قادرين على نشر تعاليم الاسلام وبثّ دينه في عواصم الكفر، وعده أن يجعل امّته قاهرة لسائر الامم وإن كانوا أضعافهم في العدة، والعدد وعده أن يبقى دينه في شرق الأرض وغربها ، وعده بأن تؤدي سائر الامم الى امّته الجزية ، فهل تدري من هم امّة محمد ؟ إنهم المسلمون الذين يقولون كما يقول محمد صلى الله عليه وآله : « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يقبل هدية من كافر، أمّا الذي يطأطىء رأسه للكافر ويخدمه بنفسه وبسائر من معه ، فهل يعدّ نفسه من المؤمنين ويريد من الله النصر والتأييد؟ وبعد هذا اوجه الخطاب و النداء الى ملوك ورؤساء الحكومات الاسلامية فأقول :

ما هذا الضعف في الامّة الاسلامية ؟ وماهذا الوهن؟ وما هذا الذل ؟ وما هذا التلاعب بها من الكافرين أعداء الاسلام ؟

إنّ أسباب ذلك كثيرة ، فمنها : التنافس بين الامم الاسلامية وتقاطع بعضها لبعض ، وهذا الشتم والقذف من بعضها لبعض ، وهذا الخضوع من بعضها للحكومات الأجنبية الكافرة .

ومن الأسباب : التجاهر بهذه المنكرات من الخمر والميسر و الربا والرشوة و الزنا و أخذ أموال الناس بالباطل . فهل ترى مع هذه الأعمال إسلاماً صحيحاً ؟

إنّ المسؤولية في حدوث هذه المنكرات إنما هي على الملوك و الرؤساء والمالكين لأزمّة الحكم ، و الممسكين بكراسي الأمر والنهي ، فلو أنهم أطاعوا الله والرسول بقدر إطاعتهم للكافر المستعمر لأنجز لهم الله وعده و لجعل لهم الأمر و النهي ، وسوف يأتي من الآيات الكثيرة الدالّة على أنّ من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فهو من الكافرين .

خاتمة

في تعيين الطريق الذي يتحقق به السمع والطاعة

لقد تحقق مما تقدم أنّ صفات المؤمنين التي ذكرها النبي صلى الله عليه وآله تتحقق كلها

في السمع والطاعة ، و إنما يتحقق السمع والطاعة بالنسبة الى الأمر الصادر من الله وهو الذي يريده الله من العبد، وأما اذا كان العبد هو الذي يختار بعض الأفعال الموافقة لهواه ويفعلها ثم يقول كما أخبر الله عنه : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون»[1] فهذا لا يثمر سوى الوبال .

فإنّ الأمر أول ماينزل من السماء الى الأرض إنما ينزل على الرسول فيكون الرسول هو المكلّف بإثبات كون الخبر الواصل إليه من الله، فالملك الذي ينزل بالوحي أول الأمر يحتاج الى معجزة تثبت كونه مبعوثاً من الله وإلا فالنبي يحتمل كون هذا الذي جاءه شيطاناً يلقي إليه هذا الكلام ، ولا يتيقن أنه ملك إلا بالمعجزة ، والنبي إنما يكون مصدقاً عند امّته بالمعجزة أيضاً . وبعد هاتين المرحلتين تكون الأحكام التي يأمر بها النبي متيقنة أنها من الله. فكل أمر أو نهي سمعه المكلّف من النبي يقطع أنه أمر الله ونهيه .

أمّا بعد ارتحال النبي ﷺ من الدنيا فالأحكام المذكورة في الآيات القرآنية اذا كانت من المحكمات يأخذ بها المكلّف، وبعد ذلك فالأحكام التي تكون متواترة عن النبي يرويها كل الصحابة أو جلّهم .

وأمّا غير ذلك مما يحتاجه المكلّف أو يبتلى به من الامور التي تحدث تدريجاً فمن أين يأخذ حكمها ؟ وهنا لابدّ من الرجوع الى أعلم الأصحاب بآيات القرآن وبسنّة النبي بشرط أن يكون موثوقاً في النفوس، مأموناً من الكذب ومن الخطأ والسهو و النسيان ، هذا هو أقرب الطرق الى الوصول لأحكام الله الحقيقية ، و لقد دلّت الآيات والأخبار على أنّ المتصف بهذه الصفات هو علي بن أبي طالب عليه السلام .

فقد روى الشيخ العلّامة فقيه الحرمين مفتي العراقين الكنجي الشافعي في

---

(١) الاعراف : ٢٨ .

كتابه «كفاية الطالب» رواية تنص على أن علياً عليه السلام عنده من القرآن علم الظاهر والباطن وفيما يلي نصّها :

عن عبدالله بن مسعود قال : إن القرآن انزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وأن علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن(١).

وحكى في حلية الأولياء لأبي نعيم مثله (٢) .

ثم ذكر الكنجي بعد هذا عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله لكل نبي وصي فمن وصيك ؟ فسكت عني، فلما كان بعد رآني قال :يا سلمان ، فأسرعت إليه ، فقلت : لبيك ، قال : تعلم من وصي موسى ؟ قلت : نعم يوشع بن نون، قال: لم؟ قلت: لأنه كان أعلمهم يومئذ، قال: فإن وصيي وموضع سري وخير من أترك بعدي ينجز عدتي ويقضي ديني علي بن أبي طالب (٣) .

و حكي عن الطبراني في معجمه الكبير في ترجمة أبي سعيد عن سلمان مثله (٤) .

---

(١) كفاية الطالب: ص٢٩٢ ب٧٤ .

(٢) حلية الاولياء : ج١ ص٦٥ .

(٣) كفاية الطالب : ص٢٩٢ ب٧٤ .

(٤) راجع مجمع الزوائد : ج٩ ص١١٣ .

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب و اخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا و ما يذكر الا اولوا الالباب (٧).

لقد أطال المفسرون الكلام في هذه الآية الشريفة، و كثر الخلاف بينهم من جهات شتى، فمنها: كلامهم في معنى المحكم و المتشابه. ومنها: كلامهم في معنى التأويل. ومنها : كلامهم في معنى كون المحكمات ام الكتاب . ومنها : كلامهم في أن الواو في قوله تعالى: «**والراسخون فى العلم**» هل أنها واو العطف أو أنها للاستئناف.

و ينبغي لنا قبل الكلام في هذه الامور أن نعرف أن هذه الآية هل هي من المحكمات أو أنها من المتشابهات؟ ومما لاريب فيه أن الآية الشريفة إنما هي في مقام أحكام وإفهام لا في مقام إجمال وإبهام، فالقول بأنها من المتشابهات لا يناسب المقام، فإن الآية نزلت لبيان أن الآيات القرآنية منها محكمات و منها متشابهات ،

ولبيان أنّ الذي في قلبه زيغ يتعلّق بالمتشابهات لأجل فتنة الناس ولأجل تأويلها لما يناسب هواه وأغراضه الفاسدة، ولبيان تأويل القرآن وإنما يعلمه الله والراسخون في العلم، ومن أراد تأويله الصحيح ينبغي له الرجوع الى الراسخين في العلم. والآية تريد إفهام هذه الامور لعامة الناس.

فلو قلنا: إنّ الآية متشابهة لا يمكننا أن نحتجّ بها على من في قلبه زيغ، فإنه يتشبه بما يوافق هواه، فالكلام يقع في امور:

الأول: في معرفة المحكم والمتشابه. أمّا المحكم فقد اتفق المفسرون بأنه الذي احكمت ألفاظه بأن حفظت من الاجمال و الاشتباه و علم المراد منه، فإنّ عبارات المفسرين وإن اختلفت في تعريفه إلا أنّ المعنى واحد.

وأمّا المتشابهات فقد عرّفها المفسرون بتعاريف مختلفة، وأخصر عبارة جامعة في تعريفها هي قول الامام الصادق عليه السلام حيث سئل عن المحكم والمتشابه فقال: المحكم ما يعمل به و المتشابه ما اشتبه على جاهله [١].

ولذا فسرها بعض أكابر المفسرين بقوله «متشابهات» محتملات لا يعلم المراد منها إلا بالرجوع الى الراسخين في العلم، فإنّ أغلب المفسرين يرجع تفسيرهم للمتشابهات الى هذا المعنى وهو عدم العلم بالمراد من ظاهر اللفظ، ولا يعرف المراد إلا بعد البحث والتنقيب أو الرجوع الى الراسخين في العلم [٢].

الأمر الثاني: في معنى الامّ التي وصف الله بها المحكمات في قوله: **«منه آيات محكمات هن ام الكتاب»**. فقد اتفق المفسرون على أنّ الامّ هنا بمعنى الأصل الذي يرجع إليه الاشتباه [٣].

فقد تحصّل مما ذكر أنّ الآيات القرآنية منها محكمات ومنها متشابهات وأنّ المتشابهات لا يجوز الأخذ بظاهرها إلا بعد إرجاعها الى المحكمات، وأنّ

---

(١) تفسير البرهان: ج١ ص٢٧١.

(٢) تفسير المراغي: ج٣ ص ١٠٠.

(٣) مجمع البيان: ج٢ ص٤٠٩.

إرجاع المتشابه الى المحكم لايتمكن منه إلا الراسخون في العلم ، و حيث إنّ سائر الناس لايمكنهم الأخذ من الله فيلزمهم أن يأخذوا من الراسخين في العلم المستمدين من الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله.

الأمر الثالث : هل أنّ قوله تعالى ، « والراسخون في العلم » معطوف على لفظ الجلالة أو أنّ الواو للاستئناف ؟

لقد ذهب أكثر مفسري الامامية الى القول بالعطف [1] ، وذهب أكثر المفسرين من غيرهم القول بالاستئناف [2] .

أمّا مفسرو غيرهم لمّا كان من رأيهم ومبدئهم عدم وجود رجال متصفين بهذه الصفة ـ أي لايوجد في امّة محمّد صلى الله عليه وآله من يكون عالماً بجميع العلوم وهو مع ذلك معصوم من كل عيب يكون في البشر ـ اختاروا القول بالاستئناف، إذ القول بالعطف يستلزم وجود الراسخين، وهم لايرون من يصلح لهذا المنصب في امّة محمّد صلى الله عليه وآله .

وأمّا القائلين بالعطف فإنهم يرون وجوب وجود هؤلاء الأشخاص من الراسخين في العلم ، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنّة والعقل والوجدان. فقولهم بالعطف الموافق لاصول القواعد العربية لايلزمهم منه محذور .

وهنا ينبغي التنبيه على امور :

الأول: أنّ اتباع المتشابه أمر اختياري يختاره من ساءت نيّته وخبثت سريرته ولذا ذمّه الله تعالى ووصفه بأنه زائغ القلب وأنه يمكن الوصول الى المعنى المراد منه بالبحث و التنقيب و الرجوع الى الراسخين ، ويدلّ عليه تعريف الامام الصادق عليه السلام للمتشابه بقوله : « ما اشتبه على جاهله» ومثله جملة من الأخبار .

ويدلّ عليه أيضاً قول الامام الرضا عليه السلام :من ردّ متشابه القرآن الى محكمه هدي الى صراط مستقيم [3] فإنه يدلّ على أنّ الردّ أمر ممكن لكل أحد وذلك

(١و٢) مجمع البيان : ج١ ص٤١٠ .
(٣) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٣١٨ ح ٤٤ .

بالرجوع الى الراسخين .

الأمر الثاني : يدل على أن الواو للعطف الروايات الكثيرة نذكر جملة منها هنا :

فمنها : ما ذكره العروسي في تفسيره نور الثقلين عن الامام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «هو الذي أنزل» الى أن يقول عليه السلام في قوله تعالى: «ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»: أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام[1] .

ومنها : في نفس الكتاب ما يحكيه عن الاحتجاج للطوسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه :

ثم إن الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسّم كلامه ثلاثة أقسام :

فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل ، وقسماً لايعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للاسلام ، وقسماً لا يعرفه إلا الله وأنبياؤه والراسخون في العلم. وإنما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علم الكتاب مالم يجعله الله لهم وليقودهم الاضطرار الى الائتمار لمن ولاه أمرهم ، فاستكبروا عن طاعته تعززاً و افتراء على الله واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاند الله جل اسمه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم[2] .

فالرواية ظاهرة في أن قوله: «والراسخون» معطوف على الله ، ويستفاد من الرواية أيضاً الجواب عن السؤال عن سبب اشتمال الكتاب على المتشابه، فإن الظلمة وزائغي القلوب اذا عرفوا جميع ما في القرآن من العلوم بعبارات محكمه تزداد فنونهم في فتنة الناس فيكونون كلهم أبالسة .

ومنها: ما في الكتاب نفسه عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل وفيه يقول:

---

(١) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٣١٢ ح ١٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ١ ص ٣١٣ ح ١٨ .

وقد جعل الله للعلم أهلاً وفرض على العباد طاعتهم بقوله : «و ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » فإنها صريحة في كون الواو عاطفة [١] .

ومنها : ما ذكره العلاّمة المجلسي في البحار باب ما ورد عن أمير المؤمنين في أصناف آيات القرآن ، وهو باب مفصّل يذكر فيه الامام عليه السلام أنواعاً من العلوم ، و مما ذكر فيه أنواعاً من المتشابهات ، الى أن وصل الى ذكر طبقات المؤمنين في درجات الايمان و أنه قابل للزيادة والنقصان ، وأسند ذلك الى الآيات القرآنية ثم قال عليه السلام :

ولن يؤمن بالله إلا من آمن برسوله وحججه في أرضه، قال الله تعالى :«من يطع الرسول فقد أطاع الله » [٢] .

و ما كان الله عزّ وجلّ ليجعل لجوارح الانسان إماماً في جسده ينفي عنها الشكوك ، ويثبت لها اليقين وهو القلب ، و يهمل ذلك في الحجج وهو قوله تعالى : «فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» [٣] وقال : «لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » [٤] و قال تعالى : « أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » [٥] وقال سبحانه: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمـّا صبروا» [٦].

ثم فرض الله على الامّة طاعة ولاة أمره القوّم بدينه كما فرض عليهم طاعة رسوله صلى الله عليه وآله فقال : «أطيعوا الله و أطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » [٧] .

ثم بيـّن محل ولاة أمره من أهل العلم بتأويل كتابه فقال عزّ وجلّ : « و لو ردوه الى الرسول و الى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه

(١) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٣١٥ ح ٢٥ .
(٢) النساء : ٨٠ .
(٣) الانعام : ١٤٩ .
(٤) النساء : ١٦٥ .
(٥) المائدة : ١٩ .
(٦) السجدة : ٢٤ .
(٧) النساء : ٥٩ .

منهم »[١] وعجز كل أحد من الناس من معرفة تأويل كتابه غيرهم ، لأنهم هم الراسخون في العلم المأمونون على تأويل التنزيل، قال تعالى: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » الى آخر الآية . وقال سبحانه : بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم»[٢] [٣] .

فهذه العبارة من أمير المؤمنين عليه السلام صريحة في كون الواو للعطف ، وإنما ذكرنا العبارة بطولها لتكون حجة على من لم يعتبر ضرورة وجود الامام المؤتمن على العلوم الالهية ، ويدعي أنّ النبي أهمل امّته ولم يعيّن لهم من يرشدهم لأحكام دينهم .

أمّا الامامية فيقرون ويعترفون بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عيّن لامّته اثني عشر إماماً ليدلّوهم على أحكام دينهم، وهؤلاء عندهم جميع العلوم الدنيوية والاخروية. ويدلّ على ذلك من الكتاب ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام من الآيات في عباراته المتقدمة .

وأمّا ما يدلّ عليه من السنّة فالأخبار الدالّة على أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كثيرة ، و قد ذكرنا جملة منها في تفسير آخر آية من سورة البقرة قبل هذه الآية في ص٢٣٨، ونذكر هنا روايات اخر تدلّ على كون علي عليه السلام هو أعلم الامّة بعد النبي صلى الله عليه وآله .

منها: ماذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير عند الكلام في قوله تعالى: «إنّ الله اصطفى آدم نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين [٤] وعند التعرض لذكر الحواس الباطنة قال : ومنها الذكاء ، قال علي عليه السلام : علّمني رسول الله (ص) ألف

---

(١) النساء : ٨٣ .
(٢) العنكبوت : ٤٩ .
(٣) بحار الانوار : ج ٩٣ ص ٥٧ ب ١٢٨ ح ١ .
(٤) آل عمران : ٣٣ .

باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب. فإذا كان حال الولي هكذا فكيف حال النبي (ص)؟ [1] انتهى كلام الفخر الرازي.

وقد ذكر هذه الرواية كثير من المفسرين فينبغي للانسان الفاهم أن يتأمّل و يتدبّر فيما يلقى به ربه من العمل، هل يأخذ من هذا العالم أو يأخذه ممن لاعلم له؟ «هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون»[2].

ثم إنّ الفخر الرازي قد ذكر تحقيقاً دقيقا لطيفاً في هذه الآية سوف يذكر عند الوصول إليها فإنه نافع لمن كان له قلب سليم.

ومنها: ما في الاستيعاب، روى بسنده عن عبدالله بن العباس قال: والله لقد اعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، و ايم الله لقد شاركـكم في العشر العاشر[3].

ومنها: ما ذكره المنّاوي في فيض القدير، قال النبي (ص): علي عيبة علمي. والعيبة ـ بفتح العين المهملة ـ: ماتجعل فيه الثياب كالصندوق، والعيبة من الرجل: موضع سره.

وقال في الشرح: قال ابن دريد: هـذا من كلامه الموجز الذي لم يسبق ضرب المثل به في إرادة اختصاصه بالامور الباطنة التي لايطّلع عليها أحد غيره، و ذلك غاية في مـدح علي عليه السلام، فقد كانـت ضمائر أعدائه منطوية على اعتقاد تعظيمه[4].

نداء لذوى الالباب

أيها المسلم اللبيب المنصف، هل سمعت أنّ النبي علّم أحداً من أصحابه ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب، فصار عدد أبواب العلم لدى الامام باصطلاح

(١) تفسير الرازى: ج ٨ ص ٢١.
(٢) الزمر: ٩.
(٣) الاستيعاب (المطبوع بهامش الاصابة): ج ٣ ص ٤٠.
(٤) فيض القدير: ج ٤ ص ٣٥٦.

العصر الحاضر مليون باباً ؟

يا ذوي الألباب، أتترکون هذه الأبواب المفتحة المنيرة اللواتي يتفجر منها العلم والحكمة ، و تتمسكون بباب مرتج ليس وراؤه إلا الظلمة ؟ فتمسكوا بهذه الأبواب من قبل أن يضرب بينها وبينكم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

وهنا نذكر لك نبذة من كلام المؤرخ الصدوق المسعودي في كتابه «إثبات الوصية» حيث قال:

واختلف المهاجرون والأنصار ، فقالت الأنصار : منّا أمير و منكم أمير . فقال قوم من المهاجرين : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : الخلافة في قريش . فسلّمت الأنصار لقريش بعد أن ديس سعد بن عبادة ووطأوا بطنه ، و بايع عمر بن الخطاب أبا بكر وصفق على يديه ، ثم بايعه قوم ممن قدم المدينة ذلك الوقت من الأعراب والمؤلّفة قلوبهم، وتابعهم على ذلك غيرهم ، واتصل الخبر بأمير المؤمنين بعد فراغه من غسل رسول الله ﷺ وتحنيطه وتكفينه وتجهيزه ودفنه بعد الصلاة عليه مع من حضر من بني هاشم وقوم من الصحابة كسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وحذيفة وابي بن كعب وجماعة نحو أربعين رجلاً ، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن كانت الامامة في قريش فأنا أحقّ قريش بها ، وإن لم تكن في قريش فالأنصار على دعواهم. ثم اعتزلهم ودخل بيته فأقام فيه ومن اتبعه من المسلمين وقال:

إنّ لي في خمسة من النبيين اسوة : نوح إذ قال : «إني مغلوب فانتصر »[1]، وإبراهيم إذ قال : «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله»[2]، ولوط إذ قال: «لو أنّ لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد»[3] ، وموسى إذ قال : «ففررت منكم لما

(١) القمر : ١٠ . (٢) مريم : ٤٨ .
(٣) هود : ٨٠ .

خفتكم»[1]، وهارون إذ قال: «إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني»[2].

ثم ألّف عليه السلام القرآن وخرج الى الناس وقد حمله في إزار معه وهو ينط من تحته، فقال لهم: هذا كتاب الله قد ألّفته كما أمرني وأوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله كما انزل، فقال له بعضهم: اتركه وامض، فقال لهم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فإن قبلتموه فاقبلوني معه أحكم بينكم بما فيه من أحكام الله، فقالوا: لاحاجة لنا فيه ولافيك، فانصرف به معك لاتفارقه ولا يفارقك، فانصرف عنهم.

فأقام أمير المؤمنين عليه السلام ومن معه من شيعته في منزله بما عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، فتوجهوا الى منزله فهجموا عليه وأحرقوا بابه واستخرجوه منه كرهاً[3].

وبعد هذا نقول لمن يجعل الواو للاستئناف: إنّ الآيات المتشابهات في القرآن كثيرة، وهي تتعلّق بالعبادات والمعاملات وغيرها، وإنّ كثيراً من الناس يحتاجون إليها، فعلى من يعولون ولمن يلجأون؟ وإنّ زائغي القلوب كل يفسرها بما يطابق هواه وما تشتهيه نفسه، ويلزم على المؤمنين أن يتركوها على ما هي عليه من الاجمال، فما الفائدة إذاً من إنزالها؟ وماالذي يستفاد منها سوى تشبث ذوي القلوب الزائغة بها، وهذا القول مخالف للعقل فلاينبغي أن يصار اليه.

وأمّا الدليل على ما يعتقده القائلون بوجوب وجود عالم بجميع علوم النبي عقلاً فإنّ دليلهم من العقل هو أنّ الامّة كما أنها محتاجة الى الرسل في طاعة الله كذلك محتاجة الى الوصي والخليفة، وليس اضطرارهم مختصاً بوقت دون آخر، ولابحالة دون اخرى، ولايكفي وجود الكتاب والسنّة في رفع الحاجة بين

---

(١) الشعراء: ٢١.

(٢) الاعراف: ١٥٠.

(٣) اثبات الوصية: ص ١٢٣

الامّة ، فإنّ كل طائفة تستند الى الظاهر من بعض الآيات على مبدئها الذي ذهبت إليه . فالكتاب وحده لا يكفي لرفع التخاصم لما عرفت من أنّ فيه المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمجمل والمؤول وغيرها من الأقسام ، والسنّة كذلك فيها المحكم والمتشابه وغيرها مع جهل أكثر الناس بمعاني الألفاظ وتشتت أهوائهم وزيغ قلوبهم ، فلا ينكر ضرورة وجود الوصي إلّا مكابر .

ثم إنّ عقيدة كل مسلم : أنّ الله أوجب على نفسه اللطف بعباده ، ولاريب أنّ وجود الامام العالم في كل زمان لطف ، إذ بوجوده يجتمع الشمل وينتصف من القوي للضعيف ، ومن الغني للفقير ، ويرتدع الجاهل ويتيقظ الغافل ، وبدونه تتعطل أكثر أحكام الدين وأركان الاسلام .

واعتقادنا : أنّ الله لايفعل بعباده إلا ما هو الأصلح لهم ، ولا ريب أنّ نصب الامام العالم العادل هو الأصلح ، إذ بوجوده ينتظم أمر المعاش والمعاد والدين والدنيا ، وبدونه تختلّ جميع هذه الامور ويفسد نظام الدين والدنيا .

ثم إنه قد انفق أكثر علماء الامّة بأنّ عادة الله قد جرت في جميع الأنبياء من آدم عليه‌السلام الى محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه لم يقبض نبياً حتى يعيّن له خليفة ووصياً يقوم مقامه في إرشاد امّته وتعليمهم أحكامه . وجرت عادة نبينا صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه متى سافر عيّن خليفة في المدينة. وعلى ذلك جرت الرؤساء والوزراء والولاة والتجار وسائر الناس . فكيف يمكن لعاقل أن ينسب لأشرف النبيين وأفضل المرسلين تخلّفه عن هذه السنّة مع أنّ شريعته باقية الى يوم القيامة ؟

ولايمكن أن يقال: إنّ الامّة هي التي تعيّن خليفة يقوم بهذه الامور لأنّ الذي يقوم مقام النبي يلزمه أن يكون عالماً بجميع علوم النبي بحيث لا تعسر عليه مسألة من امور الدين والدنيا، وهذا الشخص لا يعرفه ولا يشخّصه إلا الله ورسوله.

ولو أغضينا عن هذا فكيف يمكن أن يؤخذ آراء جميع الامّة مع تفرقها في البلاد وبعدها الشاسع بعضها عن بعض ؟ ومن الذي يتولى جمع آرائهم ؟ ولو فرضنا

إمكان ذلك فكيف يمكن اتفاقها على رجل واحد جامع للصفات المؤهلة له لهذا المنصب الجليل مع ما نرى من اختلاف أهل بلدة واحدة على اختيار رئيس للبلد أو اختيار مختار للمحلّة ؟ و قد ينجر ـ بل و كثيراً ما ينجر ـ ذلك الى التخاصم والشتم أو التضارب بالأيدي أو بالسلاح القتّال فيذهب ضحية الاختيار والانتخاب جملة من النفوس. هذه في اختيار المختار فكيف في اختيار الرئيس لعامة المسلمين في أقطار الأرض شرقها وغربها سهلها وجبلها برها وبحرها بدوها وحضرها ؟

ثم إنّ الذي يجعل رئيساً عاماً وهو المعبّر عنه بالامام لا يمكن أن يكون من سائر الناس بل يلزم أن يكون معصوماً من سائر العيوب التي تكون في الناس من قبيل الخطأ والنسيان، وعدم معرفته بعض الأحكام، أو الميل في الحكم الى من يحبه من قرابة أو صديق، بل وإنّ العصمة لمّا كانت من الصفات الباطنية فلذا لا يطّلع عليها إلا العالم بالسرائر والضمائر .

ولا يمكن أن يعيّن الامام إلا الله تعالى، وليس في العالم كله من يمكن أن يقال بعصمته وجامعيته للعلوم و إرثه لعلوم النبي غير علي بن أبي طالب وباقي الأئمة من ذريته عليهم السلام ، و يكفينا في هذا المقام رواية واحدة يرويها أحد العلماء فإنها تكفي لطالب الحق .

ذكر سماحة العلّامة الكبير المجاهد الشيخ محمد مرعي الأمين الأنطاكي في كتابه « لماذا اخترت مذهب الشيعة » تحت عنوان : قول النبي صلى الله عليه وآله : هذا علي أخي وخليفتي ووارث علمي، قال : روى الترمذي الحنفي في الكوكب الدري عن عمران قال : لمّا عقد رسول الله (ص) المؤاخاة بين أصحابه قال : هذا علي أخي في الدنيا والآخرة وخليفتي في أهلي ووصيي في امّتي ووارث علمي وقاضي ديني ، ماله مني ومالي منه ، نفعه نفعي وضره ضري ، من أحبّه فقد أحبّني ومن أبغضه فقد أبغضني .

وأخرج القندوزي الحنفي في ينابيعه ص ٣٥١ نحوه [1] انتهى كلامه .

و عن القندوزي الحنفي في ينابيعه عن ابن المغازلي الشافعي بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : لمّا صرت بين يدي ربي كلّمني و ناجاني فما علمت شيئاً إلا علّمته علياً فهو باب علمي [2].

وقد ذكرنا أنّ الأدلة على معتقد من يقول بإمامة الائمة الاثني عشر هي: الكتاب والسنّة والعقل والوجدان .

وقد تقدم ذكر الكتاب والسنّة والعقل ، وبقي الوجدان وهو ما يراه أهل العلم والفهم من العلوم الصادرة منهم على كثرتها وتنوعها ، فإنّ لكل واحد من الأئمة عليه السلام ما نقله المؤرخون عنهم من أنواع العلوم ، وقد نقلوا عنهم من فنون العلم مامملأ بطون الكتب والدفاتر ، وألّفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة ، فإنّ المنصف اذا نظر الى نهج البلاغة وعرف ما فيه من الكلام في أنواع العلوم يكفيه ذلك إن كان من أهل العلم ، أمّا اذا كان لايعرف شيئاً من معاني خطبه ورسائله وحكمه المذكورة في النهج فلا عتب عليه ولايفيدنا اعترافه .

وكذا بالنسبة الى بقية الأئمة عليهم السلام فلينظر طالب الرشد تراجمهم وما نقل عنهم من العلوم ، منها توحيد المفضل والملحق به المسمى بالاهليلجة .

ياطالب الرشد ، انظر الى كتاب قضاء أمير المؤمنين عليه السلام ومافيه من عجائب القضايا التي تبهر العقول ، انظر الى القضايا التي لم يهتد الى حلّها الخلفاء الثلاثة الذين تقدموه ، ثم بعد الحيرة رجعوا إليه فحلّها لهم من غير تأمل وتوقف بأسرع من طرفة عين ، وأنّ هذه المسائل التي اضطرّ الخلفاء الى مراجعة علي بن أبي طالب عليه السلام فيها إنما هي حجة من الله على سائر الخلق ، الحاضر منهم في ذلك العصر والمتأخر عنهم ، لاسيما العارف منهم منزلة العلم فليس له مجال لانكار تقدمه في

---

(١) لماذا اخترت مذهب الشيعة : ص٣١٦ .

(٢) ينابيع المودة : ج ١ ص٦٨ ب ١٤ .

العلم الموجب لتقدمه في الخلافة .

يا طالب الرشد ، إنّ الله قد أوضح لك الرشد في كتابه قال : «قد تبيّن الرشد من الغي» [١] وفسر ذلك النبي ﷺ في أقواله وخطبه فقال : ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به [٢] و أنّ العقل السليم يحكم حكماً باتاً بأن الاصول الاعتقادية يلزم أن يؤخذ من منبع يقيني لا يتطرقه الشكّ كالآيات القرآنية وأقوال النبي الجلية الواضحة .

أمّا بالنسبة الى الآية المجملة المتشابهة أو كلام النبي ﷺ المجمل فيلزم أن يفسره لك أحد الراسخين في العلم أو باب مدينة العلم حتى لا يبقى لك شكّ فيه ، وأنّ باب المدينة اذا فتحت تفتح طبعاً الى الداخل فتكون راسخة في العلم فيكون الباب عين الراسخ في العلم ومنه تؤخذ العلوم ، فلامجال للأخذ من غيره، فمن أخذ من غير هذين الطرفين يلزم أن يسنده الى الله أو الى الرسول ، فإنّ الله سوف يسأله عن حجته في ذلك ، فإن كان له جواب يدلّ على أخذه من الله أو الرسول فهو المطلوب ، و إلا فليس أمامك شيء تجيب به الله إلا أحد أمرين لاغيرهما :

الأول : أن تقول : إنا وجدنا آباءنا على هذه الطريقة فاقتدينا بهم، و قد أشار الله تعالى في القرآن الى بطلان هذا الجواب وعدم الاستفادة منه لقوله تعالى « قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على امّة وإنا على آثارهم مقتدون» [٣] .

ثم بيّن الله سخافة هذا القول بأنّ الانسان ليس له أن يتخيّر الطريقة التي يعبد الله بها، وأنّ الله هو الذي يختار لعباده ماهو الأصلح، وأنّ العبد اذا كان كان مشفقاً على نفسه ينبغي له أن يرضى بما اختاره الله له ، فقد بيّن الله بطلان جوابهم ءى

(١) البقرة : ٢٥٦ .
(٢) الكافي : ج ٢ ص ٧٤ ح ٢ .
(٣) الزخرف : ٢٣ .

لسان رسوله بقوله : «قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما ارسلتم به كافرون »[١] .

يا طالب الرشد ، أتعرف الطريقة التي هي أهدى مما وجدت عليه آباءك ؟ أنا اعرّفك بها : هي الطريقة الموافقة للكتاب والسنّة والعقل و الوجدان ، و هي التي كتب فيها العلماء آلافاً من الكتب الاستدلالية المشتمله على الحجج القوية المأخوذة من الكتاب والسنّة ، ومع جميع هذه الكتب يقول لهم ظالم نفسه : إنا بما جئتم به كافرون ، ولقد قالوا هذه الكلمة لامام العلماء وهو أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام كما ذكرت لك قبل قليل في ص ٢٤٧ عن كتاب إثباب الوصية أنّ علي بن أبي طالب ألّف القرآن وخرج الى الناس وقد حمله في إزار معه و هو ينط من تحته ، فقال لهم : هذا كتاب الله قد ألّفته كما أمرني وأوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله كما انزل ، فقال له بعضهم: اتركه وامض، فقال لهم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. فإن قبلتموه فاقبلوني معه أحكم بينكم بما فيه من أحكام الله، فقالوا: لاحاجة لنا فيه ولا فيك فانصرف به معك لاتفارقه ولايفارقك ...[٢] .

انظر الى هذا الكلام وانظر الى الآية الشريفة « قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بماارسلتم به كافرون» فإنّ كلامهم هذا مطابق لمضمون الآية ، فلا ينفع جواباً يوم الحساب .

وأمّا الجواب الثاني: هو الذي حكاه الله عمن يخالف الطريق الذي عيّنه الله ورسوله للامّة ويسلك طريقاً مخالفاً للقرآن والسنّة، فإذا سأله الله يوم الحساب عن السبب الذي دعاه للخلاف يجيبه بعد أن يتمنى أنه لو أطاع الله والرسول بقوله : «يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا »[٣]. ولكن التمني لاينفع ولايجدي فإنه طلب

---

(١) الزخرف : ٢٤ .

(٢) اثبات الوصية : ص ١٢٣ .

(٣) الاحزاب : ٦٦

ما لاطمع في وقوعه ، ثم يقولون كما أخبرالله عنهم «وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا»[١] .

يا طالب الرشد ، إنّ الذي يخالف أوامر الله مرة يكون داعية الهوى والنفس والشيطان بحيث يترك أمر الله ولا يفعل شيئاً آخر، ومرة اخرى يكون الترك لأجل أن يكون عمله مخالفاً لأمر الله فيأخذ بأمر سيده وكبيره الذي لم يجعل الله سيداً ولا كبيراً، وإنما صار سيداً وكبيراً بالقوة والقهر، فهذا الذي يطيعه ويعمل بأمره لا يكون سبب مخالفته الهوى والشهوة وإنما خلافه العناد لله ومشاقة لله، ولذا يتمنى في ذلك اليوم أن يكون قد أطاع الله.

فهذه الآية تنبيه لكل من يتخذ سيداً أو أميراً غير منصوب من الله وغير منصوص عليه من رسول الله ﷺ ، وهذا أمر يعرفه العالم العارف بالكتاب والسنّة ، فإنه يميّز بين الصالح للامارة وغير الصالح، ويلزمه إرشاد الناس والعوام الى الصالح لها وردعهم عمن لا يصلح ، فإذا أمرهم على متابعة غير الصالح فقد أضلّهم وأعماهم ، فيكون هو من الكبراء المتبَعين والمتبِعين (بالفتح والكسر).هذا بالنسبة الى العصور السابقة حيث كانت الامّية غالبة على الناس وليس لهم مجال إلا التقليد الأعمى في الاصول والفروع .

أمّا بالنسبة الى العصر الحاضر فقد كثرت فيه المدارس وعمّ التعليم وتثقف الرجال والنساء ، فكل واحد عليه أن يفحص ويفتش عن امور دينه وما يلزمه من الطريقة التي يتبعها ، فلا يكفيه أن يرى أباه سائراً على طريق فيسير فيه أو متخذاً طريقة خاصة فيتبع تلك الطريقة .

وقد أصبح الشباب يعرف ويميّز المعقول والمنقول، ويعرف الصحيح من السقيم، والحق من الباطل، فعليه أن يرجع الى سيرة النبي ﷺ ويدرس أقواله وأفعاله من الكتب المعتبرة الصحيحة الصادقة التي يعترف بها جميع علماء الامّة ، فيعرف

(١) الاحزاب : ٦٧ .

بماذا كلّفه نبيه ؟ وهل جعل نفسه وصياً وخليفةً يرجع الناس إليه اذا التبست عليهم الامور ؟

و على الشباب أن يراجعوا كتب كل فرقة فيطّلعوا على أدلّتهم وحججهم فيما اختاروا من تقديمهم من قدموا في الخلافة ، وهل يجوز بحكم العقل والنقل أن يقدم المفضول و يجعل زمام الحكم بيده ويترك العالم بجميع الامــور جليس داره مع كونه جامعاً لجميع الفضائل والصفات الموجبـة للتقديم من علم وزهد وكرم وحلم وشجاعة وعبادة وغيرها وغيرها ؟

ثم إنّ الله عزّ وجلّ قد أخبر هـذا القسم من الناس وهم الذين يختارون رجلاً من سائر الناس مهما كان من الجلالة والعظمة والجاه والمال فيجعلونه أميراً عليهم و يسمّونه خليفة رسول الله و أمير المؤمنين ، و لكنه ليس منصوباً من الله ورسوله. فقد حكى عنهم عند وقوفهم بين يديه أو عند دخولهم النار كما هـو صريح الآية ، فإنهم أولاً يبدون ندمهم وتأسفهم على عدم إطاعة الله ورسوله «يوم تقلّب وجوهم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » .

ثم يقدمون العذر الواهن البارد والسخيف الى الله ظناً أنه ينفعهم : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا» فإذا رأوا أنّ هذا العذر لا ينفعهم شيئاً ولا يخفف العذاب شيئاً حينئذ يطلبون أن يضاعف العذاب على هؤلاء السادات والكبراء حيث كانوا السبب في إضلالهم: «ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً»[1].

ولمّا علموا أنّ المتبوع كان على خلاف الحق وأنّ أتباعهم له أيضاً على خلاف الحق طلبوا من الله أن يضاعف عليهم العذاب وأن يلعن هذا الكبير بزعمه لعناً كبيراً ليناسب الجزاء صفته الباطلة المزعومة ، فهـو يزعم أنه كبير وأتباعه يزعمون أنه كبير ، ولذا يطلبون من الله أن يلعنهم لعناً كبيراً .

و لعلّ القارىء يستغرب من ما ذكرنا جعل العاصي التارك لأمر الله من

---

(١) الاحزاب : ٦٨ .

جملة الكافرين ويقول: إنّ الموحد اذا عصى الله وترك بعض أوامره لايكون كافراً.

فنقول له:

إنّ بعض المعاصي إذا صدرت من العبد تخرجه من زمرة المؤمنين وتجعله من الكافرين، وقد ذكر ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر أصناف آيات القرآن، قال في بيان أنواع المتشابهات:

وأمّا الكفر المذكور في كتاب الله تعالى فخمسة وجوه:

منها: كفر الجحود، و هو ينقسم على وجهين. و منها: كفر الترك لما أمر الله تعالى به. ومنها: كفر البراءة. ومنها: كفر النعم.

أمّا كفر الجحود فأحد الوجهين منه جحود الوحدانية، وهو قول من يقول لاربّ ولا جنة ولا نار ولابعث ولانشور، و هؤلاء صنف من الزنادقة و صنف من الدهرية الذين يقولون «و ما يهلكنا إلا الدهر»، و ذلك رأي وضعوه لأنفسهم استحسنوه بغير حجة فقال الله تعالى: «إن هم إلا يظنون»[1].

وقال: «إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون»[2] أي: لايؤمنون بتوحيد الله.

و الوجه الآخر من الجحود هو الجحود مع المعرفة بحقيقته، قال تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً»[3].

وقال سبحانه: «و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»[4] أي: جحدوه بعد أن عرفوا.

وأمّا الوجه الثالث من الكفر فهو كفر الترك لما أمرهم الله به وهو من المعاصي، قال الله سبحانه وتعالى: «واذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم و لا

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) البقرة: ٩.

(٣) النمل: ١٤.

(٤) البقرة: ٨٩.

تخرجون أنفسكم من ديار كم ثم أقررتم وأنتم تشهدون» الى قوله: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»[١] فكانوا كفاراً لتركهم ما أمر الله تعالى به، فنسبهم الى الايمان بإقرارهم بألسنتهم على الظاهر دون الباطن، فلم ينفعهم ذلك بقوله تعالى: «فماجزاء من يفعل ذلك منهم إلا خزي في الحياة الدنيا»[٢] الى آخر الآية.

وأمّا الوجه الرابع من الكفر فهو ماحكاه الله في قول إبراهيم عليه السلام: «كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده»[٣] فقوله: «كفرنا بكم» أي: تبرأنا منكم.

وقال سبحانه وتعالى: في قصة إبليس وتبرئه من الانس يوم القيامة: «إني كفرت مما أشركتمون من قبل»[٤] أي: تبرأت منكم.

وقوله تعالى: «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً»[٥] الآية.

وأمّا الوجه الخامس من الكفر وهو كفر النعم فإنّ الله تعالى حكى عن قول سليمان: «هذا من فضل ربي أشكر أم أكفر»[٦].

وقوله عزّ وجلّ: «لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد»[٧].

وقال تعالى: «فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون»[٨] انتهى

---

(١) البقرة: ٨٤ و٨٥.
(٢) البقرة: ٨٥.
(٣) الممتحنة: ٤.
(٤) ابراهيم: ٢٢.
(٥) العنكبوت: ٢٥.
(٦) النمل: ٤٠.
(٧) ابراهيم: ٧.
(٨) البقرة: ١٥٢.

محل الحاجة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام [1].

وبعد اطّلاع القارىء عليه يتضح له أنّ بعض المعاصي توجب دخول العاصي في زمرة الكافرين.

تحقيق دقيق في كلمتين من الآية وهما في قوله تعالى: «والراسخون في العلم» الأول في معنى الرسوخ، والثاني في المقصود من العلم اذا اطلق كما في الآية.

أما معنى الرسوخ: فقد اتفق أهل اللغة و أهل التفسير على أنّ معنى الرسوخ هو الثبوت أو أشدّ الثبوت بحيث لا يمكن أن يزول عن مكانه من ذات نفسه إلا أن يزيله الذي أرسخه أو من يساويه في القدرة، فيقال: رسخ الحبر في الصحيفة [2]، فالصحيفة اذا حفظت من الطوارىء والأحداث والآفات لا يزول عنها الحبر إلا أن يزيله المرسخ و الكاتب أو من يساويه، أو الخالق للجميع: المرسخ والراسخ والمرسوخ فيه، كما في الصحيفة التي علّقتها قريش في الكعبة حين بعث الله عليها الارضة فأزال حبرها. فكل شيء يكون زواله ممكناً لا يقال له راسخاً كالعلم الذي يحصل بالتعلّم، فإنه قابل للزوال بالنسيان دفعةً أو تدريجاً اذا تركه صاحبه.

ثم اذا حصل إنسان في آخر عمره على شيء من العلم مدة سنة أوسنتين أو ثلاثاً، أو ربع عمره أو ثلثه أو نصفه فهل يسمّى راسخاً؟ أو أنّ الذي يطلق عليه لفظ الراسخ يشترط أن يكون راسخاً من أول إدراكه ورشده بل من زمن طفولته بل حين تولّده، يكون عاقلاً يتكلّم بالحكمة كما تكلّم إبراهيم وموسى ويحيى وعيسى والنبي محمد صلى الله عليه وآله، بل يكون علمه حين وجوده في بطن امّه كما هو منقول عن الأنبياء.

و عن الامام علي عليه السلام أنه كان يمنع امّه من الدخول من الباب التي نصبت عليها الأصنام، وكان يكلّمها حتى أنّ أخاه جعفراً سمع يوماً كلامه فغشي عليه [3].

---

(١) بحار الانوار: ج ٩٣ ص ٦٠ ب ١٢٨ قطعة من حديث ١.

(٢) لسان العرب: ج ٣ ص ١٨ مادة «رسخ».

(٣) بحار الانوار: ج ٣٥ ص ١٧ ب ١ ح ١٤.

فالرسوخ إنما يطلق على من كان متصفاً فيه من أول وجوده ، أمّا الذي قضى كل عمره أو أكثره جاهلاً لايعرف شيئاً، أو قضى عمره في عبادة الأصنام ثم حصل على بعض العلوم اكتسبها من الرجال فهذا لايسمّى راسخاً .

ذكر في سفينة البحار أنّ الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم العاملي قال : الراسخ في اللغة هو اللازم الذي لايزول عن حاله ، ولا يكون كذلك إلا من طبع الله تعالى على علم في ابتداء نشوئه كعيسى عليه السلام في وقت ولادته « قال إني عبدالله آتاني الكتاب »[1] الآية. وأمّا من بقى السنين الكثيرة لايعلم ثم يطلب العلم فيناله من جهة غيره على قدر ما يجوز أن يناله منه فليس ذلك من الراسخين . يقال : رسخت عروق الشجر في الأرض ولا يرسخ إلا صغيراً .

والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام ما نقل عن واحد منهم أنه قعد عند معلّم ولاتردد الى فقيه ولا الى محدّث ، فعلم الله تعالى أنّ المبطل يقول : كل واحد منهم تعلّم من أبيه ، فقبض الله تعالى الرضا عليه السلام ولولده الجواد عليه السلام ثمان سنين، وقبض الجواد ولولده الهادي عليه السلام ثمان سنين ومع هذا لم يقصرا عن علم آبائهما، ولاترددا الى معلّم و لا فقيه و لا أخذا عن أحد شيئاً من العلم بل كان علمهم عليهم السلام إفاضة من الله تعالى .

وكذلك علم أمير المؤمنين عليه السلام ما يخلو من أن يكون إفاضة من الله بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله. فسرى ذلك في ولده ،أو أنّ النبي أطلعه على أسرار وعلوم ما أطلع عليها غيره من القرابة والصحابة ، وكلا الوجهين يدلّان على فضل عظيم وخطر جسيم[2] انتهى .

ثم إنّ الرسوخ ـ وهو الثبوت اللازم الذي لايزول ـ يحتاج تحققه الى موضوع ومحمول، فكل مورد اذا أردنا أن يعرب عن رسوخ شيء في شيء لابدّ وأن نذكر

(١) مريم : ٣٠ .
(٢) سفينة البحار: ج١ ص٥٢٠ .

الراسخ والمرسوخ فيه .

فإذا أردنا أن نعرّف شخصاً أو نخبر بعدم زوال علمه ينبغي أن نقول: إنّ علم فلان راسخ في صدره أو في قلبه ، أو نقول : فلان راسخ العلم بالاضافة .

أمّا الرجال الذين اختصهم الله بالعلم فقد جعلهم راسخين في العلم لأنّ العلم راسخ في صدورهم ، ولا يخفى ما في هذا التعبير من العظمة إذ الفرق بين التعبيرين بعيد ، فإنّ الذي يرد عليه العلم اذا لم يعمل به يكون زواله أسهل شيء كما ذكره الله تعالى في قصة بلعم بن باعورا بقوله : «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان »[١] .

أمّا إذا كانت الذات هي الواردة على العلم الراسخة فيه فانغمست فيه غمساً فهذه قد انكشفت لها الحقائق، إذ العلم لا يكون في صدره فقط وإنما يكون محيطاً به من جميع جوانبه، ويكون نظره بقلبه كنظره بعينه بل أشدّ من ذلك .وقد ذكر ذلك أمير المؤمنين علي بن أبى طالب عليه السلام بقوله : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً[٢] .

وحكي عن كتاب المحاسن والمساوىء قال: وروي أنّ عدي بن حاتم دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال : أين الطرفات؟ ـ يعني طريفاً وطارفاً وطرفة ـ قال : قتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب عليه السلام . فقال : ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قدّم بنيك وأخّر بنيه، قال: بل ما أنصفت أنا علياً إذ قُتل وبقيت، قال: صف لي علياً ، فقال : إن رأيت أن تعفيني ، قال: لأعفيك ، قال :

كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول عدلاً ويحكم فصلاً، تتفجر الحكمة من جوانبه و العلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا و زهرتها و يستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة، يحاسب نفسه اذا خلا يقلّب كفيه

(١) الاعراف: ١٧٥.
(٢) شرح مائة كلمة: ص ٥٢ .

على ما مضى ، يعجبه من اللباس القصير ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا اذا سألناه ويدنينا اذا أتيناه ، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلّمه لهيبته ، ولا نرفع أعيننا اليه لعظمته ... الخ [1] .

انظر الى هذا العبد الصالح الذي نوّر الله قلبه كيف عرّف معنى الراسخين في العلم فوصفه في قوله : تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه .

ويمكن أن تكون الآية التي قبل هذه الآية و هي قوله تعالى : «هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم» [2] فيها الاشارة الى إرساخ هؤلاء الرجال في العلم والحكمة و هم في بطون امّهاتهم، لأنّ الكيف يشمل جميع الصفات ولا يختصّ بالصور الظاهرية .

هذا ما يتعلّق بكلمة الرسوخ ، وأما بالنسبة الى كلمة العلم فإنّ لفظ العلم اذا أطلقه الله الخالق للعلم فإنّ الذي يسبق الى الذهن ويتبادر من الاطلاق هو كل علم موجود في الدنيا حين نزول الآية أو وجد بعد ذلك فإنّ الله إنما خلق أصناف العلوم لينفع بها الناس ، ولابدّ أن يتوصل إليه بعض الناس أو يلهمهم الله إيّاه لكي ينفعوا بها البشر .

فإذا تأمّلنا في لفظ العلم الوارد في قوله تعالى: «والراسخون في العلم » نراه يشمل جميع العلوم ولا يخصّ علماً واحداً ولا يخصّ العلوم التي تخصّ الشريعة أو الدين وإنما يعمّ العلوم الدنيوية والاخروية ،وأنّ العقل ليحكم بلزوم وجود مثل هؤلاء الرجال الحاوين للعلوم كافة ، وإلا فلا فائدة في خلقها وإيجادها لو بقيت مستورة عن البشر .

وليس في امّة محمد صلى الله عليه وآله من قبل في جمعهم لهذه العلوم إلا الأئمة الاثناعشر عليهم السلام الذين قالت طائفة من الامّة بإمامتهم، لأنها قد رأت منهم الخوض والبحث في جميع

---

(١) المحاسن والمساوىء: ص ٤٦ .

(٢) آل عمران: ٦

العلوم التي كانت العقول تقبلها في زمانهم ولهم كلمات تشير الى العلوم التي حدثت في العصور المتأخرة عنهم كقول علي بن أبي طالب عليه السلام: لو شئت لجعلت لكم من الماء ناراً .

يقول بعض من شرح هذه الكلمة وهـو محمد أحمد مهدي في كتابه « القرآن والناس، محمد والناس ، علي و الناس » من جملة كلامه : لقد توفق علماء الغرب الى الكشف عن مغالق الكلمة التي أزجاها الامام منذ ألف ونيف من السنين ، بأن اطلعوا على العالم بعد جهد مرير وغوص بعيد بنتائج القنبلة الذرية التي حيّرت الأفكار وملأتها إعجاباً فكانت اعجوبة القرن العشرين .

و لقد أوضحوا أنّ أجزاء الماء مكونة من عناصر مختلفة كالايدروجين ـ بمشتقاته الثلاث حالياً ـ والاوكسجين وما الى ذلك.

وإليك مايقرره أحد اولئك العلماء إذ يقول : إنّ تحطيم ذرات ملء فنجان شاي من الماء يمدّ محطة توليد كهربائية قوتها مائة ألف كيلووات بالقوة المحركة لها لمدة عام[1] انتهى محل الحاجة من الكتاب المذكور .

و كم لعلي عليه السلام مثل هذه الكلمة ؟ و كم له من كلمات حكمة ؟ و كم له من خطب و مواعظ ؟ و كم أُلّف فيه من كتاب .

فقد ظهر مما ذكر أنّ الراسخين في العلم هم الذين لم يقتصر علمهم ببعض العلوم دون بعض ولم يعجزوا عن بعض العلوم ، بل كل علم لديهم واضح جلي كعلم أجهل الناس بطلوع الشمس مالم يكن أعمى العينين ، وهم الذين عناهم الله بقوله : «والراسخون في العلم» الذين يعلمون تأويل القرآن الذي فيه علم ما كان ومايكون.

وقد تحصّل من هذه الآية الامور التالية:

١ ـ أنّ الآيات القرآنية على قسمين: منها محكمات، ومنها متشابهات.

---

(١) القرآن والناس : ص٣٦ .

٢ ـ أنّ المحكمات هنّ الأصل الذي يلزم الرجوع إليه في معرفة مايراد من المتشابهات.

٣ ـ أنّ الذي يرجع المتشابه الى المحكم ويخبرنا بالمراد منه هم الراسخون في العلم ويلزم الرجوع إليهم .

٤ ـ أنّ الذي يتبع المتشابه باجتهاده ويؤوله على مايشتهيه هواه بلا رجوع الى أهل العلم هو زائغ القلب بصريح القول.

٥ـ الذي تحقق من هذه الامور الأربعة ومن قوله تعالى: «هنّ امّ الكتاب» أنّ كل تفسير وتأويل للآيات المتشابهات اذا لم يرجع الى آية محكمة فهو باطل لاعبرة فيه ولا يعتمد عليه و لايمكن الاستدلال به على شيء، ولذا ترى الأئمة الاثني عشر عليهم السلام قد أوصوا الناس بأنّ كل ماجاءكم منا فاعرضوه على القرآن، فإن كان موافقاً فخذوا به وإلّا فردوه الى الذي جاءكم به .

فالآية الشريفة تحكم ببطلان كل استدلال واحتجاج بآية متشابهة ما لم يكن مستنداً على آية محكمة، وبعبارة أخصر وأصرح : إنّ الله عزّ وجلّ أمر عباده أن يأخذوا أحكام دينهم من القرآن ، أمّا الحكم المبيّن في آية محكمة فيعرفه أهل اللسان و لايحتاج الى من يفسره ويؤوله ، و أمّا الحكم الذي يكون في آية متشابهة فيلزم الرجوع فيه الى أهل العلم، وهم الذين دلّ الله عليهم بقوله: «والراسخون في العلم» فلايجوز لأحد من الامّة أن يجزم بحكم يأخذه من آية متشابهة إلا بالرجوع الى أهل العلم .

وقد دلّنا النبي صلى الله عليه وآله على أهل العلم الراسخين فيه بقوله: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض[1] . وقد عرّفنا النبي صلى الله عليه وآله أنّ الكتاب لايفارقهم وهم لايفارقوه حتى يردا على النبي حوضه. فمن أخذ بواحد وترك الآخر فقد تركهما معاً ولاينتفع بالكتاب وحده

---

(١) راجع بحار الانوار: ج ٢٣ ص١٠٤ ب٧ .

لأنهم هم المفروضون له. ولا تكفي الآيات المحكمة لامور الدين إذ أنّ الكثير من أحكام الدين في الآيات المتشابهة، فإن أخذ منها برأيه هلك وإن تركها بقي ناقص الدين، وإن أخذ بقول غير الراسخين كان في الآخرة من أهل الجواب الثاني الذي تقدم عن قريب وهم الذين يقولون: «ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراء فأضلّونا السبيلا»[1] فقد تعيّن على المؤمن أن يأخذ أحكام دينه ممن نصّ عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وثبتت عصمتهم بإجماع أهل العلم وبالتواتر وبآية التطهير وغيرها من الآيات.

و روى الصدوق باسناده الى سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ وأكتبها بخطي وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ودعا الله عزّ وجلّ لي أن يعلّمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ فكتبته، وما ترك شيئاً علّمه الله عزّ وجلّ من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي، وما كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا علّمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً[2] والحديث طويل.

بقي شيء يتعلّق بما نحن فيه وهو أنّ الذي يُعلم من الآية بأنّ الناس ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم الراسخون في العلم،وقد ذكرهم الله ووصفهم بما يستحقونه من الوصف.

ويقابل أهل العلم طبعاً غير أهل العلم وهم قسمان: الأول: هم أهل القلوب الزائغة وهم الذين يتبعون المتشابهات،وقد مرّ ذكرهم أيضاً. والقسم الثاني من غير أهل العلم: هم أهل الدين والصلاح والتقوى وهم المتبعون لأهل العلم في أقوالهم وأفعالهم، المتباعدون عن زائغي القلوب، و هذا القسم لم يذكر في الآية صريحاً

(١) الاحزاب: ٦٧.
(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ج ١ ص ٢٨٤ ح٣٧.

ثم إنّ قوله تعالى: «يقولون آمنا به... الخ» إمّا أن تكون جملة حالية من الراسخين على القول بكون الواو عاطفة، أو أنها خبر على القول بالاستئناف. وأهل التفسير لم يذكروا غير هذين الوجهين، فمن قال بالعطف جعل الجملة حالاً من الراسخين، ومن لم يقل بالعطف جعلها خبراً للراسخين.

ولكن يمكن أن تكون الجملة خبراً عن القسم الثالث من الناس الذي لم تذكره الآية صريحاً كما جاء ذلك في نور الثقلين عن علي بن محمد عن عبد الله بن علي عن إبراهيم بن إسحاق عن عبدالله بن حماد عن بريد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام في قول الله عزّ وجلّ: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» فرسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم قد علّمه الله عزّ وجلّ جميع ما انزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله، و الذين لا يعلمون تأويله اذا قال العالم فيهم بعلم [1] فأجابهم الله بقوله: «**يقولون آمنا به كل من عند ربنا**» والقرآن خاصّ وعام ومحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ، فالراسخون بالعلم يعلمونه [2].

فعلى هذا يكون قوله تعالى: «**وما يذكر الا اولوا الالباب**» إمّا مدحاً للراسخين وهو دون مدحهم بالرسوخ بالعلم فإنّ الرسوخ بالعلم يشمل جميع الصفات، وإمّا مدحاً للتابعين لهم المقتدين بهم وهو فوق مدحهم بالاقتداء والاعتقاد بأنّ الكل من عند الله، وهكذا يكون ذو اللب وذو العقل فإنه يطلب رضا الله عزّ وجلّ ولا يمكنه الوصول الى حقيقة الرضا إلا باتباع العالم بجميع العلوم والأحكام، أمّا الذي يمتنع من اتباع العالم فهو لايبالي أوصل الى رضا الله أو لم يصل.

ثم لو كان القول والتصديق والايمان بأنّ كلاًّ من المحكم والمتشابه هو من

(١) قال الفيض ـ رحمه الله ـ: المراد بالذين لايعلمون تأويله: الشيعة اذا قال العالم فيهم يعني الراسخ في العلم الذي بين أظهرهم.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٣١٧ ح ٣٥.

عند الله، لو كان هو قول الراسخين في العلم فلا منافاة بين قولهم هذا و رسوخهم من العلم لأنّ الله مختصّ بعلم أشياء لا يعلمها العباد كالعلم بوقت الساعة ،والعلم بحقيقة الروح وغيرها، فهم خاضعون لله في كل وقت، خاشعون له على كل حال، وهذا الخضوع والخشوع والعبادة والذلّة لله هي التي رفعتهم وصعدت بهم الى درجة الرسوخ في العلم.

ثم إنّ الآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» (1) إمّا أن يكون من قول الراسخين في العلم فإنهم قد فزعوا الى ربهم لما تفتحت عيون قلوبهم ونظروا الى زائغي القلوب فرأوهم يخبطون في الظلام، ويحملون على ظهورهم الأوزار والآثام ويفسدون أمر دنياهم و اخراهم ، وهم منغمسون في دار الغرور و معرضون عن دار النعيم والحبور ، طلبوا من الله أن لا يكونوا مثلهم فقالوا: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» أي: يا خالقنا ومالك أمرنا ومن بيده توفيقنا وخذلاننا لا تخذلنا وتسلب عنا لطفك وتوفيقك بسوء أعمالنا فتزيغ قلوبنا وتنحرف عن الحقّ والاستقامة فنكون كهؤلاء القوم الذين عرّفتنا بهم و بزيغ قلوبهم نبتغي الفتنة بالتلاعب بتأويل القرآن والاعراض عن الراسخين في العلم ، كل ذلك رغبة في إشباع شهواتهم الدنيوية وإرضاء نفوسهم الشريرة الخبيثة.

ثم إنا نقول لهم: هبوا أنّ الواو ليست عاطفة وأنّ الله وحده مختصّ بتأويل القرآن ومعرفة المقصود من الآيات المتشابهات، وهبوا أنّ الله أنزل الآيات المتشابهات لتكون محفوظة بين الدفتين ولم يكلّف العباد العمل بها، ولكن أما علمتم من هذه الآية أنّ لله عباداً راسخين في العلم؟ ولماذا خلق هؤلاء العباد وأفاض عليهم هذه العلوم؟ فهل أمرهم أن يجلسوا في دورهم ويغلقوا عليهم الأبواب ولا يعلّمون الناس مما عندهم من العلم؟ أو أمركم الله يا أهل القلوب الزائغة أن تتركوا أهل العلم

(1) آل عمران : ٨ .

وتقاطعوهم ولا تطلبوا ما عندهم من العلم ؟

كلاّ إنّ هذه الآية الشريفة هي أكبر حجة على العباد سواءً جعلوا الواو عاطفة أو استئنافية، حيث علموا بصريح الكلام أنّ جماعة من عباد الله هم راسخون في العلم ، و أنّ العقل هو الرسول الباطني يحكم حكماً قطعياً بوجوب الفحص عن هؤلاء الرجال و تحصيل طريق الرشد منهم حتى تخلص نفسك من طريق الغي وقلبك من الزيغ فافحص عن الراسخين في العلم وخذ بما أمروك به من طريق الرشد، فإنّ الله قد جعلهم في الأرض لا في السماء و في الدنيا لا في الآخرة. وأفاض عليهم هذه العلوم لينتفع بها عباد الله و وصفهم بهذا الوصف الجليل العظيم و هو عبارة مركّبة من كلمتين: (راسخون في العلم) ، ولكن لو أراد أحد أن يشرح هاتين الكلمتين يلزمه أن يعدد العلوم التي وجدت و حدثت في الدنيا من أول خلق الدنيا الى أن تقوم الساعة، هذا إضافة الى علوم الآخرة وإضافة الى العلوم التي لم يتوصل إليها البشر .

فياصاحب العقل السليم ، راجع عقلك فانظر لما نشروه من العلم تعرف منزلتهم ومقامهم، ولا تهمل نفسك وعقلك هذا القول من كلام الراسخين في العلم.

و أمّا إذا كان من كلام غيرهم وهم القسم الثالث من الناس وهم الذين اتبعوا الراسخين واهتدوا بهداهم واتبعوا آثارهم وعرفوا منزلتهم، فهو منهم طلب من الله أن لا يجعلهم مثل زائغي القلوب المتلاعبين بالدين التاركين لرجال العلم الذين ذكرهم الله وأرشدوا العباد الى متابعتهم .

فعن الكافي فيما يرويه عن الكاظم عليه السلام في حديث هشام : ياهشام إنّ الله قد حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» حين علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود الى عماها ورداها، أنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلا من كان قوله

لفعله مصدقاً، وسره علانيته موافقاً، لأن الله تعالى لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه[1].

تأمّل جيداً أيها العاقل في هذا الحديث لكي تعرف أن الأحكام الشرعية التي كلّف الله عباده بها يلزم أن تكون مأخوذة عمن يسندها الى الله ويستمدها من الله، فالنبي يأتيه الحكم من الله وقد أودع الأحكام عند وصيه علي بن أبي طالب، وعلي أودعها عند الامام والوصي بعده، وهكذا كل يودعها عند الآخر من الراسخين بالعلم، فلا تكن من زائغي القلوب الذين يبتغون الفتنة.

وروي عن الامام الصادق عليه السلام قال: أكثروا من أن تقولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ولا تأمنوا الزيغ[2].

ايقاظ

إن من الواضح أن العلماء تختلف درجاتهم ومنزلتهم باختلاف ما عندهم من العلم كثرة وقلّة، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً[3].

وعلى هذا تكون درجات العلماء مختلفة، فبعضهم عندهم علم واحد وبعضهم عندهم علمان وهكذا، فيقال فلان عالم بالنحو، وفلان عالم بالصرف، وفلان عالم باللغة، وفلان عالم بالكلام، وفلان عالم بالمعقول والمنقول. فاذا انتهت النوبة الى العالم بجميع العلوم يقال له: عالم بقول مطلق من غير نسبة الى بعض العلوم، وهو الذي نوه عنه النبي صلى الله عليه وآله بقوله: أعلم الناس من جمع علم الناس الى علمه[4].

ثم إن كل عالم من أي الطبقات كان إمّا أن يكون متصفاً بالايمان وإمّا أن لا يكون متصفاً به، فإذا كان عالماً غير مؤمن فهذا لا ينفعه علمه إلا في الدنيا الفانية

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٨ قطعة من حديث ١٢.

(٢) تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٧٢.

(٣و٤) بحار الانوار: ج ١ ص ١٦٣ ب١ ح ١.

ولا يقربه علمه الى الله، فإنّ أفضل العلوم وأشرفها هو المقرب الى الله عزّ وجلّ.

وقد ذمّ الله هذا القسم من العلماء وتوعدهم بالعذاب بقوله: «فلمّا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده»[1].

وهذا منطبق على أهل العصر الحاضر تماماً، فترى عديم الايمان عالماً أو جاهلاً اذا كلّمته بشيء من امور الدين يجيبك منكراً عليك قائلاً: إنّ العلماء قد صنعوا القنبلة الذرية والصاروخ وسفينة الفضاء وأنتم بعد على عقلكم القديم؟!

فلا يخفى أنّ الانسان مهما تطور وتقدم وحصل على علوم مهمة فإنّ الله لا يرفع عنه التكليف في الواجبات، ولا يرخصه في ارتكاب المحرمات، وأمّا العالم المتصف بالايمان فهو الذي قد حصل خير الدنيا والآخرة، فالعالم في جميع الامور والمؤمن بالله حقّ الايمان هو الذي يحكم العقل والنقل بوجوب تقدمه على سائر الناس، وهو المرشد لسائر طبقات البشر في امورهم الدنيوية والاخروية، ولا يجوز لغيره التقدم عليه، فإذا تقدم عليه فهو ظالم، وكل من ساعده وأعانه فهو شريكه في الظلم.

روي في تحف العقول عن الصادق عليه السلام قال: من دعا الناس الى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال[2].

وقد مدح الله هذه الجماعة التي رزقت العلم والايمان في مقامات من القرآن فيها قوله في سورة الروم «وقال الذين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون»[3].

وقال تعالى في سورة المجادلة: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات»[4].

---

(١) غافر: ٨٣ و ٨٤.

(٢) تحف العقول: ص ٣٧٥.

(٣) الروم: ٥٦. (٤) المجادلة: ١١.

حيث قررت الآية الاولى أنّ كلامهم هو الحق المطابق للواقع، وأخبر في الآية الثانية أنه قد رفع درجاتهم فوق جميع الدرجات.

فلا شبهة ولا ريب في حكم العقل والعرف والشرع أنّ أعلم الناس في سائر أنواع العلم يجب أن يكون هو المقدم في تولية امور الناس، و المقصود من أعلم الناس في سائر العلوم هو الذي اذا تكلّم الناس في أيّ علم من العلوم تراه هو المبرز فيه، وحجته تكون أعلى الحجج، ولا يتمكن أحد من العلماء على دحض حجته وإبطال كلامه.

وبعد هذه المقدمة هل يتصور أحد أويقدر أن يعبّر عن هذا الشخص الذي فرضناه أعلم الناس في جميع العلوم؟ هل يتمكن أحد أن يصف هذا الشخص بوصف يكون وافياً بالدلالة على مقامه العلمي بعبارة تشبه أو تقرب من قول الله تعالى بما وصفهم الله به بكلمتين هما قوله: «والراسخون في العلم»؟ ثم هل أنّ الله سبحانه وصف رجالاً موهومين لا وجود لهم في الخارج، وقرنهم بنفسه في وصفهم بمعرفة تأويل القرآن، أو أنهم موجودون ومتصفون بهذه الصفة و هي العلم بالتأويل؟

ثم إني اوجه السؤال الى أهل العلم وأهل الحكمة وأهل المعرفة من سائر فرق المسلمين فأسألهم: هل أنهم بحثوا أو فحصوا من يوم نزول الآية الى يومنا هذا عن هؤلاء الرجال الذين وصفهم الله حتى يحصلوا على شيء من علومهم؟ حيث إنّ الله يقول: «واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون»[1]؟ أما خطر في أذهانهم أن يتعرفوا على هؤلاء الرجال؟ أو أنهم بحثوا أوسألوا فلم يعرفوهم؟ أو أنهم عرفوهم فأخفوا ذكرهم لأغراض دنيوية (طبعاً)؟ و ما قدر الدنيا بأجمعها في جنب هذا الأمر العظيم؟ أما يتصور ذوالعقل أنّ القرآن فيه علوم الأولين والآخرين؟ وأنّ الذين يمكّنهم استخراج هذه العلوم هم الذين نوه الله عنهم بقوله: «الراسخون في العلم». فلو عرفهم وانتفع بعلومهم لظفر بخير الدنيا والآخرة، أمامع تضييعهم

(١) الانبياء : ٧ .

وإهمال معرفتهم، أو إخفاء ذكرهم بعد معرفتهم، كل ذلك طمعاً في شيء من حطام الدنيا فهذ ليس من اختيار العاقل.

هذا السؤال موجّه الى أهل العلم من سائر الفرق، أمّا بعض الفرق فقد ادعى معرفتهم، فيلزم بقية الفرق مطالبته بالدليل ليعرف صوابه من خطئه، فإنهم يدعون أنهم عرفوهم وميزوهم وشخصوهم وتمسكوا بهم واغترفوا من علومهم، عرّفهم بهم رسول الله ﷺ وعرّفهم بهم كثرة علومهم التي يعجز عنها جميع البشر، وهم أنفسهم ـ أي «الراسخون في العلم» ـ عرّفوا الناس بأنفسهم، وليس تعريفهم لأنفسهم مجرد دعوى بل قرنوا التعريف بأدلة وحجج قوية، وأظهروا من علوم القرآن ما يعجز الناس عن عشر معشاره.

أمّا تعريف النبي ﷺ لهم فمن أظهر موارده قوله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن تضلّوا ما إن تمسكتم بهما وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض [(١)].

هذا الحديث الشريف ليس في صدوره عن النبي شبهة ولا ريب، فإنّ كل من كتب عن النبي ﷺ ذكر هذا الحديث من جميع فرق المسلمين، وأمّا معناه ومفاده فهو واضح جلي غير متشابه، ولا يحمل، وليس فيه غموض ولا خفاء، وليس لمدته التي أمرنا بها غاية ولا انقطاع، بل جعل النبي ﷺ هذين الأمرين حجة، وأمرنا بالتمسك بهما من حين ارتحاله من الدنيا الى وقت ورود الحوض عليه. فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يعمل عملاً من امور الدين أو الدنيا إلا بعد موافقة هذين الأمرين اللذين أمرنا بالتمسك بهما، وحيث إنّ الكتاب لا يمكن لكل أحد أن يستخرج الحكم منه جعل النبي ﷺ العترة هي التي تستخرج منه الأحكام، ولذا جعلها ملازمة له فقال: لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. وقد جعل النبي ﷺ التمسك بهما موجباً وسبباً للهدى وعدم الضلال، وهذه عبارة واضحة

---

(١) راجع بحار الانوار: ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧.

جلية لا تحتاج أن يفسرها لك عالم ديني أو عالم لغوي .

فيا أيها الشباب المتنور ، إنك تعرف كل شيء بحمدالله في هذا العصر فلماذا تفوتك هذه العبارة والجملة القصيرة ذات الفائدة الجليلة، هذا أمر إن تمسكت به كنت من المهتدين المؤمنين، وإن تركته كنت من الضالين «لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما» فكّر بها قليلاً ستهتدي إن شاءالله تعالى فإنها واضحة.

هذه كلمة واحدة من كلمات النبي صلى الله عليه وآله في تعريف الراسخين في العلم وهناك كثير مثلها يعجز القلم عن حصرها وعدّها.

وأمّا التعريف بهم من ناحية كثرة علومهم فإنّ من له أدنى إلمام وأقلّ معرفة بالعلوم فإنه يدرك هذا الأمر.

أمّا بالنسبة الى أولهم وهو الامام علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّ المسائل التي وجّهت الى أبي بكر و عمر وعثمان وعجزوا عن الجواب عنها والتجأوا إليه في الاجابة فأجاب بسهولة عنها فهو كافٍ في التميز .

وأمّا ما ذكره في نهج البلاغة من العلوم فهو وحده كافٍ.

وأمّا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في أنه عنده جميع العلوم كما في الصحاح الستة فهو وحده كافٍ .

وأمّا قوله عليه السلام: علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب[1] فهو وحده كافٍ في الموضوع .

وأمّا اعتراف الصحابة بكثرة علمه كأبي بكر وعمر وابن عباس وابن عمر وسلمان وأبي ذر وغيرهم فهو كافٍ في الموضوع .

وأمّا ما ذكره هو في بعض المناسبات وهو الصادق المصدق كقوله : سلوني قبل أن تفقدوني . . . . الخ[2] فهو كافٍ في الموضوع، هذا بالنسبة الى أول الأئمة.

---

(١) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح١٣ .

(٢) الارشاد : ص ٢٣ .

وأمّا بالنسبة للباقي وهم بقية الاثنا عشر الذين نوه عنهم النبي صلى الله عليه وآله وذكر أسماءهم فهم كذلك فيما صدر منهم من العلوم .

انظر الى ما صدر عن الامام الصادق عليه السلام حيث إنه لم يكن مضيقاً عليه في ذلك الوقت فإنه صدر عنه في جميع العلوم الأحاديث الكثيرة ، انظر الى توحيد المفضّل ومافيه من العلوم،استمع لمايقوله أبو حنيفة. حكي عن مسند أبي حنيفة: قال الحسن بن زياد : سمعت أباحنيفة وقد سئل من أفقه من رأيت؟قال: جعفر بن محمد ، لمّا أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: ياأباحنيفة إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمدفهيّىء له من مسائلك الشداد. فهيئت له أربعين مسأله، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة، فأتيته فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه، فلمّا بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر مالم يدخلني لأبي جعفر، فسلّمت عليه فأومأ إليّ فجلست . ثم التفت إليه فقال : يا أباعبدالله هذا أبو حنيفة ، قال : نعم أعرفه، ثم التفت إليّ فقال: ياأبا جنيفة: ألق على أبي عبدالله من مسائلك ، فجعلت ألقي عليه فيجيبني ، فيقول : أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا، فربما تابعناكم وربما تابعناهم وربما خالفنا جميعاً ، حتى أتيت على الأربعين مسألةفما أخلّ منها بشيء ، ثم قال أبو حنيفة : أليس أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟[1] انتهى.

فهذه شهادة منأبي حنيفة أنّ الامامالصادق هو أفقه الناس.

قال الشبلنجي في نور الأبصار: وفي حياة الحيوان الكبرى فائدة، قال ابن قتيبة في كتاب أدب الكاتب ما نصه : و كتاب الجفر كتبه ، الامام جعفر الصادق ابن محمد الباقر ـ رضي الله عنهما ـ فيه كلّ مايحتاجون علمه الى يوم القيامة ، والى هذا الجفرأشار أبو العلاء المعري بقوله :

---

(١) المناقب لابن شهراشوب : ج ٤ ص ٣٥٥ نقلا عن مسند أبي حنيفة .

لقد عجبوا لآل البيت لمّا أتاهم علمهم في جلد جفر
و مرآة المنجم وهي صغرى تريه كل عامرة و قفر[١]

وقال الشبلنجي في نور الأبصار أيضاً عند ذكر مناقب الامام الصادق عليه السلام قال: و مناقبه كثيرة تكاد تفوت عدّ الحاسب ويحار في أنواعها فهم اليقظ الكاتب. روى عنه جماعة من أعيان الأئمة وأعلامهم كيحيى بن سعيد ومالك بن أنس والثوري وابن عيينة وأبي حنيفة وأيوب السختياني وغيرهم[٢].

وقال مالك بن أنس: ما رأت عين ولا سمت اذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادةً وورعاً[٣].

ثم انظر الى ما صدر من الامام الثامن حين جمع له المأمون أهل الأديان وأهل الكلام، كيف غلب الجميع و أقام لهم الأدلة من الآيات القرآنية والسنّة النبوية، فلا تفوتك الفرصة.

انظر الى تاريخ حياتهم واحداً واحدا سوف تعرف الحق، فإذا عرفته فلا تعرض عنه ولاتغمض فيه لأجل شيء من الدنيا، و كن مع الحق أينما كان، فإنّ الدنيا زائلة، فقد روي عن الصادق عليه السلام قوله:

علم المحجة واضح لمريده وأرى القلوب عن المحجة في عمى
و لقد عجبت لهالك و نجاته موجودة ولقد عجبت لمن نجى[٤]

وعن تفسير الثعالبي روى الأصمعي له عليه السلام:

أتأمن بالنفس النفيسة ربها فليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها يشتري الجنات إن أنا بعتها بشيء سواها أنّ ذلكم غبن

(١و٢) نور الابصار: ص١٦٠.
(٣) بحار الانوار: ج ٤٧ ص ٢٠ ب ٢٦ ح ١٦.
(٤) بحار الانوار: ج ٤٧ ص ٢٥ ب ٢٦ ح ٢٠.

اذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها　　　فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن[١]

وينبغي للانسان أن يتأمل في هذه الأبيات الثلاثة ليعرف معناها فإنه عليه السلام يقول: إنّ نفس الانسان نفيسة لا يقدر على دفع ثمنها إلا الله تعالى، فلا ينبغي للانسان أن يبيعها إلا على الله إذ الخلق كلهم لايقدرون على دفع ثمنها ، واذا كان البيع على الله فحسب فلا ينبغي بيعها إلا بالجنة ثمناً فإنها أحسن الأشياء للانسان، فإذا باعها بشيء آخر غير الجنة فهو اذاً مغبون، والعاقل الملتفت لايغبن، فلو أنك ياذا النفس بعت نفسك بشيء من الدنيا أو بالدنيا كلها فاعلم أنك قد خسرت نفسك لأنك بعتها ، والثمن الذي أخذته عوضاً عن نفسك فسوف تخسره أيضاً لأنك ستتركه إذا أتاك الموت، وإن لم تتركه أنت فهو يتركك.

والمقصود من البيع والشراء هنا هو الدين الذي يدين الانسان به ربه ، فإن كان أخذه عن الله وكان بأمر الله وإرشاده وبواسطة من جعله الله واسطة بينه وبين خلقه و أودع عنده جميع الأحكام و العلوم فهذا هو الذي باع نفسه على الله .

أمّا إذا كان آخذاً لدينه من رجال لم يجعلهم الله وسطاء بينه و بين عباده وليس لهم اطلاع بالأحكام الالهية وليس عندهم من العلم إلا ما اكتسبوه من أفواه الرجال ويكون هذا التابع لهم ملتفتاً الى ذلك فقد باع نفسه بالدنيا فسوف تذهب نفسه وتذهب الدنيا فيكون ممن خسر الدنيا والآخرة وهو الخسران المبين.

وأمّا دلالتهم لنا على أنفسهم وأنهم هم الراسخون في العلم وهم الوسطاء بين الله وبين عباده ، وأنهم هم ساسة العباد وأركان البلاد وامناء الرحمن فقد وردت عنهم أحاديث كثيرة بهذا المضمون نذكر منها ما تيسر في هذا الكتاب وبالله نستعين.

الأول: ما ذكر في بحار الأنوار قال إشارة الى كتاب الارشاد: روى ثقات

---

(١) بحار الانوار : ج ٤٧ ص ٢٥ ب ٢٦ ح ٢٦ .

أهل النقل عند العامة والخاصة عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلام افتتاحه :

الحمدلله والصلاة على نبيه صلى الله عليه وآله. أمّا بعد، فذمّتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، إنه لايهيج على التقوى زرع قوم ، ولا يظمأ عنه سنخ أصل ، وإنّ الخير كله في من عرف قدره ، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره ، وإنّ أبغض الخلق عند الله رجل وكّله الى نفسه ، جائر عن قصد السبيل ، مشغوف بكلام بدعة ، قد لهج فيها بالصوم والصلاة ، فهو فتنة لمن افتتن به ، ضالّ عن هدى من كان قبله ، مضلّ لمن اقتدى به ، حمّال خطايا غيره رهين بخطيئته ، قد قمش جهلاً في جهّال غشوه ، غارّ بأغباش الفتنة ، عمي عن الهدى ، قد سمّاه أشباه الناس عالماً ، ولم يغن فيه يوماً سالماً ، بكّر فاستكثر مماقلّ منه خير مما كثر، حتى اذا ارتوى من آجن واستكثر من غير طائل، جلس للناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، إن خالف من سبقه لم يأمن من نقض حكمه من يأتي بعده كفعله بمن كان قبله، وإن نزلت به إحدى المهمات هيّأ لها حشواً من رأيه ثم قطع عليه ، فهو من لبس الشبهات في مثل غزل العنكبوت ، لايدري أصاب أم أخطأ ، ولايرى أنّ من وراء مابلغ مذهباً، إن قاس شيئاً بشيء لم يكذب رأيه ، وإن اظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من نفسه من الجهل والنقص والضرورة كي لايقال إنه لايعلم، ثم أقدم بغير علم، فهو خائض عشوات، ركّاب شبهات، خبّاط جهالات ، لا يعتذر ممالا يعلم فيسلم ، ولا يعضّ في العلم بضرس قاطع فيغنم ، يذري الروايات ذرو الريح الهشيم، تبكي منه المواريث، وتصرخ منه الدماء، ويستهلّ بقضائه الفرج الحرام ، ويحرم به الحلال، لايسلم بإصدار ما عليه ورد ، ولا يندم على ما منه فرط [1].

ثم بعدما أعلمنا بوجود هذا الصنف من الناس وهم الدجالون الذين يجلسون في مجلس القضاء وليسوا من أهله وعلى الناس أن يقاطعوهم ويتركوا مراجعتهم، فإنّ الله يودع العلم عند اناس معدودين فلايتمكن غيرهم أن يحصلوا على هذا

(١) بحار الانوار : ج٢ ص٩٩ ب١٤ ح٥٩، الارشاد : ص ١٢٣ وفيه اختلاف يسير .

العلم فإنّ الله ينقله من واحد الى واحد ممن يختارهم لارشاد العباد، فيلزم على العبد أن يفحص عن هـؤلاء الرجال الذين نوه الله عنهم بقوله : « و الراسخون في العـلم » ليرشدوه الى طريقة الدين التي يريدها الله ويعلّموه أحكام الدين الحقيقية المستمدة من الله .

فينبغي للعاقل أن يفرغ قلبه ويصغي بسمعه لكلام الامام ليدرك مايخاطبه به . بعد المقدمة المذكورة قال عليه السلام بعد كلامه المتقدم :

أيها الناس ، عليكم بالطاعة والمعرفة بمن لا تعذرون بجهالته ، فإنّ العلم الذي هبط به آدم وجميع ما فضّلت بـه النبيون الى محمد خاتم النبيين في عترة محمد صلى الله عليه وآله فأين يتاه بكم؟ بل أين تذهبون؟ يامن نسخ من أصلاب أصحاب السفينة فهذه مثلها فيكم فاركبوها، فكما نجا في هاتيك من نجا كذلك ينجو في هذه من دخلها، أنا رهين بذلك قسماً حقاً وما أنا من المتكلّفين . الويل لمن تخلّف ثم الويل لمن تخلّف ، أما بلغكم ما قال فيهم نبيكم صلى الله عليه وآله حيث يقول في حجة الوداع : إني تارك فيكم الثقلين مـا إن تمسكتم بهما لن تضـلّوا بعدي : كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، ألا هذا عذب فرات فاشربوا، و هذا ملح اجاج فاجتنبوا [٢].

هذا آخر كلامه ، فقد أوضح لك الطريق وبيّن لك أنّ العلم الذي هبط به آدم و كذا العلوم التي عند سائر الأنبياء الى خاتمهم وهـو محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله هـذه العلوم كلها عند عترة محمد عليهم السلام ، فمن أراد العلم الصحيح ومن أراد الدين الحق الذي أمر الله به نبيّه، و بيّنه النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام حرفاً حرفاً ، فليقصد عترة محمد عليهم السلام ، ولا أقول كل العترة بـل الأشخاص الذين أشـار الله إليهم في قولـه : «والراسخون في العلم» وأولهم وأفضلهم النبي ثم أوصياؤه الاثنا عشر الذين قرنهم بالكتاب وجعلهم خلفاء لنا وأمرنا بالتمسك بهم حتى لا نكون من الضالّين .

---

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص ٩٩ ب ١٤ ح ٥٩ ، الارشاد : ص١٢٣ و فيه اختلاف يسير.

الثاني : ما رواه الشيخ البهائي في أربعينه ، الحديث الحادي والعشرون ، ورواه المجلسي في البحار نقلاً عن الخصال، و السند واحد عن سليم بن قيس الهلالي :

قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً في تفسير القرآن و أحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أن ذلك كله باطل ، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم ؟ قال : فأقبل علي عليه السلام علي فقال : قد سألت فافهم الجواب :

إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً و كذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً ، ومحكماً ومتشابهاً ، وحفظاً و وهماً، وقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله على عهده حتى قام خطيباً ، فقال : أيها الناس قد كثرت علي الكذابة فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . ثم كذب عليه من بعده ، وإنما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس :

رجل منافق يظهر الايمان متصنع بالاسلام لايتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمداً ، فلو علم الناس أنه منافق كذاب لم يقبلوا منه و لم يصدقوه ولكنهم قالوا : هذا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله ورآه وسمع منه ، فأخذوا عنه وهم لايعرفون حاله، وقد أخبره الله عز وجل عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عز وجل : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم »[1].

ثم بقوا بعده فتقربوا الى أئمة الضلال والدعاة الى النار بالزور والكذب والبهتان ، فولّوهم الأعمال وحملوهم على رقاب الناس وأكلوا بهم الدنيا ، وإنما

(١) المنافقون : ٤ .

الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله ، فهذا أحد الأربعة .

ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه ووهم فيه ولم يتعمد كذباً فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه ويقول : أنا سمعته من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه ، ولو علم أنه وهم لرفضه .

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه ، ولو علم المسلمون أنه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على رسول الله ﷺ مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله ، لم يسه بل حفظ ما سمع على وجهه ، فجاء به كما سمع، لم يزد فيه ولم ينقص منه ، وعلم الناسخ من المنسوخ ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ، فإن أمر النبي ﷺ مثل القرآن، ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومحكم ومتشابه، وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان: وكلام عام وكلام خاص مثل القرآن. وقال الله عزّ وجلّ في كتابه : «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»[1] فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ماعنى الله به ورسوله.

وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ يسأله عن الشيء فيفهم ، كان منهم من يسأله ولا يستفهمه ، حتى أن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأل رسول الله ﷺ حتى يسمعوا. وكنت أدخل على رسول الله ﷺ كل يوم دخلة وكل ليلة دخلة فيخلّيني فيها ، أدور معه حيثما دار ، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري ، وربما كان ذلك في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي ، وكنت اذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عني نساءه فلا يبقى عنده غيري ، واذا أتاني للخلوة معي في

---

(١) الحشر : ٧ .

بيتي لم تقم عنه فاطمة عليها السلام ولا أحد من بني، وكنت اذا سألته أجابني واذا سكت عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله عز وجل ولا علماً أملاه علي وكتبته منذ دعا لي بما دعا، وما ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام، أمر ولا نهي، كان أو يكون، ولا كتاب منزل على أحد قبله في أمر بطاعة أو نهي عن معصية إلا علمنيه وحفظنيه، فلم أنس حرفاً واحداً. ثم وضع صلى الله عليه وآله يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً. فقلت: يانبي الله بأبي أنت وامي إني مذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه، أفتتخوف علي النسيان فيما بعد؟ فقال: لا لست أخاف عليك النسيان ولا الجهل[1].

اذا تأمل العاقل في كلمات هذه الرواية وعرف معانيها وأراد أن ينصف نفسه ولايبيعها بثمن بخس فتذهب نفسه ويذهب الثمن، ينبغي له أن يعرف واجبه وأن يعرف الذي يأخذ منه معالم دينه ولايأخذ من أفواه الناس. فإن الامام عليه السلام جعل الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله أقساماً أربعة لايجوز للعاقل الأخذ عن ثلاثة أقسام منها، ويتعين عليه الأخذ من قسم واحد وهو الذي لم يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينس ما ألقاه اليه النبي صلى الله عليه وآله بل يحفظ ماسمعه على الدقة، ويجيء به كما سمع بلازيادة ولانقصان، وأن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمحكم والمتشابه، وأن لايشتبه عليه شيء من هذه العوارض، وأن يكون معصوماً من الذنوب كلها ومن الخطأ والسهو والنسيان، فلم نر ولم نسمع بأحد نسب هذه الصفات الى نفسه غير علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الصادق المصدق الذي لم تنسب له كذبة قط مدة

(١) الاربعين للبهائي: ص ٩٨، بحار الانوار: ج ٢ ص ٢٢٨ ب ٢٩ ح ١٣، الخصال: ج١ ص ٢٥٥ ح١٣١.

عمره، وقد أخبرنا بخطبته هذه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مانزلت عليه آية من القرآن إلّا علّمه بتأويلها وناسخها ومنسوخها و محكمها و متشابهها، و كذا ما نزل في سائر الكتب على من تقدمه من الأنبياء .

فإذا كنت ممن يصدق أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلامه هذا فهل يبقى لديك شكّ أو شبهة في دخوله في قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم»؟

فإذا تيقنت أنه من جملة الراسخين فهل يجوّز لك العقل و المنطق أن تقدم عليه غيره أو تأخذ بغير ما يخبرك به من امور الدين ؟ و لكل واحد من الأئمة الاثني عشر كلمة أو أكثر من كلمة يستدلّ بها على أنه هو حجة الله في عصره ويثبت هذه الدعاوى بحجة قوية وبرهان جلي تبصرة لمن تبصّر .

قال الفخر في تفسيره الكبير في تفسير سورة الرحمن قال: (المسألة الثالثة) قوله تعالى: «علّم القرآن» لابدّ له من مفعول ثانٍ فما ذلك؟ انتهى .

وذلك حيث إنّ «علّم» المضاعفة يحتاج الى مفعولين وإنّ أحد المفعولين هو لفظ القرآن والمفعول الثاني غيرمذكور فإنه بعدما يجيب عن هذا الأمر بجوابين ثم يذكر المسألة الرابعة ويشير الى السرّ في حذف المفعول الثاني يقول بعد ذلك:

(المسألة الخامسة) ما معنى التعليم ؟ نقوله على قولنا له مفعول ثانٍ إفادة العلم به ، فإن قيل كيف يفهم قوله تعالى: «علّم القرآن» مع قوله : « وما يعلم تأويله إلا الله»؟ نقول: من لايقف عند قوله «إلا الله» ويعطف «الراسخون» على الله عطف المفرد على المفرد لايرد عليه هذا .

أقول: هذا هو قول الامامية القائلون بالعطف .

ثم قال الفخر الرازي: ومن يقف ويعطف قوله تعالى: «والراسخون في العلم» على قوله : «وما يعلم تأويله» عطف جملة على جملة يقول : إنه تعالى علم القرآن لأنّ من علم كتاباً عظيماً ووقع على ما فيه، وفيه مواضع مشكلة فعلم ما في تلك المواضع

بقدر الامكان يقال: فلان يعلم الكتاب الفلاني و يتقنه بقدر وسعه وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين، و كذلك القول في تعليم القرآن، أو تقول: لا يعلم تأويله إلّا الله وأمّا غيره فلا يعلم من تلقاء نفسه ما لم يعلّم، فيكون إشارة الى أنّ كتاب الله تعالى ليس كغيره من الكتب يستخرج ما فيها بقوة الذكاء والعلوم[1] انتهى.

هذا هو قول من يقول بالعطف.

يقولون: إنّ علوم القرآن كلها عند رسول الله ﷺ بتعليم من الله لرسوله، و قد أودعها الرسول عند وصيه وخليفته علي بن أبي طالب عليه السلام، أي علّمه إيّاها كما قال: علّمني رسول الله ألف باب من العلم... الخ.

ومن بعد علي عليه السلام انتقلت الى الأوصياء، فقد وردت عنهم الروايات الكثيرة في تفسير هذه الآية بقولهم: إنّ رسول الله أفضل الراسخين في العلم، فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل، و ما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمون ذلك كله[2].

فالفخر الرازي و إن اختار في هذه الآية الوقف على لفظ الجلالة ولكنه في سورة الرحمن اختار ما قاله الامامية من مفاد العطف و معناه، و نسأل الله أن يهدي أهل القرآن الى صواب القول وعدم الزلل.

قوله تعالى: زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤).

إنّ الله سبحانه ذكر هذه الأشياء التي زيّنت للناس فهم يحبونها ويشتهونها،

---

(١) تفسير الرازي: ج ٢٩ ص ٨٤.

(٢) تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٧١.

فإنّ الله جعل هذه الشهوة فيهم ولايمكنهم التخلّص منها، ولكنه أمرهم أن يكون حبّهم لهذه الامور و تمتّعهم بها و أخذهم منها بمقدار حاجتهم إليها بحيث تكفي لتلك الشهوة حتى يطمئن الانسان ولايبقى في قلق واضطراب.

أمّا التوغّل في هذه المشتهيات والازدياد منها واحتكارها ومنعها عن الغير وشدة الحرص الموجب للقلق والخروج عن الحالة الطبيعية الموجبة لانقلاب الشيء الى ضده فهذا مالايريده الله، فالخلاف الواقع بين المفسرين من أنّ المزين لهذه الامور هل هو الله عزّ و جلّ كما اختاره جماعة؟ أو أنه الشيطان كما اختاره جماعة غيرهم؟

يمكن التوفيق فيه بين القولين بما ذكر وهو أنّ المرتبة الاولى و هي الأخذ بمقدار الحاجة إنما هي من الله. والمرتبة الثانية وهي الحرص على الاكثار والاحتكار ومنع الغير عنه إنما هي من الشيطان.

و قد يشير الى المرتبة الاولى قوله تعالى: «**ذلك متاع الحياة الدنيا**» فإنّ المتاع أخذ مقدار الحاجة وغضّ النظر عن الزيادة.

ويشير الى المرتبة الثانية قوله تعالى: «**و القناطير المقنطرة**» فإنه لايكون إلا من تزيين الشيطان، فإنّ العقل يحكم أنّ هذا المقدار من المال يكون سبباً لطغيان صاحبه فيتكبر على الناس بل قد يتكبر على عبادة الله، فهو مذموم غير محمود، فإن الله خلق هذه الأشياء و زيّنها في نفوس عباده لتتمّ استقامة هذه الحياة وبقاء النوع في الانسان و في الحيوان و لتكون وسيلةً وسبباً موصلاً الى الآخرة أيضاً، ولكن إبليس العدوّ لله و للانسان زيّنه في نفس بعض الناس بل القسم الأكثر منهم فاتخذها غاية لنفسها مستقلّة لامقدمة للآخرة، و قد قال الله تعالى: «إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً * و إنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً»[1].

فلينظر الانسان الى كل قسم من هذه الامور التي ذكرها الله. فأولها النساء

---

(١) الكهف: ٨.

و آخرها الحرث، فإنه يجد مرتبة إلهية يرضي بها الله ويأمر عباده أن يكونوا كذلك حيث لم يتجاوزوا فيها الحدود التي ترضي الله ويتوصلوا بها الى دار البقاء والخلود، ويجد مرتبة شيطانية دنيوية محضة لا يعمل فيها إلا بالمحرمات الضارة التي نهى الله عنها ولم تكن إلا ملاذ دنيوية زائدة على مقدار ما يحتاج اليه الانسان.

ونرى هذه الزيادة تكون موجبة لاضطراب الانسان محدثة الخلل في دينه أو عقله أو بدنه فينقلب الغرض الى ضده ، فكل من خالف الغرض من هذه الامور وتعدى الحدود و لم يستعملها في المقامات النافعة و يتركها في المقامات الضارة بل انغمس فيها انغماساً حتى غلبت على حواسه كان حظه منها ما يحصل عليه في الحياة الدنيا فقط ، ولم ينتفع فيها بعد انقضاء مدة الدنيا كما نبهنا الله في قوله: «ذلك متاع الحياة الدنيا».

وأمّا الذي اقتصر منها على موارد النفع سار على الطريقة التي أمر بها الله وترك الزيادة المخلّة به فلم تغلبه بشيء من زينتها، وإنما عمل بها كمقدمة لما يقدم عليه من الآخرة، فهذا قد ربح الدنيا والآخرة كما نبهنا الله بقوله: **« والله عنده حسن المآب»**.

قوله تعالى: قل أ انبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها و أزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد (١٥).

لقد ذكر الله عزّ وجلّ في الآية السابقة الامور التي خلقها للدنيا وعرفنا أنّ العبد المطيع الذي يريد النفع لنفسه يمكنه أن ينتفع بالامور المخلوقة للدنيا ومع ذلك يحصل على جزاء ونتيجة في الآخرة، و ذلك كمن يتزوج لأجل إحياء السنّة و يطلب النسل و يطلب الولد لاكثار امّة النبي ﷺ وتثقيل الأرض بمن يوحّد الله ويطلب المال للنفقة على العيال وصلة الرحم ومساعدة الفقراء، و قس

على ذلك بقية الامور ، فالله عزّ وجلّ ـ حيث إنّه يريد لعباده النفع في كل الأحوال ويحبّ لهم أن يحصلوا على الثواب في دار الخلود ـ عرّفهم ونبّههم أنّ ذلك ممكن حتى في الانتفاع بالامور الدنيوية، ثم بعد ذلك ذكر لنا الامور التي تنفعنا في الآخرة ، وأنها أحسن و أحسن بكثير من الامور الدنيوية ، و هذه الامور إنما تكون لمن أرادها وعمل بها، وهم المتقون الذين يعملون الأعمال التي يأتي ذكرها في الآية التي بعد هذه الآية، أمّا في هذه الآية فقد بيّن الله لنا الأشياء التي يحصل عليها المتقون اذا هم عملوا بما يأتي في الآية الاخرى من الأعمال .

أمّا الأشياء التي أعدها الله لهم فهي ما ذكرها بقوله : «**قل أأنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله**» فقد ذكر ثلاثة أشياء أعدها الله للمتقين.

الأول : جنات تجري من تحتها الأنهار، و الجنات كما عرّفها لنا القرآن وعرّفنا بها النبي ﷺ في مقامات عديدة وبعد رجوعه من معراجه الى السماوات ودخوله الجنة حيث وصفها وصف مشاهدة وعيان، وقد بيّن القرآن والنبي ﷺ أنّ فيها كلّ شيء من مأكول ومشروب و ملبوس، و فيها أنواع المآكل من لحوم مشوية وفواكه متنوعة وغير ذلك، وكذا بالنسبة الى المشروبات، و هكذا الملابس المتنوعة الأجناس .

وأعظم كلمة قالها الله في وصفها أنّ «فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين»[١]. إذ ليس بعد هذه الكلمة وصف يمكن أن توصف به الجنة.

و قد ذكر الله وذكر لنا النبي ﷺ أنّ أحسن ما ترغب إليه النفس في الجنة الحورالعين وهنّ اللاتي يكنّ أزواجاً للمتقين فهي داخلة ومشمولة لقوله: «جنات تجري من تحتها الأنهار» إذ الجنة لابدّ أن يكون فيها الحور ولكن الله خصّها بالذكر وجعلها الأمر الثاني .

---

(١) الزخرف : ٧١ .

الثاني: مما أعده للمتقين فقال: «وأزواج مطهّرة» و إنما خصّها بالذكر لأنها أهمّ شيء للرجل وألذّ من كل لذة مقدمة على سائر الملذات، ولذا جعلها الله المقدمة في ذكر لذات الدنيا. أمّا بالنسبة الى لذات الآخرة فهي ليست الاولى من اللذات و إنما الاولى هي دخول الجنة ، فإنّ البشارة بدخول الجنة يعلم الشخص أنه نجا من النار، والمنجاة من النار أعظم من كل بشارة.

و السبب الثاني لذكر الأزواج هو وصفها بهذا الوصف و هو أنها مطهّرة خلاف نساء الدنيا، فإنّ نساء الدنيا يحدثن ويحضن ويعرض لهنّ بعض العوارض من مرض و كبر وهرم وشيب و تشويه و سوء خلق وعدم أمن و أمان و كراهة منها لزوجها أو من زوجها لها . ولو لم يحصل كل هذا فالفراق النهائي الذي لا رجعة له وهذه الصفات لايوجد شيء منها في الحور، فهنّ مطهّرات من كل حدث و عارض ، فلايحدثن كحدث نساء أهل الدنيا ، و كذا جميع أهل الجنة ليس عندهم حدث.

و لابأس بذكر قصة دينية علمية لها تعلّق و دلالة بعدم حدث أهل الجنة ننقلها بطولها لأنّ فيها دلالة على كلامنا في الآية السابقة، و هي وجود رجال أودع الله عندهم جميع العلوم، وأنّ الأرض لاتخلو منهم وهم أوصياء نبينا الاثني عشر، و هم الأئمة الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وآله أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآخرهم المهدي المنتظر عليهم سلام الله.

قال السيد عبدالله شبر في جلاء العيون: روى ابن طاووس في كتاب «أمان الأخطار» بإسناد معتبر عن الصادق عليه السلام قال: حجّ هشام بن عبدالملك بن مروان سنة من السنين وكان قد حجّ في تلك السنة محمد بن علي الباقر و ابنه جعفر بن محمد عليهما السلام ، فقال جعفر بن محمد: الحمدلله الذي بعث محمداً بالحقّ نبياً و أكرمنا به فنحن صفوة الله على خلقه وخيرته من عباده وخلفائه، فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا وخالفنا.

ثم قال : فأخبر مسلمة بن عبدالملك أخاه هشاماً بما سمع فلم يعرض لنا حتى انصرف الى دمشق وانصرفنا الى المدينة فأنفذ بريداً الى عامل المدينة بإشخاص أبي وإشخاصي ، فلمّا وردنا مدينة دمشق حجبنا ثلاثاً ثم اذن لنا في اليوم الرابع فدخلنا، واذا به قدقعد على سرير الملك وجنده خاصة وقوف على أرجلهم سماطان متسلحان وقد نصب البرجاس حذاه وأشياخ قومه يرمون، فلما دخلنا وأبي أمامي وأنا خلفه فنادى أبي وقال: يا محمد ارم مع أشياخ قومك الغرض.

فقال له أبي: إني قد كبرت عن الرمي فهل رأيت أن تعفيني؟

فقال : و حقّ من أعزنا بدينه ونبينا محمد ﷺ لاأعفيك، ثم أومى الى شيخ من بني امية أن اعطه قوسك، فتناول أبي عند ذلك قوس الشيخ ثم تناول منه سهماً فوضعه في كبد القوس ورمى ثم انتزع ورمى وسط الغرض فنصبه فيه، ثم رمى فيه الثانية فشقّ فواق سهمه الى نصله، ثم تابع الرمي حتى شقّ تسعة أسهم بعضها في جوف بعض وهشام يضطرب في مجلسه ، فلم يتمالك أن قال: أجدت أجدت يا أباجعفر، أنت أرمى العرب والعجم ، كلّا زعمت أنك كبرت عن الرمي. ثم أدركته ندامة على ما قال.

وكان هشام لم يكنّ أحداً قبل أبي ولابعده في خلافته، فهمّ به وأطرق الى الأرض إطراقة يتروى فيه وأناوأبي واقفان حذاءه مواجهين له، فلمّا طال وقوفنا غضب أبي فهمّ به ، و كان أبي اذا غضب نظر الى السماء نظر غضبان يرى الناظر الغضب في وجهه. فلمّا نظر هشام الى ذلك من أبي قال له: إليّ يا محمد.

فصعد أبي الى السرير وأنا أتبعه، فلمّا دنا من هشام قام إليه واعتنقه وأقعده عن يمينه، ثم اعتنقني وأقعدني عن يمين أبي .

ثم أقبل على أبي بوجهه فقال له: يامحمد لاتزال العرب والعجم تسودها قريش مادام فيهم مثلك، لله درك من علّمك هذا الرمي؟ وفي كم تعلّمته؟

فقال أبي : قد علمت أنّ أهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته أيام حداثتي ثم

تحركته، فلمّا أراد أمير المؤمنين مني ذلك عدت فيه .

فقال له: ما رأيت مثل هذا الرمي قط مذ عقلت، و ما ظننت أنّ في الأرض أحداً يرمي مثل هذا الرمي ، أيرمي جعفر مثل رميك ؟ فقال : إنّا نحن نتوارث الكمال و التمام اللذين أنزلهما الله على نبيه في قوله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً»[1] والأرض لاتخلو ممن يكمل هذه الامور التي يقصر غيرنا عنها.

فلمّا سمع ذلك من أبي انقلبت عينه اليمنى فاحولّت، واحمرّ وجهه و كان ذلك علامة الغضب، ثم أطرق هنيئة ثم رفع رأسه فقال لأبي: ألسنا بني عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد ؟

فقال أبي: نحن كذلك ولكن الله جلّ ثناؤه اختصنا من مكنون سره وخالص علمه بما لم يخصّ به أحداً غيرنا .

فقال: أليس الله جلّ ثناؤه بعث محمداً من شجرة بني عبدمناف الى الناس كافة أبيضها و أسودها وأحمرها؟ من أين ورثتم ما ليس لغيركم ورسول الله مبعوث الى الناس كافة؟ وذلك قول الله تبارك وتعالى: «و لله ميراث السماوات والأرض»[2] الى آخر الآية، فمن أين ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد نبيّ ولا أنتم أنبياء ؟

فقال أبي عليه السلام : من قوله تبارك وتعالى لنبيه: « لاتحرك به لسانك لتعجل به»[3] الذي لم يحرك به لسانه لغيرنا أمره الله أن يخصّنا به من دون غيرنا. فلذلك كان ناجى أخاه علياً عليه السلام من دون أصحابه فأنزل الله بذلك قرآنه في قوله تعالى : «وتعيها اذن واعية»[4]، فقال رسول الله: سألت الله أن يجعلها اذنك يا علي. فلذلك قال علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة : علّمني رسول الله ألف باب من العلم ففتح

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) آل عمران : ١٨٠ .

(٣) القيامة : ١٦ .

(٤) الحاقة : ١٢ .

من كل باب ألف باب، خصّه رسول الله من مكنون سره بما يخصّ أمير المؤمنين أكرم الخلق عليه، فكما خصّ الله نبيه خصّ نبيه أخاه علياً من مكنون سره مما لم يخصّ به أحداً من قومه، حتى صار إلينا، فتوارثناه من دون أهلنا.

فقال هشام بن عبدالملك: إنّ علياً كان يدعي علم الغيب و الله لم يطلّع على غيبه أحداً فمن أين ادعى ذلك؟

فقال أبي: إنّ الله جلّ ذكره أنزل على نبيه كتاباً بيّن فيه ماكان ومايكون الى يوم القيامة في قوله تعالى: «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء و هدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين»[١] وفي قوله: «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين»[٢] وفي قوله تعالى «ما فرطنا في الكتاب من شيء»[٣]. وأوحى الله الى نبيه أن لايبقى في غيبه وسره و مكنون علمه شيئاً إلّا يناجي به علياً، فأمره أن يؤلف القرآن من بعده، ويتولّى غسله وتكفينه و تحنيطه من دون قومه، وقال لأصحابه: حرام على أصحابي وأهلي أن ينظروا الى عورتي غير أخي فإنه مني و أنا منه، له ما لي وعليه ماعليّ، وهو قاضي ديني ومنجز وعدي. ثم قال لأصحابه: علي بن أبي طالب يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله.

ولم يكن عند أحد تأويل القرآن بكماله وتمامه إلّا عند علي عليه السلام، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أقضاكم علي. أي هو قاضيكم، وقال عمر بن الخطاب: لولا علي لهلك عمر. يشهد له عمر و يجحده غيره.

فأطرق هشام طويلاً ثم رفع رأسه فقال: سل حاجتك.

فقال: خلفت عيالي وأهلي مستوحشين لخروجي.

فقال: قد آنس وحشتهم برجوعك إليهم ولاتقم، سر من يومك.

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) يس: ١٢.

(٣) الانعام: ٣٨.

فاعتنقه أبي ودعا له و فعلت أنا كفعل أبي، ثم نهض و نهضت معه و خرجنا الى بابه واذا ميدان ببابه وفي آخر الميدان اناس قعود عدد كثير، قال أبي: من هؤلاء؟ فقال الحجاب : هؤلاء القسس والرهبان، وهذا عالم لهم يقعد إليهم في كل سنة يوماً واحداً يستفتونه فيفتيهم .

فلف أبي عندذلك رأسه بفاضل ردائه وفعلت أنا مثل فعل أبي، فأقبل نحوهم حتى قعد نحوهم وقعدت وراء أبي. ورفع ذلك الخبر الى هشام، فأمر بعض غلمانه أن يحضر الموضع فينظر ما يصنع أبي . فأقبل و أقبل عدد من المسلمين فأحاطوا بنا، و أقبل عالم النصارى قد شد حاجبه بحريرة صفراء حتى توسطنا، فقام إليه جميع القسيسين والرهبان مسلّمين عليه فجاؤوا به الى صدر المجلس فقعد فيه وأحاط به أصحابه وأبي وأنا بينهم، فأدار نظره ثم قال لأبي: أمنّا أم من هذه الامّة المرحومة؟

فقال: بل من هذه الامّة المرحومة.

فقال: من أين أنت من علمائها أم من جهالها؟

فقال له أبي : لست من جهالها .

فاضطرب اضطراباً شديداً ثم قال له: أسألك .

فقال له أبي: سل.

فقال : من أين ادعيتم أنّ أهل الجنة يطعمون و يشربون و لايحدثون ولايبولون؟ وما الدليل فيما تدعونه من مشاهد لايجهل؟

فقال له أبي: دليل ما ندعي من مشاهد لايجهل: الجنين في بطن امّه يطعم ولا يحدث.

قال : فاضطرب النصراني اضطراباً شديداً ، ثم قال : هلّا زعمت أنك لست من علمائها .

فقال له أبي: إنما قلت لك لست من جهالها، وأصحاب هشام يسمعون ذلك.

فقال لأبي: أسألك عن مسألة اخرى .

فقال له أبي: سل.

فقال له: من أين ادعيتم أنّ فاكهة الجنة أبداً غضة طرية موجودة غير معدومة عند جميع أهل الجنة؟ وما الدليل عليه من مشاهد لايجهل؟

فقال له أبي: دليل ما ندعي أنه سراجنا ـ وفي نسخة ترابنا ـ أبداً يكون غضاً طرياً موجوداً غيرمعدوم عند جميع أهل الدنيا لاينقطع.

فاضطرب اضطراباً شديداً فقال: هلّا زعمت أنك لست من علمائها؟

فقال له أبي: إنما قلت لك لست من جهالها.

فقال له: أسألك عن مسألة.

فقال: سل.

قال: أخبرني عن ساعة لامن ساعات الليل ولا من ساعات النهار؟

فقال له أبي: هي الساعة التي بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس، يهدأ فيها المبتلى ويرقد فيها الساهر ويفيق فيها المغمى عليه، جعلها الله في الدنيا رغبة للراغبين و في الآخرة للعاملين، لها دليلاً واضحاً و حجةً بالغةً على الجاحدين المتكبرين التاركين لها.

قال: فصاح النصراني صيحة ثم قال: بقيت مسألة واحدة و الله لأسألنك عن مسألة لاتهتدي الى الجواب عنها أبداً.

قال له أبي: سل فإنك حانث في يمينك.

فقال: أخبرني عن مولودين ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد، عمر أحدهما خمسون سنة وعمر الآخر مائة وخمسون سنة في دارالدنيا.

فقال له أبي: ذلك عزيز وعزير ولدا في يوم واحد، فلمّا بلغا مبلغ الرجال خمسة وعشرين عاماً مرّ عزير على حماره راكباً على قرية بأنطاكية وهي خاوية على عروشها، فقال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها. وقد كان اصطفاه وهداه، فلمّا قال ذلك القول غضب الله فأماته الله مائة عام سخطاً عليه بما قال، ثم بعثه على حماره بعينه وطعامه وشرابه وعاد الى داره وعزيز أخوه لايعرفه، فاستضافه فأضافه، وبعث إليه ولد عزيز وولد ولده وقد شاخوا وعزير شاب في سنّ ابن خمس وعشرين

سنة ، فلم يزل عزير يذكر أخاه وولده وقد شاخوا وهم يذكرون ما يذكرهم ويقولون: ما أعلمك بأمر قد مضت عليه السنون والشهور؟ ويقول له عزير ـ وهو شيخ كبير ابن مائة وخمسة وعشرين سنة ـ: ما رأيت شاباً في سن خمس وعشرين سنة أعلم بما كان بيني و بين أخي عزير أيام شبابي منك، فمن أهل السماء أنت أم من أهل الأرض؟ فقال: يا عزيز، أنا عزير سخط الله علي بقول قلته بعد أن اصطفاني وهداني فأماتني مائة سنة، ثم بعثني لتزدادوا بذلك يقيناً، إن الله على كل شيء قدير، وها هو هذا حماري وطعامي وشرابي الذي خرجت به من عندكم أعاده الله تعالى كما كان. فعندما أيقن فأعاشه الله بينهم خمسة وعشرين سنة ثم قبضه الله وأخاه في يوم واحد.

فنهض عالم النصارى عند ذلك قائماً وقام النصارى على أرجلهم ، فقال لهم عالمهم : جئتموني بأعلم مني وأقعدتموه معكم حتى هتكني و فضحني ، و أعلم المسلمين بأن لهم من أحاط بعلومنا وعنده ما ليس عندنا. لا والله لا كلمتكم من رأسي كلمة واحدة ولا قعدت لكم إن عشت سنة ، فتفرقوا وأبي قاعد مكانه وأنا معه.

وروى القطب الراوندي : أن الديراني أسلم مع أصحابه على يديه و رفع ذلك الخبر الى هشام، فلما تفرق الناس نهض أبي وانصرف الى المنزل الذي كنا فيه ، فوافانا رسول هشام بالجائزة وأمرنا أن ننصرف الى المدينة من ساعتنا ولا نجلس ، لأن الناس ماجوا وخاضوا في ما دار بين أبي وبين عالم النصارى فركبنا دوابنا منصرفين .

وفي رواية : أنه أمر بحبسه فقالوا له : إن أهل الحبس قد تعلقت قلوبهم بحبه فأرسلنا الى المدينة ، وقد سبقنا بريد من عند هشام الى عامل مدين على طريقنا الى المدينة : أن ابني أبي تراب الساحرين محمد بن علي وجعفر بن محمد الكذابين فيما يظهران من الاسلام وردا علي ، ولما صرفتهما الى المدينة مالا الى القسيسين و الرهبان من كفار النصارى وأظهرا لهما دينهما ومرقا من الاسلام

الى الكفر ودين النصارى وتقربا إليهما بالنصرانية فكرهت أن أنكل بهما لقرابتهما. فإذا قرأت كتابي هذا فناد في الناس برئت الذمّة ممن يشاريهما أو يبايعهما أو يصافحهما أو يسلّم عليهما فإنهما قد ارتدا عن الاسلام، ورأى أمير المؤمنين أن يقتلهما ودوابهما وغلمانهما ومن معهما شرّ قتلة.

قال: فورد البريد الى مدين، فلمّا شارفنا مدينة مدين قدم أبي غلمانه ليرتادوا لنا منزلاً ويشتروا لدوابنا علفاً ولنا طعاماً، فلمّا قرب غلماننا من باب المدينة أغلقوا الباب في وجوهنا وشتمونا وذكروا علي بن أبي طالب فقالوا: لا نزول لكم عندنا ولا شراء ولا بيع يا كفار يامشركين يامرتدين يا كذابين ياشرّ الخلائق أجمعين، فوقف غلماننا على الباب حتى انتهينا إليهم فكلّمهم أبي وبيّن لهم القول وقال لهم:

اتقوا الله ولا تغلظوا فلسنا كما بلغكم ولا نحن كما يقولون فاسمعونا. فقال لهم: فهبنا كما تقولوا، افتحوا لنا الباب وشارونا وبايعونا كما تشارون وتبايعون اليهود والنصارى والمجوس.

فقالوا: أنتم أشرّ من اليهود والنصارى والمجوس لأنّ هؤلاء يؤدون الجزية وأنتم ماتؤدون الجزية.

فقال لهم أبي: فافتحوا لنا الباب وأنزلونا وخذوا منا الجزية كما تأخذون منهم.

فقالوا: لانفتح ولا كرامة لكم حتى تموتوا على ظهور دوابكم جياعاً عطاشاً أو تموتوا ودوابكم تحتكم فوعظهم أبي فازدادوا عتواً ونشوزاً.

قال: فثنّى أبي رجله عن سرجه ثم قال لي: مكانك ياجعفر لاتبرح، ثم صعد الجبل المطل على مدينة مدين وأهل مدين ينظرون إليه مايصنع، فلمّا صار في أعلاه استقبل بوجهه المدينة وحده ثم وضع اصبعيه في اذنيه ثم نادى بأعلى صوته:

«والى مدين أخاهم شعيباً ـ الى قوله ـ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين»[١]
نحن والله بقية الله في أرضه .

فأمر الله ريحاً سوداء مظلمة فهبت واحتملت صوت أبي فطرحته في أسماع الرجال والصبيان والنساء ، فما بقي أحد من الرجال والصبيان والنساء إلّا صعدوا السطوح وأبي مشرف عليهم .

وصعد فيمن صعد شيخ من أهل مدين كبير السن فنظر الى أبي على الجبل فنادى بأعلى صوته اتقوا الله يا أهل مدين فإنه قد وقف الموقف الذي وقف فيه شعيب حين دعا على قومه ، فإن أنتم لم تفتحوا له الباب ولم تنزلوه جاءكم من العذاب ، وإني أخاف عليكم ، وقد اعذر من أنذر . ففزعوا وفتحوا الباب فأنزلونا، وكتب بجميع ذلك الى هشام، فارتحلنا في اليوم الثاني. فكتب هشام الى عامل مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله، فأخذوه فدفنوه حياً ، رحمه الله.

وفي رواية: أنّ هشام بن عبدالملك كتب الى عامل مدين بحمل الشيخ إليه فمات في الطريق ، وكتب الى عامل مدينة الرسول ﷺ أن يحتال في سمّ أبي في طعام أو شراب، فمضى هشام ولم يتهيأ له في أبي من ذلك شيء[٢] هذا آخر ما ذكر في هذه الرواية .

وإني أرجو من أهل العلم وممن يحبّ العلم وأهله وأرجو ممن يطلب الرشد الذي قد تبيّن في هذه الرواية وفي غيرها من أمثالها ، أرجو ممن يريد إنصاف نفسه ولا يرضى بهلاكها هلاكاً أبدياً ، أرجو من كل مسلم ذي عقل وفهم أن يتأمل في فقرات هذه الرواية تأملاً دقيقاً .

فإنّ الذي دعاني أولاً لذكرها هو الوصف الذي ذكر في القرآن للأزواج بقوله تعالى: «وأزواج مطهّرة» فقد بيّن الامام عليه السلام إمكان كون الشخص يأكل

---

(١) هود : ٨٤ ـ ٨٦ .

(٢) جلاء العيون : ج ٣ ص ١٩ ـ ٢٥ .

ويشرب ولا يحدث، ومثّل لنا بشيء مشاهد لايجهل وهو الجنين في بطن امّه .

ثم رأيت أنّ الأصوب أن أذكر الرواية كلها لما فيها من فنون العلم والكمال، وليعرف الناس حقّ العلماء،وليعرفوا أنّ العالم اذا قابله جاهل كيف يحلم عنه ويتحمّل أذاه .

فإنّ الامام عليه السلام لمّا دخل على هشام ما تركه أن يسلّم ويجلس بل ناداه حين دخوله وهو في الباب : يامحمد ارم مع أشياخ قومك . ولمّا استعفاه الامام لم يعفه وحلف يميناً أنه لايعفيه، ثم لمّا أخذ القوس وأبدى تلك المهارة في الرمي التي فاق بها العرب و العجم كما اعترف هشام نفسه بذلك لم يحترمه ولم يقدره على هذا العلم الذي أبداه ، ثم لمّا سأله عما عنده من العلم وعرّفه الامام أنّ علمه إلهامي من الله ، و استدلّ بالقرآن والسنّة على ذلك لم يظهر منه أيّ تقدير واحترام.

ثم لمّا خرج منه و قابل عالم النصارى وأجاب عن تلك الأسئلة العميقة التي لا يمكن لأحد أن يجيب عنها كان ينبغي له أن يشكره على تلك و يفخر به ويظهر للناس ويفاخر الامم من يهود و نصارى، إذ أنّ الرجل من المسلمين وهو يدعي أنه خليفة المسلمين، ولكن جهله دعاه أن يحسده و يظهر له العداء ويكتب الى عامله على مدين أنّ هذا مال الى النصارى .

فانظر أيها المنصف ، أكان هذا جزاؤه من خليفة المسلمين؟ ومع جميع هذه الأفعال لم يفعل الامام معه شيئاً وحلم عنه وعانقه وقت الفراق و دعا له ، و كان يمكنه أن يرفع يده الى الله ويطلب منه أن ينتقم في تلك الساعة ، إلا أنّ هؤلاء الرجال ـ وهم الراسخون في العلم ـ لايريدون إلا مايريد الله .

ثم إنّ ذلك الشيخ الذي أنذر أهل مدين وحذرهم من العذاب لمّا توجه اليهم وصار سبباً لنجاتهم ما كان ذنبه حتى يأمر بقتله ؟ إنّ ذلك كلّه ناشيء عن الغرور والجهل والطغيان ، وأتعس و أجهل منه الذين يطيعونه ويسمّونه: خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، فاذكر قول الله : «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت».

الأمر الثالث الذي أعده الله للمتقين هو ماذكره بقوله تعالى: «ورضوان من الله» قرىء بكسر الراء وضمها، ومعنى الرضوان هو الرضا، فالآية الشريفة تخبرنا أنّ الله عزّ وجلّ اذا أمر بعبده أن يدخل الجنة و زوّجه من النساء المطهّرات يظهر له بعد ذلك، أي يعلمه ويخبره، أو يعلن لأهل الجنة أنه راضٍ عن عبده فلان، وهذه رتبة عظيمة يشرف الله بها عبده فيزداد بها سرور العبد ويتلذذ لذة روحية كما يتلذذ بنعيم الجنة لذة جسمية، فقد قالوا: إنّ الله نبّه على مراتب النعم و إنها ثلاث: فأدناها نعم الدنيا وأوسطها الجنة، وأعلاها رضوان الله، ويدلّ على هذا قوله تعالى: «ورضوان من الله اكبر»[1].

قال العلاّمة البلاغي في تفسيره عندوصوله لهذه الفقرة: ورضوان من الله، وهو الغاية القصوى لاولي الألباب في النعيم[2].

وقال الحكماء: إنّ الجنات بما فيها إشارة الى الجنة الجسمانية، والرضوان هو إشارة الى الجنة الروحانية، و أعلى المقامات إنما هو الجنة الروحانية.

ثم إنّ الدنيا التي جعلها الله للدلالة على نعم الآخرة ـ وإن كان البون بعيداً ـ منها مايؤكل وهي جميع أنواع المآكل المفردة والمركّبة، ومنها المشروب بجميع أنواعه، ومنها الملبوس، ومنها المركوب، ومنها المضاجع وهي النساء.

وهناك شيء آخر لايدخل في أحد هذه الأنواع ولايصلح لأن يكون واحداً منها، و لكن الانسان يلتذّ به و يسرّ اذا حصل عليه و هو القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة، فإنه يصلح أن يجلب جميع هذه الأشياء اذا استعصت عليه، إذ به يحصل كل شيء، وهكذا يكون رضوان الله، فإنه اذا حصل للعبد الساكن في الجنة وحظي به يمكنه تحصيل كل شيء بسببه في الآخرة، بل اذا حصل رضا الله لعبد في الدنيا يمكنه أن يحصل على كل شيء يقربه من الله، أمّا الامور المادية الدنيوية

(١) التوبة: ٧٢.

(٢) آلاء الرحمن: ص ٢٦٤.

اذا كان الصلاح في حصولها فكذلك يمكن تحصيلها بواسطة الرضا عنهم من الله.

فقد روي: أنّ موسى عليه السلام قال: يا ربي أخبرني عن آية رضاك عن عبدك؟ فأوحى الله تعالى إليه: اذا رأيتني اهيّئ عبدي لطاعتي وأصرفه عن معصيتي فذلك آية رضاي[1].

وفي رواية اخرى: اذا رأيت نفسك تحبّ المساكين وتبغض الجبّارين فذلك آية رضاي[2].

قوله تعالى: «والله بصير بالعباد» لمّا ذكر الله عزّ وجلّ الامور التي خلقها للدنيا وأمرنا أن نأخذ منها ماهو من الوجوه المباحة، وأن نرفض ماهو من الوجوه المحرمة، وأمرنا أن تكون نيّاتنا في الأخذ منها نيّات صحيحة بسريرة حسنة، وكذا بيّن لنا الامور التي خلقها للآخرة، وعرّفنا بأنّ التوصل إليها لابدّ أن يكون بمقدمات مباحة غير محرمة وبنيّات خالصة غير مشوبة بأمر من امور الدنيا.

ولا يخفى على النبيه أنّ بعض الناس يستعمل امور الدنيا للآخرة وهم اولو الألباب، وبعض الناس يستعمل امور الآخرة للدنيا وهم السفهاء أو الجهال، ظناً منه أنّ ذلك كما يخفى على الناس يخفى على الله. نبّه الله عباده بهذه الكلمة ليكونوا على بصيرة من أمرهم، فلاتغفل عن نفسك، فإنها أعزّ الأنفس عليك، وتذكّر دائماً قوله تعالى: «والله بصير بالعباد» وتذكّر البيت الذي روي عن الامام الصادق عليه السلام والذي مرّ عليك سابقاً:

اذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها ... فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن[3]

قوله تعالى: الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفرلنا ذنوبنا وقنا عذاب النار(١٦).

(١و٢) سفينة البحار: ج١ ص٥٢٤ مادة «رضا».

(٣) بحار الانوار: ج ٤٧ ص ٢٥ ب ٢٦ ذيل حديث ٢٦.

لمّا بيّن الله سبحانه ما هي زينة الحياة الدنيا، و أمر نبيه أن ينبئنا بخير من تلك الزينة و أحسن من تلك الامور التي ذكرها، ولكنه خصّ هذا الخير وهذا الأحسن بالمتقين في الدنيا بأن يكون لهم في الآخرة. و في هذه الآية عرّف لنا المتقين حتى نعرفهم فنكون منهم كي نحضى بهذه الامور التي تقدم ذكرها، فقد عرّف لنا المتقين مرة بأقوالهم ومرة اخرى بأفعالهم، فإنّ الأفعال وإن كانت من لوازم الأقوال ولكنها تحتاج الى البيان لأنها لابدّ وأن تكون بأمر من الله و باختياره و إرادته لا باختيار العبد، فالقول و الفعل معاً لابدّ فيهما أن يكونا باختيار الله الذي دلّنا عليه بواسطة نبيه ﷺ والنبي أودعه عند وصيه، فليس هناك شيء يرضي الله والله يثيب عليه إلا وأن يكون بدلالة من الله ، والواسطة التي تكون بين الله وبين عبده يلزم أن تكون بتعيين الله، وإلا فإطاعة الله لايمكن أن تكون بنظر العبد واختياره سواء كان ذلك في الكمّ والكيف أو الواسطة أو غير ذلك.

والكلام الآن في ما بيّنه الله من أقوال المتقين فقال عزّ وجلّ : **«الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار»** .

الايمان: هو التصديق بالله وبرسوله، فإذا قال الشخص: آمنت بالله، أي إني صدقت الله ورسوله، فإذا كان هذا القول مسبوقاً بنداء يكون المنادى هو المخاطب. فقول المتقين «ربنا» قد جعلوا الله مخاطباً حين نادوه وقبل أن ينطقوا بما يريدون إظهاره من الايمان قد أكّدوه بـ «إنّ» الثقيلة ، فقالوا : «ربنا إننا آمنا» .

لايخفى أنّ تصديق الله والرسول حيث إنه كان مطلقاً غير مقيد بزمان أو مكان أو قضية خاصة فيلزم أن يكون عاماً في كل أمر ونهي ، فإذا قال العبد: إني آمنت، أي صدقت بكل ما يأمرني به رسولك عنك ، وهذا عهد من العبد يعاهد به ربه بأنه يفعل كل شيء يأمره به الرسول عن الله ، ويترك كل شيء ينهاه عنه الرسول عن الله، فإذا خالف العبد بعد ذلك شيئاً من الأوامر أو النواهي فقد نقض عهده وخالفه وأخرج نفسه عن زمرة المتقين .

فعليه أن يتبع ماأراده الله والرسول منه في جميع أحكامه القولية و الفعلية سواء كان وقتها في حياة الرسول أو بعد ارتحاله من الدنيا ، ولا يجوز ـ بحسب العقل والمنطق والعرف ـ أن يجتمع جماعة من امّة النبي فيختاروا شخصاً مثلهم ويجعلوه واسطة بينهم وبين الله ورسوله فيقول: افعلوا كذا واتركوا كذا، والشيء الفلاني واجب وذاك محرم.

أمّا اذا كان الرسول هو الذي عيّن هذا الوسيط حيث إنه علّمه الأحكام وأنّ الله أخبره بصلاحيته لهذه الوساطة لأنّ الله عصمه من الذنوب ومن الخطأ والسهو والنسيان ، فهذا مما يحكم العقل والشرع والعرف والوجدان بوجوب الأخذ منه والاعتماد على أقواله ، وأنّ من ترك أقواله وأحكامه فهو في متاهة وظلال. فمن عرف من الناس هكذا شخصاً نصبه الرسول لامّته من بعده فليتمسك به، ومن لم يعرفه فعليه الفحص والبحث والسؤال عن أهل العلم والدين، ولايسوغ له في حكم العقل أن يهمل نفسه، فإنّ له نفساً واحدة اذا خسرها يكون قد خسر الدنيا والآخرة، هذا هو الايمان الصحيح الذي يعدّه الله إيماناً ويصف قائله بالمؤمن ويعده بالامور الثلاثة المتقدمة :

جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأزواج مطهّرة ، ورضوان من الله .

أمّا الذي يقول آمنت و لا يعرف معناها ، أمّا الذي يقول آمنت ولايرتّب أثراً على كلامه ، أمّا الذي يقول آمنت ويعمل بما يشتهي أو يختار وسيطاً كما يشتهي ويعمل بأمره ونهيه ، فهذا ليس له من الايمان إلا القول باللسان لا غير ، ومثل هذا نداء الله موجّه إليه أن يؤمن بقلبه كما آمن بلسانه «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله» [1] فليقل مليون مرة: آمنت آمنت ، ففي كل مرة يقولها تكتب عليه كذبة أو أشدّ من الكذبة ، هذا بالنسبة الى وصف المتقين بأقوالهم .

---

(١) النساء : ١٣٦ .

وأمّا وصفهم بأعمالهم وأفعالهم فقد وصفهم الله بخمس صفات فقال عزّ وجلّ:

الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار (١٧).

فهذه الصفات الخمس قد وصف الله بها المتقين، وينبغي الكلام في كل صفة منها حتى تتضح لمريد الخير الطالب للرشد.

أمّا الصابرون فقد ذكر المفسرون أنّ الصبر على أقسام:

١ ـ صبر على الطاعات.

٢ ـ وصبر عن المعاصي.

٣ ـ وصبر عند المصيبة.

أمّا الصبر على الطاعات فهو: أن يأتي العبد بجميع الواجبات ولايترك منها شيئاً لثقله وصعوبته، وكذا يأتي بالمندوبات ما أمكن منها ووسعه الوقت.

وأمّا الصبر عن المعاصي فهو: أن يترك جميع المحرمات والمكروهات، وأن يخالف نفسه التواقة وهواه المردي، بل ينبغي أن يترك المباحات ولا يفعل إلا واجباً أو مندوباً.

وأمّا الصبر عند المصيبة فهو: ما يرد عليه من موت أحبة أو ذهاب مال أو اعتداء من الناس وغير ذلك، فعليه أن يصبر في جميع هذه الموارد.

قال الراغب في مفرداته: الصبر هو حبس النفس على مايقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمّي صبراً لا غير ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمّي رحب الصدر ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمّي كتماناً ويضاده المذل [1]

---

(١) مذل بسره: أفشاه.

وقد سمّى الله تعالى كل ذلك صبراً ، ونبّه عليه بقولـه : «الصابرين في البأساء والضراء» [١] و «الصابرين على ما أصابهم» [٢] و «الصابرين والصابرات» [٣] [٤] .

وعن المحقق الطوسي قال : الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه وهو يمنع الباطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية والأعضاء عن الحركات غير المعتادة [٥] .

ولقد وردت الآيات الكثيرة في مدح الصبر والصابرين حتى أنّ بعض الآيات جعلت عاقبة الصبر هو الفوز بخير الدنيا والآخرة كما في قوله تعالى: «ولنجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» [٦] وفي قوله: «إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب» [٧] وفي بعض الآيات أن الأئمة الذين جعلهم الله هداة للناس إنما اختارهم لعلمه بصبرهم على ما لا يصبر عليه أحد غيرهم ، كل ذلك لأجل المحافظة على صورة الدين الظاهرة ، كما في قولـه عزّ وجلّ : «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» [٨] فإنّ الظاهر من سياق الآية وإن كانت بالنسبة الى بني إسرائيل ، ولكن لا يخفى على ذوي المعرفة أنّ ذكر القصص القرآنية إنما هي لانذار هـذه الامّة و تبشيرهم فهي موجّهة لهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : إنه يقع في هذه الامّة ما وقع في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل [٩] فذكر قصة موسى وإيتائه الكتاب، وجعل الأئمة من بني إسرائيل

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) الحج ٣٥ .

(٣) الاحزاب : ٣٥ .

(٤) المفردات : ص ٢٧٣ .

(٥) بحار الانوار: ج ٧١ ص ٦٨ ب ٦٢ ح٢ .

(٦) النحل : ٩٦ .

(٧) الزمر : ١٠ .

(٨) السجدة : ٢٤ .

(٩) كنز العمال : ج ١ ص ١٨٣ ح ٩٢٨ .

وهم هارون وأولاده نظير بعثة النبي ﷺ وإيتائه القرآن ، وجعل الأئمة عليهم السلام من أخيه و ابن عمه و أولاده ، كما قال ﷺ : أنت مني بمنزلة هارون من موسى (١) .

ثم إنّا اذا لاحظنا سيرتهم نراهم قد صبروا على امور لا طاقة لأحد من البشر أن يصبر عليها، فقد حكي عن الامام موسى بن جعفر عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : جمع رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين فأغلق عليهم الباب فقال : يا أهلي وأهل الله إنّ الله عزّ وجلّ يقرئكم عليكم السلام، وهذا جبرئيل معكم في البيت ويقول: إنّ الله عزّ و جلّ يقول : إني قد جعلت عدوكم لكم فتنة ، فما تقولون ؟ قالوا : نصبر يا رسول الله لأمر الله وما نزل من قضائه حتى نقدم على الله عزّ وجلّ ونستكمل جزيل ثوابه ، وقد سمعناه يعدّ الصابرين الخير كله ، فبكى رسول الله ﷺ حتى سمع نحيبه من خارج البيت فنزلت هذه الآية « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً » (٢) .

ولنستمع الى أول الأئمة وأعظمهم شأناً وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين يصف لنا صبره ويذكر المصائب و المحن التي صبر عليها، ففي الرواية المسندة الى ابن عباس قال: ذكرت الخلافة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال:

أما و الله لقد تقمّصها فلان و إنه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى، ينحدر عني السيل(٣) و لا يرقى إليّ الطير، فسدلت دونها ثوباً، و طويت

(١) مسند أحمد بن حنبل : ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) تفسير البرهان : ج ٣ ص ١٥٨ والاية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٣) قال الشيخ محمد عبده عند تعليقه على هذه الكلمة : تمثيل لسمو قدره ـ كرم الله وجهه ـ و قربه من مهبط الوحي ، وأن ما يصل الى غيره من فيض الفضل فانما يتدفق من حوضه ثم ينحدر عن مقامه العالي فيصيب منه من شاء الله، وعلى ذلك قوله «ولا يرقى . . الخ» غير أن الثانية أبلغ من الاولى في الدلالة على الرفعة .

عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ جذاء، أو أصبر على طخية عمياء[1] يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهباً حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها الى فلان بعده، (ثم تمثل بقول الأعشى):

شتان ما يومي على كورها ... و يوم حيّان أخي جابر

فياعجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدّ ما تشطّرا ضرعيها، فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها (وفي نسخة كلمها) ويخشن مسّها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم، فمني الناس لعمر الله بخبطٍ و شماسٍ وتلوّنٍ واعتراض، فصبرت على طول المدة وشدة المحنة، حتى اذا مضى لسبيله، جعلها في جماعة زعم أني أحدهم.

فيالله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر، لكني أسففت إذ أسفّوا و طرت إذ طاروا، فصغى رجل منهم لضغنه[2]، ومال الآخر لصهره[3] مع هنٍ وهنٍ[4]، الى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه[5] بين نثيله و معتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع، الى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله و كبت به بطنته، فما راعني إلا و الناس كعرف الضبع إليّ ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وطىء الحسنان و شقّ عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلمّا نهضت بالأمر نكثت

(١) طخية ـ بطاء فخاء بعدها ياء ويثلث أولها ـ أي ظلمة، ونسبة العمى اليها مجاز عقلي، وانما يعني القائمون فيها اذ لايهتدون الى الحق، وهو تأكيد لظلام الحال واسودادها.

(٢) يشير الى سعد بن أبي وقاص.

(٣) يشير الى عبدالرحمن بن عوف.

(٤) يشير عليه السلام الى أغراض اخر يكره ذكرها.

(٥) نافجاً حضنيه: رافعاً لهما، ويشير الى عثمان بن عفان.

طائفة ومرقت اخرى وقسط آخرون[1] كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض و لا فساداً و العاقبة للمتقين»[2].

بلى والله لقد سمعوها و وعوها ، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، و ما أخذ الله على العلماء أن لايقارّوا على كظّة ظالم و لا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ، و لسقيت آخرها بكأس أولها و لألفيتم دنيا كم هذه أزهد عندي من عفطة عنز.

(قالوا :) و قام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه الى هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه،قال له ابن عباس رضي الله عنهما: ياأمير المؤمنين لوأطردت خطبتك من حيث أفضيت، فقال: هيهات يا ابن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرّت .

قال ابن عباس : فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام أن لايكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد[3] انتهى .

أرأيت أيها القارىء الكريم كيف وصف لك أمير المؤمنين عليه السلام المصائب العظام التي مرت عليه فتلقاها بالصبر وسعة الصدر، وعرفت قيمة الدنيا عنده فإنها لاتساوي عفطة عنز، وإنما يريد إحقاق الحق وإقامة العدل، ولكن الناس لايريدون ذلك فهو سيد الصابرين وإمام المتقين.

وقال أيضاً يصف صبره على المصائب كما في النهج :

---

(١) الناكثة أصحاب الجمل ، و المارقة أصحاب النهروان ، و القاسطون أى الجائرون أصحاب صفين.

(٢) القصص : ٨٣ .

(٣) نهج البلاغة (شرح الشيخ محمد عبده): ج١ الخطبة ٣ ص٣٠ .

فنظرت فإذا ليس لي رافد[١] ولا ذاب[٢] ولامساعد إلا أهل بيتي، فضننت[٣] بهم عن المنيّة، فأغضيت على القذى[٤]، وجرعت ريقي على الشجا[٥]، وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم، وآلم للقلب من وخز الشفار[٦].

تأمل أيها القارىء في كلامه لتعرف مقدار صبره و يتضح لك أنّ الآية الشريفة إنما تنطبق عليه وهي قوله تعالى: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون»[٧].

ومن الشعر المنسوب إليه قوله عليه السلام:

هي حالان شدة و رخاء	و سجالان نعمة و بلاء
و الفتى الحاذق الأريب اذا ما	خانه الدهر لم يخنه العزاء
إن ألمّت ملمّة بي فإنني	في الملمات صخرة صمّاء
صابر في البلاء علماً بأن	ليس يدوم النعيم و البلواء[٨]

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: الصبر مطية لاتكبو، والقناعة سيف لاينبو[٩].

ثم إنّ هؤلاء الذين جمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله في الدار و أغلق عليهم الباب وأخبرهم بأنّ الله قد جعل عدوهم فتنة لهم وهم: أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن والحسين عليهم السلام فدابتلوا من أعدائهم ـ وهم الشجرة الملعونة من بني امية وبني الحكم ـ بمصائب عظيمة وقد صبروا عليها، فإنّ الامام الحسن عليه السلام قد ابتلي بمعاوية، فإنه

(١) الرافد : المعين .
(٢) الذاب : المدافع .
(٣) ضننت : بخلت .
(٤) أغضيت على القذى : غضضت الطرف عنه ولامساعد .
(٥) الشجا : ماإعترض في الحلق من عظم ونحوه ، يريد به غصة الحزن .
(٦) نهج البلاغة (ضبط صبحي الصالح): الخطبة ٢١٧ ص٣٣٦ .
(٧) السجدة : ٢٤ .
(٨) الديوان المنسوب لاميرالمؤمنين : ص ١٤ .
(٩) بحار الانوار : ج ٧١ ص ٩٦ ب ٦٢ ح ٦١ .

قد فعل معه من الأذى ما تمكن منه، و قابله الامام بالصبر و الحلم الى أن دسّ إليه السمّ فمات شهيداً.

و أمّا الامام الحسين عليه السلام فكل أحد يعلم ما فعل معه بنواامية من تشريد وقتل وسلب وتمثيل وسبي عيال، و هذه الأفعال والأعمال ليست مع الحسين وإنما هي مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

و أمّا فاطمة الزهراء عليها السلام فيكفي من عظم مصائبها أنها وقفت قبال قبر أبيها صلى الله عليه وآله وبثّته أحزانها وحكت له ماجرى عليها، و آخر بيت خاطبته به هو قولها سلام الله عليها:

صبّت عليّ مصائب لو أنها صبّت على الأيام صرن لياليا[1]

وقدذكروا قصصاً وحكايات عن بعض الصابرين والصابرات لا يسع المقام لذكرها.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إياكم والجزع فإنه يقطع الأمل و يضعف العمل و يورث الهم، واعلم أن المخرج من أمرين ما كانت فيه حيلة فالاحتيال، وما لم تكن فيه حيلة فالاصطبار[2].

حكي عن بعض التواريخ أن سخط كسرى على بزرجمهر فحبسه في بيت مظلم وأمر أن يصفّد بالحديد، فبقي أياماً على تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله فإذا هو منشرح الصدر مطمئنّ النفس، فقال له: أنت في هذه الحالة من الضيق وتراك ناعم البال! فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها و استعملتها فهي التي أبقتني على ماترون، قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلّنا ننتفع بها عند البلوى، فقال: نعم.

أمّا الخلط الأول : فالثقة بالله عزّ وجلّ.

وأمّا الثاني: فكل مقدر كائن.

وأمّا الثالث : فالصبر خير ما استعمله الممتحن.

---

(١) بيت الاحزان : ص ١٤٠ .

(٢) بحار الانوار: ج٨٢ ص ١٤٤ ب ٦١ ح ٢٩ .

وأمّا الرابع : فإذا لم أصبر فماذا أصنع ؟ ولااعين على نفسي بالجزع

وأمّا الخامس : فقد يكون أشدّ مما أنا فيه .

وأمّا السادس: فمن ساعةالى ساعةفرج. فبلغ كسرى ماقالهفأطلقهوأعزّه[1].

الصفة الثانية من صفات المتقين هي صفة الصدق المرادة بقوله تعالى : **«والصادقين»** .

فقد ذكر القرآن آيات عديدة في مدح الصدق والصادقين ، وكذا ورد المدح في السنّة.

ثم الصدق يكون تارةً بالقول وهوالظاهر المتبادر عند إطلاق كلمة الصدق، وهو ماكان مجانباً للكذب بحسب اعتقاد المتكلّم حين تكلّمه ، وهذا هوالمطلوب من الانسان ، وهو صفة حسنة جميلة يوصف صاحبها بالصدق .

ومرةاخرى يكون الصدق بالفعل، بمعنى أنه يأتي بفعله على الوجه الأكمل بلا زيادة ولا نقيصة ولاعيب ولا خلل تامّ الأجزاء والشرائط موافقاً لارادة الآمر وهو الشارع المقدس ، حيث إنّ كلامنا في صفات المؤمنين ، فيلزم على العاقل الرشيد الذي يريد أن ينتفع من أفعاله فتكون محفوظة عند مولاه العالم بأسرارمه أن تكون أفعاله موافقة لارادة المولى ، أي: تكون بدلالته و إرشاده ، وتكون مستمدة من الله بالوسائط التي يقطع العبد أنها مرضية لله ، ولا يجعل لله على نفسه حجة يوم يلقاه ، فإذا سأله الله وقال له: من الذي أمرك أن تأخذ بقول زيد وقول عمرو ؟ ومن الذي سوّغ لك الأخذ بقول فلان وفلان؟ فليس للعبد جواب مقبول .

أمّا اذا أخذ بقول أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ، فإذا سأله الله عن ذلك يقول له: إنّ رسول الله قال لنا:إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن تضلّوا ماإن تمسكتم بهما .

فالعبد الذي تكون أفعاله العبادية مطابقة لمذهب أهل البيت تكون يوم القيامة

---

(١) سفينة البحار : ج ٢ ص ٧ مادة «صبر» .

ويوم السؤال ويوم العرض الأكبر حجة واضحة قوية، أمّا غيره الآخذ بأقوال أبي هريرة وأشباهه فليس لديه جواب في ذلك اليوم «كل نفس بما كسبت رهينة»[1] هذا هو الصدق بالفعل المحمود الممدوح عند الله وعند الرسول وعند كل أحد.

و مرة ثالثة يكون الصدق في النية، قال الامام الصادق عليه السلام: صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأنّ سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الامور كلّها، قال الله: «يوم لاينفع مال ولابنون * إلا من أتى الله بقلب سليم»[2].

فالنية بالنسبة الى الأعمال العبادية التي يريد العبد أن يتقرب بها الى ربه، وهذه النية تكون هي الواسطة بين العلم والعمل، فإنّ الانسان اذا لم يعلم الشيء لم يمكن قصده، و ما لم يمكن قصده لم يصدر منه، وإنّ المتعبد حيث كان غرضه التقرب الى الله يلزمه معرفة مايطلبه الله منه معرفة حقيقية حتى يمكنه التقرب به فتكون النية منه صادقة، وإن لم يجزم بكون الشيء مطلوباً ومحبوباً لله فلايمكن أن تتأتى منه النية.

هذا بالنسبة الى كل أحد، و إنما الفرق بين العالم والجاهل هو أنّ العالم يتوصل الى كون الشيء مطلوباً لله بالأدلة القطعية المقبولة عند الله، و الجاهل يعمل باخبار العالم العادل، فالعالم يكون مكلّفاً عن عمله و عمل الجاهل، فإن لم يبن عمله على أدلّة صحيحة مقبولة يكون عليه وزره ووزر من يعمل بقوله، وهذا من أعظم البلاء الذي يجلبه المرء على نفسه.

ولا تظن أنّ النية أن تخطر بقلبك عند إرادة العبادة بأن تنوي أنك تأتي بهذه العبادة قربة الى الله تعالى، فإنّ هذا الاخطار غير كاف، وإنما النية المعتبرة هي انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها، وهذا الميل و الانبعاث اذا

(١) المدثر: ٣٨.
(٢) البحار: ج ٧٠ ص ٢١٠ ب ٥٣ ح ٣٢ والاية ٨٨ و٨٩ من سورة الشعراء.

لم يكن حاصلاً لها يمكنها اكتسابه بمجرد التصور لتلك الألفاظ أو النطق بها .

و لايخفى أنّ طريق انبعاث النفس وصرف القلب الى الشيء إنما يكون بتحصيل الأسباب الموجبة له واجتناب الامور المضادة له ، فإذاكان قلبك عندإرادة العبادة منهمكاً ومشغولاً بالامور الدنيوية والتوجه بطلبها، أو نويت العبادة المطابقة لفتوى العالم الذي يوجد في الامّة أعلم منه ، وذلك الأعلم هو المتصف بالعدالة والعصمة دون هذا ، فكيف يمكنك أن تتقرب بهذه العبادة الى الله وأنت لاتعلم بأنّ الله طلبها منك حيث لم تكن موافقة للغرض ؟

فالنية على هذا غير صادقة وإنّما هي مجرد ألفاظ تخطرها على قلبك ،فكل من أخذ أحكام دينه من غير العالم الذي أودع النبي عنده الأحكام لم يكن حين النية جازماً بكون الفعل مطلوباً لله ولم يكن صادقاً في نيته .

روي عن النبي ﷺ أنه قال : لا يقبل قول إلا بعمل، و لايقبل قول وعمل إلا بنية ، ولايقبل قول وعمل ونية إلا بإصابة السنّة [١] .

فمن يقول : أنا مسلم مؤمن ويقول أشهد أن لاإله إلا الله لا يقبل منه هذا القول إلاأن يعمل بمضمونه ، ومن يعمل لايقبل منه العمل إلابنية صادقة ، ومن يعمل بنية لايقبل منه إلا بإصابة السنّة، والسنّة لايتوصل لها الانسان إلا بوسائط عدول ينقلون له الأحكام التي نزلت على النبي ﷺ ، و لا واسطة عدل غير علي و أولاده المعصومين عليهم السلام ، لأنّ الله لمّا طلب منه إبراهيم أن يجعل الامامة في ذريته قال : « لاينال عهدي الظالمين »[٢] .

ومن أظهر مصاديق الظلم عبادة الأصنام ، فمن عبدصنماً في يوم من أيام حياته لايصلح أن يكون إماماً،والشرط في الامام أن يكون موحداً مؤمناً من يوم ولادته، وليس كذلك غير علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعليه آلاف الصلاة والسلام.

(١) أمالي الطوسي : ج١ ص٣٩٦ .

(٢) البقرة: ١٢٤ .

وروي عن الامام الصادق عليه السلام في قوله تعالى : «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» قال: ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الاصابة خشية الله والنية الصادقة.

ثم قال : الابقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص الذي لاتريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عزّ وجل»[1].

فقوله عليه السلام «ليس يعني أكثركم عملاً» لأنّ العمل الغير الخالص مهما كثر فهو لايعتدّ به بل تضييع للعمر، وإنما العمل النافع ما ذكره بقوله عليه السلام « ولكن أصوبكم عملاً» والاصابة مطابقة العمل حقيقة لما أمر به المولى .

أمّا اذا كان المأمور به شيئاً والمأتيّ به شيئاً غيره فهذا شيء غيرمفيد وإن كانت المغايرة بزيادة جزء أو نقيصته، فالشرط في قبول العمل إصابته للسنّة وأن يكون خالصاً لله تعالى .

أمّا إصابة السنّة فتعرف في الخارج من أخذ العمل من الدليل المنصوب من قبل الله .

وأمّا الاخلاص فلايمكن معرفته ولايدلّ عليه دليل لأنه أمر قلبي لايطلّع عليه أحد ولايدلّ عليه شيء ولايعلمه إلا الله تعالى، والله قد يخبرنا عنه في بعض الأوقات لأجل أن ترسخ العقيدة في قلوبنا، فمن تلك الموارد التي أخبرنا بها قوله إخباراً عمن نزلت في حقهم سورة هل أتى في قوله تعالى: «إنما نطعمكم لوجه الله لانريدمنكم جزاءً ولاشكوراً»[2] فإنّ المطعمين المسكين واليتيم والأسير لم يتكلّموا بذلك وإنما علمه الله فأخبر عما انطوت عليه سرائرهم، وكذا قوله تعالى: «وسيجنّبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكّى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء

(١) بحار الانوار: ج٧٠ ص٢٣٠ ب٥٤ ح٦ والاية٧ من سورة هود، و٢ من سورة الملك.
(٢) الانسان : ٩ .

وجه ربه الأعلى»[1] فإنه لايعلم هـذه النية إلا الله تعالى ، هذا بالنسبة الى صدق النية في العبادة .

و أمّا بالنسبة الى صدق النية في أصل العقيدة المعتبرة في تحقـق الايمان التي هي الأصل وعليها يبتني كل شيء من عمل و غيره و عليها تكون معاملة الله لعبده في الدنيا و الآخرة فإنها ـ أي الصدق في العقيدة ـ هي المقصودة من قوله تعالى في وصف المتقين الذين هيأ الله لهم الامور الثلاثة :

١ـ جنات تجري من تحتها الأنهار.

٢ـ أزواج مطهّرة .

٣ـ رضوان من الله.

ثم وصفهم بقوله تعالى: «الصابرين والصادقين... الخ». فإنّ صدق النية التي ينعقد بها الايمان اذا تحققت من العبد تحقق معها كل شيء وتبعتها كل الصفات الخمس، وتحققمنه معنى القول الذي ذكره أنه يقوله وهو قوله: «ربنا إننا آمنا فاغفرلنا ذنوبنا و قنا عذاب النار »[2] و إن لم ينطبق به بلسانه فإنّ هـذه النية الصادقة تنوب عنه وتفي به ، واذا تحقق الصدق في النية تحقق الصدق في القسمين المتقدمين وهما :

الصدق في القول ، والصدق في الفعل.

فمن أراد أن يكون من المتقين و أراد أن يحظى بوعدالله للمتقين بالامور الثلاثة عليه أن يتصف بصدق النية في العقيدة، فإنّ الله سيهديه الى صدق النية في العبادة ويجعله صادقاً في القول والفعل .

فقد تواترت الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: نية المؤمن خير من عمله[3]

---

(١) الليل : ١٧ ـ ٢٠ .

(٢) آل‌عمران : ١٦ .

(٣) كنز العمال : ج ٣ ص ٤١٩ ح ٧٢٣٦ .

و قد اوّلت هذه الكلمة بتأويلات عديدة ، ومن أحسن التأويلات أنّ مراده من النية هي العقيدة الحقة [١] فإنها لاشكّ خير من عمله، والعقيدة الحقة هي الموافقة للفرقة الناجية المقابلة لاثنين و سبعين فرقة كلها في النار ، فيلزم على المرء أن يتصف بهذه النية بعد أن يبحث ويفحص و يبذل الجهد في تمييز الفرقة الناجية حتى تكون نيته عندما يصل الى حدّ الرشد و يتوجه إليه الخطاب من الله تعالى بأن يعتنق الدين الاسلامي، وأن يدخل في زمرة المؤمنين ويشمله التكليف الموجه الى العقلاء من عبادات ومعاملات ، و يريد العبد في ذلك الحين أن يسلم وجهه لله ويؤمن به وبرسوله ينبغي له أن تكون نيته نية صحيحة موافقة لتلك الفرقة الناجية.

لا أقول : إنه يلزمه في تلك الحالة البحث عن عقائد الفرق كلها و اختيار العقيدة الحقة، فإنّ هذا غير ممكن أن يتحقق في سنين عديدة.

و لكن أقول : عليه اذا نوى الدخول في الدين الاسلامي أن تكون نيته اتباع ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله من الله، وامتثال أوامره ونواهيه و أخذ أحكامه من القرآن بواسطة العلماء العاملين بأحكامه الذين عيّنهم النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتي [٢].

فالنبي صلى الله عليه وآله إنما جعلهم عدلاً للقرآن لايفترقان الى يوم القيامة لأنّ عندهم علم القرآن ولا يوجد عند غيرهم ، فإذا نوى أن يأخذ أحكام دينه ممن هو عالم بها حقيقة بجميع أقسامها اصولاً وفروعاً، فقد تحقق منه صدق النية وأنّ الله سيعينه ويسدده ويرشده ويوصله الى مطلوبه، هذا اذا كانت النية صادقة .

أمّا إذا كانت نيته غير صحيحة من أول الأمر أو أنها فسدت بعد ذلك حين تغره الدنيا و يستولي عليه الطمع فتكون نيته كما ذكر الله في قوله: «ومن

---

(١) بحارالانوار : ج ٧٠ ص ١٨٩ ب ٥٣ ح ٢ .

(٢) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ١٧ .

الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون * في قلوبهم مرض»[١] فقد أخبر الله أنّ هؤلاء الناس يقولون آمنا ولكنهم غير مؤمنين، وأنّ نيتهم الخديعة و لكن لايخدعون إلا أنفسهم، وقال الله إنّ هؤلاء لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون.

أمّا الذي يكون صادقاً في مثل هذا القول ـ أي اذا قال آمنت بالله وباليوم الآخر بنية صادقة ـ فقدأخبر الله عنهم بقوله: «وهذا يوم ينفع الصادقين صدقهم»[٢] فقد ظهر أنّ نيته الايمان و الاسلام، اذا كانت صادقة تبعها خير الدنيا و الآخرة مادامت مستقيمة، واذا كانت كاذبة فليس لصاحبها في الآخرة نصيب، و لايصيبه في الدنيا إلا ما قدر له الله.

ثم إنّ الصدق في النية إنما هو مصداق واحدوطريق واحد ليس فيه التواء، وأمّا الكذب فيها فله مصاديق عديدة لأنّ الكذب إنما ينشأ عن عدم العقيدة.

وعدم الاعتقاد مرة يكون بالنسبة الى الواحد الأحد، وتارة يكون بالنسبة الى نبوة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، وثالثة يكون بالنسبة الى ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله كلاًّ أو بعضاً ، و مرة رابعة يكون بالنسبة الى الواسطة التي نصبها النبي صلى الله عليه وآله ليكون علماً من بعده، وغير هذا وذاك، ولذا صارت الفرق الهالكة اثنتين وسبعين، والناجية واحدة .

وقد وردت الآيات والروايات الكثيرة في تصحيح النية والصدق فيها والتعبير عنها تارةً بلفظ النية وتارةً اخرى بالسريرة، فلايتحقق الايمان إلا بصحة السريرة، فلاينبغي للعاقل أن يخدع نفسه كما نطقت الآية الشريفة، وفي الآخرة ليس له إلا العذاب الأليم .

ومن جملة الروايات التي ترشدنا الى تصحيح النية و أنها اذا صحت أربعين

---

(١) البقرة : ٨ ـ ١٠ .

(٢) المائدة : ١١٩ .

يوماً أثبت الله الحكمة في قلبه، ما رواه الكليني في الكافي بالاسناد الى ابن عيينة عن السندي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما أخلص عبد الايمان بالله أربعين يوماً إلا زهّده الله في الدنيا وبصّره داءها ودواءها وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه ثم تلا: «إنّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين»[1] فلاترى صاحب بدعة إلا ذليلاً، أو مفترياً على الله عزّ وجلّ وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته صلوات الله عليهم إلا ذليلاً[2].

فإخلاص الايمان لله إنما يكون إيمان لايشوبه شيء آخر من الشرك والرياء وسائر المعاصي، بحيث تكون نيته خالصة لله في جميع أعماله من عباداته ومعاملاته وسائر حركاته، من كلام وسكوت وقيام وقعود وأكل وشرب ويقظة ونوم ونظر وسماع وغيرها، وأهمّ هذه الامور وأصلها ومنبعها وأولها وآخرها معرفة الواسطة التي تكون بين النبي و بين امّته في تبليغ الأحكام، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله ترك لامّته القرآن والسنّة.

أمّا القرآن فلايتمكن كل أحد من معرفة أحكامه وتفسيره وتأويله.

وأمّا السنّة فلاتفي بجميع الأحكام مع أنّ فيها الناسخ والمنسوخ والمجمل والمحكم والمتشابه، وترك النبي لامّته مع القرآن أهل بيته وهم المفسرون للقرآن لايفارقونه ولايفارقهم، فمن أخذ بواحد وترك الآخر فقد تركهما جميعاً، بل لايمكن الأخذ بواحد منهما على الحقيقة، لأنّ الآخذ بالكتاب وحده يحتاج الى فهم معانيه و معرفة ما فيه من الأحكام، و لايعرفها إلا أهل البيت عليهم السلام، فإذا كان الآخذ به تاركاً لأهل البيت لم يكن حينئذٍ آخذاً بالقرآن وإنما هو آخذ بهواه، و أمّا الآخذ بأهل البيت عليهم السلام وحدهم فلايتصور لأنهم متمسكون بالقرآن.

وقد عرفونا مراراً عديدة بأنّ كل شيء يجيئنا منهم إنما يجوز لنا الأخذ به اذا كان موافقاً للقرآن، فالأمر أنّ اللذين تركهما لنا النبي متلازمان لايمكن

(١) الاعراف: ١٥٢.
(٢) الكافي: ج ٢ ص ١٦ ح ٦.

أن يفارق أحدهما صاحبه، فمعنى إخلاص الايمان لله أن يكون العبد مستمداً من الله في جميع اموره بمن عيّنه الله له و لايجعل هو من ذات نفسه أحداً من الناس واسطة بينه و بين الله ورسوله، فإنّ من جعل أحداً من ذات نفسه فهو من أتباع الهوى، ولذا نرى الامام الباقر عليه السلام استدلّ بالآية الشريفة وهي قوله تعالى: «إنّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب ... الخ» . ولايخفى على النبيه ما في الاستدلال بالآية المتعلّقة بقوم موسى من معنى دقيق، وذلك أنّ قوم موسى إنما اتخذوا العجل حينما غاب عنهم موسى، وجعل أخاه هارون خليفة عنه يأمرهم وينهاهم، فتركوه واتخذوا العجل .

فهذا أحد أوصياء النبي وأحد خلفائه محمد الباقر عليه السلام يريد أن يعرفنا بأنّ كل من ترك الوسائط الذين عيّنهم النبي صلى الله عليه وآله لكم في امور دينكم و دنياكم وأخذ بقول غيره واعتبر غيرهم واسطة ، فإنّ عبادته غير خالصة وهو كمن اتخذ العجل سيناله غضب من الله وذلّة .

فالمتقي الذي وصفه الله بالصدق لابدّ وأن يكون صادقاً في جميع هذه المواطن، صادقاً بالقول ، و صادقاً بالفعل ، وصادقاً في نية العبادة ، و صادقاً في نية العقيدة و الايمان ، فاذا اتصف بالصدق في هذه المواطن كلها كان هو الرجل الكامل من جميع الجهات الجامع لجميع الصفات ، لأنّ كلامه صدق وعمله صدق و نيته صدق، فليس فيه من جميع النواحي كذب ونقص، وهو المعنى والمقصود بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين»[1] فقد أمر الله المؤمنين بالتقوى وبالملازمة للصادقين والاقتداء بهم والأخذ بأقوالهم لأنّ أقوالهم ليس فيها كذب. و كذا بالنسبة الى أفعاله، فكل من كتب في تفسير القرآن أو كتب عن هذه الآية شيئاً لاريب أنه من المؤمنين، وأنّ الله قد أمره بأمر حتمي مطلق غير معلّق على شيء، أمره أن يكون مع الصادقين .

فيلزم عليه أن يفحص ويبحث عن هؤلاء الرجال المتصفين بالصدق في جميع

---

(١) التوبة : ١١٩ .

المواطن وأن يكون معهم لامع غيرهم، فإن عرفهم وتركهم فينبغي له أن يحكم على نفسه بلاتردد أنه غير مؤمن، وإن لم يعرفهم وترك البحث عنهم فهو أيضاً غير مؤمن لأنّ الله أمره بالتمسك بهم، والله لا يأمر بالتمسك بشيء غير موجود .

أمّا اذا قال : إنه بحث وفحص فلم يجدهم فأنا أدلّه عليهم وأقول له : إنهم أئمة أهل البيت الاثنا عشر عليهم السلام الذين قرنهم النبي بالكتاب ، فعليه أن يلاحظ تراجمهم وأيام حياتهم فسوف يقف على ما اتصفوا به من الصدق في القول والفعل والنية في العبادة والعقيدة فضلاً عن سائر الصفات الاخر من الصبر وغيره. واذا أبى وامتنع عن ملاحظة أحوالهم فإنه لا يريد أن يكون من المؤمنين وذلك يعود إليه، وسيأتي الكلام على هذه الآية مع ماقبلها من الآيات في سورة التوبة إن شاء الله تعالى.

الصفة الثالثة من صفات المتقين هي التي ذكرها الله بقوله : **«والقانتين»**.

القنوت في اللغة بمعنى الدعاء والطاعة والسكون والقيام في الصلاة والامساك عن الكلام و الخشوع وغير ذلك[1]، و أمّا في اصطلاح الفقهاء فهو الدعاء في أثناء الصلاة في الركعة الثانية بعد الفراغ من القراءة قبل الركوع، سواء كان مع رفع اليدين أو بدونه، وإن كان الغالب إطلاقه على الدعاء مع رفع اليدين.

وقال الجوهري: القنوت الطاعة، هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: «القانتين والقانتات»[2]، وقريب منه كلام ابن فارس[3] .

ولا يخفى أنّ الطاعة تشمل جميع المعاني ، فإذا كان القنوت هو الطاعة أو الخشوع فإنه يختلف باختلاف حال الناس قلّة و كثرة، فمن كان طائعاً أو خاشعاً في بعض الأوقات ويكون في وقت آخر غير طائع ولا خاشع فهذا لا يمكن أن يكون هو الممدوح في الآية الشريفة، وأنّ الذي يقطع بكونه داخلاً في مضمون الآية و أنه ممدوح من قبل الله هو ما يكون طائعاً أو خاشعاً في جميع أحواله وفي جميع أوقاته وأفعاله

---

(١) لسان العرب : ج٢ ص٧٣ مادة «قنت».

(٢) الصحاح للجوهرى : ج١ ص٢٦١ مادة «قنت» والاية ٣٥ من سورة الاحزاب .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ج٥ ص٣١ .

وهو نفس الموصوف بالصفتين المتقدمتين من الصبر و الصدق، وهو عين المتصف بالصفة القولية التي ذكرها الله قبل هذه الصفات بقوله: «الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ... الخ» فهو المؤمن الكامل الايمان من جميع الجهات و بجميع المعاني، و هم رجال معدودون ذكرهم الله لعباده ليعرفونهم بأسمائهم و صفاتهم فيقتدون بهم ويتعلّمون منها العلوم و كيفية العبادة و الطاعة لله والخشوع له، و هم الذين قرنهم النبي بالكتاب وأمر بالتمسك بهم .

وقد روى عنهم عليهم السلام العارفون بهم من رجال المؤمنين أدعية كثيرة كانوا يدعون بها في الصلاة وفي غير الصلاة، فالمؤمن أو المسلم الذي يطلب الرشد ويروم القرب من الله ومن رسوله،يلزمه أن يتعرف على هؤلاء الرجال الذين خصّهم الله بذكره، ويتأمل فيماعلّموناه به من الأدعية والأذكار والأوراد حتى يصل الى حقيقة الحق و الى الدين الصحيح .

انظر الى دعاء كميل الذي علّمه أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد، و الى غيره من الأدعية .

وانظر الى دعاء الحسين عليه السلام يوم عرفة والى مافيه من المضامين العالية الدقيقة.

وانظر الى أدعية الصحيفة المروية عن زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام .

وانظر الى دعاء أبي حمزة الذي يقرأ وقت السحر في شهر رمضان .

وانظر الى القنوتات الواردة عنهم، لكل إمام قنوت يقنت في الصلاة .

وانظر الى الأدعية التي يدفعون بها شرّ الجبابرة من أعدائهم.

وانظر الى الدعاء الذي أمر الامام الحادي عشر الحسن بن علي العسكري عليه السلام أهل قم أن يدعوا به لمّا شكوا من موسى بن بغى .

فإنك اذا اطّلعت على هذه الأدعية تعرف معنى القنوت وتعرف من هم القانتون.

لقد ضيّق ملوك بني امية على الامام علي بن الحسين عليه السلام غاية التضييق ومنعوه من الجلوس الى الناس و تعليم العلوم. ولمّا رأى هذا الضيق منهم صار

يجلس في المسجد ويدعو الله عزّ وجلّ بفنون الدعوات، ويعلّم الناس مكارم الأخلاق بدعواته، ويعلّمهم آداب الدين وأحكام العبادات بدعائه، حتى جمعوا من دعواته الصحيفة وبقيت الى هذا اليوم يدعى بها، و لكن لا يعرفها إلا من يعرف مقام الامام مع شهرتها وانتشارها وطبعها مرات عديدة.

فيا أيها المسلم، اعرف القانتين الذين عناهم الله في كتابه الكريم.

حكي عن كتاب طب الأئمة عليهم السلام قال: روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: دعاء المكروب والملهوف و من قد أعيته الحيلة و أصابته بلية «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» يقولها ليلة الجمعة اذا فرغ من الصلاة المكتوبة من العشاء الآخرة. وقال: إني أخذته عن أبي جعفر محمد الباقر، قال: أخذته عن علي بن الحسين ذي الثفنات، أخذه عن الحسين بن علي، قال: أخذه عن أمير المؤمنين عليهم السلام، أخذه عن رسول الله. أخذه عن جبرئيل صلوات الله عليهم أجمعين، أخذه جبرئيل عن الله عزّ وجلّ[1].

أقول: هل يوجد هذا السند عن أحد من الناس غير أهل بيت النبوة، هذا واحد من ملايين فلا تغفلوا عنه.

ياطالب الرشد، استمع لما يرويه حبة العرني، قال حبة: بينا أنا و نوف نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقية من الليل واضعاً يده على الحائط شبيه الواله وهو يقول: «إنّ في خلق السماوات والأرض . . . الى آخر الآية»[2] قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمرّ شبه الطائر عقله، فقال لي: أراقد أنت يا حبة أم رامق؟ قلت: رامق، هذا أنت تعمل هذا العمل، فكيف نحن! قال: فأرخى عينيه فبكى.

ثم قال لي: ياحبة إنّ لله موقفاً ولنا بين يديه، موقفاً لايخفى عليه شيء من أعمالنا، ياحبة إنّ الله أقرب إلي وإليك من حبل الوريد، ياحبة إنه لن يحجبني

(١) طب الائمة : ص١٢٢ والاية ٨٧ من سورة الاحزاب.

(٢) البقرة : ١٦٤ .

ولا إيّاك عن الله شيء.

قال: ثم قال: أراقد أنت يانوف؟ قال: قال: لا يا أمير المؤمنين ما أنا براقد، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة. فقال: يانوف إن طال بكاؤك في هذا الليل مخافة من الله تعالى قرت عيناك غداً بين يدي الله عزّ و جلّ، يانوف إنه ليس من قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلا أطفأت بحاراً من النيران، يا نوف إنه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من رجل بكى من خشية الله وأحبّ في الله وأبغض في الله، يانوف إنه من أحبّ في الله لم يستأثر على محبته، و من أبغض في الله لم ينل ببغضه خيراً، عند ذلك استكملتم حقائق الايمان.

ثم وعظهما وذكّرهما وقال في أواخره: فكونوا من الله على حذر فقد أنذرتكما. ثم جعل يمرّ وهو يقول: ليت شعري في غفلاتي أمعرض أنت عني أم ناظر إلي؟ وليت شعري في طول منامي وقلّة شكري في نعمك عليّ ما حالي. قال: فو الله مازال في هذا الحال حتى طلع الفجر.

وقد ذكر نوف لمعاوية بن أبي سفيان بعض صفات الامام وأنه مافرش له فراش في ليل قط ولا أكل طعاماً في هجير قط. وقال نوف: أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه فقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وهو قابض بيده على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين... الخ[1].

فإذا أردت أن تعرف القانتين من هم فانظر الى أفعالهم وأقوالهم.

الصفة الرابعة من صفات المتقين التي ذكرها الله هي قوله: **«والمنفقين»**.

الانفاق هو إعطاء المال في سبيل الله لمن هو محتاج إليه، سواء كان بقصد الزكاة الواجبة أو المندوبة، أوصلة الرحم، أو الصدقة المطلقة أو المساعدة والمعاونة أو الهدية، أوسائر الوجوه الواجبة أو المندوبة، بشرط أن يكون

---

(١) بحار الانوار: ج٤١ ص٢٢ ب١٠١ ح١٣.

خالصاً لوجه الله تعالى لايخالطه شيء من امور الدنيا، وقد ذكرنا في سورة البقرة الآيات الآمرة بالانفاق وشروطه التي تجعله مقبولاً عند الله .

و قبل الشروع في ذكر ماورد في الحثّ على الانفاق من الآيات و الأخبار ينبغي الالتفات الى أنّ الله عزّ وجلّ قد ذكر في الآية المتقدمة قبل هذه الآية أنّ الامور التي زينت للناس وهم يحبونها ويشتهونها إنما هي متاع الحياة الدنيا، وقد نبّهنا في هذه الآية على شيء مهم وهو : أنّ من جملة أمتعة الدنيا الذهب والفضة ، وأنه يتمكن الرجل العالم العاقل أن يجعل الذهب والفضة سبباً للتمتع في الآخرة مضافاً الى الدنيا ، وذلك بأن ينفق الكل أو البعض في سبيل الله ، فيحرز بهذا الانفاق صفة من صفات المتقين ، فإذا ضمّ اليها بقية الصفات دخل في جملة المتقين ، فيحصل على ما أعدّ الله له في الآخرة من الجنات والأزواج والرضوان .

وقد ورد جملة من الأخبار بهذا المعنى ، فمنها ماروي عن الصادق عن أبيه الباقر عليهما السلام أنه سئل عن الدنانير والدراهم وماعلى الناس فيهما، فقال أبو جعفر عليه السلام: هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله تعالى مصلحة لخلقه ، و بها تستقيم شؤونهم ومطالبهم، فمن أكثر له منها فقام بحقّ الله تعالى فيها وأدى زكاتها فذلك الذي طابت وخلصت له ، ومن أكثر له منها فبخل بها ولم يؤدّ حقّ الله فيها واتخذ منها الآنية فذلك الذي حقّ عليه وعيد الله عزّ وجلّ في كتابه : « يوم يحمى عليها في نار جهنم »[1].

وروي أنّ يهودياً أتى الى أمير المؤمنين عليه السلام فسأله عن مسائل ، فكان فيما سأله أن قال : لم سمّي الدرهم درهماً والدينار ديناراً ؟

فقال عليه السلام : إنما سمّي الدرهم درهماً لأنه دار همّ ، من جمعه ولم ينفقه في طاعة أورثه النار. وإنما سمّي الدينار ديناراً لأنه دار النار، من جمعه ولم ينفقه في طاعة

(١) سفينة البحار : ج١ ص٤٤٥ مادة «درهم» والاية ٣٥ من سورة التوبة .

الله أورثه النار ، فقال اليهودي: صدقت ياأمير المؤمنين[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الدينار والدرهم أهلكا من كانا قبلكم وهما مهلكاكم[٢]

الانفــاق :

و مدح فاعله بصورة مطلقة، و أنّ السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد عن النــار، وأنّ البخيل بعيد عن الله بعيد عن النــاس بعيد عن الجنة قريب من النار، ولكن الانفاق يختلف ثوابه بحسب معرفة المنفق وعلمه، حيث إنه يعرف أين يضع المال وفي أيّ وجه ينفقه، فإنا قد نرى أشخاصاً ينفقون الشيء الكثير من المال ولكن في غير محلّه، وقد يعطي الرجل شيئاً قليلاً مصادفاً محلّه فيمدح عليه كثيراً، وقد يعطي و هو لايملك غير المال الذي أعطاه فيمدح عليه كثيراً حيث إنه لايملك سواه، فالمناط في الانفاق معرفة المحلّ والمورد الذي ينبغي الانفاق فيه.

و قد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: ليس السخي المبذر الذي ينفق ماله في غير حقه و لكنه الذي يؤدي الى الله عزّ وجلّ ما فرض عليه في ماله من الزكاة وغيرها، والبخيل الذي لايؤدي حقّ الله عزّ وجلّ في ماله[٣].

ولهذا ترى أنّ أعلم الناس بحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة أسمع الناس كفاً وأزهدهم في المال، بل لايفرق بينه وبين التراب في بذله لمريده. ولقد كان الأئمة الأطهار عليهم السلام من حيث معرفتهم بزوال الدنيا ومن حيث إنهم أكمل الناس في كل شيء، كانوا أسمح الناس وأسخى الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد شهد الله لهم بذلك ورسوله ومحبهم وعدوهم.

أمّا شهادة الله لأول الأئمة وهو علي بن أبي طالب عليه السلام فقد أنزل آية واحدة

---

(١) سفينة البحار : ج١ ص٤٤٥ مادة «درهم» .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) بحار الانوار : ج٧١ ص٣٥٢ ب٨٧ ح٩ .

عرفنا فيها أنه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وأنه الخليفة والولي علينا بعد الرسول ﷺ وهي قوله تعالى: «إنما وليكم الله و رسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة و هم راكعون»[1]. فهذه الآية الشريفة فيها شهادة من الله على أربعة أشياء.

الأول: كونه من المؤمنين الكاملي الايمان.

الثاني: كونه مقيماً للصلاة.

الثالث: كونه مؤتياً للزكاة.

الرابع: كونه ولياً للمؤمنين بعد النبي ﷺ.

و إنما لم نذكر الجهة الاولى و هي الايمان لأنه جعله ولياً للمؤمنين، ولايكون ولي المؤمنين إلاالكامل في إيمانه، ولايجوز أن يكون الولي ناقص الايمان، وأعني من ناقص الايمان هو الذي تصدر منه معصية واحدة من أول عمره الى آخره و لو كانت صغيرة أو صدرت منه سهواً أو خطأً، فكيف بمن عبد الأوثان وسجد لها! وهذا يعرف من أداة الحصر التي صدرت بها الآية وهي لفظة «إنما» حيث حصر الولاية بالله وبالرسول وبالمؤمنين المتصفين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة و هم راكعون. وليست هذه الآية وحدها نزلت في حق الامام بل هناك آيات غيرها ستذكر إن شاء الله عند الوصول إليها.

وأمّا شهادة النبي والمحبين فهي الأخبار التي رواها الأصحاب عن النبي ﷺ في حقه وهم بها مقرون معترفون.

وأمّا شهادة أعدائه فمنها قول ألد الأعداء وهو معاوية بن أبي سفيان وكان يجتهد في وصمه و عيبه وذلك حينما جاءه محفن بن أبي محفن الضبي و قال له: جئتك من عند أبخل الناس، فقال له معاوية: ويحك كيف تقول إنه أبخل الناس ولو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفذ تبره قبل تبنه، وهو الذي كان يكنس

(١) المائدة: ٥٥.

بيوت الأموال ويصلّي فيها و هو الذي قال: يا صفراء و يا بيضاء غري، وهو الذي لم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلا ماكان من الشام[1].

وأمّا سخاءإمامنا الحسن بن علي عليهما السلام فمنه ماروي أنه أعطى سائلاً خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار ، وأعطى طيلسانه لكري الحمال، وأعطى سائلاً آخر ما في الخزانة وأنشد قائلاً :

نحن اناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والأمل

تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفاً على ماء وجه من يسل

لو علم البحر فضل نائلنا ... لغاض من بعد فيضه خجل[2]

وقال أنس بن مالك: حيّت جارية للحسن بن علي عليه السلام بطاقة ريحان فقال لها: أنت حرة لوجه الله. فقلت له في ذلك. فقال: أدبنا الله تعالى فقال «وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها» [3] وكان أحسن منها اعتاقها [4] .

وله عليه السلام شعر :

إن السخاء على العباد فريضة ... لله يقرأ في كتاب محكم

وعد العباد الأسخياء جنانه ... وأعدّ للبخلاء نار جهنم

من كان لاتندى يداه بنائل ... للراغبين فليس ذاك بمسلم[5]

وله حكايات كثيرة في السخاء :

قال البيهقي في المحاسن في باب محاسن الحسن عليه السلام: وكان عليه السلام أسخى أهل زمانه ، وذكروا أنه أتاه رجل في حاجة ، فقال : اذهب فاكتب حاجتك في رقعة وارفعها إلينا نقضها لك ، قال: فرفع إليه حاجته فأضعفها له ، فقال بعض جلسائه:

---

(١) بحار الانوار : ج٤١ ص١٤٤ ب١٠٧ قطعة من حديث ٤٥ .

(٢) بحار الانوار : ج٤٣ ص٣٤١ ب١٦ ح١٤ .

(٣) النساء : ٨٦ .

(٤و٥) بحار الانوار : ج٤٣ ص٣٤٣ ب١٦ ح١٥ .

ما كان أعظم بركة الرقعة عليه يابن رسول الله؟ فقال: بركتها علينا أعظم حين جعلنا للمعروف أهلاً [١].

وأمّا حكايات السخاء عن إمامنا الحسين الشهيد عليه السلام فهي كثيرة منها: قضاؤه دين اسامة وهو ستون ألف درهم [٢]، وإعطاؤه الفرزدق أربعمائة دينار [٣].

ومنها: أنه وفد أعرابي الى المدينة فسأل عن أكرم الناس فدلّ على الحسين عليه السلام، فدخل المسجد فوجده مصلّياً فوقف بإزائه وأنشأ يقول:

لم يخب الآن من رجاك ومن ... حرك من دون بابك الحلقه
أنت جواد وأنت معتمد ... أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلكم ... كانت علينا الجحيم منطبقه

قال: فسلّم الحسين عليه السلام وقال: ياقنبر هل بقي من مال الحجاز شيء؟ قال: نعم أربعة آلآف دينار، فقال: هاتها قد جاءها من هو أحقّ بها منا، ثم نزع بردته ولفّ الدنانير فيها ودفعها للأعرابي وأنشأ يقول:

خذها فإنّي إليك معتذر ... واعلم بأنّي عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا الغداة عصىً ... أمست سمانا عليك مندفقه
لكنّ ريب الزمان ذو غير ... والكفّ مني قليلة النفقه

قال: فأخذها الأعرابي وبكى، فقال له عليه السلام: لعلّك استقللت ما أعطيناك! قال: لا ولكن كيف يأكل التراب جودك [٤].

وروي أنّ عبدالرحمن السلمي علّم ولداً للحسين سورة الحمد فلمّا قرأها على أبيه أعطاه ألف دينار وألف حلّة وحشى فاه درّاً، فقيل له في ذلك فقال: وأين يقع هذا من عطائه، يعني بذلك تعليمه [٥].

---

(١) المحاسن والمساوىء: ص٥٥.
(٢و٣) بحار الانوار: ج٤٤ ص١٨٩ ب٢٦ ح٢.
(٤) بحار الانوار: ج٤٤ ص١٩٠ ب٢٦ ح قطعة من حديث ٢.
(٥) بحار الانوار: ج٤٤ ص١٩١ ب٢٦ ح٣.

وروي أنه جاء الحسين عليه السلام رجل من الأنصار يريد أن يسأله حاجة، فقال: يا أخ الأنصار صن وجهك عن ذلّ المسألة، وارفع حاجتك في رقعة وائت بها سأسرك إن شاء الله. فكتب إليه: يا أبا عبدالله إنّ لفلان عليّ خمسمائة دينار وقد ألحّ بي فكلّمه ينظرني الى ميسرة، فلمّا قرأ الحسين الرقعة دخل منزله فأخرج صرة فيها ألف دينار، وقال له: أمّا خمسمائة فاقض بها دينك وأمّا خمسمائة فاستعن بها على دهرك ولا ترفع حاجتك إلا الى أحد ثلاثة: الى ذي دين أو مروة أو حسب [١].

وأمّا ما ذكر عن سخاء علي بن الحسين عليه السلام فقد روي عن عمرو بن دينار قال: حضرت زيد بن اسامة بن زيد الوفاة فجعل يبكي، فقال له علي بن الحسين عليه السلام: ما يبكيك؟ قال، يبكيني أنّ عليّ خمسة عشر ألف دينار لم أترك لها وفاءً، فقال له علي بن الحسين. لا تبك فهي عليّ وأنت بريء منها، فقضاها عنه [٢].

وروي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: لمّا حضر محمد بن اسامة الموت دخلت عليه بنو هاشم، فقال لهم: قد عرفتم قرابتي ومنزلتي منكم وعليّ دين فاحبّ أنّ تضمنوه عني، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أما والله ثلث دينك عليّ، ثم سكت وسكتوا، فقال علي بن الحسين عليه السلام: عليّ دينك كله، ثم قال: أما أنه لم يمنعني أن أضمنه أولاً إلا كراهة أن يقولوا سبقنا [٣].

وكان علي بن الحسين يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة، وكان يعجبه أن يحضر طعامه لليتامى والاضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم، وكان يناولهم بيده، ومن كان منهم له عيال حمل له الى عياله من طعامه، وكان لا يأكل طعاماً حتى يبدأ فيتصدق بمثله [٤].

---

(١) بحار الانوار: ج٧٨ ص١١٨ ب٢٠ ح١٢.
(٢) بحار الانوار: ج٤٦ ص٥٦ ب٥ ح٨.
(٣و٤) سفينة البحار: ج١ ص٦٠٩ مادة «سخى».

وأمّا ما يروى من سخاء أبي جعفر الامام الباقر عليه السلام فإنه كان يجيز بالخمسمائة الى الستمائة الى الألف درهم ، وكان لا يملّ من صلة إخوانه وقاصديه ومؤمّليه وراجيه [1] .

وأمّا ما روي عن سخاء إمامنا جعفر الصادق عليه السلام فعن أبي جعفر الخثعمي قال : أعطاني الصادق عليه السلام صرة فقال لي: ادفعها الى رجل من بني هاشم ولا تعلمه أني أعطيتك شيئاً ، قال : فأتيته فقال : جزاه الله خيراً ما زال كل حين يبعث بها فنعيش به الى قابل ولكن لا يصلني جعفر بدرهم في كثرة ماله [2] .

وروي عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام قال : كنت عند سيدنا الصادق عليه السلام إذ دخل عليه أشجع السلمي يمدحه فوجده عليلاً فجلس وأمسك ، فقال له سيدنا الصادق عليه السلام : عدّ عن العلّة واذكر ما جئت له ، فقال أشجع :

ألبسك الله منه عافية ... في نومك المعتري وفي أرقك

يخرج من جسمك السقام كما ... أخرج ذلّ السؤال من عنقك

فقال الصادق عليه السلام : ياغلام أيش معك ؟ قال : أربعمائة درهم ، فقال:أعطها للأشجع، قال : فأخذها وشكر وولّى ، فقال: ردوه، فقال :ياسيدي سألت فأعطيت فلم رددتني؟ قال: حدثني أبي عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: خير العطاء ما أبقى نعمة باقية، وأنّ الذي أعطيتك لا يبقي لك نعمة باقية ، وهذا خاتمي فإن اعطيت به عشرة آلاف درهم وإلا فعد عليّ وقت كذا و كذا اوفك إيّاه ، قال : ياسيدي قد أغنيتني وأنا كثير الأسفار وأحصل في المواضع المفزعة فتعلّمني ما آمن به علي نفسي ، قال : فإذا خفت أمراً فاترك يمينك على امّ رأسك واقرأ برفيع صوتك : «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً و كرهاً واليه يرجعون» [3]، قال أشجع : فحصلت في وادٍ فعتت فيه الجن ، فسمعت قائلاً

(١و٢) سفينة البحار : ج١ ص٦٠٩ مادة «سخى» .
(٣) آل عمران : ٨٣ .

يقول : خذوه، فقرأتها ، فقال قائل : كيف نأخذه وقد احتجز بآية طيبة [١] .

وأمّا سخاء الامام السابع موسى بن جعفر عليهما السلام فإنه كان يصل بالمائتي دينار الى الثلاثمائة [٢] .

وكانت صرار موسى مثلاً بين الناس . كانوا يقولون : عجباً لمن جاءته صرة موسى فشكى القلّة [٣] .

وقد أعطى العمري الذي كان يؤذيه ويسبه ثلاثمائة دينار وله قصة لطيفة [٤] .

وأعطى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي أراد أن يسعى به عند هارون أربعمائة وخمسين ديناراً وألفاً وخمسمائة درهم [٥] .

وروي أنه قد حضره فقير مؤمن يسأله سدّ فاقته، فضحك في وجهه، فقال: أسألك مسألة فإن أصبتها أعطيتك عشرة أضعاف ما طلبت، وإن لم تصبها أعطيتك ماطلبت، وكان قد طلب منه مائة درهم يجعلها في بضاعة يتعيش بها ، فقال الرجل: سل ، فقال موسى عليه السلام : لو جعل إليك التمني لنفسك في الدنيا ماكنت تتمنى ؟ قال : كنت أتمنى أن ارزق التقية في ديني وقضاء حقوق إخواني ، قال : ومالك لم تسأل الولاية لنا أهل البيت ؟ قال: ذلك قد اعطيته وهذا لم اعطه، فأنا أشكر على ما اعطيت وأسأل ردّ ما منعت ، فقال : أحسنت ، اعطوه ألفي درهم ، وقال: اصرفها في كذا يعني في العفص فإنه متاع يابس [٦] .

و أمّا سخاء الامام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام فإنه قضى دين أبي محمد الغفاري وكان ديناً ثقيلاً [٧] .

وأعطى الرجل الخراساني الذي افتقد نفقته في طريق الحج مائتي دينار [٨] .

وأعطى أبا نؤاس ثلثمائة دينار والبغلة التي كان ركبها [٩] .

---

(١) سفينة البحار : ج١ ص٦٠٩ مادة «سخى» .

(٢-٩) سفينة البحار : ج١ ص٦١٠ مادة «سخى» .

ولمّا دخل عليه دعبل بن علي وإبراهيم بن العباس في ولاية العهد أنشده دعبل:

مدارس آيات خلت من تلاوة | و منزل وحي مقفر العرصات

وأنشده إبراهيم:

أزال عزاء القلب بعد التجلّد | مصارع أولاد النبي محمد

فوهب لهما عشرين ألف درهم من الدراهم التي عليها اسمه[1].

وروى الصدوق عن البزنطي قال: قرأت كتاب أبي الحسن الرضا عليه السلام الى ولده أبي جعفر عليه السلام: يا أباجعفر بلغني أنّ الموالي اذا ركبت أخرجوك من الباب الصغير و إنما ذلك من بخل بهم لئلاّ ينال منك أحد خيراً، فأسألك بحقي عليك لا يكن مدخلك ومخرجك إلا من الباب الكبير، واذا ركبت فليكن معك ذهب و فضة، ثم لا يسألك أحد إلا أعطيته، ومن سألك من عمومتك إذ تبره فلا تعطه أقل من خمسين ديناراً و الكثير إليك، ومن سألك من عمّاتك فلا تعطها أقل من خمسة و عشرين ديناراً والكثير إليك، إني إنما اريد أن يرفعك الله تعالى فانفق ولا تخش من ذي العرش اقتاراً[2].

وأمّا الامام التاسع محمد الجواد عليه السلام فإنه عمل بما كتب أبوه الرضا عليه السلام، فصار يخرج ويدخل الباب الكبير ويعطي كل من يجده عند الباب[3].

أمّا ماذكر عن سخاء الامام العاشر علي بن محمد الهادي عليه السلام فإنه أعطى كل واحد من أحمد بن إسحاق وعلي بن جعفر الهمداني وعثمان بن سعيد ثلاثين ألف دينار، وأعطى الرجل الذي قصده من الكوفة لأداء دينه ثلاثين ألف درهم[4].

أمّا الامام الحادي عشر الحسن العسكري عليه السلام فقد أعطى علي بن إبراهيم

---

(١) سفينة البحار: ج١ ص٧٧ مادة «برهم».

(٢) سفينة البحار: ج١ ص٤١٤ مادة «خلق».

(٣و٤) سفينة البحار: ج١ ص٦١٠ مادة «سخي».

ابن موسى بن جعفر خمسمائة درهماً، وأعطى ابنه محمد ثلاثمائة وكانا على الوقف [١].

وأعطى إسماعيل العباسي مع كذبه في سؤاله مائة دينار [٢].

وأعطى لأبي يوسف شاعر المتوكّل وكان فقيراً أربعمائة درهم [٣].

وأعطى بعض العلويين خمسين ديناراً [٤].

وأمّا ما يكون من سيرة الامام المنتظر عجل الله فرجه وجعلنا من أنصاره فقد أخبرنا بها أجداده الأئمة الأطهار الأبرار.

فمن ذلك ما رواه في البحار عن جابر قال: دخل رجل على أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال له: عافاك الله اقبض مني هذه الخمسمائة درهم فإنها زكاة مالي، فقال له أبو جعفر: خذها أنت فضعها في جيرانك من أهل الاسلام والمساكين من إخوانك المسلمين، ثم قال: اذا قام قائم أهل البيت قسّم بالسوية وعدل في الرعية فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وإنما سمّي المهدي لأنه يهدي الى أمر خفي ويستخرج التوراة وسائر كتب الله عزّ وجلّ من غار بأنطاكية، ويحكم بين أهل التوراة بالتوراة وبين أهل الانجيل بالانجيل وبين أهل الزبور بالزبور وبين أهل القرآن بالقرآن، ويجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها، فيقول للناس: تعالوا الى ماقطعتم فيه الأرحام وسفكتم فيه الدماء الحرام وركبتكم فيه ماحرم الله عزّ وجلّ فيعطي شيئاً لم يعطه أحد قبله، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً كما ملئت ظلماً وجوراً وشراً [٥].

وروي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قصة المهدي قال: فيجيء الرجل فيقول: يا مهدي أعطني أعطني، فيحثي له في

(١-٤) سفينة البحار: ج١ ص٦١٠ مادة «سخى».

(٥) بحار الانوار: ج٥٠ ص٢٩٤ ب٢٧ ح٦٩.

ثوبه ما استطاع أن يحمله [١] .

وفي خبر آخر في البحار مسنداً الى أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

يخرج في آخر الزمان خليفة يعطي المال بغير عدد . هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن زهير بن حرب عن عبدالصمد بن عبدالوارث عن أبيه عن داود. انتهى [٢] .

الصفة الخامسة التي ذكرها الله للمتقين بقوله: **«والمستغفرين بالاسحار»**.

الاستغفار هو طلب العبد من الله أن يغفر له ذنبه وتقصيره. والمغفرة والغفران: هو أن يستر عليه الله ذنبه، وأن يعفو عما يستحقه العبد من العقوبة على ما صدر منه من الذنب والتقصير . والاستغفار و طلب العفو من الله لا يعني أنه صدر منه إحدى الذنوب التي يعرفها الناس من المعاصي الصغائر والكبائر، فإن هذا المعنى إنما يكون بالنسبة الى سائر البشر غير الأنبياء و الأوصياء الذين يلزم كونهم معصومين من الذنوب، فإن هذا القسم يرى نفسه مذنباً اذا اشتغل بأكل أو شرب أو نوم ، حيث إنه شغل نفسه بما ينفع به جسمه، و يرى أن الواجب عليه أن يصرف جميع أوقاته في عبادة الله .

ثم إن هذه الصفة ـ وهي الاستغفار بالأسحار ـ تدخل في صفة القنوت الذي تقدم اذا قلنا إنه بمعنى الخشوع أو الدعاء، وتكون هذه الصفة في وقت خاص وهو وقت السحر.

اذا عرفت ذلك فيلزم أن تعرف أن الاستغفار إنما يتحقق من العبد اذا كان ملتفتاً الى نفسه والى تقصيره في حق مولاه، وأن هذا التقصير يستحق عليه العقوبة ويحذر من المولى أن يوقع به هذه العقوبة فيتدارك تقصيره بالتوبة وطلب

---

(١) بحار الانوار : ج٥١ ص١٠٤ ب١ ضمن حديث ٣٩ .

(٢) بحار الانوار : ج٥١ ص١٠٥ ب١ ذيل حديث ٣٩ .

العفو والمغفرة .

و من أحسن الأوقات و أنسبها اطلب العفـو والاستغفار وقت السحر، فإنّ النوم يطيب ويلذّ في ذلك الوقت، فإذا ترك العبد النوم في وقت طيبه ولذته وتوجه لعبادة الله بعد أن أسبغ وضوءه و صلّى الصلاة المطلوبة منه في ذلك الوقت و هـي صلاة الليل، وبعد فراغه من الصلاة يتذكّر ذنوبه وآثامه، أو يلتفت الى تقصيره، ثم يتذكّر ما أعده الله للعاصي من العذاب، أو يتذكّر حال المقصرين و بُعدهم عن الله عزّوجلّ فيندم على ما فرط منه من الذنب أو التقصير، فيستغفر الله من ذلك ويسأله أن يغفر له هذا الذي صدر منه من ذنب أو تقصير ويعاهد الله أنه لايعود الى هذا العمل أبداً .

إنّ أولياء الله و عباده المقربين الذين ذاقوا حلاوة المناجاة يستأنسـون في مناجاتهم في تلك الساعة وهي ساعة السحر، لأنّ الناس كلّهم في نوم عميق، وليس في ذلك الوقت أصوات تشغلهم عما هم عليه، فهم في فراغ من كل الامور الدنيوية وقد انقطعوا الى الله بقلوبهم وناجوه مناجاة الحبيب لحبيبه، فهم يستغفرونه ويطلبون منه عتق رقابهم من النار .

ثم إنّ الاستغفار فيه فوائـد كثيرة دنيوية و اخروية كما جاءت الآيات و الروايـات بذلك . فمن الآيات قوله تعالى حاكياً عن نوح عليه السلام : « فقلـت استغفروا ربكـم إنـه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * و يمددكـم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً »[1] فهذه الآية الشريفة تبيّن لنا أنّ الانسان اذا استغفر ربه بعد ارتكاب المعصية ولم يبق مصراً على الذنب يغفر له الله و لايعاقبه في الآخرة على فعله التائب عنه. و أمّا في الدنيا فإنّ الله يرسل عليه من السماء كل شيء يطلبه من الله، ويزيده في أمواله وأولاده ويجعل له جنات أنهاراً في الدنيا والآخرة .

---

(١) نوح : ١٠ـ١٢ .

تنبيـه

ومما ينبغي للحكومات الاسلامية أن يلتفتوا إليه ويتأمّلوا فيه ويعتبروا بقوله تعالى في سورة هود : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليـه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولّوا مجرمين »[1] .

إني أكتب هـذه الأسطر في سنـة ١٩٦٦ والحكومات الاسلامية في غاية الاضطراب فيما بينها ، فترى كل حكومة لا ترتضي أعمال غيرها من الحكومات ولننظر الى سوريا قد أحاط بها الخطر من جميع جوانبها قد حشدت اليهود جيشها على حدودها، هؤلاء اليهود أذلّ الامم وأحقرها وأقلّها قوة وبأساً وأخضعها للاسلام و اذا بهم يحشدون جيشهم على حكومة إسلامية ، فيا الأسف أين قـوة الاسلام و سطوته ورهبته ! فهل تعرفون السبب في هـذا ؟ فإني اخبركم به .

إنّ السبب هو ارتكابهم للجرائم وعدم استغفارهم كالاعلان في بيع الخمور وأكل الربا ومخالفة قوانين القرآن ، وعدم اتفاق المسلمين بعضهم مع بعض ، وقد قال الله تعالى في سورة النساء : «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً»[2].

وإنّ من أصعب الامور الاقتداء بالكافرين ولو في أقل الامور ، و إنما ذكرت تاريخ كتابة هذه الأسطر بالتاريـخ الميلادي لأني لو أرختـه بسنة ١٣٨٦ لجهله أكثر الناس و لظنوا أنّ الكتابة كانت قبل ستمائة سنة .

فليستغفر المجرمون ربهم و يتوبوا إليه حتى يزدهم قوة الى قوتهم ويخلصهم من كيد المستعمرين الذين يلعبون بهم لعب الأطفال بالكرة ، ومع الأسف ينبغي أن نقول فى هذا العصر لعب الرجال بالكرة، فإنّ رجالنا اقتداءً بالأعداء قد تركوا ما ينفعهم واهتموا بلعبة الأطفال .

---

(١) هود : ٥٢ .

(٢) النساء : ٦٤ .

ومن شجون الحديث أني بالأمس قرأت في بعض الصحف الاسلامية افتخار المسلمين بفوز البطل محمد علي كلاي في الملاكمة، فما أدري أيّ فرقة أو أيّ مذهب من مذاهب المسلمين جوّز أو رجّح لهذا البطل هذه اللعبة الخطرة التي قد تأتي على بعض أعضائه الرئيسية فتعيبها أو تسقطها عن الاعتبار ! وقد تأتي على عينيه فتتركه جليس داره لا ينفع نفسه ولا ينفع المسلمين بشيء من هذه القوة التي وهبه الله إيّاها ، وما أدري أيّ فائدة تعود عليه أو على المسلمين من هذه الملاكمة ؟! نعم لو كانت في حرب المسلمين مع أعدائهم لكان ذلك من أعظم الامور، ألا ترون أنّ ضربة علي عليه السلام يوم الخندق الى الآن تذكر على المنابر وصفحات التاريخ حيث إنها كانت لأجل الدين.

وأمّا ماجاء من الأخبار في فوائد الاستغفار فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : لكل داء دواء ودواء الذنوب الاستغفار [1].

وعن الامام الخامس أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : كان رسول الله والاستغفار لكم حصنين حصينين من العذاب، فمضى أكبر الحصنين وبقي الاستغفار ، فأكثروا منه فإنه ممحاة للذنوب ، قال الله عزّ وجلّ : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» [2].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كل ذنب : أستغفر الله [3].

وعن الامام الصادق عليه السلام قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقوم من مجلس وإن خفّ حتى يستغفر الله خمساً وعشرين مرة [4].

وعن الحارث بن مغيرة عن الصادق عليه السلام قال : إنّ الله يحبّ المفتّن التواب،

---

(١) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٧٩ ب١٥ ح١١ .
(٢) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٧٩ ب١٥ ح١٣ والاية ٣٣ من سورة الانفال .
(٣) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٨٠ ب١٥ ح١٥ .
(٤) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٨١ ب١٥ ح٢٢ .

قال : وكان رسول الله ﷺ يتوب الى الله في كل يوم سبعين مرة من غير ذنب ، قلت : يقول : أستغفر الله و أتوب إليه ؟ قال : كان يقول : أتوب الى الله [١].

وعن النبي ﷺ قال : من كثرت همومه فليكثر من الاستغفار [٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : العجب ممن يهلك والمنجاة معه ، قيل: وما هي؟ قال : الاستغفار [٣] .

وعن النبي ﷺ قال : من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب [٤] .

فالذي يظهر من الأخبار أنّ البلاء الذي يصيب الناس إنما يصيبهم لأجل إصرارهم على الذنوب وعدم استغفارهم ، تأمل في كلمة الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «العجب لمن يهلك والمنجاة معه» فالعبد ينبغي له أن يذكر الله في كل أمر يريد فعله أو يذكره في كل يوم مرة .

أمّا الذي بيده السلطة والأمر والنهي فينبغي له أن يكون على حذر في كل حين، وأن يستغفر الله من كل خطيئة في كل وقت. ومعنى الاستغفار من ذوي الأمر: هو ترك ظلم العباد ، وإلا فإنّ قول «أستغفر الله ربي وأتوب إليه» لاينفعه اذا كان مجرداً عن ترك الذنب .

فقد ورد في الأخبار أنّ العبد اذا استغفر الله وهو باقٍ على فعل المعاصي فهو كالمستهزىء بربه، وأنّ العقوبة ونزول البلاء أقرب وأسرع الى هذا العبد من غيره [٥] .

---

(١) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٨٢ ب١٥ ح٢٥ .

(٢) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٨٣ ب١٥ ح٢٨ .

(٣) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٨٣ ب١٥ ح٣٠ نقلا عن دعوات الراوندي.

(٤) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٨٤ ب١٥ ذيل حديث ٣٠ نقلا عن دعوات الراوندي.

(٥) بحار الانوار : ج٦ ص ٣٦ ب٢٠ ح٥٤ نقلا بالمعنى .

هذا ما أمكن ذكره في باب الاستغفار، والآيات والأخبار الواردة فيه كثيرة جداً. وبعد الوصول الى هنا فقد علمنا من الآية الشريفة أنّ المتصف بهذه الصفات الخمس فهو من المتقين وممن وعده الله بالامور الثلاثة بالآخرة . وأنّ الذي في صفة واحدة أو صفتان أو ثلاث من هذه الصفات فإنه حائز على بعض صفات المتقين، ويمكن أن توصله هذه التي فيه الى بقية الصفات إن كان ممن يطلب العلى ويجاهد نفسه.

وبعد هذا نقول : لمّا انتقل النبي ﷺ من دار الدنيا الى دار الخلود فهل عثرت الامّة بعده أو وجدت من هو حاوٍ لهذه الصفات كلها أو بعضها من أصحابه وخاصّته وأهل بيته؟ وهل ذكر أهل التاريخ أنّ أحداً فحص وبحث وتصفح عمن اجتمعت فيه هذه الخصال بعد النبي ﷺ؟ أو أنّ القرآن والنبي ﷺ أشارا الى من تجمعت فيه هذه الخصال باسمه الصريح حتى يعرف في الامّة ؟

والجواب عن هذه الأسئلة هو : أنّ القرآن لم يصرح باسم أحد كما صرح باسم النبي محمد ﷺ أنه رسول الله ، ولكنه وصفه لنا وصفاً ببعض أفعاله ، والنبي ﷺ عرّفنا أيضاً بصاحب الصفة التي ذكرها القرآن ، فمن أراد الحق والحقيقة فقد عرفه بصفته من القرآن وباسمه من النبي ، فيلزمه أن ينزله بالمنزلة التي أنزله بها القرآن، وأمّا من يريد المغالطة والمماراة ويبتغي الفتنة بتأويل المتشابه من القرآن فإنه سيكون مع زائغي القلوب ويحشر الى النار.

وأمّا النبي ﷺ فقد ذكر لنا من هو المتصف بالصفات الخمس وبغيرها مما يؤهّله الى منصب الخلافة بعد رسول الله .

أمّا ما ذكره القرآن فهو قوله تعالى : «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» [1] فهذه الآية عربية صريحة محكمة يفهمها كل عربي له أدنى فهم ، ولا تخفى إلا على إنسان يقول ويعترف بأنه لا فهم له ولا معرفة . فالآية تعرّفنا وتأمرنا بأن الوليّ علينا بعد

---

(١) المائدة : ٥٥ .

رسول الله هو صاحب هذه الصفة ، وأنّ الله هو الذي جعله ولياً علينا وليس لنا أن نرفضه أو نبدله، فالآية ليس فيها إجمال ولاتحتاج الى ترجمة لمن لا يعرف شيئاً من العربية ، يبقى علينا أن نعرف صاحب هذه الصفة من هو .

فقد ذكر المفسرون من علماء الامّة المحمدية من جميع فرقهم أنّ النبي صلى الله عليه وآله لمّا نزلت عليه الآية قال لأصحابه: قوموا حتى نرى من صاحب هذه الصفة، فتوجّهوا الى المسجد فعرفوا أن المتصدق هو علي بن أبي طالب عليه السلام تصدق بخاتمه على المسكين وهو راكع [1] .

وبعد هذا نرجع الى ما نحن فيه فنقول: إنّ هذا المؤمن المتصدق في صلاته الذي جعله الله ولياً على المؤمنين بعد رسوله لابدّ وأن يكون حائزاً على هذه الصفات الخمس وعلى غيرها من العلم والعمل به والزهد وغيرها الى آخر الأُخلاق الحميدة، هذا اذا أراد الانسان أن يعرف صاحب الصفات فإنّ ماذكر كاف في المعرفة، أمّا اذا أراد المجادلة بالباطل فإنّ أبواب الباطل كثيرة وإن كانت كلها واهية، وإنّ في القرآن آيات اخر كلّها تدلّ على ما دلّت عليه هذه الآية، فمن أرادها فليطلبها، ومن لم يردها فهي حجة عليه ، ولايبطل مدلولها اذا لم يردها المتكبر على أحكام الله.

وأمّا ماذكره النبي صلى الله عليه وآله فهو موقوف على ذكر مقدمة ليكون الأمر واضحاً جليّاً لكل أحد ويظهر لنا أنّ المجادل فيه إنما هو مجادل بالباطل.

أمّا المقدمة فهي قوله تعالى: «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً و ادخلوا الباب سجداً و قولوا حطّة نغفر لكم خطاياكم و سنزيد المحسنين» [2] .

وحاصل الأمر من هذه الآية: أنّ قوم موسى لمّا كتب الله عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين عاماً وبعد انقضاء المدة لما فصلوا من أرض التيه ودخلوا العمران،

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص٢١٠ .
(٢) البقرة : ٥٧.

وكان بنو إسرائيل قد أخطأوا خطيئة فأحبّ الله أن ينقذهم منها إن تابوا علّمهم طريقة التوبة ووعدهم على ذلك أن يرغد لهم العيش فيكونوا منعّمين في الدنيا والآخرة.

أمّا طريقة التوبة فهي في غاية السهولة وذلك بأن يدخلوا الباب التي أمرهم بالدخول منها بحالة مخصوصة وأن يقولوا كلمة مخصوصة .

أمّا كيفية الدخول فهي أن يدخلوا حانين ظهورهم كهيئة الراكع إشارة لخضوعهم لله تعالى وأنهم مطيعون لأمره .

وأمّا الكلمة التي امروا أن يقولوها فهي كلمة الاستغفار المعبّر عنها بكلمة «حطة» والمقصود منها الطلب من الله أن يحطّ عنهم خطيئتهم ويغفر لهم، وقد جعل الله الدخول من الباب بهذه الكيفية المخصوصة علامة للمؤمن المطيع، وعدم الدخول من هذا الباب أو الدخول بكيفية اخرى أو عدم التكلّم بهذه الكلمة حين الدخول أو عدم نية الامتثال لأمر الله بأن يدخل ويقول ولكن لا عن عقيدة و إيمان علامة للمنافق العاصي الذي يظهر الايمان ويبطن الكفر.

و بعد أن جعل الله الدخول بهذه الكيفية هي العلامة الفارقة بين المؤمن والكافر كان المؤمن من بني إسرائيل اذا أراد الدخول من الباب أحنى ظهره ـ أي دخل الباب ساجداً وهو خاضع لله ـ وهو يقول: اللّهمّ حطّ عنّا الذنوب واغفر لنا.

وأمّا الكافر كان اذا أراد الدخول ولم يتمكّن من الدخول قائماً ـ حيث إنّ الباب كان واطئاً ـ يزحف على استه ويقول بدل حطّة حنطة حمراء، وقد أشار الله الى هؤلاء الذين بدلوا القول والفعل بقوله: «فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون»[1] .

فقد اتضح للمسلم الذي يروم التبصير في دينه والذي يطلب الرشد ولا يكون كالأعمى الذي يقوده غيره، فلا يدري أين يضع قدميه ومايطأ برجليه، اتضح له أنّ المؤمن هو الذي يدخل باب حطّة على الكيفية التي أمره الله بها، وأنّ الذي يمتنع من الدخول أو يدخل على خلاف ما أمره الله فهو كافر ، وأنه من الظالمين، و أنه

(١) البقرة : ٥٩ .

من الفاسقين الذين سينزل الله عليهم رجزاً من السماء.

اذا عرفت هذا فاستمع أيها المسلم المصدق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله لما يقوله لك نبيك ويرويه عنه الثقات من العلماء، ثم ارجع الى عقلك فاسأله عما يحكم به من امور الدين فاعمل به و لاتخالفه، فإنك إن خالفت حكم العقل و حكم القرآن و حكم النبي فلماذا تسمي نفسك مسلماً؟! فهل تريد أن تخدع نفسك أو تخدع الناس؟! فإنّ ذلك لايضرّ غيرك، فاحذر وتثبّت.

في الصواعق المحرقة لابن حجر قال: الحديث الرابع و الثلاثون، أخرج الدار قطني في الافراد عن ابن عباس أنّ النبي (ص) قال: علي باب حطّة، من دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً[1].

وأخرج علي المتقي في كنز العمال[2] والمنّاوي في فيض القدير[3] و كل منهما قال: أخرجه الدار قطني في الافراد عن ابن عباس ... الى آخر الحديث المتقدم.

أيها المسلم، قد عرفت معنى باب حطّة و سمعت قول النبي صلى الله عليه وآله والمراد من قوله هو: أنّ من اتخذ علياً عليه السلام إماماً بعد النبي صلى الله عليه وآله و عمل بأقواله فهو كالداخل من باب حطّة يعدّ عندالله و عند الرسول مؤمناً و يغفرالله له ذنوبه، ومن لم يتخذ علياً إماماً ولم يعمل بأقواله ولم يتخذ أحكام دينه منه لم يكن من المؤمنين كماذكر النبي صلى الله عليه وآله فهو عندالله من الكافرين، ولم يغفر له ذنوبه ويعاقبه عليها، هذا صريح قول النبي صلى الله عليه وآله فإن كنت تفهم من قوله صلى الله عليه وآله معنى آخر خلاف هذا الظاهر فخذ بما تفهم ودن الله به فإنه سيحاسبك عليه، و يعلم بسرك و خفيّ أمرك فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

هذه رواية واحدة ذكرتها لك و هي كافية لمن يطلب الرشد، فقد ذكرها

---

(١) الصواعق المحرقة: ص١٢٥.

(٢) كنز العمال: ج١١ ص٦٠٣ ح٣٢٩١٠.

(٣) فيض القدير: ج٤ ص٣٥٦.

رجل مناوىء للشيعة و ألف الصواعق رداً على الشيعة و ذكر فيه هذه الرواية ، فالطالب للحق يكتفي بها بعدما عرف حقيقة باب حطة وسمع قول النبي ﷺ. واذا أردت التأكد والزيادة على هذه الرواية فإن مثلها كثير من الروايات.

قال في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد: علي باب حطة، من دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً [١].

وهكذا ذكره في المناقب المرتضوية العلامة الشيخ محمد صالح الكشفي الحنفي [٢].

و كذا ذكره في أرجح المطالب الشيخ عبيدالله الآمرتسري الحنفي [٣].

و كذا ذكره في أسنى المطالب العلامة الشيخ محمد درويش الحوت [٤].

و كذا في ينابيع المودة للشيخ سليمان القندوزي الحنفي [٥] و كذا في مفتاح النجا في مناقب آل العبا [٦].

وذكره العلامة النبهاني في الفتح الكبير [٧].

و كذا ذكره الكثير من العلماء والمؤرخين.

وما الفائدة من التعداد والكتابة فإن القارىء إمّا أن يكون طالباً للحق فإنه يكفيه حديث واحد يذكره عالم غيرمتهم، وإن كان يريد كثرة الرواة وتعداد الروايات من غير تأثر بذلك فعليه بالكتب الكبار، فليقرأ مايشاء، فإن كل خبر كل رواية يقرأها تكون حجة عليه يسأله الله عنها يوم الحساب الأكبر، فلايجد عذراً له ولاجواباً .

اذا عرفت هذا فلنرجع الى ما نحن فيه من الصفات الخمس المذكورة في الآية الشريفة، وهل أنها مجموعة في رجال نوه الله والرسول عنهم؟

---

(١) منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد بن حنبل : ج٥ ص٣٠ .

(٢و٣و٤) لم نعثر عليها .

(٥) ينابيع المودة : ج٢ ص٧١ .

(٦) لم نعثر عليه .

(٧) الفتح الكبير : ج٢ ص٣٤٢ .

فنقول: إنّ النبي ﷺ لم يكن ليأمر امّته أجمع بالرجوع الى شخص ويحثهم على أخذ أحكام دينهم منه و يحكم بإيمان المتمسك به و كفر المبتعد عنه كما سمعت من قوله ﷺ: علي باب حطّة من دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً. فإنّ النبي ﷺ لم يحث على هذا إلا بالنسبة الى شخص يكون مثله باتصافه بجميع الأخلاق والصفات الحميدة وجمعه لجميع العلوم.

هذا الذي يمكن أن نقوله في حقّ النبي ﷺ واذا قلنا غير هذا فقد قصرنا في حقّ النبي.

وأمّا رواية عبدالله بن مسعود التي أخرجها العلّامة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة بسنده حيث قال: وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: علي بن أبي طالب باب الدين من دخل فيه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً. فمن أراد أن يدين الله بالدين الذي جاء به الرسول فليمتثل أمر النبي وليدخل من الباب الذي عيّنه النبي له، فإنّ الله يقول: «وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى واتوا البيوت من أبوابها»[1].

فقد تحصّل عندنا أنّ الرجال المتصفين بهذه الصفات من أول وجودهم في الدنيا الى ساعة خروجهم منها هم الذين خصّص الله لهم جزاء في الآخرة خيراً من الدنيا كلها من أولها الى آخرها، ولا يكفي اتصاف البعض بهذه الصفات في بعض أيام حياتهم وإن كان له عند الله الجزاء الحسن ولكنه لا يساوي المتصف في جميع أيام حياته.

فيلزم على الانسان العاقل أن يفحص و يبحث عن هؤلاء الرجال الذين مدحهم الله ورضي عنهم وجعلهم أهلاً للجزاء الاخروي، يلزم على المرء معرفة هؤلاء ليقتدي بهم في أقوالهم وأفعالهم إن كان ممن يطلب الرشد ويريد التقرب الى الله. فإنّ الله قد وصفهم بصفات كثيرة في آيات عديدة فمنها الآية التي بعد هذه

---

(١) البقرة: ١٨٩.

الآية وهي قوله تعالى:

شهد الله أنه لا اله الا هـو والملائكة واولوا العلـم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم(١٨).

الشهادة: لغةً مأخوذة من الشهود وهو الحضور ولا يجوز أن يكون أحد شاهداً على شيء حتى يكون متيقّناً للشيء بأحد الحواس، وحيث إنّ وحدانية الله وعدله المعبّر عنه بقيامه بالقسط ليسا مما يدركان بالجوارح والحواس الظاهرية وإنما يدركان بالعقل والمعرفة، فالشاهد عليهما من البشر لم يكن شاهداً بذلك المعنى أي: مدركاً لهما بالحواس، وإنما قيل له شاهد لكمال يقينه وقدرته على إقامة الحجة عليهما، وقد جعل الله اولي العلم شهوداً على هذين الأمرين وهم من البشر، قرنهم الله بالملائكة و أنزلهم بهـذه الرتبة العالـية بحيث اختارهم شهـوداً على وحدانيته وعدله.

وهذا مقام رفيع اختصّ الله به اولي العلم من خلقه، فإنّ الآية وإن لم تكن من موضوع الكتاب فإنه خصّص لصفات المؤمنين، ولكن الآية هـي من صفـات أولياء المؤمنين فيلزم ذوي العقل وطالبي الرشد أن يفحصوا عن أهل العلم الذين اختارهم الله شهوداً لوحدانيته وعدله، حتى يسمعوا منهم ما يفيضونه عليهـم من العلوم المتعلّقة بالوحدانية و العدل، فهؤلاء هم الذين جعلهم الله شهوداً على هذين الأمرين.

والمطلوب من امّة خاتم الأنبياء أن يدينوا الله بالاعتقاد بهذين الأمرين، يلزم على كل فرد من الامّة أن يستمع الى ما يلقيه هؤلاء الشهود حتى يعرفوا معنـى الوحدانية والعدالة و القيـام بالقسط معرفة حقيقية مطابقة لما يريده الله و تعرفه

الملائكة، فإنه لايعرفها من البشر إلا اولوا العلم، وأنّ هؤلاء ـ أي اولوا العلم الذين ذكرهم الله ـ عندهم علوم القرآن بجميع أنواعها وأصنافها، وحيث إنّ امّة النبي ملزمة بالعمل بالقرآن يلزمهم الرجوع الى العلماء ليتعلّموا منهم أحكام القرآن أيضاً.

ثم نسأل الامّة هل أنها تعرف من هؤلاء العلماء أحداً بعد رسول الله أو أنها بقيت في التيه عن معرفة الطريق إليهم؟ نعم يتمكن التائه أن يعرف الطريق إليهم بكلمة واحدة اذا تأمل فيها وأراد الاهتداء الى الطريق.

واذا أردت أن تعرف ما هي الكلمة فهي قول أولهم ورئيسهم الصادق المصدق، قال عليه السلام: علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب[1].

فهل ترى أيها العاقل الطالب للرشد الذي تريد الدين الصحيح، هل ترى في امّة محمد رجلاً كهذا علّمه رسول الله ألف باب أو مائة باب أو عشرة أبواب يفتح له من كل باب عشر أبواب؟! فما بال الناس لاتطلب العلم من هذا الرجل؟ و قد خاطبهم مراراً عديدة قائلاً لهم: سلوني قبل أن تفقدوني[2].

أيها الاديب، إنّ هذا العصر يختلف عما سبقه من العصور، هذا عصر عرف فيه قدر العلم، فانظر أنت في خطب أميرالمؤمنين وما فيها من بديع المعاني، انظر الى خطبته في التوحيد، وما جمعت من اصول العلوم مالاتجمعه خطبة، فمنها قوله عليه السلام: «ما وحّده من كيّفه، و لاحقيقته أصاب من مثّله، ولاإيّاه عنى من شبّهه الخ..»[3].

و قد أودع أميرالمؤمنين عليه السلام هذه العلوم كلها عند الأئمة الأحد عشر من

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٤ ص٤٤٤ ح١٣.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٨٠ الخطبة ١٨٩ ضبط صبحي الصالح.

(٣) نهج البلاغة: ص٢٧٢ الخطبة ١٨٦.

بنيه عليهم السلام ، و هم الذين نوّه عنهم رسول الله وسمّاهم بأسمائهم، فانظر لما صدر منهم من العلوم النافعة للبشر و لاتسلك طريقاً سلكه قبلك اناس امّيون ليس لهم شيء من المعارف، فإنك بحمدالله عارف أديب تفهم الكلام وتميّز بين الحسن وغيره.

انظر الى توحيد المفضّل لتعرف الأدلّة والبراهين التي بيّنها الامام الصادق عليه السلام للمفضّل بن عمر، واعرف لأهل العلم حقهم، واعرف كيف فضّلهم الله وعرّف الامّة بهم حيث جعلهم شهداء لتوحيده و عدله وقيامه بالقسط وهي منزلة رفيعة عالية، فلاتبخسها ولاتكن من الجاهلين.

ثم بعدما بيّن لنا الله الامور التي زيّنت للناس في الدنيا ، و أنها تزول أو يزول عنها صاحبها ، و أنبأنا أنّ عندالله خيراً منها ، و أنّ هـذا لايكون إلا للمتقين ، و أخبرنا أنّ المتقين الحقيقيين إنما هـم الذين اتصفوا بهذه الصفات ، عرّفنا أنّ التقوى إنما تحصل بالاعتقاد بعدله و أنه قائم بالقسط ، و حيث إنّ الاعتقاد بقيامه بالقسط يلزمه الكفّ عن الظلم سـواء كان ظلماً للنفس أو ظلماً للغير، فإنه إن لم يكفّ عنه فمقتضى عدلالله القصاص منه .

وحيث إنّ الانسان خلق جاهلاً لكل شيء و هو محتاج الى العلم بجميع أنواع العلم حتى يتركه فيفوز برضا الله، ولهذا خلق الله رجالاً فألهمهم العلـم وأمرنا بالرجوع إليهم لنعرف أحكام ديننا .

وبالختام لابأس بذكر شيء من فضل آية الشهادة .

قال في مجمع البيان: ومما جاء في فضل هذه الآية مارواه أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: من قرأ «شهدالله. . . الآية» عندمنامه خلق الله منها سبعين ألف خلق يستغفرون له الى يوم القيامة .

وعن الزبير بن العوام قال: قلت: لأدنون هذه العشية من رسول الله وهي عشية عرفة حتى أسمع ما يقوله، فحبست ناقتي بين ناقة رسول الله وناقة رجل كان الى جنبه فسمعته يقول: «شهدالله أنه لاإله إلاهو. . . الآية» فمازال يرددها حتى رفع.

و عن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش، فكنت اختلفت إليه، فلمّا كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر الى البصرة قام من الليل يتهجّد فمرّ بهذه الآية «شهدالله أنه لاإله إلا هو. . . الآية» ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهدالله به و أستودع الله هذه الشهادة و هي لي عندالله وديعة «إنّ الدين عندالله الاسلام» قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً فصلّيت معه وودعته، ثم قلت: آية سمعتك تردها فما بلغك فيها؟ قال: لا احدثك بها الى سنة، فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة، فلمّا مضت السنة قلت: يا محمد قد مضت السنة. فقال: حدّثني أبو وائل عن عبدالله قال: قال رسول الله: يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: إنّ لعبدي هذا عهداً عندي وأنا أحقّ من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي هذا الجنة.

و قال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً فلمّا نزلت «شهدالله أنه لا إله إلا هو. . ، الآية» خررن سجّداً[1] انتهى.

ثم بعد كل هذه الامور أخبرنا الله تعالى بأنه لايقبل منّا إلا ما عيّنه لنا من الدين، وهو قوله تعالى:

ان الدين عندالله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب(١٩).

فإنّ الاسلام هو التسليم لله و لرسوله في كل الامور و الخضوع و الانقياد لأمرهما و نهيهما، وإنّ جماعة من اليهود ـ وهم الذين اوتوا الكتاب ـ كانوا في المدينة وأطرافها وكانوا يحدّثون عن بعثة النبي و يذكرون أوصافه و ينتظرون ظهوره، وكانوا يظنّون أنهم يمكنهم التلاعب والاحتيال والمكر والختل كما هي

(١) مجمع البيان: ج١ ص٤٢١.

عادتهم في كل مكان وأوان، فلمّا بعث النبي ورأوا أنه لايمكنهم أن يفعلوا شيئاً أظهروا الخلاف وغالطوا وناقشوا وقالوا: إنّ الموعود غيرهذا **«وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب»** .

أمّا غيرأهل الكتاب من الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله فإن ساروا على الطريق الذي أرشدهم إليه ودلّهم عليه و سلّموا له في جميع الامور فإنّ الله يقبل منهم ذلك، و أمّا إذا خالفوا أمر النبي وشرّعوا اموراً من آرائهم وما تشتهيه أنفسهم فإنّ هذا من أعظم المآثم والجرائم، وخذ لك مثلاً واحداً وقس عليه سائرالامور. فإنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لهم في مقامات عديدة: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنكم لن تضلّوا ما إن تمسكتم بهما»[1] .

فينبغي للمرء أن يتدبر ويتأمل ويفكّر ويتحقق ولايكن من الغافلين ويقول « إنا وجدنا آباءنا على امّة وإنا على آثارهم مقتدون» [2] فإنّ هذا الاعتذار لو كان الامّي الذي كان في العصور السابقة يقنع به نفسه يقبله منه مثل من كان مثله في الآية، أمّا في العصرالحاضر الذي دخل الناس فيه المدارس وتعلّموا العلوم حتى تخرج منهم : المدرس والمهندس و الطبيب و الدكتوراه الذي يمكنه أن يتوصل الى رتبة الوزارة أو غيرذلك من الرتب العالية، فهل ترى أنّ الامّي الذي امتدّ به الزمن فعاش الى هذا العصر هل تراه يعذر هذا المتعلّم لو اعتذر بهذا العذر؟ أو تراه يجابهه بالردّ عليه ويقول له: أنا ما كنت أعلم ولاأفهم ولا افكّر بأنّ أبي كان ضالاّ فأنت أيها الدكتور كيف تقول ذلك؟ وأنك توصلت الى امور دقيقة عجز عنها جدك و أبوك وهذا قول البسطاء البلهاء السذج الذين لاعلم لهم و لا معرفة. ولنذكر للدكتور كلمة قالها أميرالمؤمنين عليه السلام في تعريف الاسلام

---

(١) راجع بحار الانوار : ج٢٣ ص١٠٤ ب٧ .

(٢) الزخرف : ٢٣ .

وعليه بالتدبر فيها لعلّه يتوصل منها الى شيء ينفعه .

قال عليه السلام :لأنسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي . . . الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق والتصديق هوالاقرار، والاقرار هوالأداء، و الأداء هو العمل . ثم قال : إنّ المؤمن أخذ دينه عن ربه و لم يأخذه عن رأيه، إنّ المؤمن يعرف إيمانه في عمله و إنّ الكافر يعرف كفرانه بإنكاره ، أيها الناس دينكم دينكم فإنّ السيئة فيه خير من الحسنة في غيره، إنّ السيئة فيه تغفر، وإنّ الحسنة في غيره لاتغفر [1].

تأمّل في هذه الكلمات التي ألقاها عليك باب مدينة العلم فإنه يقول : إنّ المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه . وهل يمكنك أن تأخذ دينك عن ربك إلا بواسطة من قال في حقه النبي صلى الله عليه وآله: أنا مدينة العلم وعلي بابها [2]. وقال علي عليه السلام : علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب [3].

أيها الدكتور الأديب الفاهم، لاتخدع نفسك فإنه لايقبل منك قولك «إنا وجدنا آباءنا على امّة وإنا على آثارهم مقتدون» .

ثم بعدما بيّن الله لعباده بواسطة نبيه أنّ الدين هوالتسليم والانقياد والخضوع والامتثال في كل ما يأمر به المولى بحيث يأخذه عن ربه ولا يخلطه بشيء يأخذه عن رأيه ، بعد ما بيّن لنا هذا بإيضاح وجلاء ولم يبق فيه شيء من الابهام والخفاء حتى يعتبر به من يريدالفتنة ويريدالفساد، فمن كان بهذهالصفة فهو مؤمن ومسلم حقيقة ، ومن لم يكن بهذه الصفة فإنّ الله أمر نبيه أن يقول للمخالفين له بأنه هو ومن اتبعه ـ أي من اتصف بهذه الصفات ـ هم المسلمون حقاً، ثم يكرر عليهم السؤال ثانياً ويسألهم سؤال إنكار وتوبيخ هل أنهم أسلموا كإسلامه أوأنهم مصرّون

---

(١) بحار الانوار : ج٦٨ ص٣١١ ب٢٥ ح٣ .

(٢) كنز العمال : ج١١ ص٦٠٠ ح٣٢٨٩٠ .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج٤ ص٤٤٤ ح١٣ .

على البقاء فيما كانوا عليه؟ فقال تعالى :

فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد (٢٠).

أي: بعدما بيّنت أيها النبي للناس حججك وأدلّتك على توحيد الله وقيامه بالقسط، وأنّ القيام بالقسط معنى عام يشمل جميع المخلوقات من أنواع البشر والحيوان والشجر والنبات والجنّ و الملائكة بأنّ خلقتها جعلت على هيئة حكيمة ليس فيها نقص ولاميل الى زيادة أو نقصان ، و من جملة ذلك الشرائع السماوية ، فإنها مركّبة من قوانين حكيمة ليس فيها حرج ولاشدة على العباد ،و إنها يلزم فيها الدقة في التطبيق ويلزم فيها امتثال أمر الله في الكثير والقليل، فمن خالف قاعدة منها وعمل فيها برأيه فقد خرج من زمرة المؤمنين في هذه التي خالفها.

فبعد مادلّ الدليل على قيام الله بهذا القسط العام وشهد الله والملائكة واولوا العلم على ذلك اذا خالف مخالف و احتجّ معاند سواء كان من أهل الكتاب أو من الامّيين فقل لهم: إني «**أسلمت وجهي لله و من اتبعن**» .

فقد تبيّن مما تقدم: أنّ الاسلام هو التسليم والانقياد والاذعان، وهذه الآية توضح لنا هذا المعنى، فإنّ وجه كل ذي وجه اذا كان في يد أحد وتحت إرادته يكون صاحب الوجه طوع إرادة ذلك المالك لوجهه، ولايمكنه التخلّف عنه مقدار ذرة واحدة ، إذ أنه لايمكنه الانحراف عنه والميل الى جهة اخرى فلايتصور في حقه المخالفة، وهذا هو التسليم والانقياد والخشوع .

و أمّا القول باللسان مع عدم تسليم الوجه فلايتحقق به التسليم الحقيقي، فالنبي ﷺ مأمور من الله بأن يقول لأهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم من

الملل و للاميين : إني و من اتبعني قد أسلمنا وجوهنا لله فلا نخالف شيئاً من أوامره، فهل أنتم أسلمتم كإسلامنا ؟ فإن أسلموا كإسلام النبي ﷺ فينبغي لهم أن يسيروا على سيرته ويعملوا بأوامره في زمانه وبعد زمانه الى زماننا هذا، فإن الأمر واضح والطريق مستقيم والكتاب موجود على حاله ومؤولو الكتاب ومفسروه و العالمون بحقائقه ودقائقه قد بيّنوا لنا جميع ذلك ودونت أقوالهم ولم يبق عذر لطالب الحق.

و أهمّ الامور التى يجب متابعة أمر الله فيها هو اتباع من جعل الله علم أحكام الشريعة عنده وأمر البشر بالأخذ منه، فإذا ترك أحد من الامّة أخذ الأحكام من النبي أوممن نصبه النبي لهذه الغاية وأخذ أحكام دينه من شخص آخر أو عمل برأيه فهذا الشخص تكون عباداته باطلة لا قيمة لها و هو مسؤول أمام الله حيث ترك النبي و وصيه.

أمّا اذا قلت : إنّ النبي ﷺ لم ينصب وصياً من بعده و ترك امّته تخبط خبط عشواء يكفّر بعضها بعضاً فهذا قول لايرتضيه العقل . ثم عليه أن ينظر في أدلّة القائلين بنصب النبي خليفة للناس من بعده، فإذا ردّها كلها بأدلّة أقوى منها و رأى أقواله أرجح من ذلك القول بالأدلّة و الحجج الكافية فليتمسك به ، و إلا فلايجوز له العقل أن يقول به بلادليل ويترك القول الآخر المؤيّد بالأدلّة الكافية.

وبعبارة أوضح وأخصر يفهمها كل قارىء وامّي أنّ تسليم الوجه ليس المقصود منه جلدة الوجه المجردة وإنما يكون الرأس كله بيد من سلّم له الوجه، فيكون حاله حال من أخذ برأس أحد قد شدّ بحبل فإنه لا يتمكن أن يذهب يميناً أو شمالاً بل يتبع قائده ويسير حيث سار .

أمّا اذا كان يمشي خلف شخص من غير حبل يمسك رأسه فهو لايتبع خطاه، واذا رأى شيئاً عن اليمين أو الشمال فأعجبه ذلك الشيء ترك صاحبه و مال يميناً أوشمالاً أو رجع القهقرى الى الخلف، هذا هو معنى تسليم الوجه. وقد أمرنا الله

أن نسلّم رؤوسنا وأنفسنا الى النبي صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: «النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم»[1] وأمرنا النبي أن نسلّم أنفسنا الى علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله في خطبة غدير خم: من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ وآل من ولاه وعاد من عاداه وانصر من نصره و اخذل من خذله، ألا هل بلّغت؟ قالوا: بلى، فقال له عمر بن الخطّاب في ذلك اليوم: بخ بخ لك يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[2].

ثم بعدما أمر الله نبيه أن يسأل كل قاريء وامّي هل أنه أسلم كهذا الاسلام؟ وهل سلّم وجهه كهذا التسليم؟ فمن فعل ذلك فهو من امّة النبي و من أتباعه في الدنيا والآخرة؛ وقد وصفهم الله بقوله **«فان أسلموا فقد اهتدوا»** و من لم يفعل كفعل النبي وأتباعه ـ أي لم يسلم وجهه ورأسه ونفسه الى الله ورسوله ومن نصبه الرسول خليفة من بعده ـ فقد عبّر الله عنهم بقوله: **«وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد»** أي: من لم يسلم وجهه لله فليس هو بمسلم ولا من امّة محمد صلى الله عليه وآله ولا من أتباعه، وأن الله عالم به وبصير بنيته السيئة ونواياه الخبيثة الردية.

قوله تعالى: قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير (٢٦) تولج الليل فى النهار و تولج النهار فى الليل و تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب (٢٧).

إنّ من شروط المؤمن وصفاته التي يلزم الاتصاف بها هي أن يكون معتقداً بأنّ الله تعالى هو المالك الحقيقي لكل شيء في الأرض والسماء والبرّ والبحر، وأنّ

---

(١) الاحزاب : ٦ .

(٢) ينابيع المودة : ج١ ص٢٨ مع اختلاف يسير .

الخلق كلهم عبيده يتصرف بهم كيف يشاء، و أنّ ما في أيدي الناس من الأموال إنما هي عارية جعلها الله في أيديهم واشترط عليهم شروطاً ورخصهم بالتصرف بها بكيفية مخصوصة، وفي موارد مخصوصة، وحتم عليهم الاعطاء منها في موارد معيّنة، وحرّم عليهم إعطاؤها في موارد معيّنة.

فمن أعطى في مورد المنع والحرمة يلزم عليه أخذها وردّها، ومن منع العطاء في وقت الوجوب فقد احتمل إثماً يعاقبه الله عليه في الآخرة، وأنّ الله يعطي من يشاء متى شاء كيف شاء، ويأخذ ممن يشاء متى شاء، وأنه يخلق من الخلق ما يشاء من أنواعها وأصنافها ويميت من يشاء من الموجودين.

فإذا اعتقد المرء اعتقاداً جازماً بأنّ روحه بيدالله يسلبها منه في أيّ حين شاء، لاينبغي له أن يقدم على ما حرم الله، ولا ينبغي له ان ينكبّ على الدنيا وينغمس فيها.

و اذا اعتقد و جزم أنّ ما بيده من الأموال هي ملك لله و أنّ الله جعلها وديعة عنده وأمره أن يعطي منها شيئاً معيّناً للفقراء الذين يحتاجون الى قوتهم وقوت عيالهم لاينبغي له مع هذه العقيدة أن يمتنع عن العطاء ويبخل به مع علمه بأنّ الله إذا شاء انتزعه في حينه.

و كذا اذا علم أنّ الله المالك لما في يده من المال الذي جعله وديعة عنده قدنهاه أن يصرف شيئاً منه في الوجوه المحرمة التي عيّنها له النبي وخلفاؤه، خالف إرادة الله و صرف شيئاً في المحرمات فإنّ الله سيعاقبه عليه.

و كذا يشترط في المؤمن أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ العزة والذلّة بيدالله يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، فلاينبغي له أن يطلب مرضاة المخلوق بسخط الخالق و لايخدم الظلمة أعداء الله و أعداء رسوله و أوليائه ويتقرب إليهم بمعصية الله، ويظن أنه يكون بذلك عزيزاً عند الناس فإنه يصير ذليلاً عند الله، ومن كان ذليلاً عندالله سيكون ذليلاً عند الناس، بل ينبغي للمؤمن العارف المطّلع على الأخبار

أن يأخذ بإرشادات الأئمة الأطهار عليهم السلام، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: وإن أردت عزّاً بلا عشيرة و هيبةً بلا سلطان فاخرج من ذلّ معصية الله الى عزّ طاعته [١].

تنبيه

إنّ الله تعالى ذكر في أول الآيات ما يشتهيه الانسان في هذه الحياة، وعبّر عنه بأنه زينة الحياة الدنيا، قد ذكر أنواعاً منها: كالنساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وغيرها [٢].

وذكر بعد ذلك: أنّ الله عنده حسن المآب، وفي هذه الكلمة بيان: أنّ هذه الامور كلّها ليس لها مآب حسن، وأنّ ذلك عند الله وهو غيرها.

ثم قال في آية بعدها: «قل أأنبئكم بخير من ذلك ...» الآية [٣]، فقد نبأنا الله بأنّ في الآخرة أشياء هي خير من الدنيا وزينتها، فالقناطير المقنطرة من الذهب و الفضة جعلها الله من زينة الدنيا لأنها تزول ولا تبقى، أمّا الشيء الذي يسمّيه الله ملكاً فينبغي أن يكون مما يمتدّ نفعه الى الآخرة ولم يختصّ بالدنيا كتلك الامور.

ولذا قال جماعة: إنّ المقصود من الملك في الآية الشريفة هو النبوة والامامة والحكمة والعلم فإنها أحرى بهذا الاسم لأنها باقية وتلك زائلة، وبناءً على أنّ الملك هي هذه الامور أو الأعمّ من الزائلة والباقية، يلزم حينئذٍ على المؤمن أن يعتقد بأنّ النبوة والامامة إنما هي بإرادة الله وإشاءته يختار من يريد للنبوة، ويختار من يريد للامامة، ويودع أحكام الحلال والحرام وما يحتاجه الأنام عند النبي صلى الله عليه وآله والامام، فلا ينبغي لمؤمن أن يقول: إنّ الامامة إنما هي باختيار الامّة، فإنّ الامّة لاتعرف المصالح والمفاسد في تعيين هذا وعزل ذاك، وإنما يعرف الله ذلك،

---

(١) بحار الانوار: ج٧٨ ص١٩٢ ب٢٣ ح٦.

(٢) اشارة الى آية ١٤ من سورة آل عمران وقد تقدم البحث عنها.

(٣) آل عمران: ١٥.

يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء.

فهل ترى أيها المؤمن العاقل أنّ العزة التي يقصدها الله من قوله « **تعز من تشاء** » هي العزة بكثرة المال والأولاد ، أو كثرة النساء ، أو القناطير من الذهب والفضة ؟ فانظر الى قصة قارون وما كانت عاقبته، وهذا كله داخل في قوله تعالى: «قائماً بالقسط» فإنّ قيامه بالقسط هو إعطاء النبوة والامامة لمن يمكنه من القيام بهما، ويزيده بسطة في العلم والعقل وجميع المؤهّلات لهذا المنصب العظيم الخطير.

أمّا الامّة اذا اجتمعت واتفقت واختارت رجلاً منها على أن يكون أميراً لها ورئيساً يرشدهم لامور دنياهم فلا بأس بذلك إن كان قادراً على ذلك ، وأمّا اذا اختارت الامّة رجلاً ليكون خليفة للنبي ليرشدهم لامور الدين فهذا ليس لهم وإنما هو مما يرجع الى إرادة الله، فإن خالفوا الله وفعلوا ذلك صار حكمهم كحكم من ذكرناه في آية الكرسي في قوله تعالى: «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» [1] .

ايقاظ الى العرب خاصة والى المسلمين عامة :

لقد ذكر المفسرون في سبب نزول آية الملك أنّ النبي ﷺ لما خطّ الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، احتجّ المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون: سلمان منّا ، وقال الأنصار: سلمان منّا ، فقال النبي ﷺ : سلمان منّا أهل البيت .

قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة ونعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفرنا فأخرج الله تعالى من بطن الخندق صخرة مدورة كسرت حديدنا و شقت علينا ، فقلنا : يا سلمان ارق الى رسول الله (ص)

(١) البقرة : ٢٥٧ .

وأخبره خبر هذه الصخرة ، فإمّا أن نعدل عنها أو يأمرنا فيه بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه .

قال : فرقى سلمان الى رسول الله (ص) وهو ضارب عليه قبة تركية فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مدورة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى مايحتك فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمر فإنا لانحب أن نجاوز خطك .

فهبط رسول الله (ص) مع سلمان الخندق والتسعة على شفير الخندق، فأخذ رسول الله (ص) المعول من سلمان فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبّر رسول الله (ص) تكبير فتح فكبّر المسلمون .

ثم ضربها(ص) الثانية فبرق منها برق أضاء مابين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبّر (ص) تكبير فتح وكبّر المسلمون .

ثم ضربها(ص) الثالثة فكسرها وبرق منها برق كذلك فكبّر(ص) تكبير فتح وكبّر المسلمون ، وأخذ بيد سلمان ورقى .

فقال سلمان: بأبي أنت وامّي يارسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط، فالتفت رسول الله (ص) الى القوم وقال: رأيتم مايقول سلمان؟ قالوا: نعم يارسول الله، قال: ضربت ضربتي الاولى فبرق لي الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبرئيل أن امّتي ظاهرة عليها .

ثم ضربت الثانية فبرق لي الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبرئيل أن امّتي ظاهرة عليها .

ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق لي الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبرئيل أن امّتي ظاهرة عليها ، فابشروا .

فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحفر.

فقال المنافقون : ألا تعجبون ! ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لاتستطيعون أن تبرزوا للقتال، فأنزل الله تعالى القرآن «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً» [1] وأنزل هذه الآية : «قل اللهمّ ... الخ» [2].

فإنّ الملك في الآية وإن اختلف فيه هل أنه الملك الدنيوي المنقطع كالمال والبنين، أو الملك الذى ينجرّ الى ملك الآخرة كالنبوة والخلافة ؟ فإذا حملنا الآية على معناها العام ـ الشامل لملك النبوة وملك العلم و ملك العقل و ملك الصحة والأخلاق الحسنة والنفوذ والقدرة وملك المحبة وملك الأموال وغير ذلك ـ فإنّ اليهود كانوا يقولون إنّ النبوة كانت في آبائنا وأسلافنا ، وأمّا قريش فما كانوا أهل النبوة والكتاب ، فكيف تليق النبوة بمحمد وقد أنزل الله هذه الآية الشريفة وهي بشارة للاسلام وإنذار ووعيد لبني إسرائيل ؟

وأنّ هذه البشارة للاسلام إنما هي بشارة بجميع هذه المعاني التي ينطبق عليها معنى الملك ، أي الملك الديني والدنيوي الذي يكون العمل فيه بطاعة الله. وإنما نزع الله الملك بقسميه من بني إسرائيل لأنهم عملوا فيه بمعاصي الله واختلفوا فيما بينهم ، فسلب الله الملك منهم وآتاه للمسلمين فتغلّبوا عليهم ووطأوا أرضهم وديارهم ، وذلك حين قالوا عن عقيدة راسخة وإيمان قوي : **«قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء»** وأهمّ كلمة وأقوى عقيدة كانوا يتفوهون بها قولهم: **«بيدك الخير انك على كل شيء قدير»** .

ثم بعد ذلك تفرقت كلمتهم ووقع الخلاف بينهم وعملوا بمعاصي الله ، حتى أنّا نرى في زماننا أنّ الخمور تباع علانية في جميع البلاد الاسلامية، و كذا الربا

---

(١) الاحزاب : ١٢ .

(٢) تفسير روح المعاني : ج٣ ص١١٢.

رائج في جميع البلاد والقوانين المخالفة للقرآن، فلمّا وصلوا الى هذه الدرجة تسلّط عليهم عدوهم وسلبوا منهم أرضهم وديارهم، حتى أنّ أذلّ الامم وأحقرها ـ وهم اليهود ـ نراهم لليوم يناوئون قسماً من الاسلام والقسم الآخر متفق معهم، وهذا من أكبر الكبائر كما تسمعه في الآية التي بعد هذه الآية فانتظرها قريباً.

فإذا أراد المسلمون أن يعودوا الى قوتهم وشوكتهم و يرجع إليهم ملكهم و يرجع إليهم عزهم و تعود إليهم هيبتهم فليتمسكوا بالآية الشريفة قولاً و عملاً وليقولوا: «اللهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير».

أمّا الآية السابعة والعشرون وهو قوله: **«تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت و تخرج الميت من الحي و ترزق من تشاء بغير حساب»** فإنما يتعلّق بموضوع البحث قوله: «تخرج الحيّ من الميت وتخرج الميت من الحي» على القول بأنّ الحيّ والميت هما المؤمن والكافر، والظاهر أنّ هذا القول أقوى من غيره، فإنه وارد عن أهل البيت عليهم السلام وهم أعلم بتفسير القرآن من غيرهم.

و كذا يتعلّق بموضوع بحثنا قوله تعالى: «وترزق من يشاء بغير حساب» فإنّ الرزق يعمّ الأموال الدنيوية والاخروية وهو العلم والحكمة، فإنّ الله رزق نبينا محمد صلى الله عليه وآله جميع العلوم التي أعطاها لسائر الأنبياء من آدم الى زمانه، فهو أعلم الأنبياء وأفضلهم و أشرفهم، ومع هـذه العلوم التي أعطاه الله أمـره أن يطلب منه الزيادة بقوله: «وقل ربي زدني علماً»[1].

ولاريب أنّ الله لمّا أمره بهذا الدعاء وهذا الطلب يريد أن يزيده علماً فهو يستجيب له كلما طلب منه، والنبي لايطلبه مرة واحدة بل في كل يوم أو في كل ساعة يقول: ربي زدني علماً، و هو القائل كما روت عنه عائشة: إذا أتى عليّ يوم

---

(١) طه: ١١٤.

لأزداد فيه علماً يقربني الى الله تعالى فلابورك لي في طلوع الشمس ذلك اليوم[1].

اذا عرفت مقدار علم النبي صلى الله عليه وآله ـ ولم تعرفه ولن تعرفه ـ فاعلم أنّ هذه العلوم كلها أودعها عند علي بن أبي طالب عليه السلام كما جاءت بذلك الروايات الصحيحة.

ويكفي في علم علي عليه السلام قوله: علّمني رسول الله ألف باب... الحديث[2] فتكون أبواب العلم باصطلاح هذا العصر مليون باب، هذا عدد الأبواب، ولاريب أنّ كلّ باب تفتح عن مدينة.

ثم إنّ أمير المؤمنين أودع هذه العلوم الى الخلفاء الأحدعشر من بعده كل إمام يودعها عند الامام الذي يليه حتى وصلت الى الامام الثاني عشر عجل الله فرجه.

و أمّا فضل هذه الآية قال في مجمع البيان عند ذكر الآية : روى جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : لمّا أراد الله أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهمّ مالك الملك ـ الى قوله ـ بغير حساب تعلّقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب، وقلن: يارب تهبطنا الى دار الذنوب والى من يعصيك ونحن معلّقات بالطهور وبالعرش! فقال الله: وعزتي وجلالي ما من عبد قرأكنّ في دبر كلّ صلاة مكتوبة إلا أسكنته حضيرة القدس على ماكان فيه، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونه في كل يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته عليه، ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت[3].

وقال معاذ بن جبل: احتبست عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً لم أصلّ معه الجمعة، فقال: يا معاذ ما يمنعك من صلاة الجمعة ؟ قلت: يا رسول الله كان ليوحنا اليهودي

---

(١) جامع بيان العلم وفضله : ص٧٢ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ج٤ ص٤٤٤ ح١٣ .

(٣) مجمع البيان : ج١ ص٤٢٦ .

عليّ اوقية من تبر وكان على بابي يرصدني، فأشفقت أن يحبسني دونك، قال: أتحب يامعاذ أن يقضي الله دينك؟ قلت: نعم يارسول الله، قال: قل «اللهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ـ الى قوله ـ بغير حساب، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما ماتشاء وتمنع منهما ماتشاء اقض عني ديني» فإن كان عليك ملء الأرض ذهب لأداه الله عنك[1].

قوله تعالى: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة و يحذركم الله نفسه والى الله المصير (٢٨).

بعدما بيّن الله عزّ وجلّ في الآيات السابقة أنّ المرء لايكون مسلماً حتى يسلم وجهه لله، وأنّ تسليم الوجه لايتحقق حتى يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ كل ما في الوجود من ناطق وصامت هو ملك لله تعالى ، وأنّ الله هو المعطي والآخذ والمعزّ والمذلّ، و كل ذلك بيده .

فالمسلم هو من توفرت فيه هذه الشروط واتصف بهذه الصفات، فالذي لم تكن فيه هذه الصفات لايكون مسلماً وإنما هو كافر، والمسلم يحتاج الى تنظيم امور دينه ودنياه .

و أمّا تنظيم امور الدين فليستمدها من الله بواسطة النبيّ المبعوث من الله عزّ وجلّ، ولايتصور ولايعقل بالنسبة الى امور الدين المتعلّقة بعبادة الباري والتي تحرز له النجاة في الآخرة أن يختار الانسان ثم ينصبه ويقف أمامه و يعبده، فهل يصوب عقلك هذا العمل ؟ فهؤلاء الفرق الذين ينكرون أئمة المسلمين كاليزيدية والبهائية وأمثالهم ويختارون رجلاً منهم ويجعلونه دليلاً لهم في عباداتهم و هو

(١) مجمع البيان : ج١ ص٤٢٦ .

لايعرف شيئاً من آيات القرآن ولا من سنّة النبي ﷺ وهم يدعون أنهم من المسلمين ومن امّة محمد ﷺ. فما أدري كيف وافقت عقولهم على ذلك! و لكن ما حالهم إلا كحال اولئك الذين كانوا ينحتون الأصنام ثم يعبدونها، وهل يحكم عقلك بصحة ما ينسب للرسول الأعظم وهو أعقل أهل الأرض و السماء أنه قال لامّته عند اقتراب أجله: اختاروا لكم خليفة؟ كيف يقول ذلك والخليفة يلزمه العلم بتفسير القرآن وتأويله: «و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم»[1] و قد عرفت من هم الراسخون في العلم فيما مرّ من تفسيرها.

وبناءً على أنّ الملك في قوله تعالى: «مالك الملك» هو ملك الدنيا والآخرة فلايمكن للمسلم أن يستند على القوانين الدينية إلا المأخوذة من النبي أو من عيّنه النبي.

وأمّا بالنسبة الى ملك الدنيا فقد عرفنا من تفسير آية الملك: أنّ المسلم هو المعتقد بأنّ مالك الكل هو الله و أنه هو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، وأنه هو المعزّ والمذلّ، وأنّ الخير كلّه بيده، فيكون المسلم هو المعتقد بأنّ خير الدنيا والآخرة بيدالله و إشاءته و إرادته، وأنّ العزة والذلّة بيدالله، فلاينبغي له أن يأمل من مخلوق خيراً أو ملكاً أو مالاً أو عزاً إذ ليس بيد أحد شيئاً.

نعم اذا كان المأمول منه ولياً من أولياء الله يمكن للمسلم أن يطلب منه الدعاء و الطلب من الله أن يقضي حاجته ، أمّا اذا كان كافراً فالمسلم الحاوي على شروط الاسلام لا يمكن أن يواليه أو يأمل منه النفع ، وهذا هو الذي بيّنه لنا الله بصيغة النهي عن موالاه الكافرين ، فلو أنّ واحداً أو جماعة من المسلمين والوا الكافرين فهذه الموالاة تكشف عن عدم رسوخ الاسلام في قلوبهم، وقد أخبر الله عنهم بقوله: **«ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء»** .

تعرفنا هذه الجملة أنّ الله بريء منهم ، وأنّ الاسلام بريء منهم، و أنّ

---

(١) آل عمران : ٧ .

المسلمين بريئون منهم، وأنه هو بعيد عن الله وعن الاسلام وعن المسلمين ، لاربط له بهم ولا صلة بينه وبين الله ولابين الاسلام والمسلمين.

نعم قداستثنى الله صورة واحدة وهي اذا كان المسلم بين جماعة من الكافرين وكان يخشى منهم على نفسه أو ماله أو أذى يوقعونه به فله أن يظهر لهم الموالاة بحسب الظاهر ويعاديهم في الباطن.

ثم بعدما بيّن الله منزلة الموالي للكافر بهذه الجملة الشديدة التي سمعتها حذره وهدده بجملة اخرى هي في الشدة كسابقتها، فلايتحمل مسلم إحدى الجملتين فضلاً عن تحملهما معاً .

والجملة الثانية هي قوله تعالى: «**ويحذركم الله نفسه**» أي: أنّ الله بعدما نهى عن موالاة الكافرين وبيّن لكم أنهم لافائدة عندهم وأنّ فوائدالدنيا والآخرة بيد الله، وبيّن لكم أنّ الموالي لهم هو خارج عن جماعة المسلمين فهو يجري عليه أحكام الكافرين في كل الامور ، وأنّ الله لا يعينه ولا يساعده ولا يعطيه إلا ما يعطي سائر الكفار .

فهو في الجملة الاولى قد خرج من جملة المسلمين ، وبالجملة الثانية نبّهه الله أنّ ضرره على المسلمين أكثر من ضرر الكفّار ، لأنه يظهر الاسلام وينافق، فقد حذره الله من أن يبطش به في الدنيا ولا يؤخره الى عذاب الآخرة كسائر الكفرة إذ بوجوده ضرر على المسلمين ، فيلزم إعلام المسلمين به ليحذروا منه فإذا أعلمهم بهلابدّ وأن ينتقموا منه بسلب الأموال ثم التنكيل به بأنواع العذاب.

ولا ينتهي الأمر بهذا العذاب الدنيوي الذي يوقعه به البشر بل أنذره الله بالعذاب الاخروي بجملة ثالثة وهي قوله : «**والى الله المصير**» فيلزمك أن تقرأ وتتطلع في الجملة على ما أعدهالله من العذاب في الآخرة للكافرين ثم تنصف نفسك وترحمها .

قوله تعالى: قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السماوات وما فى الارض والله على كل شىء قدير (٢٩).

لمّا بيّن الله في الآيات المتقدمة شروط الاسلام اللازمة، وشرح لنا الصفات التي يلزم المسلم الاتصاف بها، وبيّن أنّ الشرط الأخير هو مباينة الكافرين وعدم موالاتهم إنما يدور إسلام المرء عليه وجوداً وعدماً، فمن والاهم فهو ليس بمسلم، والمسلم هو من لم يوالهم.

ذكر في هذه الآية أنّ عدم الموالاة إنما يلزم أن يكون في الظاهر والباطن، وأنكم اذا قاطعتموهم في الظاهر وواليتموهم في الباطن فإنّ الله عالم بقلوبكم وصدوركم وظاهركم وباطنكم، والأقرب والأنسب أن يكون هذا بالنسبة الى جميع الشروط، فمن لم يعتقد بأنّ الملك بيد الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولم يعتقد أنه يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ومن لم يعتقد بأنّ الخير كله بيد الله، ومن لم يعتقد بأنّ الله هو الذي انتزع الملك من بني إسرائيل وجعله في قريش، في بني هاشم، في بني عبدالمطلب، في رجال عيّنهم الله وميّزهم وألهمهم العلم والحكمة، حيث إنّ النبي نوّه عنهم وسمّاهم، فإنّ كل صنف من هؤلاء الأصناف إسلامه غير مقبول عند الله، إذ أنه لم يسلم وجهه لله كما أسلم النبي ومن اتبعه.

فقوله تعالى: **«قل ان تخفوا ما فى صدوركم ...»** الآية إنذار لكل من تسمى بالمسلم ففقد أحد الشروط، لأنّ الله يريد إسلاماً حقيقياً بالمعنى الذي عرّفه لنبيه ﷺ وسنّه النبي بقوله «أسلمت وجهي لله ومن اتبعن» [1] فمن أراد

(١) آل عمران: ٢٠.

متابعة الرسول فليحذو حذوه وليتبع أثره فإنه غير خفي على البصير المتتبع «قد تبيّن الرشد من الغي»[١] .

إنّ المقصود من اخفاء ما في النفس هو مايعزم عليه العبد من المعاصي ولكن لم يظهره للناس وليس المقصود منه كل ما يختلج بالنفس من الوساوس الشيطانية ثم تزول في حينها، فإنّ هذا مما لايعاقب عليه كما ورد في الأخبار ويؤيّده حكم العقل، حيث إنّ هذا غير اختياري للانسان ولايمكنه دفعه عن نفسه.

فالأقرب والأولى في معنى الآية : أنّ المقصود ممن يخفي هو المنافق الذي يخالف ظاهره باطنه ، وهم الذين أظهروا ما في أنفسهم بعد النبي، فانقلبوا على أعقابهم، فإنّ الله يحاسبهم على ما كانوا يكتمونه في وجود النبي و هم عازمون على إظهاره بعده، فالآية واردة في مقام التهديد والترهيب والتخويف ، فإنه تعالى بعدما بيّن لنا جملة من أحكام الصدقة والربا والدين والاشهاد عليه وأداء الشهادة، عرّف أهل القلوب المريضة الذين يظنون أنّ الاعتراف باللسان والانكار في القلب كاف، وبيّن لهم أنّ هذا لايفيدهم شيئاً ، وأنّ الله يحاسبهم على ما انطوت عليه قلوبهم من نيّاتهم السيئة المخالفة لأوامر الله.

و كذا تكون الآية مقدمة لما يأتي من أنّ الايمان هو السمع و الطاعة، وأنّ السماع وحده لايحقق الايمان، وعلى هذا فلايمكن أن يكون قوله: «لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها»[٢] نسخاً لهذه الآية فإنه لم يتحقق التكليف بغير الوسع والطاقة حتى يأتي نسخه، هذا بالنسبة الى ناوي العصيان.

وأمّا بالنسبة الى ناوي الطاعة فالآية تكون ترغيباً ووعداً وبشارةً بأنّ الله عالم بهذه النية الحسنة وأنه يحاسبه عليها، كما ورد في الأخبار بأنّ ناوي الحسنة اذا لم يعملها تكتب له واحدة وإن عملها يكتب له عشرة .

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

قوله تعالى : يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيداً و يحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد (٣٠) .

لمّا تبيّن من الآية السابقة أنّ الله عزّ وجلّ يعلم ما تنطوي عليه الصدور من النيات كما يعلم ما هو المكشوف من الأعمال، وأنه لافرق عنده بين الظاهر والمستور، كما أنه يعلم جميع ما في السماوات والأرض، ولم تتعرض الآية لأكثر من هذا، فإنّ أهل القلوب المريضة والنيات الخبيثة والسرائر الفاسدة وهم الذين يفقدون بعض شروط الاسلام المهمة لاسيما الشرط الأخير وهو مقاطعة الكافرين وعدم موالاتهم، أنهم بعد سماعهم الآية لعلّهم يقولون : لو أنّ الله علم مايخفى واطّلع على نياتنا فهذا لا يضرنا مادام المسلمون لا يعلمون شيئاً منها، فنحن نعاشرهم كما يعاشرهم غيرنا و نحصل على ما يحصل عليه غيرنا ، و أنّ أصحابنا الكافرين أو المنافقين يعلمون بنا بأننا لسنا مسلمين فليكن حالنا مكشوفاً عندالله مستوراً عند المسلمين .

وحيث إنّ الاسلام بشروطه وصفاته هو خير محض، وأنّ التظاهر به مع فقدان بعض الشروط بهذه النية السيئة هو سوء محض، فقد بيّن الله سبحانه في هذه الآية أنّ ما عليه المرء في دارالدنيا من خير أو سوء فسوف يتجلّى للخلائق يوم القيامة و يتجسم له هناك، و كل امرء يجازى بما كان عليه في الدنيا من خير أو سوء، فإن وجد خيراً يسرّ به وإن وجد سوءً يودّ في ذلك اليوم أن يكون بينه و بين ذلك السوء أمداً بعيداً ما بين الأرض والسماء، أو كبُعد مابين المشرق والمغرب، ولكن لاينفعه هذا التمني شيئاً.

فهذه الآية فيها إتمام الحجة على كل من تظاهر بالاسلام وهو فاقد لبعض

شروطه ، أمّا في هذا العصر وهو القرن الرابع عشر ـ وإذا لم تعرفه فنقول لك قرن العشرين ـ فإنّ أغلب المسلمين يوالون الكفار ويكونون عيوناً لهم على المسلمين، فترى كل فرقة عيناً على الفرقة الاخرى.

نسأل الله تعالى أن يبدل ما نحن فيه من فقدان الشروط، وأن يجعلنا مسلمين كاملي الايمان و أن يعزنا بعزه إنه أرحم الراحمين.

ثم بعدما بيّن الله لعباده أنّ أعمالهم الحسنة والسيئة ستكون حاضرة عندهم وسيجازون عليها، وأنّ عامل السوء يودّ في ذلك اليوم أن يكون بينه و بين عمل السوء أمداً بعيداً. قال تعالى: «ويحذركم الله نفسه» .

إنّ الله عزّ وجلّ قد حذر عباده بنفسه لأنه قد بعث أفضل الأنبياء بخير الأديان واختار له أشرف الشرايع، فجاهد النبي صلى الله عليه وآله في نصرة هذا الدين وصرف عمره في جدّ وتعب حتى أسلم جماعة من امّته طوعاً و كرهاً، وبعد ذلك تحركت هذه الفرقة الموالية للكافرين وهي تريد أن تكشف للكافرين مواقع الخلل من المسلمين و تساعدهم على حرب المسلمين ليخرجوهم عن دينهم، فإنهم بعملهم هذا يريدون محاربة الله، ولذا حذرهم الله سبحانه وتعالى بنفسه حيث إنه لا يغالبه أحد وهو على كل شيء قدير .

ثم بعد ذلك أعلمهم ـ لو كانوا يعلمون ـ وأفهمهم بأنّ هذا التحذير المؤكد المكرر إنما هو لرأفته بهم و رحمته لهم فإنه لا يريد لهم إلا الخير، وقد بيّن لهم كل ما يجلب الخير فقال تعالى: «والله رؤوف بالعباد» .

ولو لم يكن من فضل الله على عبده إلا هذه الكلمة المتكفلة بالوعد برحمة العباد لكان اللازم على العبد العاقل أن يطيع الله ولا يعصيه، ولكن الانسان جهول .

قوله تعالى: قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله

ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم(٣١).

هذه الآية الشريفة تأخذ الانسان من جميع جوانبه ولا تترك له مجالاً للجواب عما يذهب إليه من المذاهب و الفرق الثلاث والسبعين إلا طريقاً واحداً الى الفرقة الحقة التي تتمسك بأقوال النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته على ما أمر به. فاستمع الى الآية و افهم معناها ، و لا تعرض عنها و لا تجعل نفسك من الجاهلين الذين لايفهمون الكلام العربي.

إنّ هذه الآية تقول للناس جميعاً: إنّ من أحبّ الله ، و كل يدعي حبّ الله ، فاليهود يقولون : نحن أبناء الله و أحبّاؤه ، و النصارى يقولون: نحن نؤلّه عيسى حباً لله لأنه ابن الله، وعبدة الأصنام من العرب وغيرهم يقولون: إنما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى و ذلك حباً لله ، و من أحبّ الله طلب رضاه ، و لا يحصل رضاه إلا بعبادته .

وقد أمر الله نبيه أن يقول للناس عامة : إن كنتم تحبون الله وتطلبون رضاه فإنه لا يرضى عنكم ولا يحبكم وإن عبدتموه وإن صلّيتم وصمتم وفعلتم كل عبادة، إلا أن تكون طاعتكم وعبادتكم عن طريق اتباعي وتعليمي المأخوذ عن الله .

ولا تنفع العبادة اذا كانت عن رأيك كما ذكرت لك عن قريب فالآية الشريفة تأمر النبي ﷺ: «**قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**» أتدري كيف تكون من أتباع النبي ﷺ ؟ إنه بيّن لك ذلك قبل عدة آيات بقوله : «فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن»[1].

فان أسلمت وجهك لله كنت من أتباع النبي وصرت مسلماً، و إن لم تتبعه فإنّ الله لا يحبّك و لا يرضى عنك وإن صلّيت و صمت و تصدقت وفعلت ما فعلت إلا باتباع النبي ﷺ .

---

(١) آل عمران : ٢٠ .

تأخذ دينك عن الله لا عن رأيك وقد عرفت أنّ تسليم الوجه هوعبارة عن الانقياد والخضوع والعمل طبق أمره ونهيه وعدم المخالفة في أقلّ شيء.

ولا يخفى على كل عارف أنّ النبي ﷺ قد عيّن لنا من نرجع إليه بعد موته بقوله: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[1] وفي رواية «إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً»[2] .

وأنّ هذه الجملة قد رواها عن النبي جميع الفرق، وقد تكررت منه ﷺ في مجالس عديدة، فما أدري أنّ التارك لهذه الجملة وغير العامل بمضمونها هل هو من أتباع النبي أو أنه مفارق له في هذا المقام!

تأمّل جيداً وأنصف نفسك، إنّ المفسرين للقرآن اذا وصلوا الى هذه الآية نراهم يشددون الأمر في وجوب متابعة النبي والعمل بما يأمرهم، ولكنهم لا يذكرون لنا من الذي يفسر لنا القرآن تفسيراً حقيقياً و لا يذكرون من هو أعلم أصحاب النبي وأقضاهم بإرشاد ودلالة من النبي. فهل أنّ التكليف سقط عنا بعد النبي ﷺ؟ أوأنّ أصحابه صاروا كلهم علماء لا يحتاجون أحداً في حلّ المشاكل؟ فلو فرض ذلك: فمن لأولادهم وأحفادهم ؟

يقول ابن كثير في تفسيره: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي و الدين النبوي في جميع أقواله و أفعاله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[3] انتهى.

وقال سيدقطب في تفسيره عند ذكر الآية: إنّ حبّ الله ليس دعوى باللسان و لا هياماً بالوجدان إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله والسير على هداه و تحقيق منهجه في الحياة، وأنّ الايمان ليس كلمات تقال ولا مشاعر تجيش ولا شعائر تقام،

(١و٢) راجع بحار الانوار : ج٢٣ ص١٠٤ ب٧ .
(٣) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٢٩ .

ولكنه طاعة الله والرسول وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول[1] انتهى.

نوجه السؤال الى سيد قطب ونقول: إنّ منهج الله الذي كان يحمله الرسول في حياته من يحمله بعد وفاته بحيث يتمكن من تطبيقه حرفياً لا يفوته منه شيء بأن يكون عالماً بتفسير القرآن كله والسنّة النبوية؟ فهل يوجد أحد يمكنه هذه الدعوى غير علي بن أبي طالب عليه السلام مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وسيد أهل بيته الذين جعلهم عدلاً للقرآن؟ فهل يكون غضّ النظر عن هذا الأمر المهم موافقاً لمنهج الله أو مخالفاً له؟

قوله تعالى: قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين (٣٢).

هذه الآية يكون بها الامتحان الخارجي الذي يتبيّن بها المسلم من الكافر فإنّ الله أمرهم بالآية التي قبلها باتباع الرسول، والاتباع وإن كان مهماً شديداً دقيقاً يستدعي متابعة النبي صلى الله عليه وآله في الأفعال والأقوال، ولكن الذي يريد المخالفة يتمكن أن يقول: أنا متابع له وكل شيء أفعله أو سأفعله في بيتي، ولكن في هذه الآية طلب الله تعالى من النبي صلى الله عليه وآله أن يأمر بالاطاعة وامتثال الأمر، فلا يتمكن من يريد الخلاف أن يعتذر بالتسويف ويقول سأفعل أو سوف أفعل، لأنّ الأمر بالاطاعة فعل كل شيء بوقته فعلاً كان أو قولاً، وهذا الأمر ممتدّ المفعول الى زمان انتقال النبي صلى الله عليه وآله الى الله والى زماننا هذا.

فلو كانت الطاعة من جميع الامّة محققة لما وقع الخلاف الذي رأيناه بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله ولما وقع الظلم العظيم على أهل بيته عليهم السلام الذين جعلهم الله

---

(١) في ظلال القرآن: ج١ ص٣٨٧.

عدلاً للقرآن إذ قال ﷺ : سوف اسائل الامّة عما فعلوا بأهل بيتي[1] يسائل كل فرقة عما فعلته مع عدل القرآن لأنه هو الذي قال: إن القرآن والعترة لايفترقان حتى يردا عليّ الحوض، وإني سائلكم عنهما اذا وردتم عليّ الحوض[2].

فعلى هذا، فإنه سوف يسأل كل فرقة عنهما اذا وردت عليه الحوض، فمن تمسك بهما سوف ينجو من هول ذلك اليوم ، و من لم يتمسك بهما فإنّ النبي ﷺ سيعرض بوجهه عنه ولايسقيه من حوضه، لأنّ الساقي على الحوض هو نفس علي بن أبي طالب عليه السلام يسقي بأمر النبي ﷺ، و هو يعرف من والاه و تمسك به ويعرف من لم يواله ولم يتمسك به، والنبي ﷺ أيضاً يعرفه، والمؤمنون المسلمون الذين تمسكوا به يعرفون غير المتمسكين، والملائكة تعرفهم، و إضافة الى هذا سيجد عمله مكتوباً في صحيفته و الله خير الشاهدين **«فان تولوا فان الله لايحب الكافرين»**.

و بعد هذا كله نسأل سيد قطب و ابن كثير : إنّ الذي ترك حديث الثقلين و أهمله ولم يرتب أثراً لهذا الاهتمام الذي أبداه الرسول في نشر هذا الحديث وإبلاغ الامّة به، فهل هذا الرجل عامل بمنهج الله الذي حمله الرسول الى الناس أجمع؟وهل أنه متبع للشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أفعاله وأقواله؟ ولا يمكن أن يقال إنه لم يطّلع عليه لأنه من أهل العلم والاطّلاع كسيد قطب و ابن كثير.

قال العلاّمة البلاغي ـ رحمه الله ـ في تفسيره عند ذكر هذه الآية: و أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم في مستدركه على شرط البخاري ومسلم ، وعن ابن حيان في أبواب السنّة و العلم ونحو ذلك بأسانيدهم، عن أبي رافع عن رسول الله ﷺ قال: «لا ألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لاندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[3].

---

(١) اثبات الهداة : ج١ ص٤٤٤ ح٢٥ نقلا بالمعنى .
(٢) اثبات الهداة : ج١ ص٦٢٥ ح٦٨٣ نقلا بالمعنى .
(٣) آلاء الرحمن : ص٢٧٥ .

قوله تعالى: ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (٣٤).

بعد أن بيّن الله لعباده أنّ أعمالهم التي يعملوها له وعباداتهم التي يعبدوه بها أنه لايقبلها منهم إلا أن تكون بواسطة النبي وإرشاداته وتعاليمه، وأنّ كل عمل يعمله المرء المحبّ لله ـ وإن تفادى في حبه ـ اذا لم يكن متبعاً لنبيه وآخذاً أحكام دينه منه فلافائدة في أعماله و لايحبه الله ولايرضى عنه بيّن الله لنا في هذه الآية أنّ الأنبياء و الأوصياء الذين يكونون واسطة بين الله و بين خلقه في تبليغ أحكام الله الى الخلق ليسوا كسائر الناس في كل شيء، فهم لايخطأون و لايذنبون ولايعصون الله طرفة عين ولايفعلون شيئاً لايريده الله، لأنّ الله اصطفاهم و صفاهم من كل كدر ومن كل سوء ومن كل شين، صفاهم من كل عيب، صفا جميع الأنبياء أولهم آدم عليه السلام و آخرهم محمد صلى الله عليه وآله وهو من آل إبراهيم، فلايشبههم أحد من العالمين، ولايتمكن أحد أن يكون مثلهم في الأعمال أو في الأخلاق أو في الصفات التي يتمكن الانسان من اكتسابها و التخلّق بها، فكيف له بالنسبة الى العلم الالهامي الذي لايكون إلا بإرادة الله وقدرته! وأنّ الله خلق أنبياءه من أول خلقتهم خالصين من كل كدر وعيب يكون في غيرهم، خلقهم أنواراً فجعلهم بعرشه محدقين.

فقد روى جميع الصحابة أخباراً كثيرة أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: خلقني الله وعلي ابن أبي طالب من نور قبل أن يخلق آدم بألفي عام فكنا نسبّح الله ونهلّله في ساق العرش، فلمّا خلق آدم قذفنا في صلبه. . . الخ[1].

وفي ذخائر العقبى قال: عن واثلة بن الأسقع قال، قال رسول الله (ص) : إنّ الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلاً، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزاراً، ثم اصطفى من ولد نزار مضراً، ثم اصطفى من

---

(١) بحار الانوار : ج٣٥ ص٣١ ب١ ح٢٨ مع اختلاف يسير .

مضر كنانة، ثم اصطفى من كنانه قريشاً، ثم اصطفى من قريش بني هاشم، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبدالمطّلب، ثم اصطفاني من عبدالمطّلب.

ثم قال : أخرجه بهذا السياق أبوالقاسم حمزة بن يوسف السهمي و أخرجه مسلم والترمذي وأبو حاتم مختصراً[1].

لمّا عرّفنا الله في الآية السابقة أنه لايقبل شيئاً منا إلا باتباع النبي لأنه هو العارف بأحكام الله فقط و هذا في زمن وجوده يتحقق و ما بعد رحلته، فلايمكن أن يخبرنا أحد عن حكم الله إلا من كان مثل النبي خالصاً من كل كدر، مصفّى من كل دنس، قد اصطفاه الله واستخلصه من إبراهيم خليله، ولايوجد أحد بهذه الصفات إلا علي بن أبي طالب إذ أنّ أغلب أصحابه بل كلهم ـ إلا من شذّ ـ قد سجدوا للأصنام و عبدوا الأوثان إلا علي كرّم الله وجهه، هذا مضافاً الى علمه و كرمه وشجاعته وجمعه للصفات الحميدة .

فليس لأحد أن يجعل الواسطة بينه و بين الله من سائر الناس بعد أن اعتبر الله في المبلّغ أن يكون من المصطفين الخالصين، وأن يكون من ذرية إبراهيم الذين لم يتلبسوا بظلم ولم يصدر منهم ذنب، وقد بيّن الله ذلك لابراهيم وذلك لمّا قال له: «إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين»[2].

فقد جعل الله الامامة في ذريته الذين لم يظلموا أحداً ولم يظلموا أنفسهم، و أيّ ظلم أعظم من السجود للأصنام ، فلايجوز لمن سجد للصنم أن يجعل إماماً و واسطة لتبليغ الأحكام.

أمّا الذي يختاره بعض الناس و لم ينصبه الله ولا الرسول فهو فاقد لجميع الشروط .

ثم إنّ بعض المفسرين الذين يكتبون ولايدرون ما يكتبون، وأنّ نفوسهم

---

(١) ذخائر العقبى : ص١٠ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

تأبى أن تكون الخلافة والامامة في آل محمد ﷺ وآل إبراهيم وإن أراد الله ورسوله ذلك.

و من جملة هؤلاء سيد قطب فإنه يقول في تفسيره : يبدأ هذا القصص ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختار لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة ، ليكون طلائع الموكب الايماني في شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون، فيقرر أنهم «ذرية بعضها من بعض».

ثم يقرر سيدقطب أصلاً لا يوافقه عليه أهل اللغة فيقول لغرض إبعاد الخلافة عن آل محمد من ذرية إبراهيم يقول بعد كلامه المتقدم: و ليس من الضروري أن يكون ذرية النسب وإن كان نسب الجميع يلتقي في آدم و نوح فهي أولاً رابطة الاصطفاء و الاختيار الالهي و نسب هذه العقيدة و الموصول في ذلك الموكب الايماني الكريم .

ثم يقول بعد سطرين من نفس الصفحة: و لقد ذكر السياق آدم و نوحاً فردين، وذكر آل إبراهيم وآل عمران اسرتين، إشارة الى أنّ آدم بشخصه و نوحاً بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء ، فأمّا إبراهيم وعمران فقد وقع الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك على القاعدة التي تقررت في سورة البقرة عن آل إبراهيم، قاعدة أنّ وراثة النبوة والبركة في بيته ليست وراثة الدم إنما هي وراثة العقيدة[١].

وهذا رأيه بعيد عن ظاهر الآية، وأنّ اشتمال الآية على كلمتي الآل والذرية يكشف عن أنّ المراد ذرية النسب، نعم لولا وجود هاتين الكلمتين لأمكن الحمل على الاتحاد في العقيدة وذلك كقوله تعالى: «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إنّ المنافقين هم الفاسقون»[٢] الى آخر الآيات.

---

(١) في ظلال القرآن : ج١ ص٣٩١ .

(٢) التوبة : ٦٧ .

ثم لو سلّمنا ما يقول من أنّ المقصود الاتحاد في العقيدة والايمان و العلم و التقى و الزهد الى آخر الصفات ، فهل هناك أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، لايمكن لأحد يدعي ذلك إلا مكابر مجازف، و يؤكّد مما قلناه قوله تعالى : «**ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم**» فإنّ جعل الذرية بعضها من بعض ينطبق على النسب لاعلى العقيدة.

ذكر في العيون في حديث الرضا عليه السلام مع المأمون، قال المأمون: هل فضّل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبوالحسن عليه السلام : إنّ الله أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه ، فقال له المأمون: أين ذلك من كتاب الله؟ فقال له الرضا في قوله: «إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين* ذرية بعضها من بعض» الى آخر الحديث[1] .

و روي عن الصادق عليه السلام قال : قال محمد بن الأشعث بن قيس الكندي للحسين عليه السلام : يا حسين بن فاطمة أيّة حرمة لك من رسول الله ليست من غيرك ؟ فتلا الحسين عليه السلام هذه الآية: «إنّ الله اصطفى آدم و نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين*ذرية بعضها من بعض» ثم قال: والله إنّ محمداً صلى الله عليه وآله لمن آل ابراهيم وإنّ العترة الهادية لمن آل محمد[2] .

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن إبراهيم عن يونس عن هشام ابن الحكم في حديث بريه (وهو رجل من النصارى) أنه لمّا جاء معه الى أبي عبدالله عليه السلام فلقي أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام فحكى له هشام الحكاية، فلمّا فرغ قال أبوالحسن عليه السلام لبريه: يا بريه كيف علمك بكتابك؟ قال: أنا به عالم .

ثم قال: كيف ثقتك بتأويله؟ قال: ما أوثقني بعلمي فيه، قال: فابتدأ أبوالحسن عليه السلام يقرأ الانجيل، فقال بريه: إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة أومثلك، قال:

---

(١) عيون أخبار الرضا : ج١ ص١٨١ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ج١ ص٢٧٥ ح١٠٦ .

فآمن بريه وحسن إيمانه وآمنت المرأة التي كانت معه.

فدخل هشام وبريه والمرأة على أبي‌عبدالله عليه السلام فحكى له هشام الكلام الذي جرى بين أبي‌الحسن موسى عليه السلام وبين بريه، فقال أبوعبدالله عليه السلام: «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» فقال بريه: أنّى لكم التوراة و الانجيل وكتب الأنبياء؟ قال: هي عندنا وراثة من عندهم نقرأها كما قرأوها ونقولها كما قالوا، إنّ الله لايجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول لا أدري[1].

قال الفخر الرازي عند ذكر هذه الآية في تفسيره الكبير: اصطفى في اللغة: اختار، فمعنى اصطفاهم أي: جعلهم صفوة خلقه، تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يصفّى وينقّى من الكدورة، ويقال على ثلاثة أوجه: صَفوة وصُفوة وصِفوة.

ونظير هذه الآية قوله لموسى: «إني اصطفيتك على الناس برسالاتي»[2] وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب «وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار»[3].

اذا عرفت هذا فنقول: في الآية قولان:

الأول: المعنى أنّ الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعاً الى دينهم وشرعهم وملّتهم، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف.

والثاني: أن يكون المعنى أنّ الله اصطفاهم أي: صفاهم من الصفات الذميمة، وزيّنهم بالخصال الحميدة.

و هذا القول أولى، لوجهين: (أحدهما) أنّا لانحتاج فيه الى الاضمار. (والثاني) أنّه موافق لقوله تعالى: «الله أعلم حيث رسالته»[4].

وذكر الحليمي في كتاب المنهاج: أنّ الانبياء عليهم الصلاة والسلام لابدّ وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية والقوى الروحانية.

---

(١) الكافي: ج١ ص٢٢٧ ح١، تفسير نور الثقلين: ج١ ص٢٧٤ ح١٠٣.
(٢) الاعراف: ١٤٤.
(٣) ص: ٤٧.
(٤) الانعام: ١٢٤.

(أمّا القوى الجسمانية)، فهي إمّا مدركة وإمّا محركة.

أمّا المدركة فهي إمّا الحواس الظاهرة وإمّا الحواس الباطنة، أمّا الحواس الظاهرة فهي خمسة.

أحدها: القوة الباصرة، ولقدكان الرسول مخصوصاً بكمال هذه الصفة ويدلّ عليه وجهان:

(الأول) قوله (ص) : زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها.

(والثاني) قوله (ص): أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري.

ونظير هذه القوة ماحصل لابراهيم وهو قوله تعالى: «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض»[1] ذكروا في تفسيره أنه تعالى قوّى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل.

قال الحليمي ـ رحمه الله ـ : وهذا غير مستبعد لأن البصراء يتفاوتون، فروي أنّ زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلايبعد أن يكون بصر النبي أقوى من بصرها.

وثانيها: القوة السامعة ، وكان (ص) أقوى الناس في هذه القوة، ويدلّ عليه وجهان: (أحدهما) قوله (ص): أطّت السماء و حقّ لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى. فسمع أطيط السماء .

(والثاني) أنه سمع دوياً و ذكر أنه هوى صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ قعرها الى الآن.

قال الحليمي: ولاسبيل للفلاسفة الى استبعاد هذا، فإنهم زعموا أنّ فيثاغورث راض نفسه حتى سمع حفيف الفلك. ونظير هذه القوة لسليمان عليه السلام في قصة النمل «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم»[2]. فالله تعالى أسمع سليمان كلام

---

(١) الانعام : ٧٥ .

(٢) النمل : ١٨ .

النمل وأوقفه على معناه، و هذا داخل أيضاً في باب تقوية الفهم وكان ذلك حاصلاً لمحمد (ص) حين تكلم مع الذئب ومع البعير.

وثالثها: تقوية قوةالشم، كمافي حقّ يعقوب عليه السلام، فإنّ يوسف عليه السلام لمّا أمر بحمل قميصه إليه و إلقائه علي وجهه ، فلمّا فصلت العير قال يعقوب عليه السلام: إني لأجد ريح يوسف فأحسّ بها من مسيرة أيام.

و رابعها: تقوية قوة الذوق، كما في حقّ رسولنا (ص) حين قال: إنّ هذا الذراع يخبرني أنه مسموم .

وخامسها: تقويةالقوة اللامسة، كمافي حقّ الخليل عليه السلام حيث جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه، فكيف يستبعد هذا ويشاهد مثله في السمندل والنعامة؟

وأمّا الحواس الباطنة فمنهاقوةالحفظ، قال الله تعالى: «سنقرئك فلاتنسى»[١].

ومنها قوة الذكاء، قال علي عليه السلام : علّمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب. فإذاكان حال الولي هكذا فكيف حال النبي(ص)؟

و أمّا القوى المحركه فمثل عروج النبي (ص) الى المعراج ، وعروج عيسى حياً الى السماء، ورفع إدريس وإلياس على ماوردت به الأخبار. وقال الله تعالى : «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك»[٢].

(وأمّا القوى الروحانية العقلية) فلابدّ وأن تكون في غاية الكمال ونهاية الصفاء،واعلم أنّ تمام الكلام في هذا الباب: أنّ النفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء والفطنة والحرية والاستعلاء والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذاكانت الروح في غاية الصفاء والشرف وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال، لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصلة الى البدن ، و متى كان

---

(١) الاعلى : ٦ .

(٢) النمل : ٤٠ .

الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء.

اذا عرفت هذا فقوله: «إنّ الله اصطفى آدم و نوحاً» معناه: إنّ الله اصطفى آدم إمّا من سكان العالم السفلي على قول من يقول : الملك أفضل من البشر، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات.

ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معيّنة من أولاد آدم عليه السلام هم شيث وأولاده الى إدريس ثم الى نوح ثم الى إبراهيم، ثم حصل من إبراهيم شعبتان: إسماعيل و إسحاق. فجعل إسماعيل مبدأً لظهور الروح القدسية لمحمد (ص)، وجعل إسحاق مبدأً لشعبتين: يعقوب وعيصو، فوضع النبوة في نسل يعقوب، و وضع الملك في نسل عيصو، و استمرّ ذلك الى زمان محمد (ص)، فلمّا ظهر محمد (ص) نقل نور النبوة و نور الملك الى محمد (ص) وبقيا ـ أعني الدين والملك ـ لأتباعه الى قيام القيامة. ومن تأمّل في هذا الباب وصل الى أسرار عجيبة[1] انتهى كلام الفخر الرازي.

أقول: أيها المسلم الذي يروم الوصول الى رضا الله، قد عرفت من كلام هذا العالم الكبير أنّ النبي صلى الله عليه وآله لابدّ وأن يكون أكمل أهل زمانه من جميع الجهات، وعرفت أنّ الدين والملك قد حصره الله في محمد صلى الله عليه وآله ولم يعطه لأحد غيره، وأنّ النبي قد جعله في أمرين من بعده وهما الثقل الأكبر والثقل الأصغر، وهما القرآن والعترة الطاهرة من أهل بيت النبي، وأنّ القرآن لا يقدر أحد أن يفسره ويبيّن تأويله غير أهل البيت علي وبنيه عليهم السلام كما ذكر لك الفخر الرازي من تعلّم علي مليون باب من العلم، فهل يسوغ لك عقلك أن تأخذ أحكام دينك من غير علي و بنيه؟ و هل عند أحد من الناس من العلم عشر معشار ما عنده ؟ فلينصف العاقل نفسه ولا يخدعها، فإنّها أعزّ الأنفس عليه .

قال الفخر الرازي بعد كلامه المتقدم .

من الناس من قال: المراد بآل إبراهيم المؤمنون كما في قوله : « أدخلوا

---

(١) تفسير الرازى : ج٨ ص٢٠ .

آل فرعون»[1] والصحيح أنّ المراد بهم الأولاد وهم المراد بقوله تعالى: «إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين»[2].

نعرف من هذا أنّ الامامة في ذرية إبراهيم الذين لم يصدر منهم ظلم الى الناس ولا الى أنفسهم، فمن لم يكن مؤمناً حين عرف نفسه كالامام علي عليه السلام لا يمكن أن يكون إماماً.

فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (٦١) .

إنّ قصة المباهلة متفق على مضمونها بين المفسرين. وحاصل القصة هي ما روي: أنّ النصارى لمّا دعوا الى المباهلة قالوا للنبي: حتى ننظر، فلمّا تخالوا ـ أي خلا بعضهم الى بعض ـ قالوا للعاقب: ماترى؟ وكان صاحب الرأي فيهم، فقال: والله لقد عرفتم نبوته ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا. فإن أبيتم أن لا آلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا.

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفهم صلوات الله عليهم أجمعين، والنبي يقول: اذا أنا دعوت فأمّنوا.

فقال اسقفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلاتباهلوا. فأبوا المباهلة، فصالحوا على ألفي حلّة وثلاثين درعاً في كل عام.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: و الذي نفسي بيده لو باهلوا لمسخوا قردة و خنازير ولاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر[3].

---

(١) غافر: ٤٦. (٢) تفسير الرازي: ج٨ ص٢٢ والاية ١٢٤ من سورة البقرة.
(٣) مجمع البيان: ج٢ ص٤٥١.

هذا ملخص قصة المباهلة وقد أكثر فيها المفسرون وأطنبوا وذكروا فضلاً كثيراً لأهل بيت نبيهم وفخروا بهم على أعدائهم، و يحق للمسلم و لمن يعتقد بنبوة محمد صلى الله عليه وآله أن يفخر بأهل بيته.

أمّا الامامية الذين يشترطون العصمة في الخلافة و هم القائلون بإمامة علي بعد النبي بلافصل. وأنّ غيره إنما يجوز أن يكون خليفة اذا كان مثله معصوماً من الخلل وأن يكون حاوياً لكل علم بحيث لايحتاج الى غيره في شيء من العلوم أبداً، فإنهم يستدلّون بأفضليته على غيره بهذه الآية من وجهين:

أحدهما: أنّ موضوع المباهلة إنما هو لتمييز المحقّ من المبطل، وذلك لايصح أن يفعل إلا بمن هو مأمون الباطن مقطوعاً بصحة عقيدته وهو أفضل الناس عندالله بعد النبي صلى الله عليه وآله.

الثاني: أنه جعله مثل نفسه بقوله: وأنفسنا وأنفسكم» لأنه أراد بقوله: «أبناءنا» الحسن والحسين بلاخلاف، وبقوله: «و نساءنا» فاطمة بلاخلاف، وبقوله: «وأنفسنا» نفسه و نفس علي عليه السلام بلاخلاف، واذا جعله مثل نفسه وجب أن لايدانيه أحد في الفضل ولايقارنه.

و كذا تدلّ الآية على أفضلية الزهراء على سائر النساء إذ المقصود من قوله «نساءنا» هي فاطمة الزهراء بلاخلاف لأنه لم يحضر المباهلة غيرها، وأنّ المباهلة هي لتمييز الحقّ من الباطل، ولايكون ذلك إلا بمن هي أفضل النساء، ويؤيّد هذا بما جاء في الخبر أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها[1] و قال صلى الله عليه وآله: إنّ الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها[2].

وقد صحّ عن حذيفة أنه قال: سمعت النبي يقول: أتاني ملك فبشّرني أنّ أنّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنة[3].

و عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: أسرّ النبي صلى الله عليه وآله الى فاطمة شيئاً

(١و٢و٣) مجمع البيان: ج٢ ص٤٥٣.

فضحكت فسألتها فقالت: قال لي : أترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الامّة و نساء المؤمنين؟ فضحكت[١].

والأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله في فضلها كثيرة .

و كذا الآية تدلّ على أفضلية الحسنين ، وإني أنقل لك نصّ عبارة الفخر الرازي في تفسيره الكبير لتعرف أنّ العالم المنصف لا يبخس أحداً حقه قال :

هذه الآية دالّة على أنّ الحسن والحسين كانا ابني رسول الله (ص) وعدأن يدعو أبناءه،فدعا الحسن والحسين فوجب أن يكونا ابنيه، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام : « ومن ذريته داود و سليمان » ... الى قوله « وزكريا ويحيى وعيسى »[٢] ومعلوم أنّ عيسى عليه السلام إنما انتسب الى إبراهيم عليه السلام بالامّ لا بالأب، فثبت أنّ ابن البنت قد يسمّى ابناً.

ثم قال الفخر الرازي: كان في الري رجل يقال له: محمود بن الحسن الحمصي وكان معلّم الاثني عشرية،وكان يزعم أنّ علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد عليه السلام ، قال : والذي يدلّ عليه قوله تعالى : « وأنفسنا وأنفسكم » وليس المراد بقوله «وأنفسنا» نفس محمد (ص) لأنّ الانسان لايدعو نفسه بل المراد به غيره. وأجمعوا أنّ ذلك الغير كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدلّت الآية على أنّ نفس علي هي نفس محمد ، ولا يمكن أن يكون المراد منه أنّ هذه النفس هي عين تلك النفس .

فالمراد : أنّ هذه النفس مثل تلك النفس، و ذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه ترك العمل بهذا العموم في حقّ النبوة وفي حقّ الفضل لقيام الدلائل على أنّ محمداً كان نبياً وماكان علي كذلك. ولانعقاد الاجماع على أنّ محمداً عليه السلام كان أفضل من علي رضي الله عنه، فيبقى فيما وراءه معمولاً به.

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٤٥٣ .

(٢) الانعام : ٨٤و٨٥ . .

ثم الاجماع دلّ على أنّ محمداً عليه السلام كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام، فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء ، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية .

ثم قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عندالموافق والمخالف وهو قوله عليه السلام : من أراد أن يرى آدم في علمه، ونوحاً في طاعته، و إبراهيم في خلّته، وموسى في هيبته، وعيسى في صفوته، فلينظر الى علي بن أبي طالب .

فالحديث دلّ على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم ، و ذلك يدلّ على أنّ علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد (ص) .

و أمّا سائر الشيعة فقد كانوا قديماً و حديثاً يستدلون بهذه الآية على أنّ علياً رضي الله عنه مثل نفس محمد عليه السلام إلا فيما خصه الدليل ، و كان نفس محمد أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم، فوجب أن يكون نفس علي أيضاً من سائر الصحابة. هذا تقدير كلام الشيعة(١) انتهى كلام الرازي.

وقال الزمخشري في الكشاف بعد ما نقل القصة كما نقلناها هنا ثم قال: وعن عائشة أنّ رسول الله خرج وعليه مرط ـ مرجل من شعر أسود ـ فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم فاطمة فأدخلها ثم علي، ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت»(٢) انتهى.

وقال ابن كثير في تفسيره: وقال أبوبكر ابن مردويه: حدّثنا سليمان بن أحمد ، حدّثنا أحمد بن داود المكّي ، حدّثنا بشر بن مهران، حدّثنا محمد بن دينار عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن جابر قال: قدم على النبي (ص) العاقب والطيب، فدعاهما الى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة، قال: فغدا رسول الله (ص) فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن و الحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا، وأقرا له بالخراج، قال: فقال رسول الله (ص) والذي بعثني بالحق لو قالا «لا» لأمطر عليهم

---

(١) تفسير الرازى : ج٨ ص٨١ .

(٢) تفسير الكشاف : ج١ ص٣٦٩ والاية ٣٣ من سورة الاحزاب .

الوادي ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت : «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم». قال جابر:«أنفسنا وأنفسكم» رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب «وأبناءنا» الحسن والحسين «ونساءنا» فاطمة .

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه عن علي بن عيسى عن أحمد بن محمد الأزهري عن علي بن حجر عن علي بن مسهر عن داود بن أبي هند بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه هكذا، قال:

وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلاً ، وهذا أصح، وقد روي عن ابن عباس والبراء نحو ذلك[1] انتهى ماذكره ابن كثير .

ولايخفى أنّ كل من فسر القرآن عند وصوله الى هذه الآية يذكر هذه القصة، ومن الواضح أنّ المسلم المؤمن بالنبي صلى الله عليه وآله اذا سمع مدح أهل بيت نبيه يفرح بذلك ويسرّ ويذكره للناس افتخاراً به، وأنّ هذه القصة فيها من المدح العظيم.

أولاً: ماقاله اسقف النصارى لأصحابه فإنه قال: لاتباهلوا فإني أرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيلوا جبلاً لأزاله .

وثانياً: قال النبي صلى الله عليه وآله : لو باهلتهم لاحترق عليهم الوادي ناراً، ثم إنّ النبي صلى الله عليه وآله قد تحاجج مع جماعات عديدة. فهل سمعتم أنه أحضر بنته في مورد من هذه الاحتجاجات إلا في هذا المورد؟ حيث إنه مورد مهم يتوقف عليه تأييد الدين .

وإني لأعجب من بعض الكتّاب أرى له لساناً قوالاً وقلماً سيالاً واطلاعاً واسعاً لايمكن أن يفوته حديث روي عن النبي صلى الله عليه وآله .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في حقّ علي: من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني[2] وهكذا ورد في حق فاطمة والحسن والحسين، فلاعذر لمن يدعي الاسلام وهو لايحبّ هؤلاء .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٥٢ .

(٢) بحار الانوار : ج٣٩ ص٢٦١ ب٨٧ ح٣٣ .

و إني نظرت الى ما ذكره هذا الكاتب في تفسيره و اذا به قد ذكر كلمات قليلة و لم يتعرض فيه للقصة أو للمعجزة ، و إليك نصّ عبارته بعد ذكره لآية المباهلة قال:

وقددعا الرسول (ص) من كانوا يناظرونه في هذه القضية الى هذا الاجتماع الحاشد ليبتهل الجميع الى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين ، فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة وتبيّن الحق واضحاً[1].

انتهى ما قاله هذا الكاتب بعدما أطال الكلام في مدح المسيح وامّه و أطنب في الثناء على مريم، وهما عليهما السلام أهل لذلك ، ولكن هذا الكاتب لم ير نفسه أهلاً لمدح أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا أهلاً للثناء على بنت محمد المصطفى، راجع العبارة بنفسك لعلّك تجد له عذراً في عدم ذكر فضيلة لأهل بيت النبي صلوات الله عليه وعليهم.

وقد ذكروا من جملة الأسئلة التي سأل المأمون عنها الرضا عليه السلام قال المأمون: ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب؟ قال الامام الرضا عليه السلام: الدليل على ذلك آية «أنفسنا» أي: لو كان هناك شخص أقرب الى نفس النبي من حيث الروحانية والنورانية والصفاء والاصطفاء من علي بن أبي طالب لعبّر النبي عنه بالنفس ولأخذه معه وباهل به ، إذ المباهلة ينبغي أن تكون بأفضل الناس بعد الرسول بحيث لم ينقص عن الرسول صلى الله عليه وآله إلا درجة النبوة ويساويه في بقية الصفات الحميدة. هذه العبارة تفسيره للكلمة التي قالها الرضا في جواب المأمون: وهي قوله: «آية أنفسنا» وقد فهم المأمون ما قصده الرضا من كلامه وعرف معناه ، فأجابه بجواب متين واحتجّ عليه بما يمكن الاحتجاج به من علماء البشر الغير المصطفين الذين لم يحيطوا بدقائق معاني الكلام إحاطة تامّة فقال المأمون: «لولا نساءنا» أي: أنّ وجود كلمة نساءنا مقابل أنفسنا يدلّ على كون المراد من أنفسنا الرجال فيشمل كل رجل سواء في ذلك المتكلّم وغيره ، وهو جواب متين لكنه لم يتنبه الى مايعلمه

---

(١) في ظلال القرآن : ج١ ص٤٠٥ .

الراسخون في العلم فقال له الرضا عليه السلام : «لولا أبناءنا» أي : لوكان المقصود من أنفسنا مطلق الرجال الشامل للبعيد المباين للنفس لكان شاملاً للحسنين فلاحاجة الى قوله «وابناءنا» فسكت المأمون ولم يعترض لأنه من أهل الفهم والادراك [1].

وعن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ أميرالمؤمنين سئل عن فضائله فذكر بعضها ، ثم قالوا له : زدنا ، فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه حبـران من أحبار النصارى من أهل نجران فتكلّما في أمر عيسى فأنزل الله هذه الآية : «إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم ... إلخ» [2] فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام ثم خرج ورفع كفّه الى السماء وفرج بين أصابعه ودعاهم الى المباهلة .

قال : وقال أبو جعفر عليه السلام : وكذلك المباهلة يشبك يده في يده ويرفعهما الى السماء، فلمّا رأى الحبران قال أحدهما لصاحبه: والله لئن كان نبياً لنهلكن، وإن كان غير نبي كفانا قومه ، فكفّا وانصرفا [3] .

قوله تعالى : ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم (٦٢) .

أي : هذا الذي أوحيناه إليك عن كيفية خلقة عيسى وما اشتمل عليه من الأدلّة هو الحق وليس غيره حق ، وأنّ ما ادعته النصارى من أنه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة فكلّه باطل ، لأنّ الله وحده لا شريك له ، وليس هناك إله إلا الله ، وأنه هو العزيز الذي يفعل ما يريده بلا استعانة بأحد بل بقـدرته وقوته ، وهـو الحكيم الذي تكون أفعاله كلها مطابقة للحكمة والمصلحة فلايعرف أحد

---

(١) راجع البحار : ج٤٩ ص١٨٨ ب١٤ ح٢٠ ونقل بالمعنى .
(٢) آل عمران : ٥٩ .
(٣) تفسير العياشي : ج١ ص١٧٥ ح٥٤ .

الحكمة غيره.

قوله تعالى: فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين(٦٣).

بعد ما بيّن الله تعالى كيفيّة خلقة المسيح بصوره يقبلها كلّ ذي عقل بحيث لم يبق مجال للشكّ والريب، ثم جاءهم بشيء يظهر الحقّ ويدحض الباطل في أيّ جانب كان وهو المباهلة فلم يوافقوا عليها، و هذه الآية تقول للنبي: اذا لم يرضوا بهذا القصص الحق، وبهذا الأمر الحقيقي الذي بيّناه لهم، وأعرضوا عنه، وبقوا مصرين على العناد، فإنهم لا يريدون إلا الفساد والله يعلم منهم ذلك، وسوف يجازيهم على نيتهم هذه. فإنه تهديد شديد لا يبقى مصراً عليه إلا الذي لا يعرف الله حقّ معرفته.

وهذا التهديد يعمّ كل أحد يتضح له الحقّ بأدلة صحيحة قوية فلا يقبله ويبقى مصراً على إنكاره، وسوف يتضح هذا الأمر في الآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد الا الله و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون(٦٤).

إنّ هذه الآية الشريفة تكون فيها عظة للمسلم أكثر مما تكون دعوة لغيره من أهل الكتاب، فقد تبيّن منها ما يحصل من الاسلام من الفوائد العظيمة، و هي اتحاد الكلمة الموجبة لحصول العدل بين جميع المسلمين، و هذه الكلمة هي كلمة التوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنّ الانسان اذا قال هذه الكلمة بإخلاص و اعتقاد ولم يشبها بشيء ممّا يهواه من امور الدنيا، فهذا الانسان هو

المسلم حقاً كما تقدّم تفسير المسلم في قوله تعالى: «فقل أسلمت وجهي لله و من اتّبعن»[1] وقدعرفت معنى تسليم الوجه، وأنه هو الاذعان والخضوع لله عزّ وجلّ بحيث إنّ العبد لايفعل شيئاً ولا يقول شيئاً إلّا بإذن الله، يستمدّ ذلك من النبي صلى الله عليه وآله، أو ممن أمر بالرجوع إليه والأخذ عنه والتعلّم منه، فإذا أخذ العبد شيئاً من أحكام دينه من شخص لم يأذن الله و لارسوله بالرجوع إليه كان ذلك نوعاً من الشرك الذي نهت عنه الآية .

فقد روي أنه لمّا نزلت الآية قال عدي بن حاتم: ما كنّا نعبدهم يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أما كانوا يحلّون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ فقال: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وآله : هو ذاك[2].

أمّا أئمة أهل البيت الاثنا عشر عليهم السلام فإنهم صرحوا للناس في كل موطن أنّ الأمر الذي يأتي من قبلهم إن كان موافقاً للقرآن فخذوا به، و إن لم يكن موافقاً للقرآن فردوه الى الذي جاء به ولاتقبلوه منه[3].

وإنّ الآية تصرح بأنّ كلّ من أسلم ينبغي أن يكون بهذه الصفة وبهذا النوع من الاذعان والخضوع والانقياد لله و لرسوله، حتى تكون كلمة المسلمين كلّهم واحدة ليس فيها خلاف ولااختلاف، وهذه الكلمة وأهل هذه الكلمة وهم أهل التوحيد ـ بمعناه الوحيد الذي ليس معه غيره ـ هم الذين يقفون مقابل الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم، و يدعونهم الى دين الله ليساووهم في التمسك والاعتقاد بهذه الكلمة، و إلا فالحرب أو الجزية.

أمّا الاختلاف بين طوائف المسلمين ومذاهبهم فيلزم على كل فرقة منهم أن تنظر الى عقيدتها هل أنها مذعنة منقادة الى الله بحيث قد أسلمت وجهها الى

---

(١) آل عمران : ٢٠ .

(٢) مجمع البيان : ج٣ ص٢٣ .

(٣) راجع اصول الكافي : ج١ ص٦٩ ح٢و٥ .

الله وأخذت أحكامها من النبي ﷺ، أو ممن أمر النبي ﷺ بالرجوع إليه، أو أنها ليست كذلك، ولايبقى مصرّة على ما وجدت عليه آباءها؟

فإنّ أغلب الناس كانوا في العصور المتقدمة يلحظون رغبة الملوك الذين كانوا يسمّون أنفسهم خلفاء، وكان الناس ينادونهم: يا أميرالمؤمنين. كانوا في كل وقت ضدّ الدين، فلذا تراهم يقاومون الأئمة الذين يدعون الى الحقّ وبه يعملون.

أنت أيها المسلم انظر الى أول الأئمة وهو علي بن أبي طالب عليه السلام فهل ترى في الأحكام التي بيّنها للناس و هو يسندها الى الآيات، فهل تتمكن أن تعثر على حكم واحد من الحلال والحرام مخالفاً لحكم الكتاب أو لسنّة النبي ﷺ؟

فهذه الآية الشريفة تخبرنا بصورة حتمية: أنّ المسلمين كلمتهم واحدة سواء، فإذا تفرقت واختلفت فليس المسلمون إلا فرقة واحدة و باقي الفرق ليست من الاسلام وإن كانت كل فرقة تدعي أنها هي المسلمة.

هلمّوا ملنسر على الطريقة التي خطّها لنا الرسول ﷺ وهي التمسك بما أمرنا به من حديث الثقلين، فإنه مسلّم الصدور، و كل الفرق ترويه عن النبي ﷺ، فانظروا من هو المتمسك به ومن هو التارك له.

و اذا كان عند أحد من الفرق حديث كهذا الحديث صحيح السند واضح الدلالة فليذكره حتى يتبصّر الناس ولايبقون في عماهم فتكون جميع الفرق مسلمين حقيقيين، وتكون كلمتهم واحدة، حتى تقف صفّاً واحداً في قبال هذا التيار الجارف من يهود و نصارى وغيرهم، فنعود الى إسلامنا **«فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»**.

وهذه الجملة لاتحتاج الى تفسير وتحليل، ولا تحتاج الى ترجمة بالنسبة الى العربي. أمّا بالنسبة الى غيره فيتمكّن كل عربي أن يترجمها له اذا كان مسلماً كما أمره الله لأن يسلم وجهه لربّ العالمين، أمّا اذا كان مسلماً كما يأمره هواه وكان موالياً للكافرين فتكون ترجمته كما يشتهي هو.

قوله تعالى : ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون (٦٩) .

إنّ الله من رأفته بالمؤمنين ورحمته انه يخاطبهم ويخبرهم بنوايا اليهود، وبما تضمره قلوبهم في حقّ المسلمين من النوايا الخبيثة السيّئة لكي يحذروا منهم ويبتعدوا عنهم، فإنهم يودون أن يضلّوهم عن دينهم بعد أن اهتدوا وكانوا مؤمنين، وإنهم بفعلهم هذا أو بتمنيهم إضلال المؤمنين قد صاروا من الضالّين وكفروا بما في كتابهم .

وإنما سمّاهم الله أهل كتاب إنكاراً عليهم ، لأنّ أهل كل كتاب يلزمهم العمل بما في كتابهم ، وأنّ كتابهم قد حرم عليهم إضلال المؤمنين، وفي مخالفتهم لكتابهم وارتكاب ما حرم عليهم فيه يكونون قد أضلّوا أنفسهم من حيث لا يشعرون.

أمّا المؤمنون الذين ودوا إضلالهم فإن كان إيمانهم راسخاً فلا يؤثر فيه إضلال المضلّين ، وإن كان إيمانهم متزلزلاً غير مستقرّ فإنه يزول من كل شبهة.

ثم إنّ هذه الآية تكون منبّهة لفرق المسلمين الثلاث والسبعين حيث إنهم أهل كتاب وأهل دين ، وأنّ اثنين وسبعين فرقة منهم على غير الحق، وأنّ الحقّ مع من تمسك بوصية النبي ﷺ في قوله: إني مخلّف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً : كتاب الله وعترتي أهل بيتي [1] .

فكل فرقة غير متمسكة بقول النبي ﷺ اذا أرادت إرجاع فرقة اخرى الى ما هم عليه يكونون بفعلهم هذا قد أضلّوا أنفسهم وما يشعرون ، وأنّ عليهم قبل كل شيء أن يحققوا لأنفسهم التمسك بوصية النبي ﷺ، فإنه أرشدهم الى طريق واحد، وعليهم أن يسيروا فيه ولا يخرجوا منه يميناً وشمالاً وإلا فهو الضلال والاضلال.

---

(١) راجع بحار الانوار : ج٢٣ ص١٠٤ ب٧ .

قوله تعالى: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و أنتم تشهدون (٧٠) .

إنّ هذا النداء من الله لأهل الكتاب إنما هو حجة عليهم حيث إنهم يدعون أنهم يعملون بما في كتبهم من التوراة والانجيل، والله المنزل له قد أمر نبيهم وأمرهم في نفس الكتاب أن يصدقوا بالنبي الموصوف بالكتاب وأن لاينكروا صفته ، ولمّا بعث النبي كفروا بالآيات التي جاء بها وهم يرونها رأي العين ويشاهدونها ، وأنّ الله ينكر عليهم فعلهم هذا ، ويفضحهم عند المسلمين ، ويحكم عليهم أنهم كفروا بآياته مع أنهم يسمّون أنفسهم أهل كتاب ، فتكون الحجة أعظم ، ويستحقون بذلك العذاب من الله، وفي نفس الآية إنذار للمسلمين الذين يكفرون بآيات القرآن، ويغيّرونها ويعملون بخلافها ، وقد يسنّون مواداً قانونية مخالفة للقرآن .

وقد وبّخ الله أهل الكتاب، وأنكر عليهم بالآية التي بعد هذه الآية، وفيها إنذار للمسلمين وهي قوله تعالى :

يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون(٧١).

ما أكثر هذا التلبيس في هذا العصر عند المسلمين، فإنّ أهل الأطماع الذين لايعرفون إلا المادة، ويأملون أن ينالوا شيئاً منها من الامراء الخونة يذكرون الآية النازلة في شأن المؤمنين الأبرار ثم يطبّقونها على هذا الفاجر الخالي من الدين، ويكتمون أعماله السيئة وظلمه للناس واغتصاب أموالهم، وهم يعلمون بها فلا يقولون الحقّ اذا حضروا عنده أو سئلوا عنه، و بهذا شابهوا أهل الكتاب في تلبيس الحقّ بالباطل و كتمان الحق .

وأنّ هذا الانكار من الله على أهل الكتاب وهذا التوبيخ وهذا الوعيد لم يؤثر فيهم شيئاً ، فلم يتركوا شيئاً من باطلهم ولم يقربوا عن الحق ، بل عمدوا الى مكر آخر وحيلة جديدة ليخدعوا بها البسطاء من المسلمين، وأنّ الله قد نبّه المسلمين وحذرهم حتى لاينخدعوا فقال جلّ اسمه :

و قالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون(٧٢)ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما اوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء و الله واسع عليم(٧٣) يختص برحمته من يشاء والله ذوالفضل العظيم(٧٤).

هذه الآيات المنزلة على النبي ﷺ بعضها تحكي نوايا اليهود التي أرادوا أن يفعلوها لكي يرجع المسلمون عن إسلامهم، وأنّ الله من لطفه ورأفته ورحمته بالمسلمين أخبرهم بما يكيده لهم اليهود، فإذا اطّلع المسلمون على المكر والخديعة بطل أثره فلاينفع شيئاً، ولاتحصل منه النتيجة المطلوبة، بل ينعكس الأمر ويكون ضرر مكرهم عليهم.

وملخص هذا المكر الذي أراده اليهود هو: أنه اجتمع جماعة من أحبارهم، و أوعزوا الى جماعة منهم بأن يظهروا الايمان بالنبي في أول النهار ثم يعلنوا الكفر به في آخر النهار، ويعلّلون هذا الكفر بأنهم اشتبهوا في تطبيق الأوصاف عليه ، وأنّ ماوصف به النبيّ الامّي في كتابهم لاينطبق على محمّد بن عبدالله، فإذا فعلوا ذلك يقول من آمن بالنبي: إنّ أهل الكتاب أعرف بهذا الأمر منّا فيرجعون عن إسلامهم.

ولكن الله قد فضح اليهود، وأعلن مكرهم للمسلمين فلم ينتفعوا به، وعرف كل مسلم أنّ اليهود من أهل المكر و الخداع، و أنهم أعداء للدين الاسلامي.

و قد نقل المفسرون أقوالاً اخر في تفسير الآية ، فالآية الاولى هي حكاية عن حال اليهود ، وأمّا قوله : **«ولا تؤمنوا الالمن تبع دينكم»** من الآية الثانية فهي أيضاً حكاية حالهم .

و المعنى أنّ الطائفة اليهودية التي دبّرت تلك الحيلة المنوّه عنها بالآية السابقة و هي الايمان بالنبي في صلاة الصبح الى بيت المقدس، والكفر به في صلاة الظهر الى الكعبة، أو الايمان مطلقاً في أول النهار والكفر في آخره، وبعد تدبيرهم تلك الحيلة، والعزم على إجرائها و إمضائها، جعل يوصي بعضهم بعضاً، أو يوصي الأحبار أتباعهم بهذه الوصية التي حكاها الله بقوله: «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم».

وقد اختلف المفسرون في المقصود منها . فقال بعضهم: إنّ المعنى لاتصدقوا نبياً إلاّ أن يقرر شرائع التوراة، أمّا من جاء بشيء مخالفاً لما في التوراة فلاتصدقوه. وهذا هو مذهبهم ودينهم في ذلك العصر[١].

أمّا في هذا العصر ، فلو بعث الله لهم موسى بن عمران عليه السلام و أراد أن يعمل على التوراة فإنهم يقاوموه ويعارضوه و لايوافقوه إلا أن يحرف التوراة، و ينقص ويزيد حسبما ما يريدون .

وقال بعض المفسرين: إنّ المعنى لاتخبروا واحداً بهذا الأمر الذي تواطأتم عليه من الكيد والمكر لامن المسلمين ولا من غيرهم إلا أن يكون تابعاً لدينكم على كل حال سواء ظهر له الحقّ أو لم يظهر[٢].

و أمّا قوله تعالى: **«قل ان الهدى هدى الله»** فهو من كلام الله يردّ به على اليهود، ويؤدب به المؤمنين ويعلّمهم طريق الاهتداء. أي: أنّ الهدى الحقيقي

---

(١) راجع التفسير الكبير : ج٨ ص٩٥ .

(٢) المصدر السابق : ص٩٦ .

الذي ينتفع به المرء في الدنيا والآخرة إنما هو هدى الله لا ما تعتبرونه أنتم هدى، فالمؤمنون قد اهتدوا بهدى الله، وهم في غنى عما ترونه أنتم هدى، وأنتم إن صدّقتم النبي وآمنتم به أو كفرتم وكذّبتم، أظهرتم أو أخفيتم، كل ذلك على حدّ سواء بالنسبة الى المؤمنين، فإنّ الله ينزل القرآن على نبيه ﷺ، والنبي يتلوه على المؤمنين، وهم يعملون بمضمونه ويتمسكون به، واذا عملوا بمضمون القرآن عرفوا أنّ أقوالكم كلّها باطلة، وأعمالكم عاطلة، فلا ينخدعون بأقوالكم، ولا يضعف إيمانهم بأفعالكم.

وأمّا قوله تعالى: **«أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم»** فقد اختلفوا فيه هل أنه من تتمة كلام أهل الكتاب، أو أنه من ردّ الله عليهم؟

فقال بعضهم: إنه من تتمة كلام اليهود[1].

والمعنى: أنكم لا تبدون تدبيركم الذي دبرتموه لمن لا تؤمنوه على أسراركم، وذلك لئلّا يكون عندهم من العلم بصفة النبي عندكم من ذلك فيعرفون صدقه، وأنتم تريدون خلاف ذلك، أو اذا صار عندهم من العلم والحكمة وأنتم خالفتموهم في تصديق النبي فإنهم يحاجّوكم به عند الله.

وعلى هذا القول يكون قوله تعالى: «قل إنّ الهدى هدى الله» جملة معترضة بين كلامهم، أي: أنّ الله أبطل صدر كلامهم قبل أن يأتوا على آخره انتصاراً للمسلمين، ودحضاً لحجتهم، وهذا غاية في الاذلال والتحقير، لأنّ القاعدة الجارية بين المتكلّمين هي أن يترك المتكلّم حتى يأتي على آخر كلامه، ولكن اذا كان الكلام غاية في السخافة وكان مطلعه ظاهر البطلان يضرب المتكلّم على فمه ولا يعطى مجالاً لاتمامه، وإنما ذكر الله بقية كلامهم حتى يظهر للناس بطلانه أولاً وآخراً.

وقال بعض المفسرين: إنه من جملة ردّ الله عليهم[2].

---

(١) راجع التفسير الكبير: ج٨ ص٩٧.

(٢) راجع تفسير الكشاف: ج١ ص٣٧٤.

فيكون المعنى: أنّ الهدى هدى الله ، وإنما منعتم إفشاء الأمر لغير أهل ملّتكم حسداً منكم وخوفاً من أن يؤتى أحد مثل ما اوتيتم من الاطلاع على صدق النبي ﷺ ، وأنه هو الموعود به الذي يبعث و يكون خاتمة الأنبياء، فإذا عرفه جميع الناس وقع الأحبار بين محذورين: إمّا أن يؤمنوا به فتبطل رئاستهم وتقدمهم بين اليهود ويكون حالهم حال أحد المسلمين، لهم مالهم و عليهم ما عليهم، و إمّا أن يبقوا على ما هم عليه من التمسك باليهودية فيحاجّوهم -أي المسلمون- عند ربهم. هذا ما فكّر به اليهود من دوران الأمر بين هذين الأمرين .

أمّا الأمر الثالث فلم يفكّروا فيه وهو: ما فعله الله من إخبار المسلمين وفضح أمرهم على رؤوس الأشهاد، و إنزال قرآن يقرأ الى يوم القيامة، وأنّ الله و نبيّ المسلمين وسائر المسلمين سوف يحاجّوهم يوم الحساب، وأنّ الله سيعذبهم ويعاقبهم على هذه الأعمال التي عملوها مع المسلمين، هذا كلّه لم يفكّروا فيه لأنهم بعيدون عن الله و لايعرفون أو لايعترفون بشيء من امور الآخرة، و إنما يعرفون الدنيا وزينتها وزخرفها ويعرفون المادة لاغيرها.

هذا كلّه مما يتعلّق باليهود و مكرهم وخداعهم و حيلتهم، و ليس هو من موضوع كتابنا وإنما موضوع كتابنا صفات المؤمنين التي ذكرها الله في القرآن. وقد ذكر الله في ضمن هذه الآيات اموراً ثلاثة:

١ ـ قوله تعالى : «قل إنّ الهدى هدى الله» .

فإنه تعالى قد نفى كل شيء يسمّونه الناس هدىً عن حقيقة الهدى إلا ما كان من عند الله، فيلزم المؤمن أن تكون عقيدته مطابقة لهذا الذي قرره الله، وأن لا يسمّي شيئاً هدىً إلا ما كان من عند الله بسبب متصل مقرر من الله بواسطة الملك الذي يحمل الوحي الى النبي ﷺ .

و النبي بدوره بعد انقضاء مدته يسلّمه الى من له قابلية هذا المنصب بأمر وتعيين من الله، ولايتمكّن أحد أن يجعل نفسه أو غيره ممن بيده هداية الله، فإنّ الله لايجعل قيّماً عليها إلا من يرتضيه ويؤهّله لها.

٢ـ قوله تعالى: **«قل ان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم»**.

لّما قرر الأحبار من اليهود التكتم والتستر وعلّلوا ذلك بأن لايكون عند أحد من الناس ما عندهم من العلم والحكمة التي وجدوها في التوراة من صفات النبي و الحكمة التي سبّبت تحويل القبلة من بيت الى بيت ردّ الله عليهم بأنّ النبوة والخلافة العامة والحكمة والعلم ومعرفة الأسباب والمسبّبات هو كلّه فضل من الله، وهو بيده يعطيه من يشاء، فكما أعطاه الى بني إسرائيل وجعله عندهم مدة من الزمن أعطاه الآن الى النبيّ العربي من ذرية إبراهيم، وسوف يبقيها في ذريه إبراهيم، وأنّ الله واسع في كل فضل، عليم بالمصالح وبمن يكون أهلاً لفضله كما قال لابراهيم: «لاينال عهدي الظالمين»[1].

٣ـ الأمر الثالث هو ما يؤكّد به الأمرين المتقدمين ويوضح المراد منهما، وهو قوله تعالى: **«يختص برحمته من يشاء والله ذوالفضل العظيم»**.

إنّ اليهودكانوا يمنون أنفسهم أن يستولوا على رئاسة الدين والدنيا جميعاً، فكانوا يدّعون دعوى غرور أنهم قتلوا عيسى وصلبوه، وجعلوا يكيدون أنواعاً من الكيد للقضاء على محمد ﷺ حتى يمسكوا بزمام الحكم، وقدحاولوا مراراً عديدة أن يقتلوا أحد أجداد النبي هاشم أو عبدالمطلب، أو يقتلوا أباه عبدالله، أو يقتلوه هو شخصياً، فماتمكّنوا.

ثم حاولوا بعد البعثة وبعد نزول الوحي عليه أن يخدعوا الناس ليرتدوا عن الاسلام، فأعلن الله مكرهم و كيدهم للأنام، ثم عرّفهم و عرّف المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام، و عرّف عموم البشر بالآيتين اللتين تقدمتا: «قل إنّ الهدى هدى الله» و«قل إنّ الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم».

إنّ الهدى إنما يحصل بإرادته وإشاءته ولايمكن أن يتحقق هدىً إلا من عنده، وأنّ الفضل وهوالنبوة والرئاسة الدينية و الملك وهو السيطرة التي تعامل

---

(١) البقرة: ١٢٤ .

الناس بالعدل إنما هو بيدالله يعطيه من يشاء ويصرفه عمن يشاء .

وبعدالآيتين عرّف الجميع أنّ أمر النبوة والملك ـ أي الرئاسة العادلة ـ يختصّ بها الله من يشاء فقال : «يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» .

فقد عرفنا من هذه الجمل الثلاث أنّ أمر النبوة والرئاسة العادلة العامة بيد الله تعالى، أمّا اليهود فلا يرجعون عن غيّهم ولا يعدلون عن تمنياتهم ولا يقطعون آمالهم، وهم الى اليوم والى ما بعد اليوم بل الى اليوم الذي يكونون فيه هم أذلّ من قوم سبأ وإن كانوا في يومهم هذا كذلك، فإنهم على أملهم الكاذب يأملون مالا يكون.

إنّ اليهود مع ما نزل فيهم من الذمّ الكثير في القرآن وبيان ما هم فيه من الصفات الرذيلة فإنهم يطمحون أن يستعمروا العالم بأسره ، وأن يستعبدوا الناس جميعاً بالمكر والخداع والحيل ، ولكن الله تعالى قد بيّن للمسلمين كل ما همّوا به من فعل فتحذر المسلمون منهم .

أمّا الطرف الآخر المقابل لهم وهم النصارى فإنهم مع علمهم بعداوة اليهود لهم وأنهم لو تمكّنوا من إزالتهم عن وجه الأرض لأزالوهم ، وأنّ الله قد ذكر في القرآن أنه وعد المسيح أن يجعل من اتبعه فوق الذين كفروا به وهم اليهود الى يوم القيامة ، ومع هذا كلّه فإنّ اليهود قد خدعوا النصارى حتى ساعدوهم على مقاومة المسلمين، فاغتصبوا أرض المسلمين وأسكنوهم فيها، وجعلوا يمدونهم بالمال والسلاح، ثم خدعوهم خديعة كبرى لاينخدع بها مجنون أو معتوه أو طفل صغير أو امرأة ضعيفة معدمة يملأون لها بيتاً من تبر ، ألا وهذه الخديعة كانت بالنسبة الى أعقل طبقاتهم وهم الأساقفة والآباء ، خدعوهم بالأصفر اللمّاع بل بالقراطيس المطبوعة حتى برأوهم عن دم المسيح ، وهم ينادون ويعلنون مدة عشرين قرناً بأننا قتلنا المسيح ، وبعد هذه المدة يأتي رجال مسيحيون فيبرئون اليهود من دمه .

يقول الطنطاوي في تفسيره: «لقد ذكر أحد علماء الافرنج أنه قرأ في التلمود

ـ وهو شرح التوراة ـ ما يأتي وهو قول اليهود : نحن شعب الله في الأرض وقد أوجب أن تفرقنا في الأرض لمنفعتنا ذلك ، إنه لأجل رحمتنا ورضاه عنا سخّر لنا الحيوان الانساني وهم كل الامم والأجناس ، سخّرهم لنا لأنه تعالى يعلم أننا نحتاج الى نوعين من الحيوان : نوع أخرس كالدواب والأنعام والطير ، ونوع ناطق كالمسيحيين والمسلمين والبوذيين وسائر الامم من أهل الشرق والغرب، فسخّرهم لنا ليكونوا مسخّرين لخدمتنا، فلذلك فرقنا في الأرض لنمتطي ظهورهم ونمسك بعنانهم ونستخرج فنونهم ونسخّرهم لمنافعنا أجمعين، لذلك يجب علينا أن نزوج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والعظماء، وأن ندخل أبناءنا في الديانات المختلفات وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها فنفتنهم ونوقعهم في الحرب، وندخل عليهم الرعب والخوف ، وفي ذلك كلّه نحن نستفيد الاستفادة كلّها [1] .

واليهود هم الذين أذاعوا في المانيا أنه لا رحمة على ضعيف، حتى وقف غيلوم ملك الألمان وقال: ويل للمغلوب. كل ذلك فعل اليهود وهم الذين قاموا يسترجعون فلسطين بعد ضياعها من أيديهم نحو ألفي سنة ، لقد أخبرني أحدهم قائلاً: إنّ لهم جمعية دائمة ترسل في كل عام جماعة تجوس الأقطار وتبحث في الأمصار عن اليهود القاطنين في الأماكن المختلفة وتحصي ما يحتاجون إليه من المعونة، وترجع فترسل لهم ما إليه يحتاجون. فهذه بعض خصال اليهود الدالّة على محافظتهم على قوميتهم التي تغالوا الى الاضرار بالامم .

وأمّا غيرهم من أنواع البشر فمنهم من ينكر الخالق فيعمل له صنماً من حجر أو من غيره فيعبده ، ومنهم من ينكر النبي فيعمل له صنماً و يقول : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى» [2] فيتخذ الصنم واسطة ويجعله في مقام النبي ، فهل ترى من فرق بين هذين الصنفين ؟

---

(١) تفسير الجواهر : ج٢ ص١٢٨ .

(٢) الزمر : ٣ .

فأنا أرجو من أخي المسلم الذي يتطلّب الرشد أن يجعل هذه الجمل الثلاث نصب عينيه : « قل إنّ الهدى هدى الله » و « قل إنّ الفضل بيد الله» و «يختصّ برحمته من يشاء» .

و لايخفى أنّ المراد بالفضل والرحمة هو النبوة والرئاسة العادلة العامة، فلو أنّ الخلق كلّهم اجتمعوا وأخذوا بيد رجل عاقل كامل وقالوا كلّهم بكلمة واحدة: أنت نبي الله، أنت رسول الله، فهل يكون ذلك الرجل نبياً ورسولاً؟ ولو أنهم كلّهم اجتمعوا وأخذوا بيد رجل وقالوا له: أنت إمام مفترض الطاعة من ذرية إبراهيم، فهل يمكن أن يكون إماماً بعد رسول الله و من ذرية إبراهيم ما لم يجعله الله و رسوله بهذه المنزلة؟ فتدبر جيداً أيها المسلم و فكّر بالجمل الثلاث حتى تصل الى الصواب وتسلم يوم الحساب من العقاب .

قوله تعالى: و من أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل و يقولون على الله الكذب وهم يعلمون(٧٥).

المراد من أهل الكتاب هم النصارى و اليهود ، و القنطار هو المال الكثير . وقد اختلفوا في مقداره، والدينار معروف معيّن، وأنّ الله قد مدح المرء الذي يودع عنده مال كثير فيؤديه الى صاحبه متى أراد، وذمّ الشخص الذي يخون الأمانة ويطمع حتى بالقليل من المال و ذلك بخساسة نفسه.

وقد قال بعض المفسرين: إنّ الذين يردون الأمانة لأهلها هم النصارى وإن كانت كثيرة، والذين يخونونها هم اليهود[1].

(١) التفسير الكبير : ج٨ ص١٠٠ .

و هذا القول هو الأقرب لأنّ اليهودي عن إذا صار في يده مال لغير يهودي وأمكنه أكله لايرده أبداً، والمقصود من الآية هو ذمّ اليهود من جهتين:

الجهة الاولى: أنهم يخونون الأمانة وإن كانت قليلة جداً، بحيث لايطمع فيها إلا الفقير المعدم الرذيل الذي لايستحي مما قيل فيه، فهذا لايردّ هذا المقدار الزهيد إلا أن تبقى ملازماً له ملحّاً عليه ، كالذي يقف على رأس إنسان فلايدعه أن يقوم أو ينام أو يأكل و يشرب فيضطر الى دفعه له ، والخيانة صفة مذمومة عند جميع الناس وجميع الفرق سواء كانوا أهل دين أو لا.

الجهة الثانية: أنهم يسندون هذه الخيانة وأكل مال الناس الى مسوغ ديني كما حكاه الله عنهم بقوله : **«ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل»**.

فتارةً يقولون: إنّ الأموال التي أصبناها من العرب لاينبغي لنا ردها لأنهم مشركون. هذا بالنسبة الى من لم يسلم.

و يقولون تارةً اخرى بالنسبة الى من أسلم: إنّا حين عاملناهم كانوا على دين وقد تحولوا عنه الى دين آخر.

وقال بعضهم: إنّا حين عاملناهم كانوا على ديننا ثم خرجوا من الدين فصارو كفاراً فلاحقّ لهم في ردّ مالهم .

وادعوا أنّ كل هذه التعليلات في كتبهم ومقتضى دينهم، وحيث إنّ الدين قليله و كثيره لايكون إلا من عندالله، فقد نسبوا هذه العلّة الباطلة الى الله كذباً وزوراً ، وهو ما ذكره بقوله : **«ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»** أنّ هذا الأمر غير موجود في كتبهم وليس هو من الدين.

قوله تعالى: ان الذين يشترون بعهدالله و أيمانهم ثمناً قليلا اولئك لا خلاق لهم فى الاخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم

يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (٧٧).

لمّا ذكر الله في الآية السابقة أنه يحب العبد اذا وفى بعهده وكان من المتقين ذكر في هذه الآية الوعيد الشديد لمن لم يف بعهده سواء كان العهد مع الله بواسطة الرسول أو كان العهد مع الناس، فإنّ الحكم في الآية عام يشمل جميع العهود وجميع الناس وإن نزلت الآية في شأن اليهود أو في قضية اخرى شخصية.

كما يروى أنها نزلت في الأشعث بن قيس، أو في عبدان وامرىء القيس، أو في رجل آخر حلف يميناً فاجرة في إنفاق سلعته [1].

فالوعيد المذكور في الآية شامل لكل إنسان عاهد عهداً ثم نكثه ولم يف به، أو حلف يميناً كاذباً على خلاف الحق.

أمّا ماكان من أمر اليهود فإنّ جميع أقوالهم وأعمالهم باطلة مبنية على الكذب والخداع، وإنّ الله هو الذي تولّى فضيحتهم وبيّن في القرآن بعض مساوئهم ليحذرهم الناس ويتخلّصوا من شرهم.

ولكن الذي يهمّنا أمر المسلمين فإنّ الانسان اذا صدق النبي و اعتقد أنه مبعوث من الله وأنّ القرآن منزل عليه لا ينبغي له أن يخالف حكماً من أحكام القرآن سيما اذا كان الحكم مشتملاً على الوعيد كما نحن فيه، فإنّ الله قد أعدّ لناكث العهد من العذاب مالا يتهاون به إلا المنكر للخالق، فاسمع لما تعده الآية من أنواع الهوان والابعاد إذ يقول: «اولئك ١ ـ لاخلاق لهم في الآخرة ٢ ـ ولا يكلّمهم الله ٣ ـ ولاينظر إليهم يوم القيامة ٤ ـ ولايزكيهم ٥ ـ ولهم عذاب أليم» فهل هناك بشر يتحمل هذه الأنواع من العذاب؟

ولا يخفى عليك أيها المسلم إنك إذا قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله فإنّ معنى هذه الشهادة وهذا الاعتراف هو عهد وميثاق

(١) التفسير الكبير: ج٨ ص١٠٤.

والتزام منك الى الله ورسوله بأنك تمتثل جميع الأوامر والنواهي الواردة في القرآن ولا تخالف منها شيئاً، فإذا أنت خالفت بعض الأحكام كترك بعض الواجبات أو ارتكاب بعض المحرمات فإنك قد نقضت العهد ولزمك العذاب من المواد المتقدم ذكرها . هذا بالنسبة الى عموم الأحكام التي يشملها مجرد الدخول في الاسلام .

أمّا اذا كانت هناك قضية مهمة بالنسبة الى الدين الاسلامي وأخذ النبي ﷺ من امّته عهداً خاصاً فيها فبهذه يتأكّد العقاب بالنسبة الى من ينقضها وينكثها.

فالبيعة التي تعقد بين اثنين هي عهد وثيق، فإمّا أن تكون بيعة حقّ وهدى خالصة لله فهي لازمة يجب الوفاء بها ، وإمّا أن تكون بيعة ضلال يراد بها ظلم الناس و نهب أموالهم و هتك أعراضهم وهتك حرمات الله فهي باطلة محرمة من أصلها ، ويجب فسخها والتبري ممن بايعه .

وأمّا بيعة الحق فنكثها من أشدّ المحرمات وهي التي تكون بأمر الله ورسوله «إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه »[1] .

فالبيعة التي تكون للنبي و التي تكون بأمره ﷺ يكون نكثها أو نقضها من أعظم المحرمات، والناكث لها يستحقّ العقاب بالمواد الخمس التي تقدم ذكرها، ولعلّ العقاب يكون بأكثر من ذلك .

ولقد طلب النبي ﷺ بيعة في ابتداء أمره وبيعة في انتهاء أمره وأكّد فيهما كثيراً ، ومتعلّق البيعتين ـ أي أحد الطرفين في كل من البيعتين ـ كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. والطرف الثاني في البيعة الاولى كان النبي ﷺ، وفي البيعة الثانية كان الطرف الثاني امّة النبي ﷺ .

أمّا البيعة الاولى فقد كانت عندما نزل قوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين»[2]

---

(١) الفتح : ١٠ .

(٢) الشعراء : ٢١٤ .

فقد جمع النبي صلى الله عليه وآله أقرباءه وصنع لهم طعاماً وأشبعهم وأرواهم بمعجزة منه ، ثم طلب أن يؤازره أحدهم على قيامه بالتبليغ ليكون وصيه وخليفته من بعده، فلم يجبه أحد إلا علي بن أبي طالب عليه السلام . فكرر عليهم ثلاثة أيام فلم يجبه غيره ، وبايعه على ذلك، فكانت البيعة من علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وفى بها وقام بها أحسن قيام [1] .

وأمّا البيعة الثانية فهي: لمّا عزم النبي صلى الله عليه وآله على حجة الوداع أمر مناديه أن ينادي في المدينة وفي أطرافها بالحج، وحثّهم على الحجّ في تلك السنة، فحجّ مائة وعشرون ألفاً من الناس ، وقيل : أكثر من ذلك . فلمّا قضى حجه ورجع جمع الناس على ماء يسمى « غدير خم » وأعلمهم أنّ الله أمره كما هو صريح الآية [2] .

وإنّ الذين جاؤوا من بعد تلك الطبقة فنكثوا فإنما إثمهم على أولئك الذين كانوا حضوراً ولم يفوا بالبيعة .

وأمّا بالنسبة الى الأيمان الكاذبة فإنّ أغلب الناس قد ارتكبوه في البيع والشراء . ولا يخفى على التجار والكسبة أنّ الذي يحلف كاذباً إنما يستحقّ العذاب المذكور بأنواعه الخمسة . فإذا أراد الخلاص من العذاب فليتب الى الله وليكفّر عن إيمانه ويقلع عن اليمين ولا يقدم عليه بعد ذلك .

فقد روي عن أبي وائل عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : من حلف على يمين كاذباً يقتطع بها مال أخيه لقي الله عزّ وجلّ وهو عليه غضبان ، فأنزل الله عزّ وجلّ تصديق ذلك في كتابه « **الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمناً قليلا** » [3].
والروايات بهذا المضمون كثيرة .

وليعلم الناكث للعهد والحالف يميناً كاذباً أنه مهما حصل عليه من مال

(١) راجع مجمع البيان : ج٧ ص٢٠٦ .
(٢) بحار الانوار : ج٣٧ ص١٠٨ ب٥٢ .
(٣) الوسائل : ج١٦ ص١٤٨ ب٤ ح١٨ .

الدنيا فإنه قليل في مقابل ما أعدّ الله لأهل الوفاء بالعهد والتارك لليمين تعظيماً لأسماء الله تعالى، وأنه زائل عن قليل، وأنّ عاقبته العذاب الدائم الذي ليس له انقطاع.

قوله تعالى: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين (٨١).

إنّ هذا الميثاق الذي أخذه الله إمّا أن يكون على النبيين أنفسهم، أو على اممهم، أو عليهم وعلى اممهم، وليس بعد ذلك احتمال آخر.

فإذا كان الميثاق على الامم وحدها أو عليها و على الأنبياء فذلك أمر عام، وإذا كان على الأنبياء كانت الامم أولى به منهم إذ الأنبياء معصومون من الخطأ ولا يتعدون الصواب، فإنهم لا يحتاجون الى ميثاق بخلاف الامم. وعلى جميع الوجوه يكون الميثاق على امم الأنبياء.

ولا ريب بشمول الحكم لجميع الأنبياء ولجميع الامم من آدم الى عيسى الذي جاء من بعد محمد ﷺ، فالله تعالى يقول لأهل الكتاب الذين لم يصدقوا بالنبي ﷺ ولم يؤمنوا به كيف لا تؤمنون وقد أخذ الله الميثاق عليكم بواسطة أنبيائكم الذين آتيناهم كتاباً مشتملاً على كثير من الامور؟ ككتاب موسى الذي فيه تفصيل كل شيء، وكإنجيل عيسى الذي علّمه فيه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وآتاهم مع هذه الكتب حكمة يتمكّنون معها من جعل كل شيء في محلّه وإنزاله منزلته لا يخطأون ولا يزلّون.

أمّا الميثاق المأخوذ على الأنبياء وعلى الامم هو: أنه اذا جاء رسول من الله عنده جميع ما في كتب الأنبياء من العلم وعنده جميع أنواع الحكمة التي عند الأنبياء

يلزم على الأنبياء وعلى الامم أن يؤمنوا بهذا الرسول وأن ينصروه.

والظاهر من الآية الشريفة أنّ المقصود منها هو هذا الذي ذكر، لأن الانسان إمّا أن يصدق بإنسان آخر فينبغي أن يقول: «مصدق بكم» وليس المقصود التصديق بالأنبياء وإن تحقق ذلك وإلا لقال: «مصدق لكم» و إمّا أن يكون مصدقاً بصفاته وعلومه فيقول : «مصدق بما عنده» ولكان أن يقول : «مصدق بما معكم» .

وأمّا التصديق للصفات ـ أي للكتاب والحكمة ـ فمعناه أنه حاوٍ لهما ومحقق لهما في نفسه وصدره ، فهو مصداق لما معكم من كتاب وحكمة .

فعلم من هذا التعبير و هو قوله: «**مصدق لما معكم**» أنه اذا جاء رسول عنده جميع ما كان عند الأنبياء من كتاب وحكمة لزم جميع الأنبياء والامم التصديق والايمان بنبوته ونصرته علي المشركين الذين ليسوا بأهل كتاب .

و قد عكس أهل الكتاب الأمر وخالفوا الميثاق و نكثوا العهد حيث إنّ المشركين قد آمنوا بالنبي ﷺ وأهل الكتاب يريدون أن يضلّوهم عن دينهم و جاؤوا بالمكر الأخير و هو ما ذكره الله بقوله : «آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون»[1].

فهذه الآية الشريفة كما أخبرتنا أنّ محمّد بن عبدالله ﷺ وهو رسول مبعوث من الله وأنّ معجزته القرآن عرّفتنا أيضاً أنّ عنده علوم جميع الأنبياء وحكمتهم، وأنّ جميع الأنبياء أقروا لذلك وأخذوا الميثاق على اممهم والله شهيد على ذلك. هذا بالنسبة الى أهل الكتاب، وأنّ حجج الله في القرآن كثيرة على أهل الكتاب ولكنهم لاتنفع فيهم معجزة.

أمّا بالنسبة الى المسلمين فنقول: إنّ هذا الرسول هو الذي أوصى الله به جميع الأنبياء وامهم وأخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا به وينصروه وأعطاه علوم جميع الأنبياء وحكمتهم، وجعله خاتم الأنبياء، وجعل حلاله وحرامه حلالاً وحراماً الى يوم القيامة، و أراد أن يكون كتابه معمولاً به الى يوم القيامة، و أنه قد بقي في

---

(١) آل عمران : ٧٢ .

الدنيا بعد بعثته ثلاثاً وعشرين سنة منها ثلاث عشرة سنة في مكة مشغولاً بأذايا قريش وقد أمر أصحابه بالفرار منها الى الحبشة، ثم هاجر الى المدينة و بقي بها عشر سنين مشغولاً بالحروب والغزوات .

ثم إنّ امّة محمد ﷺ هي امّة من الامم بل هي أفضل الامم وأشرفها، فالميثاق من الله يلزمها بل هي أولى به من غيرها، فهي ملزمة بالايمان به وبنصرته وتطبيق أحكامه. وأنه يلزم على كل فرد من الامّة رجلاً كان أو امرأة أن يؤمن به، ويعتقد بأنّ الأحكام التي جاء بها هي من عندالله لاتبديل لها ولاتغيير، ويلزمه أن ينصره ولايخذله، والخذلان بأن يجعل ماأوجبه من الامور غيرواجب فيترك الصلاة والصوم والحجّ والزكاة، ويجعل ماحرمه من الامور جائزاً، فيستحلّ المحرمات من شرب الخمر وأكل الربا واللعب بالميسر وأخذالرشا وأمثال ذلك من المحرمات فيشمله قوله تعالى :

فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون(٨٢).

المقصود من التولّي المخالفة وعدم الاطاعة ، و المخالفة تارةً تكون بعدم الايمان بالله وتصديق النبي، ومرةً تكون بعصيان أوامر النبي ﷺ كلّها أو أكثرها أو بشيء قليل منها ، و أنّ التوبة يقبلها الله من جميع الأصناف ، فمن أراد أن يتدارك نفسه قبل الموت تمكّن من ذلك فلايقصر عنها ولا يهملها.

قوله تعالى : أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون(٨٣).

بعدما بيّن الله في الآية السابقة أنه أخذ ميثاق الأنبياء و الامم في الايمان بالرسول المتأخر، وأنّ الرسول ﷺ قد جاء، وقد أنزل الله عليه كتاباً وشرع له ديناً، فمعناه أنّ جميع الأنبياء متفقة على أنّ دين هذا الرسول هو دين الله ودين

الحق، فماذا تريدون بعدهذا؟ إذ الممتنع من قبوله لايريد دين الله، والذي لايريد دين الله ليس مراده إلا الضلال، وكل من يريد الدين فقد أسلم لله الذي أسلم له من في السماوات والأرض إمّا طوعاً وهو من يقتنع بالحجج والبراهين، أوكرهاً أي مكرهين بالسيف، أو معاينة ما يلجيء الى الاسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق كما اتفق لفرعون.

أمّا قوله تعالى : «واليه يرجعون» فهو البشارة للمؤمن و الوعيد للكافر والمنافق والفاسق، أي: أنّ جميع من في السماوات والأرض من أسلم منهم و من لم يسلم يكون مرجعهم الى الله بعد الموت وعند الحساب، و كل إنسان يجازى بعمله.

قوله تعالى : قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون(٨٤).

فإنّ الله أمر رسوله أن يعلن للملأ أنه هو والذين آمنوا معه يؤمنون بالله وبما انزل عليه من الله وما انزل على بقية الأنبياء من آدم ومن بعده، فهو عالم بكل ما انزل على الأنبياء كعلمه بما انزل عليه. و يعلم من هذه الآية أنّ الذي يؤمن بمحمّد صلى الله عليه وآله يلزمه أن يؤمن بما انزل عليه.

و معنى الايمان العمل بما فيه من الأحكام الشرعية التي تضمنها الكتاب والسنّة، و هذا لايمكن لجميع أفراد الامّة مالم يكن للنبي خليفة يعلم بجميع ما في الكتاب من حلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، وكل جزئية و كلّية، ولايمكن إحالة الامّة على الكتاب وحده، فإنه لايكفي لقطع التخاصم وفصل الدعاوي وإرشاد الضالّ وتعليم الجاهل، فالامامة العامة لابدّ منها، وبدونها ينتقص أمر النبوة، فلايقول بها إلا من لايلاحظ العواقب ولايهمه أمر الدين .

ثم بعد الاعتراف بالايمان بالله وشرائعه و كتبه ورسله كما أمر الله رسوله بهذا الاعتراف أمره في النهاية أن يقول عنه وعن امّته «**و نحن له مسلمون**» .

أمرهم بالانقياد و الخضوع و التسليم لله و في جميع الامور كما مرّ عليك تفسيره في قوله:«أسلمت وجهي»[1] فلاتغفل ولايذهب عنك معنى الايمان والاسلام، فإنه ليس مجرد التلفظ باللسان بل هو مع التلفظ اعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، فكن مسلماً كما يريد الله و كما علّمك النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار.

قوله تعالى : ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين(٨٥).

بعدما أمر الله في الآية السابقة النبي ﷺ و امّته بالايمان بالله و بما انزل عليه وما انزل على جميع النبيين وعدم التفرقة بينهم بيّن في هذه الآية أنّ الدين الذي عيّنه الله في هذا العصر هوالدين الذين بعث به محمّد ﷺ وهوالمقبول عندالله ولايقبل الله غيره وهو دين الاسلام. ولولم تكن هذه الآية لكأني باليهود يقولون اذا لم يكن فرق عندالله بين النبيين كما قال : «لا نفرق بين أحد منهم»[2] فنحن نتبع دين موسى و نعمل بشريعته . فقد قطعت ألسنتهم بهذه الآية و لم يبق لكلامهم مجال.

قوله تعالى : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم (٩٢) .

بيّن الله في هذه الآية صفة من صفات المؤمنين وهي صفة السخاء والكرم،

---

(١) آل‌عمران : ٢٠ .

(٢) البقرة : ١٣٦ .

صفة إنفاق المال في سبيله وامتثال أمره، وقد تقدم ذكر عدة آيات في سورة البقرة كلّها في إنفاق المال وفي ذكر بعض شروطه التي تجعله مقبولاً عند الله، وأمّا هذه الآية فقد علّق نوال البرّ على إنفاق ما يحبه العبد. أي: لن تبلغوا كمال البـرّ أو لن تكونوا أبراراً أو لن تدركوا برّ الله وثوابه حتى تنفقوا مما تحبون.

إنّ الذي يحبه الانسان قبل كل شيء هو النفس التي ليس له غيرها، ثم المال، ويرجع حبه الى حبّ النفس وكذلك الأولاد والنساء والجاه والسلطة وغيرها، فإنّ حبّ الكل يرجع الى حبّ النفس، وكذا حبّ ما أمر الله بحبه، فإنّ المرء اذا أحبّ حبّاً خالصاً لله فإنما هو لحبّ نفسه.

نعم إنّ بعض الامور يحبها المرء لنفع نفسه في الدنيا، وبعضها يحبها لنفع نفسه في الآخرة، وكل شيء يحبه المرء إنما هو لأجل نفسه، ولمّا ذكر الله في الآية السابقة أنّ بعض الناس يكفرون ويموتون على كفرهم فهم لا يرجعون الى الله.

وهذا النوع من الناس لو أراد أن يخلص نفسه ـ التي هي أحبّ الأشياء لديه بل ليس هناك محبوب سواها كما ذكرنا ـ لا يمكنه ذلك. فلو فرض أنه تمكّن من ذهب يملأ الأرض وقدم هذا الذهب ليفتدي به نفسه لا يقبل منه ولا يمكنه أن يخلص نفسه.

وقد ذكر في هذه الآية أنّ هذه النفس المحبوبة الوحيدة يتمكّن الانسان أن يضمن لها النجاة بحيث يكون هو من الأبرار أو يفوز ببرّ الله ورحمته بشيء يعمله في دار الدنيا، وهو أن ينفق مما يحبه لا كل ما يحب، فإذا أنفق ذلك حضى بتلك الدرجة ولا يحتاج الى فداء في الآخرة، إذ أنه قدم الفداء في الدنيا.

ولا يخفى أنّ من يعمل هذا العمل إنما هـو من المؤمنين لا من الكافرين ولا يموت على الكفر، ثم بيّن لنا أنّ كل شيء ننفقه في سبيل الله ـ سواء كان مما نحبه أو من غيره ـ فإنّ الله به عليم، وسواء كان نفساً أو مالاً أو جاهاً أو علماً أو

غيرها من الامور فإنّ كل شيء ينفقه الانسان يوصله الى درجة من درجات البر، جعلنا الله من الأبرار .

قوله تعالى : ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين(٩٦) فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين(٩٧).

إنّ في هذه الآية بيان فريضة من فرائض الاسلام و واجب من واجبات المسلمين الضرورية التي من أنكرها صار كافراً، ولكن أول الآية إنما هو ردّ على اليهود وانتصار للمسلمين ، و كم في القرآن من الردّ على اليهود ، ولكن اليهود كالشيطان، فإنه مشغول بعمله مهما بيّن الله للناس كفره وطرده ولعنه، فهو لا يبالي بجميع ذلك و يحسب أنّ أكبر غنيمة يحصل عليها أن يخدع أحداً من الناس فيدخله في معصية الله .

و اليهود كذلك فإنّ الله قد أنزل في القرآن من الآيات في بيان كفرهم ومكرهم وخدعهم وحيلهم أكثر مما أنزل في الشيطان وهم لا يبالون بذلك وهم دائبون في عملهم من المكر والخداع والحيل ، فإنّ مسخهم قردة وخنازير لم يؤثّر بهم و كيف يؤثّر بهم الكلام؟!

وإنّا لم نأسف من أفعالهم الشائنة الخبيثة فإنهم جرثومة فساد لا يمكن التخلّص منهم إلا بمحو وجودهم من على وجه الأرض بحيث لا يبقى منهم شخص واحد، و كيف يمكن ذلك وقد طلب إبليس أن ينظره الله وذريته الى يوم الوقت المعلوم، وهم لاريب من جملة ذريته لقوله تعالى : « وشاركهم في الأموال والأولاد»[1].

---

(١) الاسراء : ٧٤ .

و لكن الأسف كل الأسف من الامم الذين هم على وجه الأرض من مسلمين و مسيحيين كيف لايتفقون معاً و يزيلون هذه البذرة الخبيثة الضارة المفسدة من على وجه الأرض؟ فما أدري هل أنّ حكومات العالم تقرأ ما يكتبه المفسرون للقرآن من تفسير الآيات النازلة في ذمّهم، و أظنّ أنها لا تقرأ شيئاً من ذلك، ولو أنهم قرأوا شيئاً من التفسير لسارعوا الى محوهم وإزالتهم.

أمّا المسلمون فيكفيهم ما في القرآن من الآيات الذامّة لليهود التي لم تجعل لأحد من البشر ثقة في أقوالهم ولا في دينهم ولا في أعمالهم، ولو حلفوا لك أيها المسلم آلاف الأيمان فلا تصدق قولهم ولاتثق بعهدهم، ولا تقرب إليهم ولا تخلو بأحدهم فإنّ النبي ﷺ قال: ما خلا يهودي بمسلم إلا وحدّثته نفسه بقتله[1].

وأمّا المسيحيون فإنهم ـ وإن لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ ـ يعتبرون القرآن كتاباً مقدساً، فليعتبروا بما فيه من ذمّ اليهود، وإن لم يعتبروا بذلك فإنهم ـ أي اليهود ـ قد قتلوا نبيهم المسيح كما يعتقد ذلك اليهود والنصارى جميعاً. فإن قيل أو قال أحد الفريقين: إنّ القرآن نفى ذلك فليصدقوا ببقية آيات القرآن. نعم إنّ القرآن ذكر خلاصه من الصلب والقتل بإرادة إلهية لم يطّلع عليها اليهود ولا النصارى حيث ألقى شبهه على رجل آخر ورفعه الى السماء، ولم ينكشف هذا الأمر الى أن نزل القرآن. فهو ـ أي المسيح عليه السلام ـ باعتقاد الفريقين مقتول ومصلوب بأيدي اليهود.

والآن وبعد عشرين قرناً خدع اليهود المسيحيين فصدروا حكماً ببراءة اليهود من دم المسيح، تعست هذه العقول التي أصدرت هذا الحكم، فإنّ اليهود لو لم يروا المسيحيين عبيداً لهم ينفذون أوامرهم لتمكّنوا من صلبهم أجمعين وقضوا عليهم بساعة واحدة.

وقد خدع اليهود الأمريكان و الانكليز فأصبحوا يمدونهم بالمال والسلاح

---

(١) الدر المنثور: ج٢ ص٣٠٢.

ليفوهم على الدول الاسلامية ، ولو كان عندهم شيء من التفكير والعقل السليم لعلموا أنّ الحكومات الاسلامية أنفع لهم من اليهود، ومهما يكتب الانسان في مثالب اليهود فلا يمكنه أن يستوفي معشار ما فيهم.

وعلى كل حال فإنّ اليهود قدافتخروا على المسلمين فقالوا: إنّ بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء والأرض المقدسة . فردّ الله عليهم في هذه الآية وبيّن أنّ الكعبة هي الأفضل والأقدم ، بل هي أول بيت وضع للعبادة، وليس قبله بيت بهذه الصفة، وقد جعله الله مباركاً أي: كثير الخير لمن حجّ واعتمر.

ثم قال : و«هدى للعالمين» لأنه متعبدهم وقبلتهم.

ثم قال : «فيه آيات بينات» كإهلاك أصحاب الفيل وغيرهم، ومحافظة السباع للصيد في حرمه وعدم التعرض له ، وأنّ الطير لا تعلوه ، وأنّ فيه مقام إبراهيم حيث فيه أثر قدمه في الحجر وغوصها الى الكعبين، وحفظه من الأعداء، وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء .

سئل الصادق عليه السلام ما هذه الآيات البيّنات؟ قال عليه السلام: مقام إبراهيم، ـ حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه ـ والحجر الأسود ومنزل إسماعيل[1].

و منها قوله : «ومن دخله كان آمناً» أي: من الآيات مقام إبراهيم، و أمن من دخله .

وروي عن الصادق عليه السلام قال: من بايع قائمنا ودخل معه ومسح على يده ودخل في عقدة أصحابه كان آمناً [2].

وعن الصادق عليه السلام قال: من دخله وهو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه و كفي همّ الدنيا والآخرة[3].

وعن الامام الباقر عليه السلام قال: من دخله عارفاً بجميع ما أوجبه الله كان آمناً

(١و٢) تفسير البرهان : ج١ ص٢٩٩ .
(٣) تفسير نور الثقلين : ج١ ص٣٠٦ ح٢٦١ .

في الآخرة من العذاب الدائم[١].

وعنه عليه السلام قال: من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله، ومن دخله من الوحش والطير كان آمناً أن يهاج أو يؤذى[٢].

وعنه عليه السلام قال: اذا أحدث العبد في غير الحرم جناية ثمّ فرّ الى الحرم لم يسع لأحد أن يأخذه من الحرم، ولكن يمنع من السوق ولايبايع ولايطعم ولايسقى ولايكلّم، فإنه اذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ، واذا جنى في الحرم جناية اقيم عليه الحدّ في الحرم لأنه لم ير للحرم حرمة[٣].

ثم بعدما ذكر الله تعالى هذه الآيات البينات كلها وعدم تأثّر اليهود بشيء منها وبقاؤهم مصرين على عنادهم مظهرين العداوة للمسلمين ولنبيهم ولدينهم أظهر الله شرف هذا البيت وبيّن عظمته بنوع آخر من التعظيم و وجّه هذا البيان لعامّة الناس، ولم يخصّ به المؤمنين وإنما دعا الناس الى الايمان بطريق الدعوة الى هذا البيت فقال: **«و لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا و من كفر فان الله غنى عن العالمين»**.

لايخفى أنّ المقصود من الناس هم البشر أبناء آدم فلايدخل في هذا البيان الملائكة ولاالجن ، ويخصّ من الحيوان الذين خصّوا بالعقل و الفهم وخرجت سائر الحيوانات، فمن كان يعدّ نفسه من الناس تشمله هذه الدعوة اذا كان يؤمن بالله.

أمّا اليهود فإنهم لاينفع معهم شيء، و كل شيء يخصّ الدين والايمان والنبوة و الموت و البعث و الآخرة اذا لم يكن فيه شيء من الماديات فإنهم ينكرونها ولايعترفون بها.

وأمّا النصارى فإنهم حكموا بكفر اليهود لأنهم لايصدقون بعيسى عليه السلام مع ما

---

(١) تفسير التبيان : ج٢ ص٥٣٧ .

(٢) تفسير العياشي : ج١ ص١٨٩ ح١٠١ .

(٣) تفسير العياشي : ج١ ص١٨٩ ح١٠٣ مع اختلاف يسير .

جاء به من المعجزات، فلماذا لم يصدّقوا هم ـ أي النصارى ـ بمحمّد ﷺ و بما جاء به من المعجزات؟ وبعد ذلك تصالحوا مع اليهود و وافقوهم وحكموا ببراءتهم من دم المسيح، فسوف يغضب عليهم المسيح، فإذا جاؤوا يوم القيامة طردهم موسى وعيسى ومحمّد ﷺ، وبقوا بلاشفيع، كما أنّ اليهود سوف يطردون اذا لم يعملوا بشريعة أحد من هؤلاء الثلاثة .

وقد دعا الله الناس الى هذا البيت الذي نسبه الى نفسه دعوة عامة اذا استطاع الرواح إليه، والاستطاعة تحصل أولاً بالبلوغ والعقل و سلامة البدن من العاهات بحيث يقدر على الحركة، ثم بتخلية السبيل والتمكّن من المال. فإذا وجد الانسان هذه الامور وكان مؤمناً بالله يلزمه مايلزم الناس من حجّ البيت، و إن قال أحد إنّ الدعوة لم تشمله فهو إمّا معدوم الايمان أو مسلوب الانسانية، و إن ادعى أنه من الناس ولم يحجّ فهو من أخسّ الأقسام حيث عبّر الله عنه بقوله: «ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين».

قال بعض المفسرين في معنى الآيـة : من جحد فرض الحج و لم يره واجباً فهو كافر [١].

قال السيد عبدالله شبر في تفسيره الجوهر الثمين عند قوله: «ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين»: أكّد تعالى أمر الحجّ بإيجابه بصيغة الخبر والجملة الاسمية، و إيراده على وجه يفيد أنه حق لله في رقاب الناس وتخصيص الحكم بعد تعميمه، وهو تكرير للمراد وبيان بعد إبهام وتغليظ تركه بتسميته كفراً كما سمّي تاركه في الحديث يهودياً أو نصرانياً، وذكر الاستغناء الدالّ على المقت والسخط وابدل عنه بـ «عن العالمين» الدالّ على الاستغناء عنه بالبرهان وعلى عظم السخط.

وفي النبوي: تارك الحج وهو مستطيع كافر، قال الله: « ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين» .

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٤٧٩ .

و من سوّف الحجّ حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً.

ونحوه غيره.

وعنه عليه السلام في قوله «ومن كفر» قال: يعني ترك.

وقيل للكاظم عليه السلام: من لم يحجّ منا فقد كفر؟ قال: لا، ولكن من قال: ليس هذا هكذا فقد كفر[1] انتهى.

روي عن الامام الصادق عليه السلام في قوله تعالى «من كان في هـذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ سبيلاً»[2] قال: نزلت فيمن يسوّف الحجّ حتى مات ولم يحجّ فعمي عن فريضة من فرائض الله[3].

و روي عن ذريح قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: من مات و لم يحجّ حجة الاسلام ولم يمنعه عن ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق الحجّ من أجله أو سلطان يمنعه فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً[4]. والأخبار كثيرة في ذمّ تارك الحجّ.

وأمّا الأخبار الواردة في ثوابه فكثيرة أيضاً، فقد روي عن الصادق عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للحاج والمعتمر إحدى ثلاث خصال: إمّا يقال له قد غفر لك ما مضى وما بقى، وإمّا يقال له قد غفر لك ما مضى فاستأنف العمل، و إمّا أن يقال له قد حفظت في أهلك وولدك وهي أحسنهن[5].

وعن الصادق عليه السلام قال: لو كان لأحدكم مثل أبي قبيس ذهب ينفقه في سبيل الله ما عدل الحج، ولدرهم ينفقه الحاجّ يعدل ألفي ألف درهم في سبيل الله[6].

(١) الجوهر الثمين: ج٤ ص٣٥١.
(٢) الاسراء: ٧٢.
(٣) بحار الانوار: ج٩٩ ص٥ ب٢ ح٥.
(٤) بحار الانوار: ج٩٩ ص٢٠ ب٢ ح٧٢.
(٥) بحار الانوار: ج٩٩ ص٦ ب٢ ح٩.
(٦) بحار الانوار: ج٩٩ ص٨ ب٢ ح٢٠.

و عن الصادق عليه السلام قال: اذا اجتمع الناس بمنى نادى مناد: أيها الجمع لو تعلمون بمن حللتم لأيقنتم بالمغفرة بعد الخلف، ثم يقول الله تبارك وتعالى: إن عبداً أوسعت عليه في رزقه لم يفد إليّ في كل أربع لمحروم[1].

وروي أنّ حجة مقبولة خير من الدنيا وما فيها[2].

وأمّا من منع أحداً من الحجّ فإثمه عظيم، فقد روي عن الصادق عليه السلام قال: ليحذر أحدكم أن يعوق أخاه عن الحجّ فتصيبه فتنة في دنيـاه مع ما يدخر له في الآخرة[3].

وعن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ رجلاً استشارني في الحجّ وكان ضعيف الحال فأشرت عليه أن لا يحج، فقال: ما أخلقك أن تمرض سنة، فقال: فمرضت سنة[4].

وروي عن أبي حمزة الثمالي قال: قال لنا علي بن الحسين عليه السلام: أيّ البقاع أفضل؟ فقلنا: الله تعالى ورسوله وابن رسوله أعلم، فقال لنا: أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أنّ رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المكان ثم لقي الله تعالى بغير ولايتنا لا ينفعه ذلك شيئاً[5].

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين (١٠٠).

روي عن زيـد بن أسلم و السدي أنّ قوماً من اليهود أغروا بـين الأوس

(١) بحار الانوار: ج٩٩ ص٩ ب٢ ح٢٣.
(٢) بحار: ج٩٩ ص١١ ب٢ ح٣٤.
(٣) بحار الانوار: ج٩٩ ص١٥ ب٢ ح٤٥.
(٤) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٢٢١ ح٢٢٣٤.
(٥) مجمع البيان: ج٢ ص٤٧٨.

والخزرج بتذكيرهم حروبهم في الجاهلية ليفتنوهم عن دينهم فنزلت الآية[1].

وهذه الآية حكمها باقٍ الى يومنا هذا ، و أنّ إغراء اليهود بين طوائف المسلمين في هذا العصر أكثر بأضعاف مضاعفة مما كانوا يأتونه أيام النبي ﷺ، وقد سمعت وتسمع من الآيات التي تنوه عما يأتونه في ذلك العصر مع وجود النبي ﷺ ونزول الوحي عليه ، مع أنّ المسلمين كان إيمانهم أقوى من إيمان مسلمي هذا الزمان ، وكان النبي ﷺ يقرأ عليهم الآيات التي توحى إليه ويعرفهم بالطرق التي يسلكها اليهود ويحذرهم منها .

أمّا في هذا الزمان وإن تنوّرت فيه الأفكار وتبصّر فيه الناس ، وأنّ شباب المسلمين قد يصل الى حقائق الامور قبل وصول شيوخ العصور السابقة، ولكن كما تقدم هؤلاء ـ فرضاً ـ خمسون بالمائة فإنّ اليهود تقدموا أيضاً بالمكر والخداع والحيلة مائة بالمائة، والمسلمون مختلفون على حتفهم ، وفي كل وقت ترى الأعداء يلقون الفتنة بين المسلمين ، و هـذا ديدنهم و شأنهم و مما يوحيه إليه كفرهم بالحق والحقيقة .

ولكن اللوم كل اللوم يتجه الى المسلمين ، إذ أنّ الآية الشريفة لم يختص حكمها بزمان النبي ﷺ و إنما يعمّ كل زمان ، و يعمّ جميع طبقات المسلمين. و كذا يعمّ جميع طبقات أهل الكتاب .

فقوله تعالى : «**يا أيها الذين آمنوا**» يعمّ جميع الدول الاسلامية المؤمنة : عراق ، حجاز ، اردن، سوريا ، كويت ، يمن، ايران ، أفغانستان، باكستان،وغيرها وقوله : «**ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب**» يعمّ جميع حكوماتهم: أمريكا انكلترا ، روسيا ، فرنسا، وغيرها، والاطاعة تعمّ الاطاعة بكل شيء: فتح محلّات لبيع الخمور، فتح مصارف لمعاطاة الربا ، فتح دور للرقص، فتح دور لاذاعة الغناء، ترخيص اللعب بالقمار .

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٤٨٠ .

فإنّ أهل الكتاب أعداء المسلمين إنما يأمرون المسلمين بكل شيء منافٍ للدين الاسلامي ثم يأتونهم من طرق السياسة فيلقون الفتنة بينهم، فلذا نرى الحكومات الاسلامية ينتقد بعضهم بعضاً، بل نرى داخل الحكومة الواحدة والشعب الواحد فئات مختلفة من هذه الأحزاب الالحادية، وكل فرقة معادية ومتربصة لبقية الفرق، فهم يتضاربون فيما بينهم حتى يفني بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون، تفنى الأموال وتفنى النفوس شيئاً فشيئاً حتى يهلكوا عن آخرهم.

أيها المسلمون، أتشعرون أنكم اذا رفضتم مبادىء الاسلام وأحكام القرآن واعتنقتم مبادىء الكافرين وأطعتموهم في اعتناق هذه المبادىء أتشعرون أنهم ردوكم بعد إيمانكم كافرين!

أيها المسلمون، اذا تركتم الكتاب والسنّة و القوانين الاسلامية وتمسكتم بأقوال الكافرين واعتصمتم بقوانينهم، وأطعتم قولهم وامتثلتم أمرهم في قتل إخوانكم وأهل بلادكم وسجنتم النساء فإنهم **«يردوكم بعد ايمانكم كافرين»**.

فتأمّلوا قليلاً في معنى الآية فإنّ الله يناديكم ويعرفكم حقيقة الأمر ويحذركم مكائد أعدائكم، فأطيعوا الله تربحوا ولا تخالفوه فتهلكوا، ويسلّط عليكم عدوكم فيستعبدكم ويستعمركم.

وبعد، فإن كنت أيها العبد المسلم تصدق بكلام الله وبإخباره ـ حيث إنك مسلم يلزمك التصديق فإذا لم تصدق بها فأنت غير مسلم وليس لنا معك كلام أصلاً، أمّا اذا كنت مسلماً ـ فإنّ الله أخبرك بأنك اذا أطعت أحداً من أهل الكتاب يعني يهودياً أو نصرانياً فإنه سيردك أيها المسلم بعد إيمانك كافراً، إمّا دفعة واحـدة أي: بفعلة واحدة من الأفعال الموجبة للكفر، أو يردك كافراً تدريجياً، بحيث يأمرك أولاً بمعاداة إخوانك المسلمين باتخاذك مبدأً جديداً، ثم يأمرك بشرب الخمر ولعب القمار وأكل لحم الخنزير وأكل الربا وغيرها من المحرمات فتكون كافراً

وأنت لاتشعر بنفسك وتظن أنك من المؤمنين . ولكن نحن لا يمكننا أن نصدقك ونكذب إخبار الله فيك اذا رأيناك تطيع الكافرين ، بل نرى عندك أكثر من الاطاعة ، إذ نراك تريد أن تطبق نظام الكافرين على جميع المسلمين وتحاربهم على ذلك وتقتل منهم جماعة على ذلك ، تقتل الرجال والنساء والأطفال ولا تبالي بشيء في سبيل تطبيق نظام الكافر .

و أنا أرجو منك أحد أمرين : إمّا أن تحكم على نفسك بالاسلام فتطيع أمر الله سبحانه، وإمّا أن تحكم على نفسك بالكفر فتلتحق بإخوانك من يهود أو نصارى .

ثم بعدما حكم الله بالكفر على من يطيع الكفار وجّه إليهم سؤالاً يلزمهم الاجابة عليه ، فقال تعالى :

وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (١٠١).

هنا سؤال إنكاري بصورة التعجب من هذا الأمر الذي قد وقع منك ، يقول الله تعالى : يا أيها الرجل الذي كان مؤمناً ثم ارتدّ وصار كافراً أنت لمّا اعتنقت الدين الاسلامي إنما اعتنقته عن بصيرة وتدبر ، وبعد قيام الحجج والأدلة على أحقيته وأنه هو الوحيد من الأديان الذي يلزم العاقل اعتناقه و الالتزام به ، فصرت مسلماً وآباؤك وأجدادك كانوا مسلمين ، ورسول الاسلام هو ذلك الرسول بعينه ، وكتاب الاسلام هو القرآن بعينه ، والآيات تتلى عليك صباحاً ومساءً فما بدا لك حتى صرت كافراً؟ فهل تبيّن لك بطلان الدين بحجة أقوى ودليل دلّ على بطلان الاسلام وأحقية ما دخلت فيه من أحزاب الكافرين ؟ فإن حدث عندك دليل جديد فأعلنه للناس حتى يعرفوه و اطرحه أمام العلماء المتمسكين بالقرآن ، فإمّا أن يردوه

وإمّا أن يوافقوك عليه.

هذا السؤال متوجه من الله إليك فأجب عنه ، وليس عندك جواب ولكن العدوّ خدعك وغرك وأمّلك بأشياء باطلة لا يفي بشيء منها ، وإنما يسلب منك دينك حتى يستبدك وجعلك خادماً عنده فتخسر الدنيا والآخرة.

ثم بيّن الله لك ولكل مسلم أنكم اذا أردتم التخلّص من كيد هؤلاء الكافرين وأن يكون إيمانكم ثابتاً غير متزلزل فعليكم بالاعتصام بالله فإنّ **«من يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم»**.

الاعتصام هو التمسك، والمقصود من هذا الجملة أنه ينبغي للمسلم أن يلتجىء الى الله في جميع اموره حتى يساعده الله عليها، وينبغي له أن يتمسك بدين الله بحيث لايترك واجباً ولا يفعل حراماً ولا يعمل برأيه بل يأخذ دينه من الله بالوسائط التي عيّنها الله له و لا ينخدع بقول من يدعي العلم أو المعرفة أو يدعي أنه إمام المسلمين ما لم يقم الحجة التامّة على دعواه ، فإذا اعتصم بالله فقد هدي الى الصراط المستقيم والله هو الهادي وهو المرشد، فقد بيّن الطريق وأوضحه للنبي ﷺ والنبي بيّنه لامّته بقوله: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي[1].

وهذا يفسر قوله تعالى : **«كيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله»** فإنّ الآيات هي نفسها باقية، والرسول وإن ارتحل عنا ولكنه أقام مقامه أهل بيته، فهم الذين يفسرون لنا القرآن، فلا يكون المسلم كافراً ما دام متمسكاً بهذين الأمرين، أمّا اذا تخلّى عنهما أو عن أحدهما فإنّ الكافر يطمع فيه ويأمل أن يجره إليه و يخرجه من دين الاسلام ، فلا تغفل عن نفسك أيها المسلم فإنّ الله قد أرشدك ودلّك على الطريق.

ثم إنّ الله أكّد لنا الأمر وأوضح لنا الطريق تفضّلاً منه على عباده ، فقال عزّ وجلّ:

---

(١) راجع بحار الانوار : ج٢٣ ص١٠٤ ب٧ .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون(١٠٢).

لمّا بيّن الله لنا قبل هذا أنّ إطاعة الكافر تسبب الارتداد الى الكفر، وبيّن أنّ الاعتصام بالله يهدي الى الصراط المستقيم، ذكر في هذه الآية أنّ الذي يهيىء الانسان للموت على دينه هو تقوى الله، أي : الاحتراز عن عذاب الله بحيث لايقترب الى معاصيه بترك واجب أو فعل حرام، فإذا أراد العبد أن يتخلّص من شرّ شياطين الانس وهم اليهود و النصارى ـ فإنهم صاروا تلاميذ اليهود في هذا العصر ، فصدق عليهم وصف الشيطنة ـ وأراد أن يكون حسن العاقبة فإنه يحصل على كلا الأمرين بتقوى الله حقّ تقاته فقد فسر الامام الصادق عليه السلام هذه الجملة ـ أي تقوى الله حقّ تقاته ـ بقوله: يُطاع ولايُعصى، ويُذكر ولايُنسى، ويُشكر ولايُكفر[1].

وهذه مرتبة عظيمة لو اتصف بها العبد لايترك واجباً ولايفعل محرماً ولا يطيع كافراً و يوفقه الله أن يموت مسلماً، فإنه اذا لاينساه في سائر أوقاته لاينساه ساعة الموت أيضاً.

ثمّ قال تعالى: و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون(١٠٣).

---

(١) تفسير البرهان : ج١ ص٣٠٤ .

لقد أمرنا الله في هذه الآية بثلاثة أشياء، و نهانا عن شيء واحد، أمّا الامور التي أمرنا بها:

فالأول: أمرنا أن نعتصم بحبل الله.

الثاني: أن نذكر نعمة الالفة بين قلوبنا بعدما كنا أعداء.

الثالث: أن نذكر نعمة إنقاذنا من النار وقد كنا على شفا حفرة منها.

وأمّا الذي نهانا عنه فهو التفرق إذ قال «ولا تفرقوا».

أمّا الاعتصام بحبل الله فقد فسر بتفاسير متعددة، فقال بعضهم: حبل الله هو القرآن[1]. وقال بعضهم: الدين الاسلامي[2]. وقال بعضهم: التوبة[3]. و قال بعضهم: طاعة الله[4]. وهناك أقوال اخر.

وأمّا إنقاذهم من النار فمن حيث تركهم الكفر واعتناق الاسلام، و الكافر هو على شفا حفرة من النار، فأنقذهم بالرسول الأعظم ﷺ حيث بعثه إليهم فآمنوا به وصدقوه، وهذه نعمة يجب أن يذكروها ويشكروها مدى الحياة.

وأمّا نعمة الالفة بين القلوب فإنها أيضاً بسبب الاسلام فإنهم حين كانوا كافرين كان كل فريق منهم لا يرى للآخرين حرمة لا في الدماء ولا في الأموال و لا يعرف شيئاً من الحرام أنه حرام، وكان يغزو بعضهم بعضاً، والقتل و الأسر يقع ضمن الغزو و نهب الأموال، فلمّا أسلموا حصلت الالفة بينهم بسبب الاسلام. فالاسلام هو المؤلف والكفر هو المفرق.

ومن هنا نعرف أنّ الأمر الواحد الذي نهينا عنه وهو التفرق إنما هو التفرق في الدين و أنه نهى عن العودة الى الكفر والخروج عن الاسلام، فقد عرفنا أنّ

(١ و ٢) مجمع البيان: ج١ ص٤٨٢.

(٣) تفسير الرازي: ج٨ ص١٦٣.

(٤) تفسير الكشاف: ج١ ص٣٩٤.

الاسلام هو المنقذ من النار، و هو الموجب للالفة والمحبة ونبذ العداوة، وأنّ التفرق موجب للكفر بالنسبة الى الفرقة التي تفارق الاسلام لتركها بعض الامور الأساسية للاسلام التي مهدها النبي ﷺ في حياته ففارقتها بعض الفرق إمّا في حياته أو بعد وفاته.

وقد تواترت الرواية عنه أنه قال: ستفترق امتي الى ثلاث وسبعين فرقة، فرقة واحدة ناجية والباقي في النار[1] وهذه الرواية تفسر لنا الآية وهي الاعتصام بحبل الله، فإنّ الحبل الموصل الى رضا الله واحد ليس له شعب.

بقي علينا أنّ نعرف المقصود من حبل الله أيّ شيء هو؟ فهل هو إنسان جمع العلوم الموصلة الى الله والى رضاه؟ أو أنه عمل أو عقيدة أو شيء آخر؟

لاشكّ ولاريب أنّ النبي ﷺ في حياته هو الحبل الموصل الى الله، إذ هو العارف بحكم كل شيء من الأشياء إمّا لوجوده في القرآن، أو لعلمه به من الملك، أو من الآيات المتشابهة بحيث إنه عالم بها.

أمّا بعد فقدان النبي ﷺ فالقرآن موجود ولكن لا يعرف أحكامه كل أحد، بل لا يعرف جميع أحكامه أحد كما يعرفها النبي ﷺ إلا إذا كان النبي قد أخبرنا أنه علّمها لرجل بعينه.

بقي علينا أن نسأل الفرق الاسلامية فرقة فرقة: هل أنّ في رجالكم الذين أخذتم منهم مبادئكم الدينية اصولاً وفروعاً أحداً قد علّمه النبي ﷺ جميع أحكام الدين وتفسير القرآن حتى يحلّ محلّ الرسول بعد رحلته الى دار البقاء؟

فما أجاب أحد على هذا السؤال إلا فرقة الامامية فقالوا: إنه قد تواتر عن النبي ﷺ كما يروي الفخر الرازي في تفسيره الكبير في تفسير نفس الآية قال: وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال: إني تارك فيكم الثقلين:

---

(١) سفينة البحار: ج٢ ص٣٦٠ مادة «فرق».

كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي»[1].

وهذه الرواية يرويها جميع علماء المسلمين، وقد رواها بعضهم عن أبي سعيد بأبسط وأوضح مما ذكرها الرازي ، قال : روى أبو سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال : أيها الناس إني قد تركت فيكم حبلين إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي ، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض[2] .

فإنّ هذا الحديث يدلّ على أنه أودع علومه كلها عند أهل بيته ﷺ ، وأنّ أول أهل بيته ورئيسهم علي بن أبي طالب ؑ ، وأنّ فرقة الامامية تحتجّ بهذا الحديث ، ولذا توالي أهل البيت وترجع إليهم في أخذ أحكام الدين .

ولهم أدلّة اخرى كثيرة على أن علي بن أبي طالب ؑ هو المؤهل للخلافة من الله ومن رسوله بحديث الغدير وأنه أكثر الصحابة علماً، وأنه أقضى الأصحاب كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: أقضاكم علي[3] .

والظاهر أنّ السبب في حدوث هذه الفرق التي أخبر عنها النبي ﷺ هو إطاعتهم أهل الكتاب ، فإنهم في زمن وجود النبي ﷺ لم يتمكّنوا أن يؤثروا على المسلمين، ولكن بعد وفاة النبي ﷺ تمكّنوا من التغلّب على جملة من الرجال، فجعلوا يحدّثون فرقة بعد فرقة . و لم يكتفوا بما فعلوا فإنهم في هذا الزمان يعملون ويجدّون ، فأحدثوا أحزاباً إلحادية أشغلوا المسلمين بهذه الامور حتى يعملوا ما يريدون .

أيها المسلمون، تنبهوا وافتحوا عيون قلوبكم وتداركوا الأمر قبل أن يفوت أوانه فلا تقدرون على شيء .

---

(١) تفسير الرازى : ج٨ ص١٦٢ .

(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٦٠ .

(٣) راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج٢ ص٢٩٦ .

ثم بعد هذا البيان الوافي في القرآن والتأكيد المكرر وإيضاح الأمر وتفصيله وحصر الوصول الى الله والى رضوانه بطريق واحد يستخرجه العاقل بفهمه وذكائه، فإنه غير خفي على من كان له أدنى فهم أنّ حبل الله ليس كسائر الحبال ، حبله أضوأ من القمر وأنور من الشمس ، حبل يأمر الله الناس أجمعين أن يعتصموا به وهو الرؤوف الرحيم.

ولكنه مع هذا الايضاح يعلم أنّ الناس لا يطيعون كلهم ، وأنّ الأغلب منهم يغلب عليهم الطمع وحبّ الدنيا والميل الى اللهو واللعب ، ولذا أوجب وأكّد على ذوي العقول الكاملة أن يكونوا دعاةً للدين ، وأن يبذلوا جهودهم بمقدار ما يمكنهم في إرشاد الناس، وأن يفهموهم الحقّ ويرشدوهم الى الطريق المستقيم، وهو حبل الله الممدود من السماء الى الأرض كما أوضحه لهم النبي ﷺ، فليس الموجود في هذا العصر من العلماء أقلّ تكليفاً ممن كان في عصر النبي .

إنّ الآيات والأحاديث موجودة وقد محّصت وغربلت وتبيّن الكذب من الصدق ، وقد أوجب الله على العلماء أن يقوموا بهذه المهمة كما في قوله تعالى :

ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون (١٠٤) .

هذه المهمة هي مهمة الأنبياء ، فإنّ كل نبي مبعوث من الله الى البشر إنما يؤمر ليكون بهذه الصفة ، وليكون عمله الذي ذكر في هذه الآية يدعو الى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

فقد أوجب الله على علماء امّة محمد ﷺ الذين يعملون بالخير أن يدعو الناس الى الخير بعملهم، وأن يأمروا بالمعروف بشرط أن يكونوا عاملين به، وأن ينهوا عن المنكر بشرط أن يكونوا تاركين له. أمر العلماء الذين هم من الفرقة الناجية

المعتصمين بحبل الله بأن يكونوا على يقين من أمرهم بحيث تكون معهم أدلة قوية متينة لاتتمكن بقية الفرق الذين بلغ عددهم اثنان وسبعون فرقة على رد ّ حججهم وإبطال أدلّتهم ، هؤلاء العلماء من الفرقة الناجية أوكل الله إليهم وظيفة الأنبياء وأمرهم بإرشاد الناس الى حبل الله ليعتصموا به حتى يتخلّصوا من كيد الشياطين الذين يسمّون أنفسهم بأهل الكتاب ، فإنّ الله ماسمّاهم بهذا الاسم إلا توبيخاً لهم وإلزامهم بالحجة التي سوف يعاقبهم عليها ، حيث إنهم لم يعملوا بكتابهم المنزل على رسولهم بل حرفوه وغيّروه، ولم يعترفوا بالكتاب المنزل على الرسول الذي جاء مصدقاً لما مع الرسول السابق، وقد أخذ العهد والميثاق منهم بأن يصدقوه اذا جاء .

هذه هي وظيفة العلماء التي بيّنها الله لهم في القرآن بعد أن أوضح لهم الطريق، فمن عرف الطريق وأرشد إليه فقد نجا وصار من مصداق قول النبي ﷺ: فرقة ناجية، ومن عرف الطريق وخرج منه وسار في طريق آخر أو عرف الطريق وأرشد الى طريق الغيّ والضلال فإنّ النبي ﷺ أخبر أنّ الفرق الهالكة التي تكون في النار عددها اثنان وسبعون .

وبعد ذلك أشار الى الفرقة الناجية التي اعتصمت بحبل الله وسارت في الطريق التي دلّهم عليه نبيهم وعملوا بوظيفتهم من الدعاء الى الخير والعمل به، والأمر بالمعروف والعمل به ، والنهي عن المنكر والترك له ، أشار الله إليهم بقوله : **«واولئك هم المفلحون»** .

ثم إنّ الله عزّ وجلّ ـ بعدما أمرنا بالاعتصام بحبله وأمر نبيه أن يوضح لنا الأمر ولايتركه مبهماً ونهانا عن التفرق والاختلاف في الدين وعرفنا الرسول ﷺ أنّ الاختلاف والتفرق مهلك وإنما ينجو منكم من هذه الفرق فرقة واحدة وهي المتمسكة المعتصمة بحبل الله ، وبعد هذه الأدلّة كلها ـ ذكّرنا ونبّهنا الى ماصارت إليه الامم السالفة بعد نبيها من الاختلاف و الافتراق ، و أنّ هذا التفرق سبب

خروجهم من الدين الذي جاءهم به نبيهم فصاروا كافرين واستحقوا من الله اللعنة، فإياك أيها المسلم من الخروج عما جاء به نبيك .

قال تعالى : ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) .

هذه الآية الشريفة تبيّن لنا أنّ الامم التي كانت قبلنا ـ وهم اليهود والنصارى ـ قد جاءتهم البينات من ربهم، والبينات هي الأوامر التي أرسلها الله الى رسولهم مقترنة بالأدلة والحجج القوية التي تثبت أنها من الله عزّ وجلّ ولا يبقي لأحد شكّ أو شبهة و هذه البينات التي جاءتهم تبيّن لهم الطريق التي يجب عليهم السير فيه وعدم التعدي الى غيره، وتعرفهم بالمرشد والدليل الذي يدلهم على كيفية أعمالهم، و تعرفهم بالذي يكون خليفة بعد نبيهم وأنّ النبي عليه السلام يودع عنده العلوم التي تحتاج إليها الامّة، ولكنهم مع هذه البينات والآيات تفرقوا واختلفوا.

والآية هذه تنهانا أن نكون مثل هذه الامم، وتبيّن لنا أنّ من يكون كذلك فله عذاب عظيم ، أي: أنكم يا امّة محمد قد جاءتكم البينات من الله، فقد أنزل الله على نبيه قوله: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»، والنبي عرفكم بما يراد من الحبل فقد قال لكم: أيها الناس إني تارك فيكم حبلين إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي: كتاب الله وعترتي[١] .

وقد ذكرت لك الحديث قبل هذا عن قريب، فالله والرسول قد أوضحا لنا الأمر جلياً بيناً ، فلاعذر لأحد أن يقول : ما كنت أعلم. فإياكم يا امّـة محمد أن تكونوا مثل الامم السالفة، فلا تفرقوا ولا تختلفوا فيكون مصيركم الى العذاب العظيم. وأنّ هذا البيان و هذا الانذار هو لطف زائد من الله، وإلا فإنّ حقنا على

---

(١) الدر المنثور : ج٢ ص٦٠ .

الله أن يبيّن لنا ما أوجبه علينا، وقد بيّن ذلك بقوله: «واعتصموا بحبل الله»، وشرح النبي لنا هذه الجملة فتمّت بذلك الحجة علينا.

أمّا بيان أنّ الامم السالفة قد خالفوا هذا الأمر وقد كفروا واستحقوا العذاب العظيم وأنتم اذا اختلفتم وتفرقتم مثلهم أيضاً تكونون كفرة و تستحقون العذاب العظيم فهذا لطف زائد من الله تعالى.

ولكن بعد فقد الرسول ﷺ قد تداخل أهل الكتاب في الأمر وكانوا يظنون أنهم قد قطعوا الحبل وأنهم أطفأوا نور الاسلام، والله يأبى إلا أن يتمّ نوره و لو كره الكافرون، فوقع الاختلاف و وقع التفرق.

والآن لا يمكن إصلاح المجتمع بأكمله، ولكن الانسان عليه نفسه، فليتأمّل ولا يتبع ما وجد عليه آباؤه، فإنه عاقل رشيد بصير إنما ينفع نفسه أو يضرها.

ثم بعد هذا اللطف العظيم من الله على عباده ـ حيث أوضح لهم الامور وشرح لهم حال الامم التي كانت قبلهم ـ زادهم لطفاً فذكر لهم عقاب هذا الصنف من الناس، وهم الذين آمنوا ثم كفروا بعد إيمانهم، لأنهم تركوا الطريق الذي امروا بسلوكه، أو لأنهم تفرقوا واختلفوا، فقال تعالى:

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون(١٠٦).

أسمعت ما يقول الله تعالى أيها المسلم؟ إنه يقول سيأتي عليك يوم وهو يوم القيامة و هو يوم الجزاء، يوم يرى كل إنسان ما عمله في الدنيا، ففي ذلك اليوم تبيضّ بعض الوجوه و تسودّ بعض الوجوه، أي: أنّ هذا الانسان الذي آمن بالله و صدق نبيه ثم كفر بعد ذلك ـ بأن صار من الذين تفرقوا و اختلفوا و تركوا الذي جاء به النبي من الله من اصول الدين الاسلامي وهم مع ذلك ينتسبون الى

الاسلام ـ فهذا الشخص يسودّ وجهه، أي: يحشر يوم القيامة أسود الصحيفة أوعليه كآبة الخوف أو تحوطه ظلمة شديـدة من جميع أطرافه ، فلا يهتدي الطريق في الآخرة كما ترك الطريق في الدنيا .

ثم يوبخ بما ذكرالله فيقال له : يا فلان بن فلان أكفرت بعد إيمانك!وهذا تعجب من فعله الذي فعله في الدنيا ، يقال له : إنك آمنت بالله وصدقت بالنبي محمد ﷺ فلماذا كفرت بعد ذلك ؟ أكان كفرك طمعاً في الدنيا وحرصاً عليها ؟ تركت الدين الحق و الطريقة التي عيّنها الله لك و أوضحها لك النبي و خالفت المسلمين وفارقتهم و مع ذلك تدعي أنك مسلم وتفرض نفسك على المسلمين وتزاحمهم في حقوقهم فصار كفرك سبباً لوصولك الى العذاب في نار جهنم «**فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**» ، وينتهي الأمر بإدخالك في جهنم وتنسى جميع تلك اللذات التي ذقتها في الدنيا بسبب الكفر ، فلا تذوق هناك إلا العذاب ، تنسى كل شيء حصلت عليه في الدنيا ولا تذكر إلا تلك الخطوة التي خطوتها من طريق الحق الى طريق الباطل برفع يدك وإطلاقها من حبل الله و اعتصامها بحبل الشيطان ، فكن حازماً رشيداً واعتصم بحبل الله .

ثم قال تعالى : وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون (١٠٧).

هؤلاء الذين آمنوا بالله و صدقوا النبي و ثبتوا على إيمانهم و ساروا على المنهاج الذي أمرهم به نبيهم واعتصموا بحبل الله ولم يفارقوا قانون الاسلام و لم يخالفوا أحكام الشريعة تبيضّ وجوههم في ذلك اليوم وتبيضّ صحائفهم ، ويظهر السرور والفرح على وجوهم ، ويحاطون بالنور من جميع أطرافهم ، يسعى نورهم بين أيديهم وعن أيمانهم .

ألا تحبّ أيها المسلم أن تكون مثل هؤلاء و معهم ، فإن كنت تحبّ ذلك فكن مسلماً حقاً وسر على النهج الذي سنّه لك نبيك ، أتعرف ما هي رحمة الله؟ هي الجنة التي عرضها السماوات والأرض، الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ الأعين ، الجنة التي من دخلها لايخرج منها أبداً كما نطقت الآية :«**ففي رحمة الله هم فيها خالدون**» .

قوله تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين(١٠٨).

لمّا بيّن سبحانه أنّ الامم السابقة جاءتهم البينات و الدلائل والحجج الواضحة الدالّة على وحدة الدين الآمرة لهم باتباعه بأجمعهم ليكونوا فرقة واحدة وأنهم خالفوا البينات فتفرقوا واختلفوا فخرجوا عن الدين و كفروا فاستحقوا العذاب الأليم ذكر في هذه الآية أنّ تلك الآيات التي مرّ ذكرها عليك يا محمد وأنت بينتها لامّتك وفصلتها لهم تفصيلاً ، وأنّ تلك الآيات كلها حقائق جارية على الحكمة والصواب ، وأنّ الامم السالفة لمّا كان بعضهم مطيعاً وبعضهم عاصياً فإنّ الله يعامل كل أحد بما يستحقه من الثواب والعقاب بلا زيادة في العقاب ولا نقيصة في الثواب ، إذ الزيادة في الأول والنقيصة في الثاني إنما هما من الظلم،والله منزه عن الظلم ، لأنّ المحتاج الى الظلم العاجز والفقير ، والله هو الغنىّ القادر . وهو الذي خلق للناس وأنشأهم وابتدعهم وآتاهم من النعم ما لاتسمو إليه هممهم وأعدّ لهم من نعم الآخرة ما هو أعظم منها قدراً وأجلّ خطراً، وأنتم يا امّة محمد قد جاءتكم البينات كما جاءت لمن كان قبلكم ، و علمتم ما صارت إليه عاقبة من كان قبلكم ، فازددتم بذلك اعتباراً وعظمةً، فلاينبغي لكم أن تكونوا مثلهم في التفرق والاختلاف ويلزمكم السير على الطريق المستقيم والاستقامة في الدين كاستقامة الحبل الممدود

من السماء الى الأرض ليس فيه اعوجاج ولاالتواء، فكونوا كذلك في الدنيا لتكونوا كذلك في الآخرة .

ثم ذكر سبحانه وجه غناه عن الظلم فقال عزّ من قائل :

ولله ما في السماوات و ما في الارض والى الله ترجع الامور (١٠٩) .

فهو الخالق ، وهو المالك ، وهو العالم بعاقبة كل أحد و كل شيء ، وهو المجازي عباده بما يستحقونه من ثواب وعقاب ، و أنتم يا امّة محمد عليكم أنفسكم ولايغلبنكم عليها الشيطان فتخسروها ، ومن خسر نفسه فقد خسر كل شيءوليس له شيء، فعليكم بالأمرالأول الذي ذكر لكم وهو من أهم البينات التي ذكرت للأولين والآخرين« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم».

وروى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عند ذكر قوله تعالى: «يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه» قال: حدّثني أبي عن صفوان بن يحيي عن أبي الجارود عن عمران بن هيثم عن مالك بن ضمرة عن أبي ذر ـ رحمة الله عليه ـ قال: لمّا نزلت هذه الآية: «يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه» قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يرد عليّ امّتي يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الامّة فأسألهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟فيقولون: أمّا الأكبر فحرفناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأمّا الأصغر فعاديناه وأبغضناه وظلمناه ، فأقول: ردوا النار ضمئاً مضمئين مسودة وجوهكم.

ثم ترد عليّ راية مع فرعون هذه الامّة فأقول لهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي ؟ فيقولون : أمّا الأكبر فحرفناه ومزقناه وخالفناه ، وأمّا الأصغر فعاديناه وقاتلناه ، فأقول : ردوا النار ضمئاً مضمئين مسودة وجوهكم .

ثم ترد عليّ مع سامري هذه الامّة فأقول لهم : ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟

فيقولون : أمّا الأكبر فعصيناه وتركناه، وأمّا الأصغر فخذلناه وضيعناه وصنعنا به كل قبيح ، فأقول : ردوا النار ضمئاً مضمئين مسودة وجوهكم .

ثم ترد عليّ راية ذي الثدية مع أول الخوارج وآخرهم فأسألهم :مافعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون : أمّا الأكبر ففرقناه وبرئنا منه ،وأمّا الأصغر فقاتلناه وقتلناه ، فأقول : ردوا النار ضمئاً مضمئين مسودة وجوهكم .

ثم ترد عليّ راية مع إمام المتقين وسيد الوصيين وقائد الغرّ المحجلين ووصيّ رسول ربّ العالمين فأقول لهم:ماذا فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون . أمّاالاكبر فاتبعناه وأطعناه ، وأمّا الأصغر فأحببناه وواليناه وآزرناه ونصرناه حتى اهرقت فيهم دماؤنا ، فأقول : ردوا الجنة رواء مرويين مبيضة وجوهكم، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: «يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ... الخ» [1].

هذه الرواية تذكر أنّ النبي ﷺ قال : إنّ الرايات خمس يوم القيامة، مع أنّ الفرق التي ذكرت للامّة أكثر من خمسة، فالظاهر أنّ الفرق تجتمع على المفرق الأول لها وإن تفرقت بعد ذلك الى عدة فرق ، فكأنما اذا كانت عشر فرق أو أكثر كلهم يرجعون الى إمام واحد فيجتمع الكل تحت رايته، وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله : «يوم ندعو كلّ اناس بإمامهم فمن اوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً * ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً» [2].

ومن الواضح البيّن أنّ الامام والمأموم حكمهم واحد في إيتاء الكتاب في اليمين أو الشمال، وفي كون كل من الامام والمأموم أعمى في الآخرة اذا كان أعمى في الدنيا عن طريق الحق.

وأمّا الجواب من أهل الرايات عن السؤال حين سألهم مافعلتم بالثقلين؟ قالوا:

---

(١) تفسير القمي : ج١ ص١٠٩ .

(٢) الاسراء : ٧٠و٧١ .

أمّا الأكبر فحرفناه ومزقناه. إنّ المراد بالأكبر هو القرآن الكريم، والمقصود من التحريف والتمزيق هو نبذ أحكامه وعدم العمل بها.

و لايخفى أن امـة محمد ﷺ من أولها الى آخرها كل واحد منهـم يلحق بإمامه الذي اتخذه واقتدى به، فليتخذ إماماً صالحاً للامامة بحيث اذا سأله ربه يوم القيامة عن الحجة التي دعته الى اتخاذ هذا الامام أن يكون عنده جواب معقول، ولايكفي أن يقول في الجواب: وجدت أبي هكذا فاتبعته، أو: إني أطعت السيد أو الكبير على هذه الطريقة فسلكتها ، فإنّ هذا لايكفي ، نعـم يكفي في الجواب أن يقول العبد لربه: إنّ نبيك أمرني أن أتخذ فلاناً إماماً فاتخذته، فإذا كان صادقاً في قوله و كان النبي ﷺ قد أمره بذلك فهو سبب نجاته.

قوله تعالى : كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) .

لقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على أقوال عديدة، وأقرب الأقوال الى ظاهر الآية ما ذكره الشيخ الطوسي ـ رحمه الله ـ في «التبيان» وحاصله: أنّ ذلك لّما كان في الكتب المتقدمة مايسمع من الخير في هذه الامّة من جهة البشارة. قال الحسن : نحن آخرها وأكرمها على الله . وكذلك روي عن النبي ﷺ أنه قال: أنتم تتمون سبعين امّة أنتم خيرها وأكرمها على الله .

ثم قال الطوسي: ويكون التقدير «كنتم خير امة» من الكتب الماضية فحققوا ذلك بالأفعال الجميلة[١] انتهى كلام الشيخ الطوسي.

وأنّ هذا المعنى الذي ذكره لايدلّ على المدح المطلق ، و أنّ المدح إنما يكون باتصاف الامّة بالصفات المذكورة عن الله، وهي أنّ الله يريد من امّة محمد ﷺ

---

(١) التبيان : ج٢ ص٥٥٧ .

أن يتصفوا بالامور التي ذكرت في الآية الشريفة و هي أن يؤمنوا بالله و يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فإنّ كل امّة أو معظم الامّة التي يمكنها التغلّب على الباقي اذا اتصفت بهذه الصفات صلحت الامّة كلها وكانت خير امّة على وجه الأرض، ولكن أنت أيها المسلم ترى من امّة محمد ماترى من ترك المعروف وارتكاب المنكر. و قد يقال في حقهم إنهم يرون المعروف منكراً والمنكر معروفاً كما أخبر النبي صلى الله عليه وآله أنه يكون الأمر كذلك في آخر الزمان.

فقد وصف الله في هذه الآية خير امّة ظهرت للناس بثلاث صفات، فلو أنّ هذه الصفات تجتمع في جماعة من الامّة بحيث تكون لهم قابلية وقدرة على التأثير على بقية الامّة لصلحت جميع الامّة، والخصال هي:

١ـ الأمر بالمعروف.

٢ـ النهي عن المنكر.

٣ـ الايمان بالله تعالى.

والثالث هو عمدتها وأهمها، فإنّ ما قبله مترتب عليه، وذلك أنّ الايمان بالله هو إيمان بجميع ما يأمر به الله وما يريده منهم، وكذلك إيمان به في كل مايكرهه وينهى عنه، فإنّ الايمان بالله إيمان بوجوده وبصفاته.

ومن جملة صفاته الايمان بعلمه، ومنه العلم بمصلحة ما أمر به ونفعه للعباد والعلم بمفسدة ما ينهى عنه وضرره للعباد، فإذا علم العبد و تيقن و اعتقد بأنّ الله عالم بجميع المصالح و المفاسد و أنه لايأمر ولاينهى إلا لمصلحة أو مفسدة يلزمه امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه.

فقوله تعالى «وتؤمنون بالله» أي: تمتثلون جميع أوامره و نواهيه مع اعتقادبالقلب بأنّ صلاح الدين والدنيا والآخرة إنما يترتب على هذا الامتثال وهذه الطاعة، ثم يحثه هذا الايمان بالله على أن يدعو الناس كلهم الى هذا الايمان فيرى من واجبه العقلي أن يأمر الناس بالمعروف و ينهاهم عن المنكر لأنه يرى

الخير كله في هـذا الايمان ، و يدعوه حبّ الخير للبشر أن يدعوهم ويجرهم الى ما وصل هو إليه قبل أن يرد فيه أمر شرعي، فإذا جاء الأمر من الله تأكد عليه الواجب .

أمّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه لايقدر عليه كل أحد وإنما يقدر عليه من يعرف المعروف والمنكر و يمكنه التمييز بينهما و يمكنه الأمر و النهي من غير ضرر يرد عليه ، فإنما يجب على من توفرت فيه الشروط.

سئل الامام الصادق عليه السلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب على الأمّة جميعاً؟ فقال: لا، قيل: ولم؟ قال: إنما هو على القويّ المطاع العالم بالمعروف من المنكر لا على الضعفاء الذين لايهتدون سبيلاً الى أي من أي ـ يعني الى الحق من الباطل ـ ويشير الى ذلك قوله تعالى: «ولتكن منكم امّة»[1].

فإنه لم يوجبه على كل الامّة وانما جعله خاصاً، فالوجوب ليس على الجاهل ولا على الضعيف وإنما يتأكد الوجوب على ذوي السلطة من الامراء والحكّام من حيث قوتهم وعلى العلماء من حيث علمهم بمواقعه و مواضعه ، فإذا كان الامراء والحكّام هم أحوج الناس الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن يكون أقوى منهم حتى يأمرهم وينهاهم؟

نقول: إنما يكون أقوى منهم العالم الذي لاتأخذه في الله لومة لائم ويكون اعتماده على الله ، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله : إنّ أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر[2].

اذا كان العالم يظن أنه يقبل منه، وكان الأمير أو الحاكم من غير المسلمين فإنه يتبع دينه و علماء ملّته أولى به .

أمّا إذا كان من المسلمين فإنّ الله والرسول يحتمان عليه أن يكون هو من

---

(١) بحار الانوار : ج١٠٠ ص٩٣ ب١ ح٩٢ .

(٢) بحار الانوار : ج١٠٠ ص٩٣ ب١ ح٩٣ .

الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر لأنه قويّ مطاع.

و اذا كان هو من التاركين للمعروف و الفاعلين للمنكر، ففي صدر الاسلام لايتمكن أحد من أمره و نهيه حيث كان الأمر كله بيده يفعل ما يشاء، أمّا في هذا الزمان فإنّ الوزير يتمكن أن يأمره وينهاه، فإن كان وزيره مثله فالوجوب على بقية الوزراء، فإذا كانوا كلّهم كذلك صار التكليف على العلماء المرتبطين بهم فإنهم أولى بهم، فإن زعموا أنهم لايتمكنون من ذلك فعليهم أن يهجروهم ولايجالسوهم ولايضحكوا في وجوههم.

فقد روي في تفسير قوله تعالى: «كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»[1] قال: أمّا أنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولايجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم[2].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فلعن منهم السفهاء لركوب المعاصي والحكماء لترك التناهي[3].

وعن شهر بن حوشب أنّ علياً عليه السلام قال لهم: إنه لم يهلك من كان من الامم إلا بما أتوا من المعاصي ولم ينههم الربانيون و الأحبار، فلمّا تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون و الأحبار عمهم الله بعقوبة، ألا فامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايقربان من أجل ولاينقصان من رزق، فإنّ الأمر ينزل من السماء الى الأرض كقطر المطر الى كل نفس بما قدرالله لها[4].

---

(١) المائدة: ٧٩.

(٢) بحار الانوار: ج١٠٠ ص٨٥ ب١ ح٥٦.

(٣) بحار الانوار: ج١٠٠ ص٩٠ ب١ ح٧٣.

(٤) بحار الانوار: ج١٠٠ ص٩٠ ب١ ح٧٦.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنّ الله تعالى ذكره لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لايأمرون بمعروف ولاينهون عن منكر [١].

وقد روي أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان واجبتان من الله عزّ وجلّ على الامكان [٢].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: من رأى منكم منكراً فلينكره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، فحسبه أن يعلم الله من قلبه أنه لذلك كاره [٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان : إثم العمل به وإثم الرضا به [٤].

وعن الصادق عليه السلام : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله تعالى ، فمن نصرهما أعزه الله ومن خذلهما خذله الله [٥].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال : لايزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البرّ والتقوى، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلّط بعضهم على بعض ، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء [٦].

فتحصّل لنا من هذه الآية أنّ امّة خاتم الأنبياء إنما تكون خير امّة اذا اتصفت بالصفات المذكورة ، ويؤكد هذا المعنى ما ذكره بعض المفسرين من أنّ قوله تعالى : **«تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»** حال عن الامّة يفيد اشتراط اتصافها بالأوصاف المذكورة .

---

(١) لم نعثر عليه.

(٢) الوسائل : ج١١ ص٣٩٨ ب١ ح٢٢ نقلا بالمعنى .

(٣) الوسائل : ج١١ ص٤٠٧ ب٣ ح١٢ .

(٤) بحار الانوار : ج١٠٠ ص٩٦ ب٢ ح٧ .

(٥) الكافي : ج٥ ص٥٩ ح١١ .

(٦) التهذيب : ج٦ ص١٨١ ح٢٢ .

وقوله : «وتؤمنون بالله» يعمّ الأوصاف المتقدمة في الآيات التي قبل هذه الآية من الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق والاختلاف، فلا يمكننا القول بأنّ قوله: «كنتم خير امّة» يعمّ جميع الامّة من أولها الى آخرها .

نعم يمكن القول بل يمكن الجزم بأنه يعمّ الفرقة التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: فرقة ناجية والباقي في النار، فإنّ أهل النار ليس فيهم ولا عندهم شيء من الخير. نعم اذا عدلت الفرق الضالّة عما هي عليه الى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فصار الكل فرقة واحدة يقال لها حينئذٍ أنها خير امّة، نسأله تعالى أن يجعلنا كذلك.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الايات ان كنتم تعقلون (١١٨).

لقد تكررت الآيات وتكاثرت من أول القرآن الى هذه الآية في نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين، وقد جاءت الآيات مختلفة البيان، ففي كل آية يكون البيان مشيراً الى علّة قوية تدلّ على وجوب مقاطعتهم وعدم السماح بالاتصال بهم .

وأمّا هذه الآية فقد بيّن الله لنا أسرارهم وما تخفيه صدورهم مما يريدون بنا ، وهذا من غاية لطف الله بالمؤمنين ، فإنه تعالى قد تكفل لعباده أن يرزقهم في الدنيا من المعيشة بمقدار كفايتهم ، وأن يرشدهم لامور دينهم ما يكفل لهم نجاتهم في الآخرة من العذاب، أمّا أنه يخبرهم ويطلعهم على أسرار عدوهم ويوضح لهم ما يضمره العدوّ لهم من تدبير شيء ليضرهم به فهذا لم يتعهد به الله لعباده ، ولم يتفضل به على غير المؤمنين مع أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الايمان إذ أنّ فيهم جملة كثير من المنافقين ، فما ظنك بربك أيها المؤمن الكامل ؟ وما ظنكم بالله في معاملة ذلك المؤمن الذي لا يغفل عن ربه طرفة عين أبداً ؟ أما تأملون من

الله أن يطلعه على علم ماكان و ما يكون بأن يبعث لهم ملكاً أو يلهمه إلهاماً أو يملأ قلبه نوراً فيرى به ما كان وما يكون ؟ إنّ ذلك ليس ببعيد على الله مع عبده المؤمن ، فاستمع أيها المؤمن لما يخاطبك به الله، فإن كنت مؤمناً فأطع الله فيما يأمرك به ، وإن لم تكن مؤمناً فليس لنا معك كلام .

إنه عزّ اسمه يخاطب المؤمنين بقوله : «يا أيها الذين آمنوا» إيماناً ظاهراً أو إيماناً باللسان دون القلب إن أردتم أن تكونوا مؤمنين حقيقيين، إن أردتم أن تكونوا مؤمنين كاملي الايمان ، إن أردتم أن تحرزوا بإيمانكم خير الدنيا والآخرة ، إن أردتم أن تكونوا مؤمنين يحبكم الله والرسول ، فاستمعوا لما يتلى عليكم .

«لا تتخذوا بطانة من دونكم» أي: لاتتخذوا أصدقاء من الكافرين تجعلونهم من أخصائكم لاصقين بكم كما تلصق بطانة ثوبكم بجلدكم، فهم لا يفارقونكم في وقت من الأوقات وأنتم تفشون لهم أسراركم وتطلعونهم على كل شيء يحدث عندكم.

أيها المؤمن أما سمعت اليهود قبل هذا يوصي بعضهم بعضاً « لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» [1] ؟

فكن أنت أيها المؤمن حريصاً على أسرار المسلمين ولا تبديها لليهود ولا لغيرهم من أعدائكم فيكيدوا لكم كيداً ، فإنهم «لا يألونكم خبالا» أي: أنهم لا يقصرون فيما يؤدي الى فساد أمركم ، ولا يدعون جهدهم في مضرتكم ، ولا يفترون عن إلقائكم فيما يضركم من المهالك.

ثم أخبر الله المسلمين بأنّ هؤلاء الذين تتخذونهم بطانة « ودوا ما عنتم » أي: تمنوا وأحبوا عنتكم، وهو وقوعكم في شدة الضرر والمشقة، أو تمنوا إضلالكم عن دينكم. لقد أخبركم الله عن تمنياتهم التي أضمروها في قلوبهم، فالمؤمن الكامل يصدق بما أخبره الله به ، و يجزم بأنّ هؤلاء اليهود يودون أن نرتدّ عن ديننا ،

---

(١) آل عمران : ٧٣ .

وأنّ نكون في كل وقت في شدة وضرر ومشقة وعناء وتعب ولا نستريح في وقت من الأوقات .

ثم إنّ الله نبه المسلمين وألفت أنظارهم الى شيء لا ينبه عليه إلا الغافل الخامل الذي لا يلتفت الى ما يأتي به قرينه وجليسه وبطانته ومن يكون كذلك يوصف بالبلادة وعدم الذكاء، فقال تعالى : **«قد بدت البغضاء من أفواههم»** أي: ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم وفي فحوى أقوالهم وفلتات كلامهم فلماذا لا تشعرون بذلك وأنتم تحسبونهم أولياء تكشفون لهم أسراركم المهمة ! !

ثم أخبر الله تعالى المسلمين بشيء آخر خفي لا يطلع عليه إلا علاّم الغيوب فقال : **«وما تخفى صدورهم أكبر»** فإنّ الله أخبر المسلمين عن ضمائر اليهود والنصارى بأنّ الذي يخفونه في صدورهم من العداوة والبغضاء لكم أكبر وأكثر مما يبدونه بألسنتهم .

فانظر الى لطف الله ورأفته بالمسلمين كيف يخبرهم عن سرائر أعدائهم ، ويأمرهم أن يكتموا عنهم أسرارهم ولا يبدوها لهم ، وهم يخالفون أمر ربهم ويوالون أعداءه وأعداءهم ويعلمونهم أسرارهم .

إنّ مثل هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم مسلمين ولكنهم ليسوا بمسلمين بل هم أعداء المسلمين ـ ومثل هؤلاء البشر كثيرون في هذا الزمان، وفيهم اناس كبار ورؤساء ووزراء يأتمرون بأمر الكافر وينفذون إرادته على المسلمين، لا يمتثلون شيئاً من أوامر الله ، ولا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر ـ بماذا يجيبون الله يوم يوقفهم للحساب ويقول لهم: إني أعطيتكم الرئاسة والامارة والوزارة على جماعة المسلمين فماذا صنعتم؟ هل نصرتم مظلوماً أو أغثتم ملهوفاً أو دفعتم ظالماً أو قمعتم بدعة أو أقمتم سنّة؟ فماذا يكون جوابهم؟ فإنّ سيدهم لم يأمرهم بهذه الأشياء وإنما أمرهم بالظلم والجور وفتح محلاّت لبيع الخمور وفتح مصارف لأخذ الربا وفتح محلاّت للرقص والغناء واللعب بالميسر وأمثال ذلك ، وهذه الامور

كلها ينتفع بها الكافر وتضرّ بالمسلمين وتوقعهم في الشدائد والمشقة وأوزار الجميع تكون على هذا الرئيس وجماعته الذين يساعدون على تنفيذ أوامر سيدهم الكافر، فاعرف أيها المسلم معنى قوله تعالى: «ودوا ماعنتم» فقد ذكرت لك معناها قبل أسطر .

فإنّ هذا الرئيس أو الأمير مهّد لهذا الكافر الوصول الى ما تمناه ووده من عنت المسلمين، فيكون المهنأ لذلك الكافر والعبء والوزر والعذاب والعقاب والحساب و النار لهذا الذي يسمّي نفسه مسلماً، و لعلّ بل الأقرب أن تكون عاقبته القتل والصلب والسحب في الشوارع والأزقة كما رأينا كثيراً منهم كذلك.

فارع نفسك أيها الرئيس والأمير والوزير فإنّ الله قد لطف بك لأجل هذه الصفة التي اتصفت بها ظاهراً وبالاسم المجرد عن كل معنى وهي صفة الاسلام، فقد أطلعك الله على ضمائر أعداء الاسلام الكافرين و أمرك باجتنابهم والتباعد عنهم.

ولكن في آخر الآية كلمة لايعرف معناها إلا المؤمن الحقيقي ولو فسرناها ألف مرة وهي قوله تعالى: **«قد بينا لكم الايات ان كنتم تعقلون»**.

هذه كلمة مستعملة في عرف الناس وخطاب بعضهم لبعض، فإذا كان لأحدهم ولد أو صاحب أو أخ يدلّه في كل وقت على ما ينفعه و يصلحه ثم أوقفه أمامه في بعض الأيام وأخذ يرشده الى ما يصلحه وبعد أن انتهى من كلامه قال له: إني قد بينت لك جميع الامور التي تنفعك وحذرتك عن كل ما يضرك إن كنت تعقل .

فمعنى هذه الجملة الشرطية هو : أنّ المخاطب لايعقل شيئاً مما ينفعه أو يضره ، فهو كالمجنون والجاهل الذي لايعقل ما يضره و يهلك نفسه وأهله ، فافهم واغتنم نصائح الله لك.

ثم بعد ماعلق فهم هذه الآيات البينات على تعقلهم لها، وجعل الشرط لفهمها ثبوت عقول راسخة ، و حيث إنهم لم يفهموها تبيّن أنهم لاعقول لهم ، فخاطبهم كما يخاطب الصبي الجاهل بقوله:

ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور (١١٩).

اذا كان لشخص ولد غر[1] وكان يماشي أو يجالس أو يلعب مع صبي خبيث ابن حرام، وهذا ابن الحرام يبغي الغوائل[2] لذلك الغر ويسرق منه نقوده وأسباب لعبه، وهو لايقلع عن مجالسته كلما نهاه أبوه، فإن في آخر الأمر لايرى الأب ما يقنع به ولده عن مجالسة ذلك الخبيث إلا أن يقول له: يابني إنك تحب فلاناً وهو لايحبك، فالصبي اذا سمع هذه الكلمة من أبيه وهو يعرفه بالصدق والنصيحة يقاطع ذلك الخبيث ولايجالسه .

إن الله خاطب هؤلاء الجهلة بما يخاطب به الصبي الغر بعدما نبههم كما ينبه النائم بهذا النداء «ها» أي : تنبهوا واسمعوا ، نبههم كما ينبه الصبي الغر .

ثم قال «أنتم اولاء» أي: هؤلاء الخاطئون الذين واليتم الكافر وأطعتم أمره وصرتم عبيداً له ومهدتم جميع ماتمناه، واعلموا أنكم تحبون هؤلاء الكافرين وهم لايحبونكم، فإن كنتم عقلاء فقد كلّمكم الله كما يكلّم العقلاء، وإن كنتم جهلاء ولاتفهمون إلا لغة الصبيان فقد خوطبتم بها، فافهموا ذلك.

ثم كرر عليهم الخطاب كما يخاطب العاقل فقال **«وتؤمنون بالكتاب كله»** أي:أنكم تؤمنون بكتابكم وكتابهم وبقية الكتب المنزلة من الله، أي: مع كونكم تؤمنون بكتابهم فهم لايحبونكم، فلماذا أنتم تحبونهم وهم لايؤمنون بكتابكم؟

فالصبي اذا أفهمه أبوه بهذا اللسان يقلع عن مصاحبة الخبيث، ولكن هؤلاء الموالين للكافرين لم ينفع معهم كل ماقيل لهم، فهم أشد حباً للكفر من الكافرين

(١) الغر : الشاب لا خبرة له (المنجد) .

(٢) الغائلة : الفساد (المنجد) .

وهم يسمّون أنفسهم مسلمين .

ثم إنّ الله تعالى لم يقطع عطفه و رأفته عن هؤلاء المسلمين الذين صاروا أشدّ جهلاً من الجهال ، فأخبرهم بصفة اخرى من صفاتهم السرية ، و بفعل من أفعالهم التي يفعلونها اذا خلوا فيما بينهم فقال تعالى: « **واذا لقوكم قالوا آمنا** » كذباً منهم وزوراً وتغريراً لكم ليخدعوكم كما يخدع الطفل، وتأثرتم بهذه الكلمة الواحدة التي قالها لكم هذا الكافر المخادع مع ما جاءكم من الآيات البينات، حيث إنكم لم تنتفعوا بها ، مع أنّ هؤلاء الذين يقولون لكم حين يلقوكم آمنا «**واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ**».

هذا الفعل ـ وهو عضّ الأنامل ـ إنما هو من أفعال الجاهل اذا تأسف على شيء فات منه أو رأى شيئاً يغيظه ولم يتمكن من تغييره جعل يعضّ أنامله ، أمّا العاقل المتوكّل على الله فلا يفعل هذا الفعل وإنما يلجأ الى ربه ويدعوه ليغيّر الشيء الذي يضره أو يضرّ المسلمين .

وإنّ هؤلاء الأعداء من أهل الكتاب هم اليهود فإنهم لمّا رأوا اتفاق المسلمين وتكاتفهم واجتماع كلمتهم ورأوهم متمسكون برأي رسول الله ﷺ المأخوذ من الله عزّ وجلّ لم يجدوا سبيلاً الى تفريق كلمتهم وإلقاء العداوة بينهم كما كانوا يفعلونه قبل الاسلام عملاً بالقاعدة المعروفة بين الناس «فرق تسد » اذا رأوا ذلك من المسلمين وخلوا فيما بينهم يعضّون أناملهم من الغيظ تأسفاً .

وهنا أيضاً علّم الله المسلمين مايفعلونه مع هؤلاء الكفرة فقال لنبيه أو أنه خاطب كل مسلم بقوله تعالى :« **قل موتوا بغيظكم** » أي : أيها المسلمون إذا رأيتم أعداءكم متألمين و متأسفين من تآلفكم واتحاد كلمتكم ومساندة بعضكم لبعض فلا يهمكم ماهم فيه ، بل قولوا لهم أو نادوا بصوت واحد «موتوا بغيظكم» أي : اطلبوا من الله ربكم ـ الذي أنعم عليكم بالالفة و محبة بعضكم لبعض ـ

أن يميتهم على هذه الحالة من الغيظ أي: اطلبوا من الله أن يبقيكم في الفة واتفاق ومحبة فيبقون هم في غيظ وأسف الى أن يموتوا .

هـذا أمر الله وإرشاده للمسلمين ، فهل امتثل المسلمون بهذا الأمر ؟ وهل عملوا بما أرشدهم إليه ربهم ؟ و هل بقي الأعداء في غيظ و كمد وأسف؟ كلاّ فلا المسلمون بقوا في اتفاقهم والفتهم وعزهم ، ولا الكافرون بقوا في أسفهم و غيظهم ، بل انعكس الأمر بعد رحلة النبي ﷺ الى دار البقاء، فإنّ الكافرين قد حصلوا على ما يريدون وتمكّنوا من تفريق المسلمين وإلقاءالعداء بينهم حتى صاروا ثلاثاً وسبعين فرقة ، فهل تركوهم حين وصلوا الى هذا العدد ؟ كلاّ إنهم في هذا العصر أكثر تصرفاً في شؤون المسلمين وأشدّ إيذاءً لهم ، وهم يطمعون أن يجعلوا عند كل فرد منهم عشرة من المسلمين ليكونوا عبيداً لهم .

فلا يتخلّص المسلمون من شرهم و كيدهم و نفاقهم حتى تكون بين جميع المسلمين الفة واخوة ومحبة، وترتفع هذه الحزازات والعداوات، وبعبارة أجلى: حتى يجعلوا أعمالهم و قوانينهم موافقة لأحكام القرآن ، ويمنعوا كل شيء حرمه القرآن من خمر وقمار وربا ورقص وغناء ، ولكن أنّى يكون هذا والكافر معهم في كل وقت، وإذا أراد أحدهم أن يفعل شيئاً من هذا يخدعه الكافر بقوله الباطل بأن فعل هذا خلاف التقدم والتمدن، فإذا فعلته سوف تتأخر بلادك وشعبك حتى يصرفه عن فعله.

فنقول للمسلمين : إذا أردتم ان يرجع إليكم مجدكم السابق فتمسكوا بكتابكم وبشريعة نبيكم ولا تخالفوها ، واعملوا بهذه الآيات التي مرت عليكم وبالآيات التي تأتي بعد ذلك .

و بعد أن بيّن الله لكم هذه الأحكام و كشف لكم هذه الأسرار ذكر لكم أمراً عاماً يكون فيه بشارة للمسلمين ونقمة على الكافرين فقال تعالى : « ان الله

عليم بذات الصدور» أي : أنّ الذي أخبركم بهذه الأسرار وهذه الامور التي أراد عدوكم أن يكيدكم بها هو الله تعالى لأنه عليم بذات الصدور ، أي : بكل شيء في الصدر من خير أو شر ، فيعلم ما في صدورهم من غيظ وحنق وبغضاء وماهو أخفى منها .

وذات الصدور هي الصور العلمية المتمكّنة في الصدور ، وإنما تكون بشارة للمسلمين لأنّ الله يخبرهم بكل شيء يحدث ويتجدد في صدور الكافرين فيأخذوا حذرهم منه .

فينبغي للمسلم أن يكون أمله الدنيوي والاخروي بالله ولا يأمل غيره ولا يخالف أمر الله و لا يوالي عدوّ الله ، فإنه إن والى عدوّ الله صار من أعداء الله، وإنّ الله كما يعلم ما في صدور الكافرين كذلك يعلم ما في صدور المسلمين الذين يوالون الكافرين ويكشفون لهم أسرار المسلمين، فيعوضونهم عن هذه الخيانة بشيء من مال الدنيا الفانية .

ويغفل هذا الذي يدعي الاسلام من أنّ الله مالك الدنيا والآخرة ، وأنه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، فالله عالم بسريرته وضميره فإنّ المسلمين اذا اصلحوا كلهم وكان الخائن واحداً فإنه يفسد عليهم أمرهم فلا يمكنهم الاصلاح حتى يقتلوا هذا المفسد الذي ينقل أخبارهم الى الكافرين أو يسجنوه حتى لا يصل الى الكافر .

ثم إنّ الله تعالى أخبرنا بسرّ آخر من أسرار أعدائنا التي انطوت عليها صدورهم و لم يظهروها الى الخارج، و لكن الله العليم بذات الصدور أخبرنا به لنعرف ولنصدق أنهم أعداء لنا فقال تعالى :

ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون

محيط(١٢٠) .

إنّ هذه الصفة التي ذكرها الله للمسلمين وأخبرهم أنها من صفات عدوهم لهي من أقوى الأدلة وأكبر الحجج على شدة عداوة أهل الكتاب للمسلمين ، فإنّ الانسان اذاكان يستاء ويحزن ويتألم بما يصيب المسلمين من الامور الحسنة كزيادة الرزق والغلبة في الحرب و تأكد الالفة والمحبة بينهم فهذا الذي يستاء لذلك هو من أشدّ الأعداء لهم .

ثم اذا أصاب المسلمين ما يسوؤهم من محنة أو اختلاف في الرأي أو تفرق في الدين أو تسلّط عدوّ عليهم فإنّ أهل الكتاب المتقدم ذكرهم يفرحون بهذا ويأنسون.

وهذه أيضاً أعظم حجة على عداوتهم الشديدة للمسلمين وبغضهم لهم ، فهذا العدوّ اللدود لاينبغي للعاقل أن يقرب إليه ويواليه ويبيّن له أسراره فإنه يجتهد في إفساد أمره وإبطال عمله .

فهل عرفت أيها المسلم أنّ الله كشف لنا جملة من أسرارهم التي أضمروها لناوستروها عنا ونحن لاتعلم بشيء منها ولكن من رأفة الله بنا أخبرنا بها لنكون على بصيرة من أمرنا .

وإني أرى أن اعدد لك الامور التي أضمروها لناالأعداء في صدورهم وأخبرنا بها الله لتعرف نعمة الله على المسلمين فتكون مسلماً كاملاً، وذلك بعد أن أمرنا الله أن لا نتخذ منهم بطانة ، أمّا الامور فهي في قوله تعالى :

١ ـ «لايألونكم خبالاً»

٢ ـ «ودوا ما عنتم»

٣ ـ «وما تخفى صدورهم أكبر»

٤ ـ «ولايحبونكم»

٥ ـ «إذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ »

٦ ـ «إن تمسسكم حسنة تسؤهم»

٧ ـ «وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ».

هـذه الامور السبعة كلها كانت مخفية في صدورهم لايعرف المسلمون عنها شيئاً ، وكانوا يتربصون بكم، فكلّما وجدوا مجالاً لتنفيذها كلها أو بعضها نفذوه وأنّ الله قد أخبركم بها وأطلعكم عليها و أبطل جميع محاولاتهم بهذا الاخبار وأمركم في أول الأمر أن لا تتخذوا منهم بطانة .

و في كل هذه الامور تكون الحجة قوية على المسلمين ممن خالف أمر الله واتخذ ولياً من الكافرين ، فإنّ حجة الله عليه مؤكّدة فيكون العذاب عليه أشدّ وأبقى .

ثم بعد ذلك أرشدنا الى الطريق و العمل الذي نسلم به من غوائل العدو ، ولا يضرنا كيده ، و نفس هذا العمل يحرز لنا النجاة في الآخرة و الراحة في الدنيا والنصر على هذا العدو، فقال تعالى في آخر الآية « **و ان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ».

وقد أمرنا الله فيها بالصبر على عداوتهم وعلى التكاليف الشاقة والصبر عن ملاذّ المحرمات ، وأمرنا بالتقوى والتحرز عن موالاتهم وعن المعاصي، وأنّ أكبر المعاصي موالاتهم ، فإنّ الآيات السابقة والاخبار عمافي صدورهم كلها لأجل التحرز عن موالاتهم .

ومع كل هذه التأكيدات فإنه يوجد بعض الناس لهم نفوس خبيثة لايؤثر فيهم شيء ، ولذا ذكر الله في آخر الآية كلمة فيها نوع من التهديد لمريدي السوء ، وفيها وعد بحسن الجزاء لمريدي الخير فقال تعالى : **ان الله بما تعملون محيط**» أي : علمه محيط بأعمالكم وأقوالكم ونياتكم، يعلم ما تعملونه من خير أو شر ، ويعلم مقدار صبركم ومقدار تقواكم ، ويعلم من يوالي الأعداء ومن

يوالي المؤمنين، لأنه قال في أول الآية حين وجّه النداء الى المؤمنين «لا تتخذوا بطانةً من دونكم» فبطانة المؤمن يلزم أن يكون مؤمناً، أي: أنّ المؤمن لايجوز له أن يكشف أسرار المؤمنين التي من شأنها معاملة الكافرين ومقابلتهم إلا لمؤمن مثله.

تذكّر كيف أوصى اليهود بعضهم بعضاً حين قال الأحبار لأتباعهم «لاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم»[1].

وأنت أيها المؤمن يوصيك الله ويعلن لك إعلاناً ويقول بصورة جهرية «لاتتخذوا بطانةً من دونكم» حتى يسمع اليهود والنصارى أنّ الله قد نهى المسلمين من اتخاذهم بطانة، ويعرفوا أنّ من اتخذهم بطانةً بعد هذا النهي فإنه خائن للمسلمين فلايحسبوه على المسلمين، والمسلمون إذا اطلعوا عليه لايحسبونه مسلماً، والله لا يحسبه مسلماً لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة.

ولا يخفى على ذلك الشخص الذي يوالي اليهود و النصارى أنّ اليهود لا يحسبوه يهودياً لأنهم لايأتمنونه على أسرارهم التي تواصوا بينهم أن لايبدونها إلا لمن تبع دينهم، وكذا لا يحسبه النصارى مسيحياً لأنهم لايبدون له أسرارهم التي يعاملون بها من يستعمرونه من المسلمين.

أعرفت الآن مصيرك يامن تسمّي نفسك مسلماً وأنت تتولى اليهود والنصارى، فأمّا أنا وغيري من المسلمين فلانعرفك مسلماً لأنّ الله ورسوله والمسلمين لايدعونك مسلماً ولايقبلونك أن تكون واحداً منهم لاحياً ولا ميتاً، وأمّا اليهود فلايعدونك يهودياً ولو صرفت عمرك في خدمتهم، وأمّا النصارى فلايعدونك نصرانياً. فأين تذهب والى أيّ امّة تنتمي؟ فإنّ الله أعلم بمصيرك، فلابدّ أن يلحقك بامّة من الامم، فاعرف نفسك ولا تبقى مجهول الجنسية عند جميع الملل والامم، وأسأل الله الهداية للجميع.

---

(١) آل عمران: ٧٣.

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٣٠) .

الربا باب من الأبواب المحرمة في الدين الاسلامي ، وقد ذكره الفقهاء في الرسائل العملية التي يكتبونها للعوام ليعمل على طبقها ، وذكروا له شروطاً وقواعد . فهو ـ أي حرمة الربا ـ مما اتفق عليه جميع فرق المسلمين ، ولكنه بالرغم من هذا الاتفاق فإنّ جميع الحكومات الاسلامية تتعاطاه وتتعامل به مع شعبها أو مع حكومة اخرى .

إنّ الله قدخصّ المؤمنين بالنداء ووجّه لهم نهياً صريحاً « **لا تأكلوا الربا** » فلو أخذه المسلم وصار في قبضته وتحت تصرفه فلايجوز له أن يأكل منه شيئاً ، بل يجب عليه أن يرده الى صاحبه الذي أخذه منه ، وكل من يعدّ نفسه من المؤمنين ويشمله النداء فلايجوز له التعامل به .

والربا هو أخذ الزيادة على ما يدفعه الانسان لآخر سواء تكررت أم لا ، ولا فرق فيما يأخذه سواء أكله أم لم يأكله ، وقد فصّلت أحكامه في كتب الفقه، والمقصود هنا تفسير الآية الشريفة ، فإنّ الله قد نهى المؤمنين عنه وجعل اجتنابه والبعد عنه وعدم التناول منه علّة موجبة للفلاح ، ثم قال :

واتقوا النار التي اعدت للكافرين (١٣١) .

فانه يظهر من الآية الشريفة أنّ التناول من الربا يسبب دخول النار، وأنّ تركه وعدم أخذه منه اتقاء النار التي اعدت للكافرين، ثم قال:

وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون(١٣٢) .

إنّ إطاعة الله والرسول واجبة على كل من صدق بالنبي وصار من المسلمين

ومعنى ذلك أن يفعل الواجب ويترك المحرم، فيكون الأمر بالاطاعة هنا بعد النهي عن أكل الربا تأكيداً لبيان حرمته ، وأنّ العصيان هنا في أمر الربا لازمه عدم إطاعة الله والرسول، ومن لم يطع الله والرسول فالرحمة بعيدة عنه، أمّا المطيع لله ولرسوله في ترك الربا فالرحمة قريبة منه.

وقد وردت أخبار كثيرة في ذمّ آكل الربا .

منها: عن النبي صلى الله عليه وآله فيما أوصى به علياً عليه السلام أنه قال: ياعلي درهم ربا أعظم من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام[1].

ومنها: عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّ الله عزّ وجلّ لعن آكل الربا وموكّله وكاتبه وشاهديه[2].

ومنها: حول قوله تعالى «يمحق الله الربا ويربي الصدقات» قيل للصادق عليه السلام: قد نرى الرجل يربي وماله يكثر، فقال عليه السلام: يمحق الله دينه وإن كان ماله يكثر[3]

ومنها : عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : من أكل الربا ملأ الله بطنه نار جهنم بقدر ما أكل، فإن كسب منه مالاً لم يقبل الله شيئاً من عمله ، ولم يزل في لعنة الله وملائكته مادام معه قيراط[4].

ومنها : عن الصادق عليه السلام أنه قال: إنما حرم الله عزّ وجلّ الربا لئلاّ يمتنع الناس من اصطناع المعروف[5].

الى غير ذلك من الأخبار والروايات وهي كثيرة .

قوله تعالى: وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها

(١) بحار الانوار : ج١٠٣ ص١١٩ ب٥ ح٢٢ .
(٢) بحار الانوار : ج١٠٣ ص١١٦ ب٥ ح٨ .
(٣) بحار الانوار : ج١٠٣ ص١١٧ ب٥ ح١٢ .
(٤) بحار الانوار : ج١٠٣ ص١٢٠ ب٥ ح٢٧ .
(٥) الكافي : ج٧ ص١٧ ب١ ح٧٢ .

السماوات والارض اعدت للمتقين(١٣٣) .

لمّا نهى الله المؤمنين عن أكل الربا وبيّن لهم أنّ تعاطيه يوجب النار حثهم ورغبهم في هذه الآية على مايوجب المغفرة ودخول الجنة، وأنّ أحسن شيء يوجب المغفرة و دخول الجنة، هو اجتناب المعاصي المعبّر عنها في القرآن الكريم و في الأخبار بالتقوى ، فقال تعالى بعد بيان أنّ الجنة عرضها السماوات والأرض : **«اعدت للمتقين»** أي: أنّ الجنة هيئت للمتقين.

ثم ذكر الله بعض أوصاف المتقين فقال:

الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين(١٣٤) .

أول وصف وصفه الله به المتقين هو إنفاق المال في السراء والضراء، لأنّ المال هو أعزّ شيء عند الانسان بعد النفس، ولكن الانسان المسلم اذا طلب غفران الله والجنة هان عليه بذل المال في حال العسر واليسر كما عن بعض، أو في حال السرور أو في حال الاغتمام.

و المقصود أنهم ينفقون الأموال في كل الأحوال بما يقدرون عليه ، لأنّ أحوالهم لاتخلو عن أحد هذين الأمرين: إمّا مسرة وإمّا مضرة، وقد تقدمت آيات كثيرة في الحثّ على البذل والانفاق، فهو محبوب لله ورسوله .

ثم الوصف الثاني للمتقين قوله تعالى : **«والكاظمين الغيظ»** و معنى كظم الغيظ هو أن يمتلىء الانسان غيظاً وغضباً على أحد ويتمكن على إمضائه والانتقام منه، ولكنه لايمضيه ويشدّ عليه ويمنعه من النفوذ، وهذه الصفة ممدوحة في الشخص سواء كان مؤمناً أم غير مؤمن، لكنها قليلة جداً في غير المؤمن، فإنّ المؤمن إنما

يتصف بها بعد إرشاد الله له، فهو يضغط على نفسه ضغطاً شديداً حتى يمنعها عن إمضاء غيظها لأجل التقرب الى الله ورغبة فيما وعد الله على ذلك من الثواب.

فقد روي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً [1].

وعنه عليه السلام أنه قال: ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عزّ وجلّ عزاً في الدنيا والآخرة، وقد قال الله عزّ وجلّ: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين» وأثابه الله مكان غيظه [2].

وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: قال لي أبي: يا بني ما من شيء أقرّ لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر، وما يسرني أنّ لي بذل نفسي حمر النعم [3].

والصفة الثالثة التي وصف بها المتقين قوله تعالى: **«والعافين عن الناس»** والعفو هو ترك عقوبة المذنب، أي: ترك عقوبة من جنى عليك ابتداءً، فيصير لك الحقّ في مؤاخذته بأن تقتصّ منه فتعفو عنه فتكون من العافين عن الناس.

وقد أمر الله عباده بالعفو في آيات عديدة ومدحهم على ذلك.

وورد الحثّ عليه في الأخبار. وصدر العفو من النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام عمن جنى عليهم، فمن أعظم موارده عفو النبي صلى الله عليه وآله عن أهل مكة جملة [4]، وقد صدر منهم من الأذى عليه وعلى المسلمين ما لا يحصى.

وروي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال: الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة [5].

---

(١) بحار الانوار: ج٧١ ص٤١١ ب٩٣ ح٢٥.
(٢) بحار الانوار: ج٧١ ص٤٠٩ ب٩٣ ح٢٤.
(٣) بحار الانوار: ج٧١ ص٤١٢ ب٩٣ ح٣٨.
(٤) بحار الانوار: ج٢١ ص١٣٢ ب٢٦.
(٥) بحار الانوار: ج٧١ ص٤٠١ ب٩٣ ح٦.

وعن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: العفو عند القدرة من سنن المرسلين والمتقين[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه[2].

وحكي عن الشهيد الثاني ـ قدس سره ـ أنه قال: ورد في خبر: اذا جثت الامم بين يدي الله يوم القيامة نودوا ليقم من كان أجره على الله تعالى فلايقوم إلا من عفا في الدنيا عن مظلمة[3].

وروي عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام أنه جمع ولده يوماً فقال لهم: يابنيّ إني موصيكم بوصية فمن حفظها لم يضع معها، إن أتاكم آتٍ فأسمعكم في الاذن اليمنى مكروهاً ثم تحول الى الاذن اليسرى فاعتذر وقال: لم أقل شيئاً فاقبلوا عذره[4].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: عليكم بالعفو فإنّ العفو لا يزيد العبد إلّا عزاً فتعافوا يعزكم الله[5].

ثم إنّ هذه الصفات الثلاث التي ذكرها الله وهي: الانفاق في السراء والضراء، والكظم للغيظ، والعفو عن الناس، جعلها من نعوت المتقين اللازمة لهم، فلايصدق على أحد أنه من المتقين حتى يتصف بها.

ثم ذكر صفة اخرى وذكر أنه يحبّ من اتصف بها مطلقاً ومن أيّ صنف كان، وهي صفة الاحسان الى الغير فقال تعالى: **«والله يحب المحسنين»**. فإذا كانت اللام للعهد تكون الاشارة الى هؤلاء المتصفين بصفات المتقين، وإذا كانت اللام للجنس شملتهم مع غيرهم.

---

(١) بحار الانوار: ج٧١ ص٤٢٣ ب٩٣ ح٦٢.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ١١ ص٤٧٠.

(٣) سفينة البحار: ج٢ ص٢٠٨ مادة «عفا».

(٤) سفينة البحار: ج٢ ص٦٦٤ مادة «وصى».

(٥) بحار الانوار: ج٧١ ص٤٠١ ب٩٣ ح٥.

وباب الاحسان باب واسع ، وقد ورد الأمر به لجميع الناس ، ويكفي في حسنه وفضله هذه الجملة المذكورة هنا «والله يحب المحسنين» فإن الله اذا أحب عبداً أعطاه كل شيء ، وإذا حصل العبد على العتق من النار ودخول الجنة فقد فاز فوزاً عظيماً .

ولنذكر لك من الأخبار ما يرغبك في الاحسان .

روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: صنايع المعروف تقي مصارع السوء، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة ، وأول أهل الجنة دخولاً الى الجنة أهل المعروف ، وأن أول أهل النار دخولاً الى النار أهل المنكر [1] .

وعن الصادق عن أبيه عليهما السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن للجنة باباً يقال لها باب المعروف لا يدخله إلا أهل المعروف [2] .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إني لأعجب من أقوام يشترون المماليك بأموالهم ولا يشترون الأحرار بمعروفهم [3] .

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، لأنهم في الآخرة ترجح لهم الحسنات فيجودون بها على أهل المعاصي [4] .

و هذا الخبر يتضمن ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، قيل : يا رسول الله و كيف ذلك ؟ قال : يغفر لهم بالتطول منه عليهم ويدفعون حسناتهم الى الناس فيدخلون بها الجنة فيكونون أهل المعروف في الدنيا والآخرة [5] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: من أدخل على مؤمن فرحاً فقد أدخل علي فرحاً،

---

(١) بحار الانوار : ج٧٤ ص٤٠٧ ب٣٠ ح١ .
(٢) بحار الانوار : ج٧٤ ص٤٠٨ ب٣٠ ح٣ .
(٣) بحار الانوار : ج٧٤ ص٤٠٧ ب٣٠ ذيل ح٢ .
(٤) بحار الانوار : ج٧٤ ص٤١٠ ب٣٠ ح١٥ .
(٥) بحار الانوار : ج٧٤ ص٤١٢ ب٣٠ ح٢٥ .

ومن أدخل عليّ فرحاً فقد اتخذ عندالله عهداً، ومن اتخذ عندالله عهداً جاء من الآمنين يوم القيامة[١].

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: رأيت المعروف لايصلح إلّا بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله، فإنك اذا صغّرته عظّمته عند من تصنعه إليه، واذا سترته تمّمته، واذا عجّلته هنّيته، وإن كان غير ذلك محقته ونكرته[٢].

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: من سرّ مؤمناً فقد سرني، ومن سرني فقد سرّ رسول الله، ومن سرّ رسول الله فقد سرّ الله، ومن سرّ الله أدخله جنته[٣].

وروي أنّ جارية لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب الماء على يديه ليتهيأ للصلاة، فسقط الابريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إنّ الله يقول «والكاظمين الغيظ» فقال عليه السلام: كظمت غيظي، فقالت: «والعافين عن الناس» قال: عفا الله عنك، قالت: «والله يحبّ المحسنين» قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله[٤].

فعلى هذا يكون الاحسان صفة رابعة للمتقين.

ثم بعدها ذكر الصفة الخامسة لهم وهي قوله تعالى:

و الذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم و من يغفر الذنوب الا الله و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون(١٣٥).

لقد فسروا الفاحشة بالقبح العظيم ومثلوا له بالزنا، والظاهر أنّ المراد منه الذنب العظيم فيعمّ جميع الكبائر.

أمّا ظلم النفس فقد فسره بعضهم بما هو أعظم من الفاحشة، و فسره بعضهم

(١) بحار الانوار: ج٧٤ ص٤١٣ ب٣٠ ذيل ح٢٧.

(٢) بحار الانوار: ج٧٤ ص٤٠٨ ب٣٠ ح٨.

(٣) بحار الانوار: ج٧٤ ص٤١٣ ب٣٠ ذيل ح٢٧.

(٤) مناقب ابن شهراشوب: ج٤ ص١٥٧.

بما هو أهون منها مثل له بالصغائر .

و على كل فإنّ كل معصية كبيرة كانت أو صغيرة فيها ظلم للنفس و بعضها يكون فيها تعدّ على الغير وظلم لهم وبعضها لم يكن فيها سوى ظلم النفس.

وعلى كل فإنّ الله يصف هؤلاء القوم ـ أي المتقين ـ بأنهم اذا فعلوا معصية ذكروا الله إمّا بتذكّر نهيه عن هذا الفعل ، أو بتذكّر عقابه، أو أنهم في كل وقت يذكرون الله ولاينسونه كما مرّ في تفسير قوله «فاذكروني أذكركم»[1] فإذا ذكر الله لا يمكنه أن يبقى على حالته التي ارتكب فيها السيئة، أي: لا يبقى ملتذاً بها كحالتها حين التلبس ، بل يندم و يأسف ويحسّ بألم يحزّ به من تلك المعصية، فإذا ندم على فعله وذكر الله يستغفر الله ويطلب منه العفو والمغفرة، إذ أنه لا يجد ملجأً ولايعرف أحداً يغفر له تلك الفاحشة ويمحو عنه تلك المعصية إلّا الله، و قد أيّد الله هذه العقيدة، أي: أنه لا يغفر الذنوب أحد إلّا الله .

ثم وصفهم بأنهم اذا ندموا و استغفروا الله لاتتكرر منهم تلك المعصية أو مطلق المعصية فقال تعالى : **«ولم يصروا على ما فعلوا»** أي: أنّ المعصية التي فعلوها ثم ندموا عليها واستغفروا الله منها لا تتكرر منهم مرة ثانية ، لأنّ ندمهم ناشىء عن ذكر الله وعن تدبر ومعرفة بالله وبعقوبته التي أعدّها للمذنبين، فهو يريد أن يتدارك هذا الظلم الذي أتى على نفسه ويرفعه عنها إذ لا طاقة له به .

ومن كان كذلك لا يكون سبباً لجلب ظلم آخر على نفسه ، إذ ليس لنفس واحدة وبدن ضعيف تحمل ظلمين من نوع أو نوعين يسببان عقابين، فكيف اذا تكرر الظلم مراراً فوصل الى العشرات أو المئات! ولذا قال تعالى في وصفهم : **« و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون »** أي : لم يأتوا بهذه المعصية مرة اخرى وهم يعلمون أنها معصية إلا أن تصدر منهم جهلاً وخطأً لا عن عمد وعلم .

روي عن الباقر عليه السلام أنه قال: الاصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدّث

(١) البقرة : ١٥٢ .

نفسه بتوبة ، فذلك الاصرار [١].

وقد وردت الأخبار الكثيرة في الحث على الاستغفار وفوائده الكثيرة .

فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: عوّدوا ألسنتكم الاستغفار فإنّ الله تعالى لم يعلّمكم الاستغفار إلا وهو يريد أن يغفر لكم [٢].

وعن محمد بن الريان قال: كتبت الى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله أن يعلمني دعاء للشدائد والنوازل والمهمات وأن يخصني كما خصّ آباؤه مواليهم ، فكتب إليّ: الزم الاستغفار [٣].

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: من استغفر بعد ذنبه بقوله: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم الغفور الرحيم ذو الجلال و الاكرام وأتوب اليه ، لم يكتب عليه شيء [٤].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: اذا صلّيت العصر فاستغفر الله سبعاً وسبعين مرة تحطّ عنك عمل سبع وسبعين سنة [٥].

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: من ظلم أحداً ففاته فليستغفر الله له فإنه كفارة [٦].

فعلى هذا يكون الاستغفار كفارة لظلم نفسه وظلم غيره ، فالعاقل ـ المعتقد بأنّ الحسنات والسيئات كلها تكتب عليه وسوف يحاسب عليها ثم يكون الثواب والعقاب عليها، وعلم أنّ السيئة يمكن أن لا تسجّل عليه أو يمكن محوها من الصحيفة بعد تسجيلها ـ لا ينبغي له أن يتسامح في هذا الأمر ويبقيها في صحيفة مسجلة عليه وهو يجد لمحوها طريقاً. هذا هو الحكم العقلي الذي يسير العقلاء، فلا تغفل منه.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا

---

(١) سفينة البحار: ج٢ ص٢٨ مادة «صرر».

(٣و٢) بحار الانوار: ج٩٣ ص٢٨٣ ب١٥ ح٣٠ نقلا عن دعوات الراوندي.

(٥و٤) سفينة البحار: ج٢ ص٣٢٢ مادة «غفر» .

(٦) بحار الانوار : ج٩٣ ص٢٨٢ ب١٥ ح٢٣ نقلا عن جامع الاخبار.

يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين (١٤٩).

إنّ الآيات الناهية للمؤمنين عن إطاعة الكافرين متكررة وكثيرة في القرآن بتعابير مختلفة كما مرت عليك، فتارةً تقول «لا تتخذهم أولياء»، وتارةً تقول «لا تتخذوهم بطانة».

أمّا التعبير في هذه الآية فإنه ينبه السامع بأنّ المتصف بهذا الوصف إنسان مختلّ العقل أو منافق لا يعقل شيئاً من الامور الواضحة ، فإنّ المؤمن إنما يقال في مقابل الكافر، فهما لفظان متضادان، فالمؤمن هو الذي آمن بالله وصدق الرسول وصلّى الى الكعبة وصام شهر رمضان وجاهد الكافر، والكافر هو من لم يفعل شيئاً من هذه الامور.

فإذا قيل : إنّ فلاناً مؤمن مطيع للكافر يتعجب السامع من هذا الكلام ويلتفت الى المتكلم مستفهماً منه كيف يكون فلان مؤمناً وهو يطيع الكافر والمبادىء مختلفة، فالمؤمن موحد والكافر غير موحد ، وهذا مصدق بالرسول وذاك غير مصدق، وهذا يصلّي الى الكعبة وذاك لا يصلّي ، وهذا يصوم شهر رمضان وذاك لا يصوم ، والمسلم يحارب الكافر فكيف يحاربه وكيف يطيعه! ومن أطاع شخصاً لا يحاربه فهو إذاً ليس بمؤمن ، ومن حارب شخصاً لا يطيعه ، فالمؤمن المحارب لا يطيع الكافر .

فاتضح لك أنّ المؤمن لا يمكن أن يطيع الكافر ، فيكون قوله تعالى : «**يا أيها الذين آمنوا ان تطعيوا الذين كفروا**» تنبيهاً للبشر وتنبيهاً للمؤمنين بأنّ هذا الشخص ـ المدعي للايمان وهو يطيع الكافر ـ ليس بمؤمن وإنما هو منافق فعلاً ، وسوف يرد على عقبه فينقلب خاسراً حتى من اسم المؤمن ، فإنه دخل مع المؤمنين وانتسب إليهم ليحصل على هذا الاسم ، ولكنه لا يسمّى مؤمناً بعدما عرف أنه يطيع الكافر .

وقد ذكر المفسرون أنّ الآية نزلت في المنافقين إذ قالوا للمؤمنين يوم احد يوم الهزيمة: ارجعوا الى إخوانكم وارجعوا الى دينهم. وقيل: في اليهود والنصارى. وسواء كان القائل المنافقون أو اليهود فإنّ الله جعلهم من الكافرين، كما عبّر عنهم كذلك وهم قد تهيأوا وتحفزوا لاضلال المسلمين بحيث بذلوا جهدهم كله لذلك، ولذا تجد الآيات الكثيرة تحذر المسلمين وتنبههم وتخبرهم عن ضمائر اليهود المنطوية على الغلّ والحسد والمكر والخديعة.

ومع ذلك كله نرى جماعات من المسلمين موالين لهم ويطيعون أوامرهم وينفذونها في البلاد الاسلامية، ونحن إنما نسمّيهم مسلمين لأجل أن يعرفهم الناس بهذا الاسم، وإلا فهم لا يستحقون التسمية بهذا الاسم وحسابهم على الله.

قوله تعالى: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله و ان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» (١٧٩).

قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّ المشركين قالوا لأبي طالب: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر، فإن وجدنا مخبره كما أخبر آمنّا به، فذكر ذلك للنبي ﷺ[1].

وقيل: سئل المؤمنون أن يعطوا علامة ليفرقوا بها بين المؤمن والمنافق، فنزلت الآية[2].

واذا كان المؤمنون هم طلبوا ذلك فإنه ينبىء عن كثرة المنافقين في ذلك

(١و٢) مجمع البيان: ج٢ ص٥٤٥.

الزمان، وإنّ المؤمنين تأذوا منهم، حيث إنهم يرون منها بعض الأفعال المنافية للدين.

أمّا في هذا الزمان فلقلّة المؤمنين والمحافظين على إيمانهم نرى أكثر الناس لايهتمون بكل شيء، فيجالسون مرتكب الكبائر كشارب الخمر واللاعب بالميسر وآكل الربا وتارك الصلاة والزكاة والحجّ والصوم فلايقاطعونه ولايهجرونه. بل يجالسون الموالي للمكفرة والذي هو عين لهم المسمّى «الجاسوس» نعوذ بالله منه.

وعلى كل حال فإنّ الله وإن لم يجبهم الى ماسألوا، أي: لم يجبهم الى تشخيص المؤمن من المنافق بتعيين اسمه واسم أبيه وعشيرته بحيث يخبرهم أنّ فلان ابن فلان الاسرائيلي هو منافق وأنّ فلان ابن فلان الأوسي أو الخزرجي هو مؤمن حقاً، فإنه وإن لم يجبهم الى هذا الطلب ولكنه قال: **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب»** أي: أنّ الله لايطلعكم على غيبه فتعرفون ضمائر القلوب وتطلعون على قلب المؤمن أنه مؤمن وعلى قلب المنافق أنه منافق، ولكن الله يميّزهم بالاختيار بما يكلّفهم به من الأعمال الشاقة كالجهاد وأمثاله وكالأمر بأداء الحقوق من زكاة وغيرها.

وقد ذكر المفسرون أنه لما نزل قوله تعالى «إنّ الدين عندالله الاسلام»[1] قال اليهود: نحن مسلمون، فلما نزلت آية وجوب الحج رفضوا الاسلام[2]. وهؤلاء المسلمون الذين نراهم في هذا العصر أغلبهم لايفعل الواجبات ولايجتنب المحرمات، وهذا يكفي في تمييز المسلم من غيره.

وهناك شيء آخر يميّز بين المسلم وبين غيره وهو حوادث الأيام التي حدثت في هذه العصور، ويمكن أن نعتبر هذه الحوادث من المميّزات من قولــه تعالى: «ولنبلونّكم بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأمــوال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين»[3].

---

(١) آل عمران: ١٩.
(٢) راجع تفسير الرازي: ج٨ ص١٥٤ عن الضحاك وص١٥٨ عن ابن عباس.
(٣) البقرة: ١٥٥.

وقد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة، ولكن ما أذكر أنّ أحداً فسر الصبر بالثبوت على الدين والتمسك به، فإنا قد رأينا كثيراً من النـاس قد خرجوا من دينهم عند حدوث البدع من هذه الأحزاب الالحادية، فإنهم تركوا قوانين الدين و عند وصولي الى هذه الآية رأيت من الأقوى أن يكون المراد بقوله: «وبشّر الصابرين» هو الصبر على الدين والثبوت عليه وعدم الخروج منه، فإنّ الله و إن لم يجب طلب من أراد تشخيص المؤمن عن غيره ولكنه جعل له أحكاماً كلّفه بها وأوجبها عليه واخرى حرمها عليه، ففعل بعض الناس بعكس ما أمر الله و نهى، ففعلوا المحرم وتركوا الواجب، وهذا يكفي لتمييز المؤمن من المنافق.

و كذا يكفي التمييز بحوادث الأيام فإنا رأينا اناساً كانوا يحضرون جماعة المسلمين فتركوها، وجماعة كانوا يحضرون مجالسهم فتركوها بل صاروا يسخرون من المؤمنين ويعيبونهم.

ثم إنّ الله بيّن لنا أنه يطلع من يجتبي من رسله على بعض الامور الغيبية، و إنّ أفضل رسله هو نبينا محمد ﷺ فلابدّ أن يكون الله أطلعه على كثير من الامور، و إنّ النبي ﷺ قد أخبر بأشياء غيبية كثيرة، ثم بعد ذلك عيّن لنا ما يلزمنا فعله فقال **«فآمنوا بالله ورسله»** فإنّ الذين طلبوا من الله بواسطة النبي ﷺ أن يعرفهم بالمؤمن و الكافر و المنافق و أن يجعل بينهم فارقاً بيّناً بحيث يعرفهم كل أحد إمّا أن يكونوا من المشركين أو من المنافقين أو من المؤمنين.

ثم بعدما بيّن الله لهم أنه لايطلعهم على الغيب وأنه لايترك الناس على ماهم عليه بحيث لايعرف المؤمن من الكافر والمنافق خاطب الجميع وأمرهم بأنّ الذي يراد منهم أن يؤمنوا بالله ورسله.

أمّا التمييز بين الطيّب و الخبيث فهو يرجع الى الله و هو عالم بهم، و قد يحتاج النبي ﷺ الى التمييز فإنّ الله يطلعه عليه على مقتضى ما تلزمه المصلحة والحكمة.

و أنتم أيها الناس من كان منكم مؤمناً أو منافقاً أو مشركاً فعليكم أن تؤمنوا بالله إيماناً حقيقياً ليس فيه شيء يفسده أو يبطله ، و أن يكون إيمانكم خالصاً، و تعتقدوا بأنّ الله وحده هو المطّلع على الغيب، و أنه قد اجتبى الأنبياء واختارهم من بين العباد، وأنهم لايعلمون إلا ما علّمهم الله ولايقولون إلا ماأمرهم به الله، فعليكم أن تصدقوهم في كل ما أخبروكم به. فهذا الايمان بالله ورسله هو الذي ينجيكم من عذاب الله ويخلصكم من شرّ الكافرين والمنافقين .

ثم أرشدنا الى أكثر من ذلك فقال: «**وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**» أي: من أراد ثواب الله في الآخرة ورغب في الدرجات الرفيعة وكذا من أراد الراحة في الدنيا فليتق الله وليجتنب معاصيه كلها، وأهمّ المعاصي و أعظم الذنوب الشرك بالله ، ومنها النفاق الذي يبعد صاحبه عن رحمة الله إلا أن يتوب، فالمؤمن الصادق في إيمانه الذي يوافق ظاهره باطنه هو الذي لايترك شيئاً من الواجبات ولايفعل شيئاً من المحرمات، ولايفعل شيئاً يظنّ به أو يحتمل أنه لايرضي الله. وهذا هو المتقي، وهو الذي وعده الله بالأجر العظيم ، والشيء الذي يصفه الله بالعظمة لا يتمكن الانسان أن يتصوره أو يصل إليه وهمه. وهو الذي ينبغي للعاقل أن يرغب فيه ويسعى للحصول عليه .

ولايخفى على المؤمن أنّ الله عزّوجلّ قد حقّر الدنيا وذمّها، و هي و ما فيها لاتساوي عنده جناح بعوضة، ولم يعبّر الله عنها في كتاب مما أنزله أنها عظيمة. فهذا الأجر الذي عبّر عنه أنه عظيم لابدّ وأن يكون أحسن من الدنيا بأجمعها، والله يعطيه لعبده اذا اتقى معاصيه وعمل بأوامره .

ومن جملة ما أمر الله به المؤمن إخراج حقوقه التي فرضها عليه من ماله بمقدار معيّن ، فإذا بخل بهذا المال الحقير الذي هو جزء يسير من مال الدنيا بخل بهذا المال اليسير وزهد في ذلك الأجر العظيم .

فإنّ الله بعدما عرّفه من فوات ذلك الأجر ذكر له أنّ بخله بهذا اليسير لا ينفعه شيئاً ، فإنّ هذا المال سيفارقهم أو يفارقوه حتماً ، وأنّ هذا البخل سيجرّ

عليهم وبالاً عظيماً إضافة الى فراقه لهم وفراقهم له ، وهذا الوبال هو ما ذكره في قوله تعالى :

ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير (١٨٠) .

فهذا الذي يجب عليه شيء من الخمس أو من الزكاة أو من سائر الحقوق فيبخل به و يمتنع من دفعه يظن أن هذا الامتناع فيه خير له ، وأنه اذا أبقاه عنده ولم يدفعه يزيد ماله، ولكن الله أخبره أن هذا الامتناع هو شر له لاخير فيه، وذلك لأن الأمر بإعطاء هذا المال أولاً هو من جملة مميزات الطيب من الخبيث فدفعه وبذله يلحقه بالطيبين، ومنعه والبخل به يلحقه بالخبيثين . وثانياً أن المنع والبخل وعدم البذل فيه شر لصاحبه في الدنيا والآخرة .

أما في الآخرة ، فهو ما ذكره الله بقوله : «**سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**» ذكر بعض المفسرين أن المعنى سيلزمهم وباله إلزام الطوق الذي لاينفك[1] .

وروي عن الباقر والصادق عليهما السلام قالا : ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب ، وهو قول الله «**سيطوقون ما بخلوا به**»[2] .

وعن الصادق عليه السلام قال: ما من ذي زكاة مال نخل أو زرع أو كرم يمنع زكاة ماله إلا قلده الله تربة أرضه يطوق بها من سبع أرضين الى يوم القيامة[3] .

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٥٤٦.

(٢) بحار الانوار : ج٩٦ ص٢٠ ب١ ح٤٦.

(٣) بحار الانوار: ج٩٦ ص ١٧ ب١ ذيل ح٣٧ .

وروي عن الباقر عليه السلام قال: الذي يمنع الزكاة يحوّل الله تعالى ماله يوم القيامة شجاعاً من نار له زبيبتان فتطوقه ثم يقال له: الزمه كما لزمك في الدنيا. وهو قول الله تعالى «سيطوقون ما بخلوا به»[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: من منع قيراطاً من الزكاة فليس هو بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة[٢]. وبهذه الرواية نعرف أنّ وجوب الزكاة هو أحد المميّزات بين الطيّب والخبيث، أي: بين المؤمن والمنافق، فاعرف نفسك يا مدعي الايمان.

وروي عن الصادق عليه السلام قال: إنّ لله بقاعاً تسمّى المنتقمة، فإذا أعطى الله تعالى عبداً مالاً ولم يخرج حقّ الله عزّ وجلّ سلّط الله عليه بقعة من تلك البقاع فأتلف ذلك المال فيها ثم مات وتركها[٣].

وفي كتاب علي عليه السلام: اذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلها[٤].

وفي رواية: اذا منعت الزكاة ساءت حال الفقير والغني[٥].

ومانع الزكاة أحد من كفر من هذه الامّة كما في الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله: كفر بالله العظيم عشر من هذه الامّة[٦].

وورد عنه صلى الله عليه وآله: إنّ البخيل حقّ البخيل هو مانع الزكاة[٧].

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: ماضاع مال في برّ ولا بحر إلا بمنع الزكاة[٨].

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّ مانع الزكاة ملعون ولا تقبل منه الصلاة[٩].

---

(١) بحار الانوار: ج٩٦ ص٨ ب١ ح٣ والشجاع: نوع من الحيات.
(٢) بحار الانوار: ج٩٦ ص١١ ب١ ح١٢.
(٣) بحار الانوار: ج٩٦ ص١١ ب١ ح١٤.
(٤و٥) بحار الانوار: ج٩٦ ص١٥ ب١ ح٣٢.
(٦) بحار الانوار: ج٩٦ ص١٣ ب١ ح٢٠.
(٧) بحار الانوار: ج٩٦ ص١٦ ب١ ح٣٤.
(٨) بحار الانوار: ج٩٦ ص٢١ ب١ ح٤٨.
(٩) سفينة البحار: ج١ ص١٥ ومادة «زكا».

وأخرج النبي صلى الله عليه وآله من المسجد خمسة نفر لأنهم لا يزكّون [١].

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: من منع الزكاة في حياته طلب الكرّة بعد موته [٢].

وقال عليه السلام: من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً [٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما منع به غني، والله تعالى جده سائلهم عن ذلك [٤].

وعن علي عليه السلام قال. من كثر ماله ولم يعط حقه فإنما ماله حيّات تنهشه يوم القيامة [٥].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله عزّ وجلّ يوم القيامة بقاع قرقر وسلّط عليه شجاعاً أقرع يريده و هو يحيد عنه فإذا رأى أنه لا يتخلّص منه أمكنه من يده فيقضمها كما يقضم الفجل ثم يصير طوقاً في عنقه [٦].

والأخبار الواردة في عقاب تارك الزكاة كثيرة.

وأما كون البخل وترك العطاء شرّ لصاحبه في الدنيا فيفهم من قوله تعالى: «ولله ميراث السماوات والارض» أي: أنّ كل ما في السماوات والأرض هو ملك لله والله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، و أنّ المال الذي في يد الانسان يمكن زواله بأسرع وقت، و إن لم يذهب في حياته فإنه يفارقه بعد موته، و أنّ الله قد وعد المنفقين أن يعوضهم أضعاف ما أنفقوا، فإن كانوا مؤمنين بالله فلا ينبغي لهم أن

---

(١) الوسائل: ج٦ ص١٢ ب٣ ح٧.

(٢و٣) بحارالانوار: ج٩٦ ص٢٠ ب١ ح٤٧ عن ثواب الاعمال.

(٤) بحارالانوار: ج٩٦ ص٢٢ ب١ ح٥٣ عن نهج البلاغة.

(٥) بحارالانوار: ج٩٦ ص٢٩ ب١ ح٥٧ عن دعائم الاسلام.

(٦) بحارالانوار: ج٩٦ ص١٦ ب١ ح٣٧، وقرقر: القاع الاملس.

يبخلوا و إن لم يصدقوا بوعدالله ، فهو ماقاله الله في الآية السابقة : « ماكان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيّب» فإنّ هذا الباخل قد ميّز نفسه عن المنفق المصدق بوعدالله الممتثل لأمر الله.

ثمّ قال الله بعد ذلك «والله بما تعملون خبير» فإن كان هذا البخيل مؤمناً بالله وصفاته وعليه المحيط بكل شيء وأنه عالم ببخله ومنعه لهذا الحق الواجب ومؤمن بكرمه ووفائه بعهده وأنه وعد المنفق بالعوض المضاعف ومع كلّ هذا يبخل بما أمر أن ينفقه فهذا هو من موارد التمييز «حتى يميز الخبيث من الطيّب».

قوله تعالى : كل نفس ذائقة الموت و انما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار و ادخل الجنة فقد فاز و ما الحياة الدنيا الا متاع الغرور (١٨٥).

أمّا الجملة الاولى وهو قوله: «كل نفس ذائقة الموت» فلا يشك فيها أحد، و كل فرد يعلم علماً يقيناً أنّ مصيره الى الموت مهما كان دينه ومهما كانت عقيدته، ولكن ينبغي العلم في كيفية الموت وحالاته وأطواره ، ومايراه المرء حين الموت ، وما يسمعه من امور تسره رؤيتها وسماعها أو يسوؤه ذلك .

قال تعالى في سورة القيامة « كلاّ اذا بلغت التراقي * وقيل من راق * وظنّ أنه الفراق * والتفّت الساق بالساق * الى ربّك يومئذ المساق »[1] .

أمّا التي تبلغ التراقي فهو روح الانسان حين خروجها من جسده ، فإذا وصلت الى التراقي يقطع بأنه الموت ، ولكن أمله لاينقطع عن الدنيا و يأمل العود إليها ، ويأمل أن تعود الروح الى جسده ويبرأ من مرضه ، ولذا يقول : هل من راق .

(١) القيامة: ٢٦ـ ٣٠.

فقد روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه سئل عن قول الله عزّ وجلّ «وقيل من راق» قال: ذلك قول ابن آدم اذا حضره الموت قال: هل من طبيب؟ هل من دافع؟ قال: «و ظنّ أنه الفراق» يعني فراق الأهل و الأحبة عند ذلك، قال: « والتفّت الساق بالساق»؟ قال: التفّت الدنيا بالآخرة، قال: «الى ربك يومئذٍ المساق»؟ قال: الى ربّ العالمين يومئذٍ المصير(١).

وروي أنه قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت، قال: على الخبير سقطتم، هو أحد ثلاثة امور يرد عليه : إمّا بشارة بنعيم الأبد، و إمّا بشارة بعذاب الأبد ، وإمّا تحزين وتهويل وأمره مبهم لايدري من أيّ الفرق هو. فأمّا وليّنا المطيع فهو المبشّر بنعيم الأبد، وأمّا عدونا المخالف علينا فهو المبشّر بعذاب الأبد ـ ، وأمّا المبهم أمره الذي لايدري ما حاله وهو المؤمن المسرف على نفسه لايدري ما يؤول إليه حاله يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثم لن يسويه الله عزّ وجلّ بأعدائنا لكن يخرجه من النار بشفاعتنا، فاعملوا وأطيعوا ولا تتكلّوا ولا تستصغروا عقوبة الله عزّ وجلّ، فإنّ من المسرفين من لاتلحقه شفاعتنا إلا بعد عذاب ثلثمائة ألف سنة(٢).

فعلى هذا يكون الانسان حين الموت مفاجأً بأحد هذه الامور الثلاثة ،وهي امور مهمّة لا ينبغي للانسان أن يتسامح في تحصيل الأول منها وهو البشارة بنعيم الأبد ، و لو كان هذا الأمر لا يحصل إلا بترك الدنيا بأجمعها لأنّ هـذه البشارة تضمن له النعيم الى ما لانهاية له فليس من العقل التسامح به و هو لا يحتاج الى زيادة عمل تشغله عن امور دنياه اللازمة له .

فقـد سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له : ما الاستعداد للموت ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم والاشتمال على المكارم، ثم لا يبالي أوقع على الموت أم

---

(١) تفسير البرهان: ج٤ ص٤٠٨.

(٢) معاني الاخبار: ص٢٨٨.

وقع الموت عليه ، والله ما يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه[1].

وهذه الامور التي جعلها الامام استعداداً للموت هي الصفات التي وصف الله ورسوله بها المؤمنين في مقامات عديدة ، فالمؤمن هو الذي يؤدي الفرائض التي أوجبها الله عليه و يجتنب المحرمات التي نهاه الله عنها ، وأمّا الاشتمال على المكارم فالشرع والعقل يحكمان بحسنه .

فإذا اجتمعت في المرء هذه الامور الثلاثة كان من المؤمنين ، والله تعالى قد وعد المؤمنين بالأمن والأماني عند الموت وبعده ، ووعده بالدرجات العلى والفوز بالجنان، ولذا قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام لمن كانت فيه هذه الخصال الثلاث :لايبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

وقد وردت الأخبار بأنّ قبض روح الكافر والفاجر في غاية الشدة و كأنه قرض بالمقاريض و نشر بالمناشير ، هذا بالنسبة الى الموت .

و أمّا ما يكون بعد الموت فهو امور شداد وأهوال صعاب ، وقد أشارت الآية الاخرى وهي قوله :**«وانما توفون اجوركم يوم القيامة»**.

هذه الآية وآيات اخر كثيرة تعرفنا بيوم القيامة و حشر الناس وحسابهم وإعطاء كل إنسان مايستحقه من الثواب أو العقاب .

ثم ذكر سبحانه في الآية أنّ النجاة والفوز العظيم الذي يتخلّص به الانسان من جميع الشدائد و الأهوال هو أن يعطى الانسان براءة من النار ، والآية هي قوله تعالى : **«فمن زحزح عن النار و ادخل الجنة فقد فاز»**

لقد نزلت الآيات الكثيرة في وصف الجنة و النار و كذا وردت الروايات في وصفهما، وذكر النبي صلى الله عليه وآله لمّا اسري به الى السماء أنه رآهما ثم وصفهما لنا .

وفي الآيات والأخبار الحث و التشويق على اكتساب الجنة والتحذير الكثير في الابتعاد عن النار، والعقل السليم يحكم حكماً باتاً على وجوب الابتعاد عن الضرر

(١) بحار الانوار: ج٧١ ص٢٦٣ ب ٧٦ ح١ .

المتيقن وعن الضرر المظنون أو المحتمل.

ثم نبّهنا الله تعالى على أنّ الدنيا شيء زائل ولا ينبغي للعاقل أن يرضى بشيء زائل بدلاً عن شيء دائم ثابت أحسن من ذلك الزائل بأضعاف مضاعفة ، بل الدنيا كلها من أولها الى آخرها لا تساوي لذة ساعة من ساعات الآخرة.

فتأمل أيها العاقل في قوله تعالى: **«وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور»**.

كل إنسان لابدّ وأن يكون قد ابتلي في عمره يوماً بإنسان غرّه وخدعه وباع عليه شيئاً معيباً لا يساوي عشر القيمة التي اشتراه بها . فهذا الانسان المخدوع المغرور تراه يأسف غاية الأسف حتى أنه يريد أن يقطع أنامله من الغيظ على ذلك البائع الذي غره وخدعه . فالله سبحانه يمثل الدنيا كلها بأسرها بما فيها من زينة وفتنة وملاذ ونعيم يمثلها بسلعة اشتراها إنسان فظهرت معيبة غره البائع بها فندم عليها المشتري ، وهذه السلعة تمتع بها صاحبها ساعة من الدهر ثم انقضت ولم تعد ، فالذي ينهمك في الدنيا وينغمس في ملاذها ويغفل عن آخرته ويترك واجباته يكون آخر أمره الندم والأسف . وأمّا الذي يعمل لآخرته ولا يأخذ من الدنيا إلا مقدار بلغته التي تؤديه وتوصله الى عمل الآخرة فهذا هو الناجح وهو الفائز الذي فاز بدخول الجنة والبُعد عن النار .

وحيث إنّ هذه المنزلة وهذا المقام لا ينال بالتنعم والراحة وإنما يحصل بالعناء والتعب والشدة في الدنيا ، فقد نبّهنا الله لذلك فقال تعالى :

لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور (١٨٦).

المقصود من البلوى هو الاختبار والامتحان لأجل أن يتميّز الخبيث من

الطيّب والمطيع من العاصي والمؤمن من المنافق ، ثم الابتلاء تارة يكون بالأموال وقد قدمت على النفوس في هذه الآية ، فإنّ بعض الناس يقدم ماله على نفوس سائر البشر ، والابتلاء بالأموال هو إخراج حقوق الله منها وما يصيبها من التلف، وتارةً يكون الابتلاء بالنفوس ، وهو على أنواع ، إمّا قتل أو أسر أو جرح أو مرض أو غيرها مما تكون معرضة له .

وهذه الامور التي ترد على الأموال والنفوس اذا كانت في سبيل الله وفي رضاه يكون بها الاختبار والابتلاء ، أمّا اذا كانت في غير سبيل الله كبذل المال في المعاصي والقتل والأسر والجرح وفي حروب جاهلية غير شرعية فهذه مما يعاقب عليها الانسان.

وبعدما أخبرنا الله أنه يختبرنا بالمال والنفس أخبرنا بأن يختبرنا أيضاً بما يؤذينا من الكلام الذي نسمعه من اليهود والنصارى والمشركين . وهذا الكلام الذي يؤذي المؤمنين كان في الزمان الأول هو هجاء النبي ﷺ والطعن في الدين وشتم المؤمنين وسبّهم، فإنه كان يؤذي المؤمنين ، وقد أخبرهم به الله قبل وقوعه ليوطنوا عليه أنفسهم حتى اذا سمعوه لا يخرجون عن حالاتهم الطبيعية ويتمكّنوا من الصبر.

أمّا في زماننا هذا فالمسلمون يؤذيهم من الكلام ما يقال لهم إنكم غير متمدنين وإنكم متمسكون بامور كم القديمة فأنتم رجعيون وهذا الزمان يلزمه أشياء جديدة ، وإذا قالوا له ذلك يحمله هذا الكلام على رفض الدين و الأخذ بقواعد اليهود والنصارى .

وذكر بعض المفسرين أنّ الآية نزلت في رجل من اليهود اسمه كعب بن الأشرف ، فإنه كان يهجو النبي والمؤمنين ويحرض المشركين عليهم ويشبب بنساء المسلمين، فقال النبي ﷺ من لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن سلمة: أنا يا رسول الله، فخرج هو وأبو نائلة مع جماعة فقتلوه غيلة وأتوا برأسه الى النبي آخر الليل[1].

(١) مجمع البيان : ج١٠ ص ٥٥١.

وقـد بلغ عدد المسلمين اليوم (٧٠٠) مليون نسمة [٢] واليهود ينادون من إذاعاتهم بسب هذه الفرقة من المسلمين وعيب فرقة اخرى ونقد فرقة ثالثة ولا يتأذى أحد من المسلمين بذلك!

وعلى كل حال فإن الله قد أخبر المسلمين كلهم ما تعاقبوا و تناسلوا بأنه مبتليهم بهذه الامور، وهي الأموال والأنفس والسماع من أهل الكتاب ومن المشركين كلاماً يؤذيهم، ثم قال لهم: **«وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور».**

فالمؤمـن اذا ابتلي بالمال ـ أي اذا صـار صاحب مال ـ فعليه أن يخرج حقوقه الشرعية، واذا ابتلي بالنفس ـ بأحد العوارض المتقدم ذكرها ـ فعليه أن يصبر، وأن يتقي الله بحيث لا يترك شيئاً من الواجبات بسبب ابتلائه و لا يفعل شيئاً من المحرمات، واذا سمع كلاماً من أهل الكتاب مخلاً بالنبي أو بالدين أو بسائر المؤمنين أو بسائر المسلمين فعليه أن يرده ويبطل ما جاؤوا بـه، فإذا لم يتمكّن من ذلك ولايمكن أن يفعل معه كما فعلوا بكعب بن الأشرف فعليه أن يصبر و يتوكّل على الله ويطلب منه أن ينتقم من الكافر.

ثم مدح الله المؤمن الذي اتصف بهذه الصفات بقوله تعالى: **«فان ذلك من عزم الامور»** أي: المؤمن الذي يصبر ويتقي ويعتمد على الله فهو المؤمن الرشيد المصيب في أفعاله، ويلزمكم أن تكونوا كلكم مثله، فإن كنتم كذلك تكون لكم الغلبة ويكون لكم النصر وسوف تستولون على جميع العالم وتقهرون أعداءكم فكونوا كذلك تربحوا.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا و رابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون(٢٠٠).

(١) بل بلغ عدد المسلمين حسب الاحصاءات الاخيرة اكثر من مليارد مسلم.

هذه آخر آية من سورة آل عمران، وحيث إنه ذكر فيها أحكاماً كثيرة فإنه في هذه الآية يوصيكم بوصية تنفعكم في الدنيا والآخرة فقال عزّ اسمه **«يا أيها الذين آمنوا اصبروا»** و قد خصّ المؤمنين بهذه الوصية، وأنت أيها القارىء قد عرفت فيما تقدم من هو المؤمن ، هو المطيع لله في كل الامور ، هو الذي يفعل الواجبات و يترك المحرمات و يمتثل جميع الأوامر ، و هذه الوصية من جملة الأوامر ، فلابدّ و أن يمتثلها المؤمن ولايخالفها، فقد أمره الله أولاً بالصبر على كل شيء لا يصبر عليه غير المؤمن ، فالصبر على فعل الواجبات الشاق منها و غير الشاق، و لاريب أنّ غير المؤمن لايصبر عليها ، والصبر على ترك المحرمات، و غير المؤمن من لايترك المحرم الذي فيه لذة، فإنّ أغلب المحرمات لهو و لعب وزينة وتفاخر وتكاثر ولايتركها إلا المؤمن، والصبر على المشاق والأعراض والأمراض البدنية.

ثم بعد الأمر بالصبر أمرنا بقوله: **«و صابروا»** و التصابر من التفاعل الذي يكون من جانبين كما تقول: قاتل زيداً أوفاخر عمراً وضارب بكراً وصارع خالداً، فالتفاعل لايتحقق إلا من فاعلين، فيكون الظاهر من اللفظ أنّ على كل مؤمن أن يحثّ كل مؤمن على الصبر، فإذا كان كل واحد يحثّ جميع الأفراد على الصبر تحقق الصبر في الجميع، وقد تبيّن أنّ الصبر إنما هو على الأحكام التي تقدم ذكرها في هذه السورة، فالمؤمنون كلهم يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً على تنفيذ الأحكام ومقاطعة العدو ، ثم إنّ الله تعالى أمر في هذه الآية بأربعة أشياء و هي : اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله.

قال الفيض الكاشاني ـ رحمه‌الله ـ في تفسيره: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا» على الفرائض «وصابروا» على المصائب «ورابطوا» على الأئمة .كذا في الكافي عن الصادق عليه‌السلام والقمي عنه عليه‌السلام: اصبروا على المصائب، وصابروا على الفرائض، ورابطوا على الأئمة. والعياشي عنه عليه‌السلام: اصبروا عن المعاصي، و صابروا على الفرائض. و في رواية: اصبروا على دينكم ، وصابروا عدوكم ممن يخالفكم، و رابطوا إمامكم. وعن الباقر عليه‌السلام: وصابروا على التقية. وفي المعاني عن الصادق عليه‌السلام: اصبروا على

المصائب، وصابروهم على الفتنة، ورابطوا على من تقتدون به[1] انتهى.

هذا ما في الروايات وكلام المفسرين في قوله تعالى: **«ورابطوا»**.

وأمّا قوله تعالى: **«واتقوا الله لعلكم تفلحون»** فهي ـ أي التقوى ـ العمدة لما تقدمها من الامور الثلاثة، وهي الأساس الذي يبتني عليه غيره من امور الدين، فإذا رسخت التقوى في قلب أحد من العباد تمّ له كل شيء من امور الدين وحصل على كل خير، وقد علّق الله تعالى الفلاح عليها فإنّ الامور التي تقدمت عليها تابعة لها وحاصلة بحصولها، فمن تمكّن من الاتصاف بالتقوى من الطرق المأخوذة عن الله بواسطة النبي ﷺ أو بواسطة من عنده علم النبي ﷺ فقد فاز فوزاً عظيماً.

أمّا اذا كان يعمل أعمال المتقين ويتعب نفسه ولكن عن غير الطريق الذي عيّنه الله لرسوله وبيّنة الرسول لوصيه، وإنما اختاره العبد لنفسه أو اختاره له إمامه الذي لم ينصبه الله ولم يعرف جميع أحكام الله، وهذا العامل على النهج المذكور المأخوذ عن غير الله هو كما ذكره الله تعالى في قوله: «قل هل انبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً»[2].

---

(١) تفسير الصافي : ج١ ص ٣٨٠

(٢) الكهف : ١٠٣ و١٠٤ .

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً(١) .

إنّ الله تعالى ختم سورة آل عمران بالأمر بالتقوى للمؤمنين بعدما أمرهم بأحكام كثيرة في السورة، حيث إنهم مصدقون بما يقول الله، و قد أمرهم بالتقوى ليمتثلوا ما أمرهم به، وبيّن أنّ نتيجة التقوى هو الفلاح والفوز بالدرجات.

وفي هذه السورة أمر الناس جميعاً المؤمن والكافر بالتقوى، وقرن الأمر بالدليل القاطع على أنه الخالق الواحد القادر على أن يخلق من العدم نفساً واحدة، والمقصود به آدم أبو البشر عليه السلام، ثم يخلق من فضلة طينة ضلعه امرأة من جنسه ويخلق منهما هذا الخلق العظيم من رجال ونساء.

فحريّ بهؤلاء الناس أن يتقوا هذا الخالق وأن يمتثلوا أوامره ولا يخالفوه بشيء من الأشياء، وأنّ هذه العلّة موجبة للتقوى يحكم العقل بوجوبها بعد معرفة كيفية الخلق التي بيّنها الله بهذه السورة المفصلة ولم يكونوا يعرفونها من قبل بل كانوا يعرفون شيئاً مجملاً من أمر الخالق، وهو أنّ للسماوات خالقاً وهو خالقهم،

و كانوا يتساءلون به ، فكان يسأل بعضهم بعضاً بالله أن يسدي إليه نفعاً أو يدفع عنه ضراً .

و بعد ما عرفوا أنهم كلهم من رحم واحد وأنّ بعضهم رحم بعض صاروا يتساءلون بالله وبالرحم ، فإنّ الله أمرهم بالتقوى لما كانوا يعرفونه أولاً من أمر الخلق، ثم أمرهم بالتقوى ثانياً لما عرفوا من كيفية الخلق وأنّ بعضهم رحم بعض.

هذا ماعرفه سائر الناس من العالم والجاهل، وإلا فالأسباب الموجبة للتقوى كثيرة، وأنّ التقوى من أوجب الامور على العبد، ولايخلصه شيء مما يخاف منه ويحذر وقوعه عليه غير التقوى، فإنها عبارة عن ترك كل شيء يحتمل فيه أن يكون جالباً لضرر ما .

وهذا الأمر يحكم العقل بوجوبه حكماً قطعياً باتاً ليس فيه تردد ولاشك، ومن لم يعمل فيه فقد غرر بنفسه وألقاها في الهلكة، نسأل الله النجاة منها لجميع المؤمنين. هذا على عطف كلمة «الأرحام» على موضع الجار والمجرور من «به».

أمّا اذا كان معطوفاً على لفظ الجلالة وهي «الله» فيكون المعنى:

واتقوا الله واتقوا الأرحام أن تقطعوها، أي: كمايجب عليكم التوقي والتحرز عن عقاب الله كذلك يجب عليكم التحرز عن قطيعة الأرحام ، فإنّ قطع الرحم موجب للعقاب ، و قد وردت الأخبار الكثيرة في الحثّ على صلة الرحم و العقاب على قطعها كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ثم بعدما ثبت وجوب التقوى بأمر الله و بحكم العقل على الانسان و بيان علّة الوجوب كما ذكر في الآية أخبرهم الله أنّ العمل بالتقوى لايتحقق بمجرد دعواهم بأنهم عملوا بواجبهم ، بل أنّ الله يكون رقيباً عليهم فيحصي أعمالهم الموافقة للتقوى والمخالفة لها ، فقال تعالى: **«ان الله كان عليكم رقيباً».**

قوله تعالى: وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوباً كبيراً (٢) .

هذه الآية الشريفة تأمر الناس الذين أوجبت عليهم ملازمة التقوى في جميع الامور تأمرهم الآن بالمحافظة على أموال اليتامى وأن يدفعوها إليهم كاملة صحيحة من غير تصرف بها .

والظاهر من الآية أنّ الناس كانوا إذا تمكنوا من أموال اليتامى على قسمين: فبعضهم يأخذها ويضمها الى ماله ويجعلها ملكاً له ، وبعضهم يأخذ الجيد منها ويعطيهم مثله من المال الرديء ، وقد نهاهم الله عن كلا الأمرين وأمرهم بدفع أموالهم بنفسها على ما كانت عليه فقال تعالى **«وآتوا اليتامى أموالهم»** .

وهذه جملة واضحة يعرفها كل عربي يريد أن يطيع الله . أمّا الذي يريد أن يعصي الله فيقول: إني لا أعرف معنى هذه الجملة، ولعلّ الشيطان يوحي إليه بعض الكلمات الموجبة للتشكيك فيأكل مال اليتيم ولا يدفعه إليه .

وأمّا قوله : **«ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب»** فيمكن أن يكون المراد : لا تأخذوا أموالهم المحرمة عليكم وتعطوهم أموالكم الطيبة المحلّلة لكم ، أو لا تأخذوا أموالهم الجيدة الطيبة وتعطوهم أموالكم الرديئة الخبيثة، أو لا تتبدلوا أموال الدنيا الفانية الخسيسة بأموال الجنة الباقية الطيبة ، أو لا تتعجلوا الأموال المحرمة قبل أن يأتيكم الرزق الحلال الذي قدر لكم، أو لا تأخذوا الارث وحدكم أيها الكبار وتحرمون النساء والصغار منه، وقد اختارت كل فرقة أحد هذه الأقوال.

أمّا قوله : **«ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم»** أي : لا تضيفوا أموالهم الى أموالكم فتأكلوها جميعاً ، ولا تخلطوا الجيد من أموالهم بالرديء من أموالكم فتأكلوها فإنه في ذلك إجحافاً وإضراراً بهم .

قوله تعالى : **«انه كان حوباً كبيراً»** الحوب : هو الاثم والذنب ، أي: من يأكل شيئاً من أموال اليتامى بأيّ طريق كان مما تقدم ذكره فقد ارتكب ذنباً

عظيماً كبيراً، والشيء الذي يصفه الله بالكبر لا يمكن للانسان أن يتصوره ويقدره، فليس له إلا الفرار عنه والتخلص منه، وقد نزلت آيات ووردت أحاديث في عقاب أكل مال اليتيم ونكتفي بقوله تعالى: «إنّ الذين يأكلون مال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً»[1] فلمأكل المرء من مال اليتيم بمقدار ما يقدر أن يكون في بطنه من النار، أعاذنا الله من مال اليتيم ومن النار.

قوله تعالى: وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً (٩).

هذه الآية والتي بعدها فيهما تهديد بعقاب دنيوي وعقاب اخروي، وفيهما تعليم وتأديب للمسلمين في كيفية معاملة أيتام الناس وكيفية معاملة من يتركونه من أولادهم الصغار بل الكبار أيضاً، فإنّ في تفسير الآية أربعة أقوال كما ذكر الشيخ الطوسي في التبيان:

أحدها: النهي عن الوصية بما يجحف بالورثة فيكون النهي موجهاً الى الموصي بأن يرأف بأولاده ولا يضرّ بهم بصرف ماله في حياته، بل يوصي بثلث ويترك الباقي للورثة.

الثاني: أن يكون الخطاب لمن يحضر عند الموصي المريض المشرف على الموت من أصحابه، حيث كانوا يقولون له: عليك بنفسك لا تحرمها ولا تبق المال لأولادك واصرفه على نفسك، فنهاهم الله عن ذلك ونصحهم بأن يرأفوا بأولاد الميت كما يرأفون بأولادهم، وأن يحبوا لهم ما يحبون لأولادهم.

الثالث: أن يكون الخطاب لمن يتولى حال اليتيم. وهو كل من يكون وصياً وقيّماً على بعض أيتام الناس، فيأمره أن يكون أميناً محافظاً على هذا اليتيم وعلى ماله الذي بيده كما يحافظ على ولده وعلى ماله، وكما يجب أن يكون الولي والقيّم على مال ولده أميناً محافظاً غير خائن ولا متساهل ولا متسامح في

---

(١) النساء: ١٠

حفظ مال ولده فليكن هو كذلك ، فإن صار كذلك هيأ الله لولده من يحافظ عليه وعلى ماله.

وأمّا إذا كان هو غير محافظ أو أنه ارتكب شيئاً من الخيانة يكون الولي على أيتامه مثله، فمن شاء أن تحفظ أيتامه من بعده في أنفسهم و أموالهم فليحفظ أيتام الناس .

الرابع : أن يكون الخطاب لمن يمنع المسلم أن يوصي لأقاربه بشيء من المال فيقولون للمريض: اترك مالك لأولادك و وفّر عليهم ولاتعطه لغيرهم[1].

ولايخفى على القارىء أنّ الأقوال الأربعة كلها راجحة و مروية، وأنّ الأخذ بها راجح أيضاً.

وأمّا الآية التي بعد هذه الآية فهي قوله تعالى:

ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً (١٠).

فتفسيرها في بطون آكلي أموال اليتامى فمن شاء الاطلاع على تفسيرها إن كان من الآكلين لأموال اليتامى فسوف ينظر الى بطنه اذا القي في السعير، وإن كان من غير الآكلين وأحبّ الاطلاع عليهم فإنه سينظر إليهم، نسأل الله أن يجير المسلمين منه.

قوله تعالى :يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان لـه

(١) تفسير التبيان : ج ٣ ص ١٢٤ وفيه اضافة

ولد فان لم يكن له ولد و ورثه أبواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله ان الله كان عليماً حكيماً (١١) ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين و لهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو اخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم (١٢).

إنّ هاتين الآيتين ليستا من موضوع هذا السفر، فإنّ أحكامها وإن كانت لازمة على كل أحد ولكنها ليست من الصفات التي نحن بصددها و هما في بيان فرائض ورثة الميت الذي انسلخ عن ملكيته ما كان يملكه حال حياته، وقد عيّن الله لملكية ماله اناساً آخرين ورتبهم على طبقات، وأنّ الطبقة المتأخرة لاترث مع وجود الطبقة المتقدمة.

ولايجوز لأحد غير الطبقة التي عيّنها الله أن يأخذ من المال الموروث شيئاً، فإنّ الورثة يكون فيهم الكبار و الصغار والحاضر والمسافر و العاقل و المجنون والسفيه والرشيد والذكر والانثى، فيلزم أن يشخّص لكل فرد حقه المعيّن له

ويعطى بيده إن كان بالغاً عاقلاً رشيداً، وإلا فيودع عند شخص أمين ليصرف عليه حسبما تقتضيه مصلحة القاصر حتى يبلغ سنّ الرشد.

وبعد أن بيّن سبحانه طبقات الوارثين قال عزّ اسمه :

تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣).

أي : أنّ هذه السهام وهذه الفروض التي فرضها الله لكل واحد من الآباء والامّهات والأولاد والبنات والاخوة والأخوات وغيرهم من طبقات الورثة هي حدود الله . والحدّ هو الحاجز الذي يكون بين الدارين أوالحديقتين أوبين قطعتي الأرض فإذا جعل الملك القوي أو جعلت لجنة التحكيم حداً بين أرضها أو حديقتها وبين أرض أوحديقة لشخص آخر وكان ذلك الشخص ضعيفاً حقيراً مهيناً فقيراً ذليلاً ليس له قدرة على أن يتحرك بحركة واحدة بالنسبة الى هذا الحد ، ثم إنه تجاوز الحدّ في بعض الأيام وأخذ من أرض اللجنة الحاكمة فما ترى الذي تفعله اللجنة في حقه وهي ذات القوة والشوكة والسيطرة ؟ فإذا حكمت عليه بالاعدام فليس عليها لوم وهو مستحقّ للعقاب .

من هنا نعرف أنه ليس لأحد من عباد الله أن يتعدى هذه الحدود لا نبي ولا وصي ولا ولي ولا ملك مقرب ، فإذا خرقها أحد فهو فرعون هذه الامّة ، له ما لفرعون من العذاب . وقد أعدّ الله سبحانه لمن يطيعه ويطيع رسوله ولا يتعدى هذه الحدود «**جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم**».

أمّا من خالف هذه الأحكام السماوية فإنه مستحق لعقاب الله وسخطه، وقد شاهدتم وشاهدنا عاقبة الكثيرين ممن خالفوا سنن الله وأحكامه، وقد سبقت الاشارة الى أحد الظلمة[1] فإنه استولى على أحكام المسلمين الذين ينبغي لهم العمل بها وأخذ

(١) المقصود به هو عبدالكريم قاسم الرئيس الاسبق للعراق .

يحكم برأيه من دون مجلس نيابي ولا رجال شورى و جعل في أول أمره يرقه على الناس ويعمّر البلاد، وقد أنس أغلب الشعب بحكمه.

ثم بعد ثلاث سنين أصدر كراساً مشتملاً على مواد عديدة سمّاه « قانون الأحوال الشخصية» فذكر من جملة قوانينه أنّ البنت والولد مشتركان في الارث على السواء، وينسخ بزعمه قول الله تعالى: « للذكر مثل حظّ الانثيين »[1] وقد كلّمه العلماء ونصحوه في العدول عن هذه الفكرة فلم يقبل منهم ولم يلتفت الى قوله تعالى في من يخالف هذه الاحكام: «ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها و له عذاب مهين »[2] فأمهله الله سنة كاملة لكي يستمع نصائح العلماء ومواعظ الصلحاء، فلمّا أبى وامتنع عن قبول شيء منها أخذه الله أخذ عزيز ذي انتقام حتى أنه لم يعلم أحد أين صار جسده، فهذه الحادثة تكون عبرة لغيره من ذوي الأمر فلا يغرّهم بالله الغرور.

قوله تعالى : انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم و كان الله عليماً حكيماً (١٧).

فذكر الله في الآيتين السابقتين أنّ من يأتي من الناس بالفاحشة وهي الزنا أو هو مع غيره من اللواط والسحق فجزاؤهما أن يؤذيا حتى يتوبا ويصلحا، فإذا تابا فكفوا عنهما، وذكروا في كيفية الايذاء التوبيخ والتعيير وأضاف بعضهم الى التعيير الضرب بالنعل.

وفي هذه الآية بيّن الله كيفية التوبة وزمانها وتعهد بقبولها إن كانت جامعة

(١) النساء : ١١ و ١٧٦

(٢) النساء : ١٤

المشروط ، فقال عزّ وجلّ : «**انما التوبة على الله**» أي : قبول التوبة أمر لازم على الله ، فهو وعد من الله لعباده أن يقبل توبتهم اذا كانت جامعة للشروط ، ثم بيّن شروط التوبة بقوله: «**للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب**» أي: أنّ الله يقبل توبة الذين يعملون السوء ، والمقصود من السوء هو معصية الله وعمل ما لا يرضى به الله ولا فرق بين المعصية الكبيرة و الصغيرة ، والمراد من الجهالة هي الفكرة أو السبب الذي يدفع العبد و يحمله على عمل المعصية ، فإنّ المعصية كلما كانت أعظم كشف عن عظم جهله .

أمّا اذا كان داعي المعصية مضادة لله في حكمه ، ودعوى أنّ حكم الله لا يناسب هذا العصر ، وأنّ الذي يراه العاصي من الحكم هو المناسب لعصره ، فهذا الرجل أشدّ جهلاً وأكثر سفاهة بل هذا هو الكفر ، فكل من يعمل شيئاً من المعاصي إنما يعمله عن سفاهة وجهل .

روى العياشي عن الامام الصادق عليه‌السلام أنه قال : كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه، وقد قال في ذلك تبارك وتعالى يحكي قول يوسف لاخوته : «هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون» فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله [1] .

ففي هذه الآية قد وعد الله عبده العاصي اذا تاب عن المعصية أن يتوب عليه.

وقد عرّفوا التوبة بأنها عبارة عن الندم على فعل السوء مع العزم على أن لا يعود الى مثله في القبيح [2] .

وقال بعضهم : يكفي في تعريفها الندم على فعل القبيح [3] .

وأمّا العزم على عدم العود فهو شيء خارج عن حدّ التوبة بل هو أمر آخر يعزم عليه الانسان وقد ينفسخ هذا العزم في حينه اذا تهيئت له تلك المعصية أو

(١) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٢٨ ح ٦٢ والاية ٨٩ من سورة يوسف .

(٢و٣) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢١.

غيرها ، ولكن هذا القول لا ينطبق على حقيقة التوبة لأنا بعدما عرفنا أنّ العبد لا يعصي الله إلا أن يكون في حالة سفه ونقصان رشد وهو المعبّر عنه بالجهل في الآية ، فهذا العبد العاصي ما دام على تلك الحالة من الجهل والسفه يكون مصراً على معصيته ولا يحصل عنده ندم عليها .

أمّا اذا رجع إليه رشده أو آب هو الى رشده فحينئذٍ يحصل الندم ولا يعود الى رشده إلا أن يلتفت الى عظمة الله القادر على ما يريد ، ويتذكّر وعيد الله بالنسبة الى العاصي ، ويتأمل في عقاب الله الشديد الذي لا يشبهه عقاب الدنيا ، وينظر الى بدنه الضعيف الذي لا طاقة له على هذا العقاب ، وبعد معرفة هذه الامور يعرف نفسه أنه كان جاهلاً سفيهاً حين ارتكاب المعصية ، ويلزمه أن يخلص نفسه من عقاب هذا السوء الذي وقع فيه ، وأن لا يوقع نفسه مرة اخرى فيه وفي أمثاله ، ولا يمكنه التخلّص إلا بترك ذلك الجهل والسفه والرجوع الى حالة الرشد والتمسك بحكم العقل .

وهذا لا يتحقق إلا بالندم على ما فعل ملازماً للعزم على عدم العود ، فإنّ الندم وحده لا يرفع العقاب عنه ، وإلا فكل العصاة يتحقق منهم الندم عند معاينة الموت وبعد الموت وعند الحشر وعند الحساب ولا ينفعهم ذلك في تلك الأحوال ، وإنما ينفع الندم اذا كان العاصي متمكّناً من تلك المعصية مرة اخرى ولكنه عرف ضررها وسوء مغبتها فندم على فعلها ، ولازم هذا أن يكون الندم ملازماً للعزم على عدم العود . حيث إنه مع الاصرار على المعصية لا يمكن أن تتحقق منه التوبة .

وأمّا قوله تعالى : «ثم يتوبون من قريب» فقد اختار أكثر المفسرين أنّ القريب هو ماقبل الموت[1] ولكن المتبادر من إطلاق لفظ القريب أنه الزمن المتصل بصدور المعصية من العبد ، وأنّ العقل يحكم حكماً باتاً بأن التوبة واجبة حين

---

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٢٢ .

صدور المعصية، فإنّ المعصية اذا صدرت من العبد المملوك الضعيف وهو يعلم أنّ هذه المعصية يستحقّ عليها نوعاً من العذاب بمقتضى القانون الالهي يحكم عليه العقل السليم أن يسعى ويجتهد بالطرق التي ترفع عنه هذا العقاب، إذ أنه يسبب هلاكه ، وأنّ أقرب طريق وأنجحه في رفع العقاب هو التوبة اعتماداً على وعد الله ، ففي تلك الساعة التي صدرت منه المعصية يلزمه تداركها حتى لا يسجل عليه العقاب .

و يؤيد هذا ماورد في الأخبار أنّ الله قد أمر الملك الكاتب للسيئات أن يؤجل الكتابة مدة فلعلّ العاصي يتوب فلاتكتب عليه، واذا انقضت المدة ولم تتحقق التوبة حينئذ يسجلها الملك الموكّل بالعبد، وهذا لاينافي القبول من الله الى وقت الموت وذلك لأنّ العاصي مكلّف بالتوبة شرعاً وعقلاً حين المعصية، فإذا لم يمتثل هذا الأمر فهو عاص و في الساعة التي تليها هو مكلّف بالتوبة أيضاً، و هكذا في كل ساعة تمرّ عليه ولايتوب فهو عاص مأمور بالتوبة ، فإذا تحققت منه التوبة في زمن كونها مقبولة فقد تحققت من قريب لأنها متصلة بالمعصية ، فإذا انقضت المدة بحضور الموت لاتقبل منه حين ذاك لانتفاء موضوعها كما تقدم من أنها عبارة عن الندم مع العزم على الترك ، وحيث لايتحقق العزم على الترك لانتهاء الزمن المقرر له لذا لايتحقق موضوع التوبة، وقد نزلت آيات كثيرة في الحثّ على التوبة وكذا وردت الأخبار الكثيرة بوجوب التوبة والمبادرة إليها .

وكذا يحكم العقل بالمبادرة لعدم علم المذنب بوقت الموت وقدومه ، فقد يرد عليه الموت فلا يمكنه إحداث التوبة فيموت مصراً على المعصية ، ففي كل حين العقل يحثّ المذنب ويأمره بالتوبة ولكن الانسان لايلتفت الى هذا الحكم، وأنّ الآية التي بعدهذه الآية توضح لنا هذا المعنى الذي ذكر من انتفاء الموضوع

وهي قوله تعالى:

و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الان ولاالذين يموتون وهم كفار اولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً(١٨).

إنّ هذه الآية الشريفة تبيّن لنا أنّ الذين يعملون السيئات اذا لم يتوبوا قبل حضور الموت وبقوا مصرين على المعاصي الى أن حضرهم الموت وعاينوا أهوال الآخرة و في تلك الساعة يقولون ربنا إنا تبنا إليك فإن التوبة لاتقبل منهم لأنهم بمعاينة أهوال الآخرة خرجوا من الدنيا.

والتوبة إنما تقبل في الدنيا كما تقدم حيث يمكنهم المعصية فيتوبون منها، أمّا اذا لم يمكنهم أن يفعلوا المعصية فمن أيّ شيء يتوبون؟ فلاموضوع للتوبة وإنما هو الندم وحده حين حضور الموت و حين قبض الروح، فإنّ كيفية قبض روح المجرم غير كيفية قبض روح المؤمن، و كذا الندامة باقية مستمرة في القبر وعند سؤال منكر ونكير وعند البعث وعند الحساب وعند الصراط وفي النار إن لم يكن محلاً للشفاعة، فإن شملتهم رحمة الله بشفاعة أحد أو بغير شفاعة وإلا فليس لهم إلا الندامة والعذاب.

و قد ورد في الأخبار أنّ البعض لاتلحقه الشفاعة إلا بعد ثلاث مائة سنة[١] فينبغي للعاقل أن يبادر الى التوبة في يومه قبل غده وفي ساعته قبل التي تليها.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ليس شيء أحبّ الى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة[٢].

---

(١) بحارالانوار: ج ٧٣ ص ٣٣١ ب ١٣٧ فى بيانه لحديث ١٦.

(٢) بحارالانوار: ج ٦ ص ٢١ ب ٢٠ ح ١٥.

وروي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال: إنّ الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدهما، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها[1].

تكملة نافعة

إنّ كلمة الجهل اذا اطلقت إنما يراد عدم العلم، وهذا المعنى هو الذي ينصرف الى الذهن عند سماعها، سواء كانت النفس خالية عن العلم بالشيء أو معتقدة بالشيء خلاف ما هو عليه، فإنّ كلا الأمرين يسمّى جهلاً.

ولا يمكن حمل الآية على أحد هذين الأمرين، فإنّ الظاهر من الآية أنّ عامل السوء عالم بأنه سوء حين عمله وأنه مأمور بتركه وأنه يحتاج الى التوبة، والأولى حمل الجهل على غير الأمرين وهو فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، فكان العامل للشيء يخرج نفسه من مقام العلم الى مقام الجهل، أو يهبط بنفسه ويرجع بها من زمن الشريعة ووجود النبي المشرع الى زمن الجاهلية وعدم وجود النبي، وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى: «قالوا اتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين»[2] فهو ـ أي العامل ـ يتجاهل مع كونه عالماً، فهو قد حقر نفسه حيث أنزلها من مرتبة العلم الى هوة الجهل، وترك ما يأمر به العقل واتباع ما تجرّ إليه الشهوة أو الغضب ونبذ ماترشد إليه الشريعة المستمدة من الله والرجوع الى ما يفعله أهل الجاهلية كما في قوله: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى»[3].

فكل أمر من الامور التي يفعلها المسلم اذا كان تاركاً لحكمه الشرعي وفعله بخلاف ما حقه أن يفعل فقد رجع الى الجاهلية، ولذا لمّا رأى بعض الادباء كثرة

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٣١٦ ح ٨.
(٢) البقرة: ٦٧.
(٣) الاحزاب: ٣٣

ما يركبه الناس من الخلاف بعد النبي ﷺ قال من جملة قصيدة :

والناس عادت إليهـم جاهليتهم ... كأنّ من شرع الاسلام قد افكا[1]

وقد يكثر هذا الفعل من بعض الناس فيترك أكثر الواجبات أو كلها ويفعل أكثر المحرمات أو كلها فيكون منسلخاً عن الشريعة و كأنه من أهل الجاهلية، أو أنه يفعل بعض الواجبات ولكن لا يأخذه عن النبي وإنما يفعله برأيه، ويستفاد هذا الأمر من قول النبي ﷺ: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية[2].

فهذا الكلام من النبي مطلق وشامل للعامل لبعض الواجبات والتارك لبعض المحرمات ، أو التارك لجميع الأحكام ولكنه يفعل ويترك برأيه أو برأي غير إمام زمانه ، وأنّ هذا الأمر الواحد يسبب للانسان الموت على الجاهلية ، أمّا الذي يعرف إمام زمانه اذا ارتكب محرماً أو ترك واجباً فيكون رجوعه الى الجاهلية وانسلاخه من الشريعة بالنسبة الى ذلك الفعل فحسب .

فالانسان العاقل اذا تأمل في الآية الشريفة وعرف المعنى والمغزى من قوله تعالى «بجهالة» لا ينبغي له أن يعمل سوء ويفعل خلاف أمر الله، فإنه بعمله هذا يخالف الله ويخرج نفسه عن الشريعة الاسلامية ويجعلها من الجاهليين، وهذه خطوة عظيمة الخطر لأنه لايعلم أنه يوفق للتوبة أو لا يوفق ، فإذا مات على غير توبة لا يمكنه التدارك هناك .

والمقصود من الجاهلية هو المعنى الحقيقي لها وهو عدم العلم ، فإنها اذا اطلقت يراد منها الحالة التي كانت عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله ورسوله وشرايع الدين، والأعمال التي كانوا يعملونها كلها ناشئة عن هذا الجهل، ولو أنهم رجعوا الى العقل وحكمه لأرشدهم الى الحسن ونهاهم عن القبيح، ولكنهم أهملوا العقل وحكمه إلا القليل منهم ، وأنّ الذي يجهل في هذا الزمان أشدّ عقاباً وأكثر لوماً لقيام الحجة عليه .

---

(١) الدر النضيد :ص ٢٤١ ، وهذا المقطع هو من قصيدة للسيد جعفر الحلي .

(٢) سفينة البحار : ج ١ ص ٣٢ مادة «امم» .

ينبغي لكل أديب ولبيب أن يتأمل في كلمة النبي ﷺ التي مرت عليه قبل أسطر وهي قوله: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. فمن هو الامام الذي يقصده النبي ويلزم امّته بمعرفته؟ وهل يقصد كل من يتزعم على الناس بالقوة والقهر وإن كان فاسقاً فاجراً؟ كلّا وحاشا أن يعمّ كلامه مثل هذا، وإنما يقصد الامام الذي يأمر بالمعروف ويعمل به، وينهى عن المنكر وينتهي عنه، الامام الذي لا يجهل شيئاً من أحكام الدين يعرف الحلال والحرام، الامام الذي يعرف تأويل القرآن، الامام الذي لا يحتاج الى غيره في شيء من الأشياء.

أمّا الامام الذي يرتكب المحرمات ويترك الواجبات ويجهل الأحكام فينبغي للناس مقاطعته وهجرانه، فإنّ الله والرسول يريدان من الناس معرفة الامام العادل فعليك بمعرفته فإنك تنفع نفسك.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (١٩).

إنّ الله قد وجّه النداء في هذه الآية الى المؤمنين و نهاهم عن أشياء كانوا يعملونها في الجاهلية، فأول شيء نهاهم عنه في قوله: «**لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً**»، وقد ذكروا في معنى ذلك أقوالاً:

الأول: ما ذكر عن أبي جعفر عليه السلام واختاره جماعة هو أن يحبس الرجل المرأة عنده لا حاجة له إليها و ينتظر موتها حتى يرثها فنهى الله تعالى عن ذلك[١].

الثاني: ما كان يعمله أهل الجاهلية وهو أنّ الرجل اذا مات وترك امرأة يأتي وارثه فيطرح الثوب على رأسها إن لم تكن امّه و يقول ورثت امرأته كما

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٤.

ورثت ماله، فإن شاء تزوجها بالصداق الأول ولايعطيها شيئاً، و إن شاء زوّجها وأخذ صداقها، وهذا مروي أيضاً عن أبي جعفر واختاره جماعة[١].

الثالث: ما روي عن الصادق عليه السلام وهو : أنّ الرجل تكون في حجره اليتيمة القريبة له فيمنعها من التزويج اضراراً بها[٢].

الرابع: ما قيل إنّ المعنى ليس لكم أن تسيؤوا صحبتهنّ ليفتدين بمالهنّ أو بما سقتم إليهنّ من مهورهن[٣].

أمّاقوله تعالى: «ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن» ففيه أقوال:

الأول : أن يكون المقصود منه الزوج ، أمره الله بتخلية سبيل زوجته اذا لم يكن له فيها حاجة، ولايمسكها اضراراً بها حتى تفتدي ببعض مالها[٤].

الثاني : أن يكون المقصود بالنهي الوارث ، نهاه الله عن منع المرأة من التزويج كما كان يفعل أهل الجاهلية[٥].

الثالث: أن يكون المقصود منه الولي، كما عن مجاهد[٦].

الرابع: ما حكي عن ابن زيد إنّ المقصود منه المطلّق يمنعها من التزويج، كماكانت تفعل قريش في الجاهلية، ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة، فإذا لم توافقه فارقها على أن لاتتزوج إلا بإذنه، فيشهد عليها بذلك و يكتب كتاباً، فإذا خطبها خاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها، وإن لم تعطه عضلها، فنهى الله عن ذلك[٧].

و هذه الوجوه التي ذكرت كلها حرمها الله فلا مانع من إرادتها كلها من الآية .

أمّاقوله: «الا أن يأتين بفاحشة مبينة» فهو استثناء من قوله: «ولاتعضلوهن» فإنّ العضل هو الحبس والمنع عن الزواج، وقد استثنى منه صورة إتيانهنّ بفاحشة.

---

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢٤ .

(٢) تفسير البرهان : ج ١ ص ٣٥٤ .

(٣-٧) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢٤ .

أمّا الفاحشة فقال بعضهم : هي الزنا [١] وقال بعضهم : النشوز [٢] والمروي عن أبي جعفر أنها كلّ معصية [٣] وفي رواية عن الصادق عليه السلام إذا قالت له : لا أغتسل لك عن جنابة ، و لا أبرّ لك قسماً ، ولاوطئنّ فراشك من تكرهه ، حلّ له أن يخلعها ويحلّ له ما أخذ منها [٤].

أمّاقوله تعالى : «**وعاشروهن بالمعروف**»فقدأمر الله الرجال بأن يعاشروا النساءبالمعروف، وأن لايميلوا في المعاشرةميلاً بسبب للنساء خروجهنّ من طاعةالله وطاعة زوجها، فإذا كانت معاشرة الرجل لزوجته حسنة جميلة فإنها تهدأوتسكن ولا تعمل شيئاً يؤذي زوجها .

ولعلّ أمرالله الرجل بالمعاشرة بالمعروف بعدإتيان المرأة بالفاحشة المبيّنة ولذا وصفهم بالكره لهنّ فقال تعالى : «**فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**».

والكراهة إنما تحدث بعد رؤيته منها مايكره ، فهي وصية من الله للرجال بالصبر والتأني عن الطلاق و عدم المسارعة إليه ، ولعلّ هذا الصبر والتأني يكون سبباً للخير الكثير يأتي من هذه المرأة ، مثل ولد صالح أو كثرة النسل أو أنها هي تصير صالحة وتبدل أخلاقها، وقد وردت أخبار كثيرة تأمر بالتأني عن الطلاق وعدم المسارعة إليه .

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الاأن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيماً (٢٩) .

(١-٣) مجمع البيان : ج ٣ ص ٢٤ .

(٤) سفينة البحار : ج ١ ص ٤٠٨ مادة «خلع» .

قد عرفت فيما سبق أنّ المؤمن هو الذي صدق بالله ورسوله وعمل بما يأمران به من فعل أو ترك ، وفي صدر هذه الآية قد نهى الله المؤمنين أن يأكل بعضهم من أموال بعض بوجه باطل منهيّ عنه من قبل الله، وهذا يشمل جميع الوجوه المحرمة التي تؤخذ من غير رضا أصحابها وإن لم يمنع صاحبه عن أخذه ولكنه غير راض وذلك كالمال المأخوذ في الربا أو القمار أو الظلم بجميع أنواعه ، و لا يحلّ لكم التصرف بمال غيركم بجميع أنواع التصرف إلا عن طريق التجارة التي تكون بتراضي الطرفين البائع والمشتري ، أو بأحد العقود التي رخص فيها الشرع الشريف.

وأمّا الامور التي نهى عنها فيكون المال الذي يأخذه كل واحد من الآخر محرماً عليه ولا يجوز له التصرف فيه ، فإن تصرف به أو ببعضه فهو ضامن يجب عليه أن يرده الى صاحبه، فالمال المأخوذ من الربا والمأخوذ في القمار والذي يؤخذ ثمناً للخمر أو ثمناً لبيع آلة محرمة كالشطرنج وغيرها وثمن الكلاب التي تؤخذ للّعب وما شابه ذلك هو مال حرام .

فإن كنت تعدّ نفسك مؤمناً فإنّ الله قد ناداك أولاً فعليك أن تجيب نداءه فتقول: لبيك اللهمّ وسعديك ، وبعد إجابتك له قد قال: لا يحلّ لك أن تأخذ المال بعنوان الربا فإذا أخذته لا يجوز لك التصرف فيه ويجب عليك أن ترده الى صاحبه.

فكأني بك أيها العاصي تجيب ربك وتقول : إني أخذته ولا أرده وأتصرف به وآكل وألبس وأشرب منه . ولكن اذا دهتك داهية تقول : يارب فرج عني وخلّصني ، واذا مرضت تقول : يارب شافني ، واذا افتقرت تقول : يارب ارزقني فأنت في وقت الحاجة إليه تناديه يارب، واذا ناداك ونهاك عما يضرك لاتجيبه ولا تنتهي عما نهاك عنه . فهل يجوز ذلك في حكم العقل أو في حكم العرف الذي هو دون حكم العقل وأنت تحكم بعدم جوازه بالنسبة الى غيرك فكيف تريد تطبيقه بالنسبة الى نفسك ! ؟

روي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الرجل يكون عنده شيء يتبلغ به وعليه

دين أيطعمه عياله حتى يأتي الله تبارك وتعالى بميسرة، أو يقضي دينه، أو يستقرض على ظهره في خبث الزمان وشدة المكاسب ، أو يقبل الصدقة و يقضي بما عنده دينه؟ قال : ويقبل الصدقة ولا يأخذ أموال الناس إلا وعنده وفاء بما يأخذ منهم أو يقرضونه الى ميسرته ، فإنّ الله يقول :«**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم**» ، فلا يستقرض على ظهره إلا وعنده وفاء ، ولو طاف على أبواب الناس فردوه باللقمة واللقمتين والتمرة والتمرتين ، إلا أن يكون له ولي يقضي دينه من بعده ، إنه ليس منا من ميت يموت إلا جعل الله له ولياً يقوم في عدته ودينه (١) .

أيها العبد المؤمن، اذا قرأت قول إمامك الصادق عليه السلام الذي يحكي لك عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله تعالى يقول لك: لو طفت على الأبواب فأعطوك التمرة أو اللقمة خير لك من أن تستقرض وأنت ليس عندك وفاء لما تستقرض.

و أنت أيها المدعي للايمان، تأتي الى أخيك المؤمن وتستقرض منه مقداراً من المال فيعطيك ولا يأخذ منك كتاباً لذلك و بعد ذلك تنكر المال ، و اذا طلب منك اليمين تحلف يميناً كاذباً وأنت تدعي الايمان وأنك من الموالين لأهل البيت.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أربعة يؤذون أهل النار مع ما بهم من الأذى يقول أهل النار بعضهم لبعض ما بال هؤلاء الأربعة آذونا مع ما بنا من الأذى ؟ ثم إنّ أهل النار يسألون الأربعة ـ الى أن قال النبي صلى الله عليه وآله: ـ أحدهم معلّق بتابوت من جمر يجرّ أمعاءه ، فإذا سأله أهل النار: ما بال الأبعد قد آذانا مع ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد قد مات وفي عنقه أموال الناس لم يجد لها في نفسه أداء ولا وفاء (٢).

هذا ما يتعلّق بالشطر الأول من الآية .

---

(١) تفسير البرهان : ج ١ ص ٣٦٣ ح ٧

(٢) المواعظ العددية : ص ٢٠٥ .

وأمّا الشطر الآخر وهو قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيماً» فقد فسر بتفاسير عديدة:

الأول : أن يقتل الانسان نفسه في حال غضب أو حال ضجر بأن ينتحر بآلة قاتلة[١].

الثاني: ما يسمى بالبخع ، و هو الذي يصيبه ما يغضبه أو يغمه فيبقى متأسفاً متأثراً ولا يمتثل أمر الله بالصبر حتى يهلك نفسه جزعاً[٢].

الثالث: ما يكون إشارة الى صدر الآية، أي: لا تأكلوا أموال الناس بالباطل فتقتلوا أنفسكم، أي: تهلكوها في الآخرة بالدخول في نار جهنم. و أمّا في الدنيا فقد يتسلّط عليكم ظالم فيأكل أموالكم كما أكلتم مال غيركم و كذا بالنسبة الى بقية المعاصي الموجبة لدخول النار[٣].

الرابع: ماروي عن أبي عبدالله عليه السلام: أنّ معناه لا تخاطروا بنفوسكم في القتال فتقاتلوا من لا تطيقونه[٤].

الخامس: ما في الصافي عن القمي: كان الرجل إذا خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل على العدو في الغزو وحده من غير أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وآله ، فنهى الله أن يقتل نفسه من غير أمره[٥].

السادس: ما عن العياشي عن الصادق عليه السلام: كان المسلمون يدخلون على عدوهم في المغارات فيتمكن منهم عدوهم فيقتلهم كيف يشاء، فنهاهم الله أن يدخلوا عليهم في المغارات[٦].

السابع: هو إلقاء النفس في التهلكة بكل قول أو فعل كان[٧].

---

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ٣٧ .
(٢) تفسير المراغي : ج ٥ ص ١٩ .
(٣) روح المعاني : ج ٥ ص ١٦ مع اختلاف يسير في الالفاظ.
(٤) مجمع البيان : ج ٣ ص ٣٧ .
(٥) تفسير الصافي : ج ١ ص ٤١٠ .
(٦) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٣٧ .
(٧) لم نعثر عليه .

الثامن: أنّ المراد من «أنفسكم» هي أنفس غيركم من المؤمنين من أهل دينكم، إنّ المؤمنين كنفس واحدة فمن قتل مؤمناً فقد قتل غيره وقتل نفسه(١).

وهذا الأمر الأخير هو أعظم الامور المتقدمة لأنّ الله قد جعل عقابه الخلود في النار، و مع هذا فهو أكثرها وقوعاً في هذا العصر، لأنّ الناس قلّ إيمانهم و ضعف فلايتحرجون من قتل النفس، وقد يقتلون إنساناً لسبب تافه لايستوجب قتلاً ولاضرباً.

والسبب الثاني للاقدام على القتل هو عدم القصاص، فإنّ الحكومات الاسلامية قد تركوا الحكم الذي أمر الله به في كتابه المنزل على نبيه وهم بزعمهم قد صدّقوا بالرسول وبالكتاب، وقد ذكر الله لهم أنّ القصاص موجب لعدم وقوع القتل وعدم تكرره في قوله: «ولكم في القصاص حياة يا اولي الألباب»(٢) و مع ذلك تركوا الحكم بالقصاص و لم يأخذوا بهذه الحكمة الموجبة لرفع القتل وأخذوا بأقوال أعدائهم الكافرين و تابعوهم على أحكامهم، و أثبتوا بفعلهم هذا أنهم ليسوا بذوي عقول فإنه يقول: «يا اولي الألباب» فثبت بتركهم القصاص أنهم ليسوا من اولي الألباب.

وقد نبّهنا الله بعظيم رحمته بنا بقوله في آخر الآية «ان الله كان بكم رحيماً» أي: إنّ الله لايحبّ أن يقتل المؤمن إلا في سبيل إحياء الدين والجهاد في سبيل الله حتى يعوضه الله الدرجات الرفيعة في الآخرة، ولايرضى لعبده المؤمن أن يلقي نفسه في غير ما أمر الله به فيقتل عبثاً بلافائدة تعود على الدين، فمن فرط رحمته بعباده المؤمنين نهاهم عن قتل أنفسهم.

وروى العياشي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الجبائر تكون على الكسر كيف يتوضأ صاحبها و كيف يغتسل اذا أجنب؟ قال، يجزيه المسح بالماء عليها في الجنابة والوضوء، قلت: وإن كان في برد يخاف على نفسه اذا

(١) تفسير الميزان: ج٤ ص ٣٢٠.
(٢) البقرة: ١٧٩.

أفرغ الماء على جسده؟ فقرأ رسول الله ﷺ: «ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً»[1].

فقد أمر الله المسلمين في هذه الآية أن يحافظ كل فرد منهم على نفوس الآخرين وأموالهم، فإن أطاعوه فقد تمّ التصافي والتآخي وحصلت المودة والالفة، فلا يتمكن العدو من أخذ شيء من الأموال كما لا يتمكن من الاعتداء على النفوس و أصبح المسلمون كلهم في راحة وأمان ولكنهم لا يريدون لأنفسهم ما أراده الله لهم من الهناء والصلاح و الاطمئنان، فمن خالف أمر الله و عامل الناس بعكس ما أرشده الله إليه من حفظ النفوس و الأموال وفعل ما نهاه الله عنه من الامور التي تقدم ذكرها فإنما يريد قتل نفسه و هلاكها بسوء اختياره واستحقّ من العذاب ما ذكره الله بقوله :

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً (٣٠).

أسمعت أيها المؤمن ما قال الله لك ؟ إنه بعدما ناداك بصفة هي أحبّ صفات عباده إليه بيّن لك أمرين رئيسيين هما من أهمّ الامور الهدامة للمجتمع ونهاك عنهما وهما الاعتداء والظلم في الأموال والنفوس، فنهاك عنهما نهياً مؤكّداً، وتوعدك النار على مخالفة ما بيّنه لك، ونهاك عن التصرف بمال غيرك .

وقد ذكر المفسرون أنّ هذه الآية لمّا نزلت توقف المؤمنون الذين كانوا في زمن الرسول عن الأكل من بيوت أحد أقاربهم وتأبّوا عن ذلك وقالوا: إنّ الأكل بغير أمر تجاري لا يجوز لنا، الى أن نزل قوله : «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من

---

(١) تفسير العياشي : ج ١ ص ٤١٠ .

بيوتكم أو بيوت آبائكم. . . الخ الآية[1].

و أنتم أيها المسلمون في هذا العصر لاترضون من الناس أن تأخذوا منهم من المال ما فرضتم أخذه ظلماً فحسب وإن كان مخالفاً للقرآن، وإنما يريد بعض الموظفين زيادة على ما قرره القانون، يريد الرشوة التي يعبّر عنها في الأخبار بالكفر . فاعرف أيها المسلم في أيّ محلّ أنت من المسلمين؟ و بماذا التزمت من قانون الاسلام والقرآن؟

ثم أخبرنا الله تعالى بقوله : «**وكان ذلك على الله يسيراً**» أي: أنّ إحراق هذا الظالم ـ الذي يعتدي على أموال الناس وعلى نفسه أو أنفس الناس فيقتلها ـ يسير على الله ، وأنّ الرحمة التي ذكرها الله لكم بقوله : « إنّ الله كان بكم رحيماً » لا تشمل هذا الانسان المعتدي على أموال الناس و أكلها بالباطل ، فإنّ جسمه الذي نبت على الحرام النار أولى به وليس له محلّ غيرالنار ، ولو لم يكن جسده مستحقاً للنار لايعذبه الله أبداً ، إذ تعذيب غير المستحق لا يصدر من الله ولذا قال: إنّ تعذيب آكل الحرام يسير عليه، أي : ليس مخالفاً لرحمته ورأفته على العباد وهو يريد الرحمة لهم في كل وقت و لكن العبد هو يلقي بنفسه في الهلكة ، فينبغي له أن يتبصر في هذه الآية وأمثالها فإنها كثيرة في القرآن .

قوله تعالى : أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً (٣١) .

هذه الآية الشريفة تدلّ على أنّ الامور التي نهى الله الناس عنها فيها كبائر وغير كبائر ، وغير الكبائر عبّر الله عنها في هذه الآية بالسيئات ، و في غير هذه الآية بالصغائر ، و في كلام المفسرين و الفقهاء أنّ الذنوب منها كبائر

---

(١) النور : ٦١ .

وصغائر .

وقال بعضهم : إنّ كل معصية كبيرة بالنسبة الى جرأة العبد مع الله ولكن الكبر والصغر إنما هو بنسبة بعضها لبعض، ثم اختلفوا في تشخيص الكبائر أيّ قسم منها ؟ فقال بعض : هي ما ذكرت في القرآن. وقال بعض: هي ما توعّد الله عليها النار ، وقالوا غير ذلك [١] .

والأخبار كذلك مختلفة، وأنا أذكر لك رواية عن الامام الصادق عليه السلام يعدد فيها قسماً ويستدلّ بالكتاب والسنّة كما طلب منه السائل ذلك .

قال في مجمع البيان : وروى عبدالعظيم بن عبدالله الحسني عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه علي بن موسى الرضا عن موسى بن جعفر عليهم السلام قال : دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فلمّا سلّم وجلس تلا هذه الآية «الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش» [٢] ثم أمسك فقال أبو عبدالله عليه السلام : ما أسكتك ؟ قال : احبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله، قال: نعم يا عمرو أكبر الكبائر الشرك بالله ، يقول الله عزّ وجلّ : «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به» [٣] وقال : «من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النار» [٤].

وبعده اليأس من روح الله لأنّ الله يقول: «لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» [٥] .

ثم الأمن من مكر الله لأنّ الله يقول: «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» [٦].

ومنها : عقوق الوالدين لأنّ الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً في قوله :

---

(١) تفسير الميزان : ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٢) الشورى : ٣٧ .

(٣) النساء ٤٨ .

(٤) المائده : ٧٢ .

(٥) يوسف : ٨٧ .

(٦) الاعراف : ٩٩ .

«وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً»[١] .

ومنها : قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأنه يقول : «ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها»[٢] .

وقذف المحصنات لأنّ الله يقول : «إنّ الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم»[٣] .

وأكل مال اليتيم ظلماً لقوله : «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»[٤].

والفرار من الزحف لأنّ الله يقول : «ومن يولّهم يومئذٍ دبره إلا متحرّفاً لقتالٍ أو متحيّزاً الى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير»[٥].

وأكل الربا لأنّ الله يقول : «الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس»[٦] ويقول: «فإن لم تفعلوا فائذنوا بحرب من الله ورسوله»[٧] .

والسحر لأنّ الله يقول : « ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق»[٨] .

والزنا لأنّ الله يقول : «ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً»[٩] .

---

(١) مريم : ٣٢.

(٢) النساء : ٩٣ .

(٣) النور : ٢٣ .

(٤) النساء : ١٠ .

(٥) الانفال : ١٦ .

(٦) البقرة : ٢٧٥ .

(٧) البقرة : ٢٧٩ .

(٨) البقرة : ١٠٢ .

(٩) الفرقان : ٦٨ و ٦٩ .

واليمين الغموس لأنّ الله يقول : «إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً اولئك لاخلاق لهم في الآخرة »[١].

والغلول قال الله : «ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة »[٢].

ومنع الزكاة المفروضة لأنّ الله يقول: «يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم »[٣].

وشهادة الزور و كتمان الشهادة لأنّ الله يقول: «ومن يكتمها فإنه آثم قلبه»[٤].

وشرب الخمر لأنّ الله تعالى عدل بها عبادة الأوثان .

وترك الصلاة متعمداً وشيئاً مما فرض الله تعالى لأنّ رسول الله ﷺ يقول: من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة الله وذمة رسوله .

و نقض العهد وقطيعة الرحم لأنّ الله يقول : « اولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار»[٥].

قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم[٦].

اذا قرأت أيها المسلم هذه الامور فتذكّر أنّ الله قد ناداك قبل هذه الآية ووصفك بالايمان ونهاك عن امور تقدم ذكرها ، وأهم هذه الامور هو ماذكره الله بقوله: «لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»[٧] ونهاك عن قتل نفسك وقتل أحد من المؤمنين أمّا قتل نفسك فإنما يتحقق بارتكاب الجرائم والأفعال المحرمة ، و أمّا قتل غيرك

---

(١) آل عمران : ٧٧ .
(٢) آل عمران : ١٦١ .
(٣) التوبة : ٣٥ .
(٤) البقرة : ٢٨٣ .
(٥) الرعد : ٢٥ .
(٦) مجمع البيان : ج٢ ص ٣٩ .
(٧) النساء : ٢٩ .

فيكون إمّا بآلة أو أنك تسبب له القتل بأحد الأسباب .

وفي هذه الآية يقول لك رحمة بك ورأفة عليك: يا أيها المسلم المؤمن اذا تجنبت الكبائر من المعاصي - أي اذا ابتعدت عنها ولم ترتكبها وتركت الامور العظام التي نهاك الله عنها وصدرت عنك بعض السيئات الطفيفة التي لا تضرّ بها إلا نفسك ولم تكن مصراً عليها ولم يكن فيها ضرر على غيرك وتبت الى الله منها - فإنّ الله سيغفرها لك ويكفرها عنك ويمحوها من صحيفتك، فإذا غفرت لك تكون العاقبة كما قال الله : « و ندخلكم مدخلا كريماً » وهي الجنة إذ ليس في الآخرة مدخلاً إلا الجنة أو النار، والجنة هي المدخل الكريم فلا تبخل بالجنة على نفسك ولا تدخلها النار .

قوله تعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً (٣٢) .

ذكر في مجمع البيان في سبب نزول الآية ما لفظه: قيل: جاءت وافدة النساء الى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله أليس الله ربّ الرجال والنساء وأنت رسول الله إليهم جميعاً فما بالنا يذكر الله الرجال ولا يذكرنا؟ نخشى أن لا يكون فينا خير ولا لله فينا حاجة ! فنزلت هذه الآية .

وقيل: إنّ امّ سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث ، فليتنا رجال فنغزو و نبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت الآية عن مجاهد .

وقيل : لمّا نزلت آية المواريث قال الرجال: نرجو أن نفضّل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضّلنا عليهنّ في الميراث فيكون أجرنا على الضعف من

أجر النساء، وقالت النساء: إنّا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف عن نصيبهم في الدنيا. فنزلت الآية[1] انتهى ما في المجمع.

اذا عرفت ماذكر في نزول الآية فإنّ الذي يستفاد من كلام المفسرين امور:

الأول: أنه لا يجوز للمسلم أن يتمنى مايكون عند غيره له، أي: مايكون عند غيره يتمنى أن يكون له لا لذلك الشخص. فقد روي عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: لا يقل أحدكم ليت ما اعطي فلان من المال والنعمة والمرأة الحسناء كان لي فإنّ ذلك يكون حسداً، ولكن يجوز أن يقول: اللهمّ أعطني مثله[2]. فعلى هذا يكون النهي عن الحسد لأنّ الحسد يفعل بصاحبه ما فعل بابن آدم القاتل لأخيه.

الثاني: أن يكون النهي عن أن يتمنى الانسان أن يكون على غير الحالة التي هو فيها، كأن يتمنى الرجل أنه لو كان امرأة وتتمنى المرأة أنها لو كانت رجلاً لأنّ الله لا يفعل إلا ما هو الأصلح، ويكون المتمني تمنى ما ليس بأصلح، وهذان الأمران من الامور التي تكون في الدنيا فيكون قوله: **«للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن»** معناه أنّ لكل من الرجال والنساء الحظ أو السهم الذي يحصل بسبب التكسب والتجارة لا ما يحصل بالتمني والحسد.

ثم بيّن لهم و أرشدهم أنكم اذا أردتم الزيادة والتوسع فـ **«اسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً»**، فإذا كانت الزيادة والسعة فيها صلاح لكم أعطاكم، واذا كان صلاحكم بعكس ذلك فيلزمكم الرضا بقضاء الله.

الثالث: أن يكون التمني لأمر اخروي كما تتمنى النساء أن يكنّ رجالاً لكي يغزون فيحصلن على الأجر، وكتمني الرجال أن يكون لهم ضعف جزاء المرأة في الآخرة، فهذا ليس فيه حسد ولا يؤول الى أمر محرم ولكنه تمنٍّ، وقد

---

(١) مجمع البيان: ج٢ ص ٤٠.

(٢) تفسير البرهان: ج١ ص٣٦٦.

عرّف التمني أنه طلب ما لا طمع في وقوعه فيكون «للرجال نصيب مما كسبوا» إنّ الانسان ـ رجلاً كان أو امرأة ـ إنما له نصيبه مما عمله في الدنيا من الأعمال الحسنة ولا تكون الزيادة في التمني ، ومن أراد الزيادة يسأل الله من فضله .

والذي حصل لنا من الآية : بالنسبة الى النعم الدنيوية فيلزم أن لا يتمنى الانسان أن يكون له مال غيره ولا يحسد أحداً على ما أعطاه الله ، وأن يرضى بما قسم الله له، وأن يكون طلبه من الله الرازق للعباد. وأمّا بالنسبة الى النعم الاخروية أن يعمل بما أمر الله به وأن يزداد أعمالاً ، وأن يعتمد على الله ويطلب من فضله، وأن يعتقد بأنّ الله لا يفعل إلا ما هو الصالح لعبده، وأنّ كل إنسان إنما يكون نصيبه من الثواب بمقدار ما اكتسبه من أعمال الخير والفضل بيد الله .

و في الصافي عن الخصال عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: من تمنى شيئاً وهو لله تعالى رضاً لم يخرج من الدنيا حتى يعطى.

وفيه عن الفقيه عن النبي صلى الله عليه وآله : إنّ الله تعالى أحبّ شيئاً لنفسه وأبغضه لخلقه ، أبغض عزّ وجلّ لخلقه المسألة وأحبّ لنفسه أن يُسأل وليس شيء أحبّ إليه من أن يُسأل، فلا يستحي أحدكم أن يسأل الله عزّ وجلّ من فضله ولو شسع نعل.

وفيه عن الكافي عن الصادق عليه السلام : من لم يسأل الله من فضله افتقر.

وفيه عن الكافي والعياشي عن الباقر عليه السلام: ليس من نفس إلا وقد فرض الله لها رزقاً حلالاً يأتيها في عافية، وعرض لها بالحرام من وجه آخر، فإن هي تناولت شيئاً من الحرام قاصّها به من الحلال الذي فرضه لها، وعند الله سواهما فضل كثير وهو قول الله عزّ وجلّ: «واسألوا الله من فضله» .

وفيه عن الصادق عليه السلام : إنّ الأرزاق مضمونة مقسومة ، ولله فضل يقسّمه من طلوع الفجر الى طلوع الشمس وذلك قوله تعالى: «واسألوا الله من فضله»، ثم قال:

وذكر الله بعد طلوع الفجر أبلغ في طلب الرزق من الضرب في الأرض[1].

وعلى كل حال إمّا أن يكون التمني المنهيّ عنه المحسود عليه صاحبه قد حصل لصاحبه بالتكسب والتجارة فلاينبغي للمؤمن أن يحسده عليه ويتمنى انتقاله إليه، وإمّا أن يكون قدجاءه بالارث ويكون ذلك المتمني لاإرث له أو أنه أقلّ نصيباً وفرضاً من هذا، فينبغي له أن يرضى بقسمة الله ولايغضب و لايحسد صاحب السهم الأكثر.

وقد أكّد الله الأمر بالآية التي بعد هذه الآية أي أنه عيّن لكل إنسان يموت من يرثه من أقاربه ولايجوز التعدي عمن عيّنه الله فقال تعالى:

ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ان الله كان على كل شيء شهيداً(٣٣).

هذه الآية الشريفة تعرّف الناس أنّ كل إنسان يموت رجلاً كان أو امرأة، فإنّ الله قدجعل وارثه الذي يرث أمواله معيّناً معلوماً إمّا واحداً أو أكثر، وقد جعلهم طبقات لأسهم للطبقة المتأخرة مع وجود المتقدم، و لكل واحد من الطبقة الواحدة فرض معيّن ولايجوز التعدي و الأخذ أكثر ممّا عيّنه الله لكل واحد ، ولايجوز لأحد إدخال نفسه في طبقات الارث والأخذ منه.

ولو كان قوياً لايقدر أحد على رده فليعلم أنّ الله أقوى منه وأشدّ بأساً، فلماذا يتحمل هذا الاثم العظيم و هو يأخذ هذا السهم ويجعله في صندوق المال فيكون الاثم عليه وهو المسؤول عنه ؟ أي : الذي أسس هذا القانون والذي أمضاه وصدّقه وأبقاه وهو يقدر على زواله. فلاينبغي لأحد أن يطمع في إرث من ليس له فيه نصيب لأنّ عاقبته النار وبئس المصير. هذا بالنسبة الى ماتضمنه صدر الآية.

---

(١) تفسير الصافي : ج١ ص ٤١٣ .

وأمّاقوله: « **والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** » فقدذكرالمفسرون أنّ الرجل في الجاهلية كان يعاقد الرجل فيقول : دمي دمك، و حربي حربك ، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، و تعقل عني وأعقل عنك. فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف، فأمر الله بإعطاء حظهم بقوله « فآتوهم نصيبهم» ثم نسخ ذلك بقوله: واولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض»[1].

ثم قال تعالى: « **ان الله كان على كل شيء شهيداً** » هـذه الجملة التي ختم الله بها الآية فيها وعد ووعيد ، وعد للمطيع الذي لايتجـاوز الحدود التي بيّنها الله في الارث و لايزيد أو ينقص من السهام لذويها، ولايسرق شيئاً إن كان وصياً عن الميت أو قيّماً على الصغـار، أو كان حاكماً أو قاضياً و قـد تسلّط على المال فإنّ الله يجازيه على أمانته وتقواه. وفيها وعيد لمن يرتكب أحد هذه الامور ويسرق أو ينهب أو يغصب شيئاً من أموال الوارثين. أمّا اذا كانوا صغاراً فإنّ العذاب يكبر ويكثر، فيلزم على المسلم أن يتورع ويجتنب مال اليتيم ولايأخذ منه شيئاً فإنّ الله هو الشهيد عليه.

قوله تعالى: الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع و اضربوهن فان أطعنكم فلاتبغوا عليهن سبيلا ان الله كان علياً كبيراً (٣٤).

الآيات التي ذكرت في هذا الكتاب في وصف المؤمنين وهي تعمّ النساء في أغلب الامور إلا ما يكون مختصاً بالرجال. و هذه الآية تختصّ بالنساء و تبيّن

(١) مجمع البيان :ج٣ ص٤٢ والاية ٧٥ من سورة الانفال .

أوصافهن وتجدد الصالحات منهن، فقد ذكر في الآية أول الأمر أن الرجال قوامون على النساء، أي: أنهم مسلطون عليهن في التدبير والتأديب والرياضة والتعليم.

فقد ذكروا أنها نزلت في سعيد بن الربيع بن عمرو وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير وهما من الأنصار، وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها الى النبي ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: لتقتص من زوجها، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال النبي ﷺ: ارجعوا فهذا جبرائيل أتاني وأنزل الله هذه الآية. فقال النبي ﷺ: أردنا أمراً و أراد الله أمراً والذي أراد الله خيراً و رفع القصاص. وقال الكلبي: نزلت في أسعد بن الربيع وامرأته خولة بنت محمد بن مسلمة، وذكر القصة نحوها [١].

و قد ذكر الله سبب التولية عليهن في هذه الامور بقوله: «**بما فضل الله بعضهم على بعض**» أي: إنما ولاهم الله أمرهن لما لهم من زيادة الفضل عليهن بالعلم والعقل وحسن الرأي والعزم «**و بما أنفقوا من أموالهم**» عليهن من المهر والنفقة، كل ذلك بيان علة تقويتهم عليهن وتوليتهم أمرهن.

و هذا من فضل الله ورحمته على المرأة أن كلف الرجل ليكون قيماً عليها ويتولى قضاء حوائجها و إكمال امورها الكلية والجزئية، وأن يدفع لها المهر عند الزواج لتهيىء لنفسها كلما تحتاج من أثاث البيت دفعة واحدة، ولا تطلب من الزوج كل يوم حاجة قد لا يتمكن من شرائها فتبقى متحيرة، واذا انتقلت الى بيت زوجها الكامل المؤثث فإن الزوج هو المكلف بجلب ما تحتاج اليه الزوجة من الطعام والشراب والكسوة، واذا فقد شيء من الأثاث فهو المكلف بشراء بدله، واذا احتاجت شيئاً جديداً فهو الملزوم بشرائه، وهكذا يبقى مكلفاً في كل يوم وليلة مدة عمره ومدة عمرها لها ولأولادها و هي غير مكلفة بشيء من هذه الامور، كل

---

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٤٣.

ذلك حفظاً للمرأة وصوناً لها وحباً لراحتها وتكريماً لها لئلاّ تقع في مشقة الطلب والكدّ والكدح والأشغال الشاقة التي تسبب السفور أو التبرج .

ثم بعدما ألزم الله الرجال بهذه الامور الشاقة وكلّفهم بالكسب والسعي في الأرض والحصول على المعيشة ذكر أوصاف المرأة الصالحة و هو يريد من كل امرأة أن تكون صالحة كما يريد من كل رجل أن يكون صالحاً فقال تعالى في وصف المرأة الصالحة: **«فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله»** وصف الله النساء الصالحات بوصفين:

الأول: أن يكنّ قانتات، أي: مطيعات لله ولأزواجهنّ كما ذكره المفسرون[1] فإطاعة الزوج مع طاعة الله شرط للصلاح في الرجال والنساء، وإطاعة الزوج مع طاعة الله شرط في صلاح النساء، فالمرأة اذا عصت زوجها في الامور الغير محرمة فهي من غير الصالحات. نعم اذا أمرها بشيء محرم قد حرمه الله عليها فلا أمر له ولا يستحق الاطاعة لأنّ أمر الله مقدم على أمره فإذا أمر الله بترك السفور أو التبرج فليس للزوج أن يأمر بفعله، فإذا أمر بذلك لزم على الزوجة عصيانه وعدم إطاعته. وكذا اذا أمرها بترك الواجب من الصلاة والصيام والزكاة وأمثال ذلك فهي مأمورة بإطاعة زوجها في غير المحرم.

وأمّا الوصف الثاني للصالحات ، فهو ماذكره الله تعالى : «حافظات للغيب» أي : اذا غاب الزوج عن زوجته ـ وليس المقصود من الغياب هو السفر الى البلاد النائية فقط بل المقصود اذا خرج الزوج الى العمل ليحصل على المعيشة التي كلّفه الله بها وترك زوجته في الدار ـ لزم على الزوجة أن تحفظه في أمرين :

الأول : الحفظ في ماله، أي: لاتسرق منه ولا تبذر فيه ولا تعطي منه لأحد من غير إذنه ، وأن تحافظ عليه من كل ما يضرّ به .

والأمر الثاني : هو المحافظة على نفسها بجميع أنواع المحافظة ، و ليس المقصود منه الزنا فقط ، بل تحافظ على عفافها وسترها ، فلا تكشف وجهها أمام

(١) مجمع البيان : ج٣ ص٤٣ .

الأجنبي و لا يدها ولا ترفع صوتها ولا تكشف أسراره لأحد حتى لأمّها و أبيها واختها، فإذا اتصفت بذلك فقد حفظته في غيبته.

وهذه الصفة ـ أي : حفظ الزوج في غيبته في المال وفي نفسها ـ و إن كانت من حقوق الزوج ولكنها حقاً لله قبل كونها من حقّ الزوج ، فلوا فرض وجود زوج لا غيرة له ولاحمية وأنه يرضى لزوجته أن تفعل ماتشاء وتشتهي فليس رضا الزوج يجوّز لها ذلك بل هو محرم أشدّ الحرمة ، وإنما جعله الله حقاً للزوج لأنه يتأذى ويتأثر بفعله ، وقد جعل الله له الحق في عقابها على ذلك كما يأتي بالآية التي بعدها.

فإذا اتصفت المرأة بهذين الوصفين وهي كونها من القانتات ومن الحافظات تكون حينئذٍ من الصالحات، فإذا أرادت المرأة أن تحشر يوم القيامة مع الصالحات كحواء ومريم و فاطمة وآسية زوجة فرعون فلتتصف بالصفتين ولا تغرها الحياة الدنيا ، فإنّ آسية بنت مزاحم زوجة فرعون الطاغي المتجبر على الله كانت الدنيا بيدها و يد زوجها وكانت هي مؤمنة متصفة بجميع صفات الايمان . و لمّا أحسّ بها زوجها أنها لاتعترف بربوبيته وأنها مؤمنة توحّد الله عذبها بأنواع العذاب فلم يثنها عن مبدئها وماتت تحت العذاب . فكوني كذلك أيتها المسلمة حتى تحشري مع أزواج النبي الصالحات وتدخلي الجنة فإنّ فيها النعيم الذي لا انقطاع له.

وقد روي عن النبي ﷺ قال: ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الاسلام أفضل من زوجة مسلمة تسره اذا نظر إليها ، و تطيعه اذا أمرها ، وتحفظه اذا غاب عنها في نفسها وماله [1].

ثم بعد وصف الله الصالحات بهذين الوصفين الخفيفين اللذين ليس فيهما مشقة ولا شدة فإنّ الأمر الثاني ـ وهو الحفظ في ماله ونفسها ـ عبارة عن عدة تروك كترك السفور وترك التبرج، وترك مخالطة الأجنبي، وترك رفع الصوت بالكلام، وترك

(١) مكارم الاخلاق : ص ٢٠٠ .

سرقة المال و تبذيره . ولعلّ الأمر الأول ـ وهو إطاعة الزوج ـ يرجع الى هذه التروك ، فإنّ الزوج المسلم لا يريد من زوجته المسلمة إلا هذه التروك.

فإنّ الله بعدما طلب من المرأة أن تتصف بهذين الوصفين ذكرها ببعض نعمته عليها حتى تكون شاكرة لنعمه بإطاعة أمره الذي يجعلها من الصالحات فتصل نعم الآخرة بنعم الدنيا ، فلا ترى بؤساً ولا ألماً ولامشقة في الدنيا ولا في الآخرة ، فقال تعالى : «بما حفظ الله » أي: كما أنّ الله حفظ للنساء المهر على الرجال فرضه لهن،و كما ألزم الرجال بالنفقة عليهن مدة العمر و كما حفظ لهن التوفيق لحفظ أزواجهن بالغيب، فإنّ الله هو الموفق لكل خير، فينبغي للنساء أن يحافظن على الوصفين المذكورين حتى يكن من الصالحات .

ولا يخفى أنّ أحبّ الصالحات الى الله وأنفعهن للمجتمع اذا كنّ من ذوات العلم والأدب ، كما أنّ أنفع الرجال الصالحين أهل العلم ، فإنّ المرأة ذات العلم والأدب التي تدرس الطالبات وتعلّمهن اذا كانت من الصالحات المطيعة لأوامر الله سوف تربي الطالبات تربية دينية صحيحة و تعلّمهن القرآن وتختار لهن من القرآن الآيات التي تهذب المرأة التي تأمرها بالعفة والحجاب واجتناب الاختلاط مع الرجال ، فإنّ الاختلاط بغير الصالحين من الرجال مفسد للمرأة لأنّ الرجل الغير الصالح حكمه حكم الشيطان ، وأنّ الشيطان يوحي إليه من الامور ما يخدع به المرأة فيخرجها عن طاعة الله وطاعة زوجها ويسبب لها دخول النار ، ولا طاقة لهذا الخلد الناعم على تحمل النار ، أعاذ الله المسلمين منها .

ثم بعدما أمر الله الرجال بالانفاق على المرأة في كل ماتحتاج إليه مماتتوقف عليه الحياة، وأمر النساء بإطاعة الأزواج والحفظ لهم في الغيبة ، وهو يعلم أنّ النساء لا يتصفن كلهن بالصلاح وأنّ بعض النساء لا يطعن ولا يحفظن، فالرجل بالنسبة الى هذه المرأة العاصية لايكون مكلّفاً بالقيام بجميع واجباته ، بيّن

الله له ما يعمله تجاه هذه المرأة العاصية حتى ترجع الى الطاعة فقال تعالى :
«واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن».

أي : المرأة التي لا تقوم بواجبها من إطاعة ربها وإطاعة زوجها وحفظه في ماله ونفسها فهذه تسمى ناشزاً، فإذا أراد زوجها أن يرجعها الى طاعته يلزمه قبل كل شيء أن يعظها ، أي : يذكّرها بأوامر الله ونواهيه وبعقاب الله على المعصية، فإن لم تنفع معها الموعظة يهجرها في المضجع ، أي : لا يضاجعها ولا ينام معها في فراش واحد ولا يجامعها ، فإن لم ينفع ذلك معها يضربها ضرباً غير مبرح ، أي : لا يؤثّر في لحم ولا في عظم ، كما روي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال: هو الضرب بالسواك[1] .

فيكون طريق إعادة المرأة الى الطاعة له ثلاث مراتب :

الأول : الموعظة .

الثاني : الهجران في المضاجع .

الثالث : الضرب .

أمّا الاول : فأغلب الناس لاتعرفه، فإنّ العوام والعمال والكسبة لايعرفون ولايحفظون رواية واحدة في هذا الموضوع، وأمّا غيرهم ممن دخل المدارس وحصل على وظيفة فإنه قد يحفظ الكثير من أحكام القانون المدني ولكنه لا يعرف شيئاً من امور الدين ، فرأيت الأنسب أن أقوم بهذا الأمر ، ولعلّ من تريد الانتفاع بمواعظ الله والرسول وتحبّ أن تتأدب بآداب القرآن أن ترجع الى ما أذكره لها هنا .

روي أنّ امرأة جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله فقالت : يا رسول الله ما حقّ الزوج على المرأة ؟ فقال : تطيعه ولا تعصيه، ولاتتصدق من بيته بشيء إلا بإذنه، ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، ولاتخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة

---

(١) تفسير البرهان : ج١ ص ٣٦٧ .

السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب و ملائكة الرحمة حتى ترجع الى بيتها ، فقالت : يا رسول الله من أعظم النساء حقاً على الرجل ؟ قال: والدته ، قالت: فمن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها ، قال : فما لي عليه من الحق مثلما له علي ؟ قال : لا، ولا من كل مائة واحد، فقالت: والذي بعثك بالحق لا يملك رقبتي رجل أبداً [١] .

وقال النبي ﷺ: أيما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً ولا حسنةً من عملها حتى ترضيه وإن صامت نهارها وقامت ليلها وأعتقت الرقاب وحملت على جياد الخيل في سبيل الله وكانت أول من يرد النار ، وكذلك الرجل اذا كان لها ظالماً[٢] .

وقال النبي ﷺ : أيما امرأة لم ترفق بزوجها وحملته على مالا يقدر عليه ومالا يطيق لم يقبل منها حسنة وتلقى الله وهو عليها غضبان [٣].

وزوّج رسول الله امرأة من رجل فرأت منه بعض ما كرهت فشكت ذلك الى النبي ﷺ ، فقال : لعلّك تريدين أن تختلعي فتكوني عند الله أنتن من جيفة حمار [٤].

وعن أبي عبدالله عليه السلام : ليس للمرأة مع زوجها أمر من عتق ولا صدقة ولا تدبير ولا هبة ولا نذر ولا حج أو زكاة أو بر أو الديها أو صلة قرابتها من مال زوجها إلا بإذنه[٥].

وعن رسول الله ﷺ قال : حق الرجل على المرأة إنارة السراج وإصلاح الطعام ، وأن تستقبله عند باب بيتها فترحب به، وأن تقدم إليه الطشت والمنديل وأن توضئه، وأن لا تمنعه نفسها إلا من علة[٦].

وعن الصادق عليه السلام قال : إن قوماً أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله

(١ـ٦) مكارم الاخلاق : ص ٢١٤ .

إنا رأينا اناساً يسجد بعضهم لبعض ، فقال رسول الله : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها [١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: لا تؤدي المرأة حقّ الله عزّ وجلّ حتى تؤدي حقّ زوجها [٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ الله عزّ وجلّ كتب على الرجال الجهاد وعلى النساء الجهاد ، فجهاد الرجل أن يبذل ماله ودمه حتى يقتل في سبيل الله ، وجهاد المرأة أن تصبر على ماترى من أذى زوجها وغيرته [٣].

وقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ الناجي من الرجال قليل ومن النساء أقل [٤].

وفي حديث آخر قال عليه السلام : جهاد المرأة حسن التبعل [٥] .

وقال عليه السلام : أيما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حقّ لم تقبل منها صلاة حتى يرضى عنها [٦] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها فلا نفقة لها حتى ترجع [٧] .

وقال صلى الله عليه وآله: أيما امرأة تطيّبت لغير زوجها لم يقبل منها صلاة حتى تغتسل من طيبها كغسلها من جنابتها [٨] .

وقال صلى الله عليه وآله: أيما امرأة قالت لزوجها مارأيت منك خيراً قط إلا حبط عملها [٩].

وعن أنس بن مالك قال: خرج رجل غازياً في سبيل الله وأوصى امرأته أن لاتنزل من فوق بيته الى حين يقدم ، و كان والدها في أسفل البيت فاشتكى ، فأرسلت الى رسول الله صلى الله عليه وآله تخبره وتستأمره ، فأرسل إليها أن اتقي الله وأطيعي زوجك [١٠] .

وروي أنّ رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في بعض حوائجه

(١-٩) مكارم الاخلاق : ص٢١٥ .

(١٠) مكارم الاخلاق : ص٢١٦ .

فعهد الى امرأته عهداً أن لا تخرج من بيتها حتى يقدم ، ثم إنّ أباها مرض فبعثت المرأة الى رسول الله ﷺ وقالت : إنّ زوجي خرج وعهد إلي أن لا أخرج من بيتي حتى يقدم وإنّ أبي مرض أفتأمرني أن أعوده ؟ فقال : لا ، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك ، قال : فمات أبوها فبعثت الى رسول الله فقالت : يارسول الله إنّ أبي قد مات أفتأمرني أن احضره ؟ فقال: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك، فدفن الرجل فبعث إليها رسول الله ﷺ إنّ الله تبارك وتعالى قد غفر لك ولأبيك بطاعتك لزوجك [1].

وروى المجلسي عن عيون أخبار الرضا عن الوراق عن محمد الأزدي عن سهل عن عبدالعظيم الحسني عن محمد بن علي الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : دخلت أنا وفاطمة على رسول الله فوجدته يبكي بكاءً شديداً فقلت : فداك أبي وامّي يارسول الله ما الذي أبكاك ؟ فقال : يا علي ليلة اسري بي الى السماء رأيت نساء من امّتي في عذاب شديد فأنكرت شأنهن ، فبكيت لما رأيت من شدة عذابهن .

رأيت امرأة معلّقة بشعرها يغلي دماغ رأسها ، ورأيت امرأة معلّقة بلسانها والحميم يصبّ في حلقها ، و رأيت امرأة معلّقة بثدييها ، و رأيت امرأة تأكل لحم جسدها والنار توقد من تحتها، ورأيت امرأة قد شدّ رجلاها الى يديها فقد سلّط عليها الحيّات والعقارب ، ورأيت امرأة صمّاء عمياء خرساء في تابوت من نار يخرج دماغ رأسها من منخرها وبدنها متقطع من الجذام والبرص. ورأيت امرأة معلّقة برجليها في تنور من نار ، و رأيت امرأة يقرض لحم جسدها من مقدمها ومؤخرها بمقاريض من نار ، ورأيت امرأة يحترق وجهها ويداها و هي تأكل أمعاءها ، ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير وبدنها بدن الحمار وعليها ألف ألف لون من العذاب ، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل في جوفها وتخرج

---

(١) مكارم الاخلاق: ص٢١٦ .

من فيها والملائكة يضربون رأسها وبدنها بمقامع من نار ، فقالت فاطمة : حبيبي وقرة عيني أخبرني ما كان عملهن وسيرتهن حتى وضع الله عليهن هذا العذاب؟

فقال : يا بنتي أمّا المعلّقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال ، وأمّا المعلّقة بلسانها فإنها كانت تؤذي زوجها ، وأمّا المعلّقة بثدييها فإنها كانت تمنع من فراش زوجها ، وأمّا المعلّقة برجليها فإنها تخرج من بيتها بغير إذن زوجها، وأمّا التي كانت تأكل لحم جسدها فإنها كانت تزين بدنها للناس ، وأمّا التي شدّ يداها الى رجليها وسلّط عليها الحيّات والعقارب فإنها كانت قذرة الوضوء قذرة الثياب وكانت لا تغتسل من الجنابة والحيض ولا تتنظف وكانت تستهين بالصلاة، وأمّا الصمّاء العمياء الخرساء فإنها كانت تلد من الزنا فتلحقه بزوجها، وأمّا التي كان يقرض لحمها بالمقاريض فإنها كانت تعرض نفسها على الرجال، وأمّا التي كان يحرق وجهها وبدنها وهي تأكل أمعاءها فإنها كانت قوادة . وأمّا التي كان رأسها رأس خنزير وبدنها بدن الحمار فإنها كانت نمّامة كذابة ، وأمّا التي كانت على صورة الكلب والنار تدخل من دبرها وتخرج من فيها فإنها كانت قينة نواحة حاسدة .

ثم قال ﷺ: ويل لامرأة أغضبت زوجها وطوبى لامرأة رضي عنها زوجها[1].

هذا ما يتعلّق بقوله تعالى: «واللاتي تخافون نشوزهنّ». هذه المواعظ التي قرأتيها أيتها المرأة الصالحة تأدبي بآدابها وعلّميها غيرك من الأخوات بما سمعتي حتى يكون لك الأجر الكامل .

وأمّا الأمر الذي بعد الموعظة وهو قوله تعالى : « واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ» فإنّ الرجل إذا كان عارفاً بما له من الحقّ على زوجته وكانت عاصية عليه في أداء حقه فله أن يعاقبها بما ذكره الله ، وأمّا إذا أراد منها شيئاً محرماً فأبت عليه وكان لها الحقّ في الاباء عليه فلا يجوز عقابها بشيء .

وأمّا قوله تعالى : «فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا» أي: اذا كانت المرأة

---

(١) بحار الانوار : ج ١٨ ص٣٥١ ب٣ ح٦٢ .

مطيعة للرجل من ابتداء أمرها أو بعد العصيان فليس للرجل سبيل على إيذائها بالقول أو بالفعل ، وعليه أن يقوم بما أمره الله به من النفقة والكسوة و المعاشرة بالمعروف وحسن الخلق .

ثم قال تعالى : « **ان الله كان علياً كبيراً** » هذا تحذير للرجال، أي :احذروا أيها الرجال أذى نسائكم فلا تؤذوهن اذا كن مطيعات لكم أو اذا رجعن بعد المعصية الى الطاعة فإن الله أقدر عليكم من قدرتكم على نسائكم، وانكم تعصون الله في كل وقت ثم تعودون الى الطاعة فلا يؤاخذكم الله بعصيانكم و يقبل منكم التوبة ، فتعلموا من الله العفو ولا تؤاخذوا نساءكم بما فعلن بعد التوبة ، واقبلوا منهن العذر ، وسيأتي بعد ذلك من الآيات ما يذكر من أحكام الرجال والنساء.

و من وصايا النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قال : ياعلي ليس على النساء جمعة ، ولاجماعة، ولاأذان، ولاإقامة، ولا عيادة مريض ، ولا اتباع جنازة، ولا هرولة بين الصفا والمروة ، ولا استلام الحجر، ولاحلق، ولاتولّي القضاء. ولاتستشار ، ولاتذبح إلا عند الضرورة ، ولا تجهر بالتلبية ، ولا تقيم عند قبر ، ولاتسمع الخطبة ، ولا تتولّى التزويج، ولاتخرج من بيت زوجها إلا بإذنه، فإن خرجت بغير إذنه لعنها الله وجبرائيل وميكائيل ولا تعطي من بيت زوجها إلا بإذنه ، ولا تبيت وزوجها عليها ساخط وإن كان ظالماً لها [1].

ولايخفى على المرأة المتعلّمة الأديبة أن المقصود من إذن الزوج للمرأة للخروج من البيت أن يكون إذنه لها غير مخالف للشرع ، و إلا فإن رجال هذا العصر لايبالون و لايغارون على نسائهم و إن جلسن من الأجانب أو خلون بهم، وهذا الرجل الذي يرضى لزوجته مجالسة الأجانب من الرجال قد لعنه النبي صلى الله عليه وآله وسمّاه ديوثاً.

فمن جملة كلامه صلى الله عليه وآله قوله: أيما رجل تتزين امرأته وتخرج من باب دارها

---

(١) مكارم الاخلاق : ص ٤٣٩ .

فهو ديوث ولا يؤثم من يسمّيه ديوثاً، والامرأة اذا خرجت من باب دارها متزينة متعطرة والزوج بذلك راض يبنى لزوجها بكل قدم بيت في النار ـ ثم وجّه خطابه الى الرجال بقوله:ـ فقصروا أجنحة نسائكم ولا تطولوها فإنّ في تقصير أجنحتها رضاً وسروراً ودخول الجنة بغير حساب، احفظوا وصيتي في أمر نسائكم حتى تنجوا من شدة الحساب، ومن لم يحفظ وصيتي فما أسوأ حاله[1].

إنّ النبيّ الأكرم سوف يوقف النساء المتعلّمات و العالمات اللاتي يعرفن هذه الأحكام ولا يعملن بها بل يعملن بخلافها، فيسألهنّ يوم القيامة عن هذه المعصية العظيمة ويكون عقابهنّ من ناحيتين:

الاولى: مخالفتهنّ للحكم.

الثانية: لعدم تعليمهنّ الطالبات الجاهلات هذا الحكم المهم في الشريعة الاسلامية الذي يصرح به القرآن والسنّة النبوية ، فليس لهنّ عذر عندالله وعند رسوله يوم القيامة .

وبعدهذا نقول: لم يفت أوان الارشاد ولم يمض الوقت الذي يمكن تدارك الأمر وإصلاح الفساد، فلو اتفقت مائة امرأة من العالمات ـ وما أكثرهنّ في المسلمين ـ وتعاهدن على أن يكنّ صالحات كما وصفهنّ الله «فالصالحات قانتات حافظات للغيب» فإنّ هذا الاتفاق اذا صحبه إرشاد للجاهلات يكون له أثر عظيم في المجتمع، و لكن هيهات هيهات فإنا نرى الأمر على عكس ذلك ، فإنّ المرأة التي تكون محافظة على امور دينها و شريعتها في أوان صغرها وحين تكون طالبة نراها اذا وصلت الى درجة راقية وحصلت على شهادة من كلية أو جامعة ترمي بكل الاصول الدينية وتخرج متبرجة في غاية الخلاعة، وقد عرفت حقّ المعرفة قوله تعالى: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى»[2] و سوف تأتي الآيات التي تذكر شروط

---

(١) سفينة البحار : ج٢ ص٥٨٦ مادة «نسا» .

(٢) الاحزاب : ٣٣ .

المرأة المسلمة إن شاء الله تعالى ، وإني أذكر هذه الرواية تحفة للنساء الصالحات لتكون حجة لهنّ على غير الصالحات .

أخرج البيهقي عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وامّي أنا وافدة النساء إليك واعلم ـ نفسي لك الفداء ـ أنه ما من امرأة كائنة في شرق ولاغرب سمعت بمخرجي هذا إلا وهي على مثل رأيي، إنّ الله بعثك بالحقّ الى الرجال والنساء فآمنا بك و بإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقسورات قواعدبيوتكم ومقتضى شهواتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضّلتم علينا بالجمعة و الجماعة و عيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعدالحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، و أنّ الرجل منكم اذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم فما نشاركم في الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت النبي ﷺ الى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه ؟ فقالوا : يارسول الله ما ظننا أنّ امرأة تهتدي الى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها ثم قال لها : انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أنّ حسن تبعل إحداكنّ لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله، فأدبرت المرأة وهي تهلّل وتكبّر استبشاراً [١] .

ثم إنّ الآية التي بعدها تحتاج الى ذكر مقدمةٍ لها حتى يعلم الرجال والنساء مقدار رحمة الله ورأفته بهم ، فنقول :

إنّ الله خلق النساء للرجال والرجال للنساء ليأنس كل منهما بالآخرة ، وأمر بالزواج وحثّ عليه لتكون المرأة سكناً للرجل ، وبيّن للزواج حدوداً وشروطاً ، وجعل لكل من الزوج والزوجة حقوقاً على الآخر ، وذكر في الآية السابقة أنّ المرأة اذا خرجت عن الطاعة تؤدب بالامور الثلاثة متدرجاً فيها، وكذا

---

(١) الدر المنثور : ج٢ ص١٥٣ .

الرجل اذا خالف حقوق المرأة يؤدب ويردع ، وأنّ الله إنما أمر بتأديب المخالف لكي يرجعا الى الالفة والمحبة والانس .

أمّا اذا خفنا من التأديب أن ينجر الى الخلاف و النـزاع والانشقاق فقد أمرنا الله باتخاذ طريقة اخرى للمحافظة على الالفة والمحبة ، فقال تعالى :

وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله و حكماً من أهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً (٣٥) .

إنّ الله خاطب بهذه الآية إمّا أهل الزوج و الزوجة ، وإمّا الحكّام الذين يتولون النظر في امور المسلمين، وإمّا عموم المسلمين لأنهم كلهم مكلّفون بإصلاح ذات البين، يقول الله لهم اذا خشيتم أو اذا تيقنتم أنّ هذين الزوجين لايتمكّنان أن يدبرا أمرهما وحدهما وهما مختلفان في من خرج عن الطاعة كل واحد يرمي صاحبه بالخروج عن الطاعة ، واذا بقيا على هذه الحالة يحصل الانشقاق بينهما ـ أي الانفصال والتباعد ـ فكل واحد منهما يكون في شقّ من المكان ، وحينئذ تبقى المرأة معلّقة ويبقى الرجل وحده، أو أنه يتغلّب عليه الغضب والحدة فيطلّقها، و كلا الأمرين غير محبوبين لله .

لذا أمر الله من أمر إمّا أهلي الزوجين أو الحكّام والقضاة أو عموم المسلمين أن يبعثوا بحكم من قبل أهل الزوج وآخر من قبل أهل الزوجة ، والحكمان إمّا من الأقارب أو يكفي كونهما من الأجانب، وهذان الحكمان ينظران في أمر هذين الزوجين ويشخصان الخارج عن الطاعة من يكون منهما، ويشترط في الحكمين أن يكونا من صالح الرجال والنساء لايتحيزا بل يكونا من العدول .

فإذا اجتمع الحكمان واطّلعا على أمر الزوجين ونظرا فيما يحكمان به من الأمر وعرفا أيهما المطيع وأيهما الخارج عن الطاعة فحينئذ إمّا أن يتفق الحكمان

على شيء واحد، وإمّا أن يختلفا في صورة الاختلاف فيرجع النزاع الى ما كان أوّلاً.

أمّا في صورة الاتفاق فيكون قوله تعالى : **«ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما»** فيه أربع صور :

الاولى : أن يكون ضمير الفعل وضمير الظرف راجعين الى الحكمين .

الثانية : أن يكون الضميران عائدين على الزوجين .

الثالثة : أن يكون ضمير الفعل عائداً على الحكمين والآخر على الزوجين .

الرابعة : عكس الثالثة ، فإرادة الاصلاح إمّا من الحكمين، وحينئذٍ يوفق الله بينهما ويوفق بين الزوجين، فيكون لله توفيقان أحدهما بين الزوجين والآخر بين الحكمين . وإمّا أن تكون إرادة الاصلاح من الزوجين، وحينئذٍ يوفق الله بين الزوجين وبين الحكمين أيضاً في الحكم، فيكون لله توفيقان في الصورة أيضاً، وهذا دليل على حبّ الله لعباده الالفة والوفاق دون الانشقاق .

هذا بالنسبة الى شخصين فكيف يكون حكم الانشقاق في جماعة المسلمين عامة؟ فإنه من أبغض الامور الى الله تعالى ، فمن أين انبعثت هذه الفرق الاثنين وسبعين ما عدا الفرقة الناجية.

وقد ذكر الطبرسي في الاحتجاج رواية تتعلّق بالموضوع أحببت ذكرها هنا قال: روي أنّ نافع بن الأزرق جاء الى محمّد بن علي بن الحسين عليهما السلام فجلس بين يديه يسأله عن مسائل في الحلال والحرام، فقال له أبو جعفر ـ في عرض كلامه ـ: قل لهذه المارقة : بما استحللتم فراق أمير المؤمنين عليه السلام وقد سفكتم دماؤكم بين يديه وفي طاعته والقرب الى الله تعالى بنصرته؟ فسيقولون لك: إنه حكم في دين الله، فقل لهم: قد حكم الله تعالى في شريعة نبيه صلى الله عليه وآله رجلين من خلقه، قال جلّ اسمه : « فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما». وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريضة، فحكم بما أمضاه الله، أوما علمتم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما أمر الحكمين أن يحكما بالقرآن ولا يتعديا

واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرجال ؟ وقال حين قالوا له : حكمت على نفسك من حكم عليك، فقال: ما حكّمت مخلوقاً فإنما حكّمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر بالحكم بالقرآن ؟ واشترط ردّ ما خالفه و لولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان؟ فقال نافع بن الأزرق : هذا والله ما طرق بسمعي قط ولاخطر مني ببال، هو الحق إن شاء الله تعالى[1].

و قوله تعالى بعد ذلك : «ان الله كان عليماً خبيراً» في هذه الجملة وعد ووعيد ، كما في أغلب الآيات المشتملة على الأحكام : فإنها تختم بجملة فيها الوعد والوعيد ، الوعد لمن سار على طريق الحق ولم يخرج عن الطاعة ، سواء كان أحد الزوجين أوأحد الحكمين أوأحد أهالي الزوجين أو أحد الحكّام أو القضاة أو أحد المسلمين المكلّفين بالاصلاح .

و الوعيد لمن خرج عن طاعة الله والرسول وخالف القرآن والسنّة .

فاحذر أيها المسلم وأيتها المسلمة فإنّ الله عليم بمن يريد الشقاق ، وخبير بمن يريد الوفاق .

اذا عرفت هذا واتضح لك أنّ الله تعالى يحبّ الوفاق ويكره الشقاق، وأن الفرقتين المختلفتين لابدّ وأن تكون إحداهما باطلة اذا لم تكن كلتاهما كذلك تجلّى لك قوله تعالى:

واعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً و بالوالدين احساناً وبذى القربى و اليتامى والمساكين و الجار ذى القربى و الجار الجنب و الصاحب بالجنب وابن السبيل و ما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخوراً (٣٦).

فإنه وجّه الخطاب للعموم و لم يخصّ به المؤمنين، فهو يشمل جميع الناس

---

(١) الاحتجاج : ص٣٢٤ .

من الرجال والنساء في جميع طبقاتهم، والكل يعرف أنّ الله واحد ورسوله واحد وكتابه واحد وعبادته واحدة ليس فيها اختلاف، فيلزمهم أن يأخذوها من كتابه بواسطة من يعلم تأويله وتفسيره ولا يجوز لهم أن يفسروه بآرائهم فإنّ ذلك موجب للاختلاف والشقاق، وعندئذ يكون الشرك بالله، لأنّ الظاهر من هذه الآية ومن التي قبلها أنّ المقصود من الشرك هو شرك الطاعة لا شرك العبادة، فإنّ الشرك إمّا أن يكون بجعل الشريك لله في العبادة بحيث يعبده كما يعبد الله ويسجد له كما يسجد لله، وهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله كما ذكره في قوله تعالى: «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به»[1]، و إمّا أن يكون بجعل الشريك له في الطاعة، وهذا لا ينجو منه أحد إلا المعصوم لأنّ كل معصية هي طاعة للشيطان.

فالعبد العاصي كما يطيع الله كذلك يطيع الشيطان، فإنّ الله تعالى لمّا بيّن صفة المرأة الصالحة ثم ذكر أنّ بعض النساء يكنّ ناشزات لا يطعن الله ولا يطعن أزواجهن ، ثمّ ذكر كيفية تأديب الناشز ، وبعد ذلك أمر المسلمين ـ اذا خافوا من وقوع الشقاق و التباعد بين الزوجين من سبب معصية أحدهما أو كليهما ـ أن يبعثوا حكمين عدلين لينظرا في الأمر.

وفي هذه الآية وجّه خطاباً عاماً لجميع العباد ـ الذكور والاناث ـ أن يسيروا على أحكام الله في أوامره ونواهيه ولا يخالفوا شيئاً منها، فإنهم اذا خالفوا أمر الله فقد أطاعوا الشيطان ، وطاعة الشيطان هي الشرك في الطاعة ، والنزاع والجدال و الانشقاق بين الاثنين أو بين الجماعتين أو بين المسلمين إنما يحدث اذا عملوا المعاصي وخالفوا أمر الله ورسوله .

وأمّا اذا كان كلّهم أو جلّهم مطيعين عاملين بأوامر الله تعالى التي تلقوها من رسوله في حياته و من بعد الرسول يأخذونها ممن جعل الرسول علم الحلال والحرام وتفسير القرآن عنده فيكون مصدره واحداً ليس عنده اختلاف .

---

(١) النساء : ٤٨ .

أمّا اذا تفرق المسلمون وصاروا فرقاً وشيعاً ، ولكل فرقة إمام يختلف مع إمام الفرقة الاخرى في معرفة الأحكام ، وليس عندهم كلّهم علم القرآن ومعرفة الحلال والحرام، فلا ريب من وقوع الاختلاف ووقوع الشقاق، وهذا أمر واضح يدركه كل ذي عقل ، فعلى العاقل أن يتبع العالم بالأحكام ولا يتبع المفضول ..

واذا اتضح لك المعنى المقصود من الآية وأنّ الله ينهى عن المعصية المتعلّقة بالفروع والعمل فلا يبعد أن يكون المقصود كما اختاره بعض المفسرين من قوله تعالى : « **و بالوالدين احساناً** » إنه يريد بالوالدين (النبي و الوصي) اللذين ذكرهما النبي بقوله لعلي : أنا وأنت أبوا هذه الامّة [1] ويكون الاحسان إليهما الذي أمر به الله هو إطاعتهما فيما يخبران به عن الله ، فإذا اتفق الناس كلّهم على طاعتهما ارتفع الخلاف والتأم الشقاق فصارت الفرق كلها واحدة وتحقق قوله تعالى: «**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً**» فإنهما الأبوان اللذان يربيان الروح ويرشدان الى النعيم الدائم الذي لا انقطاع له .

وأمّا الأبوان اللذان يربيان البدن ويجلبان لولدهما نعيم الدنيا المنقطع فقد أوصى بهما الله وصاية مؤكّدة ، ولكن حقّ مربي الروح أعظم من حقّ مربي البدن ، والمرشد الى النعيم الدائم يكون حظّه أعظم ممن يدلّ على النعيم المنقطع والذي ينقذك و يخلصك من العذاب الدائم الأبدي اتباعه و طاعته أولى و أوجب ممن يدفع عنك الآلام والآفات الموقتة الزائلة .

نقل العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أحد الوالدين وعلي الآخر ، فقلت : أين موضع ذلك في كتاب الله ؟ قال: اقرأ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً» [2].

وفيه عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « وبالوالدين إحساناً »

---

(١) تفسير البرهان : ج١ ص١٢١ .

(٢) تفسير العياشي : ج١ ص٢٤١ ح١٢٨.

قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أحد الوالدين وعلي الآخر ، وذكر أنها الآية التي في النساء [١].

فإذا كان المقصود الوالدين هما اللذان عندهما تفسير القرآن وتأويله وعندهما علم الأحكام كان الأحرى والأقرب والأنسب لقوله تعالى: «وبذي القربى» هم الذين عندهم تأويل القرآن ومن جعلهم النبي صلى الله عليه وآله عدلاً في وجوب التمسك بهما في وصيته حيث قال : إني مخلف فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا من بعدي أبداً : أحدهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهم لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض [٢].

وبعد ذلك أوصى الله بالاحسان الى اليتامى بقوله «واليتامى»، واليتيم هو الذي فقد أبويه أو أباه فقط وبقي بلا كفيل، ويطلق اليتيم على من لا مثيل له ولا نظير. ويمكن أن يكون المراد منهم قرناء القرآن الذين ليس لهم مثيل في العلم والعمل.

وقد وردت الآيات والأخبار الكثيرة في الحثّ على الاحسان الى اليتيم وعظيم الأجر من الله على ذلك، فمن ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقبر يعذب صاحبه، ثم مرّ به من قابل فإذا هو ليس يعذب، فقال: يارب مررت بهذا القبر عام أول فكان صاحبه يعذب ، ثم مررت به العام فإذا هو ليس يعذب ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : ياروح الله إنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه [٣].

وعنه صلى الله عليه وآله قال: من كفّل يتيماً و كفّل نفقته كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وقرن بين اصبعيه السبابة والوسطى [٤].

---

(١) تفسير العياشي : ج١ ص٢٤١ ح١٢٩ .

(٢) راجع بحار الانوار : ج٢٣ ص١٠٤ ب٧ .

(٣) سفينة البحار : ج٢ ص٧٣٠ مادة «يتم» .

(٤) سفينة البحار: ج٢ ص٧٣١ مادة «يتم».

وقد وردت الروايات أنّ من مسح يده على رأس يتيم ترحّماً له أعطاه الله تعالى بكل شعرة نوراً يوم القيامة ، وكتب الله له بكل شعرة مرت يده عليها حسنة[١].

وقال النبي ﷺ لأبي ذر : يا أباذر إني احبّ لك ما احبّ لنفسي ، إني أراك ضعيفاً فلا تأمرن على اثنين ولاتلين مال اليتيم [٢].

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أصلحك الله ما أيسر مايدخل به العبد النار ؟ قال : من أكل من مال اليتيم درهماً ونحن اليتيم[٣].

ثم أوصانا الله تعالى بعد الوصايا باليتيم بالاحسان الى المساكين بقوله تعالى: «والمساكين» فلا ينبغي ولايجوز الغفلة عن المساكين ويلزم إعطاؤهم مايحتاجون إليه من الطعام والكسوة وما لابدّ لهم منه .

ثم أوصانا بعد ذلك بالجار وقد جعلهم قسمين بقوله : «**والجار ذى القربى والجار الجنب**» فالجار مرة يكون من الأقارب ومرة يكون أجنبياً ، ولعلّ الوصاية بالأجنبي لأنّ بعضهم يرى أنّ الأجنبي لا تلزم صلته .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق: حقّ الجار وحقّ القرابة وحقّ الاسلام، وجار له حقان: حقّ الجوار وحقّ الاسلام، وجار له حقّ الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب[٤].

وروي أنّ حدّ الجوار الى أربعين دار[٥].

ثم قال تعالى : «**والصاحب بالجنب**» قال في مجمع البيان : في معناه أربعة أقوال:

أحدها : أنه الرفيق في السفر ، عن ابن عباس و سعيد بن جبير و جماعة ، والاحسان إليه بالمواساة وحسن العشرة .

وثانيها : أنه الزوجة ، عن عبد الله بن مسعود وابن أبي ليلى والنخعي.

(١ــ٣) سفينة البحار : ج٢ ص٧٣١ مادة «يتم» .

(٤و٥) مجمع البيان : ج٣ ص٤٥ .

وثالثها: أنه المنقطع إليك يرجو نفعك، عن ابن عباس في إحدى الروايتين وابن زيد.

ورابعها: أنه الخادم الذي يخدمك، والأولى حمله على الجميع[1] انتهى ما في المجمع.

ثم أمر الله تعالى بالاحسان بعد من تقدم ذكره بقوله: **«وابن السبيل وما ملكت أيمانكم»**.

أمّا ابن السبيل فهو المسافر الذي ذهب ماله في أثناء الطريق ولا يمكنه الوصول لبلده، فقد أفتى الفقهاء بإعطائه مما ينطبق عليه من الحقوق وإن كان غنياً في مكانه، وأنّ الله يأمرنا بالاحسان إليه، وأن لا نهمله ولا نتركه في حاجة.

وأمّا المماليك فهم العبيد والاماء، ينبغي لكل من يعدّ نفسه مولى أن يحسن الى مماليكه، فإن لم يحسن إليهم فأولى به أن يكون عبداً. والأهل والعيال أيضاً مما ملكت يده لأنهم تحت يده وهم يأملون منه الاحسان، فلا ينبغي له أن يقتر عليهم في المعاش أو فيما يحتاجون إليه.

ثم ختم الله عزّ وجلّ بقوله: **«ان الله لا يحب من كان مختالا فخوراً»**.

المختال هو المتكبر على أحكام الله أو على عبادة الله، فكل من ترك شيئاً من الامور التي ذكرت في الآية فهو متكبر عليها، وكل من لم يحسن الى الأصناف كلهم أو بعضهم فهو متكبر عليهم.

وكذا من يكون مفاخراً للناس إمّا من أحد الأصناف الذين ذكرهم الله وأمر بالاحسان إليهم، أو من غيرهم.

فإنّ هاتين الصفتين لا يحبهما الله ولا يحبّ المتصف بهما أو بأحدهما، فيلزم على المسلم أن ينزه نفسه منهما ليكون محبوباً لله، فالمرء الذي يتكبر ويتجبر لكثرة ماله لو تأمل لحظة وعرف أنّ المال لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء

---

(١) مجمع البيان: ج٢ ص٤٦.

لعرف أنه أجهل الجهلاء.

قال في المجمع: و هذه الآية جامعة تضمنت بيان أركان الاسلام و التنبيه على مكارم الأخلاق، و من تدبرها حقّ التدبر وتذكّر بها حقّ التذكّر أغنته عن كثير من مواعظ البلغاء وهدته الى جمّ غفير من علوم العلماء[1].

ثم إنّ الله بعدما بيّن هذه الأحكام وأمر بالاحسان الى الأصناف المتقدم ذكرهم ذمّ في الآية الآتية من يتخلّف عن أمره بقوله:

الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً(٣٧).

ذكر المفسرون أنّ المراد بالبخيل إمّا أن يبخل ببذل المال المفروض عليه كالزكاة و شبهها أو يبذل المال المندوب إليه، وإمّا أن يبخل ببذل العلم المأمور بنشره وبثّه في الناس.

وهذا القسم الثاني مرة يكون ذمّاً لأهل الكتاب حيث وجدوا صفة النبي صلى الله عليه وآله في التوراة مطابقة لما هو عليه فأخفوها و كتموها أو أنكروها و حرفوها، وهؤلاء لايكون ضرر كتمانهم للدين الاسلامي كبيراً، لأنّ الله هو الذي يصف النبي ويؤيّده بنصره ويمده بالمعجزات الباهرات، ومرة اخرى يكون ذمّاً لامّة محمد اذا سمعوا شيئاً من النبي صلى الله عليه وآله يتعلّق بعموم الامّة وله مساس باصول الدين، وقد أمرهم النبي صلى الله عليه وآله أن يبلّغوا من لم يكن حاضراً، ومع كل هذا فإنهم أخفوه و كتموه.

ولعلّ الآية التي في آخر الفصل تشير الى ذلك، فإنّ هذا الكتمان أكثر

---

(١) مجمع البيان: ج٢ ص٤٦.

ضرراً على الدين والمسلمين من كتمان أهل الكتاب، وأعمّ فساداً وأشدّ أثراً في تفريق الامّة.

وسواء كان المقصود البخل ببذل المال أو ببذل العلم، وكذا بالنسبة الى الكتمان إن كان كتمان المال أو كتمان العلم، فإنّ جميع الأصناف يشملهم الذمّ من الله ومن الناس، وأكثرهم ذماً وأعمهم فساداً الذين أمرهم النبي ﷺ بنشر حديثه وإبلاغ من كان غائباً عنهم. وهم كتموا الحديث وأنكروه، ولم يكتفوا بكتمان الحديث وإخفائه وإنكاره بل جعلوا يأمرون الناس بالكتمان ويعاقبون من يظهره منهم

ولا تنس ما كتبه معاوية لعماله في سائر الأقطار أن برئت الذمّة ممن يذكر فضيلة لأبي تراب[1] و بعض المسلمين يسمّيه (أمير المؤمنين) و هو يسمع قول الله تعالى حيث يقول في حقّ هؤلاء الذين يكتمون ما آتاهم الله: **«وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً»** فكل من سمع حديثاً من النبي ﷺ فكتمه فهو كافر بمقتضى الآية، وكذا اذا أمر الناس بكتمانه.

ولافرق بين من كان موجوداً في زمان النبي ﷺ أو أنه وجد في الأزمنة المتأخرة عنه بصدور الحديث، وعلم بصدوره عنه بالتواتر وثبوته في الكتب المعتبرة والأسانيد الصحيحة، فكل واحد منهم مكلّف بإذاعة الحديث و بذله لمن يطلبه ونشره للملأ حتى تطّلع عليه جميع الامّة، وكل واحد منهم مؤاخذ على كتمانه وإخفائه.

ولافرق أيضاً بين كتمان الحديث و بين تحريفه وحمله على خلاف ظاهره، فإنّ الحديث الذي لا يمكن كتمانه لظهوره وشهرته وثبوته في جميع الكتب لايهون مثله على هذا الذي يعبّر الله عنه بالكافر فإنه يحمله على معنى بعيد عن الظاهر وإن لم يوافقه على هذا أحد إلا من هو مثله في اتباع الهوى وحبّ كتمان الحق فهم في ذلك سواء، أمّا أهل الحق والصدق فإنهم لايكتمون ولايحرفون.

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١١ ص٤٤.

ثم ذكر الله صنفاً آخر ممن تخلّف عن قبول أوامره وامتنع عن الاحسان الى الأصناف الذين أمر الله بالاحسان إليهم فقال تعالى:

والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس و لا يؤمنون بالله و لا باليوم الاخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً (٣٨).

هذه الآية الشريفة تذكر صنفاً من المنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ويظهرون للناس أنهم مطيعون لأوامر الله حيث أمرهم بالانفاق على من تقدم ذكرهم ، ولكن إنفاقهم إنما هو للناس وليس لامتثال أمر الله لأنهم لايؤمنون بالله ولايصدقون بيوم القيامة الذي فيه الثواب والعقاب، وليس لهم غاية من بذل المال إلا مدح الناس لهم وإن ذمّهم الله .

وقد أخبر الله عن هؤلاء بأنهم قرناء الشيطان ، وأنّ أسوأ قرين للانسان هو الشيطان نفسه، فإنّ الانسان يعلم علماً يقيناً قطعياً أنّ الشيطان هو عدوٌ له، يريد به السوء في كل وقت وعلى كل حال، فإذا اتخذه قريناً مع هذا العلم فإنه اتخذ قريناً سيئاً باختياره ورضاه ولا يرضى بذلك إلا ناقص العقل .

ثم إنّ الله سبحانه وجّه سؤالاً إنكارياً لكلا الفريقين أي الباخلين والمنفقين رياءً ، فقد وبّخهم بهذا السؤال وذمّهم على عملهم فقال تعالى :

وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الاخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً (٣٩) .

إنه تعالى يقول لهم أو يقول للنبي ﷺ أو لمن يعرف مصلحته ويراعي نفسه: أيّ ضرر من أضرار الدنيا والآخرة يرد على هؤلاء الذين يبخلون ويكتمون ما آتاهم الله من مال ومن علم قد بيّنه لهم النبي ﷺ لأجل إيضاح الحق والحقيقة

فأخفوه وكتموه لأجل أن يكتموا حقائق الدين الذي بيّنه الله لنبيه ، فلو أنهم آمنوا بالله وبيّنوا ما كتموه وأنفقوا ما عندهم من مال أو علم لينتفع به الناس هل يترتب على ذلك ضرر يصيبهم في دنياهم أو اخراهم ؟

فإذا فكّر العاقل في هذا السؤال الموجّه الى هؤلاء الذين كفروا أو بخلوا أو كتموا يعلم علماً قطعياً أنه لا يصيبهم ضرر في الدنيا أبداً لا كثير ولا قليل.

وأمّا في الآخرة فإنّ العاقل الذي لم يحصل له اعتقاد في الآخرة فينبغي له أن يتخذله طريقة موافقة للاحتياط، حيث إنّ من أمر منهم بشيء ليس في امتثاله ضرر عليه، ويحتمل احتمالاً عقلائياً أنّ في تركه ضرراً عليه يحكم العقل بوجوب إتيانه لأنّ احتمال الضرر يكون في الترك وليس في فعله، وهذا هو الحكم الذي عليه العقلاء .

وقد روي عن أبي منصور المتطبب قال : أخبرني رجل من أصحابي قال : كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفع في المسجدالحرام، فقال ابن المقفع: ترون هذا الخلق وأومى بيده الى موضع الطواف ، ما منهم أحد أوجب له اسم الانسانية إلا ذلك الشيخ الجالس ـ يعني جعفر بن محمد عليه السلام ـ فأمّا الباقون فرعاع وبهائم .

فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟
قال : لأني رأيت عنده ما لم أرَ عندهم .
فقال ابن أبي العوجاء : لابدّ من اختبار ما قلت فيه منه.
فقال له ابن المقفع : لا تفعل فإني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك .
فقال : ليس ذا رأيك ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه المحلّ الذي وصفت .

فقال ابن المقفع: أمّا اذا توهمت على هذا فقم إليه وتحفّظ ما استطعت من الزلل ولا تثن عنانك الى استرسال يسلمك الى عقال، وسمّه ما لك أو عليك .

قال : فقام ابن أبي العوجاء وبقيت وابن المقفع ، ورجع إلينا وقال : يابن المقفع ما هذا ببشر، واذا كان في الدنيا روحاني يتجسد اذا شاء ظاهراً ويتروح اذا شاء باطناً فهو هذا .

فقال له : و كيف ذاك ؟

قال : جلست إليه ، فلمّا لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال : إن يكن الأمر على مايقول هؤلاء وهو على ما يقولون ـ يعني أهل الطواف ـ فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر كما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم وهم .

فقلت له : يرحمك الله و أيّ شيء نقول و أيّ شيء يقولون؟ ما قولي و ما قولهم إلا واحد.

فقال: كيف يكون قولك وقولهم واحد وهم يقولون: إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بأنّ للسماء إلهاً و أنها عمران، وأنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد؟

قال : فاغتنمتها منه فقلت له : ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه ويدعوهم الى عبادته حتى لايختلف منهم اثنان؟ ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان أقرب الى الايمان به .

فقال لي: ويلك و كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك! نشؤك ولم تكن، و كبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، و سقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعدغضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعدحزنك، وحبّك بعد بغضك، وبغضك بعد حبّك، وعزمك بعد إبائك ، و إباؤك بعد عزمك ، و شهوتك بعد كراهتك ، و كراهتك بعد شهوتك ، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك ، و رجاؤك بعد يأسك، و يأسك بعد رجائك، وخاطرك ما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده من ذهنك. و ما زال يعدّ عليّ قدرته التي هي في نفسي التي لاأدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما

بيني وبينه[1].

وشاهدنا من ذكر الرواية بطولها كلمته الاولى وهو قوله: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء . . . فقد سلموا وعطبتم.

وبعد هذا توجّه السؤال الى هؤلاء الذين سمعوا كلام النبي ﷺ المتعلّق بالدين فبخلوا بنشره للناس وأمروا أصحابهم ومن تابعهم بعدم نشره و كتموه عن كل أحد، نسألهم بعد أن سألهم الله: ما كان يحدث عليهم وما يصيبهم لو حدّثوا به وأعلنوه للملأ، ونقول لهم- كما قال الامام لابن أبي العوجاء-: إن كنتم لا تعتقدون بالمعاد فإن كان الأمر كما فعل غيركم من نشر حديث النبي و إذاعته لأنّ الدين لا يتمّ إلا به فقد سلموا و عطبتم. ولاريب أننا نخاطب أهل عصرنا هذا، أمّا أهل ذلك العصر - أي الذين كانوا بعد النبي - فقد مضوا وعلموا أنهم قد عطبوا، وإن كان الأمر كما فعلوه من البخل بالحديث وإيثار كتمانه وليس كما يقولون فقد ساويناهم في كل شيء فلا نأسف ولا نندم.

ومن جملة الأحاديث التي بخل بنشرها و كتمت أو حرفت وحملت على خلاف معانيها الحقيقية ما ناشدهم عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام حين خطبهم بالكوفة فقال: نشدت الله رجلاً سمع النبي يقول يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه» إلا قام فشهد، فقام جماعة وامتنع بعضهم، فسأله علي عن عدم شهادته، فقال: كبرت ونسيت، فقال علي: إن كذبت في مقالك هذا ضربك الله ببياض لا تستره العمامة، فضربه الله ببياض في جبهته فكان ينزل عمامته على جبهته فينزل البياض فلا تستره العمامة[2].

و في هذا العصر كل إنسان مكلّف بنفسه و مسؤول عنها، و السؤال موجّه إليه من الله، فإذا علم بصدق الحديث المروي عن النبي ﷺ فعليه أن يعمل به

(١) سفينة البحار: ج٢ ص٤٣٩ مادة «قفع».

(٢) الغدير: ج٢ ص١٨١ نقلا بالمعنى.

وينشره لقومه وأصحابه ولا يكتمه، والله يعلم ذلك منه ويجازيه على عمله كما يصرح له في آخر الآية ويعده بالجزاء الحسن بقوله تعالى: **« و ماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الاخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً».**

انظر كيف يعد كم الله بالجزاء الحسن حيث إنه عالم بكم و بما تعملون ، فمن شاء أن يتدارك نفسه في حياته قبل فوات الأمر وحضور الأجل فالطريق واضح.

ثم إنّ الله عقب ذلك الأمر الأول وهو الحكم على من بخل و كتم أحاديث النبي بالكفر و توعدهم بالعذاب المهين، فإنه ليس بظالم لهم و إنما هو جزاؤهم وذلك قوله تعالى :

ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً (٤٠) .

أسمعت أيها المسلم الذي تريد النجاة في الآخرة من العذاب، وتحبّ أن تلقى الله يوم تموت ويوم تبعث وهو راضٍ عنك غير ساخط عليك ، فلاتفعل ما نهاك الله عنه من البخل بنشر الحديث وأمر الناس بذلك و كتمانه وتحريفه وحمله على غير حقيقته، فمن يفعل ذلك ـ أي يبخل و يكتم فيكفر ـ فإنّ الله غير ظالم له في إدخاله في العذاب المهين .

وأمّا من يجود بنشر الحديث ويحدّث به الناس ويعمل به ويحمله على معناه الحقيقي فإنّ الله يجعل لهذا العمل حسنة ، ثم يضاعف له هذه ، ولم ندر الى كم يضاعفها له ، فإنها ـ أي المضاعفة ـ غير محدودة ، ثم بعد ذلك يؤتي الله من لدنه ـ أي من فضله وإحسانه ـ من غير كونه جزاء على عمل وهذا العطاء أجر عظيم، فالشيء الذي يعبّر الله عنه بالعظيم لا يمكن أن يتصوره الانسان، فهل يسوغ في حكم العقل أن يترك الانسان المحتاج الى حسنة واحدة يوم القيامة

هذا الأجر العظيم لأجل كتمان حديث بلغه عن رسول الله ﷺ وقد أمره إنسان مثله بالكتمان، وهذا الكتمان يعود نفعه الدنيوي لذلك الآمر! فإنّ عقلك يمنع عن تضييع هذا الأجر العظيم لنفع غيرك .

ثم إنّ الله تعالى ذكر مايؤول إليه أمر هذا الكاتم للحديث يوم حشر الناس للحساب والثواب والعقاب فقال تعالى :

فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً (٤١) .

أي : كيف يكون حال المخالفين لأوامر الله تعالى؟ وكيف يعمل من أظهر للنبي ﷺ الايمان والتصديق به ولكنه بخل بإيصال قوله وإبلاغ من كان غائباً بأمره وكتم حديثه . فلمّا ذكّر به حرّفه وحمله على غير معناه المقصود منه؟ كيف حال هذا المرء اذا حشر الله الناس وحشر الأنبياء ليشهدوا على اممهم.

ثم يقول الله للنبي ﷺ : «وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» أي: نسألك عن عمل المنافقين من امّتك الذين بخلوا عليّ بذل المال وبذل الحديث الذي هو تكملة للدين فكتموه .

وقد وردت الأخبار في تفسير الآية أن كل نبي يشهد على قومه وامّته في ذلك اليوم فيشهد للمطيع بالطاعة وعلى العاصي والمخالف بالمعصية .

وهكذا نبينا ﷺ يشهد على امّته، كما ورد في الصافي عن الصادق عليه السلام أنّ الآية نزلت في امّة محمد ﷺ خاصة ، في كل قرن منهم إمام شاهد عليهم ومحمد ﷺ شاهد علينا .

وروى في الصافي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه أحوال أهل الموقف قوله عليه السلام : فيقام الرسل فيُسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها الى

امهم فأخبروا أنهم قد أدوا ذلك الى امهم ، وتُسأل الامم فيجحدون كما قال الله : «فلنسألنّ الذين ارسل اليهم ولنسألنّ المرسلين» [1] فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيستشهد الرسل رسول الله فيشهد بصدق الرسل ويكذب من جحدها من الامم فيقول لكل امّة منهم : بلى قد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ، أي : مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» فلا يستطيعون ردّ شهادته خوفاً من أن يختم الله على أفواههم، وأن يشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون ، ويشهد على منافقي قومه وامّته وكفارهم بإلحادهم وعنادهم ونقضهم عهده وتغييرهم سنّته واعتدائهم على أهل بيته وانقلابهم على أعقابهم وارتدادهم على أدبارهم واحتذائهم في ذلك سنّة من تقدمهم من الامم الظالمة الخائنة لأنبيائها فيقولون بأجمعهم «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالّين» [2] .

ثم قال الفيض الكاشاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره بعد ذكره الحديثين المتقدمين:

أقول: نزول الآية في هذه الامّة لا ينافي عموم حكمها، فلا تنافي بين الروايتين، وقد مضى تمام الكلام في هذه في سورة البقرة عند قوله سبحانه: «وكذلك جعلناكم امّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس» [3] انتهى كلام الفيض أعلى الله مقامه [4] .

نعم إنّ نبينا ﷺ يشهد على كل واحد من امّته بما عمل فيقول : فلان ابن فلان صدقني وعمل بما أمرته به ولم يغيّر ولم يبدل ولم يكتم الحديث الذي أمرت بالعمل به ولم يحرفه ولم يحمله على خلاف معناه، ثم يلتفت الى آخر أو الى جماعة اخرى فيقول: هؤلاء أظهروا الايمان وأظهروا التصديق بي ولكنهم قد

---

(١) الاعراف : ٦ .

(٢) المؤمنون : ١٠٦ .

(٣) البقرة : ١٤٣ .

(٤) تفسير الصافي : ج١ ص٤١٨ .

انقلبوا من بعدي على أعقابهم وقد ارتدوا ولم يعملوا بأوامري ولم ينشروا ما أمرتهم بنشره من الحديث فكتموه وغيّروا معناه وحرفوه، وقد سببوا بفعلهم هذا اختلاف امّتي وافتراقهم الى فرق عديدة كلّها خرجت عن الدين إلا فرقة واحدة وهي التي تمسكت بدينها .

فكيف تعمل هذه الفرقة التي شهد عليها النبي ﷺ بالارتداد ؟ ليس لها إلا التمني الذي لا طمع لهم به كما أخبر الله عنه بقوله :

يومئذ يود الذين كفروا و عصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثاً (٤٢) .

أتعرف من هؤلاء الذين يتمنون أن تسوى بهم الأرض؟ وقبل الجواب عن هذا السؤال لابدّ من الاشارة حول تسوية الأرض التي وردت في الآية الكريمة ، فهي عبارة عن أن تكون الحفرة التي دفنوا بها مملوءة حجراً بحيث لايبيّن فيها أثر من الحفر ، ولم يكن فاصل بين ذرات الحجر ، فتكون مصمتة [1] متراصة الأجزاء حتى لا تتبيّن أجسادهم ولم يمكن فصلها من الأرض ، وما علموا أنّ قدرة الله فوق ذلك، فإنّ الأجساد تستحيل تراباً وتختلط به وتستحيل ماءً وتمزج به ، وتستحيل الى معادن اخرى كالملح وغيره ، فإذا جاء أمر الله ميّزت وفصّلت عما اختلطت به .

وأمّا الذين يتمنون ذلك فهم الذين أمرهم النبي ﷺ حين كانوا في الدنيا من الأصناف التي ذكرت في الآية، وهم الذين بخلوا بنشر الحديث وأمروا الناس بالبخل وكتموا ما آتاهم الله، كتموا ما أمرهم النبي ﷺ بإذاعته وبيانه والعمل على طبقه .

---

(١) المصمت : الذى لاجوف له . (المنجد) .

وهل تدري أيّ حديث هذا الذي كتموه؟ إنه مهمّ جداً لأنّ الله قد عابهم وذمّهم على كتمانه، وهم في يوم الحشر يتمنّون أن لايكونوا كتموه، ليس عندنا حديث مهمّ له هذه الأهمية العظيمة و الذي يحكم الله بكفر كاتمه إلا الحديث الذى جمع رسول الله ﷺ الناس له في رجوعه من حجة الوداع، وكانوا مائة وعشرين ألفاً، فحدّثهم وأمرهم أن يبلّغ الحاضر منهم الغائب.

وحيث إنّ هذا الحديث به كمال الدين وإتمام النعمة كما قال تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي»[1] فمن أنكره و جحده يتمنّى يوم القيامة أن تكون الأرض تساوت به ولم يكن عصى الرسول و كتم الحديث، إنّ كتمان هذا الحديث هو السبب في حدوث اثني و سبعين فرقة باطلة مقابل فرقة واحدة متمسكة بالحديث عاملة على طبقه.

إنّ كتمان هذا الحديث هو الذي أوقع العداوة بين امّة محمد ﷺ، و صار بعضهم يكفّر بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، لأنّ من بخل بنشره و بيانه جعل يأمر الناس بالبخل، فمن لم يوافقه على ذلك يعاديه ويقتله ويكفّره، ومن يوافقه على ذلك يكفّره الله و يتوعده بالنار و العذاب المهين. فحدثت هذه الفرق الكثيرة التي أخبر رسول الله ﷺ أنها في النار[2].

و روى الفيض في تفسيره عن علي بن إبراهيم قال: يتمنى الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض تبلعهم في اليوم الذي اجتمعوا فيه على غصبه، وإن لم يكتموا ما قال رسول الله ﷺ فيه[3].

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) سفينة البحار: ج٢ ص٣٥٩ مادة «فرق».

(٣) تفسير الصافي: ج١ ص٤١٨.

سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً الا عابري سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفواً غفوراً (٤٣).

إنّ الله تعالى نادى عباده المؤمنين والمؤمن هو الذي يؤمن بالله ويصدق رسوله ويعمل بما أمر الله ورسوله، ولا يترك شيئاً من الأوامر و النواهي إلا امتثلها وعمل بمقتضاها، فلو ترك شيئاً منها كان ناقص الايمان.

والمؤمن اذا أراد أن يصلّي لله يعرف أنه يريد أن يناجي الله ويكلّمه، وهو بهذه النية وهذه الارادة لابدّ وأن يكون مستجمع العقل والفكر والتمييز ومعرفة ما يتكلّم به، فالمؤمن العاقل عنده حكم عقلي ينهاه عن القيام للصلاة مالم يقطع أنه على علم بما يقوله ويتكلّم به ويناجي به ربه.

وهذا الأمر الذي وجّهه الله الى المؤمنين وإن كان عاماً يشمل الجميع، فهو بالنسبة الى العاقل العالم به الملزم نفسه في تحقيقه يكون مؤكّداً لحكمه العقلي، وبالنسبة الى الجاهل الغير عارف وضعيف الدين والايمان تعليم وإرشاد ودلالة على طريقة العمل التي يكون بها العمل مقبولاً عند الله.

فلا عبرة بما ينسبه بعض المفسرين كابن كثير وأمثاله الى كامل الايمان من أنه صلّى وهو في حالة سكر وقرأ نعبد ماتعبدون[1]، فإنّ العاقل فضلاً عن كونه مؤمناً لايشرب خمراً كما ورد في حقّ جعفر بن أبي طالب أنّ الله شكر له أربع خصال: منها عدم شربه الخمر[2]، فكيف عمن كان كامل الايمان والعقل صارفاً

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٢ ص٢٩٢.

(٢) أمالي الصدوق: ص٧٠.

أوقاته وحالاته في طاعة الله .

أمّا اذاكان الانسان ضعيف الايمان أو قليل المعرفة ولا يعرف معنى الصلاة فإنه يقال له لاتقرب الصلاة وأنت سكران، فإنه يظن أن الصلاة قيام وقعود وقراءة قد حفظها ويتلوها حين الصلاة ، وقد يغلط ويخلط ولا يعرف ما يقول .

ثم إنه قد ذكر المفسرون في معنى السكران أقوالاً، فقال بعضهم: هو شارب الخمر[١]، وقال بعضهم : النعسان أو الكسلان أو المتثاقل[٢].

وعلى كل حال فالمقصود أن يقوم الانسان لصلاته وهو يعلم ما يقول ملتفتاً الى ما يتكلّم به هذه هي الغاية المذكورة في الآية :«**حتى تعلموا ماتقولون**» .

فإن الانسان الذي يريد حفظ نفسه ويريد أن يكون في مظهر جميل بحيث يُعد من العقلاء اذا تكلّم مع سائر الناس يحافظ على كلامه من الغلط وينتقي الكلمات الجميلة ، أمّا اذا أراد أن يكلّم شخصية كبيرة مثل الملك أو الوزير فإنه يهيىء له كلاماً خاصاً حذراً من وقوع الشطط في كلامه ، فكيف بهذا الانسان الكامل اذا أراد أن يقف بين يدي جبار السماوات وهو يعرف عظمة الله !

فلا بد أن ينبذ كل فكرة عنده ويهيىء نفسه لفصيح الكلام ، و مهما بلغ الانسان من الكمال فإنه عاجز عن تهيئة كلام يخاطب الله به في صلاته ، وأن الله هو الذي أنزل على رسوله كلاماً وأمره أن يعلمه امّته لكي يخاطبوا الله به في صلاتهم وهو سورة الفاتحة والتسبيحات الأربعة وذكر الركوع والسجود . فعلى الانسان أن يعرف معناها ويخاطب بها ربه حين الصلاة ، ويلزمه أن يكون على أهبة واستعداد وجامعاً لشروط الكلام .

وأمّا الصلاة التى أمر الله بعدم القرب منها حتى يعلم مايقول فالمرادمنها إمّا نفس الصلاة وإمّا موضع الصلاة ومكانها .

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص٥١ .

(٢) تفسير الصافي : ج١ ص٤١٩ .

فإن كان المقصود نفس الصلاة يكون قوله : **«ولا جنباً الا عابرى سبيل»** أي: لاتقربوا الصلاة وأنتم جنبب إلا في حالة السفر بحيث لاتجدون الماء للغسل، وحينئذ يجوز لكم الصلاة بالتيمم.

و إن كان المقصود موضع الصلاة وهو المسجد فيكون قوله: « ولاجنباً إلا عابري سبيل» أي: لايجوز الدخول في المسجد للجنب إلا عابراً و مستطرقاً كما عليه فتوى العلماء، ويستثنى من ذلك المسجدان فإنه لايجوز الاستطراق منهما.

ثمّ بيّن الله حكم المحتاج الى طهارة من وضوء أو غسل ولم يتمكن منهما فقال تعالى: **«وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً».**

بيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآية أنّ الذي عليه غسل أو وضوء ولم يتمكن من ذلك إمّا لمرض أو لعدم القدرة للوصول الى الماء فيكفيه التيمم لصلاته ، وهذه المسألة مذكورة تفصيلاً في كتب الفقه والرسائل العملية.

ثم ذكر الله عباده بفضله عليهم بقوله: **«ان الله كان عفواً غفوراً».**

إنّ العبد الذي خلقه الله من العدم وأنعم عليه بالوجود وجعله إنساناً سوياً كامل الأعضاء والجوارح، ثم تلطف عليه فدعاه الى مناجاته ليجيبه اذا ناجاه، فإذا قام العبد الى المناجاة وشرب مايزيل عقله ويذهب بشعوره ويفسد تمييزه ، و هو يعرف ويدري أنه يلزمه القيام ليخاطب ربه ومع ذلك يقدم على هذا الفعل الشنيع فهو من أجهل الجهلاء وأسفه السفهاء.

وبعد هذه الفعلة الشنيعة فإنّ الله لايريد أن يطرده عن بابه ولاينحّيه عن خدمته ولايجعله آيساً من رحمته فأخبره ابتداءً منه وقبل الطلب من العبد وتفضل عليه رحمةً به وعطفاً عليه بأنه اذا فعل ما فعل من الجهالة و السفاهة فإنه يعفو عنه ويغفر له ويقبله اذا ناجاه، وليست هذه الفعلة مانعة عن العود الى الله، فليتدارك العبد أمره و لايكرر فعل السفهاء، فإنّ العبد قبل نزول هذه الآيات كان جاهلاً

بالأحكام التي بيّنها الله فصار بعد نزولها عالماً بها.

وكذلك علم أنّ القيام الى الصلاة بعد شربه الخمر وصيرورته سكراناً أو حينما يكون ناعساً شيء غير مقبول عندالله، فلابدّ أن يكون صاحياً مميزاً لما يقول، فإذا بقي مصراً على فعله بعد العلم بالحكم يستحقّ الطرد والبعد.

وقد زادنا الله تبصرة حيث عرّفنا بما عليه جماعة من الناس من إصرارهم على المعصية والمخالفة بعد العلم بالحكم فقال تعالى:

ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل(٤٤).

فإنّ الله قد ذمّ هؤلاء القوم الذين يعلمون بما في الكتاب وهم يخالفونه، فالذين يعلمونه هو الهدى ومخالفتهم له هو الضلالة، فهم يشترون الضلالة، أي: يأخذونها كما يأخذ المشتري السلعة ويدفع الثمن وهو ـ أي الثمن الذي دفعوه ـ هو الهدى.

ألا وإنّ العجب كل العجب في هذه الصفقة المشومة على أهلها، ويظهر معنى التعجب في قوله «ألم تر» سواء كانت الرؤيا قلبية أو بصرية، فإنّ هـذا الفعل وهذه المعاملة لايقدم عليها إلا المجنون بأن يعطي شيئاً في غايه الحسن ويأخذ شيئاً في غاية الخبث والسوء، يعطي شيئاً فيه الكثير من النفع الدائم الباقي ويأخذ شيئاً فيه كثير من الضرر الدائم الباقي، ليس هـذا من فعل العقلاء، ولكن الحسد والبغض والحقد يحمل الانسان على ذلك.

وأنت أيها المسلم بعدما عرفت هذه الأحكام من الآيات المنزلة على نبيه اذا خالفته وعصيت الله فيها يكون حالك كحال هؤلاء القوم، أي: أنك تشتري الضلالة بالهدى، وأحسن شيء أن امثّل لك بأمر من امور الدنيا فإنك تتعقلها قبل تعقلك

لامور الدين، فأقول لك:

لو عرضت عليك إحدى الوزارات التي تعطى لكلّ أحد في هـذا العصر وأنت ترفضها وتختار وظيفة كناس يكنس الشوارع صباحاً ومساءً ويتلقى التراب والغبار حتى يمتلأ حلقه وعينه منهما، أترى هذا من العقل والتمييز! ويا حبذا لو صرت كناساً ولكنه العذاب في نار جهنم.

ثم إنّ الله عزّ وجلّ نبه المسلمين الى شيء آخر في قوله: **«ويريدون أن تضلوا السبيل»** نبّهنا الله تعالى بأنّ هؤلاء الذين تركوا الهدى ورفضوه وأخذوا عوضه الضلالة لم يكتفوا بجعل الضلالة خاصة بهم بل يريدون أن يضلّوا المسلمين بأن يخرجوهم عن الطريق المستقيم ويدخلونهم في الطريق المعوج المظلم الذي يتيه المرء بسلوكه ولا يهتدي الى الدين و الى الاسلام، وإنما يخرج المرء من طريق الحقّ الى الباطل اذا تابع هؤلاء القوم و هم أهل الكتاب الذين عندهم علم من الكتاب وهي التوراة و الانجيل، فهم يجيؤون الى المسلم المتمسك بدينه فيخدعوه عن دينه و يدعون أنهم أعرف بالدين منه و أنهم يحبونه و ينصحونه ويطلبون منه المتابعة لهم.

وفي هـذا العصر الذي صار الناس فيه بعيدين عن الدين يأتي أهل الكتاب الى صاحب القوة والسلطة فيقولون له نحن أعلـم بالسياسة وقوانين الحكومات منك ونحن نحبك و نريد لك الخير والنفع، فاعمل بما نأمرك به حتى تبقى لك الرئاسة والامارة و الملوكيه. فإذا صـار في طاعتهم أخذوا منافع البلاد وتركوا الشعب فقيراً معـدماً معذباً والملك وحاشيته منعمين مترفين، فإذا خالفهم الملك في مسألة من المسائل غضبوا عليه وفعلوا به الأفاعيل العجيبة كما شاهد كل واحد منا ذلك في كثير من الملوك والرؤساء وغيرهم.

وقد نبّه الله الملوك وغيرهم بأنّ هؤلاء القوم ـ وهم أهل الكتاب ـ يكذبون في دعواهم الحبّ والنصيحة لكم وإنما هم أعداء لكم فقال تعالى:

والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً (٤٥).

إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ جميعاً الرئيس والمرؤوس، ويعلمهم أنّ هؤلاء القوم ـ وهم المعبّر عنهم بأهل الكتاب، وهم الكفرة والمستعمرون للبشر، وهم الذين سلبوا أموال الناس وسلبوا دينهم وغيرتهم وشرفهم ـ يظهرون لكم الحبّ والمودة والنصيحة، ولكنهم يكذبون في دعواهم، وإنما هم أعداؤكم، وإنه يعلم السرّ وأخفى ويعلم وساوس الصدور، وإنّ قلوب القوم مشحونة من البغض والعداء لكم ولا يريدون إلا إضلالكم وإخراجكم من الطريق المستقيم.

وكأني بهذا الملك أو الرئيس المطيع لهم والتابع لهم في أقوالهم وأفعالهم يقول: إني اذا خالفتهم ولم اطبّق مايقولون أخشى أن يكيدوا بي وأن يدبروا حيلة في قتلي والفتك بي، فأقول أو يقول الملك أو الرئيس الذي يجالسه: إن الله تعهد لك أن يكفيك شرهم إن كنت تعتمد على الله وتصدق بوعده فإنه قال لك: **«وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً».**

فإذا أنت عاملتهم كما أمرك الله ـ أي لم تتخذهم أولياء ولا تعامل المسلمين كما يأمروك ولا تظلم شعبك لأجل نفعهم ولا تطلب رضاهم بسخط الله ـ فإنّ الله قد تعهد أن يكون لك ناصراً ووليّاً، وإذا كان الله هو وليك هل تظنّ أنّ أحداً يقدر أن يضرك؟ لكن الله اشترط مع ذلك شرطاً آخر وهو العدل في الرعية وعدم الظلم لهم والمساواة بينهم فلا ترجح منهم أحداً على غيره.

ولو أنّ ملوك ورؤساء الحكومات الاسلامية ساروا على هذا الطريق لما تمكن أذلّ الامم وأحقر البشر أن يغتصبوا أراضيهم ويجعلوا حكومتهم فيها ويعتدوا عليهم في كل وقت، وأنا أودّ وكل مسلم يودّ أن يجعل ملوك ورؤساء الحكومات الاسلامية هذه الآية نصب أعينهم ويتذاكروا مضمونها فيما بينهم: « ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل *

والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً».

ثم أنزل الله بعد هذه الآية آيتين، الاولى منهما وهي قوله تعالى:

من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا (٤٦).

يصف فيها اليهود ويذكر أفعالهم السيئة وماقاموا به من أذى النبي صلى الله عليه وآله ويحذر المسلمين عن موالاتهم ويأمرهم بالتباعد عنهم، وبيّن للمسلمين أنّ اليهود يطعنون في دينكم ويعيبون نبيكم فلاتصدقوهم ولابكلمة واحدة.

وأمّا الآية التي بعدها فهي قوله تعالى:

يا أيها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا (٤٧).

يأمرهم الله فيها بالايمان وبتصديق هذا النبي الذي عرفوا صدقه من التوراة فلايخالفوها، ثم يتوعدهم اذا هم لم يؤمنوا بتوعدهم أن يطمس وجوههم فيصدهم على أعقابهم أو يلعنهم كما لعن أصحاب السبت.

وكل هذه الآيات لم تؤثر شيئاً معهم، وهذا التهديد والوعيد لم ينفع معهم، فهم على عداوتهم للمسلمين يتربصون بهم الفرص، وقد اتفقوا جميعاً على المسلمين ليضلّوهم عن دينهم وقد نجحوا مع كثير من المسلمين في ذلك، وينبغي للبقية الباقية

من المسلمين أن يحذروهم، وإلا فإنهم يضلّوهم عن دينهم كما أضلّوا غيرهم .

قوله تعالى: ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثماً عظيماً(٤٨) .

إنّ ظاهر هذه الآية واضح لايحتاج الى تفسير، والمعنى: أنّ الله يغفر لعباده كل ذنب اذا اقتضت مشيئته الغفران إلاالشرك به، أي: العبد الذي يجعل لله شريكاً في العبادة فهذا لايغفر الله له، وماعدا هذا يرجع الى مشيئة الله، فهي واضحة الظاهر.

وإنما الغرض من ذكرها هو بيان ما ذكره في مجمع البيان من سبب النزول ليعلم الانسان عظمة فضل الله عليه و كثرة حبه له وإرادة الخير لعبده، وأنّ العبد هو الذي يلقي نفسه في الشرّ بسوء اختياره، و إني أذكر هنا عبارة المجمع بعينها وهي مايلي:

قال الكلبي: نزلت في المشركين ، وحشي وأصحابه وذلك، أنه لما قتل حمزة وكان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك، فلمّا قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا الى رسول الله ﷺ: إنا قد ندمنا على الذي صنعناه وليس يمنعنا عن الاسلام إلا أنّا سمعناك تقول و أنت بمكّة « و الذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون »[1] ، وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزنينا فلولا هذه لاتبعناك . فنزلت الآية «إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً...»[2] ، فبعث بهما رسول الله الى وحشي وأصحابه ، فلمّا قرأهما كتبوا إليه: إنّ هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فلانكون من أهل هذه الآية، فنزلت هذه الآية «ان الله لايغفر

(١) الفرقان : ٦٨ .
(٢) الفرقان : ٧٠ .

أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فبعث بها إليهم فقرأوها فبعثوا إليه: إنّا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته، فنزلت: «ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً»[١] فبعث بها إليهم، فلمّا قرأوها دخل هو و أصحابه في الاسلام و رجعوا الى رسول الله ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلت حمزة؟ فلمّا أخبره قال: ويحك غيّب شخصك عنّي. فلحق وحشي بعد ذلك بالشام وكان بها الى أن مات[٢].

هذا ما ذكره في سبب النزول، ولكن الانسان إذا تأمّل فيها يقطع بأنّ الله تعالى لا يهتم هذا الاهتمام العظيم بوحشي وإسلامه وأنه أنزل هذه الآيات كلها لأجل أن يسلم وحشي قاتل حمزة أسد الله وأسد رسوله فيعيش بين المسلمين آمناً مطمئناً ويبقى الى أن يموت يتعاطى الخمر ثم يموت من الخمر على ما ذكروا في ترجمته، مع أنّ النبي ﷺ قال له: غيّب شخصك عنّي، فلو علم النبي منه أنه يسلم إسلاماً حقيقياً فيكون من المؤمنين لما قال له ذلك بل كان يستغفر له ويقره في المدينة ليكثر به المؤمنين، ولكن وحشي أراد أن يحقن دمه وماله ويبقى سكّيراً في كل أوقاته لا يتعرض له أحد من المسلمين.

وحيث إنّ الآيات التي قبل هذه الآية كلّها كانت في ذمّ اليهود وفي بيان صفاتهم السيئة ونواياهم الفاسدة فهذه الآية آيستهم من شمول رحمة الله لهم وبيان عدم غفرانه لهم لأنهم كفروا و أشركوا، و قد جاءت الآية التي بعدها في بيان مساوئهم وقبيح صفاتهم.

قوله تعالى: ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا (٤٩).

---

(١) الزمر:٥٣.

(٢) مجمع البيان: ج٣ ص٥٦.

إنّ هذه الآية وإن كانت في مساق الآيات الذامّة لليهود ولكنها عامّة في ذمّ كل من يزكّي نفسه ويحمدها، فكل من يزكّي نفسه فقد شهد عليها بالذمّ والنقصان وبُعدها عن الله، وكل من وصف نفسه بوصف يميّزها به عن سائر المؤمنين ولم تكن التسمية والوصف عن الله أو عن رسوله فإنه وصف يشهد بنقصانه واغتصابه لصفة غيره كما يسمي الشخص نفسه بأمير المؤمنين، فمن لم يجعل الله ورسوله هذه الامارة له فإنها إمارة مزعومة لا حقيقة لها، فلينظر الانسان المميّز لكل من تسمّى بهذا الاسم «أمير المؤمنين» من يوم عرف هذا الاسم ومن يوم وجد المؤمنون الى يومنا هذا ويحاسب المتسمّين به فرداً فرداً. فهل أنّ الله ورسوله والمؤمنين يرضون به أن يكون أميراً للمؤمنين؟ أو أن المسمّى به هو انتحاله لنفسه فيكون من مصداق الآية «**ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم**» ويشمله ذمّ الله له وإنكاره عليه.

حكي عن الاحياء قال: قدم هشام بن عبدالملك حاجّاً أيام خلافته فقال: آتوني برجل من الصحابة، فقيل: قد تفانوا، قال: فمن التابعين، فاتي بطاووس اليماني، فلمّا دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلّم عليه بإمرة المؤمنين بل قال: السلام عليك، ولم يكنّه وجلس بإزائه وقال: كيف أنت ياهشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً وقال: ياطاووس ماالذي حملك على ماصنعت؟! قال: وماصنعت؟ فازداد غضبه فقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين، ولم تكنّني، وجلست بإزائي وقلت كيف أنت يا هشام، فقال طاووس: أمّا خلع نعالي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي ربّ العزة كل يوم خمس مرات ولا يغضب عليّ لذلك، وأمّا قولك لم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب، وأمّا قولك لم تكنّني فإنّ الله عزّ وجلّ سمّى أولياءه فقال: يا داود ويا يحيى ويا عيسى وكنّى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب، وأمّا قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام. فقال

هشام : عظني، فقال طاووس: سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إنّ في جهنم حيّات كالتلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وهرب[1] انتهى.

إنّ هذا الرجل العالم العامل بعلمه المتمسك بأحكام دينه قد تحرج عن تسمية هشام بأمير المؤمنين لأنه لم يحرز رضا المؤمنين بأن يكون أميراً عليهم، بل يحرز العكس ويعتقد بعدم رضاهم، فإنّ الذي يكون أميراً على المؤمنين يلزمه أن يكون أعلمهم وأتقاهم وأقدمهم في كل شيء، حتى اذا عجز المؤمنون كلهم عن شيء فزعوا إليه فيكون عنده الحلّ الصحيح لكل قضية، دينية كانت أو دنيوية.

فقد ظهر من موقف طاووس مع هشام أنه كما لا يجوز للمرء مهما كان عنده من صفات جميلة أن يسمي نفسه أمير المؤمنين كذلك لا يجوز لأحد أن يناديه بهذا ويقول له يا أمير المؤمنين، فإنه يكون مساعداً ومؤيداً له على الباطل.

أمّا اذا كانت التسمية من الله أو من رسول الله فلا بأس بمناداته به ووصفه بهذا الوصف، ولذا سمعت طاووساً قد أطلق الوصف على الامام علي بن أبي طالب عليه السلام مرتين في كلامه مع هشام لأنه على يقين من أنّ النبي وصفه به وسمّاه أمير المؤمنين في حياته.

أمّا من لم يعلم تسميته من النبي صلى الله عليه وآله فلا يقدر صاحب الدين أن يسمّيه أمير المؤمنين لأنه كذب على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين إلا أن يكون في مقام تقية.

أمّا وصف النبي صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام بأمير المؤمنين فقد ذكر في كتاب «فضائل الخمسة من الصحاح الستة» عن حلية الأولياء روى بسنده عن أنس قال: قال رسول الله (ص): يا أنس اسكب لي وضوءً، ثم قام فصلّى ركعتين ثم قال: يا أنس أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد

(١) احياء علوم الدين : ج٥ ص١٢١ .

الغرّ المحجلين وخاتم الوصيين . قال أنس : قلت : اللهمّ اجعله رجلاً من الأنصار وكتمته إذ جاء علي عليه السلام فقال : من هذا يا أنس ؟ فقلت : علي ، فقام مستبشراً فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه ، ويمسح عرق علي بوجهه . قال علي : يا رسول الله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت بي من قبل! قال: وما يمنعني وأنت تؤدي عني وتسمعهم صوتي وتبيّن لهم مااختلفوا فيه بعدي ، قال أبو نعيم: رواه جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن أنس نحوه [١] انتهى .

وفي تاريخ بغداد بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : ليس في القيامة راكب غيرنا ونحن أربعة . قال : فقام عمه العباس فقال له: فداك أبي وامّي أنت ومن ؟ قال : أمّا أنا فعلى دابة الله البراق ، وأمّا أخي صالح فعلى ناقة الله التي عقرت، وعمي حمزة أسد الله وأسد رسوله على ناقتي العضباء، وأخي وابن عمي وصهري علي بن أبي طالب على ناقة من نوق الجنة مدبجة الظهر رحلها من زمرد أخضر مضبب بالذهب الأحمر رأسها من الكافور الأبيض وذنبها من العنبر الأشهب وقوائمها من المسك الأذفر وعنقها من لؤلؤ ، وعليها قبة من نور الله ، باطنها عفو الله ، ظاهرها رحمة الله، بيده لواء الحمد، فلا يمرّ بملأ من الملائكة إلا قالوا: هذا ملك مقرب أو نبيّ مرسل أو حامل عرش ربّ العالمين، فينادي منادٍ من لدنان العرش ـ أو قال من بطنان العرش ـ : ليس هذا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ولا حامل عرش ربّ العالمين ، هـذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، وإمام المتقين ، وقائد الغرّ المحجلين الى جنّات ربّ العالمين ، أفلح من صدقه وخاب من كذبه ، ولـو أنّ عابداً عبد الله بين الركن والمقام ألف عام وألف عام حتى يكون كالشن البالي ولقى الله مبغضاً لآل محمد أكبّه الله على منخره في نار جهنم [٢] .

وهذا المقدار يكفي دليلاً لاختصاص علي بهـذا اللقب ، أمّا غيره فلا دليل

---

(١) فضائل الخمسة : ج٢ ص١١٤ نقلا عن حلية الاولياء: ج١ ص٦٣ .

(٢) فضائل الخمسة: ج٢ ص١١٥ نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادى: ج١٣ ص١٢٢ .

على جواز وصفه به ، فالذي تحقق لنا من الآية الشريفة أنها تردّ على أهل الكتاب قولهم : «نحن أبناء الله وأحباؤه» (١) وقولهم : «لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً أو نصارى »(٢) وفيها ذمّ وردّ على كل من وصف نفسه بصفة تميّزه عن سائر المسلمين وتفضّله عليهم إلا أن تكون من الله والرسول كما ينبّه على ذلك قوله تعالى : « بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا » ، فإنّ من كان مستحقاً لصفة حسنة استحقها بعمل خالص ونيّة خالصة فإنّ الله يزكّيه ويصفه بما يستحق.

ثم أمر الله النبي ﷺ وكل ذي عقل ورأي وتمييز أن يتأمّل في هؤلاء القوم الذين يزكّون أنفسهم ويختارون لها الألقاب الكاذبة افتراءً على الله وعلى رسوله فقال تعالى :

انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً (٥٠).

إنّ تزكية النفس بالشيء الذي يسند الى الله تعالى هو إثم عظيم، والآية الشريفة تسمّيه افتراءً على الله وذلك مثل قول اليهود والنصارى «نحن أبناء الله وأحباؤه» وقولهم : نحن أزكياء عند الله، وكذا الألقاب التي لا يمكن أن تعطى إلا من قبل الله والرسول كلقب أمير المؤمنين ويعسوب المتقين فإنه ادعاء بلا حجة.

أمّا الامور الاخر التي لا ربط لها بغيره كقول القائل : إني ما تركت الصلاة ولا الصيام مدة عمري ، أو : ما قتلت نفساً ، فهذه وأمثالها لا بأس بها لأنها لا تمسّ بغيره ولا يريد صاحبها بها خلافةً أو تأمّراً على أحد، فكل من نسب نفسه الى صفة تكفيه فخراً وثواباً بحيث لا يحتاج معها الى عمل آخر، وأنّ هذه النسبة تكفيه للفوز في رحمة الله والخلود في جنانه كقولهم : نحن أحباء الله ، ولازم المحبوب الفوز برحمة المحب، وكذا من سمّى نفسه أمير المؤمنين ، ولازم

---

(١) المائدة : ١٨ .

(٢) البقرة : ١١١ .

الأمير أن يكون أكثر المؤمنين أعمالاً ، فإذا كان كذلك يكون أكثرهم ثواباً وجزاءً، فهو المقدم في الآخرة عليهم فمن نسب نفسه لشيء وهو كاذب مجازف مخادع فإنّ الله يقول «وكفى به اثماً مبيناً» أي : أنه نسب نفسه لشيء يكفيه عن كل عمل ، فكذلك جعل الله إثمه كافياً عن كل إثم آخر وهو يوجب له العذاب الدائم .

فاعرف أيها المسلم أنّ كلمة أمير المؤمنين كانت مستعملة عند الناس مع ملوك بني امية وبني العباس وهم لا يرون بها بأساً ولا يتحرجون منها ، وأنّ الله قد خصّ بها شخصاً واحداً وهو الذي وصفه النبي صلى الله عليه وآله ، فمن جاء بحديث أو خبر أو رواية أنّ النبي خاطب بها أحداً أو وصف بها شخصاً غير علي بن أبي طالب عليه السلام فليتحفنا بها حتى يتضح لنا الأمر ، ولو أنّ معاوية بن أبي سفيان التفت الى هذا الأمر لأعطى شيئاً من المال الى رواة السوء وأمرهم أن يرووا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال فلان أمير المؤمنين، ولكن الناس خاطبوهم به جزافاً من دون التفات وتعمق في معناه « وكفى به إثماً مبيناً » .

قوله تعالى : ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا (٥١).

إنّ هذه الآية الشريفة كما قيل إنها نزلت في من كان قبلنا من أهل الكتاب حيث إنهم اتصفوا بهذا الفصل وهذا القول ، أي: إيمان بالجبت والطاغوت وحكم باطل وقول زور وكذب بأنّ الكافرين أهدى سبيلاً من المؤمنين .

كذلك قيل : إنها نزلت في جماعة ممن أسلموا ورجعوا الى الجبت والطاغوت بعدما سمعوا آيات الكتاب وسمعوا أحاديث النبي صلى الله عليه وآله.

أمّا بالنسبة لمن كان قبلنا من أهل الكتاب فقد قيل: إنّ كعب بن الأشرف

خرج في سبعين راكباً من اليهود الى مكة بعد وقعة احد ليحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دور قريش فقال أهل مكة لهؤلاء اليهود: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب فلا نأمن من أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما، فسجد كعب للصنمين وآمن بهما.

ثم قال كعب: يا أهل مكة ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت لنجهدن علي قتال محمد، ففعلوا ذلك، فلمّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن اميّون لا نعلم، فأيّنا أهدى طريقاً وأقرب الى الحق نحن أم محمد؟ قال كعب: أعرضوا عليّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكرماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف، ونفكّ العاني، ونصل الرحم، ونعمّر بيت ربنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد، فأنزل الله الآية، هذا بالنسبة الى الامم السالفة[1].

وأمّا بالنسبة الى امّة محمد ﷺ فقد قيل: كان أبو برزة كاهناً في الجاهليه فتنافس إليه ناس ممن أسلم فنزلت الآية[2].

وأمّا الآية فهي عامّة تشمل كل أهل الكتاب الذين تركوا حكم كتابهم وسنّة نبيهم ورجعوا الى من لم يحكم بما أنزل الله المعبّر عنه بالجبت والطاغوت.

فأمّا الجبت والطاغوت فقد قيل: إنهما صنمان لقريش[3].

وقيل: إنّ الجبت صنم، والطاغوت كلما يعبد من دون الله[4].

وقيل: إنّ الجبت الساحر، والطاغوت الشيطان[5].

وقال بعضهم: الجبت السحر، وقيل: الجبت الساحر، والطاغوت الكاهن[6].

(١-٣) مجمع البيان: ج٢ ص٥٩.

(٤-٦) مجمع البيان: ج٢ ص٦٠.

وقيل: إنّ الجبت حي بن أخطب اليهودي، و الطاغوت كعب بن الأشرف، لأنهما حكما أنّ الذين كفروا أهدى من الذين آمنوا سبيلاً[١].

وقيل: إنّ الجبت والطاغوت كلما يعبد أو يطاع من دون الله[٢].

ونحن لايهمنا مانزل في اليهود من الذمّ واللعن وبيان أفعالهم السيئة، وإنما امرنا بمقاطعتهم وحربهم، فإنهم في كل زمان حرب لنا ويلزمنا أن نكون حرباً لهم.

والذي يهمنا من الآية أن لانكون ممن تنطبق عليه، ولانكون ممن ترك الكتاب والسنّة ورجع الى الطاغوت، أي: اتخذ له ولياً لم يأمر الله والرسول باتخاذه ولياً، وهو الذي لم تكن إمارته من الله، ولم تجتمع فيه شروط الامارة من العلم بجميع العلوم و العصمة و كونه أفضل من جميع الناس في كل شيء، وقد ذكرت شروط المرجع العام في قوله تعالى: «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت»[٣].

ونرى كثيراً من الناس يقول في حقّ من يتولاّه من الجاهلين من جميع الجهات: إنه أهدى من المؤمن العالم الكامل في جميع الصفات، فإنه يخالف حكم العقل وصريح الآية والسنّة لأجل هوى نفسه، فيقدم الناقص على الكامل والمفضول على الأفضل حتى يشمله قوله تعالى:

اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً (٥٢).

الاشارة بقوله «اولئك» تكون الى القوم الذين يحكمون أنّ الكافرين أهدى من المؤمنين سبيلاً، الذين يفضّلون الكافرين على المؤمنين، سواء كان الكافر والمؤمن فردين أو جماعتين، فإنّ الذي يفضّل رجلاً كافراً على رجل مؤمن أو رجلاً جاهلاً على رجل عالم بجميع العلوم فإنه يتولى ذلك الذي يفضّله دون الآخر المفضّل

(١و٢) مجمع البيان: ج٣ ص٦٠.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

عليه الذي عنده الأحكام المأمور بها من قبل الله ورسوله، فمن فعل هـذا تتوجه عليه اللعنة من الله وليس له نصير من دون الله.

إنّ كل واحد منّا مكلّف بأن يعرف أفضل الامّـة فيتولاه ، و اذا تركه وتولّى المفضول شملته هذه الآية وعمته اللعنة من الله، فإنّ الانسان مكلّف بنفسه ولا يكفيه أن يتبع ما وجد عليه اباه وجده، بل ينبغي له أن يتبع ما أمر به النبي ﷺ من التمسك بالثقلين، وهو حديث مشهور ليس فيه شكّ ولاشبهة.

إنّ هذا و إن كان كافياً لطالب الرشد و لكن نزيد القارىء تبصرة بما في اسد الغابة لابن الأثير في ترجمة أبي ليلى الغفاري حيث ذكـر حديثاً مسنداً عنه قال : سمعت رسـول الله (ص) يقـول : ستكون بعدي فتنة ، فإذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب ، فإنه أول من يراني ، وأول من يصافحني يوم القيامة، وهو الصدّيق الأكبر، وهو فاروق هذه الامّة، يفرق بين الحقّ والباطل، وهو يعسوب المؤمنين [1] .

ثم إنّ الله ـ بعدما ألفت أنظار الناس الى هؤلاء القوم الذين فضّلوا المشرك على المؤمن، وقدموا المفضول على الأفضل، وتبعوا الجاهل بالعلم والعرفان، وفارقوا صاحب الثروة العلمية وصاحب الدين والسماحة والأخلاق الفاضلة بأجمعها ـ بعد ذلك أعلن للناس أنه وجّه لعنته على هؤلاء القوم بصورة لا يجدون مجالاً للتخلّص منها.

ثم وجّه الله سؤالاً إنكارياً يدلّ على ذمّهم وتوبيخهم، وأنّ حكمهم الذي أصدروه والذي عملوا به وساروا عليه إنما هو ناشىء عن جهل ولم يستند الى حجة، وأنّ الله لم يوجّه السؤال إليهم تحقيراً لهم وبياناً للناس عن ذلّتهم بل وجّه السؤال لكل من يسمع ويعقل فقال تعالى:

أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً (٥٣).

---

(١) اسد الغابة : ج٥ ص٢٨٧ .

أي: أنّ القوم الذين تقدم ذكرهم وهم الذين يفضّلون المفضول على الفاضل فإنهم في غاية الجهل إذ لا يوجد عاقل يقدم على هذا العمل، فهل أنّ الملك الذي هو من المناصب الالهية كالنبوة والامامة والخلافة والرياسة الدينية يملكون شيئاً منها ويكون اختيار الأنبياء وتفضيل الأديان وأهلها بيدهم فيعرفون الأفضل منها و غير الأفضل؟ و لو أنها كانت بيدهم وكانوا يملكون ذلك ما كانوا يعطون أحداً منها مقدار النقير ، و هي النقطة في ظهر النواة، أو ما يؤخذ بالمنقار و هي الحبة الواحدة .

فهؤلاء القوم في غاية الجهل و في غاية البخل، والمؤمن المطيع لله هو الذي يقدم من قدمه الله من ذوي العلم الذين ينفعون الناس بعلومهم و لايبخلون بها على أحد .

أمّا الذي سمع كلام الله وعرف الحقّ من الباطل وميّز بينهما و هو مع ذلك يقول: إنّ المشرك والجاهل أحسن من المؤمن العالم ، فهذا ليس عنده شيء من الايمان و هو يريد أن يتلاعب في الدين ويخدع أهل الدين السذج حتى يخرجهم عن دينهم .

ولمّا كان هذا الأمر معدوماً ـ أي ليس لهم نصيب من الملك و ليس بيدهم شيء من الأمر ـ يكون السبب فيما قالوه و ما فعلوه من تقديم المفضول وترجيح المشرك على المؤمن هو الشقّ الثاني الذي ذكره الله تعالى بقوله:

أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً (٥٤).

بيّن في هذه الآية أنّ سبب ذلك الحكم ـ الأخرق المشوه الذي لا يقبله طفل ولا مجنون بل لا تقبله طفلة مجنونة يهودية وهوالحكم بأنّ المشرك أحسن

من المؤمن هدايةً وطريقاً، وأنّ الجاهل بكل شيء أولى بالاتباع من العالم بكل شيء، فإنّ هذا الحكم لا تقبله حتى البهائم، أنّ السبب الوحيد في هذا الحكم- هو الحسد لمن أعطاه الله من فضله.

والمقصود من الفضل في قوله **«أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»** هو الكتاب والحكمة وليس المقصود منه الأموال الدنيوية، فإنّ المال وإن كان هو أهمّ الأشياء وأفضلها عند اليهود وعند من لم يقدر العلم، ولكنه عند الله هو الذي يقرب عباده إليه من العلم والحكمة.

ويدلّ على كون المقصود من الفضل ماذكر في الجملة التي بعد هذه الجملة من الآية وهي قوله تعالى: **«فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً»**.

فإنّ الله قد أعرض عن خطاب هؤلاء الذين قرروا الحكم الجنوني إذ ليس لهم لياقة للخطاب، فإنّ الذي يصلح للخطاب هو الذي يعقل الخطاب، وهؤلاء بعد حكمهم بغير المعقول صاروا بمنزلة ما لا يعقل.

وقد وجّه الله الخطاب لذوي العقول من الناس وعرفهم بأنّ هؤلاء القوم ظنوا أنهم بفعلهم هذا -وهو تفضيل الكافر على المؤمن وترجيح الجاهل على العالم- سوف يسبب للناس الضلال والارتداد عن الدين، ويسبب الزوال والانقطاع لهذا الفضل من الله.

وبعبارة أوضح: أنّ اليهود حسدوا النبي ﷺ حيث إنه سبب انتقال النبوة من بني إسرائيل الى قريش، وبعض العرب حسدوا آل النبي عليهم السلام حيث إنه -أي النبي ﷺ- أمر الامّة بالرجوع إليهم وجعلهم عدلاً للقرآن كما ورد في حديث الثقلين، ففضّل اليهود الكافرين على المؤمنين حسداً منهم للنبي ﷺ، وفضّل بعض المسلمين المفضول على الفاضل حسداً منهم لآل النبي عليهم السلام وقالوا: لا تكون النبوة والامامة في بيت واحد قولاً بلا حجة ولا دليل.

وقول اليهود يرجع الى تفضيل المفضول على الفاضل ، وأنّ المقصود من الناس المحسودين في الآية هو النبي وآله ﷺ حيث إنّ الله اصطفاهم وفضّلهم على العالمين، وإنّ هؤلاء القوم الذين حسدوهم ظنوا أنّ قولهم السخيف وتفضيلهم الجاهل على العالم والمشرك على المؤمن ظنوا أنّ قولهم يكون له الأثر الكبير ويسبب رجوع الناس الى الكفر ، فإذا رجع الناس كلهم الى الكفر تبطل نبوة محمد بزعم اليهود وإمامة آل محمد بزعم الحاسدين من العرب .

لكن الله قد أبان عن خيبة أملهم وسخافة ظنهم ونقصان عقولهم بقوله تعالى «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» أي: أنّ الله قد أراد وقضى وحتم أن يعطي آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم ، وآل إبراهيم الماضين والحاضرين والأولين والآخرين ، فمن الأولين الماضين إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم، ومن آل إبراهيم الآخرين الحاضرين محمد وآله، فقد آتاهم الله الكتاب والنبوة والحكمة، وهي أسرار الأحكام والملك العظيم وهو القضاء الحقيقي والامامة إماماً بعد إمام لا انقطاع لها .

روى العياشي عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» أنه قال : فنحن المحسودون على ما آتانا الله من الامامة دون خلق الله جميعاً، وقوله : «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» يقول : فجعلنا منهم الرسل والأنبياء والأئمة فكيف يقرون بذلك في آل إبراهيم وتنكرونه في آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال : قلت : قوله في آل إبراهيم : «وآتيناهم ملكاً عظيماً» ما الملك العظيم ؟ قال: أن جعل منهم أئمة، من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم [1] .

تمّ الجزء الأول من الكتاب وسيليه إن شاءالله الجزء الثاني منه ـ حسب تجزئة المؤسّسة ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) تفسير العياشي : ج١ ص٢٤٦ .

- فهرس الاحاديث
- فهرس المحتويات

فهرس الاحاديث

ـ أ ـ

- س -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- ن -

- هـ -

فهرس المحتويات

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

تصحيح واعتذار

رغم الجهود التى بذلناها فى التصحيح لكى يصدر الكتاب خال من الاخطاء المطبعية فانا لم نوفق لذالك لذا نرجو من القارىء الكريم أن يتفضل بتصحيح الاخطاء المذكورة أدناه قبل البدء بالمطالعة راجين منه السماح ، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

ص	س	الخطأ	الصواب
٣٠	١	بأجركم	يأجركم
٣٦	حاشية(١)	ص٧٤	ص٧٦
٧٢	حاشية(١)	ص٧٤	ص٧٦
٨٧	٩	ناس	الناس
١٣٠	حاشية(٢)	ب١ ٥٩	ب١ ح٥
١٤٩	٢٠	٢٥٧	٢٥٦
١٥٦	٨	ضلال	ظلال
٢٠٤	١٧	واثلة بن الاسفع	واثلة بن الاسقع
٢٧٣	٧	سمت	سمعت
٢٨٣	١٣	وللّا	والله
٢٨٩	١٣	ليست	لست
٣٣٢	١٩	خسمأ	خمساً
٣٧٦	٢١	أن	زائدة
٣٩٥	١٤	فصارو	فصاروا
٤٤١	عنوان الصفحة	تقسير	تفسير

تنبيهات أربع

١- راجع عناوين الصفحات التالية : ١٥١ و١٥٣ و١٥٥ و١٥٧ و١٥٩ و١٦١ و١٦٣ و١٦٥ تجد أن رقم الاية ٢٥٧ والصحيح هو ٢٥٦ .

٢- راجع هامش رقم (٥) من الصفحة ٣٢٨ قد وقع اشتباه فيه والصحيح هو: بحار الانوار ج٥٢ ص٣٥٠ ب ٢٧ ح ١٠٣

٣- راجع عنوان الصفحة ٣٨٧ تجد أن رقم الاية ٧ والصحيح هو ٧٢ .

٤- أرقام الصفحات ٥٨٠ و ٥٨١ و ٥٨٢ طبعت اشتباهاً بالارقام ٦١٤ و ٦١٥ و٦١٦ يرجى تصحيحها .